الادب فى العصر الفاطمى

- ٢ -

الشعر والشعراء

دكتور
محمد زغلول سلام

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

حال الشعر والشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الشعر :

يبدأ العصر الفاطمى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وهو القرن الذى ارتقى فيه الأدب العربى عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبى الطيب المتنبى والشريف الرضى ومهيار الديلمى والصنوبرى وأبى العلاء المعرى من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب ابن هانىء وغيره من شعراء الأندلس .

وفضلاً عمن خرج فى هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبى هلال الصابى ، وأبى حيان التوحيدى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمذانى ، والخوارزمى ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى هلال العسكرى والحاتمى .

وما تلا ذلك من القرنين الخامس والسادس كان امتداداً للقرن الرابع وما أفرزه فى ميادين الحضارة والفكر والأدب . وإن اختلفت الدرجة ، وتغيرت الملامح تبعا لتغير ظروف العصر .

وكان للشعر فى القرنين الخامس والسادس دورُه الكبير فى الحياة الأدبية وإن نافسته الكتابة وحاولت أن تتقدم عليه ، وتدفع به إلى مكانة متأخرة ، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأى العام الأدبى ، بابداعهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم ، على غير الحال فى القرون السابقة . ولهذا لم نجد اسما بارزاً فى هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التى احتلها المتنبى مثلاً فى القرن الرابع ولا أبو تمام والبحترى وإبن الرومى فى القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبى العلاء المعرى .

ومن هنا كان الشعراء فى هذين القرنين من الطبقة الوسطى فى فنهم الشعرى ومكانتهم الإبداعية . كان ذلك لأسباب كثيرة .

وظهر فى هذين القرنين طبقات من الشعراء غير « المحترفين » — إذا صح هذا التعبير — لم يتكسبوا بالشعر، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب، ومن بين غير المحترفين جماعة من الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة ، وألحقوا هذا

النظم بكتاباتهم فاختلط فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التى عمت من بعد واتبعها الكتاب فى العصور التالية .

وكانت الدولة الفاطمية فى مصر ، وقد حكمت خلال القرون الثلاثة ما يقرب من مائتى عام — قد اهتمت بالشعر والشعراء اهتماماً فاق اهتمام الولاة والحكام السابقين فى عهد الطولونيين والإخشيديين ، حتى إن عدد الشعراء الذين قيل إنهم وقفوا على قبر أحد وزرائهم لرثائه وهو ابن كلس بلغ مائة شاعر[1] .

وشجع الفاطميون الشعر والشعراء لأنّ خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقولونه. وقد رويت أشعار لمعظمهم، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس ، والأفضل بن بدر الجمالى ، والصالح طلائع بن رزّيك ، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء، إلى توافد الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة ، والقضاة . وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء . ورتبت الدولة لهم ديوانا جعلوا عليةِ قيّماً . وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضربا من الخدمة التى يتقدم بها الشعراء لساحتهم ، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك . ولم تكن مناسبة من المناسبات دينية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد العامة كعيد وفاء النيل أو كسر الخليج والنيروز، وما إليها تمر دون أن يقول الشعراء فيها. وقد خصص الخليفة الآمر فى أحد مناظرة طاقاتٍ بأسماء الشعراء فى خدمته منها يأخذون الجائزة المقررة وعليها صور كل منهم[2] .

ولما جاء الأفضل إلى الوزارة أجزل للشعراء الجائزة وفق ما يسمع منه فيطربه . قال المقريزى : « فإن جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية .. ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستجاشه للشعر من الشعراء منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة » .

ومما دعا إلى ازدهار الشعر أن القائمين على شئون البلاد اتخذوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية . وكانوا يشجعون الشعراء فى مدائحهم على الحديث عن

---

(١) الخطط ٢ /٨ .

(٢) روى المقريزى أنهم كانو يُجْرونَ لبعض الشعراء رواتب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، الخطط ٢ /٢٤٣ وراجع ١ /٤٨٦ .

المذهب وأصول الدعوة الفاطمية ، وعقائدهم فى الأئمة والعلم الباطن ، وكما يتحدثون عن حقهم السياسى فى الخلافة .

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فإغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التى جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الأكثر من الإنشاء ، فكثر الشعراء وكثر انتاجهم[1] .

ويقول أحمد أمين[2] « وفى الحق أن الشعر فى العهد الفاطمى فى مصر كان أول شعر مصرى قيّم من عهد فتح العرب لمصر ، إذ كان قبل ذلك ليس له قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج ، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية ، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد » .

وشعراء العصر لم يكن لهم استقلال فى مواردهم المالية ، أو موارد العيش غالبا ، وإنما كان معظمهم يتكسب من الشعر ، ولهذا كان الشعراء يلجأون إلى كسب ود ذوى النفوذ والأمر .

ومن هنا كنا نرى بين شعراء العصر من يبذل نفسه لأجل نيل الحظوة عند هذا أو ذاك من الخلفاء والوزراء والأمراء ، على أساس أن المديح وقول الشعر بين يدى فلان أو فلان كان حرفتهم التى يرتزقون منها .

واتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان ، فضلا عن الدعاية السياسية التى أشرنا إليها . وكان مثلهم فى ذلك مثل ما تضم مجالسهم من ألوان الترف ، وما يجمعون من أسباب النعيم ، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية ، يبذلون لهم ما يريدون كى يرضوا نزعاتهم ، ويشبعوا رغباتهم ، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقهم وشطحاتهم .

ونجد فى هذا العصر ـــ لا فى مصر وحدها ـــ بل فى سائر بلاد العرب والمسلمين ودولهم شرقا وغربا ـــ شعراء يغدون على قصور السادة ، ويذّلون لهم ـــ وينفذون ما يطلبون منهم ، وتنقلب بهم الأهواء ، فيتقلّبون بتقلبهم معهم ، ونسمع كثيرا عن شعراء يمدحون أناسا ، ويعودون فيذمُّونهم ، ثم يمدحون آخرين أعداء

(١) محمد كامل حسين فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٥٩ .
(٢) ظهر الإسلام ١ /٢٠٥ .

لهم . والعكس ، قد يكون عدوًّا فى عصر يهجونه فيعودون لمدحه لأنّ المنفعة تملى عليهم وَحْى الشعر ونظمه .

يقول الدكتور باغى عن شعراء القيروان فى العصر نفسه[1] :

« والثراء الرخى أو التّرف المثرى يدفع بذويه إلى صنوف كثيرة من الفراغ اللاهى حين يتاح لهم أن يخلدوا إلى الفراغ ، فلم يكن يجد المعز (بن باديس) مضيعة للوقت فى أن يعقد مجلسا ويستدعى شعراء ، لا لشىء إلا لينظموا فى وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنف من الفاكهة . ومازال يحول بين السلطان ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن إلى الفراغ ، ولهوه حين يطلب اللهو ، ولذته حين يطلب اللذة ؟ وهو الذى سخر الشعر فى شئونه السياسية وجعل من الشعراء ألسنة تلهج بالمدح الذى يجد فيه متاعا ، وبما يصلح أن يسليه حين تنزل به نازلة أو تصيبة كارثة .

وقد كاد السلطان أن يجعل الشعراء لا يحيُّون إلا له ، ولا يقولون إلا فيه ، ولا يعبرون إلا عمَّا يدور بخلده » .

فكان الشعراء إذا بعض حاشية السلطان ، لا يرضيه أن يتجه الشاعر بالخدمة إلى غيره ، وهذا ما حدث لابن مكنسة الشاعر المصرى فى عصر الأفضل بن بدر الجمالى أيام الخليفة المستعلى .

فقد ذكر أن ابن مكنسة لم ينل الحظوة لدى الأفضل لأنه مدح أحد الرجال العاملين بمصر وهو أبو مليح جد الأسعد بن مماتى الشاعر المشهور ، وكان أبو مليح هَذا من كبار موظفى الدولة الفاطمية ، وكان نصرانيا . وأكثر فيه المديح ، وقصر شعره عليه قبل الإتصال بالأفضل ، قال أمية : « فلما أنتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مديحه لأبى مليح ، ولاسيما قوله فيه :

طَوِيتْ سماءُ المكرما ... تِ وكوِّرت شمسُ المديحْ
ما كان بالنِّكْسِ الدِّنِـ ... ـيِّ من الرِّجالِ ولا الشَّحِيحْ[2]

---

(١) حياة القيروان ، ص ٧٩ .

(٢) الرسالة المصرية .

ويبدو أن الأفضل استكثر أن يمدح ابنُ مكنسة غيرَه بهذا القول ، لما مكن من نفسه فى الدولة ، فعال الحاكم الآمر ، ولم يكن معقبٌ على قوله ، حجب الخليفتين المستعين والآمر .

ومع ذلك فقد كان الأفضل يجمع فى مجلسه كثيرا من الشعراء ، وكان يفد إليه الشعراء من المشرق والمغرب . قصده بن جَيُّوس من الشام ، وأميةَ بن أبى الصلت من الأندلس وغيرهما كثيرون .

يقول المقريزى(١) : « وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداحٌ كثيرة ، مدحة ظافر الحداد وأمية بنُ أبى الصلب وغيرهما » .

وعرف كثير من رجال الدولة الفاطمية بتشجيع الشعراء وتقريبهم ، وإجزال العطاء لهم مثل مكين الدّولة ابن أبى الحديد قاضى الإسكندرية أيام الآمر .

وكان الوزير الخطير والشاعر الأديب طلائع بن رزّيك يعقد فى منزله مجلسا فى ليالى الجُمع ، يجمع بعض جلسائه من المقربين من الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويضم هذا المجلس كثيرا من الشعراء المصريين وغيرهم كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى والقاضى الجليس ، وأسامة بن منقذ ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلى .

---

(١) الخطط ١ /٤٨٥ .

موضوعات الشعر

وخاض الشعر فى كثير من قضايا العصر ومشكلاته واهتمامات الدولة فضلا عن الموضوعات السائدة والتقليدية من مديح وغزل ورثاء وهجاء ووصف ، كما كثر فى هذا العصر حديث الشعراء عن صور مباهج الطبيعة ، وزينة الحياة ومسراتها من منازة وأعياد ، ووصف للروض والزهر ، والغناء وآلاته ، والموسيقى والرقص ، وألوان المتعة .

وأول ما نعرض له حديث الشعراء عن الدعوة الفاطمية ، وما تناولوه فى هذا الحديث من معان وتردد كثيرا فى أشعار الدعاة وبعض شعر المديح لقادتهم وخلفائهم . وبعض هذه المعانى تكثر فى شعر ابن هانىء الأندلسي فى مدائحه للخليفة المعز لدين الله قبل مجيئه إلى مصر .

فإلى جانب الصفات العامة فى المديح التى مدح بها ابن هانىء المعز لدين الله « نجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التى خلعها الفاطميون على أئمتهم فقد سمي المعز (وصى الأوصياء) » :

نَوَّمٌ وَصيٌّ الأوصياء ودُونه صُدورُ القنَا والمُرْهَفَاتُ البَواتِكُ

وقد ذهب فى هذا الشعر مذهبه الشعريَّ فى المبالغة ـــ وكذلك قوله :

رأى أن سيُسَمِي مالك الأرض كلها فلما رآه قال : ذا الصَّمد الوتر

وأرجح أنه لم يأت بلفظ الوتر إلا للقافية ، ولو لم تكن القافية أتى بلفظ القرآن « الأحد الصمد » .

وكذلك وصَفَ الإمام المعز بصفات الله تعالى التى وصف بها نفسه فى القرآن كقوله :

ما شئتَ لا ما شاءتْ الأقدارُ فأحكُمْ فأنتَ الواحِدُ القهّار(١)

ويقول الدكتور محمد كامل حسين : « قد يكون لابن هانىء بعض الأعذار فى أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات ، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه

(١) الدكتور محمد كامل حسين ـــ ديوان داعى الدعاة ، ص ١٦٠ ، طبع دار الكتاب .

الصفات عن الله تعالى ، وقالوا أنها صفات المبدع الأول الذى هو ممثول الإمام ، وهذا مدح ابن هانىء إمامه بصفات المبدع الأوّل الباطنية »[1] .

وذكر ابن هانىء كثيرا من المعانى الفاطمية ومصطلحاتهم الباطنية التى جرت بها تأويلاتهم وعقائدهم ، كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره ، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، وأن الدنيا خلقت للإمام ، كما خلق الجسم للنفس ، وأنه معصوم إلى غير ذلك من الأقاويل[2] .

وقد نهض بالحديث عن تلك المعانى والتبشير بها فى الشعر جماعة من شعراء الدعوة وبخاصة « داعى الدعاة المؤيد شمس الدين »[3] .

واهتم شعراء الفاطميين فى مدائحهم للخلفاء والقادة بإبراز جهادهم ضد أعداء الإسلام والملة من خوارج ، وروم وفرنجة ، وكان للعداء بين العباسيين والفاطميين دور كبير فى هذا الجدل الشعرى السياسى والدينى . يقول تميم ابن المعز ، وهو يرد على ابن المعتز فى ادعائه حق العباسيين فى الخلافة ووراثة النبى فى قيادةِ الأمّةِ وهدايتها :

أىّ رسْمٍ لآلِ هندٍ ودارِ   درسًا غيرَ ملعب ومنَارِ

يقول فيها ذاكراً الخليفةَ العزيز بالله أخاه :

هاشمىٌّ إذا نسبْت ومخصو   صٌ ببيْتٍ من هاشمٍ غير عار
أحْرَلَ الغيظَ فى قلوبِ الأعادِى   وأحَلَّ الجَبَّارَ دارَ الصّغَار

ويقول مخاطبا العباسيين :

يابَنى هاشمٍ ولسْنَا سوَاءً   فى صِغارٍ من العُلا وكِبَارِ
إن نكُنْ ننتمى لجدّ فإنا   قد سبقْناكُمْ لكلّ فخَارِ
ليس عبَّاسُكم كمثْلِ علىّ   هل تُقَاسُ النُجُومُ بالأقْمَارِ

وركز شعراء الفاطميين على وصاية على ، وهللوا واكثروا من الحديث عن يوم « غدير خُمّ » الذى يعتقدون أن النبى ﷺ أوصى فيه لعلى رضى الله عنه ،

---

(١) دوان داعى الدعاو ، ص ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه وراجع له كتاب أدب مصر الفاطمية .
(٣) سيرد الحديث عنه بعد .

وجعله من بعده إماما ولكن أبا بكر وعمر اغتصبا حقه — فيما يدّعون — وأشادوا بفضل يوم « غدير خُم » فجعلوه عيدا كما ذكرنا وقللوا من شأن العباس ، وأشاروا إلى أنه لم يكن سابقا إلى الإسلام كعلى ، بل جاء إسلامه متأخرا رغم ما أشاع العباسيون من فضله ودوره .

ولا نريد الخوض فى تفصيلات موضوعات هذا الشعر ، فقد سبق إلى تفضيل الحديث فيه غيرنا .

ومن موضوعات شعر المديح للأئمة الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادتهم موضوع الجهاد والحروب ، فترى ابن هانىء يشيد بحروب المعز لدين الله فى أفريقيا ضد أعدائه حتى دانت له البلاد ، كما أشاد بحربه مع الروم ومناوئيه من الأمويين ملوك الأندلس .

وكذا فعل تميم بن المعز فى مديحه لأبيه وأخيه بمصر . يقول فى أخيه العزيز مشيرا إلى تصديه لحرب الخوارج والثائرين بالشام من الأتراك والحمدانيين والقرامطة(١) :

نهضتَ بها إذ أعجزتْ كلّ ناهض ... ومزنَ رداها ينْهمى ويصُوبُ
وقد خلّلَتْ أرضَ الشّآمِ وقائعاً ... قبائلَ منْ مُرّاقِها وشعوبُ

ويقول فيها :

وما حاربتْكَ التُركُ إلاّ وبينَها ... وبينَ البُهدَى والمكرُماتِ حُروبُ
وما جحدُوا الحَقَّ الّذِى لكَ فضْلُه ... ولكنْ بهم عنهُ عَمًى وهُرُوبُ .
وإنْ يُصبِحُوا تُركاً ورُنجاً ودَيْلَماً ... فأنتَ إمَامٌ للنَّبِى نَسِيبُ

وعارض تميم ابن المعتز فى القصيدة التى يدعم فيها حق العباسيين فى الخلافة ويقول مطلعها(٢) :

إلا مَنْ لنفسى وأوصابها ... ومن لدموعى وتسكابها

فيقول :

(١) ديوانه ص ٥٤ .
(٢) ديوان ابن المعتز .

أَلا قل لمن ضلَّ من هاشمٍ وَرامَ اللّحاقَ بأربابِهـا
أأوسَاطُها مثلَ أطرافِهـا أأروُسُها مثلَ أذنابِهـا
وأولُهـا مؤمنـا بالإلـه وأولَ هادِم أنصَابِهـا
بَنى هاشمٍ قد تعاميتُمُ فخلّوا المعالى لأصْحابها
أعبَّاسُكَم كَان سيفَ النبىِ إذا أبدَت الحربُ عن نَابها
أعبَّاسُكَمْ كانَ فى بدْرِهِ يذُودُ الكتَائِبَ عن غَابِها
أعبَّاسُكَم قاتلَ المشركـ ـين جهاداً ومالكُ أسْلابِها
أعبَّاسُكَم كوصِىِ النبىِّ ومُعطى الرّغابَ لطلّابِها
أعبَّاسُكَم شرَحَ المشكِلا تِ وفتّح مُقفَلَ أبوَابِها
عَجبْتُ لمرتكِبٍ بَغْيَـهُ غوِىِّ المقَالـةِ كذَّابِهـا
يقولُ فينظِمُ زورَ الكلا مِ ، ويُحْكِمُ تنْمِيقَ أذهابِها
(لكمْ حُرمةٌ يابنى بنتِه ولكن بنو العمّ أولَى بها)
وكيفَ يجُوزُ سهامَ البنِينِ بنو العَمِّ ، أنّى لغُصّابِها
بذا أنزلَ اللهُ آىَ القرْآنِ أتعْمُونَ عن نَصِّ إسْهابِها
لقد حَارفَ القولَ عبدُ الإلـ ـه ثم وقاسَ المطَايا بُركَابِهَا[1]

ويشير الشعراء إلى تخاذل العباسيين أمام أعداء الأمة الإسلامية ، وانصرافهم إلى ضروب اللهو والعبث ، بينما الأعداء يتكالبون عليها من كل جانب على عكس الفاطميين الذين نذروا أنفسهم للجهاد ، والتصدى للخارجين فى كل مكان .

ويصور تميم بطولة العزيز فى ميدان القتال ومناجزة الأعداء فيقول[2] :

بدا لهُم دارعاً فى العجَاجِ كصبْحٍ بدَا طَالِعاً من دُجَى
يكرّ ويبسِمُ فى مَوقِفٍ عُبوسَ الكُمَاةِ به قدْ بَدَا
ولم يخذُلِ السيفَ منه يَدًا ولم يَسْكُنِ الرَّوْعُ منه حَشَا
يقودُ إلى الحرْبِ من جُنْدِهِ أسودُ رِجَالٍ كأسْدِ الشَّرى

ويقول فى مناسبة أحد الإنتصارات بالشام مفتخرا :

(١) يقصد بعبد الاله عبد الله بن المعتز .
(٢) ديوانه ص ١٠ .

وإنّا لقومٌ نُروعُ الزّمانَ ولسنّا نُراعُ إذا ما سَطَا
ومنّا الإمامُ العزيزُ الّذى به عادَ سيفُ الهُدَى مُنْتَضَى
سعى للشّامِ وقد أصبَحَتْ بها الحرْبُ نزّاعةً للشَّوَى
ولما تقابلَت الجحْفَلاتُ وعادَ كجنحِ الظّلامِ الضُّحَى
ولم يبقَ فى الصفّ من قائلٍ هلُمَّ ولا من مُجيبٍ أنا

ويقول ذاكرا العزيز ومنددا بالبويهيين حكام بغداد (١) :

أريتهُمُ وقعَاتٍ تَزيدُ على وقعاتِ الدُّهُورِ الأُلى
ببغدادَ من ذكرها جولةٌ تَذُودُ عن المارقين الكرَى
فأنفسُ ديْلَمِها تغْتدِى وتُمسِى على مثلِ جَمْرِ الغَضَا
إذا سمِعُوا بالإمامِ العَزيزِ أساءُوا الظّنُونَ وحَلّوا الحِبَا
يخافون من بأسه وقعةً تَدُورُ عليهم بِقُطْبِ الرّحا
ينادى بُوَيْهُ بنيه بها ويندُبهُمْ وهو رهْنُ البِلاَ
وقد قَرُبَ الوقتُ فليأذَنُوا بوشْكِ الزّوالِ وسُوءِ القَضَا

وكذا يتكرر هذا المعنى ، فى مديح الشعراء للخلفاء الفاطميين وهذا داعى الدعاة شمس الدين وقد جاء بعد تميم بن المعز بأكثر من نصف قرن من بلاد فارس ليمدح الخليفة المستنصر بالله ، ويدور فى مديحه حول معانى ابن هانىء وتميم بن المعز ، وإن أمعن فى ذكر عناصر العقيدة وبيان مكان الأئمة من الأمة ، ووجوب الطاعة على الرعية ، وضلال المخالفين المعاندين ممن ينكرون دعوتهم .

ومن ذلك قوله بولاية الفاطميين (٢) :

وهمْ أولوا الأمر أئمة الهُدَى عصمةَ من لاذَ بهم من الرَّدَى
مفروضةٌ طاعَتُهمْ على الأمَمْ قاطِبةً من عربٍ ومن عَجَمْ
إقرأ أطيعُوا اللهَ والرسُولا ثم أولى الأمرِ بهم موصولا
ثلاث بطاعاتٍ غدَتْ مَعلومَةً فى آيةٍ واحدةٍ منظومة

وهو ترجمة لقول المعز لدين الله : « إنّ الله قد فضّلنا وشرّفنا واختصّنا واصطفانا وافترض طاعتنا على جميع خلقه ، وجعلنا أئمة على جميع عباده » .

(١) ديوانه ص ١٠١ .
(٢) ديوان داعى الدعاة ص ٧١ .

ومنه تأويل بعض آى القرآن لصالح عِتْرةِ النبى ﷺ كتأويلهم النجوم بأنهم أهله فى قوله تعالى : (فلا أُقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم)(١) . فقال المؤيد بذلك فى شعره(٢) :

وبه فى القرآن قد أقسم اللـ ـــه ، وحقٌّ بمثله الأقسامُ
إنّ معنى مواقع الأنجم الزُّهْـ ـــر ، همُ العِتْرةُ الهداةُ الكرامُ

موضوعات الشعر التقليدية :

وطبيعى أن تظل موضوعات الشعر التقليدية مجالا لقرائح الشعراء ، ويظل المديح على رأس تلك الموضوعات كثرة ، واهتماما من الشعراء ، لأن المحترفين منهم خاصة كانوا يعتمدون عليه لكسب أرزاقهم .

ومن هنا كان مديح التكسب أول درجات المديح ، وأعمه بين شعراء العصر وكل العصور المتعاقبة ، ومن بعده مديح التملق والقربى من الرؤساء ابتغاء الرضا والقبول ، ومنه مديح الصداقة والعلاقة بين الأدباء أو مديح الوفاء والرجاء .

وعلى رأس من مدحهم الشعراء خلفاء الفاطميين ، وكانوا يفهمون الشعر ويتذوقونه ويجزون عليه الجوائز السنية .

ومديح الخلفاء تدور معانيه حول معانى الإمامة الدينية ، وأحقيتهم فى وراثة النبى ، ومن بعد هذه المعانى الخاصة ، تأتى المعانى العامة التى اعتادها الشعراء فى المديح من الصفات الأخلاقية ، والسداد ، وحفظ الرعية ، والدفاع عن حوزة المسلمين وحماهم ، ومناصرة الدين والعمل على مُنافحة أعدائه ، والعدل فى الرعية ورعاية شئونهم ، وتوفير أسباب الطمأنينة لهم .

ومما خصَّ به خلفاء الفاطميين من معانى المديح بلاغة المنطق ، وإجادة الخطب كإشارة تميم بن المعزّ فى مديح أخيه العزيز بالله ، بقوله :

---

(١) سورة الواقعة آية ٦٥ــ٧٦ .
(٢) ديوانه ص ٧٦ .

وقمتَ بهم فى مِنبرِ المُـنكِ خاطِبـاً   بما لم يقم مَلكٌ سِواكَ فيخطُبُ
وأفصَحْتَ حتى ليس إلاكَ مُفصِحٌ   وأسهَبْتَ حتَّى ليسَ إلاّكَ مُسْهِبُ
تُبشِّرُ طوراً بالإلهِ وتـارةً   تخوّف من عصيانِه وتُرَهِّبُ
بياناً ووعْظاً قد تَناهيْتَ فيهما   كأنَّكَ لم يسْبقْكَ قَسٌّ ويَعْرُبُ
وأثبتَّ فى الأسماع برهانَ حِكْمةٍ   يُقصِّرُ فيها من يقول فيُطنِبُ
لأنكَ فى بحرِ البلاغة مُعْرِقٌ   وفى باحَتَىْ أرْضِ النُّبوَّةِ مُنْجِبُ

ويركز تميم فى مديحه لأخيه الخليفة على عروبته ، وأنه يتصدى لغير العرب من الزنج والترك والديلم الذين كادوا للإسلام وأضروا بما ارتكبوه من فتن وثورات . يقول :

وما حارَبَتْكَ التركُ إلاَّ وبينَها   وبينَ الهُدَى والمكْرماتِ حُرُوبُ
وما جَحدُوا الحَقَّ الّذى لكَ فضلُه   ولكنْ بهم عنهُ عمًى وهُرُوب
فإن يصبحوا تركًا وزنجا وديلما   فأنت إمام للنبى نسيب

ومدح الشعراء كبار الدولة ، وقادة جندها ووزراءها .

وكان يعقوب بن كلس من الممدحين ، مدحه كثير من شعراء العصر ، يقول أبو الرقعمق :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر   ض عدوا إلا وأخمَدَ نارَهْ
ولهذا اجتباه دونَ سِواهُ   واصْطَفاهُ لنَفْسِه واخْتَـارَهْ
لم تُشيِّد له الوَزارَةَ مجْداً   لا ولا قبلَ رفَعتْ مِقْدارهْ
بل كساهَا وقد تَخرَّمها الدَّهْـ   ـرُ وكدُّ الخُطوبِ بالبَذْلِ غارَهْ
هكذا كلّ فاضلٍ : يدٌ تُمسِـ   ـى وتُضْحِى نفّاعَةً ضرّارَهْ
فاستجره فليس يأمنُ إلاّ   من تفيّأ بِظلّهِ واستَجارَهْ

ومن موضوعاته التقليدية الهجاء ، وتناول الشعراء بألسنتهم رجال الدولة الكبار وبعض الموظفين ، والقائمين بأعمال إدارية كالقائمين على تحصيل المكوس الخاسين وغيرهم . كما تهاجى بعض الشعراء . من ذلك هجاء الشاعر عبد الودود القرطبى فى ابن قادوس الدمياطى(١) :

---

(١) خريدة القصر ١ /٤١٥ بتحقيق عمر الدسوقى .

تسلّ فللأيام بشر وتعبيسٌ فلا النُّعْمَى تدومُ ولا البُؤْسُ

وهى قصيدة طويلة يقول فيها :

وقالوا ابنُ قادوس تقدَّس اسمُه ومـــن هو قادوسٌ، فلا كانَ قادُوسُ
أيا من غدا ضدا لِكُلِّ فضيلةٍ ونجمُه فى طالِعِ السَّعدِ منكوسُ

ويعدُّ الواسانى من أشهر الشعراء الهجائيين فى العصر . وهو شامى يشبه فى هجائه ابن الرومى لكثرة تعريضه بالعورات ، فقد هجا الوزير المصرى منشًا الذى عينه الخليفة العزيز بالله مَسْئُولاً عن أعمال دمشق والشام فضايَقَ الناس . وكان منشا هذا يهوديا ، كرهه أهل الشام وناوأوه حتى اضطر العزيز إلى عزله ، قال الواسانى(١) :

إن مِنشًا قد زادَ فى التِّيهِ وزادَ فى شَامِنَا تعدِّيهِ
فلا ابنُ هندٍ ، ولا ابنُ ذى يَزنٍ ولا ابنُ ماءِ السَّما يُدانِيهِ
وهو مغيظٌ على الوصىّ ومَنْ يُعزَى إليهِ ومَنْ يُوالِيهِ
يُذكِّرُ أيامَ خيبَرٍ بِهِمُ وهَمْ قد جالَ فى مآقيه

وهجا بعضهم القضاة لجورهم فى الأحكام أو ميلهم مع الهوى ، أو تقاضيهم الرشوة . قال أبو الشرف الدجرجاوى(٢) :

قاضٍ إذا انفصَلَ الخصْمانِ ردَّهما إلى الخصام بحُكمٍ غيرِ مُنفَصِلِ
يُبدِى الزهادةَ فى الدنيا وزُخرفِها جهراً ويقبلُ سرًّا بعرةَ الجَمَلِ
مُهلِّلُ الدَّهرِ لا فى وقتِ هَيْلَلَةٍ ويلزمُ الصَّمتَ وقتَ القوْلِ والعَمَلِ
وما أسمِّيهِ لكنّى نعتُّ لكم نعتاً أدُلّكمْ فيهِ على الرَّجُلِ .

ومن الشعراء الهجائيين الحسين بن بشر(٣) :

واكثر من هجاء الوزير يعقوب بن كلّس ، وعرَّضَ برفع العزيز للنصارى وأهل الكتاب بمشورة وزيره . يقول :

---

(١) يتيمة الدهر ١ /٤١١ .
(٢) الخريدة ٢ /٦٦ (قسم شعراء مصر) .
(٣) الوافى بالوفيات ١٢ /٣٤٣ .

تنصّرْ فالتنصّرُ دينُ حَقٍّ ... عليه زمانُنا هذا يدلّ
فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا الـ ... ـعزيزُ ابنٌ، وروح القدسِ فضْل

الوصــــف :

والوصف هو أقرب موضوعات الشعر إلى الفن ، وإلى روح الشعر .

ففيه تتجلى أحاسيس الشاعر ، ومواقفه من الأشياء ، وتذوقه لمجالى الجمال فى الطبيعة .

وحظيت بعض منارة القاهرة ومعالمها ، بل معالم مصر شمالا وجنوبا ومشاهد الطبيعة ، وعناصر حسنها وبدائعها بقدر كبير من اهتمام الشعراء ، وتجليات قرائحهم .

يأتى النيل ومناظره ، وشواطئه ، ومهرجان وفائه وكسر الخليج فى مقدمتها . قال تميم بن المعز(١) :

نظرتُ إلى النّيل فى مدّه ... بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ
كأنّ معاطفَ أمواجِهِ ... معاطفُ جاريةٍ ترقصُ

ويقول(٢) :

يومٌ لنا بالنّيلِ مختصرٌ ... ولكلّ يومِ مسرّةٍ قِصرُ
والسفْنُ تصعدُ كالخُيولِ بنا ... فى مَوْجِهِ والماءُ ، ينحدِرُ
فكأنّما أمواجُه عُكَنٌ ... وكأنّما داراتُه سُرَرُ

وجدير بالملاحظة احساس المتعة فى شعر تميم ، وربطه لذة المتعة بالنيل بلذة النساءِ فى مجاليها ، فيشبه موج النيل بمعاطف الجارية الراقصة وبجسد المرأة عارية ، وما يجتذب مرأى الرجل فيه من متعة حِسٍّ ؛ عكن وسُرر .

ويصف مشاهد النيل فى حلوان فيقول(٣): (يصف نزهة فى مركب نيلى بحلوان) :

(١) ديوانه ص ٢٥٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٤١ .
(٣) ديوانه ص ٣٢٤ .

يا حبَّذا حُلوانَ فالنيـــلُ ... ربعٌ بحسنِ اللّهوِ مأهُولْ
رحتُ ومركبِى به أدهمٌ ... على جناحٍ للرّيحِ محمُولْ
كأنَّـه فى النّيلِ زنجيَّةٌ ... لها من الموجِ أكاليـــلْ
والنيل فى رونَقِ شمسِ الضُّحَـ ... ـى سيفُ صيقلٍ والمتنُ مسلولْ
حتّى إذا ما درَّجتْهُ الصبَّا ... ماجَ منه العرضُ والطولْ
فهـو لمن أبصره جَوْشَنٌ ... على مِهادِ الأرضِ مسدُولْ
أو حُبُكٌ تَرْصيعُها جوهرٌ ... مبـــدَّدٌ فيهـــنَّ محلـــولْ

ومن الشعراء الوافدين من المغرب أو المشرق من وقف أمام نيل مصر معجبا كالفقيه أبى الفضل يوسف المعروف بأبن النحوى (ولد سنة ٥١٣ هـ) . قال (١) :

أينَ مصرُ وأينَ سُكّانُ مصرٍ ... بيننا شقّةُ النّوى والبِعَادِ
حَدثّانِى عن نِيلِ مصرَ فإنِّى ... منذُ فارقتُه إلى الماءِ صَادِى
رقّ قلبِى حتّى لقد جُدْتُ لِلُقيَا ... هُ بيـن أيدى الزّوارِ والعُوَّادِ
ما تَرانِى أبكِى على كلِّ ربْعٍ ... ما تَرانِى أهيمُ فى كلِّ وادِى
روشنٌ من رواشنِ(٢) النِّيلِ خيرٌ ... يَعْدُ مِن دِجْلَةٍ ومن بَغْدَادِ
ومن الـقصرِ قصرِ شدّادَ ذاكَ المشْـ ... ـرِفُ المرتقَى ، ومن سِنْدَادِ (٣)
إن مصراً لها مغَانٍ لعَمْرِى ... قد تأبّتْ على جميعِ البِلادِ
هذهِ الأرضُ إنّما هِىَ زَا ... دَ البُكا حاجَتِى إلَى الإسْعَادِ

ويبدو النيل أجمل وأبهى فى أيام الإحتفالات والمناسبات والأعياد ، وفى يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وكسر الخليج والمهرجان . ووصف الشعراء هذا فقال أمية بن أبى الصلت يوم المهرجان واحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالى له فقال ، وكتب بها إلى الوزير(٤) :

أبدعْتَ للنَّاسِ منظَراً عَجَباً ... لازِلْتَ تُحيِى السُّرورَ والطّرَبَا
جمعْتَ بينَ الضّدّين مُقْتَدِراً ... فمن رأى الماءَ خالَطَ اللّهَبا

---

(١) خريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ /٤٠٦ .
(٢) الروشن : الشرفة .
(٣) شداد ملك من ملوك اليمن بنى قصرا مشهورا فى التاريخ وأما سنداد فقصرٌ عظيم كان بالكوفة .
(٤) الخريدة ١ /٥ قسم شعراء المغرب تحقيق عمر الدسوقى وعبد العظيم .

كأنّما النّيلَ والشّموعُ بهِ　　أفقُ سماءٍ تألّقتْ شُهُبا
قد كانَ من فِضّةٍ فصيَّرهُ　　تَوقّد النّارِ فوقَهُ ذَهَبا

ويسجل الشاعر هنا منظر النيل وقد أوقدت على شواطئه الشموع ، واحتفى الوزير فأوقد من الشموع على شاطئه ما تلألأت أضواؤها على مياهه ، فبدت سماءا تناثرت فوقها الشهب .

وكان الخلفاء والوزراء فى مصر أيام الفاطميين يحتفلون بيوم كسر الخليج . قال المقريزى[1] : « يجلس الخليفة فى خيمته الكبيرة غربى النيل قرب قنطرة السكرة ويتقدم إليه أحد رجاله ويسمى النائب فيقدم الشعراء حسب منازلهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإنشاد . وفى إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشد :

فَتحَ الخليجُ فسالَ منه الماءُ　　وعلتْ عليه الرّايةَ البيضاءُ
وصفتْ مواردُهُ لنا فكأنّه　　كفّ الإمامِ فعَرْفَها إعطاءُ

فانتقد الناس عليه فى قوله : « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟. فضيّع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

مازالَ هذا السدُّ ينظرُ فتحَهُ　　إذنَ الخليفةِ بالنّوالِ المرسَلِ
حتّى إذَا برزَ الإمام بوجهِهِ　　وسطَا عليهِ كلّ حامِلِ مِعْولِ
فجرَى كأنْ قد دِيفَ فيه عنبرٌ　　يعلُوه كافورٌ بطيبِ المَنْدَلِ

فانتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد ، بالمعاول ، لكن نظمه كان قلقا . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضى الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديها :

لمَنْ اجتماعُ النّاسِ فى ذا المشْهَدِ　　للنّيلِ أمْ لك يا ابنَ بنتِ مُحّمدِ
أمْ لاجتماعِكما معاً فى موطنٍ　　وافيتُما فيه لأصْدقَ موعِدِ

---

(1) الخطط ١ /٤٧٨ .

ليس اجتماعُ الخَلْقِ إلاَّ للّذِى حازَ الفَضيلَةَ منكُما فى المَوْلِدِ
شكَرُوا لكلّ منكُما لوَفائِه بالسَّعى لكنْ ميلُهم للأجْوَدِ
ولئِن إذا اعتمد الوفاءُ فقبلَهُ بالقصْدِ ليسَ له كمَن لمْ يقصِدِ
هذا يَفِى ويعودُ يَنْقصُ تارةً وتَسدُّ أنتَ النقصَ إنْ لم يَزْدَدِ
وقواهُ إنْ بلغَ النِّهايَةَ قصَّرتْ وإذا بلغْتَ إلى النِّهايةِ تبْتَدِى
فالآنَ قدْ ضاقتْ مسالكُ سَعْيِهِ بالسدِّ فهوَ به بحالٍ مُقَيَّدِ
فإذا أردْتَ صَلاحَهُ فافتَح لَهُ ليَرى جناباً مُخْصِباً ويرَى نَدِى
وأْمرْ بفصْدِ العِرْقِ منه فمَا شكَا جسمٌ فصَحّ الجسْمُ إنْ لم يُفصَدِ
واسلَمْ إلى أمثالِ يومِك هكذا فى عيشٍ مغبُوطٍ وعزٍّ مُخلَّدِ

فأمر له على الفور بخمسين دينارا ، وخلع عليه ، وزيد بجارية » .

ومن مشاهد الطبيعة المصرية التى حظيت باهتمام شعراء العصر بركة الحَبَشْ (١) . ومما اهتموا به بعض الأديرة ، وكان موضوع الأديرة ، وما حولها من منازة وبساتين وما فيها من شراب ، وما يدور من احتفالات دينية .

كان هذا كله يستهوى شعراء العصر كما استهوى الشعراء فى بغداد وغيرها من البلاد العربية . ومن أشهر الأديرة التى نالت حظوة الشعراء واستأثرت بقصائد عبرت عن مناسبات مختلفة لهم فيها « دير القصير » بالمقطم قرب الفسطاط (٢) . قال الشاعر محمد بن عاصم الموقفى من شعراء اليتيمة(٣) :

إنّ ديرَ القُصَيْرِ هاجَ ادّكارِى لهوَ أيامى الحسانِ القِصَارِ
وزماناً مضَى حميداً سريعاً وشباباً مثلَ الرِّداءِ المُعَارِ
عرَفتني ربُوعُه بعدَ نُكْرٍ فعرفتُ الرُّبوعَ بالإنكارِ
ولو انّ الدّيارَ تشكُو اشتياقاً لشكتْ جَفوَتِى وبعدَ مزَارِى
ولكادتْ نحوى تسيرُ لما قدْ كنتُ فيها سيّرتُ من أشعَارِى
وكأنّى إذ زرتُه بعد هَجرٍ لم يكُنْ من منازِلى ودِيَارِى
إذ صعُودى على الجيادِ إليهِ وانحدارِى فى المصْعَدَاتِ الجوَارِى

(١) راجع ماجاء عنها فى الجزء الأول من الكتاب .
(٢) راجع ما جاء عنه بالجزء الأول من الكتاب .
(٣) يتيمة الدهر ١ /١٢ .

بصقورٍ إلى الدّماء صوارٍ وكلابٍ على الوحُوشِ ضَوارِى
منزلاً لستُ محصياً ما لِقلبِى ولنفسِى فيهِ من الأوطَارِ
منزلاً فى عُلُوِّهِ كسَمَاءِ والمصابيحُ حولَهُ كالدَّرارِى
كم خلعتُ العذارَ فيه ولم أر عَ مَشيباً بمَفرِقِ المستَطارِ
كم شربنَا على التّصاويرِ فيه بصغارٍ محثُوثةٍ وكِبَارِ
صورة من مصوّرٍ فيه ظلت فتنةً للقلُوبِ والأبصَارِ
أطربتْنا من غيرِ شدْوٍ فأغنَتْ عن سمَاعِ العيدَانِ والمزْمارِ
لا وحسنِ العينينِ والشّفةِ اللّميـ ـاءِ منها وخدِّها الجُلنارِى
لا تخلّفتُ عن مزارِى ديْراً هى فيهِ ولا نأى بى مزَارِى
فسقى اللهُ أرضَ حُلوان فالنّخل فديرَ القصيرِ صوْبَ العِشارِ
كم تنبّهْتُ من لذَاذَةِ نوْمِى بنعيرِ الرُّهبانِ فى الأسْحَارِ
والنواقيسُ صائحاتٌ تُنادِى حَيَّ يانائِماً على الابتكارِ
قبلَ أنْ يُبْلَى الجديدُ الجَديـ ـدَ بليلٍ مُعاقِبٍ بنهَارِ
إنما هذه الحيَاةُ عوارٍ وعلى المستعيرِ ردُّ العَوارِى

والقصيدة هنا حُلم يقظة يسترجع فيها الشاعر أوقاتا سعيدة له قضاها بدير القصير، مستعرضاً مشاهد متعته به وبرحلته إليه، وما كان يفعله من تصيد بالخيول والطير الضوارى وكلاب الصيد فى تلال المقطم، وانحدار إلى النيل مصعدا إلى حلوان على الجوارى السابحات، أو تنزه بمنازه حلوان وبساتين النخيل من حولها.

وخصّ بالحديث الدير، فوصف وضعه مشرفا على مكان عالٍ: « منزلا فى علوه كسماء ».

ويسترعيه ضوء المصابيح من حوله تبدو كالدرارى أو كالنجوم.

فالصورة التى يرسمها له مقبلا عليه، تستدعى صورة السماء بنجومها، فالسماء للعلو والرفعة، والنجوم للمصابيح المتلألئة حوله أو تطل أنوارها من منافذه ويسترعيه من جَنّاته وبساتينه صوت الطيور، واعتماده أصوات الطيور لبعث الإحساس بالبساتين والشجر من حوله تحوّل بمخاطبة الوُجدان، أو تمثّل مشاهد الجمال من مدارك البصر إلى مدارك السمع، ويستخدم اللفظ المناسب

للطير تعبيرا عن الأثر النفسى فيقول : « فطارت بفؤاد المتيم المستطار » وإن بدت فى تراكيبه وأبنية لفظة بعض الكلفة .

وينتقل إلى داخل الدير ، وما كان يفعله من تحرر من قيود الحياة وتكاليف العمر ، فهو قد غادر سن الشباب ، سن المتعة ، والأخذ بأسباب الحياة ، إلا أن الدير وما فيه من مغان قد استفزه ، وعاد به إلى الشباب فخرج عن ثوب الشيب ليعود من جديد إلى حياة الشباب ، اللهو ، والشراب والمتعة .

ويصف الشراب ، ويعود إلى مشاهد البصر فيسترعيه التصاوير على جدران الدير ، وتفتنه الصور ، وصنعة المصور فيقف أمامها وقفة مستمل مستمتع ببهجة الجمال الذى يطرب صامتا ، وهنا يمزج بين فتنة البصر وفتنة السمع :

« أطربَتنا من غيرِ شَدْوٍ فأغنتْ عن سمَاعِ العيدانِ والمزمَارِ »

ويمضى الشاعر فى وصف صور الدير :

ولا وحورِ العينين والشفة اللّمْيـ ـساءِ منها وخدِّها الجُلنَّارِى
لا تخلّفتُ عن مزارِىَ ديراً هى فيه ولا نأى بى مزَارِى

ويدعو لهذا الدير وما حوله من منازه حلوان بالخير ، لأنه أسعده فى حياته كثيرا ، فكم تنبَّه من نومه على صوت الرهبان يرتلون بالأسحار وصوت النواقيس تقرع فى البكور .

ويختتم بتذكر آنيَّةِ الحَياةِ ، وقِصر العُمر ، وأن تعاقب الزمان بآيتيه الليل والنهار سيختم هذه العارية ، وتعود الحياة إلى بارئها :

إنما هذهِ الحيــاةُ عوارٍ وعلى المستَعِير رَدُّ العَوارِى

وهذه القصيدة الوصفية لدير القصير جنوبى الفسطاط تمثل نموذجا فذا فى هذا اللون الوصفى، فقد نفضّ الشاعر فيها أحاسيسه واجترّ ذكرياته وانطباعاته، ثم ارتد بعدها إلى نفسه ليعبر عن آنيةِ الحياة ، ذلك الإحساس الذى يؤرق الإنسان ـــ كل إنسان على الأرض .

وهذا الدير قديم ، يقول عنه الشابشتى :

« دير القصير قرب حلوان ، هو على رأس جبل مشرف على النيل ، وغاية فى النزاهة والحسن ، وفيه صورة السيدة مريم ، وفى حجرها المسيح ، كان خمارويه بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه للشرب على الصورة . وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه لكثرة ما يقع بالدير من آثام !! » .

وصف مباهج الفاطميين وقصورهم :

ومن ذلك وصف مواكب الخلفاء فى الأعياد ، وكانوا يحتفلون بها ، ويكسبون الأعياد مظاهر البهجة والأبهة تتجلى فى قول تميم بن المعز يصف موكب الخليفة العزيز بالله يوم عيد الفطر من قصره إلى المسجد لصلاة العيد . يقول[1] :

هنيئاً لك العيدُ الذى أنت بالرضا ... من الله للمُرْضِيكَ فيه بشيرُ
برزْتَ كبدرِ التمِّ تقدُم جَحْفلا ... تكادُ به الأرضُ الفضاءُ تمُورُ
فللبِيْضِ برقٌ فى أعاليه خاطفٌ ... وللأسدِ ركضٌ تحتَها وزئيرُ
كأنّ الدرُوعَ السابغاتِ عليهِمُ ... لما ألفوها سُندسٌ وحريرُ
وقد نحوكَ اللّحظَ من كلِّ جانبٍ ... وكلّهم صافِى الضميرِ شكورُ
فمن مُقلةٍ منهم عليكَ حبيسة ... ومن إصبعٍ منهم إليك تُشيرُ
ولو نطقتْ أحجارُ أرضٍ لسلّمتْ ... عليكَ المصلّى أو أتتْكَ تَسيرُ
فلمّا بلغْتَ المنبرَ الطاهرَ الذى ... له بكَ فضلٌ لا يُنالُ كبيرُ
تواضعْتَ للرحمنِ ثم علوتَه ... خطيباً، وكلّ اللّحظِ عنكَ حسيرُ
وأسهبْتَ فى حمدِ الإلهِ بخطبةٍ ... تفجّر منها للصّوابِ بحُورُ

ومن الموضوعات الشيقة فى الشعر وصف مظاهر الترف المادى فى قصور الخلفاء ، وما على جدرانها من صور تمثل اهتمام الفنان المصرى برسم وتصوير مشاهد الحياة والناس ، فى تشكيل ممتع يبعث المسرة فى النفوس .

يقول عمارة اليمنى[2] فى وصف الصور والتماثيل ، وبديع الزخرف فى قاعات أحد قصور بنى رُزِّيك ، مخاطبا صاحبه :

أنشأتَ فيها للعيونِ بدائِعاً ... زُفّت، فأذهل حُسنُها من أبصرَا
فمن الرخام مسيّراً ومُسَهّماً ... ومنمنماً ، ومدرهماً ، ومُدنّرا

(١) ديوانه ص ١٤٣ .
(٢) النكت العصرية ص ١٠٣ .

العاجُ بين الآبنوس كأنّه / أرضٌ من الكافور تُنبتُ عنبَرا
قد كان منظرُها بهيجاً رائقاً / فجعلتَها بالوشي أبهَى منظَرَا
ألبستها بيضَ السُّيورِ وحمرَها / فأتتْ كزهرِ الرّوضِ أبيضَ أحمرَا
فمجالسٌ كَسِيَتْ رَقِيماً أبيضا / ومجالسٌ كَسِيَتْ طَمِيماً أخضرَا
لم يبق نوعٌ ، صامتٌ أو نَاطِقٌ / إلا غدا فيها الجميعُ مُصوَّرا
فيها حدائقُ لم تَجُدْها دِيمَةٌ / أبداً ، ولا نَبَتَتْ على وجهِ الثَّرى
والطيرُ قد وقعَتْ على أغصانِهَا / وثمارُها لم تستَطعْ أنْ تُنقرا
لا تعدمُ الأبصارُ بين مُروجِها / ليثاً ، ولا ظَبيًا بوَجرةَ أعفرَا
أنست نواقرُ طيرِها بسِباعِها / فظباؤُها لا تتقى أُسُدَ الشَّرا
وبها زرافاتٌ كأنّ رقابَها / فى الطول ألويةٌ تَؤُمُّ العسكرَا
نوبيةَ المنشا تُريكَ من المها / رَوْقاً ومن بُزْل المَهَارِى مِشْفَرا
جُبِلَتْ على الإقعاءِ من إعجابِها / فتخالُها للتِّيهِ تمْشِى القَهْقَرا

ويريك عمارة فى هذا التسجيل الشعرى لقصر آل رُزّيك ما جمع القصر من حدائق وحيوان . ويسترعيه الزّراف بخلقته الغريبة التى تجمع بين الغزلان والنّوق .

وصف الغناء والموسيقى :

ولاهتمام الفاطميين بالسماع والطرب ، وإقبال الناس فى أعيادهم ومناسباتهم السارة على الموسيقى والغناء ، ترددت فى الشعر صور مجالس الغناء وآلات الطرب وصور المغنين والمغنيات . وأكثر تميم بن المعز من ذكر مجالس الغناء والمغنى (وكذلك فعل الشريف العقيلى) .

وظهر فى هذا العصر الفاطمى فى مصر ضربٌ من الغناء عُرِفَ « بالزكالش » كان يُتغنى فيه بالنظم العامى من مثل :

فديتك أين ما قد كنت قلتى / أُحُلتى عن مودتنا وزلتى

وقد غنى به المغنون لتميم بن المعز[1]، كما نظم هو لهم للغناء فيه. ومما قاله أحد الشعراء فى وصف غناء مغنٍّ[2] :

---

(١) ديوانه ص ٨٥ .

(٢) الخريدة « قسم شعراء المغرب » ١ / ٦٠ .

إذا غنّى يُزيلُ الهمَّ عنّا ويأتينا بما نهواهُ منـــهُ
له وترٌ يطالبُ كلَّ همٍّ بوترٍ ، فالهُمومُ تفرُّ مِنهُ

ويتصل بالغناء وصف آلات الطرب كالعود ، والناى ، والمزهر ، والطبل ، والدُّف وما إليها .

فمما وصف به تميم العود قولَه(١) :

شكا العودُ بالأوتارِ شجواً فأطربا وترجَم عن معنى الضميرِ فأعربَا
فلم أر شاكٍ مِثلَه بثّ شَجْوهُ فافرَحَ محزُوناً وفكَّ مُعذَّبَا

وقال أيضا (٢) :

وقد حكى العودُ أنينَ الهَوى لكنه جوَّد لمَّا حَكَى

وقال (٣) :

فلما استوى نُطِّقَ أوتارِه حكَى نقرُها حسنَ لفظِ الحبيبْ
تُجسُّ الأناملُ « دُستانهُ »(٤) كما جَسَّ عرقَ العليلِ الطبيبْ
فيسْمِعُنا حركاتِ السُّرور ويكشفُ عنّا بناتِ الكُروبْ

ومما قاله فى الناى ، وهو يحاور المزهر فى جوق الموسيقى(٥) :

أماترى كيفَ نادى النّايُ مِزْهـرَهُ وأذَّن الطَّبلُ: اللَّهْو لِلغزَلِ
والنايُ يشكوُ إلى جَنْـكٍ صَبَابتَـهُ شكوى المحبِّ إلى المحبُوبِ فى مَهَـلِ
كأنّ ضجَّةَ صوتِ الطَّبـلِ بينهُـما ضجيجُ عِزِّ أبى المنْصُورِ فى الـدُّولِ

ولكلف بعض شعراء العصر بالغناء والموسيقى بَدَأُوا بوصف مجالسه قصائد المديح على غير عادة شعراء العرب ، وربما كان هذا الاتجاه منهم تطويرا لاتجاه بعض شعراء بغداد فى عصر العباسيين من أمثال أبى نواس ببدء قصائدهم بوصف الخمر ومجالس الغناء .

---

(١) ديوانه ص ٤٩ .
(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .
(٣) ديوانه ص ٧٤ .
(٤) الدستات مجتمع أوتار العود فى عنقه .
(٥) ديوانه ص ٣٢٤ ، والجنك — فارسى اسم آلة موسيقية .

ولم يتحرج تميم بن المعز وهو الأمير الشاعر من بدء قصائد المديح لوالده المعز لدين الله ، وأخيه الخليفة العزيز بالله بذكر الغناء ومجالسه . والتخلص تخلصا لطيفا ليربط الغناء بالمديح ، كما كان يتخلص الشعراء من النسيب والغزل إلى ذكر الممدوح فى المديح التقليدى .

وكما أنهم أعجبوا بالغناء الجميل ، من المطرب المجيد المتقن صاحب الصوت الطلى المعجب ، ضاقوا بغناء غير المحسن الذى يتصدى للغناء دون صوت طلىٍّ ، ولا صورة تريح السامعين .

يقول الشاعر الصقلى(١) :

ومغنٍّ لو تغنّى لكَ صوتين لمُتّا
سمجُ الخِلقةِ غثّ ينحتُ الآذانَ نحْتا
ويُغنّى ما اشتهاهُ لا يغنّى ما أردتا
كلّما قال : اقترحْ قلتُ: اقتراحى لو سكتّا!!

والشاعر يجيد التعبير عن جفاء غناء هذا المغنى ، وقبح وقع صوته على الآذان بقوله « ينحت الآذان نحتا » .

ويقول فى مغنٍّ قبيح :

غنىٌّ كمنْ قد صاحَ فى خابيةْ لا وهبَ الله له العافيةْ !
ما أحدٌ يسمعُه مرةً فيشتَهِى يسمعُه ثانيةْ

ويقول :

ومُغنٍّ نحنُ منه بين أسقامٍ وكَربَةْ
يضربُ العودَ ولكنْ ضربُه يُوجِبُ ضربَةْ

يصف أمية بن أبى الصلت (الحكيم) أحد المغنين بجودة الغناء وقبح الوجه فيقول :

مُسمِعُنا ما فى الزّمانِ لهُ نِدُّ ولكنّه فى قُبحِ صُورتِه قِردُ
تباينَ حالاهُ ، فهذا بهذهِ إذا ما سمَتْ حالٌ تحيَّفَها الضّدُّ

(١) هو أبو عبد الله الطوبى. الخريدة قسم شعراء المغرب ١ /٦ وذكره المسبّحى ممن لقيهم من الشعراء بمصر .

ويَطرِفُ طَرْفِى حين يَلحَظُ وجهَــهُ ويَنعَمُ سَمْعى دُونَهُ عندمَا يَشْدُو
تعادَلَ مرآه بإحسانِ فِعْلِه كِفــاءً، فلا نَحسٌ يدُوم، ولا سَعْــدُ

ويتصل بالغناء ، والموسيقى الرقصُ . يقول الشاعر فى وصف راقصة[1] :

وراقصة كالغُصْنِ من فوقِه بدْرٌ يُنيرُ تحتَ ظَلْماءِ
تُلَهِّبُ مثلَ النّارَ فى رقصِها وهى من النِّعمةِ كالماءِ
كأنَّما فى رِجْلها عُودُها وزامــرٌ يُتبِــعُ بالنّـــاءِ
ساحرةُ الـرقْصِ غَلاميَّــةٌ فيها دوائِـى وبها دائِـى
إذا بدَتْ ترقُصُ ما بيننَا يرقُصُ قلْبِى بينَ أحشَائِى

ومن علامات الذوق المترف ، المتملى لمعانى الحياة وزينتها الاهتمام بالزهر على اختلاف أشكاله وألوانه ، فقد عنى الشعراء بالزهر ووصفوه ، واعجبوا بحسن كل نوع منه وصوروه .

يقول تميم بن المعز يصف الزهر المتعدد الألوان من بنفسج ونرجس وورد فى بستان وقت الربيع[2] :

لعمرك إنما الدنيا عروسٌ جلاها الغيثُ من تحتِ النّقابْ
بنفسجُها ونرجسُهـا وورْدٌ خِضابٌ فى خِضَابٍ فى خِضَابِ

ويقول فى البنفسج وقد اهدى إليه أخوه العزيز باقةً منه[3] :

مدَّ العزيزُ يمينَه ببنفْسَجِ وبورْدَةٍ مقطوعةٍ لم تُنْهَجِ
فكأنّ زُرْقته على مُحمرّها أثرٌ بخَــدٍّ ناعِمٍ مُتضَرّجِ

وقال فى السوسن من أبيات بعث بها إلى أخيه العزيز ومعها سنبلة وسوسن أحمر :

إنِّى بعثتُ طريفا وهى سُنبلةٌ تمّت، فتمَّ لرائيها الأعَاجيبُ
وسوسَناً تم مرآهُ ومخبَرُهُ فقد تكاملَ فيه الحُسنُ والطيِّبُ
كأن مِعْصَمَهُ بالكَفِّ متّصِلٌ له بَنَانٌ من الحِنَّاءِ مخْضُوبُ

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب ص ٦٠ .
(٢) ديوانه ص ٥٨ .
(٣) ديوانه ص ٨٠ .

وقال يصف الياسمينَ والخِرِّم(١) :

وأصفرَ من ياسمينِ الرّياض يلوحُ على زُرقةِ الخُرَّمِ
فشُبِّهت هذا بالسَّمـــــا ءِ بدَتْ فى صَفارٍ من الأنجُمِ
أو الشرَرِ المستنيرِ الّذى تطَايرَ عن قبسٍ مُضرَمِ

ويصف زهر النَّيلوفر علىٰ بركةٍ وقد طفا يسبحُ مزهُوا :

وبركـــةٍ تزْهُـــو بنيْلُوفَـــرٍ نسيمُهُ يُشبِهُ نشرَ الحَبِيبْ
مفتَّحُ الأجفانِ مِنْ نومِهِ حتَّى إذا الشَّمسُ دنتْ للمغِيبْ
أطبقَ جفنيهِ علَى خدِّهِ وغاصَ فى البركةِ خوفَ الرَّقِيبْ

وذكره وقد امسكت به فتاةٌ وأشارتْ إليه مُداعِبة(٢) :

ياحَبَّذا تُومِى بنيْلُوفرٍ قد ركّبتهُ فوقَ عُنّابَهْ
تُشمُّه طوراً وأرواحُها على رِيَاح النّوْرِ غلّابَهْ
فقلتُ: نيلوفرةٌ هذهِ؟! أم بفؤادِى أنتِ لهَّابَهْ؟!

شعر المطاعم والدعوة إلى الطعام :

وظهر بصورة واضحة فى شعر العصر الوصف للطعام بألوانه ، والدعوة للمآدب ، ويحكى الشريف العقيلى فى شعره صورا لألوان من الطعام وأوصاف لمآدبه ، والدعوة إليها على نحو لا نجده فى شعر من سبقوه .

وللواسانى قصيدة فكاهية طويلة نادرة يصور فيها دعوة على الطعام ، ويرسم كيف جاء المدعوون فى هيآت مضحكة ، وكيف تناولوا طعامه ، فجاءوا على ما كان أعده ، وكلّ قد بدا متحفزا للوليمة يطعم منها ، وبما أعد بها من شراب ، وألوان شواء .

وكانت هذه القصيدة الفريدة بمناسبة عقد قران . يقول فى ختامها :

لم يكنْ القِرانَ إلا على شُؤ مى، فويلٌ من نحسِ ذاكَ القِـــرَانِ

---

(١) الخرَّم نبات كاللوبيا له ورق قيل العرض بنفسجى اللون ، وله رائحة حسنة .

(٢) ديوانه ص ٤٩ .

واعجبت الثعالبى أبياتها فقال : « قد أحسن فى هذه القصيدة غاية الإحسان ، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان ، وتصرف فيها وأطال وأمكنه القول فقال »[1] :

من لعينى تجودُ بالهملانِ ... ولقــلب مدلّــــه ولهانِ
ياخليليَّ أقصِرا عن ملامِى ... وارثيا لِى من نكبتى وارحمانِى

يقول فيها :

ماالذى ساقنى لحينى إلى حتفى ؟، ... وما عالَنى ، ومـاذا دهَانِـى
من عذيرى من دعوةٍ أوهنتْ عظمِى ، ... وهــدَّتْ بهولِهَــا أركَانِـــى

ويقول :

كان عيشى صافيا فكدَّره أهـ ... ـل صفائى بنو أبى صفوانِ
فارثوالى يا معشرَ النـاس من ضُرِّى ، ... ومن طولِ عُطلتى وامتحانِى
ضَربَ البوقَ فى دمشقَ ونادُوا ... لشقَائِى فى سائِرِ البُلدانِ
هل سمعتُم بمعشرٍ جمعُوا الخيْلَ ... وسارُوا فى الرَّجْلِ والفرسَانِ
رحلوا من بيُوتهمْ ليلةَ المرْ ... فع من أجلِ أكلةٍ مجَّانِ
لستُ أنسَى مُصيبتى يو. جاءُونى ... وقد غصَّ منهُم الوادِيَانِ
وردُوا ليلةَ الخميسِ علينَا ... فى خميسٍ ملءِ الرُّبا والمَحانِى
يقدُمُ القومَ هاشِمىٌّ هَرِيتُ الشِّـ ... ـدقِ رحبُ المِعَى ، طويلُ اللسَانِ
هو ِ نمسُ الدَّجَاجِ والبَطِّ والإوزِّ ، ... وذئبُ النَّعاجِ والخِرفَـانِ

واهتم الشعر بجوانب الحياة الجادة ، وهمومها وصراعاتها .

ومن جاد الموضوعات فى الشعر نقد الحياة والمجتمع ، وتناول بعض قضايا العقيدة من الجوانب الفكرية والفلسفية . وظهر أبو العلاء المعرى مبرزاً فى هذا الجانب فى القرن الخامس الهجرى ، فكان شعره سجلا لأفكاره وآرائه فى الحياة والناس والدين والمجتمع ، والسلوك والأخلاق . ويقول محمد كامل حسين[2] : « فالمعرى فى ديوان اللزوميات ليس بشاعر ، وإنما هو ناظم صاغ آراءه فى قالب الشعر ،

(١) يتيمة الدهر ١ /٤٢٤ـ٤٢٥ .

(٢) ديوانه المؤيد ص ١٥ المقدمة وراجع حديثنا عن أبى العلاء بعد

والتزم فيه ألوانا من القوافي وضروب الوزن ، فكان تقيده بما لا يلزم ، وما حمّل ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا في أن يبعد ديوان اللزوميات عن دائرة الشعر الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر » .

ومن موضوعات شعر العصر غير التقليدية وصف الرسائل وتقريظها فمن ذلك قول ابن أبي الصلت في رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه — أبو الضوء[1] :

أبا الضَّوءِ وافاني كتابُك يزدَهي ... به النَّثرُ من تلكَ البلاغَةِ والنَّظمُ
كتابٌ لو استدْعَى به العُصمَ قانصٌ ... لمِ استعْصَمتْ من أن تَخِرَّ له العُصْمُ
ولما فضضْتُ الختمَ عنه تضوَّعتْ ... لَطِيمةَ سَفْرٍ فُضَّ عن مِسْكِها الخَتْمُ
وسرَّحتُ طرْفي في رياضِ محاسنٍ ... وشاها الحَيا المنهَلّ، بل عِلمُكَ الجَمُّ

ويقول آخر :

كتابٌ نفيتُ اكتئابي به ... ونلتُ الأماني بظلّ الأمانْ
أتى من بعيدٍ مرامي الضمّيرِ ... والفكرِ مُرْهفَ غربَ اللّسانْ
ذَرَى في الترسُّلِ بابنِ العميدِ كما ... قد شأى في القَريضِ ابنَ هانِىء
فقرّب من فرَحِي من كلِّ ناءٍ ... وأبعدَ مِنْ تَرَحي كلَّ دَاني
صفيٌّ نأى ودنا ذكره ... فنابَ السماعُ منابَ العيانِ

قال الشاعر ابن البشائر البلتّوني — ممن وفد على الأفضل — في وصف كتاب[2] :

وصل الكتابُ وكان آنسَ واصلٍ ... عندي وآنسَ قادمٍ ألقاهُ
لا شيء أنفسَ منه مهّدني جامعا ... شملَ المعانيَ للذي أهدَاهُ
ففضضتُهُ، وجعلتُ ألثمُ كلّ ما ... كتبته أو مرّت عليهِ يدَاهُ
وفهمتُ مُودعَهُ فرحتُ بغبطةٍ ... جذلانَ مُبتهجاً بما أدّاهُ
وعجبتُ من لفظٍ تَناسقَ فيه ما ... أعلاهُ، ما أجلاهُ، ما أحلاهُ
كالرّوضِ باكرَهُ الحيا فتفتّحتْ ... أزهارُهُ، وتضوّعتْ ريّاهُ

---

(١) خريدة القصر ١ /٣٤٦ .

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ /١٥ .

كالعقد وصل لؤلؤا وزبرجداً   فتقابلتْ أولاه مع أخراهُ
در ترفَّع قدرُه عن قيمةٍ   منظومةٍ كُبراه مع صُغراهُ

لغة الشعر وموسيقاه :

اعتمد الشعر فى هذا العصر لغة الشعر العربى فى القرن الرابع ، ودخل البديع عنصرا فنيا من عناصر التعبير دون إسراف أول الأمر ، حتى كان القرن الخامس فزاد اهتمام الشعراء بالبديع ، وأسرف بعضهم فيه ، وبخاصة فى بديع اللفظ من جناس ، ومقابلات ، وطباق ، وترصيع وتوشيح وتوشيع .

وظهرت فى أخريات عصر الفاطميين فى الشام ألوانٌ من الشعر عرفت بالمجانس يعمد فيها الشعراء إلى التجنيس فى القافية ، وهو مغالاة فيما التزمه أبو العلاء المعرى فى لزومياته .

وكان لوفود الشعراء إلى مصر من المشرق والمغرب أثره فى ظهور ألوان فنية متعددة اختلطت وتزاوجت ، ونتج عنها ألوان من التعبير والصياغة ينتمى بعضها إلى أصول مشرقية ، وبعضها إلى أصول مغربية أو أندلسية وبدأت تظهر صور مبكرة للتوشيح أو ألوان مشابهة من النظم خارجة على نظام القصيدة منذ القرن الرابع الهجرى من مثل قول تميم بن المعز :

دمُ العُشّاق مطلَولٌ   ودينُ الحبِّ ممطولٌ
وسيفُ اللّحظِ مسلُولٌ   ومُبْدِى الحُبِّ معذولٌ
وإنْ لم يصغ للائم

وأحور ساحر الطرف   يفوق جوامع الحب
مليح الدلّ والظرف   جنت ألحاظه حتفى
فمن يُعدى على الظالم

يُعنّفني على حُبِّى   ويهجُرنى بلا ذَنْبِ
كأنّى لستُ بالصَّبِّ   لقهوة ريقهِ العذبِ
أما فى الحبِّ من رَاحِمْ

على أن هذه الصورة المبكرة للموشح فى شعر تميم بن المعز نادرة فى القرن الرابع إلا أننا نعثر فى القرنين الخامس والسادس من العصر الفاطمى على صور

أخرى لنظم الموشح ، وممن نظموه فى القرن الخامس فى آخره وأوائل السادس على بن عباد الإسكندرى : قال العماد الأصبهانى فى ترجمته[1] : « وقرأت له فى مجموع فى مدح محمد بن أبى أسامة كلمة ذات أوزان موشحة :

يا من ألوذ بظله فى كل خطب معضل
لازلت من أصحابه متماسكا بيد السلامة
آمنا من باس
فى الحوادث والظروف
وأعوذ منه لفضله فى كل أمر مشكل
ما لاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامة
لا تميل إلى شماس
دون موضعها الشريف

وممن نظم الموشح من المصريين فى القرن الخامس أو أوائل السادس ظافر الحدّاد السكندرى .[2]

(١) الخريدة شعراء مصر ١ /٤٤ .

(٢) راجع ذلك فى موضعه من هذه الدراسة .

شعراء العصر

كثر الشعراء فى العصر كثرة ملفتة ، وكان لتشجيع الفاطميين أثره فى وفود كثير منهم من المشرق ومن المغرب . وما ذلك إلا باهتمام الأئمة والقادة والرؤساء بعرض افكار الدعوة الفاطمية ، واتخاذ الشعر منبرا من أهم منابر إعلامهم ، كما كان الشعر معرضا لأحوال الأئمة والرؤساء وتقريبهم من الناس ، وتوددهم إليهم بنشر محاسنهم وجليل أعمالهم .

وكان للشعراء ديوان ومسئولون يتولون أمورهم ، وكانوا يجزون الجزاء الأوفى على ما يقدمون ويعلنون ، ويزينون أحيانا .

ومع كثرة شعراء العصر إلا أن ما وصل إلينا من شعرهم قليل ، ولا تتعدى دواوينهم عدد أصابع اليدين ، وتناثرت بقية أشعارهم فى الكتب والمصادر .

وهذا نذر يسير لا يشفى غلة لشعراء جاوزوا المئات فى عصر دام قرنين .

ونقرأ فى تلك المصادر عن مؤلفات لعدد من العلماء عن شعراء العصر ونخب من أشعارهم ، لعلها تذهب فى نهجها مذهب اليتيمة والخريدة من مثل « جنان الجنان» ، و« رياض الأذهان». وفى شعراء الفاطميين من المصريين للمهذب بن الزبير ، وقد نقل عنها كل من العماد ، وابن سعيد فى كتابى الخريدة ، والمغرب[1] . ولعلى بن منجب مجموع عن شعراء عصره[2] .

وكتاب الحديقة لأمية بن أبى الصلت ، نقل عنه العماد ، وكتاب « المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون المهدوى[3] .

وتقسم الشعراء على أقاليم مصر ومدنها ، فمنهم من نشأ بصعيدها ، واشتهر ووفد إلى القاهرة والفسطاط ، فمدح الأئمة والرؤساء ، وكبار رجال الدولة وجالس العلماء والفضلاء ، وأنشدهم من شعره ، فذكروه ، وألمحوا إلى بعض أقواله .

---

(١) راجع الخريدة قسم شعراء مصر ص ٦١ .

(٢) الخريدة شعراء المغرب ص ٢١٠ .

(٣) راجع الخريدة شعراء المغرب ١ /١١٤ .

وبعضهم نشأ بالإسكندرية ، أو دمياط أو غيرها من بلاد الدلتا ومنهم القاهريون أو أبناء الفسطاط ، ومنهم الوافدون المقيمون ، ومنهم الوافدون العابرون وعدّ العماد من شعراء مصر فى الخريدة مائة شاعر .

ونذكر من شعراء الصعيد ممن تردد ذكرهم :

١ ــ الكاسات ــ وهو لقب للفقيه أبى محمد عبد الله بن أبى سعد ، وترجم له ابن سعيد فى المغرب .

٢ ــ وأبو الرضا سالم بن على بن أبى أسامة ، وكان بنو أسامة من أصحاب الديوان فى زمان الحافظ .

٣ ــ وأبو المشرف الدجرجاوى ــ من دجرجا أو جرجا . ذكره ياقوت فى معجم البلدان .

٤ ــ والقاضى أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب من صعيد مصر ذكره العماد فى الخريدة ، وترجم له الأدفوى فى الطالع السعيد[١] ، تولى القضاء باخميم زمن الأفضل الجمالى .

٥ ــ وأبو الغمر الإسناوى محمد بن على الهاشمى (توفى سنة ٥٤٤ هـ) وترجم له العماد بالخريدة ، والأدفوى[٢] فى الطالع السعيد .

٦ ــ وأبو الفرج سهل بن الحسن الإسناوى .

٧ ــ وبنو عرام وهم جماعة .

٨ ــ وأبو القاسم عبد الحميد بن عبد المحسن بن محمد الكتامى المقيم بأسيوط .

٩ ــ وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصّوْفى ــ عرف بابن يونس واشتهر بالتنجيم (ت ٣٩٩ هـ) .

وكان يقول الشعر ويضرب بالعود ، قال صاحب شذرات الذهب[٣] :

---

(١) راجع الخريدة ٢ /٩٠ ، والطالع السعيد ٢٢٠ ، وبغية الوعاة ٣٥٣ .

(٢) الخريدة ٢ /١٥٨ ، والطالع السعيد ٣١٥ .

(٣) شذرات الذهب ٣ /١٥٧ ، وراجع اليتيمة للثعالبى ١ /٣٤٥ ، وابن خلكان بالوفيات ٢ /٨٥ ، والقفطى ص ٢١٠ .

« وله شعر حسن ، منه قوله :

أحمّلُ نشْرَ الريح عند هبوبها ... رِسَالةَ مشتاقٍ لوجه حبيب

وكان يحضر مجالس الحكم .

وترجم له الثعالبى ، وابن خلكان والقفطى .

ومن شعراء مصر أو الفسطاط :

١ـ المهر المحجوب المصرى :

ترجم له ابن سعيد ، نقل عن القُرطىّ قوله : « إنه ممن أنبتته الفسطاط وتفقأت عنه بيضتها ، من الشعراء الذين أجادوا ، وأفرطوا فى الرحلة عن أوطانهم غاية الإفراط » . وهو من شعراء المائة الخامسة .

وترجم له الباخرزى فى الدمية .

٢ـ ومن شعراء الفسطاط الرسيّون من آل طباطبا . وكانوا بيتا علويا من أشراف مصر الحسينيين . وعرف منهم فى عصر الفاطميين جماعة أشهرهم :

* أبو عبد الله الحسينى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم (طباطبا) الشريف الحسينى الرسّى (ت ٣٦٥ هـ)(١) .

*** وكان أديبا شاعرا رقيقا . قاسم الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الحسب، وأمارات الفضل والأدب. وكان بينهما مودّة ومراسلات شعرية رائقة. وكان أبوه نقيب الأشراف فى مصر وكان جده أبو القاسم أحمد بن محمد ابن اسماعيل نقيب الأشراف أيضا شاعرا أديبا مجيدا (ت٣٤٥ هـ) أو (سنة ٣٥٢ هـ) وعاصر الدولة الإخشيدية وكانت وفاته فى عصر كافور وسنه آنذاك ٦٤ عاما .**

وكان من السرور والنبل وجلال القدر على ما هو معروف مشهور . وله أدب واسع وشعر فى الزهر والغزل مليح .

٣ـ وكانت بلاطات الوزراء مجمعا لشعراء مصر والوافدين عليها وأشهر

(١) راجع ابن خلكان ، والمغرب ص ٨٥ ، وديوان تميم ص ٣٠ .

مجالسهم مجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى فقد جمع عديدا من شعراء العصر أمثال ظافر الحداد السكندرى، وعلى بن مُنْجب الصيرفى الكاتب، ومسعود الدولة، ومحمد بن اسماعيل المعروف بالتاريخ ، وحسن بن زيد الأنصارى .

وممن وفد إليه من المشرق ابن حَيُّوس ، ومن المغرب أمية بن أبى الصلت ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلى (ت ٥٤٠ هـ) .

٤ـــ كما ضمت مجالس الوزير الصالح بن رزيك جماعة من مشاهير شعراء القرن السادس الهجرى فى مصر وغيرها من بلاد المشرق والمغرب من بينهم القاضى الرشيد بن الزبير ، وأخوه القاضى المهذب ، والفقيه عمارة اليمنى ، والقاضى الجليس عبد العزيز بن الجباب (ت ٥٦١ هـ) وأبو محمد يحيى بن الحسن بن جبر[1] ، وأسامة منقذ .

٥ـــ ومن شعراء الإسكندرية ظافر الحداد ، الشاعر المبدع ، وأبو بكر الطرطوشى الفقيه الصوفى عاش زمن الأفضل وتوفى سنة ٥٢٠ هـ .

وهو محمد بن الوليد القرشى الفهرى ، ونسب إلى طرطوشة بالأندلس نزل إلى الأسكندرية ، ووفد إلى القاهرة ورحل إلى المشرق فحلّ ببغداد وأخذ على علمائها .

وكان إماما زاهدا ورعا متقشفا ، متنقلا راضيا بالقليل . له شعر رواه ابن العماد وله كتاب « سراج الملوك » ألفه للوزير الفاطمى المأمون البطائحى وعاش إلى زمن الأفضل[2] .

ومن الأسكندرية ابن معبد القرشى الأسكندرى (ت ٥٥٨ هـ)[3] ومنها أبو الربيع سليمان (ت ٥١٦ هـ)[4] .

ومنها ابن إغَسَّان الكاتب (ت ٥١٥ هـ)[5] .

---

(١) الخريدة ٢ /٢٣١ .
(٢) راجع ترجمة ابن خلكان ، وشذرات الذهب ٤ /٦٣ .
(٣) ترجمته بالخريدة ٢ /٢٣٣ توفى الأفضل سنة ٥١٥ هـ .
(٤) الخريدة ٢ /٢٠٠ .
(٥) الخريدة ٢ /٢٢٧ .

وابن مكنسة الشاعر المشهور (ت فى حدود ٥٠٠ هـ) ، وترجم له أمية بن أبي الصلت فى الرسالة المصرية ، أعجب بشعره ، وأورد مقتطفات منه . وكان قد أنشد الأفضل إلا أنه أعرض عنه[١] .

وابن قتادة المعدل : أبو الفتح منصور بن ابراهيم[٢] .

ومن شعراء دمياط :

أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قادوس (ت ٥١١ هـ) . وابنه محمود بن قادوس من شعراء ابن رزّيك .

وكان معظم كتاب العصر الفاطمي المشهورين ممن عرضنا لهم فيما سبق من حديث ــ ينظمون الشعر .

وأما الوافدون فكثيرون من المشرق والمغرب ، وأكثرهم من المغرب والأندلس بدأوا مع وصول ركب المعز من المهدية إلى القاهرة ، وتعاقبت أرسالهم تطرق باب الاسكندرية وتعرج على القاهرة .

ومن أشهر الوافدين المغاربة الرقيق القيرواني ، وأمية بن أبي الصلت ، وابن مجبر الصقلي . وابن القطاع ، والتجيبي .

كما وفد من الشام ابن حيوس أبو الفتيان ، وأسامة بن منقذ ومن قبلهما الواساني والرقعمق والوزير المغربي ، والتهامي .

ووفد من اليمن عمارة اليمني ، واستقر بمصر حتى مات .

---

(١) راجع الرسالة المصرية وابن خلكان والخريدة ٢ /٢٠٣ ، وفيات الوفيات ١ /٢١ .
(٢) الخريدة ٢ /٢٢٩ .

الفصل الثانى

شـعراء مصريـون

فى القرن الرابع

— ١ —

تميم بن المعز

يدور شعر تميم بن المعز على محاور ثلاثة .

المحور الأول : الأمير وهموم الإمارة ، واهتماماتها .
المحور الثانى : الإنسان وحياته الخاصة والعامة وسلوكياته واخلاقه .
المحور الثالث : الفنان وتذوقه للحياة والجمال .

أما الأمير

فقد ولد الشاعر للخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وكان أكبر أبنائه ، لكن الصلة بينه ووالده لم تكن مستقرة ، وشابها كثير من الغموض ، فلم يكن الأب فيما يبدو محبا لولده كل الحب ، ولا مقدرا فيه الرجل الذى يمكنه أن يحمل أعباء الدولة كما ينبغى ، ربما لأن الأمير كان يميل إلى اللهو ، أو إلى أن يعطى نفسه قدرا من المتعة على حساب الأمور الرسمية ، أو مهام الملك والخلافة ولعل الأمير أدرك ذلك من أبيه ، وأدرك أنه لا يثق نيه كل الثقة بل لعله أدرك أنه يقدم عليه أخويه الآخرين .

ونما هذا الإحساس فى قلب الأمير فأرقه ، وأقلقه ، ولعله دعاه إلى زيادة الإنغماس فى همومه وملاذه ، واتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن هذه الهموم والملاذ جميعا ، بل لعل نفسه حدثته بأن يأخذ حقه لنفسه ، وإن أغضب ذلك والده ، أو بدا لهذا الأب ومن حوله من رجال دولته ، وكأنه يحاول اغتصاب الأمر ، وربما رأى بعض شباب الدولة والطامحين الطامعين فى الأمير رعونته وأدركوا ما يكتم فى نفسه فأرادوا أن يدبروا معه أمراً طائشا ممنين النفس بالفوز بمنصب إن تم الأمر للأمير الحانق .

ويؤكد هذا ما ذكره الأستاذ جوذر أقرب الرجال إلى المعز كما جاء فى سيرته ذكر أنه نمى إليه اتصال الأمير ببعض أمراء البيت الفاطمى ، وابن أمير صقلية ، واتفقوا على تدبير أمر ما ، فأطلع جوذر الخليفة المعز عليه وكان فى المهدية قبل مجيئه إلى القاهرة ، فكان رد المعز بحصافته ودهائه على جوذر أن اكتم الأمر ، وكتب إلى مستشاره يقول :

« يا جوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد — أمير صقلية وولده الأمير الشاب طاهر الذى ظن اتصاله بتميم — فوالله ما كان يثنيه عندنا ، ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبى الشقى ولده. صحبه من كان سبب شقوته فوالله إن توجعنا به لتوجعنا بمن لنا — يقصد ابنه تميم — لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبّرنا نحن لا يرجى أبداً إذ كانت الخطة التى يرفع الله بها أولادنا هى خطة الطهارة ، ومن عدمها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسرّ . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه ، وتَشَفّع له عنده وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنعه يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعقاب. فليمسك ، ويعجل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يُصلح فساد كل فاسد كان ليسعى به بينهما »(١) .

وهذه الرسالة التى وجهها المعز إلى جوذر تحمل كثيرا من المعانى التى أشرنا إليها فى مقدمة حديثنا عن تميم والعلاقة بوالده .

وكان دهاء المعز وحسن تدبيره مما دفعاه إلى كتمان مثل هذا العبث الصبيانى حتى لا تصير معرة ، ولا يظهر الخلاف فى البيت الفاطمى أمام الرعية . وهو أعلم بولده وطيشه وانغماسه فيما لا يطهر من ملاذ . وما لا يليق بإمام ينبغى أن يكون قدوة لشعبه ، يبعده عن كل ما يفسد المروءة، ويشين الصورة النقية ولو فى الظاهر .

وظلت العلاقة هكذا بين الوالد وولده الأكبر تميم الذى لقب نفسه باسمه فكان يكنى المعز بأبى تميم ، ولاشك أن الخليفة كان يشعر فى أعماقه بالأسى لسلوك ابنه الأكبر هذا المسلك ، وكان يحمل بين جنبيه صراعا بين الحب الأبوى لهذا الابن ، والألم والأسى لاضطراره أن يبعده عن دائرة المسئولية لأنه غير أهل لها فيما يرى من سلوكه .

وقد أداه هذا إلى أن ينحيه عن ولاية العهد مرتين ، فيزيد هذا فى حرج الأمير ، وينطوى صدره على آلامه لا يجد ما يفرجها أو يخفف منها إلا المزيد من الانغماس فى اللذات ، وإذابة آلامه فى الشعر .

---

(١) من سيرة الأستاذ جوذر ، ص ١٢٠ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه نحي عن ولاية العهد لأنه لم ينجب ، ولأنه كان عقيما ، ولم يكن هذا السبب بالضرورة سببا حاسما ، بل السبب الحاسم هو ما ذكرناه .

وقد ظل الأمير يجتر آلامه ، وجاء إلى مصر مع والده وإخوته ، ومات المعز بعد حضوره إلى مصر ولم يمض بها إلا ثلاثة أعوام تزيد أو تقل قليلا ، وأوصى من بعده لابنه العزيز بالله الإبن الثالث ، وتجاوز عن الأكبر الأمير تميم وتولى العزيز الخلافة ، وعرف أنه اخذ حقا لأخيه ، فكان يجزل له العطاء ، ويغدق المال ، ويدعه يغرق فى النعماء ، لعله ينسى أمر الخلافة ، وينزل عن حقه فيها ، إلا أن الأمير تميم تظاهر بالزهد فى الملك ، وأبدى من طرف لسانه الطاعة لوالده أولا وللخليفة العزيز بعد توليه ثانيا ، ولم يدع مناسبة إلا أبدى هذه الطاعة فى قصيدة يبعث بها إلى والده أو إلى أخيه بعد توليه الأمر لكن ما كان يخفيه فى نفسه لم يستطع كتمانه ، بل كان يتسرب وعيا منه أو غضبا ، كلما فاضت نفسه ، وضاقت بالضيق . فلا تلبث أن تفلت منه أبيات تنم عما يكتم كأن يقول[1] :

سأطلبُ حقى إن قضى اللهُ لى بهِ ... وأفتحُ منه كلّ ما كانَ مُرْتجا
فلستُ وإن عاقرتُ كأسى بسالكٍ ... من الأمرِ فيها كلّ ما كانَ أسمَجا
ولا مشترٍ بالمجدِ مُستحسنَ الصِّبا ... ولا مُشترٍ طَرَقَ المهالكِ بالنَّجا
ولكنَّنى مُوفٍ لنفسى حُقوقَها ... ورائضُها فيما استوى وتعوَّجا .

ولكن العزيز لم يغفل عن رغبة أخيه ، وما كان يخفيه ، وكان يداريه ، ويقبل عليه ، ويقابله الشاعر بالمثل فيبدى الطاعة والولاء ، وقدم بين يدى أخيه الخليفة قصائد المديح فى المناسبات . كأن يقول مادحا فى مناسبة إقبال شهر رمضان ومهنئا[2] :

يا شهر مُفترَضِ الصَّومِ الذى خلَصَتْ ... فيه الضمائر بالإخلاصِ فى العمَلِ
أرمضتَ يا رمضانَ السَّيئاتِ لنَا ... بشُرْبِنَا للتُّقى عَلّا على نَهلِ
صومٌ وبرٌّ ونسْكٌ فيكَ مُتَّصِلٌ ... بصَالحٍ وخشوعٍ غيرِ مُنفَصِلِ
ياليتَ شهرَكَ حولٌ غيرُ منقطعٍ ... وليتَ ظِلّكَ عنا غيرُ مُنتقِلِ
ماأنتَ فى أشهُرِ الحوْلِ التى سلَفتْ ... إلا كمِثْلِ نِزارٍ فى بَنى الرُّسُلِ

(١) ديوانه ص ٨٩ .
(٢) ديوانه ص ٣٤٠ .

ويتضح فى هذه الأبيات محاولته مداراة مشاعره الحقيقية والنطق بغير ما يجب ، فهو بالنسبة إلى رمضان يظهر القول بتمنى بقائه حولا ، وهو لا يحب هذا فى سريرته ، لأن شهر رمضان يمنعه من ممارسة لذاته ، فهو فى الحقيقة شهر غير محبوب لديه ، ونلاحظ فى نهاية الأبيات كيف قرن بين هذا الشهر الذى يظهر محبته ، ويخفى غير ذلك ، كيف قرن بينه وبين أخيه فجعله مثله ، وهذا ظاهر المدح ، لكنه يخفى وراءه ما يخفى !

ويقول فى مناسبة العيد يصف موكب الخليفة إلى صلاته[1] :

لئن أتى العيدُ من لقياكَ فى فرحٍ	لقد مضى الصَّومُ من منآكَ فى ثَكَلِ
برزت فيه بروزَ الشمسِ طالعةً	وقد أعادَ ضُحاكَ النقعَ كالطَّفَلِ
والبيضُ تُزهرُ والأعلامُ خافقةٌ	والأرضُ فى رَهجٍ والجوُّ فى وَجَلِ
فليس يعرفُ لحظَ العينِ مرسلَه	إلا إلى سابحٍ فى الأرضِ أو بَطَلِ
والشمسُ فوقَ مدارِ الجيشِ قد حُجبَتْ	فى جوّها بمُتونِ البيضِ والأسَلِ
حتى بلغتَ المصلّى خاشِعاً نَسِكاً	خشُوعَ جدِّكَ فى أزمانِهِ الأُوَلِ
فقمتَ فيهمْ خَطيباً مِصقَعاً لَسِناً	بكلِّ مُنفصِلٍ نثراً ومُتَّصِلِ
بَلاغةً نبوىّ النَّظمِ مُحكمُها	وخطبةً لم ينَلْها مُهمَلُ الخطَلِ
أبنْتَ بالحَقِّ ما قد كانَ مُشتَبِها	من الهُدى فتجلَّى كلُّ مُشكِلِ

ولا يخفى ما فى هذا الشعر من تصنع ، يقربه من أن يصبح إعلانا رسميا فى هذه المناسبة ، لا ينطق فيه عن عاطفة صادقة ، بل لعلنا نحس بأنه يكاد يرصُّ الألفاظ رصاً دون إحساس حقيقى ، فالشعرية فيه منعدمة ، والمناسبة الرسمية تملك عليه لفظه ومعانيه .

وربما كانت نغمة الشاعر فى هذه المناسبات الرسمية ، وتسجيل مظاهر الخلافة وشعائرها أكثر دفئا ، وبخاصة إذا اتصل ذلك بالعقيدة ، أو مواجهة الأعداء المتربصين بالدولة ، وبالدعوة الفاطمية التى هى عصب ملكهم ، ومناط شرعيته .

وهو فى مثل هذه الأمور يرى نفسه جنديا ومسئولا كأخيه وغيره من أبناء البيت الفاطمى فلابد له من الدفاع والحماس ، وإظهار القدرة والقوة أمام الطامعين المتربصين بهم جميعا . يقول ــ على سبيل المثال ــ فى مناسبة الصراع

(١) ديوانه ص ٣٤١ .

بين الدولة ممثلة فى الخليفة العزيز بالله وأحد أعدائها الأقوياء بالشام القائد التركى أفتكين . ومعتزا بنصر العزيز عليه ومفتخرا :

أعذلاً وما عَذلَتْنِي النُّهَى ... ولا طردَ الحِلْمُ عنّى الصبَا
وكيف تلومين صَعْبَ المَرا ... مِ وتَلْحِينَ مِثْلِىَ كهْلَ الحِجَا
بَلوْتُ الزَّمانَ وأحداثَــهُ ... على السِّلْم منهُنَّ لِى والوَغَى
فما فلّلت حربُها لِى شَباً ... ولا ازددْتُ بالسِّلْمِ عنْها رِضَى
إذا قلتُ لم أعْدُ فصلَ الخِطابِ ... وإن صُلْتُ أيقظتُ عنّى الرَّدى
أرتنى التجاربُ ما قدْ بدَا ... فصِنْتُ به كلّ ما قد خَفى
ولَمْ يبلَغِ العمرُ من سِنّه ... ثلاثينَ حتَّى بلغتُ المدَى

حتى يقول :

تهونَ علىَّ صعابُ الأمورِ ... ويصغُر عنّى جميعُ الوَرى
أنا ابنُ المُعِزِّ سليلُ العُلا ... وصِنْوُ العزيزِ إمامِ الهُدَى
سما بى معدٌّ إلى غايةٍ ... من المجْدِ ما فوقَها مُرْتَقَى
فرحُتَ بها فَاطِمىَّ النِّجارِ ... حسينيّةً علَوىَّ الجَنَــى
وإنَّا لقومٌ نروعُ الزَّمانَ ... ولسْنا نُراعُ إذا ما سَطَا

ووجدان الشاعر هنا هو الذى ينطق ، وضميره المكنون يكشف عن دخيلته فهو الأمير الكبير صاحب الشأن ، فاطمى النسب والأرومة ، ينتسب إلى الحسين ابن على الشهيد المناضل للحقِّ وبالحق فى مواجهة الباطل المستبد ، وفى هذه الأبيات ذات القافية المطلقة والألف المقصورة تتآلف فيها موسيقى الكلمة وايقاع السياق مع نفثة الشاعر من صــدر مصدور ، تلذعه حرقة يحس بأوجاعها فيطلقها رنّة تمتزج فيها اللوعة والكبرياء ، وتتلاقى فيها آلام الماضى ، وأحزان قومه من العلويين الشيعة ، بآلامه هو فيتذكر أنه فاطمى حسينى علوىّ ، وكم لاقت فاطمة وابنها الحسين وكم لاقى علىّ !!

ومع ذلك فهو ينتصر على لوعته ، وعلى أحداث الزمان ، ومعاندته وحربهُ لآل علىّ ، وما يحسه هو ، وشيعته من مرارة تلك المعاندة وذلك الظلم الذى يتعقبهم ، فهم صامدون رغم ذلك ، لا يستسلمون ولا يخضعون : (نروع الزمان ولسنا نراع إذا ما سطا) .

امتزجت ... ة الشاعر إذا مع محنة قومه عامة ، ولكن محنته وإن عظمت عليه وأقضّت مضجعه إلا أنه يضطر إلى كبتها ومداراتها ، لا يفرج عنها ، ولا يتنفس عن مصدور إلا بينه وبين نفسه أو بينه وبين عشيرته الأقربين تقيّة أو تجنبا لأزمات، ولأحداث قد تجر ويلات ، وتثير نارا يكون وقودها ، ولا يصل إلى مبتغاه .

ظل يراوده إذا حلم الخلافة والمُلك ، وظلت تحترق فى نفسه الصور وتتداعى فى مخيلته الأحلام ، ويلوم زمانه ، ونفسه ، ويلوم بعض عشيرته الذين أحبهم ولا يملك فى النهاية إلا أن يظهر خلاف ما يبطن ، وأن يلقى أخاه العزيز الخليفة ورمز السلطان الفاطمى بوجه الأمير الموالى ، والرعية المطيع ، والأخ الحبيب الوفى .

فيمدح العزيز ويجامله فى كل مناسبة رسمية أو خاصة ، ولا يفتأ يؤكد ولاءة لأخيه ، كأنه يحس دائما بأنه متهم بعدم الولاء أو عدم الرضا مما دفع بعض الكائدين الذين أشار إليهم كثيرا فى شعره ، والذين يصطادون دائما فى الماء العكر ، ويتقربون إلى ذوى السلطان بالوشاية ضد من يريدون فيهم كيداً بوشايتهم ، أو ذريعة يتوصلون بها إلى صاحب الأمر . فيتخذ هؤلاء الكيد لتميم وسيلة للقربى من العزيز ، وتنطق بعض أبياته بهذا فيقول(١) :

أنتَ إمامٌ لِى بلَا تقيُّد ... ولا هُمَّ فاشهدْ ثم لا هُمَّ اشْهَدِ
إنّ نِزاراً غايتى ومقصِدِى ... ومَوْئِلى ومَعْقِلى ومُسنَدِى
وعُدَّتِى وعُمْدتى ومعْتِـدِى ... وأنا برىءٌ من عدَاك مُقتَدِى
إن لم تكنْ ذِى نِيَّتى لم أسْعَدِ ... لولاكَ لَمْ أسْمُ ولم أسْدَّد

ويقول فى مناسبة أخرى مشيرا إلى أولئك الكائدين الذين يضمرون له الشحناء(٢) :

كم مُضْمِرٍ لِى عُقَد الشَّحنَاءِ ... ينسُبنى فيكَ إلى السَّوآءِ
جبَهْتُهُ(٣) بالـرَّدِّ والإقصاءِ ... ولم تمكّنهُ من الإصْغَاءِ
حفظاً لطَاعتِى وللإخـاءِ ... حتَّى انثنَى محترِقَ الأحْشاءِ
والعَدْلَ جبْـهُ الكاشِح السعَّاءِ ... لا ، والدَّمِ الجارِى بكَرْبلاءِ

---

(١) ديوانه ص ١٣٧ .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

(٣) الجَبْهُ المقابلة بما يكره المرء أن يواجه .

ويقول :

ومـن بهـا مـن دائـم الثَّـواءِ
بنـى علـيٍّ وبَنـى الزَّهْـراءِ
ذَوِى التَّناهِـى وذَوِى العَـلاءِ
ما حِلْتُ عن مُستحْسنِ الصَّفاءِ
فيكَ، ولا عَنْ خالِصِ الوَلاءِ
فـى ظاهـرٍ مِنِّـى ولا خفـاءِ

وليت الأمر استقر بين الشاعر الأمير وأخيه الخليفة ، فالنفوس مهما خلصت تزلزلها أطماع وآمال ، وترتادها نزوات ، وقد يسمع الخليفة والنفس مهيأة لأن تتلقى قولا عن أخيه الأكبر ، وقد تثور نفس الشاعر الأمير ، أو تحدثه فينطق علانية فى مجالسه الخاصة بين شيعته وأهله ، كلمة لا تسر الخليفة عن حق مغتصب أو عن أمل يراوده ، فيتعصب عند سماعها ، ولا يخفى على ذوى السلطان حاشية ، فلا يعدمون من يشى ممن يبغى القربى على حساب الوفاء والمروءة .

وعلى أية حال فإن الأمور لم تصف بين الأخوين ، واعتكر الماء الجارى وربما أضمر الخليفة أمرا ، أو لعله بعث لأخيه من يحذره ، أو يتهدده ، ثم من ينصحه بالابتعاد عن القاهرة ، ويختار لنفسه منفى .

ويتلقى الأمير التحذير ، فيقع من قلبه موقع المرارة على لسان لم يذق إلا حلو العيش فى بلهنية السلطان ، ورحاب القصور الخليفية ، وبساتين العز .

كان ذلك حول عام أربع وسبعين وثلاثمائة (٣٧٤ هـ) . ويخرج الشاعر الأمير من القاهرة متجها شرقا إلى سيناء ففلسطين حيث اختار الرملة بها مقصدا ، ويشير إلى ذلك فى قوله مسجلا أحداث ما بين الأخوين :

رضيتُ بُحكمِ سَابقَةِ القَضَاءِ وإن أضحتْ تكدِّرُ صَفْوَ مَائى
وهل يَستطِيعُ أهلَ الأرْضِ حَلاًّ لِعَقدٍ شُدَّ من فوقِ السَّماءِ
إلى كَمْ تَهدِمُ الأحداثُ رُكنِى وَترْمِينى بجَوْرٍ واعتِدَاءِ
يُعاقبنى الزَّمانُ بغيرِ ذَنْبٍ وتخذُلنِى يَدى وذوو اصطِفَائى
ويَسْعَى بِى لمنْ لو جَاءَ سَاعٍ بِهِ عِنْدِى لخُضِّبَ بالدِّمَاءِ

حَياتى بينَ واشٍ أوْ حسُودٍ ... وسَاعٍ لى يُسرُّ لِطَولِ دَائِى
فإنْ وشّى عَلىَّ الزُّورَ باغٍ ... فصبْراً للمقَادِرِ والقَضَاءِ
وما أنا يا أبَا المنصُورِ إلاّ ... كما تَدْرِى على محْضِ الوَفاءِ
أتعْلَمُ كيفَ كانَ لكَ انعِطافِى ... وكيفَ رأيْتَ قِدْما فيكَ دَائِى
أحينَ ملكْتنِى والنَّاسَ طرّا ... ورُحتَ خَليفةً فى ذا الفَضَاءِ
وحينَ رجوتُ نصرَك لى فإنّى ... بمُلكِكَ بَالغٌ أقصى رجَائِى
يجيئك مُبغِضٌ لِى ساعياً بِى ... يرُومُ لديكَ تَقضِى فى الخَفَاءِ
فيثلَبنى ويرجعُ سالماً لمْ ... تَهِجْكَ عليهِ أسبَابُ الإخَاءِ

ويظل يوالى هذا العتاب المر لسماع أخيه وشى الوشاة حتى يقول :

فقد طيبت عيشى فى سرور ... وقد أنعمت بالى فى رخاء
وعيشى زائدٌ طيباً إذا لم ... يُكدِّرهُ لدَيْكَ بنُو الزِّناءِ

قصيدة مفعمة بالألم ، ينفثها قلب مزقته المعاناة فى تلك العلاقة الحساسة بين الأخوين أحدهما صاحب السلطان والكلمة المطاعة ، وكل الناس يتوددون إليه والآخر مظلوم مهضوم الحق مع أنه الأكبر سناً ، لكنه رضى بما قسم الله له لأمور كما يقول تجرى بعقد من السماء لا يحله أبناء آدم على الأرض ، مؤمن بالقضاء والقدر وأن هذا قدره وهو يحس بأن الزمان يتعقبه ، على الرغم مما يعيش فيه من نعمة ظاهرة ، لكنها نعمة حسٌ ، تخفى شقاء للروح ، وعذابا للنفس ، وما أشقى النفس التى تنكب فيمن تحب ، وتشقى بمن ترتجى على يديه إسعادها .

ويزيد عذابه أن يرى أخاه الأصغر الذى أحبه ، وكان له فيه رأى يرتضيه يرى هذا الأخ جلاده بعد أن ملك زمام السلطة ، وأمسك بمقاليد الأمور ولكن هكذا الدنيا .. وهكذا السلطان لا يراعى حرمة ولا رحما . ويصدق فى ذلك المثل « السلطان من ابتعد عن السلطان » .

ويمر الأمير فى طريقه إلى منفاه الذى اختاره أو اختير له ، ويمر بعين شمس فتهجس فى نفسه هاجسة ربّة الشعر ، ويحوّم حوله شيطانه فتدور على لسانه أبياته[1] :

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

ولما أثاروا البُزْلَ وهْناً وأشأمُوا وحثَّ بأقمارِ الهَوادِجِ حَادِى
وحالَ الأسى دونَ البُكا فعيُونُنا من البَيْنِ حسرَى والتأسُّف بادِى
أمَطَرْنَ دمَقسِىَ المَلا عَنْ روَادِفٍ رُواءٍ ولكنَّ الخُصُورَ صوادِى
فلم تعْصِ سُلطانَ المدامِعِ مُقلَتِى ولمْ يتحصَّن بالضُّلوعِ فؤادِى
أجِدَّكَ لا أنفكُّ فى كلِّ ليلةٍ أراعُ ببينٍ أو أهيمُ بوادِى !!

ويذكر بلبيس فى طريق رحلته الشامية ، وينزل بالعبّاسة(١) :

هذا الفراقُ فمَهْلاً أيها الحَادِى لا شيءَ أوجعُ من بينٍ وإبعَادِ
استودع الله من فقدى لرؤيتِهم أمرّ من فقدِ شُربِ الماءِ للصّادِى
لولا دمُوعىَ فى يومِ الودَاعِ إذًا لأحرقَتْ زَفراتِى ثمَّ عُوّادِى
فإن قضَى بالتلاقِى الله ثانيةً فالشُّكر أعظَمُ ما صيرتُه زَادِى

واستقر به النوى بالرملة ، وهناك طافت برأسه رؤى الوطن وأحبابه بالقاهرة ومنازهها فكتب يتشوق(٢) :

تغيَّـر بعدكَمْ حَالِــى وساءَ لبُعدِكَم بالِــى
ولا والله ما قَلبِــى لكَم نَاسٍ ولا قَالِى
ودِدْتُ لو انَّكَم تدْرو نَ أشْواقِى وبَلْبالِــى
ودَمعى عنـد ذِكراكُمْ وإطْراقِــى وإذلالِــى
فهلْ تلقَونَ ما ألقَـا هُ مِنْ وَجدٍ وإعوَالِ
لقاؤُكَـــمُ وقربُكَـــمُ مُنَى نفسِى وآمالِــى
علىَ أنى وإن كُنتُ المُــ حَبَّ السيِّـدَ الغَالِــى
لألزِمُ حُبَّكَم قلبِــى وأجعَلَ حالَكَم خالِى
فهَلْ أنا شُغْلُ أنفسِكَمْ فأنتُمْ كلّ أشغَالِــى

كتب من الرملة إلى من تخلف بالقاهرة من الأهل(٣) :

أنتمُ فى المَنَامِ حُلمِى وانتم فى انتباهِى سؤْلِى ، وأنتُمْ مُرادى
كلّ عضو مِنّى إليكَم مُشوقٌ زائِدٌ توْقُه علَى الإبعادِ

---

(١) ديوانه ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ص ١٤٨ــ١٤٩ .

لم أفارقكُمْ ولكنَّ جسْمِي بانَ عنكُم وحَلَ فيكُم فؤادِي
فهنيئاً لكُم بكائِي عليكُمْ وهنيئاً للعَينِ طولُ السُّهادِ
كلّما حثَّنِي اشتِيَاقِي إليكُمْ قلتُ لبَّيكَ أنتَ نِعْمَ المُنادِيْ

وبعد فتلك محنة الأمير الشاعر مع الخلافة والأب والأخ ، عبّر عنها من خلال هذه النفثات الشعرية التى أطلقها وبقيت منها تلك الأبيات فى ديوانه ، ولعله نطق كثيرا ولم يبق لنا مما نطق إلا ذلك القدر ، وهو قدر يسمح على كل حال بأن تتصور حاله وإن لم يقفنا على تفصيلاتها ، وتقلب أمورها .

ولقد شغلت أحوال أسرة المعز قدرا من شعر تميم الأمير الشاعر ، كما شغل بنفسه فى شعره ، فافتخر وكشف عن مخبآت صدره ، وعن عقيدته وعلاقاته بغيره ممن أحب أو كره .

وطبيعىّ أن يشغل شاعر أمير بأحوال قومه ، وأحوال نفسه فهو لم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والحصول على المال فيمدح هذا من الملوك أو الرؤساء أو ذاك من الأمراء والقادة لقاء جائزة ، فهو غنى عن هذا بما لديه ، وهو إنما يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن مواجده ، فى أفراحه وأتراحه . فهو إذا مدح فإنما يمدح الخليفة لأنه أخوه ، ولأنه رمز السلطة والدولة الفاطمية والإمام المطاع وولىّ الأمر ، وواجب عليه الولاء له وتقديم هذا الولاء فى كل مناسبة أبياتا من الشعر بين يديه .

وإذا مات أحد أبناء الأسرة الفاطمية رثاه كذلك وتفجع عليه ، فمراثيه كمدائحه كلها فى أقربائه وأعز الناس لديه ، لا رياء ، ولا مجاملة ، ولا ابتغاء قربى من أحد .

ومن مراثيه قوله يرثى أخاه عبد الله(1) :

أىُّ خطبٍ أرَى وأىَّ ليالٍ دهمَ الناسَ صرفُها المحذورُ

ويقول فيها :

كيف لم تسقطِ السَّماءُ على الأرضِ ، ولم تَهْوِ شمسُها والبدُورُ
يوم ماتَ الأميرُ بل يوم ماتَ الصَّبرُ فيه، بلَ يومَ ماتَ السُّرورُ

---

(1) ديوانه ص ١٤٩ .

يومَ بُلّ الثّرى عليهِ من الدّمـ ـعِ وقـدَّتْ على القلـوبِ الصّدُورُ
يومَ حُطّتْ عَمائِمٌ وأذَاعَتْ سِرَّها فيهِ أدوُرٌ وخُدُورُ
يومَ أبكى العيونَ حتّى بكاهُ الأسدُ الوَرْدُ والغزالُ الغرِيرُ
قبرُوا شخْصَهُ وواروْا سناهُ وتدلّوا والفائِـزُ المقبـورُ
كم نصيرٍ لهُ هُناكَ ولكنْ ليسَ من سوْرَةِ الحِمَامِ نَصِيرُ

* * * * *

يا أخِى ، أىُّ عبْرةٍ ليسَ تهْمِى وفؤادٍ عليكَ ليسَ يَطيرُ
يا أخِى، وإنّ بكتْكَ عيْنِى فإنّى بالبُكَا والأسَى عليكَ جَدِيرُ
يا أخى عبد الله أىُّ مُسَاعٍ لمْ يفقْهُنَّ سعْيُكَ المبْرورُ
يا أخى إن صاحبى وأخى بعد ك تَلهابُ لَوعةٍ وزفيرُ
وفؤادٌ عن السُّلوَ عنيـدٌ ومن الصّبرِ والعزاءِ نفورُ
كنتِ مِلءَ الجُفونِ نُوراً فأمسَـ ـتْ ملؤُها مدْمعٌ عليْكَ غزيرُ

هذا رثاء غير رسمى ، من أخ لأخيه ، ولوعته فيه لوعة صادقة ، ودمعُهُ دمع محترق بالفراق ، وشعوره بأن الدنيا ضاقت وأظلمت شموسها وتهاوت بدورها ، شعور غير كاذب ، لأنه طبيعى من أخ نحو أخ أحبه ورافقه ، ودرج تحت عينيه ، ولعبا معا صبيين ، أو صبيا وفتى .

ومثل لوعته ورثائه لأخيه عبد الله كانت لوعته ورثاؤه لأخيه عقيل الذى ولاه المعز ولاية عهده ، متجاوزا الأمير الشاعر تميما ، وحقه فيها . ومع ذلك لم يمنع ذلك الأمير الشاعر من أن يسكُبَ دمعه ، ولا لِسَانه من أن يزفر هذه الزفرة ليقول(١) :

قِسْمَةُ الموت قسمةٌ لا تجورُ كلّ حىَّ بكأسِها مخْمُورُ
يستَوِى كلّ من أذَاقَتْهُ منها لا أميرٌ يبقَى ولا مأمُورُ
نحن فى غَفلةٍ وللموتِ فينَا طَالبٌ مُدْرِكٌ مُجدٌّ قَدِيرُ
نستَطِيبُ المُنى وهُنَّ عَواصٍ فنُطِيلُ الآمالَ وهىَ غُرورُ

ويقول فيها :

---

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

ـ كدر الموتُ صَفْو عيْشى وهَل فى الأ ... رْضِ عيشٌ ما شَابَهُ تكْدِيرُ
قد تذكّرتُ بالمصائِبِ قومِى ... وجُدُودِى إنّى لِقوْمِى ذكُورُ
فرقتهم يد المنونِ فبادُوا ... وحوتْهُمْ بعدَ القُصُورِ القبورُ
سلف صالحٌ وأملاكُ صِدْقٍ ... بهمُ تستَوِى وتُلْوَى الأمُورُ
ثم عِشْنَا ثلاثةً لفمِ الحا ... سِدِ من عيْشنا الحَصَى والصُّخُورُ
فعمرْنا بذاك مُدّةَ دَهرٍ ... كلّنا ظَاهِرُ الرّضَا مسرُورُ
لم يَعِشْ للمُعزِّ نسلٌ سِوَانا ... كلّ ميتٍ بنجْلِه مذْكورُ
فأصابتْ يدُ المنونِ منّا عقِيلاً ... وهو مثلَ القَضيبِ غضٌّ نَضِيرُ
حينَ هزَّ الشّبابُ أعطافَهُ الغِيـ ... ـدَ وحينَ استَوى لهُ التّعمِيرُ
لم يُجاوِزْ حدَّ الثلاثِين إلاّ ... بليالٍ ليسَتْ لها تكثِيـرُ
أين تِلكَ البشاشةَ الغضّةُ الطّلعَـ ... ـةِ ، والمنْظرُ البهىّ المنيرُ

* * * * *

صارَ من بعدِ ذلك الأنسِ وحشاً ... وهُو فى قعرِ حُفرةٍ مهجُورُ
آه من لوعةٍ لها فى سوَادِ العـ ... ـيْنِ دمعٌ وفى الفؤادِ زَفيرُ
كيفَ يبْقى امرؤٌ تولّى أبُوهُ ... وأخُوه فحبْلُهُ مبتُورُ

وظاهر من هذه الأبيات أن أخاه عبد الله توفى قبل أخيه عقيل وبالضرورة قبل نزار العزيز بالله ، ولعل الذى تولى الأمر قبل وفاة أبيه المعز كان عبد الله بشهادة هذه الأبيات ، فهو يذكر أن من تبقى بعد وفاة المعز ثلاثة أخوة هم على هذا ومن واقع هذا الشعر عقيل ، ونزار ، والشاعر تميم ، فأما نزار فقد أصبح الخليفة العزيز بالله بعد موت المعز لدين الله . وظل الأمير عقيل وتميم ينعمان بالعيش إلى جوار أخيهما الثالث الخليفة حتى اختار الله إلى جواره عقيلا فلم يبق من الأخوة إلا تميم ونزار الخليفة .

وهكذا تأتى هذه المرثية وقد فقد الأمير أخاه الأول عبد الله وفقد بعده أباه المعز ، ومن بعدهما عقيلا ، فالموت تعاقب على أعز أهله وأحبابه ، ومن هنا كانت بداية الحديث أول الشعر عن الموت وقسمته ، وأن كأس المنية تدور وتدور ، ويذوقها كل حى ، فالموت قريب منه يخطف أعز من أحبهم ، وعايشهم ، ولا يفوته أمير ولا مأمور .

ويشعر بأثر الموت فى عيشه ، وعيش اسرته الأقربين ، ومن سلف منهم من الفواطم أبناء الحسنين . فهم كلهم فى ملحمة الموت خلف عن سلف :

فرقتهم يدُ المنونِ فبادُوا   وحوتْهُم بعدَ القصُورِ القُبورُ

وتختلف هذه المرثية فى تعبيراتها ومعانيها ، وفى نبضها عن مرثيته فى عبد الله ، وهو اختلاف أدى إليه السن والتجربة ، فالشاعر الأمير قد بلغ مبلغا من التجريب والعلم ، والسن هدهد فيه من اللوعة ، فلم يكن حزنه صراخا وعويلا وبكاء فياضا يروى الثرى ولم تهو الشمس ولا تبددت الأقمار ، ولا برزت ربات الخدور ، ومآل الذين آوتهم القبور فى ظلماتها ووحشتها .

هناك فرق لاشك بين هذه الأبيات وتلك سببه السن والعلاقة الخاصة بين الأخ المتوفى والشاعر ، وبين الأخ المتوفى والأسرة مجتمعة فى الأول والأسرة وقد غاب عنها كبيرها وأحد أفرادها ، وتعقبها الموت فى الثانى .

تميم الإنسان

فى شعر تميم ملامح إنسانية ، تكشف عما فى باطنه من عواطف وأحاسيس إنسانية ، ونجدها فى كل إنسان مكتمل البناء ، صحيح النفس ، سليم الباطن فيه شفافية الروح التى أودعها الله إياه ، وميزه عن غيره من سائر الحيوان وتتمثل تلك الشفافية فيما تعارفت عليه الإنسانية من سمو الخلق ، والترفع عن الدنايا والحب للناس والأشياء والرغبة فى الخير ، والطموح إلى الجمال وإلى كل ما هو جميل .

وندرك من قراءتنا لشعر تميم أنه رغم انشغال فكره بأحوال دنياه وصراعات الناس من حوله ، ودسائس الملك والسلطان ، وما خيم على العصر من اضطراب وخوف ، وقتال وموت ، وتساؤل عن المصير . أقول على الرغم من هذا كله نجده يكن فى داخله تلك الصفات الإنسانية التى ما تلبث أن تتكشف لنا هنا وهناك فى أبيات ينثرها فى طيات قصائده .

وأول ما نلاحظه اهتمامه بالصداقة والعلاقات الإنسانية ، والروابط الأخوية بين الأفراد ، تلك العلاقة السامية التى تحكمها سلوكيات تزيد من وثوقها وتلاحمها . ويؤكد معنى وفائه لأصدقائه وأحبابه فى قوله(١) :

لا أدَّعِي الفضْلَ قبلَ يشْهدُ لِي ... به أدْنى الدُّنَا وأقصَاهَا
ولا أرَى علىَّ للصَّدِيق يداً ... تَفسُدُ أنْعامُها بنُعْمَاها
من اصطفانِى بودِّهِ فَلَهُ ... عِندى يدٌ كالجبالِ صُغْراهَا

وكان من بين أصدقائه الذين وفى لهم ، وتبادل وإياهم رسائل المحبة والوفاء ، شعرا صديقه الشاعر أبو عبد الله الحسينى بن ابراهيم الرَّسىّ كتب إليه مرة :

لا شىءأحسن من خَلِيلَىْ غبطةٍ ... يتراضعان لُبان كُلّ وفاءِ
هذا يُناجِى ذا هَوىً ومحبةً ... أبداً ، ولم يستمتِعَا بلقَاءِ

وفى الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبعض خلانه معان كثيرة من الود .

قال ــ وقد كتب بها إلى بعض أصحابه ــ وكان قد اعتذر هذا الصاحب عن أمر جرى منه(٢) :

---

(١) ديوانه ٤٣٩ .

(٢) دوانه ص ٢٧٥ .

وقد قبلنا اعتذارَكَ المحضَ لمَّا ... جئتَ مُستَجْدياً لعفوٍ مُعَافِي
وصفحْنَا عن زَلَّةٍ لم تكنْ مِنْـ ... ـكَ مُراداً، ولا أتتْ عنْ خِـلافِ
وقد علمنا أنَّكَ المخلِصُ الحَافِظَ ... للغيبِ والوليُّ الصَّافِي
لكَ عندِي ــ فقرَّ عيناً ــ من المكْنَـ ... ـةِ ما لا تُحصيهِ مِنِّي القَوافِي
ليس نَصرِي لكَ الغداةَ بناء ... عنكَ مِنِّي ، ولا حِفَاظِي بَعافِي
كمْ سقيْنا عِدَاكَ عندَ الإمامِ العَـ ... ـدْلِ إذ فنَّدُوا بسُمٍّ زُعَافِ
وكسوْنَا رِيشاً جَناحيْكَ لما ... عَرِيَا من قَوادِمٍ وخَوافِي
وأنا في الجَمِيلِ عنكَ لنفسِي ... شاكرٌ حامِدٌ وجَازٍ مُكَافِي
إنَّنِي نَاظِرٌ إليكَ بعَيْنَيَّ ... من صَفَا وِدُّه صَفاءَ السُّلافِ

وتنطوى هذه الأبياتُ على معانٍ وسلوكيّات محببة فى العلاقة بين الصديقين والمحبين . معانى التواصل ، والصفح عن الزلل غير المقصود ، والتماس العذر للصديق ، وعدم تصديق ما قد يقع إلى سمعه من حاسد أو حاقد أو مبغض أو ناقم ، أو غير راضى عما بين الصديقين من تواد وتواصل ، وانتصار للصديق فى مواقف الضيق ، والوقوف إلى جانبه ومساندته عند حكم عدل كل هذا إلى الوفاء وجزاء كل عمل جميل من الصديق بما يستحقه من جزاء مقابل ، والتقرب إليه بكل ما يحفظ لتلك الصداقة متانتها ، ويشد من أزرها .

وأنا فى الجميلِ عنكَ لنفسى ... شاكرٌ حامدٌ وجَازٍ مُكافِي
إننى ناظِرٌ إليكَ بِعَيْنَىْ ... من صَفا وِدُّه صفاءَ السُّلافِ

ومعانٍ حلوة ، ليتها تكون دستورا للعلاقة بين الناس ، فتصفو لهم الدنيا ، وتحلو من الكدر كصفاء السلاف !!

ومع ذلك فالنفس الصافية قد تلقى فى الحياة نفوسا مظلمة ، وكثيرا ما هى فتعانى ضد ما ترغب فيه ، وتعتصر ألما لما تلقاه على غير ما تحب .. من قلة الوفاء والنكران . ولا أشد دلالة من هذه الصرخة[1] :

وبى فَتِحتْ للنَّاسِ كلّ غريبةٍ ... ومحكمةٍ ينشَقُّ منها الصفَا الصلْدُ
ومن كَانَ ذا عِلْمٍ بأهلِ زمَانِهِ ... تيقَنَ أنَّ النَّاسَ كلَّهُم وَغْدُ
وأنَّهُم لا يسْتَرِقّ حِفاظَهُمْ ... وفاءٌ ، ولا يَفْنَى لهُم أبداً حِقْدُ

(١) ديوانه ص ٣٤٠ .

إذا فَرَقوا أبدُوا وداداً وذِلة   وأنفسُهُمْ حَرْبٌ وألسُنُهُمْ لُدُّ

أولئك الذين جمدت قلوبهم ، وخربت نفوسهم ، لا خير يدفع إليهم بنافع لديهم ولا يسترق حفاظهم وفاء ، ولا يفنى لهم أبدا حقد ، فيهم اخلاق العبيد ، إذا خافوا توددوا وأبدوا المحبة والصفاء ، وإذا أمنوا ، تنَّمروا ، وانقلبوا ، وغدروا ، وأوقعوا ، ووقعوا ، وسلطوا ألسنة لُدًّا !!.

تميم الإنسان المعذّب فى سعيه ، وفى حظه ، والمعذب فى علاقاته ، لاشك تمر به لحظات من الضيق ، فلا يجد غير الشكوى ؛ الشكوى من الزمان والناس ، والشكوى من هذا الحظ العاثر .. فنفسٌ شقية تنفث همومها ؛ يقول(1) :

أقولُ لِسِرْبٍ من حَمامٍ عرضْنَ لِى   يغرِّدْنَ من فوقِ الغُصُونِ ويندُبْنا
ويسْكُنَّ فى خضْراءَ ناعمةِ الرُّبا   أنيقةِ روضِ النَّبتِ ، آنسةِ المغْنَى
بوارحَ لا يخْشَيْنَ بيناً ولا نَوى   روَاتِعَ لا يعْرِفْنَ هماً ولا حُزنَا
فقلتُ هنيئاً للحَمَامِ أمانُه   وإنْ كانتْ الأيامُ لم تُعطِنى أمْنا
أسِربَ الحمَامِ لو لَقيتُنَّ بعضَ ما   ألاقِى لأصبَحتُنَّ أوَّلَ من يضْنَى
ولو قد عَلِمتُنَّ الَّذِى أنا عالِمٌ   لَما نَاحَ منكُمْ هاتِفٌ ، لا ، ولا غَنَّى
ومن جَرَّبَ الأيَّامَ تجربتى لَها   درَى أنَّها ليسَتْ تدُومُ على مغْنَى
فحسبُكَ يادَهرُ ، اصطلَيْتُ بنارِ من   لو أنك سمٌّ فى تَراقِيهِ ما أنَا
وأكثرُ ما أهجُوكَ يا زَمِنِى بِهِ   من الفِعْلِ أنِّى لمْ أحسِنْ بكَ الظَّنا
ذمَمْنَاكَ يا صِرْفَ الحوَادِثِ فانتَصِرْ   وسوْنَاكَ يا رَيْبَ الزَّمانِ فخُذْ مِنَّا

وتلاحمت هموم الشاعر وأحزانه مع هموم قومه وعشيرته من الشيعة الذين يحسون فى أعماقهم اضطهادا وظلما ، ذروته وحدثه الدامى مأساة الحسين ، التى كثفت الظلم الواقع عليهم من المجتمع الإسلامى ككل .. وتراه فى مناسبة هذه الذكرى الأليمة ذكرى استشهاد الحسين فى كربلاء تفيض نفسه بأبيات ينوح فيها نوح الحمام ، ويئن أنَّة المكلوم . يقول فى واحدة :

أعاذِلَ لِى مِنْ فُسحةِ الصَّبرِ مذهَبٌ   وللَّهوِ غيْرِى مَألفٌ ومَصَادُ
ثَوتْ لِىَ أسْلافٌ كِرامٌ بكربلا   هُمُ لثُغُورِ المسْلِمينَ سدَادُ

---

(1) ديوانه ص ٤٣٧ .

أصابتهم من عبدِ شمسٍ عداوة ... وعاجَلَهم بالنَّاكِثينَ حصادُ
فكيفَ يلذُّ العيشُ عفواً وقد سطا ... وجارَ على آلِ النبيّ زيادُ
بثاراتِ بَدْرٍ طالبُوهُمْ ومكّةٍ ... وكادُوهُم والحقُّ ليسَ يُكادُ
فحكّمت الأسيافَ فيهم وسُلّطتْ ... عليهم رِمَاحٌ للنّفاقِ حِدَادُ
فكمْ كَربةٍ فى كَرْبلاءَ شَدِيدةٍ ... دهَاهُمْ بها للنَّاكِثينَ كِيادُ
وكمْ بأعَالِي كرْبَلا من حفَائِرٍ ... بها جُثَثُ الأبرارِ ليسَ تُعادُ
بهَا من بَنِى الزَّهْراءِ كلّ سَمَيْذَعٍ ... جوادٍ إذا أعْيَى الأنام جوادُ
معفرة فى ذلك التربِ مِنهُمُ ... وُجُوهٌ بها كانَ النَّجاحُ يكادُ
فَلهْفِى على قَتلِ الحُسينِ ومُسْلِمٍ ... وخِزْىٌ لمن عادَاهُما وبِعَادُ
ألا كَبِدٌ تفنَى عليهِمْ صبَابةً ... فيقطُرُ حُزناً أو يذُوبُ فؤادُ
ألا مقلةٌ تَهْمِى ، ألا أذُنٌ تَعِى ... أكلّ قلوبِ العَالَمِينَ جمَادُ ؟!

والإنسان فى مسيرته الدنيوية يحس بالموت كلما زال عنه رونق الشباب ، أو جافته أحداث الدهر وتصاريفه ، وليس كشاعرنا إحساسا بالموت لخصلتين الأولى أنه شيعى وأن موت الحسين فى مأساته إحساس دائم مسلط على نفوس الشيعة ، فهم فى حزن أبدى ، والموت عندهم ملجأ ومهرب أحيانا ، ونهاية وعدمية تقلق الجسد الحىّ ، وإن كانت تسعد الروح لفكاكها من قيد المادة ، وظلم الطين ، وظلمته .

وأبيات تميم هذه تردد المعانى نفسها :

خليلىَّ بى ظمأٌ ما أراه ... يُبرِّدهُ غلَلٌ من حيَا
فلا تستَشيما بُروقَ السَّحاب ... فللرىِّ شيْمٌ ببرْقِ الظُّبا
أعينَا أخاً لكُمَا لمْ يبتْ ... علىَ طُولِ مسرَّاهُ يشكُو الوَجَى
ولم يَسترِحْ قلبُهُ من أسًى ... ولمْ تخْلُ أحشَاؤُهُ من جَوَى

تميم الشاعر المستمتع الفنان

عاش تميم حياة حافلة ، جمع فيها متع الحياة ، لم يترك فرصة تفلت من بين يديه إلا واقتنصها ليتذوق جمال الدنيا ، ويعبُّ مما تحفل به من الجمال واللذة .

لذا تراه يمارس لذات الحياة بين الخمر والنساء واللهو والصيد والطرب ، والتنزه فى الروضات ، وأشباع العين من جمال الدنيا ومفاتن الطبيعة .

أحب تميم الحياة وعبَّ منها ، وربما كان منشأ على ذلك طبيعة وخلقة ، وأتاحت له حياة القصر ، وثراء الإمارة كلّ ما رغب فيه فلم يغب عنه وطر ، ولم تقصر همته عن صيد لذة .

والخمرُ من لذّات الشاعر القديم والمحدث ، ألم يقل امرؤ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرّى كرة بعد إجفال

فاللذات الأربع التى ذكرها امروء القيس : المرأة والصيد والخمر والغارة ، جمع منها تميم ثلاثاً وأضاف إليها اثنتين هما حب الموسيقى والغناء ، والتملى من جمال الطبيعة ومباهج الحياة .

وشارك الشاعر فى حب الخمر من سبق من رصفائه منذ امروء القيس وطرفة والأعشى والأخطل وأبى النواس . وهو يشربها ليتسلى ويدفع هموم النفس ، ألم يقل فيها الشعراء أنها جالبة للمسرة !!. يقول[1] :

قهوة تهزمُ الهُمُومِ إذا مَا ... نازلّتها وتُطَربُ النُّدمَاءَ
إن دعتها الأنوفُ فاحتْ عبيراً ... أو رَنتّها العيونَ لاحت ضياءَ
فهى كالورْدِ حُمْرةً وذكاء ... وهىَ كالليْثِ جُرأةً ولقَاءَ

وله كأبى نواس زورات ليلية إلى دور الخمر وحاناته ، ومن ذلك قوله يصف زورة إلى خمارة امرأة شمطاء ، يقول فيها :

فأفضَى بنا الإدلاجُ بعد تعسُّفِ ... إلى زَوْلةٍ شمْطَاءَ منزلُها رَحْبُ
مُزنَّرة أما أبُوهـا فقيصَرٌ ... وحسبُكَ ملْكٌ جدُّه قيصرٌ حَسْبُ

(١) ديوانه ص ٢٣ .

قَصِيرِيَّةٌ دَيْرِيَّةٌ هِرَقْلِيَّةٌ تقاصَرَ منها الخطْوُ واحْدَوْدَبَ الصّلْبُ
وقالَتْ لَنَا أهْلاً وسَهْلاً ومرحباً قليلٌ لكُم منِّي البشَاشَةُ والرّحبُ

ولكن الأمير وهمومه تمتزج بلذاته ، بل إن هموم الأمير قد تتأبى على لذاته وتستعصى ، ويريد أن يصرفها بالسلوى والإنغماس فى ملاذ الحواس ، فتراه فى ممارسته لمتعه مع من أحب ، أو وهو يعب كأس الشراب ، تقتحم عليه صفو اللحظة خواطر الإمارة ، ومرارة الذكرى لما عاناه فيما اشرنا إليه ، فيقول مازجا الألم باللذة بعد حديث تنعمه بوصال الحبيب الذى بات ضجيعه(١) :

وإنى لألقَى كُلَّ خطْبٍ بمُهْجةٍ يهُونُ عليها منهُ ما يتصعَّبُ
واستصْعِبُ الأهْوالَ فى كُلِّ موطنٍ ويُمزَجُ لى السمُّ الزّعافُ فأشْرَبُ
وأغضِى علىّ مِثل الأسنَّةِ صَابراً ولو شِئتُ لمْ أصبْرْ وللسيف مضربُ
ولَسْتُ بإقبالٍ وإن سرّ فارحا ولا من عجيبٍ يعجبُ الناسَ أعجبُ

والخمر فى زحمة تلك الهموم لا تقوى على مغالبتها ، فيقول :

خَليليَّ ما فِى أكْؤُسِ الرّاحِ رَاحَتِى ولا فِى المَثَانِى رَاحَتِى حينَ تُطْرِبُ(٢)
ولكنَّنِى لِلمَجْدِ أرْتَاحُ والعُلا ولِلجُودِ والإعطاءِ أصبُو وأطْرَبُ

ومع هذا فهو لا يقوى على ترك لذاته ، فهى تشده إليها وكأنه خلق لها وخلقت له ، يجمع إلى الخمر المرأة ، وله معها جولات .

تميم والمرأة :

والمرأة فى شعر تميم ليست صاحبة ، ولا زوجا ، بل هى غالبا غانية أو قينة ، من نساء المتعة ، تمتعه حسا ، بمتع الجسد ، وصوتا ، بلذة الغناء . وغزله عامة يدور فى هذا المجال ، وهو رقيق مناسب لموضوعه . يقول(٣) :

وابأبِى الظبيُ الّذِى لو بَدَا للبدْرِ قالَ البدْرُ وأظْلَمَتَاهْ
أثّرتْ الألحَاظُ فى خدِّهِ فانتصفتْ مِنِّى لهُ مُقلتَاهْ
ثم رمَى قلبِى بألحَاظِهِ وابأبِى ألحاظَه من رُماهْ
كم سفكَتْ أجفَانُه من دمٍ نَمَّتْ عليهِنَّ بهِ وجْنتَاهْ

(١) ديوانه ص ٤١ .

(٢) وتروى « تُضرب » والمثانى الأوتار الثانية بعد الأول فى العود .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

يا قومُ ما بَالُ ظُلاماتِنا في الحُبِّ لا ينْظُرُ فيها القَضَاةْ ؟!
فتمنعَ المحبُوبَ من زَهْوِهُ وتُنصفَ العاشِقَ ممَّنْ جَفَاهْ
لا تَطلبُوا خَلقاً بقتْلِي سِوَى فواتِرِ اللّحْظِ وورْدِ الشِّفَاهْ
لو قِيلَ لِي ما تشتَهِي لمْ أقلْ شيئاً سِوَى قَلْعِ عُيُونِ الوُشَاهْ
يا مَنْ بَرانِي حبُّهُ وانتهَى بِي العنا من هجرِهِ مُنتَهاهْ
مَنعْتنِي الطّيفَ بِمَنْعِ الكَرَى مِنِّي فكدَّرتَ عليَّ الحَياةْ
واللهِ لا أنْسَى لَهَا قولَها مِن خَلْفِ سِجْفِ السّترِ واضيْعتَاهْ
متى استوتْ في الحُبِّ أقدارُنا حتَّى أواتيهِ وأبغِي رضَاهْ !!

غزل رقيق ، في بسيط من اللفظ ، وتدله ظريف ، مع عبارات جارية من متداول الحديث ، عامية ، لكنها تَظْرُفُ في سياق هذا الخطاب !

والشاعر كغيره من الغزلين يكثر من حديث أحواله مع المرأة ، وتقلبها بين اللقاء والفراق ، والشوق ولواعجه ، واللقاء ومتعة بين تقبيل وعناق ودمع يجرى حُرقةً أحيانا ، وسعادة أحيانا ، يقول في وصف الفراق في تعبير رقيق لا كتعبيرات غيره مما ألفناه(١) :

ما ذمَّ يومَ الفِرَاقِ إلاّ من غَابَ عن موقفِ الفِراقِ
أوّلُـهُ أننـا وُقـوفٌ للّثـمِ والضّمِّ والعِنَـاقِ
لا نتَّقِي فيه عَينَ واشٍ ولا نُدارِي ذَوِي النّفاقِ
إنْ هاجَ حَرُّ الودَاعِ شوْقِي فبالودَاعِ اشتَفَى اشْتِيَاقِي
لوْلَا الفِراقُ الّذِي دهَانا والبيْنُ ما أمْكَنَ التلاقِي

ويردد هذه المعاني نفسها في موقف الفراق ، وإن بدت متعارضة فيقول :

يومِ الفراقِ أهاجَ لِي حُرقَا وشفَى الفُؤادَ وسَكّنَ الأرقَا
قبّلْتُ من أهْوى برغْمِهِمُ في الجَهْرِ لا خلْساً ولا سَرَقَا
واريتُهـم أنِّـي أودِّعُهـمْ وشربْتُ قَهوةَ خدِّهِم دَفَقَا
لولا الوداعِ يا مليحةَ مَا قبّلْتُ وجهَكِ خمسَةً نسَقَا

أرأيت هذا الظرف النواسي ، وكيف جمع بين لوعة الفراق ، ولذة العناق .

---

(١) ديوانه ص ٣٠٠ .

وهكذا حديث تميم فى غزله عندما تصفو نفسه من كدر الملك وأعبائه وهمومه ويخلو إلى نفسه ، ويرقّ ويعذُبُ قولا عن المرأة حين(١) يودّعها فيقول :

قالَتْ وقد نالَها للبينِ أوجعُه ... والبينُ صعْبٌ على الأحْبابِ موقِعُهُ
إجعَلْ يديْكَ على قلبِى فقد ضعُفَتْ ... قُواهُ عن حمْلِ مما فيهِ أضلَعُهُ
كأنّنى يومَ ولّتْ حسْرة وأسى ... غريقُ بحرٍ يرَى الشّاطِئَ ويُمْنَعُهُ

ويحاورها تارة فيلطف ، ويقول فى دلّ عُمرِى :

قالت : أغدْراً بنا فى الحب ! قلت لها ... لا نال غاية ما يرجوه من غدرا
قالت : فلم لم تزرنا؟ قال : زاركم ... قلبى ، ولم يدر بى جسمى ولا شعرا
قالت : كذا يكتم العشاق حبهمو ... فينعمون ويجنون الهوى نضرا ؟
قلت : اسمحى لى بتقبيل أعيش به ... قالت : وأى محب قبل القمرا ؟

ويقول وفى قوله سمة الحضارة والامارة (٢) :

رأتْنى وفِى كفّىَّ وَرْداً أشمُّهُ ... وأرفعُه حُبًّا على العيْنِ والخدِّ
فقالت : تذكّره وجْنتِى باحمِرارِهِ ... فقلْتُ : ولِمْ لا ؟ يُذَكّرُ الوردُ بالورْدِ

ويظرف كذلك فى رواية حديث دلها تياهة ليقول :

شبَّهتُها بالبدر فاستضحكت ... وقابلت قولى بالنّكر
وسفّهتْ قولى وقالَتْ متَى ... سمُجتُ حتّى صِرْتُ كالبَدْرِ
البدْرُ لا يرنُو بعينٍ كمَا ... أرنُو ولا يبسِمُ عنْ ثغْرِ
ولا يُميطُ المِرطَ عن نَاهِدٍ ... ولا يشُدُّ العِقْدَ فى نَحْرِ
من قاسَ بالبدرِ صِفَاتِى فلا ... زالَ أسيراً فى يدَىْ هَجْرِى

ويمزج تميم فى شعره بين المرأة ومفاتنها ومتعته بجمالها ، وبين الموسيقى والغناء ، فيجمع بين لذة الحس والنظر ولذة السمع والطرب ، ويرى أن الغناء جالب له السرور :

ليسَ إلا الغِناءُ يُظهِرُ بثّى ... ويُقَوّى علىَّ جيشَ السّرورِ

---

(١) ديوانه ص ٣٠١ .
(٢) ديوانه ص ١٣٠ .

يا نديمى اتَّخِذ سِوَاىَ فإنّى ... لستُ أحيى بِدُونِ مثنى وزيرِ
سيما إذا بذا بلفظٍ رَخِيمٍ ... وتروّى بلَحْظِ طرفٍ سَحُورِ

ويكشف عن متعة السمع ، وما يحدث الغناء من لذة فيقول(١) :

ألستَ ترى سحَابَ اللّهوِ يهْمِى ... على اللّذاتِ أمطارَ السُّرورِ
ورجعَ الزُّمرِ يشكُو ما ألاقِى ... إلى الأوتارِ من ألمِ الزَّفيرِ
وصوتُ الطبلِ بينهُما يُنَادِى ... ألا هبُّوا إلى شُربِ الكَبِيرِ
فيالَكِ من مُشاهدةٍ تجَلّى ... بظاهِرِ حُسْنِها هَمَّ الصُّدُورِ

فالغناء ، والموسيقى بآلاتها بين مزمار وعود ، وبربط وجنك ، وطبل تطهر صدره من عناء الهم .

ويتذكر الحبيب فى مجلس الغناء بين الكأس والزهر ، لا كذكرى عنترة لعبلة وسط المعركة وبين قتام العجاج حين تلمع فيها السيوف كبارق ثغرها المتبسم ؛ يقول تميم فى مجلس أنسه وطربه متذكرا محبوبه :

ذكرتُكِ ما بينَ كَرِّ الكُؤوسِ ... وقدْ أقبَلَ اللّهْوُ مُرْخَى العِنَانِ
وقد جاوبَ الزّيرُ فى جذبِهِ ... مع البَمِّ ترجيعَ صوتِ المَثانِى
وجاوبَ قُمْرِيَّــةٌ فاخِتٌ ... وعالتْهُمـا نغَمـاتُ القِيـانِ

والزير وترُ العود الرقيق ، وهو أحدُّ الأوتارِ نغما ، والبمّ ، وتره الغليظ والشاعر فى هذا الحفل الموسيقى الغنائى وسط الطبيعة ، بهج والدنيا كلّها فرحةٌ من حوله تتجاوب أغانى القيان مع نغمات العود ، وترانيم أوتاره مع شدو الطير بين أغصان الروضة ، ألا ترى كيف أحس الشاعر فى أعماقه بالطرب ، وبأن الحياة كلها من حوله فى وحدة حسية ، وسبحة وجدانية يحلق فيها ، بعيدا عن واقعة فى آفاق من المتعة والرواء !

ومثله يقول فى مقطوعة :

كتبت يا واحِدَ الأملاكِ والبَشَرِ ... والرَّاحُ لم تُبقِ لى لبّاً ولمْ تَذَرِ
وقد بدَا النَّاىُ فى شَكْوى صبَابتِه ... مُجَاوِباً لأنينِ الطّبْلِ والوَتَرِ

---

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

ونحنُ في طَربٍ ما مِثْله طَرَبٌ   يستَصْحِبُ اللّهوَ في مُستقْبَلِ العُمُرِ
وفى غِنَاءٍ إذَا حثَّتْ أوائله   أغنَى النَّدامَى عن الأنْوارِ والزَّهَرِ

ويؤلمه أن يفقد من كان يغنيه ويشجيه ، ويذكر بفقده مجلس غنائه ومتعته ويرى فى فقده ضياع دنياه ولذته ، ألا يقول فى رثاء قينة مغنية[1] :

ذكـرتُك بالريحَـانِ ذكـرةً   مُردَّدةً كادَتْ لها النفسُ تُزهَقُ
فلما تناولْنَ الغِنَاءَ شَوادِياً   واتبع مزمُوماً من الضَّرْبِ مُطلَقُ
تَتَبَعَتْ العينانِ شخْصَكِ فيهِمُ   فلما نأى ظَلَّت دمُوعِى تَرقرقُ
إلى الله أشكو فقدَها مثل ما شكا   إلى الله فقدَ الماءِ عطشانُ مُوثَقُ
كأنّ فؤادِى مُنذ بانَ بِها الرَّدى   جناحٌ وهتْ أجزَاؤهُ فهو يخْفِقُ

صورة واقعية شجية ، رسمها الشاعر بكلماته الصادقة يعبر عن فقده لهذه المغنية التى غيبها الموت فجأة ، لقد اعتاد التطلع إليها وسط رفيقاتها فى جوقة الغناء ، فيحظى طرفه باستجلاء جمالها ، ويحظى سمعه ، بعذب غنائها وغابت فتطلع الطرف يبحث عنها فى لهفة وقد تردد صوت الغناء وارتفع الضرب وحلجل اللحن ، فلم نزها العينان ، وأحس الشاعر بالفقد فجرت دموعه وغاب عن مجلسه ليحس بأن الردى اختطف منه أنسه فاقتص من جناحه المحلق فى فضاء المتعة ، فهوى .

والطبيعة مكملة دائما للمرأة والخمر والغناء والموسيقى وكان غرامه بالطبيعة كغرامه بغيرها مما يحس فيه بأنس اللقاء ، ومتعة الاندماج والتسامى بوجدانه وأحاسيسه ، يستمع إلى الناعورة تئن فى حقول الفسطاط أو حولها فى حلوان وعلى شاطىء نيل القاهرة ، تدور ويتدفق الماء من أضلاعها فيقول :

وناطقَـة كلّمـا حُرِّكَتْ   وليستْ بناطِقةٍ فى السُّكونْ
تَئِنُّ إذا دَارَ دُولَابُهـا   فتُطرِبُ سَامِعَهَا بالأنِيـنْ
وتبكِـى وليسَتْ بمحْزُونَـةٍ   بكاءَ المحبِّ الكئِيبِ الحَزِينْ
وتنطقُ بالصوتِ لا مِنْ فَمٍ   وتذرِفُ بالدَّمعِ لا مِن جُفونْ
كأنّ لهَا ميتاً فى الثّرى   فأدمُعها هُمَّعٌ كلّ حِينْ
إذا زمّرتْ أطربَتْ نفسَها   فغنّتْ بمخْتَلِفاتِ اللّحُونْ

(١) ديوانه ص ١٥٠ .

غِنَــاءٌ يُرقِصُ كيزانهـــ   ويُظهِرُ فيهِنَّ وثبَ المجُونْ
وتَهوِى فوارِغُ و بئرِهـا   وتصْعدُ منها ملاءَ العُيونْ

ويقول فيها مرة أخرى :

ناعـورةٌ أنَّــتْ أنِينَ الهَوَى   لمَّا شكَتْ حَرَّ وسْواسِها
أنينُهَـــا صرَّةَ تدوِيرِهــــا   ودمعُهـــا ماءُ قوادِيسِهــــا
كأنَّما الكِيزانَ فى بئرِهَا   هامُ مُلوكٍ فى نَواوِيسِهَا
تَقذِفُ بالماءِ إلى روْضَةٍ   كأنَّهـا رِيشُ طواوِيسِهَــــا
كأنَّما السَّرْوُ بهَـا نِسْوَةٌ   قامَتْ إلى قَرْعِ نَواقِيسِهَا
ويُحسبُ الخَشْخَاشُ من حَوْلِهَا   أيدٍ أشَارَتْ بِدَابِيسِهَــــــا
وانفتحَ النرجِسُ عن أعيُنٍ   مُصْفَرَّةِ الأحْداقِ من بُوسِهَا
وأقحوانٌ كثُغُورِ المهَـــا   مُفْتَّرةً بعـدَ تَعْبِيسِهَــــا
وسَوسَنٌ كالقُرصِ لما بدَتْ   آثارُه فى لِيـنِ نامُوسِهـا

وفى الناعورة يقرأ الشاعر أشياء فى صوتها ، ويسبح مع خيالاته مستلهما المعانى ونافثا من صدره خَبيئَاتِهِ . والناعورة تسكن وجدان كل مصرى فلاح أو من يمر بالحقول ويعيش فى طبيعتها ومروجها الخضراء .

والشاعر كثير الخروج إلى المروج والبساتين فسكنت الناعورة وجدانه واستلهمها بعض المعانى ومزج فى الناعورة صوت الطرب بالأنين ، أنين الشكوى من الزمن وأنين الشقاء فى الهوى ، وتلمس فى شعره عن الناعورة هذا الدفق الغريب لأحاسيسه المتعارضة كأنما عقله الباطن ينفذ من بين الكلمات ليعبر عن مواجعه ومواجده وأفراحه وأتراحه فيمزج الأنين بالطرب ، وينثر ألفاظ الحزن والأسى من بكاء وحزن وكآبة ودمع مع الزمر والطبل وألفاظ الغناء والموت موت الملوك مع اصفرار الأحداق ورقص الكيزان وتفتح النرجس وثغور الأقحوان المبتسم كل هذه الأحاسيس المتعارضة المتضاربة ينفثها فى هذا الكلم ويتخذ من الناعورة مادة لنفثاته ، ومعرضاً لمشاعره ومجلى لتجربته النفسية ، وتراه يكرر هذا الشجى الممزوج بالشجن ، والألم الممزوج باللذة ، والحياة الممزوجة بالعدم فى حديث عن الشمعة من نفثةٍ شعرية يقول فيها(١)

(١) ديوانه ص ٢٥١ .

وفاتنةٍ ظُلمَةَ الحِنْدِسِ إذا نعسَ النَّاسُ لم تنعَسِ
متوجةٍ فوقَ يا فوخها بتاجٍ من اللّهبِ المشمِسِ
إذا أوقدت نثرتْ أدمُعاً عليه من الذّهبِ الأملسِ
وإن نامَ جُلاّسُها لم تَنمْ وإنْ جلَس العبْدُ لم تجلِسِ

ويقول فيها مرة أخرى :

وصفراءَ تُكثِر إينَاسَهـا تعيشُ إذا قطعُوا رأسَهَا
تُغازِلُها الرِّيحُ فى مَرِّها ولكن تُقطِّعُ أنفاسَهـا
ولم أرَ منْ قتلتْ نفسَها سِواها لتُسعِدَ جُلّاسَهَا

ولذةُ الصَّيد والطّرادِ هى من ملاهى الملُوكِ والسَّادة ، منذ الجاهلية الأولى جمعها امرؤ القيس إلى متعَ الخمر والنساء . كذلك فعل غيره من مرفهى الشعراء بعده على اختلاف العصور ، واتخذوا للطرد وزن الرجز ليتلاءم الإيقاع مع المضمون .

ونذكر بهذا طرديات أبى نواس وما جمعه كشاجم فى المصايد والمطارد . يقول تميم يصف فرسه فى طراده للصيد :

مستكملَ التّحجيلِ مُستوفَاهُ
أديمُـه وبطنـه أشبـاه
مخالـفٌ أسـفلُهُ أعـلاهُ
بدُهْمَةٍ قد مـلأت قرَاهُ(١)
وانصبغـتْ مِنـه ألْيَتـاهُ
فهو دُجًى يَحْمِلُه ضُحَاهُ
تَسبِقُ أقْصَى لحظِهِ خُطَاهُ
لا يطأُ التُّربَ ولا تلقَاهُ
رِجلاهُ فى العَدْوِ ولا يَدَاهُ
كأنَّه يَطِيـرُ فى مجْـرَاهُ
إذا دعَا ليْثَ القَلا لبَّـاهُ
أسرَعُ للشَّىءِ إذا ابتَغَاهُ

(١) قراء : ظهره .

من مبْلغِ السَّهمِ لمنتهَاهُ
مُرتَبِطَ الرِّجلِ بما يرَاهُ
كاللّفظِ مُلتفاً بهِ معْنَاهُ
تحسَدُ منهُ يَدَهُ رِجْلَاهُ
يَسْبِقُ أُخرَاهُ بهِ أُولاهُ

وهو وإن كان قد فصل معنى امرىء القيس فى وصف فرسه حين قال :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مِقبلٍ مدبرٍ معاً كجُلمُودِ صخرٍ حَطّهُ السَّيلُ من عَلِ

ووصفه بأنه قيد الأوابد ، إلاّ أنّ إيقاع الرجز وتفصيلات الحركة السريعة التى تتبعها مع اعضاء جواده أرجله وبطنه ، اكسبت أبيات تميم إيقاع الطرد وثبت فيها حيويه الأقبال والادبار وسرعة العدو . ويتصل بهذا الموضوع الصيد حديثه عن البازى من طيور القنص حيث يقول(١) :

وأشهَبٍ مخلبُه شبَاهُ
كلّ ذوَاتِ الرّيشِ من عِدَاهُ
بات يهيجُ جوعَه غذَاهُ
كأنّ فصّىْ ذَهبٍ عينَاهُ
يكَادُ أن يحرِقَهُ ذكاهُ
لو طلبَ الكوكبَ لالتقَاهُ
بيناهُ يبغِى جائِعاً قرَاهُ
إذ وقعَ الحبرَجُ فى رُؤَّاهُ(٢)
وحلّهُ القابِضُ مِن يُسرَاهُ
وطارَ يهوِى نحوَه يغشَاهُ
حتى إذا قاربَهُ عَلَاهُ
بوقعةٍ هدَّ بها قوَاهُ
كمَا وهَى من شطَنٍ رَشَاهُ
ثم بَدا وهُوَ علَى اقفَاهُ

(١) ديوانه ص ٢١ .
(٢) الحبرج : من طيور الماء .

وبين من فؤادِهِ حشاهُ
مُخضَّباً من دَمِهِ ثَراهُ

وإذا كان الشاعر قد وصف البازى من طيور الصيد ، وتتبع هذا الطير الجارح يغتال فرائسه من البغاث ، فقط تعاطف مع نوع آخر من الطير اتخذه الشعراء أليفاً ونجياً ، أعنى الحمام ذلك الوديع النائح ساكن الطلح ، أو القمرى الغرد فى الروض ، ويعرض لهذا الطير فى معرض الذكرى والنسيب والشوق إلى الحبيب كغيره من الشعراء المحبين ، والذّكرى تجمع العاشقين ، فالحمامة تبكى الهَدِيلَ النَّازِح .

والشاعر يقول :

أأن ناحَ قُمرِىٌّ بغُصنٍ بَشَامةٍ ... وغرَّد فى أعْلا الأَراكِ حمَامُ
أهاجَ لكَ التَّذكارُ شوْقا كأنَّما ... له بينَ أحناءِ الضُّلوعِ ضِرَامُ
خليلىَّ هل بعدَ الفِراقِ تَواصُلٌ ... وهَل بعد توديعِ الحَبيبِ مُقَامُ
دَهَتْنِى النَّوى حتَّى كأنَّ أحبَّتِى ... على القَربِ مِنِّى ، والدُّنوُ حرَامُ
وممَّا استهَامَ القلبَ وهْوَ مُصدَّعٌ ... وأوهَى جُمَانَ الدَّمعِ وهو سِجَامُ
مُطَوَّقةٌ ورْقَاءُ تندُبُ شَجْوَها ... وتسهَرُ فيه اللّيلَ وهوَ تَمامُ
تنُوحُ بِلا دمْعٍ ، وللحُزنِ آيَةٌ ... على نَوْحِهَا مَشهُورةٌ وغرامُ
ألا يا حَمامَ الأيكِ مالَكَ والهَّا ... كأنَّكَ ممَّن أسكرَتْهُ مُدَامُ
كلانا مُحِبٌّ صدَّعَ البينُ شَمْلَهُ ... وكلّ مُحِبٌّ بالفِراقِ يُضَامُ

ويغرم الشاعر بمجالى الطبيعة ، رياضها ، وأزهارها ، وهو عاشق للزهر يتوسم فيه جمال الخلقة ، وبدع الخالق ، يرى اللينوفر زهر الماء المشوب بزرقة ، والذى يتفتح للشمس بالضحى ، فيشارك الشاعر نشوة الصَّبوح يقول(١) :

فَضْلُ الصَّبُوحِ على الغَبُوقِ مُبَيَّنٌ ... يَقْضِى بِذَاكَ شواهِدُ اللينُوفَرِ
يبدُو إذا انبسَطَ النَّهارُ بأعينٍ ... زُرقٍ وحُمْرٍ كاخْتلافِ الجَوْهرِ
ويغُوصُ تحتَ الماءِ إنْ همَّ الدُّجى ... بورُودِهِ خوفَ الرَّقيبِ المُبْصِرِ

وإحساسُ تميم بالزمان ، وأنه ينقضى وينقضى معه الشباب ومجتمع اللذات

---

(١) ديوانه ٣٩٧ .
(١) ديوانه ص ١٧١ .

إحساس عميق ، يقتحم عليه ملذاته ، وينغص متعته بجمال الحياة لأن خيال الموت يراوده ، وهو بين الخوف منه والتعلق بأسباب الحياة فى صراح محموم . يقول معللا شدة إقباله على ملاهيه من زينة الدنيا ومفاتنها(١) :

يالائمى فى أن خلعتُ العِذار ... ما نزكَ الحُبُّ لِقلبِى العِذارْ
الصبرُ أولى غيرَ أنّ الهَوَى ... أحلاهُ ما لم يَكُنْ فيهِ اصطِبارْ
كم ولهى فيه وكم عَبْرتى ... ومحرّق من غير نارٍ بنارْ
ولو تأمّلتَ وجدْتَ الصّبا ... أخفّ من حُلم ثقيلِ الوَقارْ
هل بعدَ طيِّ العُمرِ إلاّ البِلَى ... وهلْ وراءَ الشّيبِ إلاّ البَوارْ
عصرُ شبابِ المرْءِ ضيْفٌ لهُ ... يمْضِى وأيّامُ التّصابِى قِصارْ
فخُذْ منَ اللّذةِ مِنْ قَبْلِ أنْ ... يَنأَى بلذّاتِكَ بُعْدُ المزارْ

وبعد فقد عاش تميم حياته طولا وعرضا ، وانتهب اللذات انتهابا ، وكأنه بهذا الصنيع يطرد هموما تطارده ، ويريد أن ينسى ثقل آنيّته ، وقصر أيام العمر مهما طال ، ويحدثنا المقريزى عن حال الأمير الشاعر فى موكب له ببركة الحبش أيام الأعياد فيقول(٢) : « إذا جاء الليل خرج الأمير تميم بن المعز فى مائتى فارس بين عبيده بالعسس على المتنزهين بالبركة بالليل أيام الأعياد إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الانسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير فى عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا ، فإن كانت الليالى مقمرة وإلا معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى أيام الأعياد ويتفرق الناس » .

---

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) خطط المقريزى ٢ /١٥٤ .

تميم وهموم الحياة والنفس :

فى شعر تميم نلتقى أحيانا بقصائد ذات نغم حزين ، ينفث فيها همومه ، ولعل أحزان الشيعة التقليدية ، تختلط بأحزانه هو فتخرج هذه الأبيات المليئة بالشجن ، ومنها هذا الرثاء لآل البيت :

أعاذِلَ لى من فُسحةِ الصَّدرِ مَذهبٌ ... وللّهوِ غيرِى مألفٌ ومعَادُ
ثَوتْ لىَ أسلافٌ كِرامٌ بِكرْبلا ... هُمُ لثغورِ المسلمِينَ سِدَادُ
أصابتهُم من عَبدِ شمسٍ عَداوةٌ ... وعاجلَهُمْ بالنَّاكِثينَ حصَادُ
فكيفَ يلذُّ العيْشُ صفْواً وقد سَطَا ... وجارَ على آلِ النّبِىِّ زِيَادُ
بثَاراتِ بَدْرٍ طالبُوهُم ومكَّةٍ ... وكادُوهمُ والحقُّ ليسَ يُكادُ
فحُكِّمتْ الأسيافُ فيهم وسُلِّطتْ ... عليهمْ رِماحٌ للنِّفاقِ حِدَادُ
فكمْ كَربةٍ فى كرْبلاءَ شَديدةٍ ... دهاهُم بِهَا للكائدينَ كِيادُ
وكمْ بأعالى كَربلاءَ حَفائرٌ ... بها جُثثُ الأبرارِ ليسَ تُعادُ
بها من بَنِى الزَّهراءِ كُلّ سمَيْذَعٍ ... جَوادٍ إذا أعيَى الأنَامَ جَوادُ
معفرةٌ فى ذلكَ التُّربِ منهُمُ ... وجوهٌ بها كانَ النَّجاحِ يُفَادُ
فلَهْفِى على قتْلِ الحُسينينِ ومُسلمٍ ... وخزىٌ لمن عادَاهُما وبِعَادُ
ألا كَبِدٌ تفنَى عليهمْ صَبابَةً ... فتقطرَ حُزناً أو يذوبَ فؤادُ
ألا مُقلَةٌ تَهْمِى ألا أذُنٌ تَعِى ... أكُلّ قلوبِ العالمينَ جمَادُ ؟!

وفى هذا المجال من تحسره على مقتل الطالبيين من آبائه يعرض لذم العباسيين فيقول موجها إليهم الإتهام بإغتصاب الخلافة :

زعمتُمْ أنكُم لنَا غضَباً ... قُمتُم ، وبالزَّعم يخطِلُكُمْ والدُّعَا
لا ندّعِى ما ليسَ يعرفُه الورَى ... مِنَّا إذا كَذِبَ المفاخِرُ وادَّعَى
وإذا تصنَّع للعُلا مُتصنِّعٌ ... لم نأتِ أفعالَ الجَمِيل تصنُّعا
شرَفٌ تَيْتُهُ لنا البتُولَ وبعْلَهَا ... وأبناؤُها ، حتَّى رسَا وتمَنّعَا
واستودعُوهُ بعدَهم أبناءَهُمْ ... فبنُوا عليه وشيَّدُوا المستَوْدَعَا
نحنُ الّذِين بنا الكتابُ مُنزَّلٌ ... وبنَا يجيبُ الله دعوةَ من دَعَا

ويقول مُعرِّضا بالأمويّة(١) :

---

(١) ديوانه ص ٤٥٩ .

إنى وآبائِى وقَوْ ... مِى والكرامَ الأحمَدِيَّهْ
ذاقوا الرَّدى وتُخرِّموا ... بيدِ الدَّعِىّ ابنِ الدَّعِيَّهْ
بيدِ الغَوِى ابنِ الغَوِىّ ... ابنِ الغَوِىّ ابنِ الغَوِيَّهْ
الناقِضينَ الناكِثينَ ... على الشَّريعةِ والبَرِيَّهْ
البائِعينَ صوابَهُمْ ... فى كلِّ أمرٍ بالخَطِيَّهْ

ولهموم الشاعر أسباب أخرى غير ما زرع فى وجدانه بإعتباره علويا فاطميا من أحزان مقاتل العلويين واغتصاب الأمويين والعباسيين لحقهم ، فنراه يذم الزمان ، بادئا الحديث بمناجاة الحمام ، فيقول :

أقولُ لسِرْبٍ من حَمامٍ عرضْنَ لِى ... يُغرّدْنَ من فوقِ الغُصُونِ ويَنْدُبْنا
ويَسْكُنَّ فى خضراءِ ناعِمَةِ الرُّبا ... أنيقةِ روْضِ النَّبتِ ، آنسةِ المَغْنَى
بوارِحَ لا يخْشَيْنَ بيناً ولاَ نوىً ... رَوَاتِعَ لا يعرفْنَ هَمّاً ولا حُزْنَا
فقلتُ هنيئاً للحَمام أمانُه ... وإنْ كانتْ الأيَّامُ لم تُعطِنِى أمْنَا
أسِرْبَ الحَمامِ لو لَقِيتُنَّ بعضَ ما ... ألاقِى لأصبَحتُنَّ أوَّلَ من يَضْنَى
ولو قد عَلِمْتُنَّ الّذى أنَا عالِمٌ ... لَمَا نَاحَ فيكم هاتِفٌ ، لا وَلا غَنَّى
ومن جرَّبَ الأيامَ تجربتى لها ... دَرَى أنها ليستْ تدُومُ على مَعْنَى
فحسْبُكَ ما أهجُوكَ يا زَمنِى بِهِ ... من الفِعلِ أنِّى لم أحْسِنْ بِكَ الظَّنَّا
ذَممْنَاكَ يا صرْفَ الحوَادِثِ فانْتَصِرْ ... وسُوْنَاكَ يا صَرْفَ الزَّمانِ فخُذْ مِنَّا

ويشكو هذا الظما النفسىّ ، فيقول فى قصيدة يمدحُ أخاه العزيزَ تزارًا :

خَليلَىَّ لِى ظَمَأً أراهُ ... يُبرِّدُهُ عَلَلٌ مِنْ حَيَا
فلاَ تستشيمَا بُروقَ السَّحابِ ... فأجدَرُ بِى شَيْمُ بَرْقِ الظُّبَا
أعِينا أخاً لكُما لمْ يَبِتْ ... علَى طَولِ مسرَاهُ يشكُو الوَجَى
ولم ينْشَرِحْ قلبُه مِن أسىً ... ولم تَخْلُ أحشاؤه من جَوَى

كذلك وفاؤه وصافى الصدق فى علاقاته ، يقول(١) :

لا شىءَ أحسَنَ من خليلىَ غِبطَةً ... يتراضَعان لَبانَ كلِّ وفَاءِ
هذا يُناجى ذَا هَوًى وتحافَظَا ... أبداً ولم يستمْتِعا بِلِقَاءِ

---

(١) ديوانه ص ٣١ .

ويقول فى المعنى نفسه :

لا أدَّعِى الفضلَ قبلَ يَشْهدُ لِى ... بِهِ أدانِى الدُّنا وأقصَاهَا
ولا أرَى لى على الصَّدِيقِ يداً ... تُفسِد إنعامَهـا بنُعْمَاهـا
من اصْطَفانِى بودِّه فلَهُ ... عِندى يدٌ كالجبالِ صُغْراهَا

وشعرُه المتبادل مع صديقه أبى عبد الله حسين بن إبراهيم الشريف الرّسّى يكشف ممن صداقةٍ وثيقة ، تبادل فيها الصديقان أجمل مشاعر المحبة والوفاء[1] .

صنعته الشعرية :

يبدو من شعره أنه شاعر موهوب ، أو هو شاعر بالفطرة ، يحس الجمال ويعيشه بجوارحه ، ويتعاطف مع مجاليه فى كل مظهر ، فى الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد ، ويقرأ قسماته فى الشكل واللون والصوت والحركة. أحس الشاعر بموهبته ، فاقبل على الشعر ، ولم يبخل عليه الشعر بوارداته ، وأفانينه بل أعطاه ، ما فرغ له .

لاحظ النقاد فى صنعته الشعرية أشياء تتصل باللفظ ، ولم يكن متكلفا لكلماته ، بل ساقها كيفما خطرت على باله ، لم يعن نفسه فى البحث عن كلمة غريبة ، بل جاءت كلماته سهلة سلسلة ، قد تحس بأن الشاعر أحيانا لم يراجع نفسه فيها بل تركها تنفذ وتأخذ مكانها من نظمه ، فهو ليس من الشعراء الصناع المتكلفين ، ولا النظاميين المحترفين .

وقد اتهمه بعض حساده ، والحاقدين بأنه لا يصنع شعره بنفسه ، بل هناك من يرفده ، وهذه إفرية يرمى بها كل موهوب ، وقد وهب الأمير حظين فى الحياة حظ الأمارة وعيش الثراء والنعمة ، والتمتع بكل أسباب النعيم ، وحظ الشعر فكان هدفا لحسد الحساد وحقد الحاقدين .

ونجد فى شعره ردا على هؤلاء ، ونفيا لاتهامهم إياه بالاعتماد على غيره . يقول :

أرى أناساً ساءَ بى ظَنُّهمْ ... فى كلِّ ما قلتَ من الشِّعْرِ
فقد تطاطا بهمُ علمُهمْ ... قاسُوا بأقدارِهِــمْ قَدْرِى

(١) راجع ذلك فيما يلى من شعر الحسين الرّسى .

قالوا : سواهُ صانعٌ كُلّ ما يأتى بى فى السّر والجَهْرِ
لو فَهِمُوا أو عَقِلوا لأستَحَوْا أن يجْعَلوا المرّيخ كالبَدْرِ
قِيسُوا بشِعْرِى شِعرَهم تعْلَمُوا تَضَايُقَ النّهرِ عن البَحْرِ
من بطَلَ الحَقُّ هَجا نفسَه بجَهْلِهِ من حيْثُ لا يَدْرِى
فناظِرُونى فيهِ أو فاشرَحُوا شِعرِىَ أن أنكَرتُمُوا أمْرِى
أولاً فقولُوا : حسدٌ قاتِلٌ مُستمكنٌ فى القلبِ والصّدرِ

ويقول أحد النقاد ممن درس شعره[1] : « ولا حاجة إلى القول بأن اتهام الشاعر تميم بن المعز بأن غيره كان يشاركه فى عمل شعره إنما هو اتهام يحتاج إلى دليل وها هو ذا ديوان تميم بن المعز كله على ضخامته بين أيدينا نقرؤه مرة ومرة ثم نُبدى ونعيد النظر فيه ، ثم ننتقل من صفحة إلى صفحة ومن قطعة إلى قطعة ومن قصيدة مطولة إلى أخرى ، فنجد النفس فيها مستويا لا دخل لنفس آخر فيه » .

ولعبت العصبية السياسية والدينية دورا فى التقليل من شأن الشاعر وشعره بل وفى إهماله ، وإهمال أخباره وأحواله ، مع إفاضتهم فى أخبار غيره ممن يقلون عنه شأنا ومكانة اجتماعية وفنية ، فلم يعره المؤرخون والمترجمون لحياة الأدباء من بعده الأهتمام الذى يستحقه لأنهم كانوا من أهل السنة ، فقد غلب هذا المذهب على مصر واضطهد علماؤه كل من انتمى إلى الدولة الفاطمية أو تشيّع من الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان الإنكار والتجاهل والتحامل ديدن علماء الدولة الأيوبية التى أعقبت الدولة الفاطمية على مصر ، وجعلت همها محو كل أثر لتلك الدولة إلا من عصم ربه من هذا التعصب من بعض الأدباء كابن سعيد المغربى الذى أشار إلى تميم فى كتاب المغرب الجزء الخاص بمصر أكثر من مرة، ونوه ببعض شعره فى كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » ، فاختار من شعره المرقص قوله متغزلاً :

أطلعَ الحُسْنُ من جبينِك شمساً فوقَ وردٍ من وجْنتَيْك أطلاّ
فكأن العذار خاف على الورد جفافا فمد بالشعر ظلاّ

ذلك أورد له صاحب الدُّمية قولهُ :

---

(١) محمد عبد الغنى حسن فى كتابه الأمير الشاعر تميم بن المعز من منشورات دار الرفاعى بالرياض .

ويا ليلةً بات فيها البدرُ مُعتَنِقي　　وأمستِ الشمسُ لي من بعضِ جُلّاسي

وبت مُستغْنياً بالثّغرِ عن بَرَدٍ　　وبالخُدودِ عنْ التُفاحِ والآسِ

كما أورد بعضا من أبياته النُونية التى حاكى فيها عبد الله بن قيس الرقيات وهى :

أسربَ مهاً عنْ أم سِربُ جنّهْ　　حكيتُنُّهُنَّ ولسْتُنَّ هُنَّـهْ

أأنتُنَّ أنجُـمُ ذا الجوِّ أمْ　　بُروجُ النُّجُومِ جَلابيبهنه

ولم أرغيدا سواكن مسن　　فاشبهن فى لينهــن الأعنـــهْ

ويمكن من شعره أن ندرك حفظه لشعر كثير من الشعراء المعروفين ، ويحاول عامدا أو غير عامد أن يستعين بصياغتهم ، أو قد تفلت على لسانه قوالب تعبيرية لهم ، وتحس أحيانا فى بعض أوزانه أنه وضع نموذجا لقصيدة شاعر بعينه أمامه فاقتدى به أو تأثر بأسلوبه كهذه الأبيات التى اشرت إليها معتمدا قصيدة لابن قيسْ الرقيات يقول فيها :

بَكــرتْ علَــىَّ عواذِلى　　يلحيْنَنِـــى وألُومُهُنَّـــهْ

وإن لم يماثله وزنا بل قافية .

وعارض داعى الدعاة تميما على الوزن نفسه ، كما ركبه أيضا أبو العلاء ، فى قوله من اللزوميات :

لأمواهِ الشَّبيبةِ كيفَ غِضْنَهْ　　وروْضاتِ الصِّبا كالعِيسِ إضْنَهْ

وكما أقتدى بالمتنبى فى مدحه العزيز بالله تزار إذ قال[1] :

ما قال أوْهِ لفقدِه واهَا　　كمُستَرِيـحِ القَـوْلِ آوّاهَـا

تَبرُّمُ النّفسِ من بَلابِلها　　يُفْسِدُ إقرارَهـا ودعْوَاهَـــا

وهما صياغة مماثلة لصياغة المتنبى فى قوله : « أوه بديل من قولتى واها » ، وكما جاء فى شعره يمدح أخاه العزيز كذلك :

أرى أناساً ولكن جلّهم نعَمٌ　　كثرٌ قليلٌ وموجودُونَ قد عُدِمُوا

---

(١) ديوانه ص ٣٤ .

من قول المتنبى ووزنه :

أرَى أناساً ومحصُولِى على غَنَمِ

ونستطيع القول بأنه حين نظم هذه القصيدة كان مستحضرا فى ذهنه قصيدة المتنبى الميمية هذه .

وكما يستعين بالشعر القديم ، فهو متأثر كذلك بأسلوب القرآن لفظا وصياغة كقوله فى ارجوزه مفتخرا بنسبه للنبى ﷺ(١) :

أنا ابن من شُفِّعَ يومَ المحْشَرِ
وابنُ الذى خُصَّ بنهرِ الكوْثَرِ
وابنُ المعَالِى والفَخارِ الأشْهرِ

ويقول مادحا العزيز(٢) :

يا حُجَّةَ الله التى أشرقَتْ فينا ويا صاحِب كنزِ الجِدَارْ

يشير إلى قوله تعالى فى سورة الكهف « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما »(٣) ، ويطلق الجدار فى التأويل الأسماعيلى على الدعوة ، وكنز الجدار على الإمامة ومنه قوله مادحا :

يكفِى عدوك أن الله يلعنُه وأنَّه لا يُرى إلاَّ على حذَرِ
وإنَّ كَلّ فُؤادٍ عنهُ منقَبِضٌ وكلّ قلبٍ لهُ أقسَى مِنَ الحَجَرِ
جئتَ الخلافةَ لماّ أن دعتْكَ كمَا وافَى لميقاتِه مُوسى على قَدَرِ
كالأرضِ جَادَ عليها الغيثُ مُنْهَمِلاً فزانها بضرُوب الرَّوضِ والزَّهرِ
ما أنتَ دونَ العالَمِينَ سِوَى رُوحٍ من القُدْسِ فى جِسْمٍ من البشَرِ
نورٌ لطيفٌ تناهَى فيك جوهرُهُ تناهِياً حازَ جوَّ الشَّمس والقَمرِ
معنىً من العلَّةِ الأولَى التى سبَقَتْ خَلْقَ الهيُّلى وبَسْطَ الأرض والمدرِ

قوله معنى من العلة الأولى يشير إلى مثل وممثوله العقل الكلى أو المبدع الأول الذى سماه هنا العلة الأولى ، وهذه كلها معانٍ من عقائد الإسماعيلية ويهمنا هنا

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .
(٢) ديوانه ص ٢١٩ .
(٣) سورة الكهف آية ٢٢ .

توظيفه لبعض عبارات القرآن الكريم فى سياق معانيه التى مدح بها الخليفة كقوله : « كما وافى بميقاته موسى على قدر » وقوله روح من القدس وقد يستعمل مصطلح العقائد والملل كقوله : (١)

تَشيَّعَ الحُسنُ فيه إذْ ألَمَّ بِهِ　　وقَلبُه ناصِبِىٌّ ليسَ يُغْتَفَرُ(٢)

ويستخدم فى بعض الأحيان من قاموس الشعر العربى القديم ألفاظا لأسماء الأماكن والنبات والحيوان التى كثر دورانها فيه كقوله :(٣)

رَبْعٌ لأسْمَاءَ بِرَبْعٍ دَارِ　　بينَ نقَا الصَّمَّانِ فالضَّمَارِ(٤)
تأبَّدَتْ إلاّ من الإقفارِ　　ومن شَجِيجٍ فى الثَّرى مَوَّارِ(٥)
وشَطَرٍ نُؤْيٍ دارِسِ الآثارِ　　كأنه مُقَسَّمُ السِّوَارُ
أخْنىَ عليها كلُّ غادٍ سَارِ　　وابنى الرَّبابِ شَاسِعِ الأقْطَارِ(٦)

فهذه الأبيات من أرجوزة بدوية الطابع ، جاهلية البناء واللفظ والأخيلة والصور يقول فيها واصفا السحاب والمطر :

وَاهِي الكُلَى مُنْفَتِقِ الأزْرَارِ　　كأنَّ لمعَ برقِهِ المُثَارِ
يفتَرُّ مثلَ أوارِ النَّارِ　　أو مُنتَضٍ سَيْفاً من النُّضَارِ
أو لاعبٍ فى الأفقِ بالشَّرارِ　　يكادُ أن يَذْهَبَ بالأبصَارِ
حتَّى إذا أرْخَى على القِفارِ　　هيدبُه ليلاً بلا إنفجارِ
وكَحَّلَ الجَوُّ بِمِثْلِ القَارِ　　وقامَ فيهِ الرَّعدُ كالمِزْمَارِ
غَنتْ له الرِّيحُ بِلا أوْتَارِ　　ما ظَلَّ فى رَفْعٍ وفى انحِدَارِ

ويحلو له أحيانا فى مثل هذا الرجز البدوى أن يماتن بعض الرجاز المعروفين من أمثال رؤبة والعجاج كقوله(٧) :

---

(١) ديوانه ص ١٣٢ .
(٢) والناصبة عند الشيعة هم أهل السنة لأنهم نصبوا خليفة لهم من عند أنفسهم وتركوا صاحب الحق الشرعى وهو على بن أبى طالب فى رأيهم .
(٣) ديوانه ص ١٧٥ .
(٤) الصمان والضمار مواضع بالجزيرة العربية .
(٥) الشجيج الوتد .
(٦) الرباب السحاب .
(٧) ديوانه ص ١٨٠ .

وصامت الجو بَعيدُ الفرقدِ ... مشتبه الأعلامِ جهْمِ المشْهَدِ
مَرْتِ الرُّبا عاوِي العَراءِ فدْفدِ ... يحارُ فيه كُلّ هَادٍ مُهْتَدِ
صَلْدِ السَّباريتِ صليبِ الجَلمَدِ ... يُمْرِضُ فيه الريحَ بعدُ المقصدِ

والسباريت جمع سبروت وهو القفر لا نبات له .

ألا ترى كيف تبُدّى تميم وخلع عن نفسه ثوب الحضارة .

وأراجيز تميم البدوية تنفرد وحدها عن قصائده ولها خصائصها الفنية المميزة .

وأما معانيه فكثيرا ما تلبس ثياب القديم ، أو قل هى الصور التقليدية للمعانى وإن كان يدخل عليها بعض التجديد من قاموس المحدثين والمولدين .

فمن تشبيهه للبرق بالسيف :

يلوح ويخبو فى السماء كأنه ... سيوفٌ بأرجَاءِ السَماء تقَلّبُ

وهذا يذكر ببيت الشعر القديم :

يبدو وتُضْمره التلاع كأنه ... سيف على شرف يسل ويغمد

وكذلك معانى ذو الرمة فى تعبيرة عن سلوكه الليل فى الصحراء ومعه راحلته وسيفه يقول(1) :

وليلة أسريت فيها ولا ... بدر ينير الأرض إلا سرار
كالمقلة الدعجاء زنجيـــة ... كافـــرة لمع نجوم المدار
وصاحبى ذو رونق صارم ... مدرج المتنين ماضى الغرار
أنحف من ضعف نسيم الصبا ... حدا ، وأمضى من ظبا الأحورار
حتى طرقت الحى من وائل ... والجو مكحول النواحى بقار
والقوم من سوره كأس الكرى ... كأنما بُجُلّوا بصرف العقار

لكن الشاعر هنا يَمْزِجُ ما أخذه من معنى ذى الرمة بأخيلة جديدة من عنده فهو يكسوه ثيابا جديدة فضلا عن تفصيله وتوليده .

ومن صوره التشبيهية التى احتذى فيها المحدثين قوله يصف الروض غبَّ المطر(2) :

(1) ديوانه ص ٢١٧ .
(2) ديوانه ص ٣٠٤ .

أما ترى الرعد بكى واشتكى والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجى أضحك وجه الأرض لما بكى

اعتمد فيه قول الشاعر العباسى :

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

وعلى أن بعض معانيه الغزلية تجرى كذلك فى صياغات القدماء وأساليبهم المعروفة من مثل قوله :

إن الظعائن يوم رحلة عالج ملكن كل حشى لكل غرام
أبرزن من خلل الستور محاجرا مكحولة بملاحة وسقام
واردن تسليما وخفن مراقبا فبعثنه بإشارة الإبهام
وبسمن عن كالدر ألعس أشنب وسفرن عن كالشمس تحت ظلام

حتى يقول :

لو كنت أقضى بالتناسخ فى الورى لحسبت أنى عروة بن حزام

ولانغماسه فى لذة النساء والخمر تراه يشتق منها بعض تعبيراته ويشتق استعاراته ، من مثل قوله :

كأن برد نسيم الغيم حين بدا برد ارتشاف حبيب زار فى السحر

ويغرب أحيانا فى خيالاته وصوره فيصور خصلة الشعر مضربا وتفاح الخد كرة ، فيقول :

كأنما صولجان عارضه فى الخد يهوى لضرب تفاحه

وتكثر صوره الجديدة فى موضوعاته الحضرية ، فى خمرياته ، وغزلياته ، وروضياته .

يقول ذاكرا مجلس شراب وسط روضة غناء :

شربنا على نوح المطوقة الورق وأردية الروض المفوفة البلق
معتقة أفنى الزمان وجودها فجاءت كفوت اللحظ أو رقة العشق
كأن السحاب الغر أصبحن أكؤسا لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق

فبتنا نحث الكأس حثا وإننا لنشربها بالحث صرفـــا، ونستسقـــى
إلى أن رأيتُ النجمَ وهو مغرب وأقبلن رايات الصباح من الشرق

ويصف الصبح مرة أخرى وهو يذوب على الهواء ، فيقول :

والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

وفى مجالس الخمر والطعام صورٌ شعرية لتلك المجالس ، يفيض عليها من خياله ضروبا من التعبيرات الاستعارية ، والتشبيهات الغريبة كأن يصف مجلسا له ويطلب إلى الساقى أو النديم أن يسقيه فى وزن موافق وقافية بائية ساكنة ملائمة فى إيقاعها لصخب المجلس . يقول(١) :

فقم إلى الراح فشب بالماء منها ما صلب
وسَقِّنى بنت العنب واقضِ من اللهو الأرب
أَما ترى العود اصطخب وقد مشى الزمر خبب
والطبل يحبو ويشب والراح ترمى بالحبب
تدور فى غير قطب تقتل سكرا من شرب
إن ترم ندمانا تصب فعقلــــه لها سكب
لكن يعود عن كثب فاشرب وثب من ذى النوب
ما لان واترك ما صعب وعد عن ليت ورب
فالدهر قدما ذو شغب فاقطع لياليــه طرب
فكم نأى ما قد قرب وارتد مرا ما عذب
وعاد بالأمن الرهب والهم عجز وتـــعب

فهذه الباء الساكنة مع المجزوء الدافق لهذا البحر الذى اختار لايقاعه يماثل صوت الطبل ، وتردد ضرباته ، فى صخبة وعربدته .

ويصف لنامجْلِساً من مجالس العزيز بالله نزار غنى بأصناف الطعام والفاكهة والزهر فيقول :

ومجلس قد حاز من حسنه مثل الذى حاز من المجد
يضحك للتفاح نارنجه ويغمز النرجس للورد

(١) ديوانه ص ٧٣ .

وألبس النارنج ما بينها   صفرة من عذب بالصَّيِّد
وانتصب الليمون من حوله   مثل انتصاب النَّهْد للنَّهد

وفى صورة للطبيعة من رياض وبساتين يصور النرجس صورة خيالية فيقول ومن حوله النسرين والآس :

إذا رنا نرجسك المشتهى   بأعين فبهن إطـــراق
كأنما فاجأهـا كاشح   بكل ما تكره سباق
فابيض منها لمناجاتـه   محاجر واصفر أحداق
وابتسم النسرين من حوله   فهو صقيل الثغر براق
واستيأس الآسى من الملتقى   فهو من الرِّعدة خَفَّاق

وفى صوره الخيالية للسحاب وقد انقشع فأطلت الشمس من ورائه لتلقى بأشعتها على الروض ثم تعود فتختفى[1] :

أو ما ترى شمس النهار ودونها   من مستهل الغيم ستر مسجف
ينجاب عنها تارة فيبينها   وتغيب طورا فى دجاه فتكسف
فكأنما لبست قباء أزرقا   أو مد من خز عليها مطرف
وبدا لنشر الروض من بعد الندى   ريح كريح المسك بل هى أشرف
ورد حكى خجل الخدود ونرجس   يحكى العيون بأعين لا تطرف
فعيون ذاك بعسجد مكحولة   وخدود ذا من عندم تتغلف

فهو ينفق فى صوره من ما عون بيته كما كان حال ابن المعتز ، فأدواته من الخز والعسجد وما إليها .

ومن غرائب خيالاته فى التشبيهات المفردة قوله يصف السماء ليلا والنجوم تتخللها :

وكأن الدجى غدائر شعر   وكأن النجوم فيه مدارى

وهى صورة غريبة فى تركيبها ، وإن كانت جزئياتها مطروقة ، فتشبيه الليل بالشعر أو الشعر بالليل جار فى كلام الشعراء ، لكن جعل النجوم كالمدارى تتخلل ظلام الليل أو سواد السماء ، فهذا هو الخيال الغريب .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

كذلك تعبيره عن زوال الليل واشراق الصباح بنوره وهم فى سكرة من كؤوس الخمر :

لم نزل نلثم الكؤوس إلى أن دفن الليل فى فؤاد النهار

مرأى خيال غريب فى قوله : (دفن الليل فى فؤاد النهار) !

وصوره كما قلنا مأخوذة من عالمه الذى يعيش فيه ، عالم القصور بما تحوى من فاخر الرياش وأوانى الذهب والفضة ، والحلى وثياب الخز والمطارف والطرز ومن الجوارى الحسان وصور الغلمان والعبيد من الروم والسودان ، ومن البساتين العامرة بألوان الزهور والثمار والمياه الجارية .

كما أخذها من مختزنه الثقافى ، من صور الشعر القديم ، ومن مختزنه التاريخى والعقيدى من سير الأسلاف ، وأحداث التاريخ ، وما اتصل منه بالأحداث التى لحقت بأئمة الشيعة والعلويين ، ألا تراه يوظف مقتل أئمتهم فى قوله متغزلا (١) :

لا تمكن لحظ عينيك من قتلى فما اللحظ فيه بالمغدور
لا تكن للنبى فيه خصيما عند رب النبى يوم النشور

فبما أنه أحد أبناء الحسين حفيد النبى ﷺ ، فإن قتله يغضبه ، فيكون خصيمة يوم الحشر فلا يشفع له حين يشفع لأمته .

بناء القصيدة :

والقصيدة عند تميم عامة يتردد فى بنائها بين القديم والمحدث ويأخذ نفسه أحيانا بنهج شعراء العباسيين فى القرن الثالث ، فيفلت من إسار القديم حين يخلو لأحاسيسه الذاتية ، ويبادر لذاته من خمر وغزل غير رسمى فى مقدمات قصائده . وذكرنا أنه يبنى قصائده شعرا على أوزان الخليل المعروفة ، وإن كانت تروج عنده بحور بعينها يكثر من استخدامها ، كما يكثر كالمحدثين من مجزوءات البحور .

وله بالرجز ولع خاص ، فهو غير قليل فى ديوانه ، يمكن كما أشرنا أن يفرد ، ويصنع به صنيع أبى نواس ، يستخدمه فى طردياته ، وهو لائق بها إيقاعا ويصف رحلات الصيد ، والخيل والبازى من طيور القنص .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

رحلات الصيد ، والخيل والبازى من طيور القنص ، كما يركبه أحياناً فى وصف مجالس اللهو .

وتراكيبه الشعرية يعتريها الوهن أحيانا ، وتعوزه القافية المتمكنة فيأتى بأخرى قريبة تحس بقلقها فى مواضعها ، فهو على سبيل المثال يصف جواده بالسرعة فيقول :

ويسابق البرق المثار بخطوه ويزيد فيه على الصبا والشمأل

فتحس هنا بأن القافية غير موفقة فى موضعها ، فالمعنى يقتضى قافية أخرى ، فهو يريد أن يصف سرعة الجواد بسرعة الريح ، وريح الصبا ليست ريحا قوية ، بل هى ريح رقيقة حبيبة لدى العشاق لأنها تحمل روائح الأحبة مع عطر رياض نجد ، وقترانها بالشمال غير موفق من الشاعر ، فالشمال ريح باردة ، تلقى ببردها بردها ، وتقذف وجوه الغادين بحاصبها .

وتمر فى هذه القصيدة نفسها ببعض أبيات مختلة التركيب كقوله :

فكأنما لبس الخدود ولاح فى جلد بريعان الضحى متسربل
يخفى وراء قذاله من طوله فى السرج فارسه عن المستقبل

فضلا عما فى البيتين من تهافت المعنى .

وترى أن القافية أقحمت على بيته الذى يقول فيه :

ويدنا لنشر الروض من بعد الندى ريح كريح المسك بل هو أشرف

فضلا عما تحسه من هلهلة فى النسج .

وقد يلجأ تميم فى بناء أبياته إلى الضرورة ، من تغيير فى بناء اللفظ أو تحريك ساكن ، وتغيير لإعرابه ، أو لجوء إلى بنيةً شاذة ، ولفظ غريب وما إلى ذلك من ضرورات التى يلجأ إليها الشعراء لمواءمة الوزن ، والشاعر الذى يكثر من الضرورة غير متمكن من الصنعة ، ولا يملك زمام لغته .

ويستخدم الشاعر البديع من جناس وطباق ومزاوجة فى نسيج شعره بقدر ، فلا يسرف فيه إسراف غيره من المحدثين العباسيين ، كما يستخدم فى خيالاته التشبيه والاستعارة ، ويستعين بالتلميح والإشارة ليطلق كامن ما يوحى به من

مختزن المعانى والصور ، وما تستدعيه من صور ربطية ، وهو لا يغرق إغراق ابن المعتز ، وإنما يأتى بالتشبيه غالبا متسقا مع موضوعه وخيالاته التى يطلقها .

وأما بناؤه الموضوعى للقصيدة ، فهو لا يلتزم بنسق بعينه ، وبالضرورة فهو لا يلتزم النظام التقليدى من البدء بالنسيب أو الغزل ثم الخروج منه إلى الرحلة والراحلة ثم يعدل إلى الموضوع .

وقد يلزم بجزئية من هذا النظام ، فى بعض قصيده بدوى الطابع أو رجزه ، ولكنه كثيرا ما يعدد مسالكه ، وصور بنائه ، فيبدأ قصيدته مفتخرا أو شاكيا ، أو متغزلا ، أو واصفا لمجلس خمر أو مجلس غناء أو منظر روض .

وقد بدأ قصيدة المديح بحديث عن الغناء والموسيقى كأن يقول فى مديح والده المعز :

شكاالعود بالأوتار شجوافأطربا　　　وترجم عن معنى الضمير فأطربا

وكل هذه السمات التى نلاحظها فى بناء تميم لقصائد شعره ترجع إلى أنه شاعر مطبوع ، غير صاحب صنعة ولا محترف ، لا يقول الشعر تكسبا يراعى فيه ممدوحا ، ويلائم بين قوله ،ومقامه، لكنه يقول الشعر هواية يتغنى به ولا يعبأ كيف جاء ، ولا يعنى نفسه بتثقيفه أو إعادة النظر فيه . ومن هنا كانت هذه التلقائية التى تغرب به أحيانا ، والتى قد توقعه فى أخطاء اللغة القياسية أو بعض تجاوزات إيقاع العروض الخليلى .

— ٢ —
الرَّسـيون

وهم جماعة من شعراء الأشراف الحسنيين ينسبون إلى الشريف الرّسى أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ بمصر فى عهد كافور الإخشيدى .

ويختلط اسمه أحيانا بالشاعر الناقد الأصفهانى محمد بن أحمد بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ[١] صاحب كتاب عيار الشعر ، وكثيرا ما تناقل الكتاب أشعارهما ، ونسبة بعضها إلى غير صاحبها من الشاعرين لاشتراكهما فى الكنية « ابن طباطبا » .

ووقع فى هذا الوهم ابن خلكان فى ترجمته لأحمد بن محمد الرسّى ، حيث يقول[٢] : « ومن شعره المنسوب إليه فى طول الليل ، وهو معنى غريب :

كأنّ نجومَ الليلِ سارت نهارَها ... فوافت عشاءً ، وهى أنْضَاءُ أسْفَارِ
وقدْ خيّمتْ كى يستريحَ ركابُها ... فلا فَلكٌ جارٍ ولا كوكبٌ سارِى

ثم وجدت هذين البيتين فى ديوان أبى الحسن بن طباطبا من جملة قصيدة طويلة » . ثم يقول بعد ذلك : « ولا أدرى من هذا أبو الحسن . ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور . والله أعلم » .

ويشترك أبو القاسم الرسىّ هذا مع جدهما الأعلى ابراهيم المنعوت بطباطبا . فشاعرنا أبو القاسم أحمد ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم طباطبا . وأما صاحب عيار الشعر الأصفهانى الاقامة فينتهى إلى محمد بن ابراهيم طباطبا . وكلاهما يكنى بابن طباطبا . ومن هنا جاء الخلط .

ويبدو أن آل اسماعيل غادروا أصفهان إلى مصر واستقروا بها زمن الدولة الأخشيدية وبلغوا عند المصريين مرتبة رفيعة ، فتولى أبو القاسم أحمد نقابة الأشراف كما يقول ابن خلكان . يقول :

« الشريف الحسنىُّ الرسىّ المصرى . كان نقيب الطالبيين بمصر ، وكان من

---

(١) راجع مقدمة عيار الشعر ، بتحقيق المؤلف .
(٢) وفيات الأعيان ١ / ١٣٠ ، بتحقيق د. إحسان عباس ، طبع بيروت .

أكابر رؤسائها » . ونسبته إلى الرسّ من بطون السادة العلوية على قول ابن خلكان(١) .

قال : « وله شعر بليغٌ فى الزهد والغزل ، وغير ذلك . وينقل عن الثعالبى فى اليتمية بعض خبره وشعره » .

وكانت له علاقةٌ بكاتب السرّ الحسن بن على الأسدى . يذكر الثعالبى أنه بعث إليه يطلب كتابه المعروف « بالأنيس » ، فأجابه الأسدى شعراً بقوله :

قد بعثنا بمؤنس لك فى الوحشـ ـةِ خلّ ، يدعى كتاب الأنيسِ
فيه ما يشتهى الأديبُ من العِلْم وفيه جَلاءُ هَمِّ النفوسِ
فيه ما شئت من بدور معانٍ ضاحكاتٍ إلى وجوهِ شموسِ
والنفيسُ البهىُّ مازال يُهْدِى كلّ حينٍ إلى البهىِّ النفيسِ

فلما قرأ الرسُّ رقعته كتب على ظهرها ارتجالا :

قد قرأت الكتابَ ياخلّ نفسى فهو لى مُؤْنِسٌ ، وأنتَ الأنيسُ
فهو تأليف ذى ذكاءٍ وفهمٍ وهو وقفٌ على العلوم حبيسُ

ومما ذكره الثعالبى من شعره ، قوله يتغزل فى ساقٍ :

يا بدْرُ بادِرْ إلىَّ بالكاسِ فرُبَّ خيرٍ أتى على يَاسِ
ولا تُقبِّلْ يدِى فإنّ فَمِى أولى بها من يدِى ومن راسِى
لا عاشَ فى الناسِ من يلوم على حبِّى وعِشقِى لأحسنِ النّاسِ

وقوله :

قلْ للذى حَسُنَتْ منه خلائقُه باكرْ صَبُوحَكَ واسبقْ من تسابِقُه
أما ترى الغيمَ مجموعاً ومفترقاً يسيرُ ، هذا إلى هذا يُعانِقُهُ
كعاشقٍ زَارَ معشوقاً يودِّعُهُ قبلَ الفراقِ ، فآلى لا يفارِقُهُ

وقال فى الحبِّ والغزلِ :

قالت: أراكَ خضبتَ الشَّيبَ قلتُ لها : سترتُه عَنكِ يا سمْعِى ويا بَصَرِى
فاستضحكتْ ثم قالتْ من تعجُّبِها: تكاثَرَ الغِشُّ حتى صارَ فى الشَّعَرِ

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

وقال :

عَيَّرتني بالنَّوم جوراً وظُلمـاً · قلتُ : زدت الفؤادَ همًّا وغمًّا
إسمعي حُجَّتِيَ ، وإن كنتُ أدرى · أن عُذْرِي يكونُ عندك جُرْمَا
لم أنمْ لذّة ، ولا نمتُ إلاّ · طمعاً فى خيالكم أن يُلِمَّـا

وقال مما يتغنى به :

قالَتْ لطيف خيالٍ زارنى ومَضى · صِفْ لى هواهُ ، ولا تَنْقصْ ولا تزِدِ
قال : أبصرتُه لو ماتَ من ظمـإٍ · وقلْتُ قِفْ عن ورودِ الماءِ لم يَرِدْ
قالت: صدَقتَ، الوفاء فى الحبِّ عادتُـهُ · يا بَرْدَ ذاك الذى قالت على كبِدِى

وقال :

خليليَّ إنى للثريَّا لحاسِدٌ · وإنى على صرفِ الزَّمانِ لواجِدُ
أيبْقَى جميعاً شملُها وهى سبعةٌ · وأفقد من أحْبَبْتُه وهو واحِدُ
كذلك من لم تَخْتِرِمْهُ منيَّةٌ · يَرى عجباً فيما يَرى ويشاهِدُ

ويقول :

سأعْتِبُها حَتَّى ما استعتبتْ · وإنْ لم تكـنْ أبـداً مَعْتَبَهْ
وسوفَ أجرِّبُهـا بالصُّدودِ · ومنْ يشربْ السمَّ بالتجربة ؟!

وينتقى ابن سعيد من مليح شعره قولَه(١) :

أأتركُ الشُّربَ والأنواءُ دائمةٌ · والطَّلّ منها على الأشجار منثورُ
والغصنُ يهتزُّ كالنشوانِ من طربٍ · والوردُ فى العودِ مطوىٌّ ومَنشورُ
لا والتى تركتنى يوم فُرقتِها · كأنَّما الرَّمْلُ فى عينَىَّ منثورُ

وهكذا نجد معظم ما قال من شعر فى الخمر والغزل ووصف الطبيعة كما نقل كلّ من الثعالبى وابن سعيد ، ولا نجد بين تلك المختارات ما يتصل بالزهد على ما ذكر ابن خلكان ولم يورد مثالاً عليه .

---

(١) المؤلف ص ٢٠٣ .

وذكر ابن سعيد أبياتاً فى موت الاخشيد وطمع بعض وارثيه فى الملك : يقول :

مات إخشيدنا فها نحنُ فى أمسـ ـر مريجٍ ، وكلّ كفٍ تمدُّ
كلّكم طالبٌ بجدٌ وحِرصٍ إنّما الشأنُ أن يوافِق جَدُّ
يا ولاةَ الأمورِ إن لم تنيبُوا لانتظام فقد تناثر عِقدُ

ونقل عن المسبّحى المؤرخ المصرى قوله : وكانَ أديباً شاعراً مُتصَرفاً فى العلم » .

ويضيف مختاراً من شعره فى موضوعات الوصف والغزل والعتاب . يقول :

وكأنّ الهلالَ لمّا تبدّى شطرُ طوقِ المرآةِ للتَّذهيبِ
أو كقوسٍ قد انحنتْ أو كنُوي أو كنونٍ فى مُهرَقٍ مكتوبِ

وكقوله : (معاتبا) :

أتكفرُ بما أوليتَ فى كلّ مَحْفلٍ بغيبٍ ، وتلقانِى كأنّكَ شاكِرُ
وتأتى بذنبٍ كلّما جئتَ عاتباً فكم أنت ذو جَهْلٍ وكمْ أنا صابِرُ

وقال :

بنتُم وخلتُمْ أننى متغيرٌ بالبيْن عند تَرَحُّلِ الأظْعَانِ
لا والذى جعل الدموع بمقلتى أبداً تجودُ بعارضٍ هَتّانِ
ما اخترتُ تبديلَ المودّةِ ساعةً بعد الذى هجرَ الحمىَ وجَفانِى
أنا ذاك لا عهدى يُغيّرُ بالنّوى أبداً ، ولا وجهى يميل لثانى
وإذا وثقتُ بودٍّ من أحبتِه فبعـادُهُ ودنـوُّهُ سيّـانِ

قال القُرْطِى : وكانت وفاته ببلده فى مصر مدة كافور سنةاثنتين وخمسين وثلاثمائة وكانت سنّة يوم توفى أربعاً وستين سنةً .

وترك من أبنائه الشعراء اثنين هما أبو محمد القاسم ، وابراهيم .

وإن كان أحمد لم تتصل أسبابه بالدولة الفاطمية لوفاته قبل وفود المعز وبناء القاهرة بسنوات قليلة إلاّ أن ولديه أبا محمد القاسم ، وأبا اسماعيل ابراهيم عاصرا

صدر الدولة الفاطمية كذلك فعل حفيده أبو عبد الله الحسين بن ابراهيم بن أحمد (ويكنيه ابن سعيد بأبي ابراهيم)[1] .

وكان هؤلاء الثلاثة من الشعراء ، وشعرهم أشبه بشعر الأب والجد ، إلا أن ما أختاره الثعالبي للثلاثة لا يشفى غليلاً ، وكذلك ما فعله ابن سعيد لمحمد .

وربما كان حظ الحفيد الحسين بن إبراهيم أوفر من أبيه وعمه .

ويروى الثعالبي فى اليتيمة أن أبا الرقعمق أحمد بن محمد الانطاكى ، اتصل بإبراهيم بن أحمد ومدحه بقصيدة يقول فيها[2] :

حبّذا الرسيُّ مولى رَضِيَ النّاسُ ولاهُ
جعل الله أعاديـ ـه من السوءِ فِدَاهُ
فلقد أيقن بالثورةِ من خَلَّ ذَرَاهُ
من رقى حتى تَنَاهَى فى المعالى مرتقاهُ
فاتَ أن يَبْلُغَ فى السُّـ ـؤدَدِ والمجدِ مَدَاهُ
مَلِكٌ مذ كان بالسـ ـطوةِ ممنوعٌ حِماهُ
بحرُ جودٍ ليسَ يُدْرَى أيـنَ منه مُنتهاهُ
لم يَضعْ من كان إبرا هيمُ فى الناسِ رجاهُ
لا ولا يفرق من صرفِ زمانٍ إن عَرَاهُ
من به استكفى أذى الأيا م والدَّهرِ كفاهُ
كيف لا أمدح من لم يَخلَ خلقٌ من نَدَاهُ

وكان الحسين الحفيد ، وهو أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم من نبهاء الأشراف الحسنيين فى عهد العزيز نزار بن المعز لدين الله ، وكان أديباً شاعراً ، وله مكانة ووجاهة فى الفسطاط عصر الفاطميين ، وكان على قدر من الثراء ، لأن الفاطميين كانوا يغدقون على الحسنيين والحُسيْنيين من الأشراف لقرابتهم ، ويجرون عليهم رواتب فكانت لهم الضياع والبساتين والقصور . وعاشوا عيشة راضية .

وجمعت الصداقة والأخاء بين الشاعر الحسين والأمير تميم بن المعز ، وكانت بينهما أشعار ومحاورات ، يقول ابن خلكان : « كان شاعراً أديباً رقيقاً ، قاسم

(١) المغرب ص ٢٤٩ .
(٢) يتيمة الدهر ١ / ٣٩٠ .

الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الحسب ، وتراث الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية رائقة »[1] .

وقال ابن سعيد[2] : « وهذا الشريف الرسّى هو الذى كان بينه وبين تميم بن المعزّ مجاوبات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه فى بساتينه وفُرجه » .

وذكر له الثعالبى أبياتاً هى قوله[3] :

شُمَّ النسيمَ لذيــذاً ... من قبل أن لا تَشُمَّهْ
واصرِفْ عن القلْبِ ما اسْـ ... ـطعتَ بالمسَرَّةِ هَمَّهْ
وغالِطِ الدُّهر إنّ كنْـ ... ـتَ تَسْتَ تمْلِكُ حُكْمَهْ
وقدْ نَصَحْتُكَ جُهْدِى ... فلا تصمَّ وتَكَمَـــهْ

وقوله فى الغزل :

صدفتْ عنَّـــا نوارُ ... ولقــــد كانتْ تزورُ
ثم قالَتْ كيفَ أودى ... ذلكَ الغُصْنُ النَضيرُ
قلتُ : إن أنصفت هذا ... لابـن خمسين كثيــرُ

وتمثَّل له ابن سعيد ببيت يقول فيه :

لم تِتِهْ، وهى فاقَتْ الناسَ حُسْناً ... وحقيقٌ بمثلها أن يَتيهَا

وكان أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم صديقُ الأمير تميم قد عاش فى كنف أبيه نقيباً للأشراف ثم تولى هو نقابتهمْ بعد وفاته، وكان تميم على علاقة وطيدة بإبراهيم، وكان إبراهيم هذا دائم الاتصال بالأمير يقدم له الهدايا فى المناسبات ، والأمير يبادله .

ويبدو أن داريهما كانت متجاورتين على النيل ، كما كان للرسيين بساتين قرب بستان الأمير على بركة الحبش جنوبى الفسطاط وبالجيزة وغيرها .

---

(١) وفيات الأعيان ١ /١٣١ .
(٢) المغرب ص ٢٤٩ /٢٥٠ .
(٣) يتيمة الدهر ١ /٥٠١ .

وتوطدت العلاقة بين الأمير وأبى عبد الله ، فلم يصبر أحدهما على فراق الآخر . ويشهد ديوان تميم بالمطارحات الشعرية والرسائل المتبادلة ، تحمل حرارة المودة ، ودفء الصداقة .

فمن هذه الرسائل الشعرية رد على أبى عبد الله الحسين وقد استهدى من الأمير غروساً من الزهر لبستانه فكتب إليه بعد وصولها .

وصلت هدِّيتُكَ التى أرسلتها ... يا سيّد الكبراءِ والأمراءِ
فحكت لنا طيباً خلائقك التى ... أورِثتها من رابع الخلفاءِ
فاسلم وعش فيما تحبُّ فإنّه ... وقفٌ عليك الدّهر درُّ ثنائى
هى جوهر فى البيت إلاّ أنها ... تفنَى ويبقى جوهر الشعراءِ

فأجابه الأمير بقوله :

أمّا الريّاضُ فإنها مسروقَةٌ ... للبيت من ألفاظِكَ الغرَّاءِ
إنى بعثتُ بها إليكَ وأنّها ... لذواتُ إطراقٍ وذاتُ حياءِ
كالشيء يستهديه منّى ربُّه ... أنتَ الأحقُّ بها وبالإهداءِ
منكَ استعادَ الحسنَ كلّ مُحسَّنٍ ... فلكَ انتسابُ محاسنِ الأشياءِ
وظرُفتَ حتى فقتَ كل مظرَّفٍ ... ولَطفتَ حتّى فقتَ لُطفَ الماءِ
ديباجُ لفظِكَ فوق كلِّ منوَّرٍ ... لكنَّ خيراً منه حسنُ صفاءِ
لا شيَ أحسنُ من خليلَىْ غبطةٍ ... يتراضعانِ لَبانَ كلِّ وفاءِ
هذا يُناجى ذا هوًى وتحافظاً ... أبداً ، ولم يستمتعَا بلقاءِ

وكان الأمير تأخر عن تعزيته فى وفاة والده إبراهيم ، فكتب اليه الأمير معتذراً ، فرد الحسين على الأمير قائلاً :

يا سيّـــدى وأميرى ... ما إن له من نَظِيرِ
إنى فقـدتُ بفقـدِى ... أبى ، جميـع السرورِ
فقـدْتُ منــه تِلادِى ... فقـدتُ منـه نَصِيرِى
فقـدتُ منـه مُعِينِـى ... فقـدْتُ منـه مُجِيرِى
فصرتُ فرداً وحيـداً ... وإنَّنِـى ذو عَشيـرِ
لا أعرفُ السهل والوعـ ... ـرَ إن قصدتُ مَسِيرِى

قد كنتُ أخشى عليه ... بناتِ دهرٍ عَقُورِ
كأنما الدَّهْرُ أوْذَى ... منه بركني ثَبيرِ
فمن عذيرىَ من دَمْـ ... ـعِ مُقْلتِي مَنْ عَذِيرِي
هَلاَّ بكتْهُ دماءٌ ... إذ ما لَهُ من نظيرِ
فكلّ أمرٍ كبيرٍ ... يُخبًا لكلّ كبيرِ
مَنْ للضَّعيفِ إذا ما ... أتى، ومنْ للفقيرِ
فوّضْتُ أمرى إلى مَنْ ... يُرْجَى لكلّ الأمورِ

وأجابه الأمير بقوله :

يا منْ صَفَا ودُّ صدْرِي ... لهُ، وسرِّى وجَهْرِي
ومن تكدَّر عِنْدِي ... لِرُزْئِهِ صَفْوُ دَهْرِي
ما ماتَ رُكنُكَ لا بَلْ ... رُكْنِي وفخري وذُخْرِي
لو كنتُ أملكُ عمرِي ... وهَبْتُهُ شطرَ عُمرِي
أو كنتُ أملكُ دفعاً ... عنه بِرُوحي ووفرِي
دافعتُ عنهُ المنايا ... بكلّ فادحٍ أمْرِ
ما كانَ إلا يمينِي ... ومُقْلَتِى وأَزْرِي
لئنْ تولّى حميداً ... بكلّ مدحٍ وشُكْرِ
لحسبُه بكَ فينا ... نَجْلاً وخلْفَةَ فخْرِ

وتبدو من القصيدتين مدى العلاقة التى ربطت بين الأمير تميم وابراهيم وابنه الحسين على ما اشرنا إليه .

ويقول تميم ذاكراً مودته ، وحبُّه للحسين وسعادته بمشاركته ملاذه وأنسه وباقتراب داره منه(١) :

زادَ رَبْعِى دنُوُّ ربعِكَ منه ... أنْساً فى القلوبِ والأبصارِ
ساعةٌ مِن جَنى حديثك ما يُـ ... ـسَنَ سماعِ الغنا وشربِ العُقارِ
ومعاطاتُك الكؤوسَ على رو ... ضِ المعانى ورِقّةِ الأفكارِ
هو عندى ألذُّ من مُلْكِ كسرى ... وافتضاضِ الكواعبِ والأبكارِ

---

(١) ديوان تميم ص ٢٠٠ .

ويقول تميم فى ذكر بيته الذى بناه الحسين على النيل :

أبهجَ النيل ما بنيتَ عليه　　كابتهاج السماءِ بالأقمارِ
وكذاك البقاعُ تفخرُ بالامجـ　　ـادِ فخراً يحطّ كلّ فخارِ

وشارك الحسين صديقه تميماً فى معارضة ابيات لابن المعز يقول فيها :

شغِلْتُ بلـذّةِ القبـلِ　　ووَعْدِ الكتْبِ والرُّسُلِ

فعارضه تميم بأبيات أولها :

شغِلتُ بخُلْسةِ المقَـلِ　　ومَزْجِ الكحْلِ بالكحَلِ
ومَا اغفَلتْ به الألحا　　ظَ فى أجفَانها النُّجُلِ

فقال الحسين بن ابراهيم الرُّسى :

وحقِّ تورّدِ الخجـلِ　　وطيبِ تقرّبِ الأملِ
وحقِّ الحبِّ إذ يأتى　　بحُسْنِ تكسُّرِ المقَلِ
وما أبداهُ منْ أهوا　　هُ من صدٍّ ومِنْ عِلَلِ
وحَقّكَ يا أميرَى ظِلْـ　　ـتَ فى قصْفٍ وفى جذَلِ
لشعرُكَ مُشبهُ الماءِ الـ　　ـذى يَرْوِى صَدَى الغُلَلِ
وثوبَ البرءِ يَلْبَسُهُ الـ　　ـذى أشفَى على العِلَلِ
وحلتُـه إذا نشـ　　ـرتْ تُضَعْضِعُ سائِرَ الحُلَلِ
فقولى كلّـه صدقٌ　　وعبد الله يشهَدُ لِى

يريد أن يقول إن أبياته فاقت أبيات ابن المعتز ، مجاملةً ، وكانَ كلّ منهما يثنى على شعر الآخر ويقرظه مجاملةً .

ــ٣ــ

ابن وكيع التِّنّيسى

ولد ابن وكيع ونشأ فى مدينة تنيس على بحيرة المنزلة ، وكانت تقع فى شمالها الشرقى قريبا من مدينة بورسعيد وشمالها الغربى مدينة دمياط .

ويصف أحد العلماء العرب ممن وفدوا إلى المدينة بحيرة المنزلة وتنيس فيقول(١) :

وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال . فإذا انصرف نيل مصر فى دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية فإن أهل تنيس يخزنون الماء فى جباب ويعدونه لسنتهم .

ويقول ياقوت : وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة ، وعندها يختزن أهل تنيس الماء على ما ذكر فى صهاريجهم ومصانعهم لسنتهم(٢) .

ويذكرها المسعودى فيقول : تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها اسواء وطيبٰ تربة ، وكانت جِنانا ونخلا ، وكرما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من ا لأرض ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جناتها ، وكرومها ، ولم يكن بمصر كُروم يقال أنها تشبهها إلا الفيوم(٣) .

اشتهرت تنيس فى تاريخها القديم بالزرع والخمر . وقال ابن وصيف شاه « وحولها الزرع والشجر والكروم ،وقرى، ومعاصر الخمر وعمارة لم يكن أحسن منها . وكثر بها الطير والسمك » ، ونقل ياقوت : « ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون فى موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفا منها السلوى والقمرى ، والزرزور والفاختة والنواح ، ويصل إلى تانيس طير كثير لا

---

(١) ياقوت ــ معجم البلدان ١ /٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ /٨٨٤ .

(٣) خطط المقريزى ١ /١٧٧ حسين نصار فى مقدمة ابن وكيع .

يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها البوري ، والبلمو ، والبرو ، واللبب[1] » .

وأما أهلها فكان بها عدد من النصارى يحترفون صناعة النسيج وقد كانت عامرة بالسكان كثيرة الكنائس ، ومع هذا الخير الوفير الذى بها إلا أن أهلها كان فيهم فقر ، وكان النصارى منهم يتشكون من البؤس .

وقال أحد الرحالة العرب عندما ذهب إليها والتقى بهم : إنى لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها وقد سألتهم ، فأجابونى أن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربية ماشية والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد ، ونشترى الجرة منه بأربع دراهم . ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفى لاطعام كلابنا ، فإن كلا منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير — كل عام — لأنهم أهل ذمة .

ولاشك أن هذا كان حال جماعة من فقراء تنيس النصارى .

وقد وصف أهلها لكثرة الغرباء بينهم بأن اخلاقهم سهلة مُقادة وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة[2] .

وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة ، وأكثرهم يبيتون سكارى .

وقد نشأ ابن وكيع فى هذه البيئة البحرية المصرية ، وجاء شعره بكثير من ملامحها ، وتبدو منه فرحة الإقامة ، ومتعة الانتماء للبلد ، ونشوة السعادة بمَغَانيها أحيانا بين لذات الخمر والغناء فيقول :

وأشرب عقاراً طالَ فينا كونُها ... يَصفرُّ من خوفِ المزَاجِ لونُها
من كلِّ ظَبْيٍ من بنى النَّصارَى ... آلبابُنَا فى حُسْنِهِ حيَارَى
لاسيماً مع مُسمعٍ وزامِرِ ... قد سَلِما من وحْشَةِ التَّنافرِ
دُونك هذِى صفةَ الزمانِ ... مشروحةً فى أحسنَ البيَانِ

(1) المقريزى ٦ /١٧٧ .
(2) المقريزى ١ /١٧٧ .

وقد اشتهرت تنيس بثيابها الفاخرة المنسوبة اليها : فقال المقريزى :

وأكثر أهلها حاكة ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها فى الدنيا .

وقال آخر : وبها تعمل الثياب الملونة والفرش والأبوقلمون وهى ثياب من الحرير متغير اللون قيل أنه يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعات النهار(١) .

وبها يصنع الدَّبِيقي ، والمقصور الشفاف ، والأردية ، وأنواع المناديل الفاخر والفرش المعلم ، والطراز .. وبها خمسة آلاف منسج لنسج الأقمشة وكثيرا ما نسجت كسوة الكعبة بها .

ومع هذا الاهتمام بالنسيج ، وغلبته على صناعة أهلها إلا أنهم اهتموا بالعلم والعلماء ، بالأدب والشعر ، فقد نبغ فيها شاعرنا ابن وكيع .

ولم يكن ابن وكيع مصريا أبا وجدا ، بل هو مهاجر إلى مصر ، مستوطن جاءت أسرته من الأهواز شرقى العراق . وكانت تنسب إلى بنى ضبة فى أصولها العراقية وبنو ضَبَّة : قبيلة عربية مضرية . وربما كانت هجرة أسرة الشاعر من العراق إلى مصر بسبب ما انتاب العراق فى أوائل القرن الرابع من اضطرابات وحروب شملت أرض الجزيرة وبغداد وجنوب العراق بالبصرة والكوفة ، وكان أعنفها ثورة الزنج ، وغارات القرامطة .

ولد ابن وكيع فى تنيس من أب عربى ، ويذكر ابن خلكان أنه كانت فى لسانه عجمة لعلها لحقته من لسان أهله الذين ربما تأثروا بإقامتهم فى الأهواز فاختلط لسانهم باللسان الفارسى .

واسم ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف ، وصفه الثعالبى بأنه شاعر بارع ، وعالم جامع ، برع فى إبَّانِه على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعبد الأفهام .

وقال ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبى الطيب المتنبى سماه المنصف » . وتوفى بمدينة تنيس ودفن بها سنة ٣٩٣ هـ .

---

(١) ويطلق على هذا النوع حاليا التافتاه . ولعله اسم غربى دخيل .

وشعره يجمع بين الظرف وخفة الروح ، ويدور معظمه فى وصف الخمر مظاهر الطبيعة والزهر .

قال فى خمريته ، ويصف فيها الزهرَ والسّاق :

اشربْ فقد طابتْ العقَارُ ... وابتسَم الـورْدُ والبهَـارُ
من قهوةٍ ما انبرتْ لِهَمٍّ ... إلاّ وولّى له انشِمَـارُ
فما جيوشٌ من الملاهِى ... للهَمِّ قدامهـا الفـرَار
لألاؤها فى الدُّجى نهارٌ ... يُظلـم من نُورِهِ النَّهارُ
إذا استقرتْ فى حشَا لبيبٍ ... رأيتـهُ مالَـهُ قرَارُ
حبابُها جسمُه لَجينِى ... وجِسمُها شخصُه نُضارُ
كأنَّها تحتَهُ كمَيْتٌ ... عليـهِ من فِضَّةٍ عِذَارُ
لها لدى حُزنِ شَارِبيهَا ... ثأرٌ وبالحُلـوم ثارُ
فالحُزنُ عن أهلِها مُطارٌ ... والحِلمَ فى إثرِهِ مُطارُ
فلا انتصارٌ لذا عليها ... ولا عليها لِذا انتصَارُ
يسعى بها جُؤذَرٌ غَرِيرٌ ... فى لحظِ أجفانِه انكسَارُ
كأنّ صدغاً له تراهُ ... وهـو على خَدِّهِ مُدارُ
ميدانُ آسٍ بدَا جَنيًّا ... ألهَبَ فى جَانبيْهِ نارُ
وبيت من الحسنِ لى إليهِ ... حَجٌّ مدَى الدَّهرِ واعتِمَارُ
بهارةُ البيْتِ كلّ عامٍ ... ودُهـرُ ذا كلّـه بَزَارُ
قلتُ لهُ إذ بداَ وقلبى ... من لا عج الشوقِ مُستطارُ
يا جامعَ الحُسنِ كلّ حسنٍ ... للنّاسِ من شرْطِكَ اختصَارُ
ما فضّلَ الغانياتِ عِندِى ... عليكَ إلاّ امرؤٌ حِمَارُ

ويقول من قصيدة أخرى :

أنظرْ إلى زهرِ الرّبيع وما جلَتْ ... فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
أبدتْ لنا الأمطارُ فيه بدائعاً ... شهِدتْ بحكمةِ مُنزِلِ الأمطارِ
ما شئتَ للأزهارِ فى صحْرائِها ... من درهمٍ بَهِجٍ ومن دِينارِ
من أبيضٍ يَقَقٍ وأصفرَ فاقعٍ ... مثل الشّموسِ قُرِنَّ بالأقمارِ
ناحتْ لنا الأطيارُ فيه فأرهجَتْ ... عُرسَ السُّرورِ ومأتمَ الأطيارِ

دارٌ لو اتّصلَ البقاءُ لأهلها ... لم يَحفِلوا بنعيمِ تلكَ الدّارِ
فانهضْ بنا نحو السُّرورِ فإنه ... مازالَ يسكُنُ حانةَ الخمّارِ
فاشربْ مُعتّقةً كأن نسيمَها ... مِسكٌ تُضوِّعهُ يدُ العطّارِ
وكأنها والكأسُ ساطعةٌ بها ... ذَوْبٌ تحلّلَ مِن عَقيقٍ جارِى
لاسيّما من كفِّ أغيدَ شادِنٍ ... يَسْبِى العُقولَ بطرفِهِ السّحّارِ
فضلَ الغصونَ لأنها مِن غرسِنا ... عند التأمُّلِ وهو غرسُ البارِى
قد غيّبَ الزنّارُ دِقّةَ خصرِه ... حتّى ظننّاهُ بلا زُنّارِ
مُتنصِّرٌ قويتْ علىَ إسلامِنا ... بالحُسنِ منه حُجّةُ الكفّارِ
قالوا : أيصنعُ مثلَ هذا ربُّكُمْ ... ويَرى فسادَ صنيعِهِ فى النّارِ
معْ مُسْبِغٍ حلّتْ له أوتارُه ... أنّ لا تَنافُرَ رنّةَ المِزْمارِ

* * * * *

ذا العيشُ لانعتُ المهَامِهِ والفَلا ... وسُؤالُ رسْمِ الدّارِ والأحْجارِ
لا فرّجَ الرحمنُ كُربةَ جاهِلٍ ... يبكِى علىَ الأطْلالِ والآثارِ

وقال فى الربيع :

فَرشَ الفضاءُ بأحْمَرٍ وبأصفَرٍ ... وبدتْ لنا حُلَلُ الرّبيعِ المُزْهِرِ
حالٌ تُعدُّ إذا اجتهدْتَ مُقصّراً ... فى وصفِها وتكونُ غيرَ مُقصِّرٍ
هذِى الرّياضُ كأنهنَّ عرائِسٌ ... يختَلْنَ بينَ تمايُلٍ وتبخْتُرٍ
فى جوهَرٍ فاقَ الجَواهرَ قيمةً ... لو أنّه يبقَى بقاءَ الجَوْهَرِ
سِرٌّ أسَرَّ به السَّحائِبُ للثّرى ... فأذاعَهُ ، فأذاعَ أحسَنَ منْظَرِ
زَمنٌ أغرُّ فلو شَرِبْتَ بطِيبه ... طيبَ الجِنانِ لكانَ أربحَ متْجَرِ
والسرو تثنيه الرياح لواعباً ... من فوقِ جَدْولٍ مائِه المتفَجِّرِ
كالجُندِ فى خُضرِ الملابِسِ حاوَلُوا ... أمراً ، فبينَ مُقلِّصٍ ومُشمِّرِ
زمنٌ متى أبصرتَه وكففتَ عنْ ... خلْعِ العِذارِ بحسْنه لم تُعذَرِ
وافى على أثرِ الشّتاءِ كأنّهُ ... إقبالُ جَدٍّ بعد أمرٍ مُدْبِرِ
فكأن ذا إذا جاء وجه مُهدِّدٍ ... وكأنّ هذا جاءَ وجهَ مُبشِّرِ
وردٌ كوجنَةِ كاعبٍ قد مُوزِحَتْ ... فتراجعتْ خَجْلى بفرْطِ تحيرِ
فكأنّما النّارِنْجُ فى أغصانِهِ ... أُكَرٌ خُرِطْنَ من العقيقِ الأحمرِ

وكأنّ زهرَ الباقِلاءِ دراهمٌ | قد ضُمِّختْ أوساطُها بالعنْبرِ
وكأنّهُ من فوقِ خُضْرٍ غُصُونِه | يرنُو بمُقْلةِ أقبلٍ أو أحْوَرِ
وكأنما الأترج أكوس عسجد | ولها مقابضُ من حريرٍ أخضَرِ
والنّرجسُ الريانُ بين رياضِهِ | يرنُو بعينِ الباهِتِ المتحيرِ
والجُلّنارُ يُريكَ فى أثوابهِ | نوعيْنِ بينَ مُزَعْفَرٍ ومعَصْفَرِ

وهكذا نلاحظ فى شعر ابن وكيع اهتماما بالزهر والخمر والغناء ، وهو بهذا شبيه بالصنوبرى فى غرامه بأوصاف الروض . ولا يفوتنا ما يعمد إليه من ميل إلى التشبيه . سالكا بذلك نهج أصحاب التشبيه كابن المعتز ومن سار على منواله .

ويتبع نهج المحدثين عامة فى نبذ البناء التقليدى للشعر ، فيدعو إلى ترك البدء بحديث الديار والأطلال ، والعدول عن وصف الصحراء والفيافى والقفار .

وشعره عامة عليه طلاوة الحضارة ، وحلاوة الروح المصرية لفظا وبناءً ، ومعانى ، وصورا تخيلية .

— ٤ —

الشريف العقيلي ، أبو الحسن

هو عليُّ بنُ الحسين بن حيدرة بن عبد الله بن محمد ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب .

ولد ونشأ فى مدينة الفسطاط ، وكان له بها متنزهات بجزيرة الفسطاط كما يقول صاحب المغرب[١] بجنَّاتها وقد تشوق إلى الفسطاط فى شعره فقال :

أحنُّ إلى الفسطاط شوقاً وإننى ... لأدعو لها ألا يحلَّ بها القطرْ
وهلْ فى الحَيا من حاجةٍ لجنَانِها ... وفى كُلِّ قُطْرٍ من جَوانِبِها نَهْرُ
تَبدَّت عروسًا والمقَطَّمُ تاجُها ... ومِن نِيلِها عقدٌ كما انتظَم الدُّرُّ

وكانت حياة الشاعر فى أُخريات القرن الرابع ، وامتدت حتى حكم المستنصر فى القرن الخامس ، وربما امتدَّ به العمر حتى منتصفه[٢] ، وربما عمر حتى الشيخوخة إذا تجاوزنا فى تفسير بعض نصوص مما جاء فى شعره مثل قوله :

لله أيام لذَّات قضيتُ بها ... حقُّ الشَّبابِ وظلُّ العيشِ ممدودُ
مازلت ألبسها والدهر ينشرُها ... فاسودَّ أبيضُها وابيضَّتْ السُّودُ

كان الشريف العقيلي من الأشراف الطالبيين الذين ظلت منهم فئة تعيش فى مصر ، وأقاموا لهم نقيباً منهم ، وأشهرهم بنو طباطبا ، وقد كان منهم النقيب عند مجيء المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر .

ويعتز الشاعر بنسبه إلى الأشراف فى شعره كقوله :

أنا عبد لآلِ عبد منافٍ ... عِترةِ النُّسكِ والتُّقى والعفَافِ
ليس من أجلِ أن تَرانى شَريفًا ... لا ترانى من شِيعةِ الأَشرَافِ

وحاول الفاطميون عند استقرارهم بمصر أن يجتذبوا الأشراف إليها وأن يصطفوهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينجحوا فى أن يجعلوهم ممن يدينون بآرائهم ويعتقدون عقيدتهم . وشعر الشريف يخلو من الآراء والعقائد الفاطمية التى

(١) المغرب ٤ /٥٢ .

(٢) خطط المقريزى ١٠ /٣٤٠ .

نراها مبثوثة فى شعر غيره من أبناء الفاطميين، كما فى شعر تميم الذى عرضنا له وعترتهم ، وفى شعر الدعاة من أمثال القاضى النعمان وداعى الدعاة أو شعر الذين اصطفاهم الفاطميون وصاروا لسان دعوتهم مثل ابن هانىء الأندلسى شاعر المعز .

ومع هذا فإن الشريف العقيلى اتصل ببعض رجالات الفاطميين وكانت له فيهم مدائح كالحسين بن جوهر الصقلى قائد القواد فى عهد الحاكم بأمر الله فى قوله :

ألا هاتها راحًا لها ربحُ عنبرِ ... على جسِّ طُنبورٍ وأيقاعِ مِزْهَرِ
فللدولة الحسْناءِ جيدٌ مُقلّد ... بجوهَرِ تدبيرِ الحُسينِ بنِ جوْهرِ
أخو هِمَمٍ غُرٌّ إذا هو حَثَّها ... لِتلحقَ بالعلياءِ لَمْ تتعثَّرِ
إذا قائدُ القُوادِ أعمَلَ رأيَهُ ... رأى نفْسَه ما بيْنَ مجْدٍ ومَفْخَرِ

وثقف الشاعر الثقافة العربية ، وتعلم الموسيقى والغناء ، فكان يضع الألحان ويغنى ببعض أشعاره .

وكانت حياة الشريف حياة مترفة ناعمة كحياة هذه الطبقة ، فكان له من شرف الحسب ، والغنى الذى ظهر فيما اقتنى من المال والضياع ما مده بأسباب تلك الحياة . ويشهد على نفسه بالغنى حين يقول :

بى فقرٌ إلى المُدام وإن لَمْ ... أكُ ممن يُعدُّ فى الفُقَراءِ

وذكره ابن سعيد بين من لهم الثراء والضياع قال(١) : « كان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مديح أحد » فلم يتكسب إذا بالشعر اكتفاء بشرفه ، وبما عنده من المال .

ويدور معظم شعره حول حياته الخاصة ، وما يعتاده من مجالس الشراب والغناء والطرب واللهو ، وما يصفه من مباهج الطبيعة والحياة ، وما يعرض له أحياناً من أحداث وهموم الحياة ، وربما عرض بالمديح لبعض خاصته ومن اتصل بهم من علية القوم والقادة وعظماء الرجال .

---

(١) المغرب لابن سعيد بتحقيق د . زكى محمد حسن ود . شوقى ضيف الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ص ٣٠٥ ، طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

ونطوف بديوانه فنستجلى مغانى الحياة من شراب ومتعة ، وغناء وسماع موسيقى وطرب ، وطواف بالحدائق والبساتين والبرك ، ووصف للثمار والزهور ، والماء والجوارى الحسان والغلمان إلى غير ذلك من الصور التى يعمر بها شعره .

ولنبدأ الطواف بما قاله فى منازة مصر والقاهرة فى عهده .

يقول فى بركة حولها بستان وزروع :

وروضةٍ كالحُلَّةِ الخضراءِ　　محدقةٍ ببركـةٍ حسنـاءِ
قد لبسَتْ عِقْدَ طُيورِ الماءِ　　لُبسَ السَّماءِ أَنْجمَ الجوْزَاءِ

ويقول فى بركة أخرى :

وبِركةٍ قد أفادَنا عجَباً　　ماعَاجَ من مائِها ومانسكَبَا
يدرِكُهاالورْدُكلَّماارتعدَتْ　　منهُ بجمرٍ يظَلُّ ملتَهِبَا
من حولِ فوَّارةٍ مُركَّبةٍ　　قد انحَنى ظَهْرُ مائها تَعبَا

وكان للشريف بساتين فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط ، وقد وصف بستانا له فقال :

فقد دهمَ الفجرُ طِرْفَ الدُّجى　　فصيَّر أدْهمَـهُ أبْلَقـا
وأَبْدَى لنا الزَّهْرُ ياقوتَـهُ　　فمِنْ مُستجادٍ ومن مُنتَقَى
وزخرَفَ جنَّـةَ بُستانِنا　　وألبسَهـا منهُ إستبْرَقـا
وفتحت القضْبُ أطْواقَهـا　　فزادَتْ حدائِقَـهُ رونَقـا
فما كان منها وَقَاحاً رَنا　　وما كان مُحتشِمًا أطرَقَا
ولاحَ الشقيقُ ولو لمْ يلُحْ　　لما نعِمَ التُّربُ بعدَ الشَّقَا

وكان بأحد بساتينه بركة ماء ، يرعى فيها الطير ويسبح بطها ، فيتلألأ عقودا من الدر كما شبهها فى بعض شعره إذ يقول :

وعندنا طارمةٌ رسمُها　　فى كُلِّ يومٍ مثل ذا يُنْصَبُ
بين يديها بركةٌ ماؤُها　　جارٍ معَ الأيامِ لا يَنْضُبُ
ما حُطَّ مذ أنشأْتُها سالِفاً　　قَطُّ على سالِفها طُحْلُبُ

يرقصُ في جافاتِها بَطُّها ... إذا غدَا بلبُلها يلْعَبُ
وربَّما تُطْلِع أمواجُهـا ... كواكبًا من وقتِها تَغْرُبُ

وهو مغرى بأصناف الزهور ، والرياحين ، يصفها وصف محب متأمل ، يقول :

أصبحتُ أكثرَ خلقِ الله كُلِّهِم ... عِشقًا لروضٍ قد اهتزَّتْ جوانبُهُ
رَيَّاهُ نَكهتُه والقَطْرُ مَضْحَكُه ... والوردُ وجنتُه والآسُ شارِبُـه

ويقول فى زهر الأقاح الأبيض :

فغذِّ العيشَ إمَّا باغتِباقٍ ... تلذُّ به وإما باصْطِباحِ
فاحسنُ ما تكونُ الأرضُ زِيًّا ... إذا انتقَبتْ بِفِضِّيِّ الأقاحِ

ويقولُ فى الياسَّمين والأقاحِى :

فأشربْ على فِضَّةٍ ودُرٍّ ... من ياسمينٍ ومِنْ أقاحِ
فالأرضُ قد أصبحَتْ عرُوسًا ... تُجلى من الزهرِ فى وِشاحِ

ويقول فى زهر البنفْسجْ :

أشرب على زَهر البنفسَجِ قهوةً ... تُهدى السُّرورَ إلى الحزينِ المكْمَدِ
فكأنه قرصٌ بخدٍّ مُهفْهَفٍ ... أو أعيُنٌ زُرْقٌ كُحِلْنَ بإثمِدِ

ويشتق من الزهر استعاراته وتشبيهاته فى معان وموضوعات غير الزهر كالغزل ووصف كاسات الخمر .

يقول متغزلاً :

يامن له خدٌّ غداَ حائزًا ... شقائِقَ النُّعمانِ من وَرْدِهِ
أثنِ عِنانَ الهَجْرِ عنْ عاشِقٍ ... قد طالَ ركْضُ الدّمعِ فى خَدِّهِ

ويقول فى وصف الخمر وكأسها :

جِسمُ زجاجٍ وروحُ راحِ ... كأنَّها الشَّمسُ فى الصَّباحِ
إن ضَحِك الجلُنَّارُ مِنها ... أَراكَ ثَغْرا من الأقاحِ

وأما الثمار فيسترعيه حب المشمش وقد تساقط من شجرهِ على الأرض فيقول :

مشمش نثرته على الرياض الرياحُ
كأنه إذ تراءى لناظرى أمحاحُ

يقصد بالأمحاح صفار البيض .

ويقول فى النارنج وهو يترنح فى أغصانه على الشجر :

ونارنجة بينَ الرّياضِ نظرْتُها على غُصنٍ رَطْبٍ كقامَةِ أغْيدِ
إذا ميَّلتها الريحُ مالتْ كأكرةٍ بدتْ ذهبًا فبى صولجان زُمُرُّدِ

وكثيراً ما يمزج فى قصائد وصفه بين مشاهد المياه والرياض والزهور والحسان من الجوارى الجميلات ، أو الغلمان الصباح وكؤوس الخمر تدار .

فيقول :

نحنُ فى روضٍ نَضيرِ بين نبتٍ منْ حَريرِ
وشقيقٍ من خُدُودٍ وأقاحٍ من ثُغُورِ
بين سحب من كؤوس وبُروقٍ من خُمُورِ
ونَدّى من مَاءِ وَرْدٍ وضَبابٍ مِن بُخُورِ
نزهةٌ من كانَ فيها كانَ فى ظِلّ السُّرُورِ

ويقول فى مجلس شراب ولهو :

الغيمُ ممدودُ السُّرادِقِ والزَّهرُ مفروشُ النَّمارِقِ
والقاشُ(١) قد فُرِشتْ لنا منهُ المجالِسُ والمَرافِق
أشجارُهُ وثِمارُه مثل الترائب والمخانق
وطنٌ يموتُ مخافةً فيه الشَّقَاءُ مع الشَّقَائِقْ
قد غنّت الأطيارُ فى طُرقَاتِهِ كُلَّ الطَّرَائِقْ
فاعْتِقْ فؤادَكَ فيهِ من رِقّ الهُمومِ بشُرْبِ عَاتِقْ
فالأقحوانُ غصونُه بِيضُ النَّواصِى والمَفارِقْ
ومَرَاوِدُ الأمطارِ قَدْ كَحلت بهَا حدَقَ الحَدائِقْ

ويجمع إلى الخمر أطايب الطعام :

فلا تَلْهُ بالشُّغلِ عمَّن غدَا إلى اللَّهوِ من غيرِهِ أشوقَا

(١) والقاش روضٌ أو بستان جهة الفسطاط كان يرتاده .

فقد قام طبَّاخنا فائقٌ بليلٍ أعدَّ لنا الفيْقا
وعبًّا البوارِدَ فى جَوْنَةٍ أجن من الخوْف أنْ تُطبقَا
ووافى بعِقيَانِ سنبُوسَجٍ فألبسَها منـهُ دُستينَقا
وأبدَع فى سلْقِ هليُونِها لأنّى أمرتُ بأنْ يُسلَقا
وعندِى فديتُك من بعْدِها عَصيرٌ من الكَرْمِ قد عُتِّقَا

ويقول فى وصف مأدبة دعا إليها أصدقاءه :

وعندى طهابجة وجدى باردٌ ومضيرةٌ كالفِضَّةِ البيْضاءِ
ونقانقٌ ما مِنْهُ واحدةٌ بدَتْ إلاَّ كمِثلِ البُسرةِ الحمْراءِ

ويذكرك بأبى نواس حين يغدو إلى حانوت خمار ليلاً ليشرب عنده، ويطلب إليه أن يجلو عليه من الخمر كؤساً فيقول :

وخمَّارٍ دخلتُ عليهِ وهْنًا وجُنحُ اللَّيلِ مسوَدُّ الجَنَاح
على هوجَاءَ تنشُر فى الفيَافِى لُغاماً فى الغُدُوِّ وفى الرَّواح
إذا وخدَتْ تخَالُ الرِّيحَ تحتى وإنْ كانت أخفَّ من الرِّياح
فقال: من الفتىَ؟ فأجبْتُ ضيفٌ تسرْبلَ بالمكارِمِ والسَّمَاح
فقال : وما تريدُ فدتْكَ رُوحِى فقلتُ له : أرِحْ رُوحِى برَاح
فقامَ إلى دِنانٍ مُترعاتٍ مُعمَّمَـةٍ بكافـورٍ رباحِى
وفضَّ ختام أقدَمِهَا فلاحَتْ على الظَّلماء أنوارُ الصَّباح
وأبرزَ منه فى الإبريق راحًا ألذَّ إلى الأسيرِ من السَّراح
كأنَّ حبَابَها طَلٌّ تندَّى على وردٍ جَنِىٍّ فى أقَاح
وجاءَ بأهيفٍ عذْبِ الثَّنايا دقيقِ الخصْرِ غَرثَانِ الوِشَاح
تراهُ يَتيهُ من أدبٍ وظَرفٍ ومن تِيهٍ على الغِيدِ المِلاح
يقولُ إذا رآهُ كلُّ لاحٍ مُحبُّكَ ما عليهِ من جُنَاح
هى الأيامُ تندرجُ اندِرَاجا وصرف الدهر ذو وجه وقاح
فصِلْ قصفا بقَصْفٍ واغتبَاقًا بافراحٍ ، ولهوا باصْطِباح

ومع هذه الكثرة من الحديث عن الرياض والبرك والأنهار والأزهار، والخمر ، والكأس ، والطعام ، والساقى ، مع هذا كله ، ومع عرضه لمعارض

الجمال فيها جميعاً ، نجده يخلطُ جمال الطبيعة بجمال الحياة ممثلاً فى الوجه الجميل والقوام المعتدل والتكوين البديع ، ولهذا فهو يجمع بين جمال المرأة وجمال الطبيعة ، فالخد مختلط بالورد ، والعين بالنرجس والأسنان بالبرد والأقحوان .

وتمتزج بهذا كله لذات الحِسّ من تمل بالنظر ، وتمتع بالذوق باللسان ونشوة اللذة بالبدن ، كما مزج الوجوه الصباح والطعام بطعوم المذاق فى رشفة الخمر وقبلة الثغر ، ولقمة الطعام .

ولنتأمل هذه الأبيات التى تعمر بالخيال العجيب الذى يمزج فيه الشاعر بين الكائنات ، بين المرأة والطبيعة والخمر والسحاب والمطر مزجاً عجيباً لا تقع عليه فى شعرنا العربى . يقول :

السُّحب تُرضِعُ من نَباتِ الأرْضِ ما ... جعلَ الرّبيع لها الغصون نهودا
والراح قد نظم المزاج لجيدها ... در الحباب قلائدا وعقودا
فاستجل منها ما إذا افترعت غدا ... منها السرور لبعلها مولودا
وأنعم بها فى ظل صحتك التى ... أضحى عليك رواقها ممدودا

ويتغزل فى المرأة ، لكنه غزل يعرض فيه محاسنها من حسن وجه ، وثغر وعين وقوام مع ما يعد له من صور الزهور وبدر السماء :

مر بنا فى مورد شرق ... كأنه البدر لاح فى الغسق
منعم حليه اللحاظ إذا ... أقبل تجرى إليه فى طلق
كأنما وجهه لكثرة ما ... فيه من الحسن موسم الحدق

وفى البيت الأخير يمزج بين جمال الوجه وجمال الروض بما فيه من أفانين الزهر ، والزهر عروس تجلى توجها الحبب ، والجو كله عرس تهتف حمائمه وتغنى بلابله . وخياله حافل حين يصف الروض والشراب يرؤى السعادة ممثلة فى جلوة العرس ، ومرأى العروس .

عرايس الروض تجلى ... على كراسى الروابى
ومجلس الروض فيه ... فرش من العنابى
فانعم ولذ ببكر ... قد توجت بالحباب

ويقول :

قد ضحكت غرة الصباح — واندفع الديك فى الضياح
وطاف بالراح كل ساق — رضابُه فوقَ كُلِّ رَاحِ
فأشرب على فضة ودر — من ياسمين ومن اقاح
فالأرض قدأصبحت عروسا — تجلى من الزهر فى وشاح

والحب علاقة الحبيب بالمحب ، وما يتقلب بها بين وصل وهجران ، وفرحة لقاء ، ودمعة وداع ، تلتقى به هنا وهناك فى ديوان الشاعر كأن يقول :

أنا فى الغُدوِّ وفى الرَّواحِ — قلِقٌ على قَلِقِ الوِشَاحِ

ويقول :

قامَتْ قيامةُ رُوحِها لرَواحِى — إنَّ النَّوى لِقيامةِ الأَرواحِ
فبكتْ فصَارَ الدَّمعُ فى وجَناتِها — مثلَ الحُبابِ على كُئوسِ الرَّاحِ

ويقول :

لما قَضى القربُ بدَاءِ البُعدِ — وصارَ من فراقِنا فى لَحْدِ
لطمتُ بالدمعِ عليهِ خدّى — لأنَّنى فيه أُصِبْتُ وحدِى

ويقول :

شكوتُ إليها يوم ودَّعتُها وجْدِى — فألفيْتُ منه عندَها فوقَ ما عِنْدِى
ومازالتْ الأجفانُ تنثُر دمعَها — على خدِّها طورًا وطورًا على نَجْدِى
فلولا غليلُ الشَّوقِ ما كانَ طرفُها — لِيَنْضَحَ ماءَ الوردِ منه على الوَرْدِ

والشاعر يريد أن يعب من متاع الدنيا ولذتها قبل أن يزول رونق الشباب ويأتى خريف العمر فتذبل وردة الصبا ، وتغيب شمس اللذات فيعود التذكر وتذهب النفس حسرات :

لله أيامُ لذاتٍ قضيتُ بها — حتَّ الشَّبابِ وظِلُّ العَيشِ ممدُودُ
مازلتُ أُلبسُها والدَّهرُ ينشرُها — فأسودَّ أبيضُها وابيضَّتْ السُّودُ

وتلتقى فى بعض أبياته الغزلية برقيق من القول مطرب مُرْقص كقوله :

غزالٌ تدلهه دلّـــــه — على قتْلِ من هُو عبدٌ له

وذلك أنى مَلَّكتُه قيادِى وملَّكنى وصله
كغُصنَيْنِ فى دوحَةٍ بعضُنا يمدُّ على بَعضِنا ظِلَّهُ
إلى أن أمَرَّتْهُ أفعَالُه ووغّـر إعجابُهُ سهْلَهُ
فخلَّصتُ حَبْلى من حبْلِهِ ومن ملَّ صاحِبَهُ ملَّهُ

وفى الحب والصداقة والصديق يرتبط القلب ، وكان الشريف العقيلى محباً لأصدقائه يصلهم ويصلونه ، ويدعوهم إلى مشاركته لذات مجالسه وشرابه وطعامه بين الرياض ومجالى الطبيعة .

ألا رُبَّ ضيفٍ تقنَّصتُه وجيدُ السَّماءِ كثيرُ اللآلِى
فحضَّرتُ ما كان عِندِى لهُ من الزَّادِ فعلَ كِرامِ الرِّجالِ
وقدَّمتُ راحًا سبتْ عقْلَهُ بلونِ الخَلُوقِ وريحِ الغوَالِى

ويقول :

وصديقٍ سرُورُهُ بالصَّديقِ كسُرورِ العَشيقِ بالمعْشُوقِ
كلُّ يومٍ أروحُ منه وأغدُو بين لفظٍ رَطْبٍ وخُلْقٍ رَقيقِ
وخَريفٍ من الوفَاءِ نَضيرٍ ورَبيعٍ من الحِفَاظِ أنِيقِ
فقضَى اللهُ حقَّه من نَفيسٍ يقتَضِيى نفسَهُ قضَاءَ الحُقُوقِ

خصائص شعره :

مما سبق من نماذج لشعر الشريف تلاحظ أنه إهتم إهتماماً واضحاً بموضوعين خصهما بمعظم شعره . وهما الروضيات والخمرة ومجالسها ، ويليهما الغزل ووصف المطاعم ولم يقل فى موضوعات الشعر الأخرى كالمديح والفخر والهجاء إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة قليلة العدد .

ومديحه كما أشرنا لبعض أصدقائه ، وبعض كبار رجال الدولة كقائد القواد الحسين بن جوهر الصقلى ، وهو يضفى عليهم صفات المدح المعروفة ، وكان فخره بنفسه منشوراً بين أبيات قصائده ، ويعتد فيه بنسبه وشاعريته ، وأما الهجاء فكان منصباً على جماعة ممن عاصروه من ولاة الأقاليم كوالى سخا ، وعامل دمياط الذى يقول فيه :

عاملُ دِمياطَ فتىً قلما ... يحصُلُ من رِفدٍ على شاكِرِ
فعالُه تُسخِطُ بعد الرِّضا ... ويُفسِدُ الأوَّلَ بالآخِرِ
وإن وفَى عادَ إلى غدرِهِ ... لضَعفِ رأيٍ وعمًى خاطِرِ
لا خيْرَ فى المرءِ إذا لمْ يكُنْ ... باطِنُه خيرًا من الظَّاهِرِ

كذلك هجا بعض موظفى الدواوين كالكاتب النصرانى عيسى بن مرقس كاتب الدولة ، يتهمه بالبخل . فيقول :

جوابُ عيسى لسائليهِ ... مُذ كانَ : لا تطمعُوا بخيْرِى
فإنَّنِى لم أزلْ بخِيلا ... أمنعُ دَرِّى ودرَّ غيْرِى

ويسخر من كاتب آخر اسمه خيرون فيقول فيه :

لا خيرَ فى خيرُونَ من كاتبٍ ... يخترِقُ البخلِ بخطوٍ سَريعْ
إن ثلم الضيفُ رغيفًا لهُ ... بكى عليهِ بأحرِّ الدُّموعْ
فلا تخالطْهُ فإنَّ الفتَى ... يفزعُ أن يخرَا لئلا يجُوعْ

ومن مهجويه شاعران استأثرا بكثير من لاذع أبياته ، لأنهما تعرضا له ولشعره وانتقداه فنالهما بلسانه . يقول فى أولهما واسمه أبو اسحاق إبراهيم :

أبو إسحَق فى تَعبٍ ... يحاولُ أن يُشبِّه بِى
وهلْ فى النَّاسِ من أحدٍ ... يقيسُ الرأسَ بالذَّنبِ
فلا يذهبْ بِهِ هوسٌ ... فليسَ الصُّفرُ كالذَّهبِ

ويقول فيه :

أبو إسحاقَ إبراهيمُ ممَّن ... تحامُله على شِعْرِى قديمُ
أما يخشَى زبانيةَ القَوافِى ... إذا وقدتْ لأفكارِى جَحيمُ
فدَعْ شيْطانَ غيبتِهِ وشعْرِى ... فإنَّ سَماءَهُ فيها الرُّجومَ

والشاعر الآخر هو غِياث بن جارود . يقول فيه :

يا صاح لا تُصغِ إلى لفْظة ... يفتح عنها شفتيه غِياثْ
ذو خاطرٍ رخوٍ ضعيفِ القُوى ... يأتيكَ منه بمَعانٍ إناثْ

ويبدو أن غياثاً هذا كان شيخاً يتكلف الشعر فيأتى به سخيفاً رديئاً ولا

يكتفى الشاعر بهجاء لفظه ، ولكنه يتعداه إلى شكله وصورته ، ويبدو أنها كانت تثيره إلى الضحك . فيقول :

شيخٌ إذا استدْعيْتَ ألفَاظَهُ ... جاءتْكَ بين الزُّورِ والإفْكِ
مُستطولُ الرأسِ عريضُ القفا ... مُضْطربُ الأنيابِ والفَكِّ
لو مات لى إلفٌ وأبصرتُه ... لبلتُ فى ثوبى من الضّحْكِ

ويمتاز شعر الشريف بالرقة ورصانة السبك ، مع سهولة فى اللفظ حتى إن بعض زملائه من الشعراء راجعه فيما يبدو بسبب تلك السهولة فقال : ومالى وصعبه ــ ويقول الدكتور زكى المحاسنى ــ(١) : « أما اللون الذى غلب على شعر العقيلى فهو المرح والإشراق ، ولا تجد إلا القليل فى أبياته من الموعظة ، والمعاتبة والشكاية على عادة الشعراء . وما خلا من هجاء ولوم لحسود أو عذول أو لمن تتبع الشاعر بالمشاكسة كمحسن بن الملح الذى تناولته الأبيات بالذم والسخرية » .

ويقول عن عشقه للطبيعة والخمر « ... أما الشاعر العقيلى فكان تصويره مادياً ملموساً ممزوجاً بالفكاهة والملحة والدعابة ، وأنه ليعد من أبرز شعراء الطبيعة وهم قلة على اختلاف العصور ، وما أشبه العقيلى فى حب الطبيعة وتعشق جمالها وفنونها بابن خفاجة الأندلسى » .

وكان من أسباب فتون العقيلى ومن قبله كل من ابن وكيع وتميم بن المعز بما كان فى مصر من مباهج ومنازه ، وبخاصة فى الفسطاط والجيزة وما جاورهما وقد أشاد كثير من العلماء والرحالة بهذه المباهج والمنازة .

ويقول الدكتور المحاسنى : « وكان بمصر فى عصر الفاطميين تنسيق فنى مرموق يحدثنا عنه بتطويل وتفصيل المقريزى فى خططه فقد جعل كتابه مقصوراً فى أغلب أبوابه على الكلام فى جمال مصر واقطاعها وأحياء مدنها ، ومباهج نيلها وبساتينها الخضر المونقة »(٢) .

ويقول : « هذا هو الشاعر الملهم الذى نظم الشعر على طبيعته فخالف سنة الشعراء الذين عاصرهم ، إذ كان أغلبهم خاضعاً للملق والتكسب ، فتجافى

(١ ــ ٢) مقدمة الديوان طبع البابى الحلبى بمصر .

عن أن ينزل إلى مطاعمهم وهو الغنى بنفسه وأدبه وماله عن الحكام والخلفاء ، ولئن لم يعكس بشعره أطوار المجتمع بصورها المختلفة . فحسبه أن يعكس صور حياته الخاصة التى تجد فيها منازع التفرد فى عصره . فهو بحق شاعر مترف غنى على قيثار نفسه ليطرب روحه ، ويؤنس عمره » .

وكان الشاعر يستخدم عناصر التعبير الشعرى المختلفة ، منها ما يتصل بزخرف اللفظ ، من حيث إيقاعه وموسيقاه ، ومقابلاته ، وتجنيساته وتورياته :

ومن أهم معالم صنعته الشعرية تلك الخيالات الجديدة الغريبة التى صاغها فى صور من التشبيه والإستعارة غير مألوفة عند غيره من الشعراء من مثل قوله :

ولما أقلعتْ سفُن المطَايا ... بريحِ الوجْدِ فى لُججِ السَّرابِ
جرَى نظَرى وراءَهم إلى أنْ ... تكسَّرَ بينَ أمواجِ الهِضَابِ

ومنه قوله أيضاً :

لا تُصغِينَّ إلى العذُولِ وسقِّنى ... مشمُولَةً فى حُمرةِ البابُونَجِ
أو مَا ترَى زهرَ النجُومِ كجوْهرٍ ... نثرتْهُ غانِيةٌ على فيرُوزَجِ
والبدرُ فى أفقِ السماءِ كورْدةٍ ... بيضاءَ تضحَكُ فى رِياضِ بنفْسَجِ

ويتخذ من المرأة بمرائيها وجسدها وثيابها ملامح لبناء تشبيهاته وإستعاراته كقوله :

فأحسنُ ما تكونُ الأرضُ زِيًّا ... إذا انتقبتْ بِفضِّىِّ الأقَاحِى

وكقوله :

ظبيٌ رقيقٌ حواشِى نِعمةِ الجَسدِ ... كأنما ثغرُهُ عِقدَانِ من بَرَدِ
كأنما رِدفُه من عِزَّةٍ أسِفِى ... كأنما خصرُهُ من ذِلَّةٍ جَلِدِى

وكقوله :

فاعتقْ فؤادَكَ فيه مِنْ ... رِقِّ الهُمومِ بِعتْقِ عَاتِقْ
فالأقحُـــوانُ غُصونُـــه ... بيضُ النَّواصِى والمفَارِقْ
ومـراودُ الأمطـارِ قدْ ... كُحلت بها حَدَقُ الحَدائِقْ

وانظر إلى رخات المطر وكيف تراءت فى مخيلته مراود تكحل عيون الحدائق وهى زهورها !!

ويولد الشاعر العقيلى من الكلمات معانى توليد ابن الرومى ، وبخاصة فى الهجاء ، ومن ذلك قوله فى محسن بن الملح وإتخاذه من كلمة الملح معانى للهجاء :

يا ابن الأُجاج الملح لا ... تستخصِمْ العذْبَ الفُراتا

ويقول كذلك :

أيا مُحسِنُ قُلْ لى ... بما تتيهِ وتفخَــرْ
هذا وجدُّك مِلْــحٌ ... فكيفَ لَوْ كان سُكَّرْ

وتلمح فى قاموس لفظه وتعبيراته مزيجاً من اللفظ البدوى والحضرى ، والمولد والمعرب والدخيل ، منه بعض ألفاظ الطعام والشراب الفارسية التى دخلت قاموس العربية فى لغة العباسيين وتداولها الشعراء فيما بينهم ، كاللوزينج والسنبوسج ، وأسماء بعض الزهور كالجلنار ، والبهار ، واللازورد .

ويستخدم فى تعبيراته بعض عناصر من تراث الشعر ومن الآيات والسور القرآنية ، ومن الأخبار والتاريخ الإسلامى والعربى القديم ، وبه تضمينات أحياناً من بعض طقوس الدين وعباداته ، كاستخدامه للكعبة والطواف فى قوله يمدح :

يا منْ يطوفُ بكعبةِ إلا ... حسانِ منهُ المستَميحْ
إن ظَلَّ عازرُ قصدَنا ... ميتًا فجدوَاهُ المسيحْ
أو طافَ طُوفانٌ بنَا ... من عُسرةٍ فنداهُ نوحْ

فيسخر هذه العبارات والإشارات الدينية فى معانى المديح .

ويقول فى موضع آخر مستغلاً أيضاً الكعبة والحج والطواف فى الشراب :

قم فانحر الراحَ يومَ النحْرِ بالماءِ ... ولا تُضحِّ ضُحًى إلاَّ بصهْباءِ
أدرك حجيجَ النَّدامَى قبلَ نفرِهُم ... إلى منًى قصفِهم معْ كُلِّ هيْفَاءِ
وعُجْ على مكةَ الرَّوحاءِ مبتكِرا ... فطُفْ بها حوْلَ ركنِ العُودِ والنَّاءِ

— ٥ —

شعراء مصريون آخرون
من القرن الرابع

عرفت مصر من القرن الرابع وفى ظل الفاطميين جماعة من الشعراء قصدوا المعز لدين الله ، والعزيز عثمان والحاكم بأمر الله ووزراءهم كيعقوب بن كلس ، والقائد جوهر الصقلى .

وتذكر منهم المصادر الحسين بن بشر[1] وابن أبى الجوع عبد الله بن محمد[2] وكان الحسين بن بشر على قول الصفدى هجاء ، هجا ابن كلس وغيره من رجال الدولة ، وأمر العزيز عثمان بتعزيره ، ومات لقاء تهجمه[3] . قال عنه ياقوت فى معجم الأدباء :

« شاعر مشهور مذكور ، جيد الشعر ، عالى الطبقة ، مشهود له بالفضيلة » وقال عنه عبد المحسن الصورى الشاعر : « ما رأيت فيمن شاهدته من الشعراء أعلى طبقة من ابن بشر ، ولا أحسن طريقة » .

قال الصفدى : « وشهادة عبد المحسن له بذلك ، مع تقدمه وفضله ، والإجماع على إحسانه فضيلة له لا تجحد ، ومزية لا تدفع . وشعره نحو خمسة آلاف بيت » .

ويذكر من شعره قوله عن نفسه :

حصلْتُ من الدُّنيا على الشعر رتبة ... قُصاراىَ فيها أنْ يُقَالَ مُجوِّدُ
فأكرمهم من برَّنى باستماعه ... وأجودُهم من قال شعرُك جيِّدُ

ويبدو أنه سافر من مصر إلى الشام والتقى بمدينة يافا بالشاعر عبد المحسن الصورى ولازمه زمناً أو لعله لقيه بمصر .

ويبدو أنه لم يعتمد على الشعر فى رزقه ، وإن كان بعض أولى الأمر يخشونه

---

(١) ترجم له الصفدى بالوافى ١٢ /٣٤٣ .

(٢) ترجم له الصفدى بالوافى ١٢ /٥٢٧ .

(٣) الوافى بالوفيات ٢ /٣٤٥ .

فيجزلون له العطاء. وروى الصفدى أنه تولى الخراج فى عهد العزيز بالله بإحدى النواحى فخرج إليها راجلاً وقال :

أَوَلِى الخراجَ وكشْفَ الضياعِ وذا الزىّ زِيِّى وذِى حَالتِى
وأخشى إذا جِئتُهم راجِلاً يَظنُّوننى بعضَ رِجَّالَتِى

وروى أنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء ليعقوب بن كلس ، وكان يبلغه ذلك عنه فيحقده عليه . وكان سبباً فى حث العزيز على الغضب عليه وعقابه حتى مات .

- وأما ابنُ أبى الجُوع : عبيد الله بن محمد(١)

فهو نحوى أديب وراق ، من أهل مصر . كان مليح الخط ، جيد الضبط ، وكان له تحقق باللغة والنحو والبلاغة ، وقول الشعر . وصل إليه من العزيز وابنه الحاكم جملة كبيرة على الوِرَاقة. قال الصفدى : وقد أدرك المتنبى وأيام كافور ، ومات بمصر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . قال الثعالبى : أحد رواة المتنبى الأدباء ، وأصحابه العلماء ، وممن تمهَّر فى لغات العرب ، وأجاد أنواع الأدب » .

قال ابن أبى الجوع : كان لى على الوزير ابن حنزابه وعد مطلنى به مطلاً ضاق به صدرى فعملت فيه(٢) :

تاه جهْلاً بالفراتْ أُحمقٌ ذو نزواتْ
قال لى أهيفُ عنه وهو من إحدَى الثقاتْ
إنــه يجمـــع باليـــــــــــــم رءوس الألفات(٣)

قال : وكتبتها فى رقعة وكتبت فى أخرى إليه أتنجزه الوعد ، واتفق لقائى له على عجلة فأردت أن أعرض عليه القصة ، فدفعت إليه الأبيات غلطاً ، فلما قرأها قال : لعنك الله قد غلطت ، وأعادها إلى ، والتمس الأخرى فدفعتها إليه وعندى من الخجل ما تقتضيه مثل تلك الحال ، فأخذها ووقع فيها بما أردت . فقلتُ : لك على مع ما تكرمت به من الحلم أن لا يسمعها أحد منى .

(١) الوافى ١٢ /٥٢٧ — واليتيمة ١ /٤٧٧ .
(٢) الوافى ٥٢٧ .
(٣) يلمح إلى معنى قبيح .

وكان يمدح الوزير ابن كلس كما قلنا ، وروى له المقريزى أبياتاً فيه أنشده إياها بمناسبة ألم أحسن به الوزير فى يده ، ويشير إلى الخليفة العزيز فيقول(١) :

يدُ الوزيرِ هى الدُّنيا فإنْ ألمتْ ... رأيتَ فى كُلِّ شىءٍ ذلكَ الألَما
تأمَّلِ الملكَ ، وانظُرْ فَرطَ عِلَّتِهِ ... من أجلِه، واسألِ القِرطَاسَ والقَلَمَا
وشاهِدْ البيضَ فى الأغمادِ نائمةً ... عن العِدَا ، وكثيراً ما رُوِينَ دَمَا
وأنفسُ الناسِ بالشكوى قد اتَّصلَتْ ... كأنَّما أشعرتْ من أجلِه سقَمَا
هَلْ ينهَضُ المجدُ إلاَّ أن يُؤيِّدَهُ ... سَاقٌ تُقدِّمُ فى إنهاضِه قدَمَا
لَوْلا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معًا ... تحيفتْنا خطُوبٌ تشعبُ الأُمَما
فقُلْ لهذَا وهذا أنتُما شرَفٌ ... لا أوهَنَ اللهُ رُكنيهِ ولا انهَدَمَا
كِلاكُما لم يَزلْ فى الصَّالِحاتِ يدًا ... مبسُوطةً ، ولسَانًا ناطِقًا وفَمَا
ولا أصابكُما أحدَاثُ دهرِكُمَا ... ولا طَوى لكُما ماعِشْتُما عَلمَا
ولا انمحتْ عنكَ يا مولاىَ عافِيةٌ ... فقد محوتَ بما أوليْتنى العدَمَا

ويذكر الثعالبى جملة من شعره . كقوله :

أظنُّكَ يا سيِّدى إذ جفوتَ ... توهَّمتَ بى نبوَةَ الغادِرِ
وخِلْتَ بأنِّى ملالاً سلَوْتُ ... ولسْتُ بسالٍ ولا صابِرِ
وقد علم اللهُ أنى عَليْـ ... ـكَ أشفقُ منِّى على ناظِرِى

وقال فى مليح يمسك بشمعة :

صالحُ يا مُشْبِهَ بدرِ الدُّجى ... بالحسْنِ والإشراقِ والرِّفْعة
وجْهُكَ فى الليْلِ كشمْسِ الضُّحَى ... نُورًا ، فما تَصْنَعُ بالشَّمْعَة

وقال فيه :

يا أطيبَ الناسِ ريحاً ... وأطيبَ النَّاسِ رَاحَا
وما به أتصدَّى الـ ... إطـرابَ والأفراحَـا
هات اسقنى أوتـرا ... نى لا أعرفُ الأقداحَـا
واحفظ علىَّ فؤادى ... أن لا يطير ارتياحَـا

---

(١) الخطط ٢ /٧ .

لو كُنتَ كاسْمك يا صا ... لِحُ اعتمدت الصّلاحَـا
لكـــن أبى الله إلا ... أن تُفسِدَ الأَرْوَاحَـا

وكتب إلى بعض أصحابه ليستدعيه وقد أوشك شعبان على الإنقضاء وأصبح رمضان على الأبواب :

شعبان قد صارَ نِضْواً ... ولم نُفِدْ فيه لَهوًا
وليس ذلك مسِنًا ... جهلاً ، ولا كان سَهْوا
فبالمـــــــــــــودَّةِ إلاَّ ... بكَّرت للقصْف غَدْوا

أبو الفتح ابن البينى :

ومن شعراء المصريين فى القرن الرابع : أبو الفتح ابن البينى[1] (ت سنة ٤١٥ هـ) وإسمه منصور عاش فى مصر فى أخريات القرن الرابع ، ومدح رجالاتها ، ومن بينهم القاضى محمد بن النعمان قال فيه مخاطباً حاجبه[2] :

فقُل لأبى عبدِ الإله بأنَّنى ... سقيمٌ إلى الآسى شكاية دائِه
وليس التشكِّى شيمتى غيرَ أنه ... يفيضُ إناءٌ زيدَ فوقَ امتلائِهِ

***

ويبسُط آمالى حياءٌ بوجهِهِ ... وبعضُ حياءِ المرءِ يَربُ سخائِه
وخلقٌ كماءِ المُزْنِ فى ظِلِّ صخْرةٍ ... تُرى فيه ما قُدّامه من ورَائِهِ
ترى كلُّ عينٍ فيه ما فى ضميرِها ... كذلك لونُ الماءِ لونُ إنائِهِ
ألستُ إليه جُبْتُ كلَّ تَنُوفةٍ ... يضلُّ بها قرنُ الضُّحَى عنْ ذُكائِهِ

ويذكر فى أثناء وجوده بمصر أنه خرج إلى جهة المقس على شط النيل ولقى فتاة سمراء فنظم فيها أبياتاً ، قال المسبحى : قال : خرجت إلى المقس متنزهاً ، فلقيت جارية سوداء مليحة فتبعتها فقلت :

وغزالـــــة غازلتهـــــا ... فى المقس من أولاد حـام

---

(١) ترجم له المسبحى انظر الجزء الذى قام بتحقيقه د . حسين نصار ، والمغرب قسم مصر بتحقيق . زكى محمد حسن ود . شوقى ضيف ص ٢٧٢ ، واليتيمه للثعالبى ١ /٣٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠ المسبحى طبع المعهد العلمى الفرنسى .

نضــرتْ بعينـــيْ ظبيـــةٍ ... ونظرتُ من عَينَىْ قَطامِى[1]
وتبسَّمـــتْ فكأنَّهـــا ... برقٌ تألَّقَ فى غمـامِ
نمَّتْ مشَتْ مشْىَ المها ... وتبعتُهـا رتْك النَّعـامِ
حتَّـى وصلْنـا بيتَهـا ... فحصلت فى البيتِ الحَرامِ
وجعَلْتُ أفتحُ ميمَهـا ... لما جثوتَ لها بِلامِى
كانت ـــ لعُمرك ـــ ساعةً ... جُمعتْ غُرابًا معْ حمَامِ

ونلاحظ هذه التورية فى غزله المكشوف أو فعله .

ومن حديث الشاعر وما ورد من أخباره القليلة ندرك أنه سافر إلى الشام ، وحل ببعض بلاده ومدح رجلا هناك وذكر المسبحى أنه كتب إلى من يسمى أبا الحسين على بن مُخوار وهو بحلب يقول :

سَرى فى سَبيلِ القوم ظَبىٌ مربَّبٌ ... هزيعًا، وهل للظَّبي فى اللَّيلِ مَسْرَبُ
وأنَّى اهتدَى، والأرسُ بينى وبينَهُ ... ومن فوقِها غِيلُ الدُّجى المتأشَّبُ
فيالكَ من ليلٍ طَوى النأىَ فالتقى ... بهِ مشرقٌ حتَّى الصبَّاحِ ومَغربُ
ومازالَتْ العُتْبى تردَّدُ بينَنَا ... إلى أمَدٍ ما خلفَهُ مُتعتَّبُ
وولَّى وعيْنِي تُرسِلُ الدَّمعَ خلفَهُ ... وقد حازَ جفنَيْهَا خيالٌ مُحَبَّبُ
نعمتُ كأنَّ علّقت قلبى بنظرةٍ ... تهادَى بها فى طُرةِ الغَربِ كوكَبُ
لكلِّ امرىءٍ عمرٌ بمالا ينَالُه ... وعُمرٌ بما قد نالَه كيفَ يسلبُ
وليلة ليلى والرَّقيبُ كأنَّه ... على أُفقِها عينُ الرقيبِ ترقُّبُ
بحيثُ ترى الحِرباءَ تغبرُّ فى الدُّجي ... وتُنشرُ فى صَدْرِ النَّهارِ وتُصلَبُ
وقد مدَّ كفَّيْهِ إلى الشَّمسِ مائِلاً ... كما مدَّ كفَّيهِ إلى اللهِ مُذْنِبُ
غلامٌ كإبهام القطاةِ لبسته ... وكانَ كظِلِّ الرُّمحِ ما جِئتُ أطْلُبُ
وما زِلتُ أُرمَى بالتَّجنُّبِ منهُمُ ... وربَّمَا غرَّ الرقيبَ التَّجنُّبُ
وما زُرتُها إلاَّ كخفقَةِ طَائرٍ ... على عجَلٍ واللَّيلُ بالصبْحِ أشيَبُ
وفى ذيلِه ذئبٌ من الإنسِ أطلسٌ ... توجَّسَ لَيثٌ من الوحْشِ أغلبُ
وفى مُنصلِ النَّصلِ اليمانىِّ برْقة ... إذا لمعَتْ كانَتْ دمًا يتصبَّبُ

(١) القطامى : الصقر .

إذا سُلَّ خلتَ الغِمدَ أسلَم جذْوَلاً ... فَضِيضًا عليهِ شُعلَةٌ تتَلَهَّبُ
يَقُدُّ المَفاضَ السَّرْدَ رهوًا كأنَّهُ ... يَقُدُّ ثُمالا أوضيًا حِينَ أضْرِبُ
فما كانَ إلاَّ ضربةَ الغُولِ بيْنَنا ... إذا كانَ حقًّا ما إلى الغُولِ يُنسَبُ
أطعتُ الصِّبا حتَّى ارعوَتْ بى خَلِيقَةٌ ... تناهَتْ ، وفى شَرْخِ الشبيبةِ مَلْعَبُ
وما النَّاسُ إلاَّ كالنَّباتِ مُصوِّحٌ ... لِيذْوِى ، ومُخْضَرٌّ لينمُو ومُعشِبُ
يُسَرْبِلُه ماءُ الشَّبابِ نضَارةً ... ويُنزَعُ عنهُ حُسنُه حِينَ ينضُبُ
دعَانِى ابنُ نخْوارٍ عَلىَّ وبيننا ... من الآلِ بحرٌ ، أو مِنَ البحْرِ سبْسَبُ
فجبتُ عن الفَجرِ الظَّلام كأنَّما ... صدَعْتُ به عنْ زُرقَةِ الماءِ طحْلُبُ
بعيسٍ أرى من خَلْفِها فَرْطَ خلْقِها ... تِلالاً أرَاها مِثلَها حينَ تخْبُبُ
إلى ملكٍ كالقَلْبِ خلْفَ حِجَابِهِ ... يَرى خافياتِ الغيْبِ وهو مُغيَّبُ

حتى يقول :

كذا تُشرِقُ الدُّنيَا إذا كانَ راضِيًا ... وتَلبسُ أثوابَ الدُّجى حِينَ يغْضَبُ
كرِيمٌ متى أعجُمْ أسِرَّةَ وجْهِهِ ... بِعيْنَىَ تحلُو فى فُؤَادِى وتَعْذُبُ

ويختم بقوله :

إذا كانَ للإنسانِ عقْلٌ فحيثُما ... توجَّه لاقَاهُ صديقٌ ومكسبُ
ينالُ الفتَى بالخفْضِ بُلغةَ عيشِهِ ... فيسْعَى إلى شَىءٍ سِوَاها وينصَبُ
يُخرِّبُ من أخراهُ ما ليسَ فانِيًا ... ويعمُرُ من دُنياهُ ما يتخرَّبُ
على أنَّ فى الأيامِ للمرءِ واعِظًا ... بليغًا ، وفى صَرْفِ الزَّمانِ مُؤَدِّبُ

ونلاحظ فى هذه القصيدة التى رواها المسبحى ملامح من صنعة البينى الشعرية وأولها تأثره ببعض مصطلح الشعر القديم وصياغاته دليلاً على حفظه للكثير منه ومن ذلك قوله واصفاً قصر الظلام : « ظلام كإبهام القطاة » و « كظل الرمح » و « الليل بالصبح أشيب » .

وأنه حل أو فصل معنى لذى الرمة ، تناوله الشعراء كثيراً ، وهو يصف قطعه البيداء على راحلته ومعه سيفه .

ونلاحظ بناء القصيدة التى مدح بها هنا على النهج القديم بادئاً بالغزل ،

لكنه صوره نسيبًا بدويًا ، يرحل فيه إلى محبوبته رحلة المخاطر ، وقد أعد لها من جرأة القلب والسلاح ما يتغلب به على صعاب الطريق .

ويختم القصيدة بأبيات من الحكمة .

ونلاحظ فى صنعته الشعرية غرابة بعض التشبيهات والصور على غير المألوف ومنها تشبيه الحرباء وقد مدت كفيها بأنها كمن يمد كفيه بالدعاء ، مبدلاً صورة الشاعر القديم الذى شبه الحرباء فى الضحى وكأنها كمن يمسك بالقوس والرمح مستعدا للرمى . وتشبيه الزيارة وقصرها بأنها كخفقة طائر . وتشبيه الدرع بالثمال وهو الماء القليل فى قوله :

يَقُدُّ المفاضَ السردَ وَهْوًا كأنَّهُ　　　يقدُّ ثُمالا، أوْضِيًا حينَ يضْرِبُ

ويعتمد فى تشبيه الناس بالزرع على القرآن الكريم فى قوله :

وما النَّاسُ إلا كالنَّباتِ مصوّح　　　ليذْوِى ومخضَر لينمُو ومُعْشِبُ

ومن غريب تشبيهه كذلك قوله :

إلى ملك كالقلب خلف حجابه　　　يرى خافيات الغيب وهومغيب

ومثل هذه القصيدة فى بنائها البدوى ، قصيدة أخرى أوردها له المسبحى فى مدح محمد بن جعفر بن فلاح أحد أمراء الفاطميين ، ممن تولوا دمشق وإمارة الشام فى عصر المعز والعزيز يقول فى مطلعها[1] :

صدَتْ ومنزلُها من منزِلى صدَد[2]　　　وأخلفتْكَ على العلّاتِ ما تَعِدُ

ويغرب فى صورها وتشبيهاتهما كما فعل فى القصيدة السابقة ، كقوله :

كأنّ تُحفَّى قَضِيبٌ فى صنَوبَرةٍ　　　تُجاد، فالماءُ عن أوْراقِها بدَدُ

ومن صوره التى تكررت قوله يشبه النجوم حول البدر أو المجرة البيضاء فى السماء المسماة بدرب التبانة بالطير تحوم على غدير الماء ، وهى صورة غريبة ، وإن كررها فى قصيدتيه :

---

(١) تاريخ المسبحى ص ١٦ .

(٢) صدد الشيء قبالته وأمامه .

فقد ذكر فى هذه القصيدة قوله(١) :

وَلاحَ بدرُ الدُّجَى نَهْيا وأنجمُه ... طيراً ترِفُّ حوَالَيْهِ ولا ترِدُ(٢)

ويذكر فى القصيدة نهير حلب المسمى بِقُوَيق ، مشبها البيض حف الزرد بحافاته ، فصورة الماء فى هذا النهر القليل الغور ، وهو ينساب حول الحصى والصخر فى مجراه يشبه تلك الصورة التى رسمها من خياله وهى صورة غريبة فى تركيبها ، وإن لم تكن غريبة فى جزئياتها لأن تشبيه الماء المنساب فى الجدول بالزرد أمر وارد متكرر فى شعر القدماء .

وهو مغرم بالأمثال والحكم يسوقهما كل حين فى أثناء قصيدته ، كأن يقول فى القصيدة :

وما دُنُوُّكَ ممن لا حِفَاظَ لهُم ... على المودة إلا النأْى والبعدُ

وكقوله :

دعْ من قلاكَ وواصِلْ من ظفِـرْتَ بهِ ... ما تعلمُ اليومَ ما يقضِى عليكَ غدُ
كلُّ البريَّة عِميانٌ يقودُهـم ... دهرٌ طرائِقه مجهُولَـةٌ قِدَدُ

ويُضَمِّنُ شعرَه أمثالاً قديمة كقوله :

أبقىَ الزمانُ على لُبَاته عِدَةً ... وإنما يُنجِزُ الأحرارُ ماوَعدُوا

مِنَ المثل السائر : أنجز حرٌّ ما وعَد

وأورد له المسبّحى أرجوزةً خمرية يقُول فيها :

نبّهني ديكٌ صدَحْ ... فقلتُ قُومِي يا مُلَحْ
والصُّبحُ قد بانَ لهُ ... فى كفَلِ اللّيلِ وَضَحْ
والطَّلُّ فى ذَيْلِ الدُّجَى ... إنْ لمْ يسل منه رَشَحْ
فأقبلَتْ فى حُلَلٍ ... كالشَّمسِ فى قوسِ قُزَحْ
والبدرُ أبدَى صَفْحَةً ... من جِيده حينَ سبَحْ
تحمِلُ لى زُجَاجـةً ... مَلأى مُدَامًا ، وقَدَحْ
واندفَعتْ تسكُبُ لى ... منهَا سُرورًا وفَرَحْ

(١) المسبحى ص ١٧ .
(٢) النهى الغدير .

حتى يقول :

فلم نزل نشربُها حمراءَ كالمِسْك نفَحْ

ويقول فيها :

جدَّدَ لى عهدَ الهَوَى من بعدِ ما عفَّى ومَحْ
لستُ امرُوًا إذا اغتدَى يعرِفُ فى الطَّيرِ الرَّوَحْ
إذا أُصبِّتُ فَرْحَةً سَالمَةً منَ التَّرحْ
فما أُبالِى فى غَـدٍ خَابَ قدْ جِى أم نَجحْ

وقد ذكر له ابن رشيق بيتاً فى الشمعة يقول :

قد شابهتْنِىَ فى لونٍ وفى قَصفٍ وفى احْتِراقٍ وفى دَمْعٍ وفى سَهَرِ

وذكرهُ الثعالبى وعَلّق عليه بقوله : « هذا تشبيهُ خمسة بخمسة ، وقد أجاد غاية الجودة » .

ومنهم :

أبو الحسين محمد بن عثمان الفصيح[1] :

يذكر له المسبحى قصيدة رائية طويلة جيدة ، مدح بها أبا محمد الحسن بن عمار أمين الدولة وأحد وزراء الحاكم بأمر الله (قتله فى شوال سنة ٣٩٠ هـ) . يقول فى هذه القصيدة :

أيا صاحِبَىّ رَحْلِى أجدُّ مَسِيرُ ألا فانظرانى والتَّنائِفُ زُورُ
وقفناوقدمالتْ بنـانشوةُالكَـرى وللنَّومِ فى عَينِ المَهاةِ فُتورُ
وما زَادَ ظِمْءَ الشَّوق إلا رَكِيَّةٌ مَرتْها شمَالٌ قَرَّةٌ ودبُورُ

وتبدو سمات البداوة واضحة فى اللفظ والأخيلة ، ويمضى ليصف النوق وقد أجهدتها الرحلة إلى الممدوح حتى بلَّغتْهُ :

فجاءتكَ أمثالُ القَطاالجَونىِّ صرْصَرَتْ عَليْهِنَّ فى الجَوِّ المنيع صُقُورُ
بطانٌ. تَرَى المِسكىَّ والروضُ مُونـقٌ به ، ويرِدْن الماءَ وهو نَمِيرُ

ويمضي على نسق صاحبه المنصور ابن البينى فى صياغة معانيه على طريقة الأمثال والحكم يتابعها فى أبيات متتالية فى نسق فيقول :

فلا تنأيَنَّ اليومَ يسلم نفسه ... ألا إنَّ يوم التُّرهَاتِ غرُورُ
فقد تفضَحُ النارُ الدُّجى وهى جمْرةٌ ... ويقطعُ حدّ السيّف وهو قَصِيرُ
ورُبَّتمَا هِيبَ الفتى وهو عاجِزٌ ... وعُظِّم شأنُ الأمرِ وهو حَقِيرُ

ويشير فيها إلى أنه من رجال الحاكم ومدبر عسكره إذ يقول :

وإنَّ السُّيوفَ الحَاكمِّية قُطَّعٌ ... وعند رِقابِ الخَالِعين ثُؤُورُ
يشقُّ العصَا العبدُ اللَّئِيم وإنَّهُ ... إلى مِثلها فى النَّائِباتِ فقيرُ

أتراه هنا يشير إلى عصيان أبى ركوة وثورته على الحاكم أم يذكر أمرا آخر ؟ ومعروف أن محمد بن عمار هذا مغربى من كتامه . وهى القبيلة التى عاضدت المعز وجاءوا معه إلى مصر ، واتخذ الخلفاء منهم رجالاً فى مناصب الدولة الكبرى وخلعوا عليهم ، وقربوهم . يقول :

وهل أنجمُ العَلياءِ إلا كتامة ... فلَيستْ.. وإن غارَ الزَّمَانُ.. تغُورُ
وأنى وحزبُ الله لا حزبَ غيرُه ... هُمُ وأميرُ المؤمنينَ أميرُ

ومنهم : **ابن رشدين أبو على صالح**[1] :

ذكره الثعالبى فى اليتيمة وقال إنه أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب صحب المتنبى وروى شعره . وكان جيد المعانى . وعاش حتى لحق بالدولة الفاطمية ومدح رجالها مثل أبى الحسن على بن جعفر بن فلاح الكتامى الذى ولى دمشق والشام كما تولى فى مصر بعض المناصب الكبرى حتى قتله الحاكم .

وكان يغشى مجلس حسين بن جوهر القائد . وعرف الشريف الرسى أبا عبد الله محمد بن على نقيب الطالبيين بمصر، والأمير أبا تميم سلمان بن فلاح وله فى كل هؤلاء أبياتٌ ذكرها المسبحى ، وهى من الشعر الوسط سهل اللفظ الذى عرف به الكتاب فى القرن الرابع ، وترجم له الثعالبى فى اليتيمة ، وجاء ببعض أخباره متفرقة ، كما ترجم له ابن سعيد فى المغرب[2] .

* * *

(١) المسبحى ص ٣ .
(١) فوات ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) المغرب حـ ٣ ص ٢٥٣ .

الفصل الثالث
شعراء وافدون فى القرن الرابع

(١) أبو الرقعمق الأنطاكى (ت ٣٩٩ هـ)
(٢) الرقيق القيروانى (ت حوالى سنة ٤٢٥ هـ)
(٣) صريع الدلاءالبغدادى (ت سنة ٤١٢ هـ)
(٤) عبد المحسن الصورى (ت سنة ٤١٦ هـ)

— ١ —

أبو الرقعمق

أحمد بن محمد الإنطاكي — أبو حامد

(ت سنة ٣٩٩ هـ)

انطاكي النشأة كما تدل نسبته ، ولم تورد المصادر شيئاً عن ولادته ، قدم إلى مصر بعد أن ثبتت قدمه في الشعر .

ذكره الثعالبي في اليتيمة(١) وقال عنه : هو نادرة الزمان وجملة الإحسان وهو أحد المدّاح المجيدين والشعراء المحسنين . هو بالشام كابن الحجّاج بالعراق . »

قدم مصر ، وذكر أن ذلك كان في بداية الدولة الفاطمية زمن المعز لدين الله . وأقام بها طويلاً فعاصر من الخلفاء العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله .

قال ابن خلكان(٢) : « إنه أقام بمصر طويلاً ، وإن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها » ، فممن مدح المعز والعزيز والحاكم ، وجوهر الصقلي والأمير تميم بن المعز ويعقوب بن كلّس .

كما اتصل ببعض الأشراف الرّسيّين ، ومدحهم .

وذكر أنه لقب بالرقعمق لرقاعته في شعره ومجونه(٣) . وذلك لقوله :

ولم أكسب الحمق لكنني ... خُلِقْتُ رقيعا كما قد ترى
لقد فقتُ فيه كما الفارسـ ... ـيُّ في الرّمي فاق جميع الورى

وقوله :

قد أجمع النّاسُ أنّ حُمقِي ... أحسنُ من عِفّتي وديني
قد عشتُ دهراً أعولُ عَقْلِي ... والنّاسُ إذ ذاكَ يَبْغِلُوني
فمذ تحامقتُ قد كساني ... حُمْقِي ، وقد عالني جُنُوني

قال عنه صاحب اليتيمة إنه مع اشتهاره بالحمق والمجون إلاّ أن له الشعر الجاد

---

(١) ١ /٢٣٩٨ .

(٢) وفيات ١ /٤٨ .

(٣) يتيمة الدهر ١ /٧٩٧ .

فى المديح ، قال : « وممن تصرَّف بالشعر الجزل فى أنواع الجدّ والهزل واحرز قصب الفضل . وهو أحد المدّاح المجيدين ، والفضلاء المحسنين » .

قال ابن خلكان : وأقام بمصر طويلاً وأظنه توفى بمصر سنة ٣٩٩ هـ .

شـــعره :

ونبدأ الحديث بشعره الجاد فى المديح . واعتبر الثعالبى وغيره قصيدته فى العزيز بالله ويعقوب بن كلس الرائية من عيون شعره وغرره . قال الثعالبى : « فمن غرر محاسنه قوله يمدح من قصيدة أولها :

قد سمعنا مقاله واعتذارَهْ … وأقلناه ذنبَــه وعثــارَهْ
والمعانى لمن عَنِيتُ ولكنْ … بكَ عرَّضْتُ فاسمعي ياجارَهْ
من مراديه أنه أبدَ الدَّهـ … ـــرِ تراه محلّــلاً أزرارَهْ
عالمٌ أنه عذابٌ من الله مباحٌ … لأعيــــنُ النظّـــارَهْ
هَتَكَ اللهُ سِتْرَهُ فلكم هَتّـ … ـكَ من ذى تَستُّرٍ أستارَهْ
سحَرتْنى ألحاظُهُ وكذا كلّ … مليحٍ ألحاظُه سَحّــارَهْ
ما على مؤثِر التّباعُدِ والإعرا … ضِ لو آثَر الرِّضا والزِّيارَهْ
وعلى أنّنِى وإنْ كانَ قد عَذّ … بَ بالهَجْرِ مُؤْثِرٌ إيثارَهْ
لم أزَلْ لا عَدِمتُه من حبيبٍ … أشتَهِى قربَه وآبى نِفارَهْ

وتلك المقدمة الغزلية ، تبدو مغايرة فى نهجها لماعتدناه فى الشعر العربى التقليدى. يميل فيها إلى الروح الشعبية فى الحديث ، واللفظ ، ولا تخلو من روح تحامق او عبث . ويقول فى مديحها يعنى الوزير يعقوب بن كلّس :

لم يَدَعْ للعزيز فى سائر الأرْ … ضِ عَدُوًّا إلاّ وأخمدَ نارَهْ
فلهذا اجتباهُ دون سواهُ … واصطفاهُ لنفسِه واختــارَهْ
لم تشيِّدْ له الوزارةَ مجداً … لا ، ولا قيلَ رفَّعتْ مقدارَهْ
بل كساها وقد تخرَّمها الدهـ … ـرُ جلالاً وبهجةً ونضَارَهْ
كلّ يومٍ له على نُوَبِ الدَّهْـ … ـرِ، وكرِّ الخطوبِ بالبَذْلِ غارَهْ
ذو يَدٍ شأنُها الفِرارُ مَن البخْـ … ـلِ، وفى حَوْمةِ الوَغَى كَرَّارَهْ
هى قدْ قلّلت عن العزيز عداهُ … بالعطايا وكثَّرتْ أنصارَهْ
هكذا كلّ فاضلٍ يده تُمسِـ … ـى وتُضْحِى نفّاعةً ضرَّارَهْ

فاستجِرْهُ فَليس يأمنُ إلاّ مَنْ تنيَّا بظِلّهِ واستجارَهْ
فإذا ما رأيتهُ مطرقا يُعْمِـ ـلُ فيما يُرِيدُهُ أفكـارَهْ
لم يَدَع بالذكاءِ والذّهن شيئاً في ضمير الغيوبِ إلاّ أنارَهْ
لا ولا موضعاً من الأرضِ إلا كا نَ بالرَّأيِ مُدْرِكَا أخطارَهْ
زاده الله بَسْطَـةً وكفـاه خوفه من زمانِه وحذارَهْ

مديح يخرج عن طرق التقليد فيه ، فلم يجر على ما اعتاده الشعراء من ذكر الشجاعة والكرم واستخدام العناصر التعبيرية المعتادة من اللفظ والصور البيانية فى حديث الشجاعة بالاقدام وقهر الأعداء ، وحديث السيوف والرماح ، ولا جاء فى الكرم بذكر الغيث والسحاب والمطر . بل عرض معانى السماح والذكاء والحنكة ، وهى خصائص ميزت الممدوح ، فلم يكسبه صفاتٍ ليست به ، ولا بالغ مبالغةً تخرج عن قبول الذوق لها ، وتصبح مجرد بطاقات يعلقها الشاعر على ممدوحه مستعارة فى معظمها .

وفى حديث العباسى فى معاهد التنصيص خبرٌ غريب يخالف فيه الثعالبى وابن خلكان . إذ يشير إلى أنه لحق بعصر كافور الإخشيدى ، قبل وفود المعز إلى القاهرة .

يروى العباسى على لسان أبى الرقعمق قوله(١) :

« كان لى إخوان (أربعة) ، وكنتُ أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدى فجاءنى رسولهم فى يوم بارد ، وليست لى كسوةٌ تُحصِّنُنى من البرد ، فقال إخوانك يُقرءونك السَّلام ويقولونَ لك : قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاةً سمينة ، فاشتهِ علينا ما نطبخُ لك منها . قال فكتبت إليهم :

إخواننا قصدوا الصَّبُوحَ بسحرةٍ فأتى رسولُهم إلىَّ خصوصا
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخَهُ قلتُ اطبخوا لى جُبَّةً وقميصا

وتشير هذه النبذة من حديث العباسى إلى وفوده لمصر قبل الفاطميين . ونعود إلى حديث المديح فى شعره الجاد يمدح الوزير ابن كلس كذلك . يقول(٢) :

---

(١) معاهد التنصيص ٢ /٢٥٢ .
(٢) يتيمة الدهر ١ /١٨١ .

إنّ ربعاً عرفته مألوفا	كان للبيض مَرْبعاً ومَصِيفاً
غيّرتْ آيهُ صروفُ اللّيالى	وغدا منه حسنُه مَصْرُوفا
ما مَرَرْنا عليه إلاّ وقفنا	وأطلْنا شوقاً إليه الوقوفا
آلفاً فيه للبُكاءِ كأنّى	لم أكن فيه للغوانى ألوفا
حاسدٌ للجفون لما أزالَتْ	فى مغانيه دمْعَها المَذروفا
إنَّ يعقوبَ قد أفادَ وأقْنى	وأعاد النّدى وأغنى الضّعيفا
سلَّ سَيفاً من البصيرةِ والرأ	ىِ ، فأغْنَاهُ أنْ يسُلَّ السّيوفا
باذِلاً للعزيز دون حماهُ	مهجةً حُرَّةً ورأياً حَصِيفا
لم تزلْ دونَه تخوضُ المنايا	وتردُّ الرَّدى وتلْقى الصفوفا
ناصحاً مشفقاً محبًّا ودُوداً	قائماً فى رِضَاهُ، صعباً عَسُوفَا
ليس تَخْشَى فسادَ أمرٍ تولّا	هُ ، وأضحَى برأيِهِ مكنُوفَا
ما رأيناهُ قطُّ إلاّ رأينا	خُلُقاً طاهِراً ، وفعلاً شريفَا
ورأينا قِرماً كبيراً هُمَاماً	مُنْعِماً، مُفْضِلاً، رحيماً، رءُوفَا
لَذَّ طعمَ العطاء فهو إذا جا	دَ وأعطى يرى الكثير طفيفَا
خلقٌ منه منذ كانَ كريمٌ	يستلِذُّ النّدىِ ويقرى الضيوفَا
ويريشُ الفقيرَ بالبذلِ والجو	دِ ، ويعطى ويسعف الملهوفَا
فأرانَا الأله صَرْفَ الليالى	أبداً عن فنائِه مَصرُوفَـا

وهذا المديح السهل الجارى بلغة الحديث طابعه وميزته ، ومع كلّ من مدح لم يتخلَّ عن هذا الطبع . ويقول معرضاً بهذا المسلك فى مديحه :

لمن أمـدحُ بالشعر ؟	لمن أقصِدُ ؟ لا أدرى
إلى من إن دجا خطبٌ	ونـابتٌ نوبُ الدّهـرِ
فقد ــ والشفع والوترِ	ومـن أقسم بالفَجْرِ
تحيَّرتُ فما أدرى الذى	أصنـع فى أمـرى
على أنّى بالدّهر وبالأيا	مِ ذو خُبْـرِ
ولكنّى للحيرةِ ســ	ــكُـرانُ بلا سُكْـرِ
كأنى لستُ مخلوقـاً	لغير الجهـدِ والضرِّ
ومـذ كنتُ قمدفوعٌ	إلى الفاقـةِ والفقـرِ

فما أصنعُ فى مصرٍ   إذا لم أحظ فى مِصْرِ
وفى الآفاقِ أقــوامٌ   يميلــون إلى شعــرِى
ونُبِّــئتُ بأنَّ القــومَ   لا يخلون من ذكرِى
ففيمَ التـرك للسيرِ ؟.   وهل فى ذاك من عُذرِ
وقـد قدَّمتُ أثقــالى   وسيرى غرة الشــهــرِ
فأمَّـا أكثر الحمــق   فقد سيَّرتُ فى البحرِ
وباقيـة معـى يَذْهَـبُ   فى البرّ على ظهرِى
ولا أتـركُ فى مصر   لذكرى الحمقِ من أثرِ

وهذا الحديث عن حمقه أو تحامقه فى مطلع قصائده يشير إلى أنه بضاعةٌ التى يَنْفُقُ بها شعره عند سامعيه بمصر ، ولهذا لا نعجب أن يبدأ بعض قصائد المديح بهذا اللون . وهذه الأبياتُ نفسها مقدمة لمديحة ينتقل عنها إلى موضوعه فيقول :

ألاَ يا مُنْتَهى الجودِ   ويـاذا المجدِ والفخــرِ
ويا ابنَ السادة الغُرِّ   ويا ابنَ الأنجم الزُّهرِ

ومن مدائحه التى تبدأ بهذا التحامقِ قصيدة فى الخليفةِ العزيز نزار . قوله :

خُذْ فى هَنَاتِك مما قد عرفتَ به   مما بِهِ أنتَ معروفٌ ومشهُورُ
واخْلِ العصافير صِى صِى صِى صِى صِى   إذا تجاوبُنى فى الصبح العصافيرُ
ففيكَ ما شئتَ من حمقٍ ومن هَوَسٍ   قليله لكثير الحُمْقِ إكسيرُ
كم رامَ إدراكه قومٌ فأعجزهمْ   وكيف يدرك ما فيه قناطيرُ
لا تنكِرَنَّ حماقاتِى لأنَّ بها   بِلِواءَ حُمْقِى فى الآفاقِ منشورُ
ولستُ أبغى بها خِلاً ولا بدلاً   هيهاتَ غيرى يترك الحمقِ معـذورُ
أستغفرُ الله مما قلتُه عبثاً   لغير شىءٍ ، وما فى الصحف مسطورُ
أقول للنفس لما استشعرتْ جزعاً   وباتَ يردَعُها خوفٌ وتحذيرُ
إنَّ الإمام نزاراً مدحه فتِقى   ذخرٌ لمثلِكِ عند الله مذخورُ
هو الذى ليسَ بعد الله من أحدٍ   سواهُ فى النَّاسِ محمودٌ ومشكورُ
مُشمِّرٌ فى المعالى ذَيْلَ مجتهدٍ   وما له فى سوى العَلياء تشميرُ

فالتحامق إذا كان مدخله إلى مديح من مدح من الخلفاء والملوك والأمراء ، ولعلهم وجدوا فيه مادة تسلية وترويح ، وتغيراً عن جارى الشعر الذى ربما شعروا

بالملل من سماعه فأحبوا أن يسمعوا مثل قول أبى الرقعمق فتمادى فيه وراج به عندهم .

وممن اتصل بهم فى مصر الأمير تميم بن المعز ، وكان محبًّا للشعراء ممدِّحاً منهم ، كثير الانفاق عليهم . ويقول فيه على طريقته :

وبـــــاحسانِ تميم	عُذْتُ من عظم مصابى
بالأمير السيد الما	جِدِ والقَرْمِ اللّبابِ
والهمامِ المنعم المفضالِ	والبحــرِ العُبــابِ
والذى لا فرق ما بيـ	ـنَ جَدَاه والسَّحَابِ
لم أزرْهُ قطّ إلاّ	عُذْتُ محمودَ الإيابِ
ذكرهُ أعذبُ فى الأنفـ	ـسِ من ذكر الشبابِ
ولقد رقّ عن الما	ءِ وعن طبع الشرابِ
أكثمُ فى الرأى وفى الفضـ	ـلِ وقسٌّ فى الخطابِ

ومما قاله فى المديح فى الشاعرين الشريف الحسينى الرسى وإبراهيم الرسى . يقول فى إبراهيم :

حبَّذا الرَّسىُّ مولًى	رَضِىَ النَّاسُ ولاهُ
جعل الله أعاديـ	ـهُ من السُّوءِ فداهُ
فلقد أيقن بالثر	وةِ منْ حلّ ذَراهُ
من رقى حتَّى تناهى	فى المعالى مرتَقَاهُ
لم يضع من كان إبرا	هيم فى الناسِ رَجَاهُ
لا ولا يفرِّق من صرف	زمـــانٍ إن عَرَاهُ

ويقول فى الحسينى متحامقاً(١) :

عجبٌ ما مثله عجبٌ	فعلُوا بى غير ما يجبُ
قرقرتْ بطنِى فواحَزَنِى	ذقــنُ من بالسَّلْــح يختضِبُ
هرباً من شرّها هرباً	فَعسَى أن ينفعَ الهربُ

---

(١) اليتيمة ١ /٣٨٩ .

ولكم بتنا على طربٍ ... ورءوس القومِ تُستَلَبُ
وكئوس الصفع دائرة ... مِلؤها اللّذاتُ والطربُ
وكأنّ الصفعَ بينهُمْ ... شعَلَ النيران تلتهبُ

ويخرج إلى المديح فيقول :

وعجيبٌ والحسينُ له ... راحةٌ بالجود تنسكِبُ
أنّ شيْرِيى عندَه رَنَقٌ ... ولَديْهِ مربعى جَدِبُ
وهو الغيثُ المِلثّ إذا ... أعوزتْنا درّها السُّحُبُ
فإلى الرُّسّىّ ملجؤنـا ... من صروف الدّهرِ والهربُ

وللأبى الرقعمق فى الغزل ما رأيناه فى بعض مديحه . وهو مطبوع كذلك بطابعه كما أعنا . ومنه قوله :

أظنُّ وِدادَها من غير نِيّهْ ... وهل هى فيه إلاّ مُدَّعيَّهْ
فتاةٌ لا تملّ عذابَ قلبىَ ... ولا تخليه وقتاً من أذيّهْ
ولا ذنبٌ له إلاّ التوّانى ... لمن فى الحبِّ ليستْ بالوفيّهْ
ويعجبني التّمتُّع والتّشاجى ... من الخودِ المنّعةِ الشّجيّهْ
فوا أسفَا على حرٍّ يُعزّى ... أخا رُزْءٍ على عظمِ الرّزيّهْ

أعجب عبد الرحيم العباسى بشعر أبى الرقعمق ، وذكر أنه سار على طريقة ابن الحجاج البغدادى فى التحامق ، وأورد له منظومة رائية يقول فيها :

كتبَ الحصيرُ إلى السرير ... أن الفَصيلَ ابن البعير
فلأمْنَعَـنَّ حِمـارَتى ... سَنتين من أكلِ الشعير
لا همَّ إلاّ أن تطـ ... ـيرَ من الهزالِ مع الطيور
ولأخبِـرَنّك قِصّتِـى ... فلقد سقطتَ على الخبيرِ
إنّ الذين تصافَعُـوا ... بالقَرعِ فى زَمنِ القشورِ
أسِفُـوا علـىَّ لأنهم ... حَضروا ولم أكُ فى الحضورِ
لو كنتُ ثمَّ لقلْتُ هل ... من آخذٍ بيدِ الضريرِ
ولقَدْ دخلتُ على الصّديق ... البيتَ فى اليوم المطيرِ
متشمِّـراً متبخِتِـراً ... للصّفعِ بالدُّلْوِ الكبيرِ
فأدَرْتُ حين تبـادَرُوا ... دلْوى فكانَ على المديرِ

يااللرجـــال تصافَعُـــوا فالصَّفْعُ مفتاح السُّرورِ
هو فى المجالسِ كالبخورِ وكالقلائِدِ فى النُّحُـورِ

وهذه القصيدة أو النظم المتحامق ، على وزن قصيدة جاهلية مشهورة مطلعها :

ولقد دخَلْتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليَوْمِ المطيرِ

وهو ضربٌ من العبث النظمى الذى يخرج فيه الشاعر أو الناظم عن جدية الموضوع إلى ضرب من المجون عند ابن حجاج والعبث اللّامعقول عند أبى الرقعمق وهو ضربٌ من النظم أرى أن مبدعه أبو الرقعمق ، وسار على دربه جماعة من المتحامقين ، وقد عرف هذا الضربُ من بعده بمصر وغيرها فى العصور التالية بشعر « الحُماق » ظهر بصورة واضحة عند ابن دَانيال وغيره من شعراء المصريين فى القرنين السابع والثامن .

وأورد له العباسى مثالاً آخر مطلعه[1] :

وقُوقَقِـــى وقُوقَقِـــى هديَّـــةً فى طَبَـــقِ
أمـــا تَرَوْنَ بينكـــم تيساً طويـــل العُنُـــقِ

ومن قوله فى هذا اللون نفسه :

كَفَى مَلامَكِ ياذاتَ الملامَاتِ فما أريد بديلاً بالرَّقاعاتِ
كأنّنى وجُنُودُ الصَّفعِ تَتْبعُنِى وقد تولّتْ مزاميرُ الرُّطاناتِ
قِسِّيسُ ديرٍ تَلَا مِزْمارُهُ سحراً على القَسُوسِ بترجيعٍ ورَنّاتِ
وقد مُجِنْتُ وعَلّمتُ المجونَ فما أَدْعَى بشىءٍ سِوَى ربِّ المجاناتِ
وذاكَ أنّى رأيتُ العقلَ مُطّرَحاً فجِئْتُ أهْلَ زَمَانى بالحَماقاتِ
إنى سأُدْخِلَ عذّالى على عَذَلٍ فى الحبِّ إن عذلونى فى الحراماتِ
أفدى الذين نأَوْا والدارُ دانيةٌ وشتُّوا بالجفَا شمْلَ المودَّاتِ
كم قدْ نَتَفت سِبَالِى فى صُدودِهِمُ والصدُّ أصعبُ من نَتْفِ السَّبَالاتِ
سقياً ورعْياً لأيامٍ لنا سَلَفَتْ بالقفصِ قصرُها طِيبُ اللذاذاتِ

---

(١) معاهد التنصيص ٢ /٢٥٥ .

إذَلا أرُوحُ ولا أغدو إلى وَطنٍ ... إلاَّ إلى رَبْعِ خمَّارٍ وحَاناتِ
أيَّامَ أسْحَبُ أذيالَ الهَوى مرَحاً ... مُصَرَّعاً بين سكَراتٍ ونشْوَاتِ
عُوِّضْتُ مِنْهُنَّ أحزاناً تؤرِّقني ... بعد السرور وفرحَاتٍ بترحَاتِ

ويمضى أبو الرقعمق فى مثل هذا الشعر الذى يبدو أنه راح به عند معاصريه نهر ملحة وسط صرامة الجدّ ، وتحرُّر كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليه الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون ، أو اللامعقول .

ونختم حديثنا عن هذا الشاعر العجيب بهذه الأبيات التى نظمها فى زيارة له إلى مدينة تنّيس على بحيرة المنزلة ، وكانت مدينة عامرة ، مزدهرة بالبساتين والزهور ، يؤمُّها أهل الخلاعة ، وطلاب المتعة ، للشرَّاب ، فقد كانت مشهورة بخمورها لكثرة ما يزرع أهلها من الكروم ، ومنها يعصرون ويعتقون الشراب . وكان معظمهم من النصارى . ويذكر بعض منازه النيل والجزيرة ودير القصير . يقول :

لَيْلِي بتنِّيسَ ليلُ الخائِفِ العاني ... تَفْنَى اللَّيالى ، ولَيْلِى ليسَ بالفَانِى
أقولُ إذْ لجَّ لَيْلِى فى تطاوُلِهِ ... ياليلُ أنت وطولُ الدَّهر سِيَّانِ
لم يكْفِ أنِّى فى تنيِّس مُطَّرَحٌ ... مُخيِّمٌ بين أشجانٍ وأحزانِ
حتى بُليتُ بفقدانِ المنام فما ... للنَّومِ إذْ بعُدُوا عهدٌ بأجفانى
ماصَاعَدَ البرقُ من تلقاءِ أرضِهِـمُ ... إلاَّ تذكرتُ أيَّامِي بنعمانِ
ولا حننتُ إلى نجرانَ من طربٍ ... إلاَّ تكنَّفنِى شوقٌ لنجرانِ
لا تكذِبنَّ ، فمامصرٌ وإنْ بَعُدَتْ ... إلا مَواطنُ أطرابى وأشجانى
ليالىَ النيلِ لا أنساكِ ما هتفَتْ ... وُرْقُ الحمامِ على دوحٍ وأغصانِ
أصبُو إلى هَفَواتٍ فيكِ لى سَلَفتْ ... قطعْتُهنَّ وعينُ الدَّهر ترعَانى
معْ سَادَةٍ نجُبٍ ، غُرٍّ ، غطارفَةٍ ... فى ذروة المجد من ذهْلِ بنِ شيبانِ
وذِى دَلالٍ إذا ماشئتُ أنشَدنِى ... وإنْ أردْتُ غناءً منه غنَّانى
سَقيتُه وسَقَانى فضْلَ رِيقتِهِ ... وجادَ لى طرفُه عَطفاً ومَنَّانى
مازِلْتُ أجْنِى بلحْظِى وردَ وجنتِهِ ... واستَطيرُ على تُفَّاحِ لُبْنَانِ
مازالَ يأخُذها صفراءَ صَافِيةً ... حتَّى توسَّدَ يُسرَاهُ وخلاَّنى
اللهُ يعلمُ ما لى من صَبَابَتِهِ ... وما علىَّ جَنَاهُ طرفُهُ الجانِى

كم بالجزيرة من يومٍ نعمتُ به   عن تصاحُب نايات وعيدانِ
سقيا لليلتنا بالدَّيرين رُبَا   باتَتْ تجود عليها سُحُبُ نيسَانِ
والطلُّ منحدرٌ ، والرَّوض مبتسمٌ   عن أصفرٍ فاقعٍ ، وعن قانِي
والنرجسُ الغضُّ منهلٌّ مدامعُه   كأنَّ أجفانه أجفان وسنانِ

* * * * *

أستغفر الله من عقلٍ نطقْتُ به   مالِي وللعقل ، ليس العقلُ من شانِي
لا والذى دونَ هذا الخلق صيَّرنى   أحدوثة ، وبحبِّ الحُمقِ أغرانِي
ما للشذائيِّ من مثلٍ يقاسُ به   ولا له فى اصطناع العرفِ من ثانِي
مهذَّبِ الرأى محمودٌ خلائقه   رحْبُ المكارمِ سمحٌ غيرُ منَّانِ

الرُّقَيْق القيروانى

إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق (ت سنة ٤٢٥ هـ)

لُقِّب بالرقيق (بقافين بينهما ياء مشدَّدة)[١] ، نشأ بالقيروان ، فى عصر الدولة الفاطمية بها وبلغ الشباب عند انتقال المعز من القيروان والمهدية إلى القاهرة المعزية سنة ٣٦١ هـ .

وأخبار الرقيق شحيحة بالمصادر . وغاية ما حصلناه منها أنه تعلم بالقيروان ونبغ فى الأدب كتابة وشعراً ، وعمل كاتباً فى ديوان الصنهاجين وعرف بأنه كاتب الحضرة فى الدولة الصنهاجية ، وظل بهذه الوظيفة ما يقرب من نصف قرن ، خدم الأمير المنصور بن يوسف بن زيرى ، وبأديس ابنه والمعز بن بأديس .

وتوجه مرتين أو ثلاثة من القيروان إلى القاهرة مبعوثاً من أمراء صنهاجه بالقيروان إلى خلفاء الفاطميين أيام أن كانت إمارة الصنهاجيين تابعة للدولة الفاطمية ، فى حكم المعز والعزيز والحاكم .

وأول مرة توجه فيها إلى القاهرة كانت سنة ٣٨٦ هـ مبعوثاً من الأمير منصور لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وقد حمل معه هدايا ثمينة مع سجلّ التهنئة .

وأنشد الحاكم قصيدة التهنئة يقول فى مطلعها :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه ... بدا آخرٌ من جانب الأفق يَطْلُعُ
إلى أن أقرَّت جيزَة النيلِ أعينًا ... كما قرَّ عينًا ظَاعِنٌ حين يرجعُ

قال عنه ابن رشيق : « الكاتب النديم ، شاعرٌ سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع قَوِيُّهُ ، تلوح الكتابةُ على ألفاظه . قليل الشعر . غلب عليه رسم الكتابة وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذقُ الناس ، وهو كاتب

(١) راجع أنموذج ابن رشيق القيروانى ، ص ٢٨ ، طبع زين العابدين السنوسى دار المغرب العرقى بتونس سنة ١٩٧١ م .

الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن » . لعل ذلك كان فى حدود سنة ٤٢٠ هـ .

قال حسن حسنى عبد الوهاب(١) : « المعروف بالرقّيق وبالكاتب والنديم ، فإنه تربى فى حجر البلاط الصنهاجى ، وباشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثلث قرن ، وتردد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة » وسما ذكره فى أفريقية (تونس) ومصر ، وشاعت تآليفه التاريخية والأدبية فى الآفاق .

وكانت له عناية بالفنون ، لا سيما بالأنغام والألحان . وقد وضع كتاباً خاصاً عنوانه « الأغانى » .

ويقول ابن رشيق : « وكان قد وفد على مصر سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٦ هـ على حد قول المقريزى ثمانية وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصرِ الدولة باديس بن زيرى إلى الحاكم ، فقال قصيدة ذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهرٍ قد لبسنا شبابه ... بدا آخرٌ فى جانب الأفق يَطْلُعُ
إلى أن أقرّت جيزة النيل أعينًا ... كما قرَّ عيناً ظاعِنٌ حين يرجعُ

يقول فيها بعد مدح كثيرٍ ووصف جميل :

هديَّةَ مأمونِ السَّريرةِ ناجح ... أمينٍ إذا خانَ الأمين المضيّعُ
وما مثلُ باديسٍ ظهيرَ خلافةٍ ... إذا اختير يوماً للظهيرة موضعُ
نصيرٌ لها من دولةٍ حاتميةٍ ... إذا نابَ خطبٌ أو تفاقم مطمعُ
حُسَامُ أمير المؤمنين وسهمه ... وسمٌّ ذُعَافٌ فى أعاديهِ منقعُ

وانتهز الرقيق وفادته إلى القاهرة ليلتقى فيها بجماعة من الشعراء والأدباء ، وليمتع نفسه بمنازة مصر والقاهرة ، ويرتاد الأماكن التى يعتادها هؤلاء ، ويعقدون بها مجالس الأنس والشراب ، وقد ترددت أسماؤها كثيراً فى شعر العصر مثل بركة الحبش ، ودير القصير بالمقطم وشاطىء النيل بالجيزة والمقس ، والروضة .

---

(١) ورقات ١ /٢١٩ .

وكان الرقيق نزهاً ، رقيق الروح ، مرحاً ، محباً للهو والشراب يأنس له كل من جالسه ، فلا غرو أن لقى من المصريين محبة طيبة أحبهم وأحبّوه. وأوحشهم فراقه ، كما شعر هو بالشوق إليهم وإلى مغانى القاهرة ومصر عند عودته إلى تونس والقيروان .

ونظم يتذكّر مشتاقاً لتلك الأوقات الطيبة الممتعة ، والصحبة السعيدة يقول(١) :

هل الريحُ إن سارَتْ مشرقَةً تَسِرْى ... تُؤَدِّى تحياتى إلى ساكنى مصر
فما خطرت إلاَّ بكيْتُ صبابَةً ... وحمَّلْتُهـا ما ضَاق عن حمله صَدْرِى
تُرانى إذا هبَّت قَبُولاً بنشْرِهم ... شمَمتُ نَسِيمَ المِسْكِ من ذلك النَّشْرِ
وما أُنْسَ من شيءٍ خلا العهدُ دونهُ ... فليسَ بخالٍ من ضَميرِى، ولا فِكْرِى
ليالٍ أنِسْناهَا على غِرَّة الصِّبا ... فطابتْ لنا إذْ وافقتْ غُرَّةَ الدَّهرِ
لعمرِى لئِنْ كانت قِصاراً أعُدُّها ... فلَسْتُ بمُعتدٍ سِوَاها من العمْرِ
أُخادِعُ دهْرِى أن يعودَ بفرحةٍ ... فيُنقِذَ رُوحَ الوصلِ من راحة الهجْرِ
وترجع أيّامٌ خلَتْ بمعاهِدٍ ... من اللهو ما تنفَكُّ مِنِّى على ذِكْرِ
فكم لىَ بالأهرام أو دير نِهْيَةٍ ... مَصائِدُ غِزْلانِ المطارِدِ والقَفرِ
إلى جيزة الدنيا وما قد تَضمَّنتْ ... جزيرتُها ذاتُ المواخِرِ والجِسْرِ
وبالمقْسِ والبُستانِ للعْينِ مَنْظَرٌ ... أنيقٌ إلى شاطى الخليج إلى القَصْرِ
وفى سرقوس مستزادٌ وملعبٌ ... إلى دَيْرِ مَرْحَنّا إلى ساحلِ البحرِ
وكم بينَ بُسْتانِ الأميرِ وقصرِهِ ... إلى البركةِ الزَّهراءِ من زَهَرٍ نَضَرِ
تراها كمرآةٍ بَدَتْ فى رَفارِفٍ ... مِن السُّنْدُسِ الموشِيِّ تُنشَرُ للتَّجْرِ
وكم بتُّ فى دَيْرِ القُصَيْرِ مُواصِلاً ... نهارِى بليلى، لا أُفيقُ من السُّكْرِ
تُبادِرُنِى بالرّاحِ بِكْرٌ غَريرةٌ ... إذا هتفَ النَّاقوسُ فى غُرَّةِ الفجْرِ
مَسِيحيَّةٌ خوْطيَّةٌ كُلَّما انثنتْ ... تشكَّتْ أذى الزُّنَّارِ من دِقةِ الخصْرِ
وكم ليلةٍ لى بالقرافةِ خِلْتُها ... لِمَا نِلْتُ من لَذَّاتِها لَيْلَةِ القَدْرِ
سَقَى اللهُ صوبَ القصْرِ تلك مغانيا ... وإنْ غنيتْ بالنيل عن مُقبلِ القَطْرِ

---

(١) راجع الخطط للمقريزى ١ /٣٧٠ . ومعجم الأدباء لياقوت ١ /٢٨٨ ، ومقدمة المختار من قطب السرور ، ص ١١ وما بعدها .

وللرّقيق مقطعات ، وأجزاء من قصائد رواها ابن رشيق فى الأنموذج ، تكشف إلى حد ما عن صنعته الشعرية التى رصدها ابن رشيق وهدانا إليها فيما علق به على أبياته التى أوردها فى أغراض متعددة ، وإن كانت هذه الأبيات لا تشفى غليلنا فى زيادة التعرف على الشاعر .

ومما أورده ابن رشيق أبيات فى إخوانياته ، ورسائل شعرية تبادلها مع أصدقائه . يقول ابن رشيق(١) : « ومن شعره جواباً على أبيات كتبها إليه عمّار بن جميل ، وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريضٌ كابتسام الـرّو ض جَمَّشَه نسيمُ صَبَا
كعقدٍ من جُمانِ الطّـلّ ل منظوم وما ثُقبا
ومنثـورٍ كنثر الـدُّ رِّ من أسْلاكِه انْسَربا
فأهـدى نَشْرٌ زَهْرتـه فَتِيتَ المِسْكِ مُنْتهَبا
إذَا أثمارهُ جُنيت جَنيتَ العلم والأدَبا
يَهُــزُّك حين تُنْشِدُهُ كأنَّكَ مُنْتشٍ طَرَبا
حَباكَ به أخٌ يَرْعـى لكَ العهدَ الّذى وجَبا
صديقٌ مثلُ صَفوِ الما ءِ بالصَّهباء قد قُطبا(٢)
كنَـزْتَ مَودَّةً منـه كفتْ أن أكنز الذّهبا
إذا عَدَّ امرؤ حَسَبـاً فحسْبِى ذكْرُهُ حَسَبَا
ألذُّ من الحيـاةِ لدَىْ ىَ ، لكـنْ قَلْبُهِ قَلَبا
فهانَ عليه ما أَلقَـى وظـنَّ تَجلُّـدِى لَعِبَا

* * *

جفوتُ الرّاح عن سَببٍ وكانَ لجفوتى سَبَبَا
فصرتُ لوحدتى كسَلاً لدَى الإخوانَ مُجْتنَبا
وذاكَ لتوبـة أمَّلْـتُ أن أقضى بها أرَبا
فهـا أنـا تائبٌ مِنها فزُرْنِـى تُبْصِرْ العَجَبَا

---

(١) الأنموذج ص ٢٨ ، ومقدمة جزء من تاريخ أفريقية للمنجى الكعبى ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) قطب الشرابُ : مزج .

أبياتٌ إخوانيةٌ عذبة العتاب ، لا تخلو من مداعبة الصديق ، والدلّ عليه بما في قلبه من مودّة .

ويتغزل الرقيق فيظرف ، ويرقق القول ، وإن لم يخرج في لفظه عن قاموس الغزل العربي السابق . يقول :

إذا ارجحنّتْ بما تحوي مآزِرُها ... وخفَّ من فوقها خصرٌ وَمُنتطَقُ
ثنا الصّبَا غُصُناً قد غازَلَتْهُ صبًّا ... على كثيبٍ به من ديمِهِ لَثَقُ (١)
للشمسِ ما سَترتْ عنا معاجرُها ... وللغزال احورارُ العينِ والعَنَقُ(٢)
مظلومةٌ أن يقالَ البدرُ يُشبِهُهَا ... والبدرُ يكْسَفُ أحياناً وينْمَحِقُ
يُجَلِّلُ المَتْنَ وحفٌ من ذَوَائبها ... جَبينُها تحتَ دَاجِي لَيلها فَلَقُ
كأنها رَوْضةٌ زَهراءُ حَاليةٌ ... بنوْرِهَا يَرْتَعِي في حُسْنِها الحدَقُ

ومن هذا اللون من الغزل ، مما اختاره ابن رشيق قوله(٣) :

رِئمٌ إذا ما مَعا ريضُ المنى خطرتْ ... أجَلَّه المتمنّى عن أمانيه
يا إخوتي أأقاحِي في مُقَبَّلِهِ ... أم خمرُ دارينَ مع مِسْكٍ على فيه
أم حُسْنُ ذاك التَّراخي في تكلُّمه ... أم حسنُ ذاك التهادِي في تَثَنِّيهِ
أم سُخْطُه أم رضاهُ في تَجنُّبِهِ ... أم عَطفُه، أم نواه، أم تدانيهِ
نفسي فداؤكَ ، مالى عنك مصطبرٌ ... يا قاتِلِي كل معنى من معانيه

ونقف مع قوله في البيت الثاني « يا إخوتي أأقاحي في مقبله » فنرى كيف صاغ هذا القول السهل الجاري في عبارة شعرية أخاذه ، بها حلاوة الصِّدق ، ورقة التعبير .

ويعمد الرقيق إلى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد ينحو فيه نحو القدماء ويصطنع طرقهم ، إلاَّ أنه يمزجها بروحه فيبدو غزلاً قديماً محدثاً كأن يقول : يمدح محمد بن أبي العرب التميمي أحد رجالات الدولة الصنهاجية :

أظالِمَةَ العينين يخلطها السِّحرُ ... وإن ظلم الخدَّان واهتُضِمَ الخَصْرُ
أعوذُ ببرْدٍ من ثناياك قد ثَنَى ... إليك قلوباً مِلءُ أحشائها جَمْرُ

(١) ويروى صدر البيت : « ثنى العبير غصيناً غازلته صباً » ، واللَّثق البَلَل .
(٢) العَنَق : طول العنق وجماله .
(٣) الأنموذج ص ٣٣ .

لقد ضمنت فى الحبِّ أن ضمانتى ... ستبرى عظامى بالنُّحولِ ولا تبْرُ
وما أمّ سَاجِى الطَّرفِ خفاقة الحَشا ... أطاعَ لها الحوْذانُ والسَّلَمُ النَّضْرُ
إذا ما رعاها نصَّتْ الجيدَ نحوه ... أغنُّ قصيرُ الخَطْوِ فى لحظِهِ فتْرُ
بأصلح منها منظراً ومُقلَّدا ... ولكن عدانى من تقنُّصها البَحْرُ

يقول فى مدحها :

تصبَّاهُ أبكارُ الكلاَليس بينها ... منعمةٌ هيفَاءُ أو غادةٌ بكْرُ
يُخال بأن العِرضَ غير موفَّرٍ ... عن الذّمِّ إلاَّ أنْ يذالَ له الوَفْرُ

ويقول فيها يصف ممدوحه بالهمة وقيادة الجيش فى النزال :

وملمومة شَهْبَاءَ يَسْعَى أمامها ... شهاب عزيم من طلائعه الذُّعْرُ
يزجّى بناتِ الأعوجيَّة شزَّباً ... عليها بنو الهيجاءِ دِرْعُهُم الصَّبْرُ
أسود وَغًى تحتَ العجاجة غابها ... سُريجيَّةٌ بيضٌ وخطيَّةٌ سُمْرُ
صَبَحتَ بها دهماءَ قومٍ أرتْهُمُ ... وجُوَه الرَّدَى حمراً خوافقها الصُّفْرُ

ويصف فيها بلاغته وكتابته فيقول :

يوشحُ ديباج البلاغةِ أحرفاً ... يكاد يرى روضاً يوشحه الزَّهْرُ
ويفصح لفظًا حظةٌ من فصاحةٍ ... ويشرق من تحبير ألفاظها الحبْرُ
يصيبُ عُيون المشكلاتِ بديهةً ... وتبْدى له أعقابَ ما غَيَّبَ الفكرُ

ويرى ابن رشيق جودة هذه القصيدة وأنها من أعجب ما سمع .

ومما جاء من وصفه قوله يصف واقعة حربية ، من قصيدة يمدح الأمير أبا مناد باديس بن زيرى سنة ٤٠٥ هـ :

لم أنس يوماً بِشنْفٍ رَاع منظره ... وقد تضايَق فيه مُلْتقَى الحدَقِ
والخيل تعبرُ بالهَامَـاتِ خائضَةً ... من سافِح الدّم مجرًى قانِىء الفَلقِ
والبيضُ فى ظُلُمَاتِ النقعِ بارقَةٌ ... مثل النجومَ تهاوَتْ فى دُجَى الغَسَقِ
وقد بدا مُعْلَماً باديسُ مُشتَهِرًا ... كالشمْسِ فى الجوِّ لا تخفى عن الحدقِ
وأى راحته لو فاض نائِلُها ... وبأسُها فى الورَى أشْفَى على الغرقِ
تجلو عمامته الحمراء غُرتَهُ ... كأنَّه قمرٌ فى حُمرةِ الشَّفقِ
لو صُوِّر الموتُ شخصاً ثم قيل له : ... أبو منادٍ تبدَّى مات من فَرَقِ

ومن قوله في الرثاء[1] :

أهوِّنُ ما ألْقَى وليسَ بهيِّنٍ … فإنَّ المنايَا بالنُّفوسِ رَوَاصِدُ
وإنّي وإنْ لمْ ألقَكَ اليوّم رَّائِحاً … لِصرْفِ رزاياها لقيتُكَ فى غَدِ
فلا يبعدْنكَ اللهُ ميتاً بقفرةٍ … مُعفَّرٍ خَدٌّ فى الثَّرى لم يُوسَّدِ
تردَّى نجيباً حينَ بُزَّتْ ثيابُه … كأنَّ علَى أعطافِه فضْلَ مِجْسَدِ
مضاءُ سنانٍ فى سنانٍ مُذلَّقٍ … وفتْكُ حسامٍ فى حسامٍ مُهنَّدِ

* * *

(١) الأنموذج ، ص ٣٤ .

ـ ٣ ـ

صريع الدّلاء

أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى (ت سنة ٤١٢ هـ)(١)

لُقِّبَ بقتيل الغواشى أى ذى الرَّقاعتين .

وصف بأنه الشاعر المشهور .

نقل ابن خلكان عن القاضى الرشيد ابن الزبير ، قوله : « كان يسلك فى شعره مسلك أبى الرقعمق » . قال : وله قصيدة فى المجون ختمها ببيت لو لم يكن له فى الجدّ سواه لبلغ به درجة الفضل ، وأحرز معه قصب السبق . وهو قوله :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدٍّ سوا

وقال الثعالبى(٢) أن اسمه على وقيل محمد . القصَّار . « وهو بصريُّ المولد والمنشأ ، إلاَّ أنه استوطن بغداد ، ولمَّا رأى سخف الزمان وأهله وميلهم من الكلام إلى هزله أخذ فى طريق السُّخف ، ونزع ثياب الجدّ وتلقب بصريع الدلاء ، وتشبه بابن الحجاج ، وهيهات ! » .

ويذكره صاحب تاريخ ميافارقين على أنه على بن عبد الواحد(٣) . وينعته بأنه الفقيه البغدادى الشاعر . وأنه كان شاعراً ماجناً . ويذكر أنه مدح صاحب ميافارقين أبا منصور نصر الله بن مروان .

وربما كان ذهابه إلى ميافارقين فى رحلته مغادراً بغداد والعراق فى حدود سنة ٤١٠ أو ٤١١ هـ .

ومر فى هذه الرحلة بالشام ، وعرَّجَ على المعرة . والتقى بأبى العلاء المعرى فى محبسه ببيته ، وطلب من أبى العلاء نفقه ، فبعث إليه بقدر قليل واعتذر بأبيات يقول فيها :

تفهمْ يا صريع البين بُشْرى أتت من مُسْتَقِلٍّ مُستَقِيل

(١) ترجمته ـ وفيات الأعيان ٣ /٣٨٤ . وتتمة اليتيمة ص ٢٢ .

(٢) تتمة اليتيمة ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ميافارقين ١٤٣ .

يقول فيها :

دُعيت بِصَارِع فتداركتْهُ ... مبالغَةٌ فَرَدَّ إلى فعيلِ

وانتقل صريع الدلاء إلى القاهرة ، ويقول ابن خلكان إنه جاءها سنة ٤١٢ هـ فى خلافة الظاهر بن الحاكم ، وفى خبر آخر أنه لحق الحاكم قبل اختفائه ومدحه .

ولا نعثر فى المصادر الشحيحة بأخباره وشعره إلا بالأبيات القليلة التى لا تشفى غليلاً .

قال الثعالبى ولما أنشد فخر الملك على بن خلف وزير عضد الدولة البويهى — قصيدته التى منها :

يأذا الجَـلالاتِ ويإذا النعـم المنسِقَـهْ
يا نعمة الله على ... جميع مَن قد خَلَقَهْ
لو فاخر الدهر الوَرى ... علوَت منه عُنُقَهْ
قد والذى يُبْقيكَ لى ... ما انقطعتْ بى النفَقَهْ
وبعتُ من دفاتِرى ... ما كان جَدِّى وَرِقَهْ

وهى هزلية طويلة ، فأعطَاه ما أغناه ، فهبَّتْ ريحُه ، ونفقتْ سُوقُه ودرَّت الصّلاتُ به ، وتداول أهل بغداد قصيدته التى عارضَ فيها أبا العنبس فى تأخير النفقه ، وذكر التميمى أنه قالها .

وأكثر شعره فى داره ، وأنه كان يسمَّيها باديته . وأول القصيدة :

قلْقَلَ أحشاىَ تباريحُ الجوَى ... وبانَ صبْرِى حينَ حالَفْتُ الأسَى

يقول : ومنها — وهى مُطمِعةٌ مؤيسة :

يا سادةَ بانُوا وقلبى عندهُم ... مذ غبتُمْ قد غابَ عن عيْنى الكرى
وسَوْفَ أسْلِى عنكُمْ صَبابتِى ... بَحِمْقةٍ يعجبُ منها منْ وَعَى
فى ظرِفٍ نظمتُها مقصورةً ... إذْ كنتُ قصَّاراً صريعاً للدّلا
من صَفَعِ الناسَ ولم يُمْكِنْهُمْ ... أنْ يَصْفَعُوهُ بدلاً قد اعتدَى
من مضغِ الأحجارَ أُدْمتْ فكُّهُ ... فالضِّرس لم يُخْلَق لتليين الحصى
من نامَ لم يُبصِرْ بَعْيَنْى رأسِه ... ومن تِطاطَا راكعاً قد انحنى

من رامحَ الخيل كَسرْنَ سَاقَهُ ومن حَدى فى نومهِ فقد هذِى
من صام أسبوعاً تماماً ليلُه مع النَّهارِ لم يوافِقْهُ الخَوى
من قطعِ النخل وظلَّ راجياً ثمارها ، فذاك مقطوع الرَّجَا
ومَنْ طلَى بالحِبْرِ صحن وجهه حكى بما سَوَّدَ ليلاً قد دَحَا

قال الثعالبى وهى طويلة تُربى على المائة . وقد أعجز الشعراءَ أن يزيدوا فيها بيتاً واحداً .

وأشار إليها ابن العماد بقوله : وهو صاحب المقصورة المشهورة . وقال ابن خلكان إنه ختمها ببيت لو لم يكن له فى الجد سواهُ لبلغ درجة الفضل وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدٍّ سوا

وذكر أنه لم يعش طويلاً بعد حضوره إلى مصر . قال ابن خلكان « وكانت وفاته فى سابع رجب سنة ٤١٢ هـ فجأة من شرقةٍ لحقته عند الشريف البطحائى » .

— ٤ —

عبد المحسن الصورى
(ت سنة ٤١٩ هـ)[1]

هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصورى قال عنه ابن خلكان : « الشاعر المشهور ، أحد الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعانى ، رائق الكلام ، مليح النظام . من محاسن أهل الشام » .

وقال صاحب الشذرات : « الشاعر المشهور . أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعانى ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » .

وهو نص كلام ابن خلكان .

وذكره ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، رواية عن الشاعر ابن حيّوس قال : « سمعت جدى القاضى يحيى بن علي القرشى يذكر عن أبى الفتيان ابن حيّوس أنه كان يقول : إنى ليعرض لى الشىء من شعر أبى تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل فى معناه ، فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر من موازنة شعر عبد المحسن الصورى ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته » .

ونشأ عبد المحسن بمدينة صور جنوبى لبنان الآن ، وعاش بها زمناً . وقال الشعر صبياً . ومن شعره فى صباه قوله :

إنّ أحبابنا الذين استقاموا ... فى طريق الهوى سهرتُ وناموا
حَجبُوا ، فاحتجبت عنى فمالى ... بى عهدٌ ولا بهم والسلامُ

واتصل فى صور بجماعة من أعيانها وأشرافها يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، ومنهم أبو القاسم الحسين بن على بن كردى العامل بصور . قال فيه[2] :

---

(١) راجع ترجمته فى يتيمة الدهر ١ /٣١٢ ، وتتمه اليتيمة ص ٣٥ ، وفيات الأعيان ٣ /٢٣٢ ، شذرات الذهب ٣ /٢١١ ، والعبر ٣ /١٣١ ، والنجوم الزاهرة ٤ /٢٦٩ ، وراجع الأفضليات ص ١٣١ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٦ .

(٢) ديوانه ٢ /٥ .

إذا ما عُقِدْ الكاتمْ وحَلِّ المدمعَ السَاجِمْ

وفى القاضى أبو إسحاق بن وديع الحاكم بصور[1] :

مالِرِيم الكِنَاسِ ليس يريمُ أتُراهُ مستشعراً ما يَرُومُ ؟

كما مدح بعض بن حيدرة العلويين بصور وطرابلس ، وكانوا من رجال الفاطميين الموالين .

ومدح من إمراء الجند وقادة الفاطميين الأمير بكجور قائد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٤ هـ ، كذلك مدح برجوان رجل العزيز القوى ، ووزير الحاكم بأمر الله قبل أن يقتله .

ويبدو أن الصورى تنقل فى بلاد الشام من صور إلى دمشق إلى طرابلس ، إلى الرملة إلى طبرية ، ولقى فى كل بلد حلّ به جماعة من الرؤساء والقضاة ، والولاة ، والمسئولين عن الحكم من رجال الفاطميين .

وله قصيدة فى الوزير المغربى على بن الحسين المغربى ، والد الوزير والشاعر المشهور أبى القاسم الحسين بن على . وهى من مشهور شعره مطلعها[2] :

أترى بثأرٍ أم بدينٍ علقت محاسنها بعينى

وليس لدينا ما نؤكد به أو ننفى إن كان قد أنشدها إياه بمصر أيام وزارته للحاكم ، وقبل أن ينكبه سنة ٤٠٠ هـ أو سنة ٣٩٩ هـ .

ومدح الأمير بنجكتين أمير دمشق بقوله[3] :

تعوَّدَ أن يحولَ وأن يَخُونا أذا أعطى بزورته يمينا

ومدح القائد أبا الجيش حامد بن ملهم والى دمشق سنة ٣٩٩ هـ بقوله[4] :

أباالجيش حسب الشعر ماأنت صانِعُ فقد عجزتْ عن فعل ذاك القصائدُ
أما انصلحت للمال منك طَوِيَّةٌ فتصنحهُ ، حتى متى أنت حاقِدُ
سبقتَ بنى الدنيا فما هبَّ قائِمٌ سواكَ إلى جودٍ ولا قام قاعِدُ

(١) ديوانه ص ٧ .
(٢) ديوانه ص ٤١ .
(٣) ديوانه ص ٥٤ .
(٤) يتيمة الدهر ١ : ٣١٧ .

ومدح أحد ابناء المفرج بن دغفل بن الجراح وهو عبد الله . ولعله أنشدها إياه بالرملة (١). يقول فيها :

أنا معجبٌ بالمعجبِ التياهِ ... متغلغِلٍ فى حبِّه متناهِ

وفى مدحته هذه لعبد الله بن المفرج تعرض بالشكوى ، وأن الزمن الليالى والأيام تعانده . ففيم كانت المعاندة هذه ؟. على أية حال فهو يقول :

يا ابن المفرج، والليالى أنعمٌ ... إلاّ علىَّ فإنهنّ دواهِى
يأْبَيـنَ طولَ الدهر أن يَلْقَينَنِى ... إلاّ ذوات جهالةٍ وسَفاهِ
قصرت يداىَ فدقّ جاهى عندها ... طوْلَ اليَدين يَزِيدُ عُرْضَ الجاهِ
وأرَاكَ فى طلبِ العُلَا ذا قُوَّةٍ ... فامْسِكْ بهارمقَ الضّعيفِ الواهِى

لقد كان آل المفرج الطائيين كما أشرنا فى حديثنا عن التهامى رجالَ الدولة الأقوياء فى جنوب الشام ، يملكون اللدّ والرملة ، ويتحالفون مع غيرهم من أمراء العرب بالشام ، فيكونون تارة فى طاعة الفاطميين إذا قويت شوكتهم ، ويخرجون عليهم حينا إذا رأوا فيهم ضعفاً ، أو فى بعض خلفائهم غفلة ، أو حدثتهم النفس مع غيرهم من القبائل العربية القوية ، بانتهاز الفرصة لاقتطاع جزء من الملك لحوزتهم .

ولعلّ عبد المحسن آنس فى عبد الله هذا قوةً ، وارتجى عنده مأرباً كغيره من الشعراء . لقد رحل من بلده صور بالشام متوجّها إلى الرملة جنوباً ، فى رحلة من رحلاته لطلب المالِ والقربى من ذوى السلطان ، وفى فلسطين أو جنوبى الشام .

ويذكر على بن ظافر أن الصورى كان يتردد على دمشق ، وأنه كان ينزل بسوق القمح بمنزل هناك(٢) .

ويهمنا وفوده إلى مصر ، ويشير شعره ، وتُنبىءُ أخباره أنه قصد مصر ، ونزل بالقاهرة أو الفسطاط ، وأنشد الخليفة العزيز بالله ، كما مدح الحاكم بأمر الله ابنه .

---

(١) ديوانه ٢ /١٠١ .
(٢) راجع بدائع البدائه ، وملحق الديوان ص ١٣٣ .

قيل إنه أنشده يوم عاشوراء ، وذكر وزيره ، ورجله القوىَّ برجوان وأشار إلى هزيمة ملك الروم باسيل أو باسيليوس فقال :

خلا طرفَه بالسُّقمِ دونى يُلازمُهْ ... إلى أن رَجَى سهماً فصرتُ أساهِمُهْ
فأصبح بى ما لستُ أدْرى أمثلَه ... بجفنيْهِ، أم لا يَعْدِلُ السُّقمَ قاسِمُهْ
لئِنْ كان أخفى الصدْرُ صدًّا من الجوَى ... ففى العينِ عُنْواناتُه وتراجِمُه
ولَم يُخفِه أنّ الهوى حَقُّ حَمْلُهُ ... ولكنْ لأنّ اللّوْمَ ليسَ يلائِمُهْ
ويارُبَّ ليلٍ قَصّرَ الذّكرُ طولَهُ ... فما طَلبتْ حتّى تجلّتْ غمائِمُهْ
وما نمتُ فيه غير أن لو سألْتنِى ... مِن الشُّغْلِ عنهُ، قلتُ ما قالَ نائِمُهْ
ولكنّه ألقى على الصُّبحِ لونَهُ ... فوالاهُ يومٌ شاحبُ الوجه سَاهِمُهْ
كما جاءَ يومٌ فى المحرَّمِ واحِدٌ ... خبا نورُهُ لمّا استُحِلّتْ محارِمُهْ
طغَتْ عبدُ شَمْسٍ فاستقَلّ مُحلّقـاً ... إلى الشّمسِ من طغْيانِها مُتراكِمُهْ
فمنْ مبلغٌ عنّى أميّةَ أنّنى ... هَتفْتُ بما قد كنتُ عنها أكاتِمُهْ
مَضَتْ أعصرٌ مُعوجّةٌ باعوجَاجِكُمْ ... فلا تُنْكِروا أن قوّمَ الدّهْرَ قائِمُهْ
وجدّد عهدَ المصطفى بعضُ أهْلِهِ ... وحُكمٌ فى الدّينِ الحنيفىِّ حاكِمُهْ
فيا أيها الباكونَ مصرعَ جَدّهِ ... دعُوا جدَّهُ تبكى عليه صوارِمُهْ
ألاَ أيُّها الثّكلى التى من دمُوعِها ... إذا هى حنّتْ من قَتيلٍ جماجِمَهْ
لقد خَسِرَ الدارينَ من صَدّ وجهَه ... فلا أنْتَ مبقية ولا الله راحِمهْ
حريصاً على نارِ الجحيم كأنّه ... يَخافُ على أبوابها من يَزَاحِمُهْ
إلى من تراهُ فوّضَ الأمرَ غيرَكُمْ ... إذَا أنتُمُ أرْكانُـه ودعائِمُـهْ
فيـالَكَ منها دولـةً علويّـةً ... تبدّتْ بسعدٍ، خاتمِ الدّهرِ خَاتمُهْ
إذا نَزَلَ الأستاذُ منها بجانبٍ ... فمِنْ جانبٍ أراؤهُ وعزائِمُـهْ
ومهما اقتضى تدبيرُها كانَ ماضياً ... على النّاسِ، إمّا بأسُهُ أو مَكارِمُهْ
بناها على ما شاءَ،، فلِيَبْنِ غيرُهُ ... على غيرها ما شَاءَ، فالسيفُ هَادِمُهْ
وكلّلَها رأىُ الرئيس فَلَمْ تَضِعْ ... لأنّ كفيلَ الشّىءِ إن ضَاع غارِمُهْ
إذا اجتمعَتْ فى الملكَ كلّ عظيمةٍ ... فانهضُ منْ تُلقى عليه عزائِمُهْ
وما بالُ باسيلٍ تولّى مُشَمّرًا ... أحينَ بَدا مِنْ كلِّ جيشٍ ضراعِمُهْ
فألاّ أتاهَا وقفةً دوْقَسيّـةً ... يروحُ بها أعلاجُه وغنائِمُـهْ

هذه الأبيات واضحة الدلالة على غرض الشاعر ومناسبة القول ، وهى سند تاريخى لأحداث واقعة ، كما أنها شاهدٌ على عصر صاحبها ، وعلاقاته بالفاطميينَ ورجالهم ، وما شغل الناسَ من فكر روجوه ، واذاعوه ، ومن أحداث فى الدولة وخارجها ، كذلك تنبىء عن موقف الشاعر وغيره من الشعراء ، ممن جاروا البيت الفاطمى فى آرائه ومعتقداته ، أو اعتنقوا تلك الآراء والمعتقدات موقنين ، وهى أبيات تتحدث عن الصراع بين الفاطميين ودولة الإسلام عامة ، وعدوّهم التقليدى الروم البيزنطيين . وما لقيته بلاد الشام فى عصر الفاطميين ومن قبلهم من جولات ، وكر وفرّ ، ومشاركة المصريين بجهدهم وسلطانهم وجندهم فى معارك فرضت عليهم ، وخاضوها ذوداً عن بيضة الإسلام ، وحضارته .

وقد أحسن الشاعر بناء قصيدته ، فاختار هذا المدخل أو الاستهلال الذى شكا فيه هوًى يكتمه ، ويظل ، يمضّه طوال ليله ، ويقطعه بالذكر حتى تطل شمس النهار ، وقد خلع عليها أو خلع الشاعر على صبحه فتوراً مما أحسه طوال معاناته بالليل .. كلها أحاسيس يمهد بها لهذا الانتقال إلى الحدث الحزين الموافق للموقف . يوم عاشوراء يوم الحزن والبكاء عند الشيعة الفاطميين ، ويفرخ عن كلمات يرضى بها غضبتهم ، ويطلب العزاء فيما سيلقى الجناة من عذاب أدخره الله لهم .

ويعرج فى المناسبة على الحاكم وقائده ، ويذكر النَّصر الذى تحقق على يدى برجوان ورجال الحاكم على باسيليوس ملك الروم ، ويراه علامة تايد من الله .

ولعبد المحسن قصيدة نونية عُنونت بأنها فى أهل البيت[1] . ضمنها كثيراً من آراء الشيعة والفاطميين . يقول فيها :

عيون منعنَ الرُّقادَ العُيُونَا ... جَعلْنَ لكـلِّ فؤادٍ فُتُونَـا
فكنَّ المنى لجميع الورَى ... وكنَّ لمنْ رامَهُـنَّ المنُونَـا
وقلبٌ تُقَلِّبُـه الحادثـاتُ ... على ما تشاءُ شمالاً يمينَا
يصونَ هواهُ عن العالمينَ ... ومدمَعُـهُ يستَـذِلُّ المصونَـا
فمالى وكتمانِ داءِ الهَوَى ... وقد كان ما خفتُه أن يكونَا
وكانَ ابتداءُ الهوَى بى مجوناً ... فلمَّا تمكّنَ أنْسَى الجُنُونَـا

(1) ديوانه ٢ ص ٦٧ .

وكنتُ أظنُّ الهوَى هيِّناً ... فلاقيْتُ منه عذاباً مُهينَا
فلو كنتَ شاهِدَ يومِ الوداعِ ... رأيْتَ جفوناً تُناجِى جُفونَا
فهــلْ تركَ البيْــنُ من أرتجيــهِ ... منَ الأوّلينَ أو الآخرِينَا
سِوَى حُبُّ آلِ نبىِّ الهُدَى ... فحُبُّهُــم أمــلُ الآمِلِينَــا
هُمُ عُدَّتِى لوفَاتِى، هُمُ ... نَجاتِــى، همُ الفــوزُ للفائِزينَــا
هُمُ موردُ الحوضِ للوَارِدِينَ ... وهمْ عُروَةُ اللهِ للواثِقينَـا
هُمُ عَوْنُ منْ طَلَبِ الصَّالحاتِ ... فكُــنْ بمَحَبَّتِهِــمْ مُستَعِينَــا
هُمُ حجَّةُ اللهِ فى أرضِهِ ... وإن جَحَدَ الحجَّةَ الجاحِدُونَا
هُمُ النَّاطِقُــونَ، هُمُ الصَّادِقُــونَ ... وأنتُــمْ بتكْــذِيبِهم كاذِبُونَـا

وفى شعره فى أحد قادة العزيز نزار بن المعز والد المنصور الحاكم بأمر الله نجد النغمة نفسها ، وفيها ما يثبت حضوره إلى مصر ولقاءه للعزيز ، يقول[1] :

طالَ الزَّمانَ فلا ثناهُ ولا انثنى ... فقفا على شحط النَّوَى وتبيَّنَا
هَلْ تعرفانِ البينِ يوم تعانَقا ... وتفارقَا إلاّ مسيئاً محْسنَا
كلاّ وفضْلِ غِناكما فى عذلِهِ ... مازدْتُماهُ بعذلِهِ إلاّ عَنَا
يا صَاحِبَىَّ المنكَرَيْنِ من الهَوَى ... مالا تَدُلّ عليهِ أثوابُ الضَّنَا
تحتَ السرائِرِ فى الضمائِرِ لوعةٌ ... لم تُطلِقْ العشَّاقَ فيها الألْسُنَا
وعساكُما فيما تريدانِ الهَوَى ... يأتى به قدرٌ فيعْدِلُ بينَنَا
ما للسقامِ أتى يعمُّ جوارحى ... جمعاً ، وليستْ للظعائِنِ أعيُنَا
من كلِّ غُصْنٍ تجتنى ثمراتُه ... ثمر القُلوبِ ، وما أراها تُجْتنَى
أنا للخطوبِ إذا دعت أقرانَها ... إذ لا يقولُ لهَا أنا إلاّ أنَا
ولطالماصرخَتْ صروفُ الدَّهرِ بى ... فأجبْتُ صارخها ذليلاً مُذعِنَا
حتى استجرتُ من الزمانِ براحةٍ ... تركته منه يَستجيرُ الأزْمُنَا
بسط العزيزُ بنُ المعزِّ بناءَها ... فينَا، فكانَ اللهُ يرفعُ ما بَنَى
مولى المؤالِفِ والمخالف عنوةً ... من تحتِ شكٍّ كان أو متيقِّنَا
ومحجَّةٌ لله هاديةٌ إلى ... سُبُلِ الهدَى، وضحتْ بنعمته لنَا
ومقيمها من بعد طولِ قعودِها ... علويَّةَ الأنسابِ عاليةَ السَّنَا
بيضَاءَ يجلوها الوزيرُ بحلْيَتَى ... سُمْرِ اليراعِ وزُرْقِ أطرافِ القَنَا

(١) ديوانه ٢ /٨٧ .

يَرْمِى جوانبها برأى مُهذَّبٍ   مُتَجنِّبٍ فيه الخيانَةَ والخَنَا
حتَّى أتتْنا وهى ذاتُ قَلَائِدٍ   جَعَلَ الإمَامُ فريدَهُنَّ فريدَنَــا

ويمضى فى مديح هذا القائد حتى يقول :

حصلت بمصرِ هِمَّتـي واستوطنتْ   وأفادَ لى عُدْمِى سِواهَا موطِنَا
فغدوْتُ للخطب الكبير مُصَغِّراً   فيها وللأمْرِ الشدِيدِ مُهَوِّنَا
وقد اعتمدتُ عليكَ فاجمع بيْنَنَا   وخذ الحوادِثَ قبلَ فتكِتِها بنَا
فلكَ الهناءُ بِدُونِ ما بُلِّغتَهُ   وبدونِ ما بُلِّغتَهُ وجبَ الهَنَا

فيشير إلى مجيئه إلى مصر فى هذا الوقت ــ خلافة العزيز ــ ولجوئه من أحداثٍ لعلها التى أثارها أحد قادة الأتراك ، وكان قد استولى على بعض بلاد الشام حتى تمكن العزيز من هزيمته وأسره ، وأعانه على ذلك آل المفرج بالرملة .

هُمُ الوارثُون عُلُومَ الرسولِ   فما بالكُمُ لَهُـمُ وارثُونَـا
حقدْتُمْ عليهم حقوداً مضَتْ   وأنتمْ بأسيافِهِـم مُسْلَمُونَـا
جحدتُـمْ موالاةَ مَوْلاكُـمُ   ويومَ الغديرِ بها مؤْمِنُونَا
وأنْتُمْ بما قاله المصطفى   وما نصَّ من فضله عارِفُونَا
وقَلْتـمْ رضينَـا بما قُلتَـهُ   وقالتْ نفوسُكما ما رَضِينا
فأيُّكـمُ كـان أولـى بِهـا   وأثبت أمراً من الطَيِّبِينا
وأيُّكَمُ كان بَعْـدَ النبـيِّ   وصيًّا، ومنْ كانَ فيكُمْ أمينَا
وأيكُـــمُ نامَ فى فرشِهِ   وأنتُـمْ لمهجتِـه طالِبُونَـا
ومن شارَكَ الطُّهْرَ فى طائِرٍ   وأنتم بذاكَ له شاهِدُونَا
لحا الله قوماً رأوا رُشْدَكُمْ   مبيناً ، فَضلّوا ضلالاً مُبينَا

وما جاء بالقصيدة من الدفاع عن آل البيت ، والفاطميين وحقّهم فى الخلافة واضح ، غنىٌّ عن الإشارة ، وهو يُرَدِّدُ أقوال شعراء الشيعة ، ودعاتهم وسياسيهم فى أحقية الإمامة بالوصاية يوم الغدير عن النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب ، فضلا عما كان لعلىّ من مكانة السبق إلى الإسلام وفداءِ النبى بنفسه يوم الهجرة إذ نام مكانه ، وهو يعلم أن المحاصرين ممن يتربصون بالنبى من قريش يزمعون قتله بليل .

والخطاب فى القصيدة موجه إلى العباسيين بالدرجة الأولى ، فهم المنافسون للفاطميين بالشام ، وكانت فى عصر الشاعر فى النصف الثانى من القرن الرابع مجالاً للصراع بين القوتين العباسية والفاطمية ، وكانت صور وطرابلس موئل كثير من العلويَّة والأشراف الحسنيين والحسينيين . وكان الشاعر قريبا منهم يتحدث بما يحبّون ، ويدفع دعاوى منافسيهم من العباسيين ، إلا أنا نلاحظ أنه لم يصرّح بالهجوم على العباسيين ، بل عَمَّى القول ، مُتحسبًا ، وتقيَّة ، فالقصيدة تعكس الجوَّ العام بالشام ، والصراع المستتر والمعلن ، وهو صراع لم يحسم تماماً لأحد من الطرفين ، بل اعتورته موجاتٌ تحسم الأمر لهؤلاء أحياناً ، ثم تعود موجةٌ أخرى لتغلب الفئة الأخرى . وهكذا .

لقد ظل عبد المحسن الصورى يقول الشعر ويتنقل به فى ربوع الشام ومصر حتى أعيته السبعون عن الحركة ، فأقام ببلده حتى بلغ التسعين . يقول وقد بلغ السبعين :

جزاك الله عن ذا الفصح خيراً	ولكن جاء فى الزّمنِ الأخيرِ(١)
وقد حدَّتْ لى السبعونَ حدًّا	نَهى عمَّا أمرتُ من المَسيرِ
ومذ صارتْ نفوسُ الناسِ حولِي	قصاراً عدتُ بالأملِ القصيرِ

استقر الصورى إذا فى بلده ، وثقل جسمه عن أن يحمله إلى البلاد كما كان حالَه فى شبابه وكهولته ، والآن وقد أصبح شيخاً ضعيفاً ، آثر أن يقضى ما تبقى له من العمر بين أهله فى وطنه .

وقد عمّر حتى نيّف على الثمانين ، وتوفى سنة ٤١٩ هـ . وكان الحاكم قد اختفى من مسرح الأحداث ذلك الاختفاء الغامض ، واعقبه ابنه الذى عرف بالظاهر .

وعاصر الصورى فى أخريات حياته بعض الأحداث العاصفة فى دولة الفاطميين بالشام ، ومنها حركة التمرد التى قادها الوزير المغربى بالرملة بمشاركة حسَّان إبن المفرج ، وتنصيبهم خليفة جَاءُوا به من الحجاز .

ويبدو من حياة الرجل أنها لم تكن صاخبة كحياة الشاعر التهامى ، فلم تحدثه نفسه بعظائم الأمور ، ولم يكشف شعره عن ثورة وطموح ، بل كان مواطناً يسير فى ركاب الحكام كغيره من الشعراء .

كما كان عبد المحسن شاعراً حضرياً ، يغلب عليه طبع أهل الحضر ، ليس فيه جفاء الأعراب ، ولا عنف مشاعرهم . كذلك كان شعره سهلاً ، لينا ، قال عنه ابن خلكان : « شعرهُ بديع الألفاظ ، حسنُ المعانِي ، رائِقُ الكلامِ ، مليحُ النظام » . ويقول : « له ديوان شعر أحسن فيه كلّ الإحسان » .

وأعجب ابن خلكان ، كما أعجب من قبل الثعالبى بقصيدته النونية فى مديح أبى الحسين على بن الحسين المغربى :

أَترى بثأرٍ أم بديْنِ	عَلِقَتْ محاسنه بعينِي
فى لحظهـا وقوامهـا	ما فى المهنَّدِ والرُّديني
وبوجههـا ماء الشّبـا	بِ خليطُ نارِ الوجنتينِ
بكرَتْ علىَّ وقالت اخْتَـ	ـرْ خصلَةً من خَصلَتَيْنِ
إما الصُّدُودَ أو الفرا	قَ ، فليسَ عِندى غير ذَيْنِ
فأجَبْتُهـا ومدامِعِـى	تَنْهَلّ فوقَ الوِجْنَتَيْنِ
لا تَفعلِى ، إنْ حَانَ صَدُّكِ	أو فراقَكِ حانَ حَيْني
فكأنَّنِى قلتُ انهضِى	فمضتْ مسارعَةً لِبَيْني

ولا حاجة إلى التنبيه على ما فى هذا الشعر من سهولة ، وليونة ، هما أقرب إلى المزاج الحضرى المترف فى لفظه وإيقاعه وقافيته اللينة ، وحديثه الأنيق الرقيق فى حكاية قول المحبوبة ، وحوارها .

وقد عقب ابن خلكان على القصيدة بقوله : « وهى قصيدةٌ طويلةٌ جيدة »(١) .

ويبدو أن إعجاب معاصريه ممن سمع أبياته هذه شجعه على أن يعيد النظم فى وزن مشابه ، وقافية مقاربة . حيث يقول فى أبيات أخرى :

بعينِ الله هجرُك، لا بِعينِى	لعلّ الفرقَ بين النظرتَيْنِ
تردُّك أو تردُّ علىَّ صَبرى	عليْكَ فإنها احدى اثنتَيْنِ

واعجب العلماءَ غزله لهذه الرقّة التى اكتسبها من لفظه حتى إن ابن عساكر روى عن ابن حيوس أنه قال : « يُقال إن أغزَلَ ما قيل قول جرير :

(١) وفيات طبع إحسان ، بيروت ٣ /٢٣٥ .

إنّ العيونَ التي في طرفِها حورٌ قتلتنا ثم لم يُحيينَ قتْلانا
يَصْرعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراكَ به وهُنَّ أضعف خلق الله إنسانا

وقول عبد المحسن أغزل منه :

بالّذى ألْهَمَ تعذيبى ثَنَايَاكِ العذَابَا
ماَ الذى قالَتْهُ عينا كِ لقلبِى فأجابَا

وله فى موضوعات أخرى غير المديح والغزل ، ومنها الهجاء ، وهجاؤه غالباً مقطعات بين بيتين وخمسة أبيات . وتعرّض ببعض من كان ينال من شخصه أو شعره ، وقد يُقذعُ فى هجائه ، وقد يكتفى بالتعريض دون التصريح بالعورات والقبيح من اللفظ .

وتأتى بعض الموضوعات الأخرى عرضاً فى قصيدة المديح ، كالوصف وذكر الخمر والشراب ، أو الغناء والمغنين ، وله فى المناسبات قصائد قصيرة ومقطوعات كالتهنئة بالصيام ، أو بمولود ، أو بشفاء من مرض أو التعزية وما إلى ذلك .

وكثير من شعره يدور فى هذه الدائرة من المجاملات ، والإخوانيات .

ولا نعثر فى شعر الصورى على صور بارعة ، فشاعريته ترتكز على سهولة اللفظ ، ورقة التعبيرات ، وخفة التراكيب والأذواق ، وقليلاً ما تراه يستعين بمحفوظ من الشعر القديم ، أو يعيد بعض معانيه وصوره ، كذلك قليلاً ما ترد فى الفاظه ألفاظ قرآنية ، كما لا يستعين كثيرا بآى القرآن وقصصه .

ومن حيث الصفة البديعية ، فهو غير مسرف فيها ، ولا متكلف لها إنما قد تجىء فى اثناء كلامه سهلة يسيرة . كأن يقول مجانساً :

وعُلّقتهُ شادناً شادياً عليه الشَّجَي وعلىَّ الشَّجَنْ
إذا ما التقينا فمِن جُدْ وزِدْ وصِلْ وتعطّفْ ، ومن لا ولَنْ
ومن مهجةٍ مُذ نأتْ ما ثوتْ بأرضٍ، ومنْ سكنٍ ما سكَنْ
قفوا تعرفوا ما أسرَّ الهوى فأعْلَنَ لمَّا أسرَّ العَلَنْ

وعلى أنّ الصُّورى يملح أحياناً ، ويمتزج قوله بالفكاهة فى تصوير نزوله على أحد أصدقائه البخلاء . إذ يقول :

وأخٍ مسَّهُ نزولى بَقَرْحٍ مثلَ ما مَسَّنِى من الجوعِ قَرْحُ
قِيلَ لى إنه جوادٌ كريمٌ والفتَى يعتريه بخْلٌ وشُحُّ
بتُّ ضيفاً لَهُ كما حكمَ الدَّهْـ ـرُ ، وفى حكمهِ علىَ الحرِّ قُبْحُ
قال لى إذ نَزَلْتُ وهو من السُّكْـ ـرَةِ والهمِّ طامحٌ ليس يَصحو
لم تَغرَّبْتَ ؟. قال رسولُ الله : والقول منه نُصحٌ ونجحُ
سافِرُوا تغنموا. فقالَ: وقد قالَ تمامُ الحديثِ : صُومُوا تَصِحُّوا

وهكذا فإن عبد المحسن الصورى كما رأينا إنسان شاعر عادىّ لا تفوّق فى شعره ، عاش فى ظل الفاطميين وفكرهم ، وصراعاتهم مع منافسيهم وكان وجوده بصور مما أتاح له المشاركة فى تلك الأحداث والصراعات التى شهدها طوال حياته منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهاية العقد الثانى من القرن الخامس .

ومع أنه كان إنساناً عادياً ، وشاعراً من بين شعراء عديدين عاشوا فى العصر إلا أنه لم يعدم ميزة تفرده عن غيره ممن عاصروه ، أشرنا إليها ، وفى رأينا أن رأى ابن خلكان والثعالبى من قبله فيه وكذلك مواطنوه وتلاميذه من شعراء الشام فى القرن الخامس كان مبالغاً فيه .

وذكره معاصره على بن منجب فى كتاب الأفضليات ، ووقف عند أبيات من شعره ، قارن بينه فيها وبين أبيات لابن رشيق[1] ويذكر له بيتين فى الخمر[2] ، ويذكر وصفه لحمّام . يقول[3] :

وقال عبد المحسن فى الحمّام :

ومنزلِ أقوام إذا نزلوا به تشابه فيه وَغْدُهُ ورئيسُهُ

وهذا مما يصلُح أن يوصف به قبر . وتمام الأبيات من مستحسن ما وصف به الحمّام . وهو :

يُخفّفُ وَجْدِى أنْ تَزيدَ كُروبُه ويُؤنِسُ قلْبِى أن يقلّ أنِيسُهُ
إذا ما أعَرْتَ الجوَّ طرفاً تكاثرتْ عليكَ به أقمَارُه وشمُوسُهُ

---

(١) راجع الأفضليات ص ١٣٠ـ١٣١ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٣٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٦ .

الفصل الرابع

شعراء مصريون من القرن الخامس
ظافر الحداد
ابن مكنسة

— ١ —

ظافر الحدّاد السكندرى (ت سنة ٥٢٩ هـ)

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله الجروى الجذامى ، ينتمى إلى قبيلة جذام اليمنية ، أستقر أهله بالإسكندرية ، واشتغل أبوه بحرفة الحدادة ، وورثها عنه ابنه ظافر ، ولكن نشأ الابن محباً للعلم والأدب ، فبدأ يرتاد مجالسهما بالإسكندرية وتعرف على كثير من أعلامهما .

كان مولد ظافر فى حوالى منتصف القرن الخامس ، ولحق أخريات خلافة المستنصر بالله الفاطمى أطول خلفاء الفاطميين حكماً ، وآخر كبارهم حيث بلغت الدولة درجة من الأزدهار والقوة ، وإن انتابت حكمه بعض السنين العجاف ، فقد اشتدت بالناس المجاعة والشدة المستنصرية ، وكانت من أشد ما عانته مصر فى عصور ما بعد الفتح الإسلامى .

وعاصر الخليفة الآمر ، كما عاصر من الوزراء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل بن بدر الدين وهما من أشهر وزراء الفاطميين فى القرن الخامس ، كذلك عاصر الوزير المأمون البطائحى .

وعاش ظافر مرحلة شبابه بالإسكندرية ، وكانت له بها ذكريات جميلة ، وقد تفتحت بها شاعريته ، وطاف بمغانيها ، وسجلها فى شعره معجباً ، ومنها خليج الإسكندرية الذى يمدها بالماء العذب .

وكانت تزدهر حوله الحقول والبساتين الغنّاءُ التى أكثر من ذكرها كقوله يتذكر أيامه بالإسكندرية :

أسَفِى على ذاكَ الزمانِ لو أنَّهُ ... بالصخر فُتّتَ منه صُمُّ صِلابِهِ
يا ليتنى أحظَى بشمِّ نسيمِهِ ... وبديع منظرِه ولثمِ تُرابِهِ
حيثُ الغُصونُ رواقصٌ ويمَامُها ... يشدُو لطِيبِ الزمْرِ من دُولابِهِ
نَعرتْ نواعِيرُ المياهِ وأُترِعَتْ ... تِلكَ النِّزاعُ وفُضَّ فيضُ عُبابِهِ

كما اعتاد الرمل ، وبساتين التين والكثبان ، وشاطىء البحر ونسيمه .

يا هلْ إلى الإسكندرية أوبةٌ ... فيُسَرُّ قبل مماتِه بإيابِهِ
فيرَى مكانَ شبابه ونصابه ... وحبَابِه وصحَابِه ولِعَابِهِ

حيثُ النسيمُ السَّاحِليُّ يزُورُه ونَدَى رِياضِ الرَّملِ عطرُ ثيابه

ويقول :

هلْ إلى الثَّغرِ من عَوْدٍ ومُنقَلب فالعيشُ منذُ رَحيلى عنهُ لم يَطِبِ
تُرى أزورُ القُصورَ البِيضَ ثَانيةً بالرَّملِ بيْنَ غُصُونِ التِّينِ والعِنَبِ
وفوقَنا شاهِقاتُ الكَرْمِ أخبِيَةٌ من حَوْلها قُضُبُ الأغْصانِ كالطُّنُبِ
وللنَّسيمِ العليلِ الرَّطْبِ وسْوَسَةٌ فيهنَّ كالسِّرِّ بينَ الرِّفقِ والصَّخَبِ

وعن حديثه عن الإسكندرية ومعالمها وبيوتها ومساجدها ، يصورها مدينة زاهرة تتشح منازلها بالبياض وكذا مساجدها ومنارتها ، فتبدو من بعيد تلبس ثوب البياض وكأنها العروس على ما صورها فى شعره .

يقول :

تضيءُ بها المساجدُ فهى تَزهوُ بياضًا مِثلَما تَزهُو الكَعَابُ
تُجاوِرُها منارتُها وفيهَا وفى فانُوسِها عجَب عُجَابُ
فَتاةٌ غَادةٌ بإزاءِ شَيْخٍ قَصيرٍ طَالَ بينَهُمَا العِتَابُ
سقَى اللَّه السَّوارِيَ بالسَّوارِي ودرَّتْ فى مذَاهِبها الذَهَابُ
فكم عِيدٍ بها أهدَى وأدْنى حبيبًا كان أبعدَه اجتنَابُ
وفى البابِ القديمِ قديمُ عَهْدٍ يُذكِّرُنِيهِ للنُّزَهِ الذَّهَابُ
وسِيفُ خَليجِها كالسَّيفِ حَدًّا وفى أرَجِ الرِّياحِ لهُ اضْطِرَابُ
وإيقاعُ الضَّفادِعِ فيه عَالٍ وللدُّولَابِ زَمْرٌ واصْطِخَابُ
وترقُصُ فِى جوَانبِهِ غُصُونٌ كرَقْصِ الغِيدِ مادَبهَا الشَّرَابُ
وتشدُو بينَها الأطيارُ شدْوًا رَخِيمًا للقُلُوب به انْجذَابُ
وكمْ لى بالكَنِيسةِ من كِنَاسٍ به رَشأٌ جلَتْهُ لنا القِبَابُ
وكمْ لى بالمجالِسِ من جُلوسٍ تَحفُّ به الأخِبَّةُ والصِّحابُ
وبحرُ الملحِ مثلُ الفَحْلِ يرْغُو ويُزْبِدُ حِينَ يُقلقه الهبَابُ
وتحسب سُفنه صفةً ولوناً فيُولاً حين يرفعُها العُبابُ

وأثناء تردد ظافر فى شبابه بالإسكندرية على مجالس العلم والأدب تعرف على الحافظ السلفى ، والتقى بصديقه الشاعر أمية بن أبى الصَّلت بها ثم عاد ليلتقى به مرة ثانية بالفسطاط .

وقبل أن نترك الإسكندرية وحياة ظافر بها ، نحب أن نجول معه جولة فى ديوانه للتعرف على بعض ما كان يرتاده من معالمها ، وكيف صورها لنا شعراً ، وما تركت له من ذكريات قبل أن يتركها فى حدود سنة ٥٠٠ هـ .

ونلاحظ كثرة تردد أسماء معينة لمعالم الإسكندرية ، لخليجها أو ترعة المحمودية الآن والبحر والمنارة والرمل ، وربوة ابن العاص ، ولعلها كوم الدكة أو كوم الشقافة ، وقصر الدخان ، ويقع غرب الإسكندرية فى الطريق إلى المقس ، والقليدة .

وكان يحب خليج الإسكندرية العذب الذى يحمل إليها ماء النيل فيروى رياضها وبساتينها ، كان يحلو له أن يخرج إليه مع صحبة من رفاقه ليتمتعوا بالطبيعة ، وربما التقى هناك أو صحب بعض حبيباته وأحبائه .

ولم يخل صحبته من بعض رجالات الأدب والقضاة أو العمال الذين عرفهم بشعره وأدبه ، ويروى أنه صحب مرة القاضى أبا المكارم أحمد بن عميد الدولة فى بعض العشيات على شاطىء خليج الإسكندرية ، والنسيم قد جمش وجه الماء ، ومبادى الكلا قد برقعت محيا الأرض ، وطوقت أجياد النخيل بقلائد الثمار فأنشد :

وعشيةٍ أهدت لعينك منظراً   قَدِم السرورُ به لقلبك وافِدَا
روضٌ كمخضرِّ العِذارِ وجدولٌ   نُقِشَتْ عليه يدُ النسيمِ مبارِدَا
والنخل كالهِيفِ الحِسانِ تزيَّنتْ   فلبسْنَ من أثمَارِهنَّ قلائِدا

ولعل تلك النزهة كانت فى أخريات الصيف ، ومطلع الخريف ، وقد تلونت فيه ثمار النخيل .

وربما كان سكن ظافر بالإسكندرية القديمة بمكان كان يسمى بالظاهرية يقع غرب الحى الرومانى أو اليونانى أو جنوبه الغربى ، وقد جاء ذكر الحى الرومانى أو اليونانى ، وربما هو ما كان اسمه هرقلة نسبة إلى قيصر هرقل . ربما كان قريباً من محطة الرمل أو ما بينها وبين حى الشّاطبى ، يقول عن هذا الحى :

وفى عذَباتِ الرَّمْلِ دُون هِرَقْلةٍ   مسَارِحُ نسعَى بينَها ومَرَاتِعُ
رياضٌ إذا هبَّ النسيمُ خِلالَها   سعَى وهو واهى الخَطْوِ فيهنَّ ظالِعُ

ومن معالمها التى ذكرها الكنيسة ، ولعلها الكنيسة المرقسية قرب محطة الرمل الآن ، يقول :

وشرق المحجة لى غزالٌ ⁂ تُحجّبه الصوارمُ والحِرابُ
وكم لى بالكنسيةِ من كِناسٍ ⁂ به رشأ جلتْهُ لنا القِبابُ
وكم لى بالمجالسِ من جُلوسٍ ⁂ تحفُّ به الأحبَّةُ والصِّحَابُ
وأذكرُ قصر فارس والمعلّى ⁂ ففيهِ لكلّ موعظةٍ منَابُ

ولعله تعلق زمن تردده على الكنيسة بتلك الفتاة النصرانية التى ذكرها فى شعره .

ومعظم حديث ابن ظافر عن هواه كان فى شبابه بالإسكندرية حيث تتوارد عليه صور تلك الأوقات السعيدة فيقول :

ديارٌ لبستُ اللهو منها مع الصبا ⁂ فنعمَ الحُلى فيها ونعمَ الملابِسُ
ليالىَ أعطِى الحبُّ فضلةَ مقودى ⁂ ذلُولاً، وعند العتْبِ واللّومِ شَامِسُ

أصِيدُ المها فيهنَّ ، ثم يَصِدْننى ⁂ فكلٌّ لقلبى بالشباب فَرائِسُ
تساوت بنا حال الصبابة والصبا ⁂ فكلّ لكل مُشبةٌ ومُجالسُ
فأرشفُ دُرًّا لم يثقِّبهُ ناظمٌ ⁂ ونورَ أقاحٍ، قد نَمتْهُ المغارِسُ
واقطف ورد الخد والورد زاهر ⁂ وألزم غصن البان والغصنُ مائِسُ
زمان كطيف زار وازور وشك ما ⁂ تصافح جفننا مغرم وهو ناعس

وكانت رياضته مع حبيباته أو أصحابه وقت الأصيل إذ كثيراً ما ينوه بالآصال ، فى نزهته تلك سواء على الخليج أو بالرمل على شاطىء البحر ، كان يقول :

هذا الخليج فمرحباً بزمانه ⁂ يا حبذا الآصالُ بين جِنانِه
فامرحْ بطرفِكَ كيفَ شِئْتَ تَرى به ⁂ معنىً يفُكُّ القَلبَ من أحْزانِه

ويقول فى سرحة له على شاطىء البحر أصيلاً :

وآصالنا فى ساحلِ البحرِ نجتلى ⁂ به الرَّملَ ما بينَ الكثيبِ إلى الوهْدِ
تغازل من غزلانه كلُّ سابحٍ ⁂ له مقلةٌ عاداتُها قنَصُ الأسدِ

جكتْ لنا الأمواجُ أثقَال رِدْفِهِ ... فآوِنَةً تُخفِى وآونةً تُبْدِى
إذا قابلَ التيَّارُ هِيفَ قدُودها ... أرتْنا فعالَ الرِّيحِ بالقُضبِ المُلْدِ
ليالٍ وأيامٌ تقضَّتْ كأنها ... جواهرُ نظمٍ خانَها العَقْدُ من عِقْدِ

والتقى بالوزير الخطير شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالى بالفسطاط ، نحظى لديه ولزمه ونظم فيه القصائد الطوال حتى كانت مدائحه فيه ديواناً كاملاً .

وسجل فى شعره بعض معالم الفسطاط ومصر والقاهرة وما حولها من الخليج المصرى أو الذى سمى بالخليج الناصرى ، والذى كان يخرج من شمال الفسطاط ، وتحوطه البساتين والمناظر والمتنزهات ، ومن أشهرها كما عرفنا عند الحديث عن تميم بن المعز والشريف العقيلى القاش ، وبركة الحبش ، وكانت بركةُ الحبش تقع جنوبى الفسطاط وكانت من منازه مصر المشهورة ، كذلك ذكر المقطم ، وما كان قرب الفسطاط من الأديرة التى يؤمها بعض سراة القوم ، للنزهة كدير القصير .

ورغم أنه نال فى الفسطاط ما تمنى ، لكنه لم يسل عن الإسكندرية قال :

يا ساحلَ الثَّغر كم أنأى وأغتربُ ... أما إليك مدَى الأيَّامِ مُنقَلبُ
ويا أوائلَ أيامِ الشَّباب بهِ ... هل لى إليكُنَّ فيهِ ساعةً سببُ
واللّه ما اخترتُ مصرًا عنكَ عن مِقةٍ ... وإنْ غَدا العيشُ لى فيها كما يَجبُ
ولو جَرى لى نيلُها فِضَّةً وغدَا ... سفحُ المقطَّمِ منها وهو لى ذهَبُ

ومع ذلك فإن إقامته بالفسطاط ، وقربه من النيل ورؤيته له ربطته بها برباط عاطفى ، فكان يشدو بهما ، ويحن إلى الفسطاط إذا غاب عنها : يقول :

أحنُّ إلى الفُسطاط ما لم أكُن بهِ ... حنينَ طليح الرَّكبِ بعدَ ذهَابِهِ
وأستقبلُ الرّكبان من كُلِّ وجهةٍ ... لعلّ بمصرٍ ذاكراً فى خِطابِهِ
وأهجرُ عذبَ الماءِ من طولِ غُلَّةٍ ... إذا لم يُنلْنِى النيلُ عذبَ رُضابِه
وتسودُّ فى عينى البلادُ تذكُّراً ... لخُضرةِ شطَّيه وبيضِ قِبابه
وكم لى على سفحِ المقطم وقفةٌ ... لها أثرٌ فى وهدِهِ وهِضابِه
فضَضْنا بها سلكَ الحديث فخلتُه ... يميدُ بنا زهوًا لطيبِ عِتابِه

ويقول فى بركة الحبش :

وفى البِركةِ الغنّاءِ للطَّرفِ مسرحٌ نهى ما انطوى مِن جَفْنِهِ من مآبه

وهكذا عاش ظافر فى شبابه بالإسكندرية محدود الرزق ، وفى القاهرة على شيء من اليسار ، ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينسى بلدته ، وقضى حياته غريباً فى القاهرة يرضى عنها وعيه ويحرص عليها ، ويسخط عليها باطنه ويرفضها فعاش معذباً يعانى التمزق النفسى والشعور الحاد بالغربة والحنين الجارف إلى الإسكندرية التى مثلت له الجمال والشباب والحب فمنحنا أجمل ما صنع من شعر بصور مشاعِرهُ تلك[1] . وظل بالفسطاط زمناً يعيش بالمديح ، ويلتقى بأدباء الفسطاط والقاهرة ويعقد معهم المجالس ، حتى اشتهر وأصبح شاعراً مرموقاً تردد ذكره فى أوساط الأدب والعلم فى مصر كلها ، واتصل بالوزير الأفضل بن بدر .

ويبدو أنه نال حظاً من الثروة فى جنابه .

وكاتب علامة الإسكندرية ومحدثها الكبير الحافظ السلفى ، وبعث إليه قصائد من شعره ، يقول الحافظ فى معجم السفر[2] « كان من مقلقى شعراء ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدةٍ بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً بخطى بمصر وقبل ذلك بالإسكندرية ، مقطعات وقصائد ، وكاتبته وأجاب عنه بشعر وهو عندى وتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ذى الحجة على ما كتبه إلى ابن موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وما عرفنا له قط حربة ، أى فسادا فى الدين ـــ كمثل الشعراء » .

وذكره عماد الدين الأصبهانى فى خريدة القصر قال : كنت سمعت به قديماً ، وأنشدنى له الشريف أحمد بن حيدرة الحُسينى الزيدى سنة خمس وخمسين .

قال : أنشدنى ظافر الحداد لنفسه ، وهو قريب العصر غريب النثر[3]

(١) الدكتور حسين نصار فى مقدمة الديوان ص ز .

(٢) معجم السلفى نسخة مصوره بدار الكتب المصرية الورقة ٩٧ .

(٣) ذكر السلفى أن وفاته كانت فى ذى الحجة سنة ٥٢٨ هـ كما ذكرنا وذكر ياقوت وابن خلكان أن وفاته كانت سنة ٥٢٩ هـ ، وبينما ذكر ابن تغرى بردى والسيوطى وابن العماد وفاته بعد ذلك سنة ٥٦٣ هـ وهو غير صحيح ، بمراجعة ما ذكره السلفى وابن العماد وهما أقرب إليه من هؤلاء .

وشعر ظافر كما قال ابن خلكان جيد ، وهو غريب النظم على ما ذكر العماد ، وجودة شعره وغرابته معاً تتبينان فيما وفره له من سهولة الأسلوب مع تمكن من العبارة ، وشاعرية واضحة ، ومقدرة فنية على صياغة معانيه فى صور جديدة ، وإن استوحت التراث فى بعضها .

وكثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنه ليس غزلاً كغزل القدماء بل مزج فيه باقتدار بين معانى الغزل المتداولة ، وجديد التناول والرؤية الخاصة المستوحاة من العصر والبيئة .

ونقرأ قوله فى مقدمة إحدى قصائده :

هذا الفراقُ وهذه الأظعانُ ... هل غير وقتك للدُّموع أوَانُ
إنْ لم تُفِضْها كالعَقِيقِ فكلُّ ما ... تدعُوه من سَنَنِ الهَوى بُهتانُ
هذا الغرامُ على ضَمِيرِكَ شاهدٌ ... عدلٌ، فماذا ينفعُ الكِتْمانُ
إن كُنتَ تدَّخِرُ الدُّموعَ لبينِهِمْ ... فالآنَ قد وقعَ الفِراقُ وبَانُوا
عُذرُ المتيَّمِ أن يكُونَ بقلبِهِ ... سَقَرٌ، وبينَ جفُونهِ طُوفَانُ

فتحس أن الشاعر استوحى بعض معانى شعراء الغزل ، ومن قالوا فى هذا المعنى ومزج بينه وبين عناصر إسلامية استقرت فى ضمير العالِم من مصطلح العلم الإسلامى وبعض لفظ القرآن .

ويقول فى أخرى :

بمنازلِ الفُسطاطِ حلَّ فُؤادى ... فاربَعْ علَى عرصاتِهِنَّ ونَادِ
يامصرُ هل عرضَت لغصنٍ فوقه ... قَمرٌ بربعِكِ إربةٌ لمَعَادِى
أنزِقْ يُميِّلُه الصَّبا ميلَ الصِّبَا ... بقوامِ خَوْطِ البانَةِ الميَّادِ
أترى أنالَ النيلَ بعضَ رُضَابِهِ ... فَعَذُبْنَ منهُ مياهُ ذاكَ الوَادِى
فأفاد منه الطعمَ لكنْ شربُ ذا ... يُروِى وذاك يزيدُ كربَ الصَّادِى
واهًا على تلكَ الدِّيارِ فإنها ... أوطانُ أحبَابى، وأهْلِ ودَادِى
ولقد أحنُّ لها ولسْنَ منازِلى ... وأودُّها شغفًا ولسْنَ بلادِى
دمنٌ لبستُ بها الشَّبابَ ولمتى ... سوداءُ ترفُلُ فى ثيابِ حِدَادِ
والعيشُ أخضرُ، والدِّيارُ قريبةٌ ... وأبيتُ من أهْلِى على ميعادِ

والقلبُ حيثُ القلبُ رهنٌ والظُّبا خدقُ الظِّباءِ الغيدِ قيدُ الغَادِى
شُتِّتُّ شملَ الدَّمعِ لما شُتِّتوا شَمْلِى، وصِحْتُ به بَدادِ بَدادِ

وهنا نجد الشاعر يمزج بين قديم المعنى وصنعة البديع ، والجناس منه خاصة ، مع استلهامه عناصر البيئة المحلية المصرية فى التعبير ، كتشبيه رضاب الحبيبة فى عذوبته بماء النيل .

واعتاد الشعراء قديماً ذكر صعوبات لقاء الحبيبة ، لما يحيطها به أهلها من حرس شديد ، ورماح ، لا يقوى على اقتحامها العاشق ، فيحتال لها أو يعد لنفسه من الشوكة ما يلقى به ظبى الحى وأسنته .

وقد أبرز المتنبى هذا المعنى فى صورة جميلة رائعة من قصيدته اللامية المشهورية :

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
يبن لى البدر الذى لا أريده ويخفين بدرا ما إليه سبيل
وما شرق بالماء إلا تذكرا لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة حوله فليس لمشتاق إليه وصول

ويتناول ظافر هذا المعنى تناولاً جديداً فيعرضه عرضاً خاصاً به ، مستخرجاً إياه فى خيالات ورؤى معجبة ، تكشف عن مقدرة فنان وإحساس شاعر ماهر .

كمْ مهمهٍ جُبْت من أجلِ الهَوى فرقاً يكبُو لخيفَتِه السَّاعِى من الرَّعِدِ
وليلةٍ مثل عينِ الظَّبي داجيةٍ عسفتها ونجومُ الصّبحِ لم تقِدِ
كأن أنجمُها فى اللَّيلِ زاهرةً دَراهمٌ والثريَّا كفُّ مُنتَقِدِ
لو همَّ مُوقِدُ نارٍ أن يَرى يدَه فيها ولو كانَتْ الزَّرقاءُ لم يَكَدِ
وفى يمينى يمينُ الموتِ ماثلة فى صُورةِ السَّيفِ لم تنقصْ ولم تَزدِ
حتى تأملتُ حيا عزٌّ ساكنه تحفُّه أسدُ غابٍ من بَنِى أسَدِ
من كُلِّ أروعَ لا كفٌّ لمعصَمِه سِوى الحُسامِ ولا جِلْدٌ سِوَى الزَّردِ
غيرانَ يُكثرُ سلَّ السَّيفِ متَّهما من ظلِّه ويبيعُ النَّومَ بالسُّهَدِ
فجئتُ أخفى خطًا لو وطِئتُ بها فى جانِب الجلد مما خَفَّ لم يجد

حتى لثمت فتاةَ الحىّ فانتبهَتْ ... ترنُو إلىَّ بعينىْ جُؤذَرٍ شَرِدِ
فسلّمت وهى ولْهَى من مخَافَتِها ... جيرانةٌ، تمزِجُ الترحيبَ بالحَرِدِ
فَظِلتُ أَلثُمُها طوْراً وأُشبِرُها ... فعلَ الهَوى بى وقد مالَتْ على عَضُدِى
وقلتُ للقلبِ لمَّا خافَ بادرةً ... ذا موردٌ عَزَّ أن تعتَاضَهُ فَرِدِ
فودعَّتنى وقالتْ وهىَ باكيةٌ ... إنى أخافُ عليكَ الموتَ أن تعُدِ
وسرتُ والليلُ قد ولَّت عساكرُه ... والدُّهرُ يأكلُ كفَّيْهِ من الحَسدِ

وفى هذه المقطوعة الغزلية التى جعلها مطلعًا لمديحه ضمنها بعض المعانى التقليدية الأخرى زيادة على ذلك المعنى الرئيسى الذى أشرنا إليه ، وهو منعة الحبيبة فى أهلها ، ولا شك أنه استوفى كذلك بعض معانى الشعراء القدامى فى الليل واعتساف الطريق كقول ذى الرمة مثلاً :(١) أحم علافى قطعته بأربعة وهو فى العين واحد .

واستوحى قصصاً شعرياً لأمرىء القيس وعمر بن ربيعه يمثل زورات العاشق الليلية للمحبوبة رغم منعة أهلها فى حمى قومها ، وما قاله واقتنصه معها من اللذات ، وما قاله ، ومخافته ومخافت عليه .

وهو مع هذا الاستيحاء لا يقلد ، ولا تحس بأنه يحتذى أو يأخذ أخذا مباشرا ، ولا يمسخ المعنى ، ولا ينسخه ، لكنه يأتى به فى رشيق من اللفظ ، وحلو العبارة حتى يدفعك إلى الإعجاب بصنعته ، والتعجب من مقدرته وشاعريته .

وهو يرى الغزل فى مطلع قصيدة المديح ضرورة فنية يقتضيها القول الشعرى وليس مجرد تقليد للقدماء فيما أنشدوا(٢) :

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا ... فإن تغزلت فى مدح فلا عجبا
وأحسن الشعر ما أضحى تغزله ... إلى المدائح فى انشاده سببا
والفهم كالنار والتشبيب إن خمدت ... يشبها بلطيفى فكرة وصبا
كم فكرة أنتجت معنى لملتهب ... بالشوق لو رامه فى غيره عزيا
وحكمة العرب الماضين كامنة ... فى الشعر فليقف من يعنى به العربا

(١) ديوانه ذى الرمة .
(٢) ديوانه ص ٣٤ .

فهل تعاطاه فحل فى فصاحته ... إلا بكى سكنا أو ناج أو ندبا
والشعر تلقين شيطان الغرام فلا ... يملى غرائبه إلا لمن نسبا .

ومع ذلك فإن الشاعر يتغزل غزلا صرفا ، بعيدا عن قصائد المديح وتحس فى غزله صبوة حقيقية، وهوى لا عجا ناش قلبه ولوحه ، وإلا لما قال مثلا(١) :

لو ذقت حين عتبتَ أيسرَ حُبِّهِ ... لعلمتَ حُلو غرامِهِ من صَابِهِ
ومن البليَّةِ أن يلُوم أخَا الهَوى ... من ليس يعلَمُ سهلَه من صعْبَةِ
ما أنت منهُ إذا تطاولَ ليلُه ... قلِقا ولَجَّتْ مُقلتَاهُ بشُهْبِهِ
وثملتُ من كأسِ الهوى، ويدُالهوى ... تسقى جوارِحَهُ بميسمِ كَرْبِهِ
أنا بعضُ من سبتْ اللّحاظَ فؤاده ... فسَرى ولم يحفِل بلامةِ حزْبِهِ

قال هذه القصيدة فى هوى له بالفسطاط ، أو مصر فهل كان هواه الحقيقى هناك، أم أن حبه وهواه الأول كان بالإسكندرية، ومن يتعقب أقواله وأشواقه بالإسكندرية يحس بحقيقة هذا الهوى ، وأنه لم يفارقه أبدا حتى وإن كان قد جدد هوى بالفسطاط ، ألا أن هوى الإسكندرية تمثل له دائماً ، وفى كل طريق يسلكه سواء أسلك إلى مصر والفسطاط أم القاهرة وقد صرح بهذا الهوى السكندرى فى قصيدة يتشوق بها إلى ملاعب ذاك الهوى فقال(٢) :

يا بلدتى إنْ يغبْ مغْناكِ عن نظَرِى ... فإنَّهُ فى سَوادِ القَلبِ لم يَغِبِ
واهًا على ذَلكَ العيْشِ الَّذِى ذَهبتْ ... أَيَّامهُ فيهِ بينَ اللَّهوِ والطَّرَبِ
وللشَّبيبةِ شَيْطانٌ يُساعِدُنِى ... علىِ الهَوى ويُواتِينِى على أربِى
فإن دَعانِى الهَوى لَبَّيتُ دعوتَه ... وإنْ دعَانِى لِسانُ العتْبِ لم يُجِبِ
أجُرُّ ذيلَ غَرامِى غيرَ مُكترِثٍ ... بالحَادِثاتِ ولا بَاكٍ عَلى النُّوبِ

لقد امتزج هذا الحب إذا بحب بلده الإسكندرية ، وتقلبت بهما الأيام فإذا هما هوى واحد ، إذا تذكر الإسكندرية ذكر هواه ، وإذا ما ثار فى قلبه لأعج حبه تذكر ملاعبه بالإسكندرية بين قصور الرمل ، وعلى ضفاف خليجها وسط الزروع والبساتين ، أو على شاطىء بحرها الهادر ، يبعث بأمواجه على الشاطىء ، ويهب نسيمه فيطوف بوجهه ، ويحييه ، بل يصافحه ويقبله .

(١) ديوانه ص ٩ .
(٢) ديوانه ص ٢٠ .

وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب ، والتعبير عن عواطفه كلما طرق هذا الموضوع حتى إذا اصطنع فيه القول ، أو قاله مبتدئاً فى قصائد المديح .

مدائحه :

قال أشهر مدائحه فى الأفضل بن بدر الجمالى ، ولعله نظمها فى مرحلة حياته بالفسطاط ما بين عامى ٥٠٠ هـ إلى ٥١٥ هـ وقد تكون القصيدة التى مطلعها[1] .

بدَا شَيْبُهُ قبلَ ابتداءِ شَبابه   وولّى الصِّبا عنهُ عَقِيبَ اغْترابِه

أول ما قال من مديح فى الوزير ، أو من أوله لشواهد فيها تنبىء بذلك ، منها هذا المطلع الذى يشير إلى غربته عن بلده الإسكندرية الذى تعلق به وصعوبة تلك الغربة على نفسه ، وتكون الغربة شديدة على النفس فى أولها وربما كان آنذاك غير مستقر بالفسطاط يتردد بينها وبين بلده ، يفهم ذلك من قوله :

ولما حَبانى الدَّهرُ منهُ بعودةٍ   ورَاجعَ حظِّى بعدَ طُولِ اجْتِنَابِهِ
وهبتُ لقربٍ سرَّنى بنعيمِه   جِنايةَ بُعدٍ ساءَنى بعِقَابِهِ
فإن كُنتُ فى مصرٍ غريبًا فجُلُّ ما   ينالُ الغريبُ العِزَّ عندَ اغْتِرَابِهِ
وردْتُ بها بحْرَ النَّوالَ مُشرِّقًا   وغَرّبَ غَيْرِى آمِلا لسَرَابِه

وأظن هذه العودة حدثت بعد رحيل أمية بن أبى الصلت عن مصر والقاهرة ، وحدوث ما حدث من سجن ، ففارق بلاط الأفضل وخلفاء الفاطميين مغاضباً إلى القيروان حيث الصنهاجيون أعداء الفاطميين أو من أصبحوا أعداءهم بعد حلف ومصاحبة ولعل التلميح إلى من يغرب من الشعراء فى البيت الأخير يعنى أمية .

وتختلف مناسبات مدائحه للأفضل بين التهانى بالأعياد ، أو بمناسبة زواج ولده .

فمن تهانيه بالعيد قوله :

نهايةُ ما سمَا لعُلاكَ أرْضُ   وأشرفُ ماز كَا لِنذاكَ بعضُ

---

(١) ديوانه ص ٤٦ .

يقول فيها :

لغرة وجهك الميمون نورٌ   لعين الشمس تحت سماه وَمْضُ
كأنَّ ملوكَ أهلِ الأرضِ نفلٌ   إذا اعتمدُوا الفخارَ وأنتَ أرْضُ

ويقول بعد عباراتٍ من الثناء المبالغ فيه على عادةِ الشُّعراءِ فى مدائح أولئك القادة والوزراء :

بقاؤك زهْرةُ الدُّنيا فمَهْمَا   بقيتُ فعيْشُنا خِصْبٌ وخفْضُ

ويصفه فى مديحه بالعدل إلى صفات الشجاعة وإخافة الأعداء ، كما يشير إلى رعايته للدين وقيامه على حمايته . ويجدها فرصة سانحة للإشادة بعمل أبيه بدر الجمالى فى انقاذ ملك الفاطميين من أعدائهم ، يقول :

أبوكَ مغيثُ هذا الدِّينِ قِدْمًا   غداةَ لهُ من الطَّاغِينَ دَحْضُ
تداركَ نصرَهُ بِدَرَاكِ ضَرْبٍ   تُقدُّ به الجَمَاجِمُ أو تُرَضُّ

حتى يصل بعد هذه المفاخر والمآثر إلى التهنئة بالعيد ليقول :

ليهنَ العيدُ أن وافاكَ فيهِ   ومُلْكُكَ زَاخِرُ الأكنَافِ بَضُّ

ومما قاله فى مناسبة زواج ولده :

يا باسِط العَدلِ فى بدوٍ وفى حضَرٍ   وَرافعَ الجوْرِ عن أُنثى وعنْ ذَكرِ

يقول فيها :

يا أفضَلَ الناسِ لم يُنسَبْ إلى لقَبٍ   ولا وفِعْلُكَ أوفى منهُ فافْتَخِرِ

ويقول فى مناسبة مماثلة :

عَبقَتْ بطِيبِ ثنائِكَ الأقطَارُ   وتجمَّلتْ بمديحِكَ الأشعَارُ
وعَظُمتَ صنُعا فى السَّماعِ فمُذبدَا   للعَينِ خُبرُكَ هانَتْ الأخبارُ

ويمضى كعادته فى المديح فى إفاضة صفات المديح المبالغ فيها من مثل قوله :

والأرضُ مِلكٌ والزمان كأهله   خدم وبعض جيوشك الأقدار

وقوله :

جحِدَ الكمالُ من الوُجُودِ فَمذْ بَدا ... للنّاس فضْلُكَ أُنكرَ الإنْكَارُ
إن كان هذا الخلق أصل وجوده ... طين فأصلُك جوهَرٌ ونُضَارُ

وقوله :

كادَ المقطَّم أن يَميدَ مسرَّةً ... لو لمْ يُصِبْهُ من لدُنْكَ وقَارُ

وهكذا تحوى مدائحه فى الأفضل من المبالغة التى تخرج عن جادة القول ويبدو أن الأفضل وغيره من الملوك آنذاك كانوا يحبون أن يبالغ الشعراء فى صفاتهم حتى يبالغوا لهم فى العطاء ، وعرف الشعراء ذلك فيهم فكالُوا لهم ما شاءوا مما يخرج عن كل حد معقول ، ويكاد يصبح من هذر الكلام .

ومدائحه فى الأفضل لا تجرى كلها على سنن المديح التقليدى فى بدئه بالنسيب بل هو يبدأ أحياناً قوله مباشرة دون تمهيد ، وتقتصر قصيدة المديح غالباً على صفات المديح وحده لا يشركه فيها شىء ، وعلل ذلك بقوله :

والشعرُ تلقينُ شيطانِ الغِرام فلاَ ... يُمْلى غرائبَه إلا لمنْ نسبَا
إلا مدائحَ شاهنشَاه ما بَرِحَتْ ... تُشرِّفُ اللَّفظَ والمعْنَى إذا اصْطَحبا

وانقطع للأفضل فصَار شاعرَه قال :

فأصبحتُ فيها خادمَ الأفضلِ الّذى ... زحَمْتُ ملوكَ الأرضِ تحتَ رِكابِهِ
جلوتُ عليه كلَّ عذراءَ مارتَضتْ ... ببَعْلٍ إلى أن هرْوَلتْ بجنابه

ولأنه كان منقطعاً إلى الأفضل ويعد من شعراء بلاطه ، فقد كان يواسيه فى ما ينتاب أهل بيته من النوائب فيرثى من فقد له ، كما كان يهنىء بالأعياد والأفراح ، فيقول راثياً المظفر أخا الأفضل :

إذا كان عُقبى ما يسوءُ التَصبُّرُ ... فتعجيلُه عند الرَّزيَّةِ أجْدَرُ
وغايةُ أحزانِ النفوس سلوُّها ... فأولى بها تقديمه وهى تُوْجرُ

وكما هو الحال فى إغداق صفات المديح والمبالغة فيها بالنسبة إلى الأحياء فكذلك كان حاله مع المتوفين ، كأن يقول فى هذه القصيدة :

لقد زعزعتْ شمَّ الجبالِ رزَّيةٌ ... ألَمَّتْ ولكن طودُ حِلْمِكَ أوْقَرُ
وفضلُكَ مثل الشَّمسِ نُورًا ورِفعةً ... وحاشَاه بل أعلى، وأسنَى وأسيرُ

فهكذا لا تفلت منه مناسبة الرثاء بل يقتنص الفرصة للمديح ، فتراه يراوح بين رثاء المتوفى ومديح الأفضل فى القصيدة .

ومعانى مديحه ورثائه وكل قصائدة التى يقدمها ليكسب أو يحصل على المال من عطايا الملوك والرؤساء يغلب عليها المبالغة ، وتردد الصفات المعروفة فى مدائح الشعراء ، ويبدو التكلف والصنعة على اللفظ والأسلوب .

وقصد بالمديح جماعة من أعيان العصر كالوزير البطائحى بعد قتل الأفضل ومن يسمى بالأمير فخر الدولة ، وبعض بنى أسامة وهم من بيوتات العز فى العصر الفاطمى فى دولة المستنصر ومن بعده وكان أبوهم من رجال الأفضل ، يقول فى أحدهم :

لعبتُ بالزمن الماضى فخلَّفنى ... من بعدِه فى زمانٍ ظَلَّ يلعبُ بِى
هذا بذاك ، فطبعُ الدَّهر مختلفٌ ... لابدَّ من راحةٍ فيه ومِن تَعبِ
لكن تعوَّضْتُ بالشَّيخ الأجَلّ أبِى ... محمدٍ خيرَ أوطانٍ وخيرَ أبِ
صرح منيف أُسامِىٌّ له ثمَرٌ ... من جوده تجتنيه الكفُّ من كَثَبِ
إن كان للفضْلِ عينٌ فهُوَ ناظِرُها ... أو نسبةٌ فإليهِ أقرَبُ النَّسبِ
أعطَى الجزيلَ بلا منٍّ ولا عِدَةٍ ... ولا سُؤالٍ فأغنَى النَّاسَ عن طَلَبِ

ومحمد بن أبى أسامة كما ذكر من رجال الأفضل ، وربما كان وسيلته إلى الوزير الخطير ، وربما كانت أيامه التى عانى فيها تلك التى سبقت معرفته بأبى أسامة ، ومن ثم قبل قبوله فى بلاط الأفضل .

وكان شاعراً مهاجراً من وطنه ، مبعداً عن أهله ، تلقى من هذا الرجل اقبالاً عوضه وطنه وأهله .

ومدح بعد مقتل الأفضل الوزير البطائحىَّ (تولى سنة ٥١٥ هـ) وللشاعر فيه أربع قصائد منها قوله :

كم قدْر ما أُخفِى الهوَى وأَصُونُ ... والدَّمعُ يُعربُ والسَّقَامُ يُبِينُ

ونلاحظ عُدولَهُ فى البناءِ الذى اعتاده فى مدائحه للأفضل ، فقد بدأ هنا بالغزل وحديث الحب الذى أعرض عنه أحياناً بمحض إرادته ؟! فقد استطرد فى هذه القصيدة الطويلة نسبياً فى موضوع النسيب وذكر المحبة ، واصطنع فى

ختام المقدمة الغزلية حوارا مع حبيبته أعاد فيها إلى الأذهان نهج القدماء ، وبخاصة ما استجد عند بعض العباسيين أمثال أبى نواس فى مدحته للخصيب أمير مصر ، وعند أبى تمام فى بعض مقدماته . وكذا عند بعض القدماء كحاتم الطائى(١) .

يقول ظافر(٢) :

يارُبَّ لائمةٍ شجاها أننى | سمحٌ بمالِى ، والزَّمانُ ضَنِينُ
قالت : أضعت المال وهل لك عنه ما | تعتاض؟. قلت: الحمد وهو ثمين
قالت غَنيتَ، فقلتُ: حسبُكِ فاعْلمِى | إنَّ البَخيلَ بمالِه المغْبُونُ
قالت: فإن الفقر هونٌ، قلْتُ لم | يهُن الكريمُ، بل اللَّئيمِ يهُونُ
قالت: فإنَّ المالَ نعم معونة ال | إنسان؛ قلتُ لهَا: الإلَهُ مُعِينُ
قالت : فإنَّ الوفر زينٌ، قلتُ : كسـ | ـبُ الحَمْدِ يرفَعُ أهلَهُ ويزِينُ
والمالُ يذهبُ والثَّناءُ مخلَّدٌ | يحْيَى به الإنسانُ وهو دَفِينُ
يا هَـذِهِ ماذَا أفادَ بمُلكِهِ | فِرْعَوْنُ ، أو بثرائِـهِ قارُونُ
قالتْ: فهلْ لكَ ما يُعوِّضُكَ الغِنَى؟ | قلتُ: الأجَلُّ السيِّدُ المأمُونُ(٣)

ثم يمضى فى مديحة المعهود ، والذى تكررت معانيه فى مدائحه ، وإن تغير بعضها بما يناسب مقام الممدوح . فهو هنا يهنئه بالوزارة ، ويشير إلى كفاءته ، وأنه قوة للخلافة :

أصبحتَ سيفًا للخِلافةِ حاليًا | حيثُ ازدَهى بكَ عاتِقٌ وجَبينُ
فافخر فأنتَ وزيرُها، ومُشيرُها | وأمينُها، وظَهيرُها الميْمُونُ

وفى قصيدة أخرى ربما كانت أول ما أنشده يستنجد به ويظهر كثرةَ عياله فيقول :

مـولاىَ قد أوليتَ عبْدكَ نعمةً | فلهُ عليكَ بها ثناءٌ سَرْمَدُ(٤)
والآن قد أضحى حواشى حالـه | هدبا، فلا تُرفى ولا هى تُعْقَد

---

(١) ديوانه ص ٣٢٠ .

(٢) نلاحظ فى بعض حديثه مع صاحبته عن المال وإنفاقه صلة بما قال حاتم الطائى فى قصيدته المشهورة :
أماوى إن المال غاد ورائح .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ .

(٤) يقصد المأمون البطائحى الوزير .

فكأنى بعضُ الملائكة التى لا تَغتذى، وكأنَّ بيتى مسجِدُ
وتكاثُرٌ لبكائهم فى مأتم طولَ الزمان وما لَنا من نُفقدُ
وتَعَـذُّرُ الجارى أضرَّ بحالهم وأضَرَّني وهـو القَليلُ الأنكَدُ

ومن مدائحة لائمة الفاطميين مدحةٌ للآمِر بأحكامِ الله ، يقول[1] :

هَناكَ الفخرُ يا شَهرَ الصِّيامِ بقربِ الآمر المِلِكِ الهُمَامِ
فحسبُكَ منه منزلةً ومجدًا زيارةَ مرَّةٍ فى كُلِّ عامِ

وبكيل له مديحاً عادياً بصفات يكيلها لغيره ممن هم أدنى منه منزلة ، وإن كانوا متملكين لمصائر الخلفاء كالأفضل ، إلا أنه يأتى هنا ببعض المعانى اللائقة بمقام الخليفة الفاطمى على ما تعارفه الإسماعيلية فى خلفائهم من تأييد السماء لهم . وأنهم أوصياء وائمة بتوقيف من السماء . قال :

له جيشٌ سمَاوِىٌّ خفىٌّ كظَاهِرِ جيشِهِ اللُّجُبِ الهُمَامُ
تُقدُّ صوارمُ العلوىّ بدءا إذا الأرضىُّ همَّ بضَربِ هَامِ

كما ينوه بآبائه من آل على رضى الله عنه ، وجده ﷺ ويهنئه بنصر كنصر النبى يوم حنين :

أمير المؤمنين هناكَ نصرٌ قريبٌ جاءَ بالتُّحَفِ الجِسامِ
كنصرِ أبيكَ فى يَوْمىْ حُنينٍ وبدرٍ عندَ مُعترَكِ الحِمَامِ

ويختم قصيدةً أخرى بما اعتادوه من إعتبارهم عليا وصىَّ الرَّسُول ، وأن الوصاية انتقلت منه إلى أبنائه من فاطمة . يقول[2] :

فيا ابن البتول سليل الرّسول أبوك الوصىُّ ، وأنتَ الإمامْ

ويضمن بعض ألفاظ ومعانى سورة النجم وما أكرم الله به نبيه من الإسراء به والمعراج وتقريبه إلى مقام لم ينله نبى قبله . يقول :

أبوك الذى سَارَ فوقَ البُراق وفِى يَدِ جبريلَ مِنهُ زِمامْ
فلما انتهَى سدْرةَ المنْتهى مقاماً له جَلَّ ذاكَ المَقَامْ
دنا قابَ قوسَيْنِ من ربِّه على يقْظةٍ ، لم يَشُبْهَا منَامْ

(١) ديوانه ص ٢٨٩ .
(٢) ديوانه ص ٢٩١ .

فما كذب القلبُ مما رآه فهل حجةٌ فى خِلافٍ تُقَامْ
فضائلُ جاءَ بهنَّ الكتابُ وآياتُهُ المحكماتُ العِظامْ

ويختم القصيدة كما ختم الأخرى بالصلاة والسلام على الخليفة . ويقول :

وصلَّى الإلهُ ، وأهلُ السَّماءِ عليكَ صلاةً يليها سَلامْ

وله مِدحةٌ أُخرى فى الخليفة الإمام الحافظ ، لا يبدأ بالنسيب ولا الغزل ، ولكن بالشكوى هذه المرة من ذهاب الشباب . يقول(١) :

لا غرو أن رحلَ الشَّبابُ وبَانَا ما كانَ أول من صحبت فَحَانا

ويُتبعُ هذه الشكوى من الشيب وتولى الشباب حديثَ الذكريات عن الأيام الخوالى أيام الصبا والصبوة يبدأ بقوله :

كم قد جريتُ مع الصِّبا فى حلْبةٍ ولـزمتُ فيها ذلك الميدَانـا
حتى سبقتُ السابقينَ لِشأْوِها وهويْتُ أوطاراً وحُزتُ رِهَانَا

لقد بلغ الشاعر فى عهد الحافظ مرحلة الكهولة ، ضعف جسده ، وأبيض شعره وسكنت فيه سوْرةُ الحياة ، وبلغ شاطىء النهاية ، وفى هذه المرحلة يحلو للإنسان أن يتذكر ، وأن يعيد إلى مخيلته شريط الذكريات ليحياها من جديد ، مادام لا يستطيع رد ما مضى من الأيام ، ولا أن يعود به القهقرى ، أفلا أقل من أن يعيش ماضيه فى الخيال !

ويخلص من حديث الذكريات إلى ممدوحه الحافظ ليقول :

يا من مضَى فاعتضْتُ عن أيَّامِهِ أوفَى نظام المدح فى مَوْلانَا
الحافظ الدين ، الذى غمر الورى عدلا وعمَّ جميعَهم إحسَانَا
هو رحمةُ اللهِ التى أحيَى بها ال ثقلَيْنِ حتَّى الجودَ والإيمَانَا

ويردد ما يردده أتباع الإمام من مثل قوله :

يا حُجَّةَ اللهِ الَّتِى أبدَتْ لنا بكمالِهـا الآياتِ والبُرهَانَــا
من كان يلتمِسُ الدَّلِيلَ فقد بدَتْ حُجَجٌ ملأْنَ مسَامِعًا وعيَانَا

ويعيد مرة أخرى قصة الإسراء والمعراج التى شرف بها الله نبيه .

والشاعر فى هذه القصائد مضطر أن يسلك هذا الطريق فى مديحه ، ونرى

أنه يقول بطرف اللسان ، ولم يصدر عن عقيدة صحيحة ، أو تصديق لما ينسبه إلى أولئك الأئمة والخلفاء ، لكنه مضطر إليه كما قلت والمضطر يركب الصعب ، والصعب هو هذا الذى يقوله ولا يعتقده .

* * *

الوصف فى شعره :

يتنوع موضوع الوصف فى شعر ظافر ، وتتنوع طرائقه ، فهو إما وصف مباشر لمشهد رآه ، أو تسجيل لبعض ما يمر به ويعبر من الرؤى فى مناسبة ، أو قد يجىء الوصف فى سياق حديث آخر كالغزل والمديح ، والقول فى الخمر والشراب ، أو قد يكون استعادة لذكريات الأيام الخوالى ومشاهده أو نزهاته فى الروضات وشاطىء البحر ، وأماكن النزهة واللهو كالأديرة وغيرها من مظاهر الطبيعة المصرية كالنيل ، أو الآثار والأبنية كالمنار والأهرام .

وتجىء أوصافه للرياض ، وأماكن البحر والرمل والسابحين والسابحات فيه بالإسكندرية ، على رأس أوصافه ، وفى مقدمتها ، بل وأجملها وأعذبها نفسا

وتلحق بهذه أوصاف جزئية للزهر ، والنواعير ، والطير والكئوس والشراب ، والأطعمة ، والرسائل .

ولا نجد لظافر إهتماماً بمجالس الغناء والموسيقى ، فلم ترد فى شعره أوصاف لآلات الطرب ، ولا القينات كما فعل غيره من شعراء عصره أو من سبقوه ممن عرضنا لهم ولا شك أنه شهد مجالس الطرب والغناء فى قصور من يغشى دورهم من الوزراء والأعيان أمثال الأفضل ، وغيره بالفسطاط ، وكانت آنذاك عامرة بهذه الملاهى ، وإن لم يشهدها فى تلك المجالس الخاصة ، فلعله وقف عليها فى الأعياد والمواسم التى كثرت واهتم بها الناس فى مصر الفاطمية ، واتخذوا من الغناء ومن الموسيقى ، والطرب عامة ، مظهراً من مظاهر تعبيرهم عن الفرحة والسعادة بمناسبة تلك الأعياد .

ونبدأ حديث الأوصاف عنده بتلك الصور المشرقة التى رسمها لمنازه الإسكندرية والقاهرة أو الفسطاط ، ومطارح اللهو بهما ، ونبدأ بالبحر وشاطئه بحر الإسكندرية وشاطىء الرمل :

يصف البحر فيقول :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو ... ويزبد حين يقلقه الهباب
وتحسب سفنه صفة ولونا ... فيولا حين يرفعها الهباب

ويقول فى وصف البحر والسابحات الحسناوات :

وآصالنا فى ساحل البحر نعتلى ... به الرمل ما بين الكثيب إلى الوهد
تُغازِلُ من غزلانِه كلُّ سابح ... له مقلةٌ عاداتُها قنصُ الأسْدِ
حكَت بيننا الأمواجُ أثقالِ ردْفِه ... فآونةً تخفَى، وآونةً تُبْدِى
هو الماءُ فوقَ الماءِ: هذا نعافُهُ ... أُجاجاً، وهذا فيه أحْلَى من الشَّهدِ
إذا قابلَ التيارَ هيفُ قُدودِها ... أرْتنا فَعالَ الرّيحِ بالقضُبِ الملْدِ

وصور خليج الإسكندرية والرياض حوله ، والزهور والطيور .

ولظافر فى هذا المجال إبداعات فنية ، وصور بهجة ، لهذه المنازة الجميلة بشاطىء خليج الإسكندرية فى عصره ، تجعل القارىء لشعره يستعيد تلك الصور ، ويحسُّ بما أحس به الشاعر من سعادة وبهجة وسط تلك المجالى :

يا ليتنى أحظى بشم نسيمِهِ ... وبديع منظرِهِ ولثْمِ تُرابِهِ
ويَعلّنى ذاكَ الخَليجُ بشربةٍ ... سيما إذا انتَسجتْ درُوعُ حبَابِهِ
وصفَا ورَاق وعادَ مَدُّ زلاله ... كالسَّيف جُرِّد من خِلال قِرابِهِ
فكأنَّه والرِّيحُ تنقُشُ متنَهُ ... حرزٌ عليه يدقُّ خطُّ كِتابِهِ
كالمبْردِ المنقُوشِ نقشًا خفَّفتْ ... آثارَ موقعه يدا ضُرَّا بِهِ
كضَفيرةِ الخَوَّاصِ أمكنه لها ... سعفٌ ضُفِرْنَ فَرَقَّ ضَفْرُ لبابه
حيثُ الغصُونُ رواقص ويَمامُهَا ... يشدو بطيب الزَّمرِ من دُولابِهِ
نَعَرتْ نواعيرُ المياهِ وأترعَتْ ... تلكَ التّراعُ وفضَّ فيضُ عُبَابه
حتى يُجرِّدَ سيفُه أسيافَها ... بجداولٍ جُدِّلْنَ فى أعشابِه

نلاحظ بعض تشبيهاته التى عرض فيها ملامح من حقله الشعبى كالبَّراد وصانع الخوص،فى هذه المقطوعة التى رسم بها الشاعر صورة للخليج وقد امتد ولمع ماؤه الأبيض ، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع ، وشبهها بالسيوف المصلتة المسلولة ، وهى صور وقع فيها الشاعر فى أسر القوالب

التقليدية لتشبيه الجداول ، ولم يبدع فيها ، بل لم يوفق فى نقل الصور التقليدية غير الموافقة لمشهد المسرة فى الخليج والمروج من حوله .

ويكرر هذه الصورة أو هذا التشبيه للخليج أكثر من مرة فيقول :

وسيفُ خليجِها كالسيَّف حدًّا | وفى أرَجِ الرِّياحِ لهُ اضْطِرابُ

ويرشح حديث السيف الجوشن والدرع والمبرد وكل هذه المصطلحات البيانية فى وصف المياه التى تدرجها الرياح ولا نجد مبرراً واضحاً لهذا القالب التشبيهى عند شعراء العرب فى جملتهم .

إلا أنه على الرغم من هذا المصطلح والقوالب التخييلية المتداولة لا نعدم تشكيلا مبدعا لعناصر الطبيعة فى صور الشاعر للخليج الإسكندرى ومروجه فهو يدخل أصوات الحمام ، والضفادع ، وزمر الدولاب ، ورقص الغصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحة والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجواشن وما إليها التى تثير خيال الحرب المفزع المخيف وسط هذا الجو الملىء بالمتعة والنعيم ، ولعله تنبه إلى أن هذا الوصف الإصطلاحى يفعل ذلك دون إرادة منه ، إنما هو كما قلت قد وقع فيه أسر التراث التعبيرى فى الشعر ، يقول :

وتكسوهُ الرِّياح دُروعَ حربٍ | ولا طَعْنٌ هُناكَ ولا ضِرابُ

ولولا هذه العناصر المقحمة لتم للصورة الشعرية تماسكها وتناسقها . يقول :

وترقصُ فى جَوانبِهِ غُصونٌ | كرقصِ الغِيد مَادَبِها الشَّرابُ
وتشدُو بينها الأطيارُ شدْواً | رضِيًّا للقلوبِ به انجِذَابُ

وفى صور الإسكندرية الرَّمل ، وقصورُ الرمل وكرومُه وزهورُه البريَّة كالشقائق الحمراء ، والأقحوان الأبيض ، يقول :

وكم يوم لنا بالرَّملِ فيـه | حديثٌ مثل ما نثر السحاب
حديث كاسْمِهِ فينا حديثٌ | كما يَسقِى أخَاظمِا ثغابُ(١)
جلسنا والرِّمالَ لنَا حشَايا | وأوراقُ الكرُوم لنا حجَابُ

(١) الثغاب ما بقى من الماء فى بطن الوادى .

على الكثبانِ أكثبةٌ سِمَانٌ   وفى الأغصانِ أغصانٌ رِطَابُ
به القصرانِ كالرُّجُلَينِ لاحَا   علَى بعدٍ يُقِلُّهُما السَّرَابُ
أقامَا صاحِبَين مع اللَّيالِى   ولم ينعبْ ببينِهما الغُرَابُ

ويذكر قصرىْ فارس والمعَلّى ، وكانا من القصور الأثرية الشاخصةِ فى أيامه على ما يبدو :

وأذكرُ قصرَ فارسَ والمعَلّى   ففيهِ لكلِّ موعظةٍ مَنَابُ
وهْى من بعدِ قُوَّتِهِ فأضْحَى   كما بركتْ على الغبراءِ نَابُ
وأفنتْ ملكَ ساكنِه اللَّيالى   وكم فاضَتْ بعسكرِهِ الشِّعَابُ
فأصبحَ دِمنةً تغدُو السَّوافِى   عليهِ وقصرُهُ قفرٌ يبَابُ
تنوحُ الهاتِفاتُ على ذُراهُ   وتُعشِبُ فى أسَافِلِهِ الرِّحابُ
ففى تلك الشقَّائِق منهُ شاقَتْ   شقَائق شُقِّقَتْ منها الثِّيابُ
ترامتْ من كمَائِمِهِ فكانتْ   كحُمرِ اللَّاذِ أيدَتْهَا العِيابُ
تحرِّكُها الصَّبا فتُخالُ فيها   بحارَ دمٍ يُموِّجُهَا انصِبَابُ
كأنَّ الحمرةَ الحمراءَ راقتْ   وأوراق الشقيقِ لها قعَابُ
وتحسب فحمةً فى كلِّ ساقٍ   أحاطَ سوى اليَسير بهَا التِهابُ
كأنَّ الأقحوانَ به ثغُورٌ   مفلجَّـــةٌ مؤشَّرةٌ عِذَابُ
وقد بهرتْ دنانيرٌ دعَوْهَا   بهَاراً كنْزُها ذاكَ الحَبابُ

فنراها هنا يلجأ إلى تصوير الزهور التشبيهات المعتادة والصيغ المتوارثة فى الشعر العربى ، وبخاصة تشبيه المعتاد عند القدامى فى بادية العرب من الزهور البرية كالشقائق والأقحوانِ غير أنه تلْفِتُنا فى أول الأبيات صورة غريبة إذ يشبه القصر بناقة عجوز باركة .

وإذا ما انتقلنا من مشاهد الطبيعة بالإسكندرية وموجها وبحرها ورملها وخليجها وبساتينها إلى القاهرة والفسطاط فأكثر ما حدثنا عنه النيل ، وقد جاء ذكره فى مدائحه للخلفاء والوزراء بمناسبة فيضه ومواسم الأعياد وما إلى ذلك .

إلا أنه يخص بركة الحبش التى كانت تستمد ماءها من النيل شرقىَّ جزيرة الروضة قرب الفسطاط بوصفه فيقول :

تأملتُ بحرَ النِّيلِ طولاً وخلْقَهُ من البِركةِ الغنّاءِ شكلٌ مُدوَّرُ
فكانَ وقدْ لاحتْ بشطَّيهِ خضرةٌ وكانتْ وفيها الماءُ باقٍ مُوفَّرُ
عمامةَ شربٍ فى حواشٍ بخُضْرةٍ أُضيفَ إليها طيلسانٌ مُقوَّرُ

صورة غريبة قصد فيها إلى التشبيه المستمد من بيئة أصحاب العمائم الخضر والطيلسان من أعيان القاهرة . ويصف الأهرام على الشاطئ الغربى للنيل أمام الفسطاط وبالجيزة الفيحاء كما كان يسميها الشعراء . يقول :

تأمّلْ هيأةَ الهرمَيْنِ وانْظُرْ وبينَهُما أبو الهَوْلِ العجيبُ
كعمّارِيَّتيـنِ على رحيـلٍ بمحبُوبيْـنِ بينَهُمـا رَقيبُ
وماءُ النيلِ تحتهُما دمُوعٌ وصوتُ الرِّيحِ عندَهُما نَحِيبُ
وظاهرُ سجنِ يُوسُفَ مثلُ صَبٍّ تخلَّف فهو محزونٌ كئِيبُ

ويبدو أن سجن يوسف هذا ــ على عرف القدماء من العرب ــ هو معبد الوادى بجوار أبى الهول والصورة هنا غريبة نبعت من خيال بدوى ، وهى صورة رسمتها ذاكرة الشاعر من حصيلة ما حفظ من الشعر لا ما عاين من الواقع ، مع قدر غير قليل من المبالغة .

وله فى دير القصير ، ما يبارى فيه شعراء الخمريات الذين جعلوا هذا الموضوع من عناصر قصائد الخمر ، وأكثر فيه وأبدع شاعر الخمر الأول فى العصر العباسى أبو نواس وأبياته فى دير حنا وغيره من أديرة الحيرة متداولة مشهورة .

كذلك لظافر ديرية فى دير القصير يحاكى فيها أبا نواس .

وله غير حديث الوصف للمنازة ، وأماكن اللهو والمرح ، ومسارح المتعة حديث عن الربيع كقوله(١) :

جاء الربيعُ أخو حياةِ الأنفُسِ ومجمِّلُ الدُّنْيا بأفْخرِ ملبَسِ
فاغنمْ بنا مُلحَ الزمّانِ مبادِرا وتمَلَّ منها حظَّ من لَمْ يُنْحَسِ
واستقبلِ الأرجَ المعطَّرَ كُلَّما مرَّتْ عليهِ الرِّيحُ كالمتنفِّسِ
فكأنَّما زهْرُ النَّباتِ قَلائـدٌ نُثِرتْ على صفَحـاتِ بُسْطِ السُّنْدُسِ

(١) ديوانه ص ٣٣٩ .   (٢) ديوانه ١٦٥ .

والوردُ يخجلُ حينَ قبَّل خدَّهُ ثغرُ الأقاحِي من عيُونِ النّرجسِ
فكأنَّه غيرانُ أدهشَهُ الهوَى وأمَالَ منه الفكرُ جيدَ مُنكّسِ
وكأنما الأغصانُ تطربُ كلّما ألقت إليها الريحُ سرَّ مُوسْوسِ
وكأن هتفَ الورْقِ فى أغصانها لفظٌ يفيدك من فصيحٍ أخْرَسِ
والماءُ قد عبثتْ به أيدى الصبَا فحكَى غُضُوناً فى جَبِينٍ مُعبِّسِ
وكأنّما حُبكُ الرياحِ على النَّقا أثرُ الحزازِ على سَنامِ الأعْيَسِ
والطيرُ تسرحُ فى الرياضِ غواديًا للرّزقِ بينَ مبكّرٍ ومُغلّسِ
والوحشُ بين سوَانحٍ وبوارحٍ وروائعٍ بينَ الرِّياضِ وكُنّسِ
تردُ الغَدِيرَ وُرُودَ من لا يشْتَفِى وتنالُ من طَرفيْه مالمْ تغرِسِ
والشمسُ تجلى فى مطالعِ شرْقها فى حُلّتيْنِ مُعصفرٍ ومُوَرّسِ

صور جديدة متتابعة من خيال يختلط فيه صور تراث العربية فى بيدائها ، ومشاهد الحضارة بمصر والإسكندرية .

وفيه يقول(١) :

هذا الربيعُ أتى بأحسنِ منظرٍ يختالُ بين مُدَبَّجٍ ومعصفرِ
فانهض إلى داعى السرور وخلّنى مما يُقال عذرتَ أم لم تعذُرِ
واسرق بنا خلس الزمانِ مبادرا والدهرُ فى غفلاتِه لم يشْعُرِ
والروضُ يقلقه الصبَا فيثيرُ من أرجائهِ نفحاتِ مسكٍ أذْفَرِ
وكأنّ مُصفرَّ الأصيلِ خِلالَهُ ورسٌ يذرُّ على بِسَاطٍ أخضَرِ
والشمسُ قدحوَت المغاربُ شطرَها فرنتْ بعينِ الذَّاهِبِ المتحَسِّرِ
والجوُّ من شفَقِ الغُروبِ مُفرْوَزٌ كحديقةٍ حُفَّتْ بوردٍ أحْمَرِ
وبدا الهلالُ لليلتينِ كأنَّهُ فترٌ حوَى تفاحةً من عَنْبرِ
والماءُ يُبدى للنَّسيمِ تملُّقاً فيسيرُ بين تَدرُّجٍ وتكسُّرِ
والطيرُ يُطرِبُ شجوُها أغصانَها فتظلُّ بينَ تمَايُلٍ وتَبخْتُرِ
والليلُ يختلسُ النهارَ كعصبةٍ من آلِ حامٍ خلف آلِ الأصْفرِ

ونلاحظ بعض أوجه الشبه بين رؤى الشاعر فى القصيدتين مع أن الأولى يصف مشهداً فى الصباح والثانية وقت الأصيل قرب الغروب ، وتتشابهان

(١) ديوانه ١٣١ .

كذلك فى امتزاج صور الموروث الشعرى بالجديد من حقل تجاربه ومشاهداته .

أوصاف أخرى

وهناك أوصافه لأشياء منوعة كالحمَّاماتِ والأطعمة ، وكقوله فى فقاع[1] :

وافى بفقَّاعٍ أرِجْ يُحيى بنكهتِهِ المهَجْ
شيخٌ مضَتْ من عمرِهِ فى ذلك المعْنى حِجَجْ
مزجَتْ يَداهُ الطِّيبَ فيـــــــه، فكانَ أظْرَفَ من مزَجْ
وحشَا قُلوبَ سذَابِهِ منهُ بكلِّ فم حرِجْ
فكأنَّـــه يحشُو بِهِ قِطعَ الزُّمرُّدِ فى السَّبَجْ

ومن السوق يصور ظافر أصحاب الصَّنائِع فيقول فى حلاَّق :

لا أسعد الله مسعوداً فصنعتُه كوجهه كلُّ متج منه مختصرُ
لا يحلق الرأس إلا مرةً وبها تغنيه عن عودةٍ ما مدَّه العمرُ
لأن ألطف لمسٍ من أنامِله سلخٌ، وهل بعد سلخ ينبت الشعرُ
فلو نَوى خلقَ شعرٍ فى ضمائِره بفطنةٍ كادمته المخُّ ينتشرُ

وقال فى صانع كنافة :

وحَاذِقٍ محكِم كنافَتَـــه لا تشبعُ العينُ منه بالنَّظرِ
كأنما بسطِهُ العُجين على أكراه لما حفَت بمستِعرِ
ينسج غيثماً من السحاب على وامض برقٍ يَكتنُّ بالمطرِ
كأنه يفتح الفواقع ذاراتٍ على راكدٍ من الغُــدرِ

وقد ألم بتشبيه ابن الرومى فى صانع رقاق .

وله فى الشكوى ، وأحوالِ الحياةِ والناس قصائدُ يقف فيها متأملاً ناصحاً وكأنه فى أخريات حياته يستعرض ما مر به من أحداث تتقلب به بين المرارة والحلاوة وتخوضُ به أيامُها فى سهلٍ وصعب . يقول :

خانَ الشَّبابُ وما وفَّى بما وعدَا فلا تثق بحبيب بعدَهُ أبَدَا

(١) الفقاع شراب يتخذ من الشعير ، وسمى كذلك لما يعلوه من الزبد والفقاقيع ويبدو أنه قريب مما كان يعرف فى أوساطنا الشعبية بشراب « السوبيا » .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

قد كُنتُ أعقدُ عزمى فى أوامِرِهِ فما أُبالى أغيًّا خُضْتُ أم رَشَدَا
حتّى رأى من جُنودِ الشَّيبِ بادِرَةً ولّى وخلَّفَنى فى إثرها وعَدَا
فكلّما رُمتُ نصراً منه يَخذِلُنِى وكلّما رُمتُ تقريباً له بعُدَا
فظِلتُ أعتِبُ نفسى فى محبَّتِهِ لما رأتْ كلَّ شىءٍ بعدَهُ نكِدَا

ويقول ناصحاً :

لا تفرحنَّ برتبةٍ أعطا كَـــــــها فى النّاس جِدّكْ
وانظرْ مكانكَ فى الفضا ئِلِ بالحقيقةِ فهوَ حَدُّكْ
أنتَ الفقيرُ مع الغِنى إنْ لم تجدْ عقلاً يمُدُّكْ
هبْكَ اقتدرْتَ على الظّوا هِر، هل قُلوبُ النّاسِ جُنْدُكْ
لا يغررنْكَ من يَهــا بُ، ولا يُروقْكَ من يَودُّكْ
فمن البَلِيّـــةِ أنْ تُزرْ فلا يُجيبُكَ من يردُّكْ
فإذا بُلــيت بفقـــدِهِ فخيارُ ما استعجَلت فقْدُكْ

وقال فى شكوى الدنيا :

أفٍّ لها دُنيا فلا تستَقِرْ وعيشُها بالطَّبع مُرٌّ كدِرْ
جميلةُ المنظـــرِ لكنّهــا أقبحُ شىءٍ عند من يختَبِرْ
قد دخلَ العالَمُ فى سجنِها فكلُّ جِنسٍ تحتَ بؤسٍ وضُرّ
فقيرُها يطلُبُ نيلَ الغِنَى وذُو الغِنَى يجمَعُ كَىْ يدّخِرْ
فذاكَ للإملاقِ فى حسْرةٍ وذاكَ خوفَ الفَقرِ عبدُ الحَذَرْ
والزّاهِدُ العَابِدُ فى كلفَةٍ من شَعثِ الصَّومِ وطُولِ السَّهَرْ
وخوفِ ما يَلقَاهُ من ربّهِ فى آخرِ الأمْرِ إذَا ما حُشِرْ
وهمُّه فى القوتِ من حِلّه صعبٌ شديدٌ مُستحِيلٌ عَسِرْ
والفاسِقُ المُذْنِبُ فى وصْمَةٍ مُسَفَّهُ الرَّأيِ قبيحُ الأثَرْ
ليسَ بمأمونٍ ولا آمـنٍ مذمَّمٌ فى قَومِه مُحْتَقَرْ

وهكذا يمضى فى القصيدةِ مُستعرضاً أحوال الدنيا وما فيها من العجائب والمتناقضات والمسرات والمنغصات .

ولظافر فى ديوانه رسائل شعرية إلى أصدقائه من الشعراء والأدباء وغيرهم ، منه رسالته إلى أمية بن أبى الصلت الشاعر القيروانى الوافد إلى مصر .

يقول فيها : (وكتب بها إليه بعد مغادرته مصر إلى القيروان)[1] :

ألا هل لدائی من فراقك إفراقُ ... هو السُّمُّ ، لكن فی لقائك دِرياقُ
فيا شمسَ فضلٍ غرَّبتْ ولضوئها ... على كُلِّ قُطْرٍ بالمشارقِ إشرَاقُ
سقى العهد عهداً منك عمر عهدُهُ ... بقلبی ، عهدٌ لا يَضيعُ وميثاقُ
يُجدّدُه ذكرٌ يطيبُ كما شَدَتْ ... وريقاءُ كَنَّتْهَا من الأَيْك أوراقُ
لك الخلقُ الجزْلُ الرَّفيعُ طِرازُه ... وأكثرُ أخلاقِ الخليقةِ أَخلاقُ
لقد صاولتْنی ياأبا الصَّلْتِ مُذْ نأَتْ ... ديارُكَ عن داری همُومٌ وأشْوَاقُ
إذا عزَّنی إطفاؤُها بمدَامِعِی ... جرَتْ ولها ما بيْنَ جفنَیَّ إحرَاقُ
سحَائبُ يحلُوها زفيرٌ يجُرُّه ... خِلالَ التَّراقی والتَّرائبِ إشهَاقُ
وقد كانَ لی كنزٌ من الصَّبرِ واقِعٌ ... فلی منه فی صَعْبِ النَّوائِب إنْفَاقُ
وسيفٌ إذا جرَّدتُ بعضَ غِرارِهِ ... لجيشِ خُطوبٍ صدَّها منهُ إرهاقُ
إلى أنْ أبانَ البينُ أنَّ غِرَارَهُ ... غرورٌ، وأن الكنزَ فقرٌ وإملاقُ
أخی سيِّدی مولایَ دعوةَ من صفَا ... وليسَ لهُ من رِقِّ ودِّكَ إعتاقُ
لئِن بعُدتْ ما بيننا شُقَّةُ النَّوى ... ومُطَّرِدٌ طامِی الغَوارِبِ خَفَّاقُ
وبِيدٌ إذا كُلِّفتُها العيسَ قَصَّرتْ ... طلائعُ أنضاها ذميلٌ وإعنَاقُ
فعندِی لكَ الوُدُّ المُلازِمُ مثلما ... تُلازمُ أعناقَ الحَمائمِ أطوَاقُ
ألا هلْ لأيَّامِی بكَ الغُرِّ عودةٌ ... كعهدِی وثَغْرُ الثَّغْرِ أشنَبُ برَّاقُ
ليالیَ يُدْنينَا جوَارٌ أعادَنا ... من القُربِ كالصِّنْوينِ ضمَّهُما سَاقُ
وما بيننا من حُسنِ لفظِك روضةٌ ... بها حسدَتْ منا المسَامِعَ أحْدَاقُ
حديثٌ حديثٌ كلَّما طالَ موجزٌ ... مفيدٌ إلى قلب المحدَّثِ سبَّاقُ
يُزجِّيهِ بحرٌ من علومِكَ زاخِرٌ ... لَهُ كلُّ بحرٍ فائِضُ اللُّجِّ رقراقُ
مَعانٍ كأطوادِ الشَّوامخِ جزْلةٌ ... تضمَّنها عذبٌ من اللَّفظِ غيداقُ
به حِكَمٌ مستنبطاتٌ غرائبٌ ... لأبكارِها الغُرِّ الفَلاسِفِ عُشَّاقُ
فلو عاشَ رِسطَاليسُ كان لهُ بها ... غرامٌ، وقلبٌ دائمُ الفِكرِ توَّاقُ
فيا واحِدَ الفَضْلِ الَّذی العِلْمُ قُوتُهُ ... وأهلُهُ لهُ مشتاقُونَ شُمٌّ وذُوَّاقُ
لئِنْ قصَّرتْ كتْبِی فلا غَرْو أنَّه ... لعائِقِ عذْرٍ ، والمقاديرُ أوهَاقُ
كتبتُ وآفاتُ البحار تردُّها ... فإن لم يكنْ ردٌّ إلىَّ فإغرَاقُ

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

بحارٌ بأحْكامِ الرِّياح فإنَّها مفاتِيحُ في أبوابِهِنَّ وأغلاقُ
ومن لى بأنْ أحظَى إليكَ بنظرةٍ فيسْكُنَ مِقلاقُ ، ويرقأَ مُهرَاقُ

وهى قصيدة تنبض بما كان بين الشاعرين من ود وميثاق .

ولظافر فى ديوانه موشحات ، لعله عالجها فى محاولات أولى ليجرب هذا اللون الوافد من النظم وربما تعرف عليه من ابن أبى الصلت الوافد من بلاد الأندلس ، أو غيره ممن التقى بهم بالإسكندرية والفسطاط والقاهرة وكانوا كثرا فى أيامه ومن قبله .

فمن موشحة قوله(١) :

ثغر لاح يستأثر الأرواح لما فاح ما الخمر ؟ ما التفاح
أَلجـــانى ذا التائـه الجـــانى
أنســانى نظــرة إنســـانى
أفنـــانى طيــر بأفنـــانى
أحيـانى فى بعض أحيـانى
لما صاح ما خلته ياصاحْ للأرواح ذا نشوةٍ من راحْ
قلبى مال فيـه إلى الآمـــال
مالى حال يا قوم لما حـــال
لولا الخال ما كنت إلا خـال
لما غــال قلبى فصبرى غال
ذا المزَّاح عاتبته مازاح والإصلاح أن أترك الإصلاح
أعلى لــــى موتى بأعــلالى
أوصـــالى نيـران أوصـالى
بـل بالـــى أولــى يبلبالــى
ياحـــالى أنظر إلى حــالى
قد ساح من مقلتى سحاح ذو إفصاح بالسر، بالإفصاح
بدر بــان فى مثل خوط البان
وجه زان قــدا كعــود زان
فالإخوان فى اللوم لى خوان
والعينــان لما جفـا عينـــان

جسم راح　　يدميه لمس الراح　　لما لاح　لم أحتفل باللاح

يا فتاك　　بالقتل من أفتاك
ما أسراك　　ليلا إلى أسراك
ما أحلاك　　سبحان من أحلاك
ما أسناك　　وجها، وما أسناك

كالمصباح　نورا، بل الإصباح　كم ارتاح　للقرب لو ترتاح

ونلاحظ على هذا الموشح أنه مركب القفل ، ولم يلتزم الخرجة فى آخره ونظامها على عادة أكثر الوشاحين الأندلسين ومن سار على نهجهم ، وهو غير معرب فى معظمه ، أو لا يلتزم الإعراب ، يعمد فيه إلى صنعة الجناس فى القفل والغصن ، ويربط فى الغصن بين جناس أول البيت وقافيته ... فهو يمزج فنى التوشيع والجناس وإن جعل صدر الغصن أقصر من عجزه .

وله موشحة أخرى تجارى فيها صنعتُه هنا .

وسار على المنوال يقول . فيها[1] :

يالاح فى سمر　كالسمر　مهلا فإن صبرى　كالصبر

لم تغمض مذ جفانى　أجفانى
وصار دمعى شانى　فى شانى
والحب مذ بلانى　أبلانى

فالقفل متعدد البناء ويجرى على نفس النهج فى قفل الموشح الأول مع إختلاف القافية بالطبع لكن الأوزان والتفعيلات واحدة ، والتغير فى الغصن إذ يبدأ على عكس الموشح السابق بالمقطع الأطول فيجعله صدر البيت ويجعل المقطع الصغير من كلمة واحدة مجانسة لآخر كلمة فى المقطع الأول وهكذا فى بقية الأغصان مع تغير القواف ... ويزيد فى هذا الموشح أنه يأتى بخرجة محكمة على تقليد الوشاحين فى التمهيد للخرجة فى آخر قفل .

يقول فى الغصن الأخير بهذا الموشّح :

أنظر لسوء حالى　ياحالى
مَلكْتَنى بِخالِ　ياخالِى
ها فاسمع مقالى　ياقالى

دق عليك　كالشعر　موشح　بزهر　كالزهر

فجاء بالخرجة القفل الأخير ، ومهد لها فى البيت الأخير من الغصن بقوله « ها فاسمع مقالى ياقالى » .

وبعد فإن نظم ظافر فى القصيد هو عماد فنه الأول ، وإن حاول الموشح وكان له من النثر فى الرسائل والمقامة محاولات كذلك على ما سنورده بعد قليل .

وكما رأينا فإن شعره جيد بصورة عامة ، ترتفع شاعريته فى الحنين والغربة وتذكر وطنه الإسكندرية ووصف مجاليها ، وأيام صباه ، وصبوته ، وأماكن طرحه ولهوه على الخليج وفوق رمال الشاطىء ، وقرب السوارى ، والظاهرية وما إلى ذلك مما كرر ذكره من معالم الثغر .

وبناء القصيدة عنده متغير ، فهو يعمد أحياناً فى مديحة إلى البناء التقليدى حيث يبدأ بالغزل ويتبعه الرحلة فى أفراد من القصائد ، ثم يجىء بالمديح ، لكنه أحياناً يبدأ مديحهُ للخلفاء والوزراء والأعيان من الأمراء والولاة والقادة بالموضوع مباشرة عن طريق الاشادة بالممدوح كأن يقول فى الأمير القائد أبى عبد الله محمد بن أبى شجاع فاتك :

رجاؤك فى نيل السعادة باب　　　وما دون مَنْ يبغى نداك حجاب

ولغته الشعرية ومصطلحة التعبيرى ، وقوالبه التركيبية كلها من تراث الشعر القديم ، ونحس فى شعره بمحفوظه الواسع من هذا الشعر . يستوحيه معانيه فى كل موضوع ، فتراه فى المديح يرتاد أبا تمام والبحترى والمتنبى ، وفى الوصف أبا نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومى ، ويعتمد كثيراً على أبى نواس كلما طرق موضوع الخمر والشراب ، أو تحدث عن الدير ، وما يلقاه فيه ، ومن يَحلّ به من الرهبان والشماميس . أنظر إلى قوله(1) :

قم نَصْطبحْ عندَ نقراتِ النَّواقيسِ　　　واشربْ على حُسْنِ ألحَانِ الشَّمَامِيسِ

ويولع بالجناس أحياناً ، ويسوقه فى تراكيب مُتقِابلة ، أو مترادفة كصنعة حبيب كقوله :

فديرُ شهوانَ مشْهورُ الجَمالِ على　　　ما فِيهِ من عِظَمِ تقْدِيسٍ وتَنْكِيسِ

(1) ديوانه ص ٣٣٨ .

وكقوله يقلّد إسراف أبى تمام والمتنبى أحيانا :

سقَى العهدُ عهدًا منك عمّر عهدُه ... بقلبىّ، عهدٌ لا يضيعُ وميثاقُ

ويشبه ما جارى فيه المتنبى حبيبا فى هذا البناء المتجانس المعيب فى قوله :

وقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عَيْشٍ كلهن قلاقـل

ويُردّدُ فى بعض ألفاظه من ألفاظ القرآن والحديث ، لكنه غير مكثر ، كما يُردد بعض ألفاظ الحضارة ، وأسماء الفلاسفة كأرسطاليس .

وتراه يعمد إلى التشبيه ، فيحلوله فى الوصف استخدامه ، فى صور متتابعة كما يلجأ إلى الإستعارة والكناية ، كقوله :

أأيامنا بالثغر هل لك عودةٌ ... إلى حافظٍ للعهدِ لم يتغيَّر
وهل أتملى من نسيمك سحرةً ... يصافح مطلول البنات المنوّرِ
وأرفلُ فى ثوْبىْ صبًا وصبَابةٍ ... وأسْحبُ ذيْلى مشيةَ المتبَختِرِ
ودمعُ النّدى فى وجْنةِ الورْدِ حَائرٌ ... كجُمَانِ عَقِيقٍ تحت دُرٍّ مُنثَّرِ
ونورُ الأقاحِ الغضُّ يحْكِى إذَا بدَا ... تَبسُّمَ خوْدٍ عنْ شَتِيتٍ مُؤشَّرِ
كأنَّ بياضَ الماءِ فى كُلِّ جَدْولٍ ... إذالاحَ فى غصنٍ من الــرَّوض أخْضَرِ
غُلالةُ شَربٍ ضَمَّها فوقَ لابِسٍ ... رشيقٍ قباءٌ أخضرُ لم يُزَرَّرِ

* * *

كأنَّ غصونَ المائِساتِ رواقصٌ ... تثنَّتْ على إيقاعِ دُفٍّ ومِزْهَرِ

وخيالاته مستمدة من جوه العام ، ومن بيئته التى طَوَّف فى جنباتها بالإسكندرية والقاهرة ، وتراه يشبه كثيراً بأشياء من مكتسبات حضارة عصره ، وآنية القصور وأدواتها . وللبحر فى صوره وخيالاته نصيب ، كذلك للنيل ، والنار والفحم ، وكلها فى الجديد من صوره فضلاً عما أعاد عرضه من الصور التقليدية .

نثر ظافر الحداد

ولظافر نثر جميل اللفظ والعبارة ، حسن المعانى ، شبيه بشعره. كتب إلى صديق له يقول من رسالة[1] .

« وصلت رقعته — أدام الله رفعته — مضمنة من خطه ولفظه ما كان به قبل اليوم كالُ الأنس ، وقوامُ النفس ، مذكرةً ودادا قد درَس ، وحظاً فيه قد تعس لا لقلةِ وفاء منى ، ولا لجفاءٍ صدَر عنّى ، لكن أَخْلقتْهُ أخلاقُه القبيحةُ ، وأعدَمهُ عدمُ مودّتِه الصَّحِيحة . وفى ذلك أقولُ متمثلاً :

لا تشكونْ إلىَّ وجْدًا بعدما   هذا الَّذِى جرُتْ عليكَ يدَاكا

وأظنه لما أنهج قشيبه ، وصَوَّح رطيبُه ، أخذَ يُلاطفنى بزخَارِيف مُكاتَبتِهِ ، وأما حيل مداهنته لكى يعودَ ما مضَى ، أو يرجع ما قد انقضى ، وهيهاتَ هيهات أن يعودَ ما فات ، فبحقِّ الإسلامِ تأمن ترك السلام . والسلام » .

وله مقامةٌ يقول فيها[2] « أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كل بنانى وجنانى ، ولسانى وإنسانى من الدأب فى الطلب ، والإكباب على الكتاب ، ومتابعةِ المراجعة فى النَّسخِ والمطالعةِ ، بين معنى أُحكِمُه أو لفظٍ أُنظِمُه ، أو خط أرقُمه ، فتاقتْ النفسُ إلى الإحماض بمفاكهةِ أديبٍ والارتياضِ بمذاكرةِ لبيب .

وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع ، فقلتُ له : ما الشأنُ ؟ فقال : جماعةٌ من الإخوان ؛ منهم فلانٌ وفلانٌ . فذكر لى كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، وشقيق شفيق ، وقد اختلفتْ بينهُم المواردُ ، واتفقتْ منهم المقاصِد ، فكانُوا كسِهامِ النَّبع إذا سدّدها النزعُ ، فوافَت البُرجاسَ ، ولم تخُطِ القرطاسَ . فقلتُ : ويحك !. عجِّل بفتح البَاب ، وأذنْ للأحْباب ، فهمْ نُزهة النفس وثمرةُ الأُنس .

ثم استنهضنى السرور إلى تلقيهم بالبشر والحبور ، وقلت لهم : ما نظم لى هذا العقد إلا الجد ولا تمم لى هذه الإرادة إلا السعادة . ثم أنشدتهم من ساعتى :

(١) ديوانه ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ٢٤٩ .

يا سادةً قد كمُلُوا — خُلْقا وخَلْقاً وشَرَفْ
أظنُّ دهْرِى نادِمًا — على الذى كانَ اقتَرَفْ
رأىَّ عظيمٌ ذنبُه — عِندِى فتابَ واعتَرَفْ
وقد حَبانِى بكُم — كفارةً لما سَلَفْ
ولو دَرى مِقدارَ ما — أهْدِيتُ من هذه التُّحَفْ
لانتقضَتْ قوَّتُـــه — وماتَ غيْظًا وأسَفْ

ثم رقمنا برود المحاضرة ، بالحكايات المختصرة ، ونظمنا عقود المذاكرة بمعانى الأبيات المبتكرة ، كما قيل :

حديثٌ إذا تمَّ استُعِيد كأنَّه — لذاذةُ عَذْبِ الماءِ فى فم صَائِمِ

فما هو إلا أن استقت الآذان مُجاجات جريالِه ، وترشَّفتْ الأذهانُ مُجاجات سلساله إذا الغلام يُومِى إلىَّ بخفيف الغمزِ ، ويُنجِى إلىَّ بخفِىِّ الرَّمز ، فخرجْتُ من بينهم خُروجَ الحُوتِ من البحر فى الشَّبك ، والظَّبى من الرِّياضِ فى الشَّرك . فقلتُ له : ويلَكَ ! مالَكَ ؟ وما غيرٌ حالَكَ ؟ دع ناظِرى يرتَعُ فى هذِى الرِّياض ، وخاطرى يكرَعُ من هذِى الحِياض فاستدْنانى إلى الدِّهليز ، وأسرَّ إلىَّ بلفظٍ وجيزٍ ، وقالَ : يا مولاىَ ، ما عندنا اليومَ للإنفاق إلا الإملاق ، وما نُضِيف به الناسَ إلا الإفلاس ، فدبِّر عما يُقترضُ ، أو يُباع من العَرَض ، إلا إنْ عوَّلْتم على الصِّيام ، فلا كلام

فبينما نحنُ نتجاذَبُ فى الوسيلة ، ونتعامل فى إعمالِ الحِيلة ، وإذا بالبابِ قد قُرِعَ فقلْتُ له : أجِبْ ، لعلَّه ضيفٌ مُنتابٌ بعينِ الأصحَاب على أكْلِ ذلكَ .

الطعام البائر ، والمأكولُ الحاضر . فخرَج وجلا ثم جاءَ باسما جَذِلا ، وقال : يا ملاى ! رسولُ صاحِبنا الشِّواء الذى خَلَّصْناهُ بالأمس من تِلكَ الورْطة ، وانقذناه من تلك الضَّغطة ، واستخرجناهُ من حبسِ الشُّرطة ، ومعه سطلٌ به جُوذابةٌ[1] يجذبُ الأنفَ أرجُها ، ويعجب النفس بَهجُها ، عِطْرِيَّةُ الأنفاسِ ، هشَّةٌ بين الضِّراس ، تتبرَّجُ من حُسنِها ، وتترَجْرجُ فى دُهْنِها ، تحفُّها عِدَّةٌ من الرُّغفان ، زاهراتُ الألوان ، صافية تفورُ ، ببخارِ التنُّور ، كأنَّها أوجهُ الخرائِد البِيض ، إذا أخجَلَها التَّقبيلُ والتَّعضيض » .

(١) الجوذابة طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .

قلت : وَيحك يالكع ! ما أقبحَ ما صنع ، وأفضح ما بكع[1] ، أُفٍّ لهَذا الخُلق ! ، أنبيع جاهَنا بيع الخلق ؟ أرْدُدْ على هذا السَّفساف مَتاعَه ، ونزِّهنا عن هذه الشَّناعة .

فقال : يا مولاى ! ، أمَّا ما ذهبتَ إليه ، وعوَّلتَ عليه فهو الذى تقتضيه المُروءَة ، وترتَضيه الفُتوَّة وتعتقدهُ الهِممُ الشَّريفة ، وتنقِدُهُ الشِّيمُ الظريفَةُ ، لكن إفلاتَ ما نحصِّل ، وفواتَ ما توصَّل مع ما نحنُ فيه من حُضورِ الضِّيفان ، وقُصُورِ الإمكان ، وفَوات هذه الفُرصة أعظم غُصَّة . بل من الرَّأيِ الصَّواب ، أن تُجمِلَ للرِّجُلِ الخِطاب ، وتأْخُذَ ما حضَر ، وتقْبلَ ما تيسَّر . فإذا أيسرنا وفَينا فكافأْناه ، فنكونَ قد بلغنا أغراضَنا ، وطَهَّرنا أعْراضَنَا . ونبرأ من وصمَةِ ما أبدى بأضعاف ما أهْدَى :

فقلتُ : يا فُريد ، فى الأمثال السائرةِ عن أبى عُبيد : تجوعُ الحرةُ ولا تأْكُلُ بثديها . قال : يا مولاى ! الضرورةُ تُحسِّنُ ما قَبُح من هذهِ الصُّورة .

فقلت : اللهم غفرا ، فقد أبليت عذرا . يا غلام ! اصرف الرسول ، وتسلم المأْكول . فلما حازَ الجَوذَابةَ ، وأغلَق بابَه قال : يامولاىَ : إنك عوَّدتَ زُوَّارَنا الضِّيفان ، وطُرَّاق المكان منْ سمَاحتِك ، إذا نَزلُوا بَساحَتِكَ الأكلَ ، فلا أقلَّ من البقْلِ والخَلّ » .

قلتُ : دعنى من الهَذْر . شرطُ الكريم لضيفةِ ما حضَر . وما القبيحُ إلا مذهب الشَّحيح . قدِّم الخِوانَ للإخوان ، وجمِّلهُ بالزَّعفران ، وأحضِرْ السُّطْلَ ، واحذَرْ المطْلَ .

فلما حضرتْ المائدة ، وظهرتْ التحفةُ الوافدةُ ، ظن القومُ أنه اهتمامٌ قد قُصِدَ وإكرامٌ قد نُضِد ، وصنيعٌ مُحمَل ، ودستٌ مُكْملٌ ، فجَعلَ كُلٌّ منْهُم يأْكُلُ ويقصر ، لكى يتظهر ، إلى ما يصحب الجذائبَ فى الترائب من حِملانِ الشِّواءِ وجامَات الحَلواءِ ، فتمّ لى بذلِكَ لسانُ الفَراسةِ وإدمانُ السِّياسة ، فتزاويْتُ فى زَاويةِ البيْتِ ، واستخْرجْتُ جَامًا من زُجاج — كان عِندى — من

---

(١) بكع استقبل بما يكره .

غِشائِه وكتبتُ فى سَوائِه(٢) على الاستِعْجَال ، بقضيَّةِ الحَال ، وقلتُه نظمًا ، وأثبتُّه فهمًا :

يا سَادةً حازُوا المَناصِبَ والمَرَاتِبَ والمَنَـــاقِبْ
وتَحصنُّوا بالمكرمــاتِ مِنَ المَعَايِبِ والمثَالِبْ
فاقُوا البريَّةَ مِثلَمــا فاقَتْ علىَ التُّربِ الكواكِبْ
لا تحسبوا أنِّى جَهِلْتُ الحُكْمَ فى سنَنِ الجَذائِبْ
فلها شُروطٌ كُلُّ شَرْ طٍ شَائعٌ فى الناسِ دائِبْ
طورًا تكُونُ بسُكَّـرٍ فى اللَّوزِ تحتَ الدُّهْنِ راسِبْ
زهراءُ قد سترَ الزُّجا جَ شُعاعُها من كُلِّ جانِبْ
والطِّيب يُفْشِى سِرَّها بينَ الأَبَاعِدِ والأَقَارِبْ
والرُّتبة الوسْطَى يقـدِّ مها تبابعةٌ وحَاجِبْ
مثلُ الخروفِ وجامةِ الـ حلواءِ تأْتى فى العَواقِبْ
وأقلُّ ما تَأْتِى إذَا حضَرَتْ بعصيانٍ أُطايِبْ
إلا جَذابتنَـا فقَـدْ جاءَتْ مُخالفةَ المذاهِبْ

* * *

لم نتخــذ فى وقتها شيئاً سوى الأَشنانِ صاحب
فكلـوا فلــيس بحازمٍ من باع موجوداً بغائب
فلنـا حديث باطـــن لم تعلمُوه من الغَرائِبْ

ثم غطيت الجام ، وقُلت للغلام : ويحك ! أكمل هذه الدُّعاية ، واجعل الجام موضع الجُوذابة .

فلما كشف ما حجب ، وقُرىء ما كُتب ، وفَهِم القومُ القريض ، وما فيهِ من التَّصريح والتَّعريضِ ، استفزَّهم الضَّحِكُ والطَّرب ، واستهزَّهم العُجب والعَجَبْ ، واستعادُوا السَّطْلَ واستجَادُوا الأُكْلَ باسترسَالٍ وبشرٍ صُراح ، وبشاشة الإرتياح للأرواح .

فلما أخذوا من الطعام حدَّ الكِفاية ، وأمدَ النِّهاية ، وامتلأَ جنانى بهم

---

(١) الترائب الصدر .

مسرَّة ، وإنسانى بهم قُرَّة ، قالوا . هاتِ الأشنان الذى انفردتْ به الجوذابة صاحِبا ، وإن لم يكن لها مناسبا

فما هو : إلا أن غسلوا أيديهم من أثر الزَّهم(١) ، حتى بادرُوا إلى القرطاس والقلَم واستدركُوا ما فَات ، من إثبات الأبيات ، وكرروا لفظها ، حتى اتقنوا حفظها .

ثم رجعنا إلى حديث أعذب من ضم الخُلس . ولثْم النَّفس . فلم نشعُرُ إلاَّ وذُكاء قد ودَّعتْ الأُفق ، وتقنَّعتْ بورْدِىَ الشَّفقْ ، وتَصرَّفَ النَّهارُ ، وانصرف الزوَّار »

★ ★ ★

---

(١) الزُّهم : الدُّهْنُ .

ابن مكنســـة
(أبو طاهر إسماعيل بن محمد (ت ٥٠٠ هـ)

شاعر مصرى سكندرى عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى فى ظل خلافة المستنصر ، وتبخل المصادر بأخبارة ، فقد ظلم فى حياته شاعراً ، فلم يبلغ ما يستحق لأن الأفضل الجمالى الوزير الخطير غضب عليه واقصاه عن جنابه وظلم ميتاً لأن بعض ترجمته ضاع . وذكر نتفا من حياته وشعره بعض من اتصلوا به أو نقلوا عمن ترحم له . فممن اتصل به فى حياته وجالسه وأنشده شعره ، فنقل عنه الكاتب الأديب الشاعر المصرى على بن منجب الصيرفى كاتب الأفضل الجمالى ، فقد ذكر بعضاً من أخباره ، وأبياتاً من شعره فى الأفضليات(١) .

وأمية ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية(٢) ، كما نقل عماد الدين فى الخريدة عن أمية ، وعن كتاب جنان الجنان المفقود لابن الزبير وكتاب الحديقة لابن أبى الصلت(٣) ، ونقل عنهما ابن شاكر فى فوات الوفيات(٤) ، وما يمكن معرفته عن الشاعر لا يزيد على أنه ولد وعاش جانباً من حياته بالإسكندرية والتقى فيها بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء ، ثم انتقل إلى الفسطاط ، فاتصل ببعض أعيان المصريين ومدح أحدهم من كبار النصارى ورثاه وهو الخطير جد ابن مماتى .

قال ابن أبى الصلت : ومن شعراء مصر المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزْله .

قال : وكان فى ريعان شبيبته وعنفوان حداثته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن فى عصر المستعلى والآمر

---

(١) راجع الأفضليات بتحقيق وليد قصاب طبع دمشق صفحات ٢٤ /٦٩ ، ٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٠ .

(٢) ص ٤٣ وما بعدها طبع ضمن مجموعة رسائل بتحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الخريدة القسم المصرى ٢ /٢٠٣ بتحقيق د أحمد أمين وشوق ضيف .

(٤) فوات الوفيات ١ /٢١ بتحقيق د . إحسان عباس ونشر بيروت .

فى النصف الثانى من القرن الخامس من رجال دولتها المعدودين ، وأكابرها المقدمين . قال أمية ولم يزل مقيماً على عشقه له ، وغرامه به إلى أن محا محاسنه الشعر ، وغير معالمه الدهر . ولم يزل معز الدولة هذا متعهداً له محسناً إليه ، مشتملاً عليه إلى أن فرق الدهر بينهما .

قال : وكان فى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعاً إلى عامل من النصارى يعرف بأبى مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل بتوليه الوزارة خلفاً لأبيه . تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه وكان سبب حرمانه ما سبق من مدحه لأبى مليح ، ومراثيه له ميتاً ، ولا سيما قوله :

طُويتْ سماءُ المكرمُـا تِ ، وكُوِّرتْ شمسُ المدِيحْ
ما كان بالنَّكِـرِ الدنــــــــــىِّ من الرجال، ولا الشَّحيحْ
كفرَ النصَارى بعدَمـا عَقدُوا به دينَ المسيحْ

فلما إنصرف عنه الأفضل ، كفله عزّ الدولة فائق ، وقام بحاله إلى أن مات . ويذكر العماد أن ابن مكنسة كتب إلى الأفضل يقول :

مثلى بمصرَ وأنت ملكٌ يقالُ ذا شاعرٌ فقيرُ
عطاؤك الشمسُ ليس يخْفَى وإنّما حظّـىَ الضَّرِيرُ

وذكر العماد أنه نقل عن رجل التقى به فى شيراز سنة خمس وخمسين وخمسمائة من أشراف مصر يقال له فخر العرب أحمد بن حيدرة الحسنى الزيدى المدنى الأصل المصرى المولد ، كان يرتاض الشعر وله شعر حسن كما يقول ، فأخبره عن ابن مكنسة قائلاً أنه كان يلتقى به بالفسطاط بمصر قال : وكنت جالساً معه على دكان أبى عبد الله الكتبى بمصر ، فمر بنا غلام فى ثوب أزرق ، فقال ابن مكنسة فيه بديهاً :

مرَّ بنا فى ثوبِهِ الأزرقِ كبدرِ تمٌّ لاح فى المشرِقِ
لا باركَ الرحمنُ فيمن رأى حسنَ عِذاريْه ولم يعْشَقِ

ويبدو من حديث ابن أبى الصلت عنه واختياره كثيراً من شعره ، أن صلة ما عقدت بينهما فى أثناء وجود أمية بمصر أول مره ة وظلت هذه العلاقة قوية

حتى عاد أمية مرة ثانية إلى مصر فتلقاه ابن مكنسة مهنئاً بأبيات بعد عود الأول من المهدية هي :[1] .

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحهُ	وأعدَمَهُ وكْراً ، وأفقدَهُ إلفَا
تذكَّر فرخًا بين أفنانِ بانِهِ	خوافى الخوافى ما يطرْنَ به ضعْفَا
إذا التحَفَ الظَّلماءَ ناجَى همُومَهُ	بترجيع نوحٍ كاد من دِقةٍ يخْفَى
بأشفقَ مِنيّ مذ أطاحَتْ بكَ النَّوى	هوائية مائية تسبقُ الطَّرفَا
تولَّت وفيها منكَ ما لو أقيسُه	بما هى فيهِ كان فى فضلِه أوفَى

ومعانى الأبيات تشير إلى قُوة وحرارةِ العَلاقة بين الشاعرين .

وكان على صلة بعلامة الإسكندرية الإمام الحافظ السلفى ، ولعل ذلك كان فى آخر القرن الخامس وأول السادس ، وهو ما يعنى أن تلك الصلة لم تحدث فى بواكير حياته بالإسكندرية ، فالحافظ لم يكن هناك آنذاك .

وصلة ابن مكنسة بالحافظ ، تجمعه بالشاعر السكندرى الآخر فى هذا العصر وهو ظافر الحداد ، وقد تعاصر الشاعران بالإسكندرية ومصر ، وربما التقيا بالفسطاط ، أو جمعتهما معا مجالس الأدباء ، فقد تحدث على بن منجب الصيرفى عن كليهما فى الأفضليات .

ويعجب ابن منجب بابن مكنسة وينقل بعض شعره فى كتابه المذكور . ويبدو مما جاء فى بعض شعره أنه سافر إلى الشام ، مصاحباً لصاحبه من قادة المعسكر وأنه أوفى على الخمسين من العمر .

ومما وقع إلينا من شعره فى الكتب التى أشرنا إليها قليل نستطيع أن نلقى عليه نظرة عامة ، ليست فاحصة ولا أخيرة ، وإنما هى مجرد ملامح تراءت لنا من خلال تلك المقطعات والأبيات المفرقة ، ولم نعثر بينها على قصيدة مكتملة .

ومعظم شعره الذى اختاره أمية ، ونقل عنه العماد يدور فى الغزل بنوعيه ، وفى الخمر والشراب ، وبعضه فى موضوعات تتصل بالمديح والإخوانيات ، والهجاء ، ورويا أبياتاً فى الوصف ، وبعض شئونه الخاصة ، كأبياته التى قالها فى منزله الذى ضاق به ، وبعض أبيات فى التحامق والعبث .

(١) الخريدة ٢ /٢١٥ .

وشعره الغزلى قريب المعانى معتادها ، تتردد فيه بعض المعانى التقليدية ، فيحتذى شعر من سبقه ، ويشير العماد إلى مآخذه منهم .

قال العماد(١) : وله من قصيدة :

وعسكرى أبدًا جيثما ... تلقاهُ يلقاكَ بكلِّ السّلاحْ
حاجِبُه قوسٌ وأجفانُـهُ ... نبلٌ، وعطفاهُ تثنّى الرِّماحْ
راح وفعلُ الرَّاح فيه كما ... يفعلُ بالغُصنِ نسيمُ الرِّياحْ

أغار فى هذا البيت على خالد الكاتب فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرَيْن كما رأتْ ... من الشمسِ والبدرِ المنيرِ على الأرضِ
عشيةَ حيَّانِى بوردٍ كأنّـه ... خُدودٌ أُضيفتْ بعضُهُنَّ إلى بَعْضِ
وناوَلنِى كأسًا كأنَّ مِزاجَها ... دُمُوعىَ لمَّا صدَّ عن مُقلتِى غمْضِى
وراحَ وفعلُ الرَّاحِ فى حَركاتِه ... كفِعلِ نَسيمِ الرِّيحِ فى الغُصُنِ الغَضِّ

وله من أبيات يمزجُ معانى الخمر والغزل(٢) :

يا من صفا ماءُ النعيم بوجهِهِ ... كم عشيةٍ كدرتها بصفائِهِ
وزجاجةٍ قابلتها فتبسمتْ ... عن ثغرِهِ ورُضابِهِ وسَنَائِهِ
مُزجتْ فلانت مثلما مُزجتْ بها ... أخلاقُه، فأطاعَ بعد إبائِهِ
مازِلْتُ أرشُفُها ويغضبُ ريقهُ ... لما جعلتُ الخمرَ من نُظرائِهِ

ويقول فى الطيف :

بنفسِى خيالٌ زار وهو قريبُ ... أحقًّا عليهِ فى المنامِ رقيبُ
سرَى وغديرُ الليلِ طامٍ جِمامُهُ ... وللشُّهْبِ فيه طفوةٌ ورُسُوبُ
وقد أعجلَتْهُ للصَّباحِ التفاتَةٌ ... فلمْ تكُ إلا خفْقةٌ وهبُوبُ
ولولاكُم لم أرضَ أن تستقرَّ بى ... زخارفُ حُلمٍ صدقُهنَّ كذُوبُ
وكم لامَةٍ أيقظتُم نفسى بها ... لها بين أحناءِ الضُّلوعِ نُدوبُ
تجاورَ فيها بين هامٍ وجَاحِمٍ ... لِعَينِى وقَلبِى جدْولٌ ولهيبُ

ومنها :

---

(١) خريدة القصر ٢ /٢٠٦ .
(٢) الخريدة ٢ /٢٠٧ .

أمسَّتكُم رِيحُ الصَّبا، إنَّ نشرَها ... إذا هبَّ من تِلقائِكُم لَيطِيبُ
وَيشْفِى غليلى أنْ تمرَّ مريضةً ... وبردُ غَلِيلى بالعليلِ عَجِيبُ

ومن غزله الرقيق لفظاً ومعنى ، وإن أجرى فيه معانى القدماء بتصرف فى الصياغة قوله :(1)

مَدى صبرى وإن وصلُوا قصيرُ ... وأنجمُ ليلِ شوقى ما تغُورُ
وفى أُسرِ الغرام إذا استقلُّوا ... فؤاد كيفما ساروا يسير
غزالُ الرَّملِ سالفةً وعينًا ... ولكن لحظُهُ أسدٌ هَصُورُ
وهل سودُ العيونِ سِوَى أُسودٍ ... تأمَّلْ كيف يفترِسُ الفُتُورُ
وقفنا والهوادجُ مشمساتٌ ... وفى الأحشاءِ بالهجرِ الهجيرُ
كأنَّ لكُلِّ كُورٍ فى فُؤادِى ... إذا أذكَى لظَى الأشواقِ كِيرُ

ففى هذه الأبيات تنجلى بعض نماذج صنعته الشعرية ، فهو كما أشرت يعيد صياغة بعض المعانى السابقة ، والجارية فى الغزل ، فيأخذ معنى قتل العيون الذى صاغه جرير فى بيته المعروف :

إن العيون التى فى طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانَا (2)

فيصوغُه صياغة أقل لفظاً فيقول : (ولكن لحظه أسد هصور) ويتمه بقوله :

وهل سودُ العيونِ سَوى أسودٍ ... تأمَّلْ كيف يفترسُ الفُتور

ويوظف المعنى لملاءمة الصنعة اللفظية من الجناس والطباق فى هذا البيت السابق ، وفى قوله فى البيتين اللّذين يليانه ، وهو مغرى بصنعة الجناس والطباق ، لكنه يأتى بهما فى غير إسراف يثقل الكلام .

وكغيره من شعراء العصر والمصر يستخدم قاموس الشعر من اللفظ القديم ، كما جاء فى قوله(3) :

قل لأيامنا التى قد تقضتْ ... بالغضَا هل لنَا إليكَ سبيلُ
أترى البانُ فى رياضِك يتآدُ ... إذا مسَّه النسيمُ العليلُ
أم تَرى الشَّادِن الغَرِيرَ له بيـــــن كثيبيْكَ مسرحٌ ومقيلُ

(1) الخريدة ٢ /٢٠٧ .
(2) خريدة ٢ /٢٠٩
(3) المصدر نفسه ص ٢١١ .

سَلْ بوغْسَائِها الخمائِلِ تُجْلَى / أشمَالٌ تمسُّها أم شَمُولُ
إن يكُنْ عنكَ عزَّ صبرٌ فصَبْرًا / إنَّ عُمرَ البكاءِ فيكَ طويلُ
وإذا بان عنكَ من كُنت تهْوا / هُ، فغيرُ الجميلِ صبرٌ جميلُ

ومما قال فى جواب رسالة :

نشرت كتابك عند الورود / فناهيك من جوهر ملتقط
ولم أر من قبله روضـة / من الخط مطلولة بالنقَط

وقال فى المعنى كذلك :

أهلاً بها جنة أهَدتْ ثمارَ نُهىً / وغَرَّسَ الطَّرْفُ فيها أىَّ تغْرِيسِ
ما دارَ فى خَلَدِى لولا كِتابُكم / أن البَّساتين تُهدَى فى القَراطيسِ

ومن شعره المتعلق بأحواله وحياتِه ما قاله حين دُعى للسفر إلى الشام مع أحد القواد من أمراء العسكر لقتال الغز (الأكراد) . قال(1) :

غيرُ عاصٍ عليكِ تقويمُ عُودِى / فانقُضِى من ملامتِى أو فزِيدِى
قُلْ لمولاى إذ دَعانى لأمرٍ / قمتُ فيه لهُ مقامَ العَبيدِ
ضعُفتْ حِيلَتى ، وقلَّ غَنائِى / ودنَتْ غَايتِى ، ورثَّ جَدِيدِى
أنا مالِى وللشآمِ وإنِّـى / لأرَى نارَ حربِها فى وقُودِ
بلدُ جنُّه عفارِيـةُ الغُزِّ / وأرضٌ وحوشُها من أُسُودِ
والجفارُ التى تقولُ إذا ما / قِيل هلاَّ أمتلاتِ؟. هل من مَزِيدِ
وكأنّ بى على بعيرٍ تَرانى / آخرَ النَّاسِ فى لفيفِ الحُشُودِ
أسودُ الوجهِ ناظراً فى أمورٍ / مُعضـلاتٍ، من الحوادِثِ سُودِ
وإذا قيلَ فى غدٍ يلتقِى النَّا / سُ، فلا تَنْسَ، فهو بيتُ القَصِيدِ
حين لا ناظِرِى تراهُ حديدًا / حين يبلُو له بريقُ الحَدِيدِ
حين لا يُتقِى لسَانى ولا يُثنِـــ / ـــى زِمامَ البعِيرِ عَنِّى نَشِيدِى
إنَّ رأيِى إذا تَسدَّد نحوِى / سهمُ رامٍ لغيرُ رأيٍ سَدِيدِ
وإذا ما قُتلتُ كنتُ خَليقًا / بدُخولِى جهَنَّمًا فى خُلودِ
فأقِلْنى عِثارَها وابقَ للحَمْـــ / ـــدِ، وكبتِ العِدا وغَيظِ الحَسُودِ!

---

(1) الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت ص ٥٠ — ٥١ .

ويبدو من أبياته هلعه من الذهاب للحرب ، فهذه ليست حرفته ، إنما حرفته الكلمة والقلم ، ويخشى رهب السيف ، ورهج المعارك ، على أن كلامه فى هذه الأبيات يكشف عن روح مرح وفكاهة ، ويبدو أن الشاعر كان على قدر من الدعاية ، يكشف عنها أحياناً فى أبيات مفردة تفلت منه فى بعض القصائد الجادة ، أو قد يخصها بأبيات وقصائد ذوات عدد . كقوله يصف قبح منزله وضيقه(١) :

لِىَ بيتٌ كأنهُ بيتُ شِعْرٍ ... لابنِ حجَّاجَ من قصيدٍ سَخيفِ
ضايقتْنى بناتُ وِرْدانَ حتَّى ... أنا فيهِ كفأْرةٍ فى كَنِيفِ
أين للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ ... مثلُه، وهو مثلُ عقلِى الضَّعِيفِ
وإذا هبَّ فيه ريحُ السَّراويلِ ... فسلِّمْ على اللِّحَى والأُنُوفِ
بُقعةٌ صدَّ مطلعَ الشَّمسِ عنها ... فأنا مُذ سكنْتُها فى الكُسُوفِ
وهو لو كان بينَ حجِّى ونُسْكِى ... صدَّ فى بُغضِه عن التَّطوِيفِ
أنتَ وسعْتَ بيتَ مالى فوسِّعْ ... منْزلى فهو منزلٌ للضُّيُوفِ
وأجِرْنى من الضَّنى وأجِرْنى مِنــــك فى حُسنِ خُلقِكَ المألُوفِ

وحين نقرأ الأبيات نحسُّ بنفَسِ ابن الرُّومى ، ومحاولة لتأثر ابن حجاج(٢) ، وهو يأخذ بنهجه فى بعض شعره الذى يتحامق فيه. كقوله :

أنا الذى حدَّثكم ... عنه أبو الشَّمقْمَقِ
وقال عنِّى إنَّنِى ... كنتُ نديم المتَّقِى
وكنتُ كنتُ كنـــتُ من رُماةِ البُنْدُقِ
حتى متى أبقَى كذا ... تيسًا طويلَ العُنُقِ
بلحيــةٍ مُسبَلــةٍ ... وشــاربٍ مُحَلَّــقِ
يا ليتها قد حُلِقــتْ ... من وجهِ شيخٍ خَلَقِ

وقال فى أخرى على الطريقة نفسها(٣) :

عشتُ خمسين بل تزيـــدُ رقيعاً كما ترى

---

(١) الخريدة ٢ /٢١١ ، وابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكثر من السخف فى شعره .

(٢) ابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكثر من السخف فى شعره .

(٣) الخريدة ٢ /٢١٤ .

أحسبُ المقل بندُقاً وكذا الملحَ سُكَّرا
وأظنُّ الطويلَ من كُلِّ شــــىء مـــــدوَّرا
قد كبر بر بِرْ بـرْ ت ، وعقلى إلى ورا
عجبا كيف كل شىء أراه تغيــــــــرا
لا أرى البيض صاريؤ كـــل إلا مقشــــرا
وإذا دق بالحجــا ر ، زجــاج تكســــرا

وهذا نهج من الشعر درج عليه جماعة من الشعراء قديماً وفى عصر الشاعر ، أما قديماً ، فأبو الشمقمق وأبو دلامة ، وابنُ الرومى ، وابن سكرة وابن الحجاج ، وأما فى عصر الشاعر أو قبله بقليل فالرقعمق ، والواسانى . وظل هذا النهج بعد ذلك ، فأخذ به بعض شعراء المصريين فى القرون التالية ، مثل ابن دانيال والجزار ونقف مع الشاعر وقفةً فى أبيات له يصف رمدا طال بعينيه ، فقال :

ما لنهارى كأنَّه الغَسقُ وما لليلى ما شقَّه الفَلَقُ
وما لعينى أرى بها عجَبًا تغرقُ فى مائِها وتحترِقُ
ولى طبيبٌ تشكو مراوِدُهُ وتستغيثُ الجفونُ والحَدَقُ
شِيافُهُ تطرُدُ الشِّفَاءَ إذا مرَّ بعينى وكُحْلُهُ الأرقُ
وإن تمادَى علىَّ زُرتكُمُ وقائِدى العِصىُّ والحَلَقُ
لم يبقَ من صبغةِالرواءِسِوَى جُفونِ عينى كأنهَّا الشَّفقُ
ولى من الدّاءِ ما حكايتُهُ لابدَّ منها وتركُها خَرَقُ
طبعى ووجهُ البخيلِ فى قَرَنٍ هذا، وهَذاك ليسَ ينْطَلِقُ
يا عينُ حتَّامَ أنتِ باكيةٌ قد نفذَ العِينُ فيكِ والوَرِقُ

وللأدباء والنقاد المعاصرين واللاحقين آراء فى شعر ابن مكنسة بين مقدم ومقرظ ومنتقد أو مؤاخذ . وأولهم ممن أعجب بشعره صديقه الشاعر المغربى أمية ابن أبى الصلت ، وقد أورد مختارات كما قلنا من شعره ، واختاره ، ونوه به من بين شعراء عصره ممن يقيم بالفسطاط فى أخريات القرن الخامس كذلك نقل ابن الصيرفى على بن منجب بعضا من شعره فى الأفضليات مختاراً ، أو معجباً

يبعض معانيه ، أو سرعة بديهته . فمما أعجب به قال[1] : وعلى ذكر العين والخد فقد أبدع ابن مكنسة فى قوله :

لم أر قبلَ شعرِه ووجهِهِ ليلاً على صُبح نهارٍ عسْعسَا
والسكر فى وجنتِهِ وطرْفِهِ يفتحُ وردًا ويغُضُّ نرجِسًا

على أن من تشبيهاته التى ابتكرها قوله من أبيات فى الخمر :

ما لاحَ وجهُكَ يُجتَلَى فى مجلسٍ إلاَّ وجلَّى عنهُ وجهًا أربَدَا
بِكرٌ إذا إفترعَتْ أخذَتْ شُعاعَها بيَدِى، وقلتُ لأهلِهَا هذا الرَّدى

وقال فى تجديده للمعانى[2] :

« على أن ابن مكنسة ذكر الحجر الأسود غير مرصوف ، فلم يشكل المراد فيه ، وسبب ذلك ما قرنه به رخمه إليه ، فقال من قصيدة أولها :

لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيتُ قد طافَ الحجيجُ به وفى ركابيك حَلّ الركْنُ والحَجرُ

وعن بديهته قال ابن الصيرفى[3] « وحدثنى ابن مكنسة قال : حضرت جنازة أبى الطائى المقرىء فرأيت من إعظام الناس له ــ وهو محمولٌ عَلى نعشه ــ ما لم يكن له منهم فى حياته فقلت بديها :

أرَى ولد الطائى أصبح يومة يُعَظِّمُهُ الأقوام أكثر من أمس
وقد أكرموه فى الممات تراهُم يظنُّون أنَ الجسمَ أزكَى من النّفسِ

ومما وصلنا من شعر ابن مكنسة يمكننا القول بأنه شعر متوسط الشاعرية ، يمزح فيه بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، وتبدو فى ألفاظه ومعانيه سمات مصرية ، كالميل إلى النكتة ، وروح الفكاهة ، والتورية فى القول ، ورقة اللفظ وعذوبة البناء مع صياغات ومفردات عامية .

* * *

(١) الأفضليات ١٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

الفصل الخامس
شعراء وافدون من المشرق
(فى القرن الخامس)

١ـــ التهامى: أبو الحسن على بن محمد بن فهد (ت ٤١٦ سنة هـ)
٢ـــ أبو الفتيان ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ)
٣ـــ داعى الدعاة (ت سنة ٥٤٧ هـ)

— ١ —

(التهامى) أبو الحسن على بن محمد بن فهد
(ت ٤١٦ هـ)

يقول الصفدى[١] : مولده ومنشؤه باليمن وهو منسوب إلى تهامة، وتهامة هى الجزء الساحلى الجنوبى المحاذى لشاطىء البحر الأحمر من ناحية الحجاز ويفصل بين مرتفعات الحجاز والبحر ، وهو سهل زراعى فى الجنوب منه ، ويقع شمالى اليمن ، وتصب إليه وديان سلسلة جبال السراة المتجهة إلى البحر غرباً . ومعظم سكانه من أصل يمنى ، واختلطت بهم أصول غير يمنية من غرب الشمال ، وأشهر قبائله فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام بطون من أزد شنوءة .

وأهم مدن تهامة نجران وجيزان ، ولسنا على يقين من أصل التهامى ، أهو من إحدى القبائل اليمنية ، أم أنهْ ينتمى إلى قبيلة مضرية تسكن بعض أطراف تهامة .

مولـده :

وقد نسب النبى ﷺ إلى تهامة أيضا مع أنه من مكة . على أية حال ، فإن هذه الإشارة إلى مولده ونشأته باليمن لم ترد إلا عند الصفدى ، والمراجع الأخرى تنسبه إلى الحجاز أو تهامة .

وطبيعى أن ينتقل إلى الحجاز ، ويعيش بعض الوقت فى مدينتيه الكبيرتين مكة والمدينة حيث الأشراف العلويون من الحسينيين والحسنيين، وكانوا يولون أمر الحجاز فى أيام الدولة الفاطمية وقبلها ، وكانوا على جانب من الثروة والجاه .

واتصل التهامى فى شبابه ببعض ممن كانت لهم الصدارة ، وإمارة الحجاز أو إمارة احدى المدينتين .

وحياته فى تهامة والحجاز تركت آثارها فى شعره ، فهو يحن أبداً إلى الحجاز وأهله ، ويتذكر حبيبته الحجازية التى يرتحل إليه طيفها أينما كان فى غربته . ويذكر تهامة فى مديحه لأحد رجالات بنى عامر فى الجزيرة من أرض العراق أو الشام وهو أبو الفتح المظفر بن عبد الجبار فيقول :

---
(١) الوافى جـ ٢٢ ص ١١٦ .

لا يُطْمِعَنَّكَ نور كوكب عامر فوراءَ قرب سناه بعد سنائه
حتى سيوف رجاله وهى القَضَا أشوى جراحاً من عيون نسائه
لله عَزمٌ من وراء تهامة نادى فثُرتُ ملبيا لندائه

ولعلنا نزعم أن الشاعر قال هذه القصيدة فى بواكير رحلاته من تهامة والحجاز إلى الشام ليتصل برجالات العصر من شيوخ ورؤساء القبائل العربية المستقرة فى بادية الشام وبلاد الجزيرة الفراتية ، فى ديار بكر وديار ربيعة ، ونعلم من أحداث تاريخ العصر أن بعض بطون قبائل مضر وعامر على وجه الخصوص كانت تتنافس فيما بينها ، وتنافس غيرها من قبائل نجد كأسد وطى على الزعامة والنفوذ ، والفوز بقسط وافر من الأرض فى خلافة العباسيين التى توزعتها الخلافات والنزعات منذ القرن الرابع ، والخلافات بين الديلم والأتراك خاصة من أجل السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية .

وقد أذكى هذه الخلافات ذلك التنافس المرير بين الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطمية فى القاهرة .

ومهما يكن من الأمر فإن الشاعر فى هذه المدحة قد ذكر هذا الممدوح العامرى وتقرب إليه بنجد ، لأنه موطن قبيلة الممدوح ، ومنازلها الأولى قبل النزوح إلى أرض العراق والشام :

أهدى لنا فى النوم نجداً كلَّهُ ببدوره وغصونه وظبائه

ويجد الفرصة سانحة وهو يمدح عامرا أن يلمح إلى ما أشتُهرت به من ملاحة نسائهم وأن عيونهن تجرح قلوب العشاق أكثر من سيوف رجالهم .

حتى سيوف رجاله وهى القضا أشوى جَراحاً من عيون نسائه

وإن كان وقعها أشد وأنكى .

وربما كان الشاعر قد أقام بالبحرين ردحاً من الزمن قبل مجيئه إلى الشام واتصاله بآل المفرج بالرملة وبعض زعماء القبائل فى البادية ، ونعلم العلاقة بين قرامطة البحرين وقبائل الشام ، وآل المفرج خاصة ، فقد تعاون الجميع على حرب المعز لدين الله الفاطمى بعد مجيئه إلى مصر ، وحاصروا القاهرة ، لولا أن المعز استطاع بمكره وذهبه أن يفرق الحلفاء ويوهن عزمهم فينتصر عليهم .

خرج التهامى من بلاده تهامة إذاً قاصداً الشام أو العراق ، ومنحدراً إلى شاطىء الخليج يتجول هناك بين بعض الزعماء .

ويبدو أن الشاعر طوّف بأرض الجزيرة من العراق زمناً ، ولم يظفر هناك بطائل فولى وجهه جهة المشرق لعله يلقى ما يرجّى ، ويعلم آنذاك أن المشرق يحفل بمفاجآت، بين الطامعين مختلفى الجنسيات من فرس وترك وعرب، كل يحاول أن ينال من غنيمة الخلافة وأرضها بقدر ما يملك من قوة ومقدرة على التآمر والمناورة ، والتحالف مع القوى الغالبة .

ولعل الشاعر لم يظفر فى هذه الرحلة المشرقية بما كان يرجوه، فولى وجهة مرة أخرى شطر الشام يسعى فى أرجائه ، وينتقل بين ربوعه وأصقاعه .

وحياة الشاعر غامضة لا تكاد تظفر منها بقبس يضىء لنا الطريق للتعرف على وقائعها لولا ما يمكننا استشعاره والاهتداء إليه من ثنايا شعره .

وسنحاول عن طريق الديوان أن نترسم خطاه ، ونقف على بعض من لقيهم من الأمراء ، والملوك والرؤساء فى الجزيرة بتهامة والحجاز وبادية الشام والشام وأرض الجزيرة بالعراق بديار ربيعة ، وديار بكر والموصل وميافارقين ونصيبين وآمد .

كما سنحاول تتبع خطاه بالشام وبلادها وثغورها فى دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا وصور والرملة ، حتى ينتهى به المطاف إلى مصر والقاهرة فالسجن بخزانة البنود وموته بها مسموماً كما يُقال سنة ٤١٦ .

قال صاحب الدُّمية(١): وحدثنى محمد التجانى، قال: حدثنى أبو كامل تميم بن مفرج الطائى أن التهامى هذا كان فى ابتداء أمره من السوقة ثم انقطع إلى بنى الجراح يمتدحهم ويستعين بهم .

ويشهد على أنه كان فى أول أمره من السوقة كما جاء فى عبارة الباخرزى قوله يمدح من اسمه الحميدى(٢) .

---

(١) دمية القصر ١ /١١٠ .
(٢) ديوانه ص ٤٠٨ .

ما أنت فاعله الغداة بشاعر | رث الثياب مشعث القَدميْن
قد طاف فى طلب العلا وادى القــرى | والأرض من عدن إلى السُّدَيْن
وإلى عمان وفارس ثم انتحى | بالرى نحو جزيرة البحريـن
وأقام فى شيراز سبعة أشهر | وأثاب من كل بخُفَّ حُنَيْن

ولعل هذه الأبيات ترسم خط الرحلة منه فى بادىء أمره قبل اتصاله بآل المفرج إذا ما أخذنا فى الاعتبار ترتيب الأماكن التى زارها فى الأبيات وفق تعاقبها الزمنى .

ويبدو من هذه الأبيات أنه لم يذكر الشام ، ولعل ذلك يوحى بأن ممدوحه الذى لقيه بعد مجيئه من المشرق واقامته فى شيراز سبعة أشهر بلا جدوى ، كان بأرض الشام قبل لقائه بآل المفرج .

ودعنا نفترض أن هذا الممدوح وهو الحميدى بن عباس هو أول ممدوح لقيه بالشام ، وتتسم قصيدته فيه بروح بدوية غالبة ، وبخاصة فى هذه المقدمة الطللية التى يبدؤها بقوله :

حُيِّيتُما من دمنتَىْ طَلَليْنِ | عُطِلَيْنِ مُوحشنْ مُقْفِريْـن
عَفّى عِراصَهُمـا على طولِ البِلى | نوْءُ الرشا وبوارح الفرعيْن
ومَحَاهُما من آل محْوةَ والصبَّا | أذيَـالَ غادِيتَيْـن رائِحتيْـن

وصل التهامى إذا إلى الشام ولا ندرى متى كان وصوله ولا مدى استقراره فى بلاده وكل ما نعلمه محققا أو قريبا من التحقق أنه كان بالرملة عند آل الجراح فى سنوات فرار أبى القاسم الحسين بن على الوزير المغربى إليها فى حدود سنة ٣٩٠ هـ وجاء فى أخباره التى ذكرها الصفدى أنه تولى بها الخطابة وتزوج .

وينفرد الصفدى(١) بقوله إن مولده كان باليمن ، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر عدن فى أبياته المتقدمة ، قال الصفدى : مولده ومنشؤه باليمن ، ثم قال : وطرأ على الشام وسافر منها إلى العراق والجبل ، ولقى الصاحب بن عبَّاد وقرأ عليه ، وانْتحل مذْهَبَ الاعتزال ، وأقام ببغداد وروى بها شعره ثم عاد إلى ا لشام وتنقل فى بلادها وتقلد الخطابةَ بالرَّملة ، وتزوَّج بها .

---

(١) الوافى بالوفيات جـ ٢٢ ص ١١٥ ترجمة رقم ٦٧ .

وفى خبر الصفدى خلاف مع كلام التهامى فى أبياته واتفاق ، فأما الخلاف فإنه ذكر أن أول خروجه من بلاده كان إلى الشام ثم اتجه مشرقا حتى شيراز ولعله لقى بها الصاحب ، وأما الاتفاق فإنه ذكر شيراز وبعض بلاد العراق وإن لم يُحدد بغداد التى نص عليها الصفدى ، وقال إنه روى بها شعره .

وقد يفيدنا خبر الصفدى عن وفود التهامى إلى شيراز ولقائه للصاحب وقراءته عليه وانتحال مذهب الاعتزال ، فربما تأثر به ، وإن لم يرد فى الديوان ما يشير إلى مديحه للصاحب ولا ذكره تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا صح خبر الصفدى عن لقاء الشاعر للصاحب فإنما يكون ذلك قبل سنة ٣٩٠ هـ ولنفترض : أنه كان بين سنتى ٣٨٠ ، ٣٨٥ هـ إذ توفى الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، ونفترض كذلك أن التهامى غادر شيراز بعد وفاة الصاحب ، فيكون قد تجول فى بلاد العراق والشام نحوا من سنتين ، ربما قضاها كلها قبل مجيئه إلى الرملة أو لعله قضى أربعا منها متجولا ، وقضى عاما أو بعض العام أو ما يزيد على ذلك فى الرملة قبل مجىء أبى القاسم إليها سنة ٤٠٠ هـ .

وفى سنة ٤٠٠ هـ تحدث الفتنة التى شارك فيها الوزير المغربى وربما تورط التهامى الشاعر بحكم علاقته بآل مفرج بن الجراح وتعرفه فى صُحْبتِهم إلى الوزير المغربى .

يقول النويرى(١) فى أحداث سنة ٤٠٠ هـ : « وفيها سَخِطَ الحاكِمُ على وزيره ابن المغربى ، وقتله وقتل أخاه وابنه ــ يقصد عليا بن الحسين ــ ومحمد بن الحسين ، وهرب ابنه الآخر ــ يعنى أبا القاسم الحسين بن على ــ إلى الشام » .

وقال(٢) : « ثم حَسَّنَ ابن المغربى لبنى الجراح أن يخرجوا عن طاعة الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا بارتكيْن أحد الأمراء الحاكمية المقيم بالرملة ، ثم حسَّن لهم أن يقيموا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى خليفة ، وهو أمير الحرمين يومئذ ، وأن يحضروه من مكة فأجابوه إلى ذلك » .

---

(١) نهاية الأرب ٢٨ /١٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وندع مرحلة إقامة التهامى بالرملة مع آل المفرج إلى حين لنصحبه فى رحلته ببلاد الشام وقد تردد على دمشق وطرابلس ، وأول ما نلاحظه فى تلك الرحلة ، تردده على جماعة من الأشراف العلويين سواء أكانوا حسنيين أو حسينيين .

وكان ممدوحه الشريف أبو عبد الله محمد بن الحسين العلوى قاضىَ دمشق وخطيبها ، ونقيب الأشراف بها فى مقدمتهم

ونقف من بين هؤلاء جميعا وقفة مع أحد ممدوحيه واسمه هبة الله الحسن بن على بن حيدرة ، وكان من رجال الحاكم بالشام .

قال النويرى[1] : « فلما كان فى شهر رجب سنة تسع وأربعمائة (٤٠٩ هـ) ظهر رجل يقال له الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم يرى حلول الإله فى الحاكم ويدعو له إلى ذلك ، ويتكلم فى إبطال النبوة ، ويتأول جميع ما وردت به الشريعة ، فاستدعاه الحاكم ، وقد كثر تبعه ، وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على فرس بسرجه ولجامه ، وركّبه فى مركبه ، وذلك ثانى شهر رمضان منها ، فبينما هو يسير فى بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ على جسر طريق المقسى فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله » . ونقرأ قول التهامى فى ذلك الرجل[2] :

أذهَبْتَ رونَقَ ماءِ الصُّبحِ فى العَـذَلِ ... فاربع فَلَسْتَ بمَعْصُومٍ من الزَّلَلِ
لِكُلِ سَهْمٍ يُعِدُّ النَّاسُ سابِغَةً ... يردُّه عنكَ إلا أسهمَ المقَلِ

حتى يقول :

قدأحكمَ الحَاكِـمُ المَعْصُومُ دولَتَـه ... بآلِ حَيْدَرةٍ فى السَّهْلِ والجَبَلِ

وكان آل حيدرة من طرابلس الشام وله يمدح آخر منهم كان قاضى طرابلس أيضا ، وتولى قضاء صور زمنا . يقول التهامى فيه[3] :

أَغْدَى نَدَى كفيْهِ صُورَ وأَهْلَهَا ... والبدْرُ يقلِبُ طَبْع كُلِّ ظلامِ
ولو أنّ صُوراً جنةٌ ما استكثَرتْ ... وأبيك من غِلْمَانهِ بغُلامِ

---

(١) نهاية الأرب ص ٢٨ /١٩٧

(٢) ديوانه ص ٣١٦

(٣) ديوانه ص ٣٧٣

ويشير إلى أهل بلدهم طرابلس فيقول :

ألفيتُ منهم فى طَرابُلُسٍ ندًى ... تَركَ الكِرامَ لدىَّ غيرَ كِرَامِ

وفى صور يمدح من يُدعى محمد بن سلامة الصورى ، والحسين بن عبد الواحد وفيه يقول ، ويذكر وقعة له مع بنى كِلاب بالشام(١) :

وتركتَ أعيُنَهمْ بصورٍ فى الوغـى صُوَّرا، ... وقد جَاحَ الورَى ما جَاحا

كما يذكر حلب فى هذه المناسبة فيقول :

شاءَ المهيمنُ أن تَصيرَ مَشرَّقاً ... حلَباً فيقضِى ما جَرى وأتَاحَا

ويذكر الروم فيقول :

أنّى تزومُ الرُّومُ قَربَكَ بعدمَا ... صَلِيتْ بحَرْبِكَ مُحْرِباً مِلْحَاحَا
لم يَرْمِ قطّ بكَ الإمامُ مُرادَهُ ... إلا جَلَوْتَ على الفَلاحِ فَلاحَا

والحسين بن عبد الواحد هذا لم يذكر صراحة فى مصادر التاريخ ولعله كان من رجال الحاكم كذلك . وعلاقته به كعلاقته بآل حيدرة ، تكشف عن ولاء للحاكم ورجاله ، وقد ذكر الشاعر الحاكم ولقبه الإمام ، وهذا يثير تساؤلات عن مدى ولاء التهامى للفاطميين ورجالهم ، وهل تقلبت هذه العلاقة بين الولاء والعَداوة ، ومتى كان الولاء ، ومتى انتهى وبدأت العداوة ؟. أكان الولاء قبل لقائه بالوزير المغربى ومؤامرة الرَّملة ضد الحاكم سنة ٤٠٠ هـ ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك ، ولم يكشف ديوانه عن هجوم مباشر أو هجاء للفاطميين أو أحد من رجالهم ، بل ربما كان عكس ذلك صحيحا فقد كان على ولاء وعلاقة صداقة وألفه مع أكثر رجالهم بالشام والجزيرة الفراتية . وتكرار الحديث عن هزيمة بنى كلاب على أيدى بعض رجال الحاكم وابنه الظاهر دلالة على هذا الولاء حتى قبيل دخوله مصر متسللاً ، أو مظاهرا .

وسيأتى الحديث عن ذلك فى حينه. هكذا جاء التهامى آل المفرج وهو على ولاء للحاكم والفاطميين بمصر ولم يدر بخلده أن يتآمر ضدهم ، وأقام بالرملة ما أقام ، وتزوج وتولى الخطابة ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة الحاكم ثم آل المفرج لأنهم كانوا

---

(١) ديوانه ص ٧٨ .

يتولون الرملة بأمره قبل خروجهم عليه ، بتدبير من الوزير المغربى الحاقد الذى وجد فى أطماع آل المفرج ، وطموح الشاعر مشجعا على الثورة والانتقام من الحاكم .

ونعرضُ الآن لبعض شعره فى آل المفرّج ، نستشف منه موقفه منهم وموقفهم منه ، وموقفهم جميعا من الفاطميين .

ونرجح ذهاب التهامى إلى الرملة فى أخريات عهد العزيز عثمان ، لأنه يعرض لحادث مناصرة آل المفرج للفاطميين ضد أفتكين أحد قادة الاتراك أعداء الفاطميين ، يقول :

نَصَرْتَ ابن النبى كما نصرتُم أباهُ لقد حَذوْتَ على مِثَالِ

يقصد أن بنى الجراح من طى وهم من عرب اليمن نصروا العزيز بالله الفاطمى كنُصْرِةِ الأنصار من عرب اليمن كذلك للنبىٍّ فى الهجرة ويوم بدر .

وجدير بالذكر أن هذه المأثرة ظلت متوارثة فى عرب اليمن القحطانية عبر العصور واستغلها الشيعة والعلوية ، فانتصروا بالقبائل اليمنية على بعض المضرّية ممن ناصرُوا الأمريين والعبّاسيين .

ويمدح ال مفرج كذلك بقوله فى هذه المناسبة نفسها وهى قَهْرُ أفتكين ونُصرة العزيز عثمان على عدوه التركى ، قائلا أنه بهذه النصرة علا نجم الدين ، يقول :

علا بك نجمُ الدّين فاشتدَّ ناصِرُهْ ورَفْرفَ بالتَّوفِيقِ واليُمْنِ طائِرُهْ
تسايرك العَلْيَاءُ والمجد مثلما يصاحبُ شخصاً ظِلّه ويُسايِرُهْ

ولكن هذا التاريخ متقدم ، وهو يطرح تساؤلا هل كانت هذه القصيدة فى مرحلة سابقة على سفره إلى المشرق ، أم أنها قيلت فى هذه المرحلة نفسها أعنى فى حدود سنوات من ٣٩٨ إلى ٤٠١ هـ .

والقصيدة على أية حال لا تكشف عن إقتدار شعرى ، وكونه قالها فى المفرج بن دغفل ربٌّ هذه الأسرة الطائية تجعل احتمال قولها فى مرحلة متقدمة من إقامته بالرملة أمرا وارداً ، لأنّ أشهر أبناء المفرج وأكثرهم مشاركة فى أحداث العصر الحاكمى وهو حسان كان قد غَلَبَ على والده وإخوته فى اتخاذ القرار والمبادرة ، وكانت له اليدُ الطولى فى أحداث المؤامرة المشهورة وانقلاب أبى الفتوح أمير مكة ، ثم عودته مرة ثانية إلى طاعة الحاكم بأمر الله .

إلا أنه فى قصيدة بائية فى مدح المفرج بن دغفل يشير إلى طىء ومصر وإلى نصرة الطائيين للإمام وهو العزيز أو الحاكم ، ضد التغلبيين وهم آل حمدان ، وكانت بين الخليفتين وبينهم وقائع بالشام للشيطرة على دمشق وحلب زمنا .

يقول التهامى :

بِه طالتْ على مُضَرٍ ولَنْ تقَوم لها فى الحَرْبَ تغلبها الغلبُ

حتى يقول مشيرا إلى إمام الدين خليفة مصر الفاطمى :

يَسْرِى بهم نحوَ السَّراة وقد طَغَوْا وسادُوا ، إمامُ الدين وهو لَهُمْ قُطْبُ
وصبَّحهم فى دارِهم شرَّ صُبْحةٍ عَليهِمْ وقدوالاهُمُ الطَّعنُ والضَّرْبُ
أبادَ حُماةَ القوم واجْتاحَ أرضهم ولو لاه لم يطرق لمِعْقِلهمْ خَطْبُ
وقد عَلِمَ المولَى الإمامُ بأنَّه أخو عَزْمَةٍ خُدَّامُها السَّبعة الشُّهْبُ

ولعله يشير بالسبعة الشهب هنا إلى أبناء الذوَّاد السبعة الذينَ سادُوا فى حياته ومدح بعضهم الشاعر .

ويشير فى هذه القصيدة نفسها إلى أنه جاء آل المفرج فقيرا فأغنوه ، الأمرَ الذى يُرجِّحُ أنها من بَنواكِيرِ قصائده بالشام .

ممدوحوه من رؤساء دمشق :

حيدرة بن يملول :

وهو من رجال الفاطميين ، ويبدو أنه ممن شارك فى التصدى للكلابيين من بنى مرداس فى عصر الحاكم ، وكانوا يثيرون القلاقل بنواحى الشام .

وفى مديحه لحيدرة هذا يقول مشيرا إلى الإمام ـــ الخليفة الفاطمى :

أما الإمام فإنه لك شاكر والله أرضى منه عنك وأشكر

ويقول :

بالنصح قدمك الإمام على الورى ومن الفعال مقدم لا ينكر

أما توليه بدمشق فيشير إليه بقوله :

فدمشق قد ضاءت بحسن رياضها إذ كان فيها منك سعد نير

والشريف أبو الحسن عباس بن غياث .

وفى دمشق يتصل أيضا بأحد الأشراف من الرؤساء ، ويبدو أن له مكانة كبيرة بين أهلها ، وكان له من نفوذه وعلمه وجاهه ما يدفع الشاعر إلى قصده وإلى أن يقول فيه :

إقدام حيدرة وبأس محمد	فيه أن يعدوهما أبواه
نسبا ترى عنوانه فى وجهه	فلو أن أميًّا يراه قراه
اشبهت فى العلياء جدك أحمدا	إن المكارم فى العلا أشباه

ويغلب أنه شريف علوى للتنويه بذكر الإمام على هنا ، اللافت للنظر أن معظم من قصدهم التهامى كان شريفا علويا من بنى الحسن أو الحسين ، أو من يدينون بالولاء للعلويين والفاطميين ، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن مدى موقفه من الفاطميين خاصة ، وهل كان نصيرا لهم ؟

وإذا فلم اشترك فى التآمر ضدهم ؟! وعلى أية حال فالرجل لم يصرح بذم أو قدح ولم يلمح بشىء يسىء إلى دولة الفواطم فى ديوانه .

وفى القصيدة ما يشير إلى جاهه ، فقد لقبه بلقب ملك ، ولا ينعت بهذا إلا من ولى ولاية وأمارة ، يقول :

ملك يقر بفضله وببذله	وبعدله أحبابُهُ وعداه
تخِيلَ الأنام على الخلاف ولا أرى	رجلين يختلفان فى علياه

ويشير إلى غربته عن وطنه تهامة ، وهجوم الشتاء ـــ الشامى ـــ ولم يعتده فى بلده فيلوذ بالممدوح لينقذه من بأسه ، كما اعتاد شعراء العرب اعتقاد الأجواد وقت الشتاء خاصة ، يقول :

ولقد علمت بأن موتى عنده	عز يفوق العيش عند سواه
لكنها هجم الشتاء وعنده	ممن تكون تهامة مثواه
يا أيها الملك الذى لم أغترب	عن أرض قومى خطوة لولاه
أيجوز أن أشكوك ضيقة عيشة	والمال عندك راهن والجاه

ترى هل كان هذا حكاية صادقة لحال الشاعر ، أم أنه مجرد خطاب شعرى لحضّ الممدوح على العطاء ؟!

فإذا كان الأمر ما قاله حقيقة ، فإنا نظن بأن الرجل كان أول من قصد بالشام ، أو لعله كان من أولهم ، قبل التحاقه بآل المفرج ونزوله فى كنفهم ، يؤيد هذا الظن شكواه من الفقر الذى فارقه بعد مكثه بالشام وتوليه خطابة الرملة واستقراره وزواجه وحصوله على المال مما أعطاه آل المفرج وغيرهم .

مع بعض الأشراف والرؤساء فى الشام ومصر :

ونجد بالديوان مدائح لجماعة من الأشراف والرؤساء بالشام ومصر لا نستطيع على وجه التحديد أن نُعَيِّن زمن لقائه لهم ، وربما بعث إليهم بمدائحه ولم يلقهم .

وممن لقيهم بالشام من الرؤساء وقدم مدائحه فيهم جعفر بن على بن الحسين المغربى ، واسمه ينم عن صلته بآل المغربى ، وربما كان ابن عم الوزير أبى القاسم ، ولا ندرى هل لقيه قبل محنة آل المغربى ومقتلهم بمصر وهل قتل معهم أم أنه لم يرحل إلى مصر مع أبيه الذى قال المؤرخون إنه قتل بين من فتك بهم الحاكم ؟

ونجد ابنه أبا الفرج بين من تولى الوزارة بمصر أيام الظاهر .

كذلك من بين ممدوحيه الفضل بن أبى الفضل جعفر بن الفرات ، وهو كما يبدو من اسمه ابن الوزير الخطير ابى الفضل بن الفرات والمشهور بابن حترابة الذى تولى الوزارة للاخشيد ، وكان من رجال كافور ، وعاصر المتنبى عند وفوده إلى مصر ، وكان من أعدائه .

وقد تولى ابن الفرات الأب الوزارة للفاطمين بعد ابن العداس زمن العزيز عثمان سنة ٣٨٢ هـ ، كما تولى ابنه من بعده أيام الحاكم فى اخريات عهده سنة ٤٠٥ هـ وكان والده توفى قبل ذلك سنة ٣٩١ هـ .

ومما نلاحظه وكما يشير التهامى فى قصيدته التى مدحه بها أنه التقى به فى الرملة ، ولعل ذلك كان قبل اختفاء الحاكم وكان مبعوثا له إلى آل المفرج للصلح والعودة إلى الولاء بعد فتنة أبى الفتوح والوزير المغربى .

ونقف عند قوله فى القصيدة[1] :

---

(١) ديوانه ص ٣٨٨ .

للوزير ابن الفرات ولم تزل — تتوكف الآمال صَوْبَ غمامه
إن صدنى عنك الزمان فإننى — حبٌّ أرى لُقياكَ فى أحلامه
إن ينـأ عنك فرب نأى حسنت — عقباه للمشتاق قرب حمامه
أوعدت بالصبر الجميل فإنه — صد الجفون عن الكرى ولمامه
فبأى وجه اشتكى الزمن الذى — أيام قربك كن من أيامه
ووحق ودك وهو أبعد غاية — يجرى إليها البر فى أقسامه
ما حال قلبـــى عن هواك ولا جرى — حسن التصبر عنك فى أوهامه
إنى وإن عاد الزمان إلى الذى — أهواه بعد جماحه وعرامه
لا أشكر المعروف إلا منك أو — ما قربت كفاك بعد مرامه
أو حيث لا يجب الثناء بغيرها — أولى الوزير القرب من إنعامه

وفى الديوان قصيدة أخرى[1] غير معنونة بمن مدح بها من الرجال ، إلا أن مضمونها يرجح أنها فى الفضل بن الفرات بعد توليه الوزارة ، وربما صرح باسمه فى أحد أبياتها إذ يقول :

فضل لو أن الدهر قدم عصره — لأبان نقص زياده وهشامه

والقصيدة على وزن وقافية القصيدة الأولى ، إلا أنا تقول أن هذه القصيدة التى مطلعها :

ذكر الحمى فبكى لسجع حمامه — وغدا غريما للنوى بغرامه

سابقة على الأخرى ، ويبدو أنه هنأ بها الفضل بعد توليه الوزارة ، ثم اتبعها الثانية، يعرض حاله، ويمد يده إليه يرجوه أن يناله منه عون من مال أو جاه وهو فى منأى بعيد لعله كان بالرملة أو خارجها متجولا بين بلاد جزيرة الفرات .

إلا أن فرحة التهامى بتولى صاحبه الفضل الوزارة لم تتم ، فسرعان ما خاب أمله ، فقد غضب الحاكم فى ثورة من ثوراته على ابن الفرات وقتله سنة ٤٠٥ هـ .

ومقتل ابن الفرات فى هذه المرحلة من مراحل الخلاف المحتوم بين الحاكم واخته يثير الشك .

---

(١) ديوانه ص ٣٩١ .

ومن ممدوحيه بالشام أو العراق الأمير أبو سنان غريب بن محمد بن تعن من أمراء العقيليين ولعله جد الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحقاجى العقيلى الأمير الشاعر الأديب أبو محمد وقد كان من أمراء الخفاجيين أصحاب الحديثة ، وكان امير خفاجة فى زمنه سنة ٤١١ سلطان بن الحسين بن ثمال[١] .

وقصيدته فى غريب بن معن الخفاجى التى نرجح أن تكون سنة ٤١١ هـ وهى السنة التى قصد فيها قرواشا العقيلى مع الأمير نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدى فقاتلوا قرواشا فانهزم ومن معه وأسر فى المعركة ونهبت خزائنه واثقاله .

وتمكن قرواش من الخلاص من الأسر ، وعاد لمقاتلة غريب بن معين مستعينا هذه المرة بأحد أمراء خفاجة وهو سلطان بن الحسين بن ثمال ، وكانت وقعة غربى الفرات بين الفريقين انهزم فيها قرواش مرة ثانية ، وفى هذه المرة مد نواب السلطان البويهى أيديهم إلى أعمال قرواش فى الموصل وما حولها ، فأرسل إلى بغداد يسأل الصفح عنه ويبذل الطاعة فرفع السلطان أيدى عماله عن قرواش وأعماله .

ويشير التهامى الذى زامن هذه الأحداث جميعا فى مديحه لغريب بشجاعته وفروسيته فيقول[٢] :

فلئن سلمت لأقضين لباتنى ... بذميل كل شُهَيْلَةٍ مذعان
أرمى الفجاج بها لألقى رحلها ... فى حيث تلقى أرحل الفتيان
عند الأمير غريب بن محمد ... ملك الملوك وفارس الفرسان

ويمضى فى مديحه التقليدى حتى يقول :

لله در يد الخطوب فإنها ... صدء اللئام وصيقل الفتيان
جردن مثل أبى سنان صارما ... فى كل ناحية له حدان
كالليث إلا أن جارك آمن ... والليث ليس بآمن الجيران

حتى يقول ، وربما ألمح بالأحداث التى أشرت إليها :

يارب جيش قد كففت بمثله ... والخيل تعثر فى النجيع القانى

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ص ٨ ، ١٣٣ .
(٢) ديوانه ص ٤٠١ .

التهامى وقرواش

قصد الشاعر قرواش بالموصل ، ولعل ذلك كان بعد ذهابه إلى ميافارقين ، وبقائه زمنا عند نصر بن أحمد ، وكانت العلاقة بين الأمير الكردى ، والأمير العربى العقيلى العامرى تجمع بين التنافس والتحالف ، وصارت بينهما مصاهرة .

ونعلم أن الوزير المغربى انتقل من ميافارقين إلى الموصل كذلك حيث وزر لقرواش سنوات عاد بعدها إلى ميافارقين ليبقى بها حتى توفى سنة ٤١٨ هـ .

جاء التهامى إذا إلى الموصل مادحا ،ومتطلعاً، وليحصل على المال والتأييد ليدفع، فيما يبدو بطموحه الذى يحبسه فى حناياه إلى أمل التحقق لكنه، فيما يبدو لم يجد من قرواش استجابة ، أو قبولا ولعله لم يرتح له الشاعر ، أو أن الأمير لم يرع للشاعر حقا كان يرجوه .

فلم يلبث هناك طويلا ، ولا نجد فى ديوانه إلا قصيدة واحدة يمدحه ، عادية ، باردة الاحساس فى المديح ، لا تجد فيها شيئا جديدا ، بل لعله تكلفه فبدت الصفات مرصوصة رصا ، كأن يقول :

له يد محسن وحياء جان ... وجود مبذر وعلا جموح
ورأى مجرب وقتال غر ... وذمة حافظ وندى مضيع
إذا ذكر النوال اهتز شوقا ... إليه كهزة السيف الصنيع
يحن إلى العطاء حَنينَ قيس ... إلى ليلى لعرفان الربوع

أرأيت إلى هذا التكلف والبرود !

ومع هذا فالمقدمة الغزلية، قد اشفى فيها الشاعر شاعريته وهموم نفسه مع خيال حبيبته ، فبدأ بقوله :

ألم خيالها بعد الهجوع ... فعادت إذ رأت سيفى ضجيعى

نعجب لهذا المطلع الغريب ، والمعنى الغريب كذلك ، الذى لا نلقاه فى مطالعه الأخرى ، وهو يلقى الحبيبة فى المنام ، ترى أهناك أمر ما غير من أحاسيسه ، أو أن شيئا ما أصبح يساوره ويختزنه فى عقله الباطن نمت عليه هذه الرؤيا الغريبة ؟!

ويمضى الشاعر لينفث أحاسيسه فى هذه الرؤيا ليقول بعد الاستهلال :

وهاجت لى بزوْرَتها زفيرا ... يكاد يقيم معوج الضلوع
فباتت بين أعناق المطايا ... تردد فى المجىء وفى الرجوع
فقمت مناديا فإذا سهيل ... من الخفقان كالقلب المروع
كأن نجوم ليلك حتى ألقى ... مراسيه مسامير الدروع

وأقول هذه رؤية أو رؤيا كشفت مختزنا فى مكنون الضمير ولم تفصح عنه كل الأفصاح ، بل رمزت إليه ، وجدير بالقول أن شعر هذه المرحلة من حياة الشاعر كان حافلا بمثل هذا الرمز التى عدل إليه عن التصريح الذى صاحبه فى الرَّملة ومع آل الجراح .

كأن الشاعر كان يهيىء نفسه لأمر ما ، ودور خطير يقوم به ويتم حبك خطوطه ، وكانت أيام الحاكم فى مصر قد ولت ، وشمسه قد أفلَتْ ، ولعل رغبة الانتقام قد عاودت الوزير المغربى بعد موت الحاكم ، فأغرى صاحبه على أن يفعل شيئا ما ، أو لعل رغبة الشاعر فى أن يحصل على غنيمة كما يحصل غيره بالمغامرة ، هى التى دفعته إلى أن يبحث عن تلك الغنيمة ويعد لها عدتها بالمال الذى صرح أكثر من مرة بأنه يجمعه لأمر قرره فى نفسه .

وهكذا اختفى الحاكم بأمر الله من مسرح الحياة الصاخبة فى هذه المنطقة ، وتأهبت الأعداء للوثوب ، ليرثوا ملكه ، وقد كان الأمراء يخشونه ، بعد أن تمكن من القضاء على المؤامرات التى حيكت ضده منذ قيام أبى ركوة بثورته العارمة فى برقة وصعيد مصر سنة ٣٩٧ هـ وانتهائها بالقضاء عليه قضاء وحشيا بعد تعذيبه وإذلاله ليكون عبرة لكل من تحدثه نفسه بالخروج .

كذلك انتهت مؤامرة آل المفرج أبى الفتوح بالفشل ، وأمسك الحاكم بزمام الأمر بعدها بإحكام وخشيته البلاد الشامية ، وأذعن له الأمراء ورؤساء العشائر وخطبوا له حتى فى بعض الأمارات التى كانت تحت حكم العباسيين فى العراق كإمارة الموصل وميافارقين .

عاودت الآمال إذا الأعداء والطامعين بعد اختفاء الحاكم وفى هذه المرة وعدت الشاعر نفسه بانتهاز الفرصة ، وهكذا عاد من ربوع العراق إلى الشام ليدبر أمرا مع من يعد للانقضاض ليشارك فيفوز بنصيب .

حتى يقول :

فرب صب تمنى أنه حجر في البيت حين أكبت تلثم الحجرا
إن الحجاز ـــ سقاه الله غادية أرضى مولدة في الأعين الحورا

وفي قصيدته الثانية الميمية يقول مفتتحا :

أخذت زمام الدمع خوف انسجامه فلما استقلوا حل عقد زمامه

وبلغت نظرنا في المقدمة الغزلية لهذه القصيدة أنه جعل محبوبته من هلال بني عامر بن صعصعة النجديين ، ولما كنا نرجح أن الشاعر اعتاد على التغزل بمحبوبات من قبائل المدوحين في مهد العروبة بالجزيرة ، فإنا نظن بأن صاحب آمد هذا كان عامريا ، وكان لبني عامر من الرجال جماعة في أرض الجزيرة ، وكان لبطولتها شأن في أحداثها ، ويكرر التهامي في هذه القصيدة حديث السعي للمجد بغيرا القلم والشعر ، يقول :

ومن فاته نيل العلا بعلومه وأقلامه فليبغتها بحسامه
صرير شبا الإقلام عند كلامها فداء صليل السف عند كلامه
ورأيك في الرمح المقوم إنما قوام العلا مستودع في قوامه
وجدرا جعلنا أمدا أمدا لها ببيداء يوم المرء فيها كعامه
يلوك بهيم الخيل فيها لجامة إلى أن تراه أرثما بلغامه
يذرن حجام الماء من كل منهل ليكر عن مشرب العلا في حجامه

وهذه الشنشنة عهدنا عند أبي الطيب وتذكرنا بشعره له كثير تتقلب فيه هذه المعاني نفسها بل والألفاظ والعبارات ، ومنها قوله :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحني للأسياف كالخدم ؟

ويشير في هذه القصيدة إلى ما يحاك حوله من مؤامرات ومكائد ، يحوكها بعض أعدائه من منافسيه وأصحاب صهره الذي قتله واغتصب الامارة منه :

وكم غادر قد شب نار عداوة له قد حاه كيده في ضرامه
فصفحا فمازال الزمان كما ترى أكارمه جرمية بلئامه

وربما حدثته نفسه بأن يفعل كما فعل ابن دمنة وامثاله مما اغتصب الامارة تآمرا وغلبة فى ذلك الزمان الذى تكررت فيه أحداث الغفلة والانقلاب والاستيلاء على الملك بالسيف، كعادة العرب فى بداوتهم، الغلبة للقوى، كأنّ الإسلام لم يهذب من هذه الطبيعة المتأصلة ، وهى خلق لازم للبدواة .

وما كانت نفس التهامى الشاعر البدوى لتحدثه بالملك كما حدثت نفس المتنبى صاحبها به لولا أن رأى ذلك شريعة عصره .

وكانت تجربته مع الوزير المغربى وآل المفرج والانقلاب الذى دبروه ضد الحاكم والذى كاد أن يكتب له النجاح ، كانت هذه التجربة حافزا له على أن يكرر المحاولة ، وقد اختمر هذا الخاطر فى قلبه ، وظل يراوده طوال بقائه متنقلا بين مدن الجزيرة الفراتية بالشام قبل عودته إلى الرملة ليعد نفسه للقيام بدور له فى مصر ، وينتهز الفرصة المواتية للوثوب .

التهامى والأمير نصر بن مروان صاحب ميافارقين :

اتجه التهامى شرقا إلى ميافارقين بأرض الاكراد شمالى شرق الجزيرة العراق وصاحبها آنذاك نصر بن مروان، وكان كرديًّا، غلب على ميافارقين بعد فصل أميرها، من صاحب آمد،وكان رجلا عاقلا على علاقات طيبة بجيرانه من أمراء الجزيرة والموصل، وبدولتى العباسيين والفاطميين وصاحب الموصل كذلك. يقول الفارقى[1]: وقصده التهامى الشاعر وامتدحه وامتدح وزيره المغربى. وهذا الخبر يؤيد ما قلناه من أن رحلته هذه إلى البلاد الشرقية وجزيرة الفرات كانت مع الوزير المغربى أو فى وقت ذهابه من الرحلة إلى تلك البلاد ، وكان الأمير ناصر الدولة نصر بن مروان هذا قد ولى الامارة سنة ٤٠١ هـ يقول فى مستهل مديحه :

عبسن من شعر بالرأس مبتسم   ما نفر البيض مثل البيض فى اللمم

ولا ينهج فى القصيدة نهجه فى غيرها من مدائحه لأمراء العرب ، من ذكر نجد والحجاز واعتساف الأرض فى الرحلة والتغزل بالفتاة البدوية من الحجاز أو من بنى عامر فى نجد . ولا يذكر الشيخ والعرار والخزامى وما إلى ذلك مما يشتاقه عرب البادية وإنما يعرض للحديث عن موضوعات عامة فى النسيب بذكر الطيف

(١) تاريخه ص ١٤٤ وراجع وفيات الأعيان ٢ /٧٧ـ٧٨ والشذرات ٣ /٢٩٠ .

ومحاسن المحبوبة التى تزوره فى المنام حتى يتخلص من التضيف إلى شكوى الدهر قائلا :

وصل الخيـــال ووصل الخود إن سمحت	سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
قل نصر دولة دين الله لى أمل	قولا وقد نلت أقصى عاية التهم
لا تحمد الدهر فى بأساء يكشفها	فلو أردت دوام البؤس لم يدم

ويخاطب نصر الدولة مؤملا عنده الفضل والسُّؤدد والمجد :

يا طالب المجد فى الآفاق مجتهدا	والمجد أقرب من ساقٍ إلى قدم
قل نصر دولة دين الله لى أمل	قولا وقد نلتَ أقصى غاية الهمم

ويشير إلى مناصرته لقرواش على بعض عشيرته من عقيل العامريين :

قد عظم الله أملاكا ملكت بها	بنى عقيل وما يحوون من نعم
لو لم تُجِزْهَا أبا نصر لما وجدت	كفًا يشاكل فى شكل ولا كرم
زادت إلى عِزّها عزا به مضر	وربما صيلات العلياء بالحرم

يذكر الفارقى أن التهامى التقى بالوزير المغربى ، فى بلاط نصر الدولة هذا ومدحه وفى الديوان قصيدتان فى مديح أبى القاسم إحداهما قالها وقد استبطأه الوزير فى مديحه ، وربما كانت هذه بداية التئام الشمل بعد فراق الرحلة ، وقد أحس الوزير بأن الشاعر أغفله ومدح الأمير ، وكان ما بينهما من قديم آصرة يسمح له بهذا العتاب ، فما كان من الشاعر إلا أن نظم أبياتا قدمها معتذراً بين يدى قصيدة مديح انشدها بعد ذلك ، يقول الشاعر معتذرا :

أتانى عن تاج الزمان تعتب	يضيـــق وسع الأرض فضلا عن الصدر
ولم أمتدحـه آخـرا لجهالـة	وهل للـذى لا يعـرف الشمس من عذر
ولكننـى لما رأيت صفاتـه	ختمـن العـلا طرا ختـمـت به شهـرى
وقد أخر الله النبى لفضله	وقدمه فى رتبة الفضل والأجر

وفى ديوانه قصيدة حائية فى مدح الوزير أبى القاسم ، لا نجد ما يؤكد أويَنقُض إنشادها إياه فى ميافارقين ، وإنا نحدس حدسا ، ونظن — وقد لا يصدق الظن أنه قالها آنذاك لبعض المعانى التى وردت فيها ، ربما كانت من وحى الظروف التى مر بها الوزير فى محنته مع الحاكم ، وفراره ولجوئه إلى آل المفرج بالرملة ثم ما حدث

هناك من فشل التآمر ضد الحاكم واضطرار الوزير إلى الخروج إلى الجزيرة واللجوء إلى ميافارقين والموصل وبغداد والتنقل بينهما :

يقول بعد المقدمة :

وللمعالى رتب فى العلا الرأى ثم الكيد ثم الكفاح
وليس بعد الحرب من غاية هن حظوظ مثل ضرب القداح
ولا يُالِى عند فَلّ العِدى أهيبـــة فلتهم أم جراح
حامى عن الملك فأضحى حمى من بعد أن شارف أن يستباح
فصار عرينا لليث الثرى وكان مرعى للسوام المراح

ونتوقف عند قوله : « حامى عن الملك ... إلخ »

حتى يقول :

تَوفـرّ الأمـر ألا إنّمـا رأسانِ فى تاجٍ خلافُ الصَّلاحْ

ونقول هل يقصد بذلك الإشارة إلى محاولة ابن المغربى أن يقيم خلافة أخرى فى دولة الفاطميين بمبايعة أبى الفتوح شريف مكة إلى جانب الحاكم خليفة مصر يؤيد هذا الظن ما قاله فى البيت التالى :

ثم انثنى إذ كفروا سعيه لكل مطواع ذلول جماح
ذو سحب تنبت أعداءه . وحاسديه فى جميع النواح

* * *

المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر (٤١١ـــ٤١٦) :

سمع الشاعر باختفاء الحاكم بأمر الله وتولى ابنه الصبى الظاهر على بوصاية عمته ست الملك الفاطمية ، فحدثت كل طامع نفسه بأن يرث من خلافة الفاطميين ما يستطيع قهرا أو تدبيرا وتآمرا ، ولم يكن بلاط الفاطميين ولا القصر خالصا فى الولاء للظاهر على ، بل كان ولاء رجال القصر موزعا شيعا ، بين ست الملك الحاكم الحقيقى للخلافة وبين الصبى ومن والاه من رجالات القصر .

وكانت الدسائس بين الفريقين ، ما تفتأ تثور ليتولى رجال ويسقط آخرون ، ويتعدد الوزراء والقادة والأمراء ، ويتدخل خدم القصر ونساؤه فيمن يتولى ومن يعزل .

فى هذا الجو المضطرب انتهز أمراء العشائر العربية بالشام الفرصة للانقضاض على الخلافة الفاطمية فى القاهرة ووراثة سلطانها ، وكان أقوى تلك الأحلاف الحلف اليمنى بين الطائيين بزعامة آل الجراح أصحاب الرمله ، يقدمهم هذه المرة حسان بن المفرج ، فقد توفى أبوه المفرج سنة ٤٠٤ هـ ، ويعضده بتوكلاب اليمنيون يتزعمهم المرداسيون ويقدمهم صالح بن مرداس ، وكانوا يسيطرون على جزء كبير من شمالى الشام ، وكانت صراعاتهم مع الحمدانين للسيطرة على الشام أيام سيف الدولة وخلفائه قائمة لا تهدأ .

فى هذا الجو بدأ التهامي يتحفز للقيام بدور ، والفوز بمغنم واختار لنفسه مصر للقيام بدور فيها ، ويبدو أنه رجع إلى حسان بن المفرج وعاهده على أن يعمل عملا ما بمصر ، وكان أن اختار قبائل بنى قرة فى الغرب والصعيد ، بإقليم البحيرة وبرقة والفيوم وكانت بينهم وبين الحاكم محن وصراعات ، لا تزال جراحها دامية .

وكما اختار المتنبى من قبل الكلابيين ليثور بهم ضد الاخشيد فى مصر والعباسيين فى بغداد فى أوائل القرن الرابع ، كذلك فعل التهامى حين اختار بنى قرة ، ويعيد التاريخ نفسه فى أوائل القرن الخامس ، يقول الباخرزى(١) : « رحل إلى مصر بكتب من حسان بن المفرج الطائى إلى بنى قرة فاعتقل فى مصر وحبس ثم قتل سرا فى سجنه » .

---

(١) دمية القصر ١ /١١٠ .

ويقول ابن خلكان(١) : « وكان التهامى المذكور قد وصل إلى الديار المصرية متخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن الفرج بن دغفل البدوى ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من بنى تميم ، فلما انكشف حاله ، عرف أنه التهامى الشاعر ، فاعتقل فى خزانة البنود وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ ، ثم قتل سرا فى سجنه فى تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة » .

ويقول النويرى (٢) : « ووصل الخبر من جهة بنى قرة فى البحيرة أنهم أقاموا عليهم إنسانا ببرقة ولقبوه أمير المؤمنين » . هكذا جاء الخبر وكان ذلك عام ٤١٥ هـ ويتفق هذا مع ملابسات مجىء التهامى إلى مصر ، فهل وفد سنة ٤١٥ هـ قبل القبض عليه بعام أو جاء قبل ذلك وأعد العدة سرا للدعوة لنفسه ويكون بذلك قد اتخذ من حسان سلما لبلوغ غايته .

ويقول الصفدى : « وكانت نفسه تحدثه بمعالى الأمور ، وكان يكتم نسبه ، فيقول تارة أنه من الطالبيين ، وتارة من بنى أمية ، ولا يتظاهر بشىء من الأمرين ، وكان متورعا صلف النفس » ، ويقول : « وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوى ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من تميم.ويزيد الصفدى فى خبر التهامى معلومات ربما كشفت لنا عن بعض أمره ، وعن سر رحلته المثيرة إلى مصر متخفيا ، فأما المعلومة الأولى فهى قوله : أن نفسه كانت تحدثه بمعالى الأمور ، وهذا ما كشفنا عنه فى شعره ، وقت اقامته مع آل المفرج ، وفى اثناء تجواله بالجزيرة والموصل وديار بكر وديار ربيعة حتى عاد إلى آل المفرج فى سنوات ما بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١٤ أو سنة ٤١٥ هـ .

وأما المعلومة الثانية فهى أنه كان يتكتم نفسه ولا ندرى أتبع فى ذلك قرينة المتنبى الذى أخفى نسبه كذلك ليوهم الناس بأنه علوى وربما الإمام المنتظر أو شيئا من هذا القبيل .

---

(١) وفيات الأعيان ٣ /٣٨١ طبع دار الثقافة بيروت بتحقيق د. إحسان عباس .
(٢) نهاية الأرب ٢٨ /٢٠٥ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر .

فتارة كما يبين الصفدى يدعى أنه من الطالبيين حتى يرى أن هذا النسب يشفع له ويقربه من الاشراف والعلويين ، خاصة وأنا علمنا من مدائحه أنه اتصل بكثير منهم ، ومنهم من غالى فى غلويته كآل حيدرة ، ومنهم من اعتدل .

وتارة يدعى أنه من بنى أمية ، ولعل هذا الادعاء الأخير كان فى مصر حين حل ببنى قرة ، ونعلم أن بنى قرة كانوا أنصار أبى ركوة الذى ادعى الأموية ، ودعا إلى خلافة سنية وحارب الخلافة الشيعية الفاطمية إلا أن امره انتهى إلى الفشل والهزيمة والقتل .

أترى ادعى بين بنى قرة ما ادعاه أبو ركوة ليحظى بتأييدهم ؟ ثم ما علاقة هؤلاء ببنى الجراح ، وهل كانت لهؤلاء الطائيين ميول أموية ؟! ثم نتسائل ، لم ادعى نسبا تميميا عند القبض عليه ؟ أليبعد عن نفسه شبهة الدعوة للأموية ؟

وهل كان يدعو لنفسه بإمارة المؤمنين حقا وهى دعوة سنية تقابلها دعوة الإمامة ، عند الشيعة ، أكان يريدها خلافة سنية يكون هو أمير المؤمنين فيها ، وأن يعيد إلى الدولة العربية مجدها الأموى القديم بعد أن تهاوت الدولة العباسية ومزقتها الخلافات والصراعات وتغلبت الديلم والاتراك ، أتراه ندب نفسه ليعيد إلى الدولة العربية مجدها القديم ، ويعيد للعرب ، والعروبة هيبتها ؟ ربما طاف هذا كله فى مخيلته ، وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

والآن دعنا نقرأ شعره فى هذه المرحلة لنستشف منه ما يمكن أن يجلى لنا حقيقة أمره .

يقول فى قصيدة له بعث بها من سجنه إلى صديق له(١) :

لنفسك لم لا عذر قد نفد العذر	بذا حكَمَ المقدور إذ قضى الأمر
لقد لفظتْنِى كلُّ أرضٍ وبلدةٍ	وما لفظتنى عن مواطنها مصر
لعمرى لقد طوفت فى طلب العلا	وحالفنى بر وحالفنى بحر
فشرقت حتى لم أجد لى مشرقا	وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
أروم جسيمات الأمور وإنما	قصاراى أن أبقى إذا بقى الدهر
ولو كنت أرضى بالكثير وجدته	ولكن فى نفسى أمورا لها أمر
ظللت بمصر فى السجون مخلدا	وإنى لسيف جفنه فوقه ستر

(١) نهاية الارب ٢٨ /٢٠٥ طبع الهيئة المصرية للكتاب بمصر ، وراجع ديوانه ص ٤٢٦ .

من تراه هذا الصديق ؟ أظنه ليس من الفاطميين ، بل لعله من أصحابه ، وقد يكون فيمن أيد دعوته .

ويقول فى القصيدة نفسها شارحا بعض ما يظن أنه أدى به إلى السجن :

جنيت على نفسى بسعيى إليهم   وحظى من أوفى مواثيقهم غدر

من هم هؤلاء الذين سَعَى إليهم وغدروا به ؟ أهم بنو قرة الذين أسلموه للفاطميين ولم يدفعوا عنه خشية أن يلقوا ما لقوا من فعل على يد الحاكم ، وبخاصة أن الظاهر استعاد قبضته على الأمور ، وبدأ يعد العدة بالاستعانة ببعض كبار دولته وقادته المظفَّرين من الأتراك كالقائد أمير الجيوش بوشتكين الذى أعده لاستعادة هيبة الدولة .

ويحاول التهامى أن ينفى عن نفسه القيام بعمل ضد الدولة ، معتذرا بأن ما أخذ عليه لم يكن سوى القول وبما جاء على لسانه فى الشعر وفرق بين القول والفعل كما قال المتنبى من قبل ، ويقول التهامى :

ومالى من ذنب سوى الشعر إننى   لأعلم أن الذنب فى نكبتى الشعر
لعل الليالى منصفات أخا النوى   بأحشائه من فرط حسرته جمر
أسير لدى قوم بغير جناية   ألا فى سبيل الله ما صنع الدهر

أتراه إذا صدقنا قوله هم ولم يفعل ؟ أم نصدق قول التاريخ بانه هم وفعل لكنه لم يوفق وخاب سعيه فكان ندمه وحرقته ، لقد كان شعره دليل الاتهام ضده فهو ثابت عليه ، إذا لم يجد محاكموه دليلا على ادعائه الخروج والثورة .

ويقول من قصيدة أخرى فى سجنه(١) :

وضاعف وجدى لما سجنت   مقالة من غاب من طرفه
يقول، وبعض مقال السفيه   يقتل إن هو لم يخفه
أهذا التهامى من مكة   برجيله يسعى إلى حتفه
ألم يكفه أن ثوب الحياة   ضاق عليه ، ألم يكفه
أراد يطير مطار الملوك   وظن الاسنة من زفه

---

(١) قصيدته ص ٤٣٠ من الديوان المطبوع .

وكان كنائد جيش الضلال عاين جبريل فى صفه
أصيفر يرعف من نحره إذا رعف المرء من أنفه
وأحسب سيف ابن بنت النبى يخضب خديه من عرفه
أرى ملك الموت يدنو إليه وهو يعض على كفه
أبا لشعر ويحك تبغى الفلا ح وأنت تقصر عن وصفه
ولم تك أهلا لأن تستقر على خسة الشعر مع ضعفه
أرقت دما بعدما صنته واشعلت جمرا ولم تُطْفِهِ
وأشفيت منتظرا للبوار وصدرك حران لم تشفه
لعمرك إن لبيب الرجال من كف أو غض من طرفه
إلى الله أشكو أمورا جرت على غير قصد واستعفه
وكم قائل سجنوه على تطلبه الملك من كهفه
أيطلب الملك من ليس منه ولا من بنيه ولا صنفه
ومن كان ذا حنكة بالعلوم قاربة البؤس من صرفه
إذا نشف العود من أصله فذلك أدعى إلى قصفه

هذه القصيدة كافية شافية فى أمر التهامي واسباب سجنه ، فهو يعترف اعترافا واضحا وصريحا ، لا موارية فيه ، كاعتراف المحكوم عليه بالموت وهو يحس بالسيف يقترب من عنقه ليقضى على حياة هذه النفس الأمارة التى زينت له طريق الضلال على حد قوله ، ومنته بآمال عراض ، وحدثته حديث الملك دون أن يكون من جنسه ولا ابنائه ولا كان مؤهلا له ، وندم لأنه صدق أوهامه بأن الشعر كفيل بأن يصنع منه إماما ، أو ملكا ، وما هو الا سراب زينه الوهم فظنه ماء ، فإذا ما جاءه لم يجده شيئا ووجد الموت عنده .

ومن قصائده فى السجن هذه القصيدة اللامية التى حاكى بها قصيدة مشابهة للمتنبى يقول(١) :

هبوا أن سجنى مانع لوصاله فما الخطب أيضا فى امتناع خياله

وقدم هذه القصيدة لمن يدعى احمد بن سعد بن سيرين ، فيذكره بقوله :

---

(١) ديوانه ٣١١ .

كذاك ابن سيرين بنفثة يوسف ... تكلم فى الرؤيا بمثل مقاله
وأنتم أناس فضلهم غامر الورى ... فما بال مثلى دائرا فى انخماله
أأبصرتمونى شافعا بسواكم ... وانتم بعيد وهو فى ضيق جاله
وإذ صار سعد وابنه معقلا له ... فما العذر من إطلاق من عقاله

ولم تسعفه شفاعة ابن سيرين ، فلم يستطع أن يمد إليه يدا لإخراجه من السجن فمضى حسيرا كسيفا يجتر آلامه ، ويعصره الندم ، حتى لقى ربه ألما وكمدا أو غيلة وغدرا .

شعر التهامى

يبدو على شعر التهامى بصفة عامة طابع التقليد وهو بدوى النهج والصياغة وموضوعاته غالبها المديح ، وقليل منه فى الغزل ، والوصف ، والعتاب ، والرثاء ، ومديحه يبدؤه فى معظم القصائد بالنسيب والغزل والرحلة ووصف بعض مشاهد الطبيعة بالحجاز ونجد أو بالشام .

وقصائده فى المديح لا تطول كثيرا ، فهى متوسطة تتراوح بين ثمانية أبيات وخمسين بيتا .

وله مقطعات قليلة قالها فى مناسبات يتبادل فيها النظم مع بعض رفاقه أو ممدوحيه ممن قصدهم من الأمراء والوزراء والرؤساء والقضاة .

وقد يبدأ قصيدة المديح مباشرة دون التمهيد بالنسيب والرحلة ، كتلك التى قالها فى أبى العلاء المطهر بن عطاء كاتب ابن حميد . قال مباشرة[1] :

لأبى العلاء فواضل مشهورة ... حلت محل الفرقدين علاء

ومعانى المديح عنده محدودة تكاد تكون محصورة فى صفات الكرم ، والجود والشجاعة والإقدام والهمة ، وهذا طبيعى ، لأنه شاعر متكسب يسأل بشعره ، أو هو شاعر محترف يستخدم الشعر كغيره من الشعراء المحترفين وسيلة لكسب العيش . ومن هنا كانت مبالغته فى صفات كرم ممدوحه ، وكان اسرافه فى إضفاء الثناء حتى إنه ليخرج كثيرا عن حدود المعقول والمقبول إلى مستوى من الملق والتزلف الممجوج المسترذل .

(١) ديوانه المطبوع ص ٢٥ .

على أن الظواهر الواضحة فى شعر التهامى مزج صفات البلاغة ، والخطابة بالسياسة والشجاعة والكرم وبعد الهمة ، وذلك لأن كثيرا من ممدوحيه كانوا إما من الوزراء الكتاب أصحاب القلم ، أو من القضاة والعلماء ، كما كان بعضهم يجمع بين الرئاسة أو الإمارة والشعر كالأمير قرواش بن المقلد العقيلى صاحب الموصل .

كأن يقول فى أحدهم[1] :

لولاه لم يَقْضِ فى أعدائه قلم ... ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
فيه المنى والمنايا كالشجاع به ال ... درياق ، والسم جم النفع والضرر

وأما معانى المديح التقليدية وأولها الكرم فقد أدارها التهامى فى شعره مكرره أحيانا بلفظها ، وأحيانا بقوالبها التعبيرية المعتادة عند غيره ، وقد يلجأ إلى التغيير والإغراب فى عرضه كأن يشبه الطعنات وأثرها فى الأعداء بالأعكان المحيطة بالسرر .

ما ضر إلا وضلت بيض أنصله ... فى الام أو سمر الأرماح فى الثغر
وغادرت فى العدى طعنا يحف به ... ضرب ، كما حفت الأعكان بالسرر

وهو إغراب عجيب ، وتشبيه لا يتوقع فى هذا المعنى ، وهو تشبيه جنسى فى موضع الحرب ولكن متعة الجنس نقترب أو تقترن فى الوقع عند بعض البدو والمحاربين بمتعة الجنس .

ويبدو لعين الناقد أنه وضع اللفظ فى غير موضعه كوضع السيف فى غير موضعه فى (الندى) كقول الشاعر :

ووضع النّدى فى موضع السّيف فى الوَغى ... مضرٌّ كوضع السّيف فى موْضع النّدى

وأشار هو نفسه إلى هذا العمد إلى الأغراب حيث قال[2] :

يارب معنى بعيد الشأو أسلكه ... فى سلك لفظ قريب الفهم مختصر
لفظا يكون لعقد القول واسطة ... ما بين منزلة الإسهاب والخصر

(١) ديوانه ص ١٨٧ .
(٢) ديوانه ص ١٨٧ .

وفى معانيه الجديدة قوله مادحاً ، واكثر من ترديده :

وما تنجح الأقلام إلا بكفه ... ومخلب غير الليث فى كفه ظفر

يعيده مرة أخرى فيقول :

لولاه لم يقض فى أعدائه قلم ... ومخلب الليث لولا الليث كالظفر

ومن تلك المعانى ما يدور حول السيادة ، والخطابة والإمامة وسداد الرأى وما إلى ذلك ، كأن يقول :

يغضى لهيبته الزمان إذا انتضى ... عضب المنابر باتر الحدين
متقلد من رأيه وحسامه ... سيفين قد نيطا إلى كتفين

وفى الكبرياء ـــ جر الرداء كقوله :

لا زلت فى رتب المعالى ساحبا ... ذيل المكارم مسبل الكمين

ويذكر القتال من عمل الرماح معنى جدد فى صورته ، فالقدامى قالوا إن الممدوح يسلك فى رمحه الرؤوس وغير ذلك ولكنه يعدل فيه فيقول :

كأن سنان الرمح سلك لناظم ... غداة الوغى ، والدارعون جواهر
ترد أنابيب الرماح سواعد ... ومن زرد الماذى فيها أساور

ومن معانيه الجديدة فى المديح التى ذكرها الصفدى قوله فى مديح ابن المفرج :

تلبية من آل المفرج إن دعا ... أسود لها بيض السيوف أظافر
تراه لقرع البيْض فى البيْض مصغيا ... كأن صليل الباترات مزاهر
وحـــفت به الآمال من كل جانب ... كما حف أرجاء العيون المحاجر

ويتعقب كثيرا من الشعراء السابقين ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبى ، فقد اكثر الاعتماد عليه ، وربما كان ذلك لتقارب طبع الشاعرين ، واتفاقهما فى بعض هموم الحياة .

يقول :

أكلف أقلامى تبلغنى المنى ... وقد عجزت عنه الرُّدَينيَّةُ السمر
وإن لم تنل بالبيض تخضبها الدما ... فأهون بأقلام يخضبها الحبر

وهو من قول المتنبى :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم

وإن كان أصله عند أبى تمام فى قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

ويقول التهامى :

فلا يغرر الأعداء منه ابتسامه فإن قطوب السيف عند ابتسامه

وهو من قول أبى الطيب :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

وينظر إلى معانى أبى تمام فى مثل قوله :

قرى البين جفنيها على الخد فالتقى بأدمعها والمبسم الدر والدر

وفى قوله :

ذرينى أهب للمجد شرخ شَبيبَتى فإن لم أبادرها استبد بها العمر

فقد ألم يقول الطائى :

غَدَتْ تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
وأجرى لها الإشفاق دمعا موردا من الدم يجرى فوق خد مورد

ويقول أبى نواس :

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

وفى غزله يبتكر كذلك بعض المعانى ، ويلتقى مع سابقيه فى كثير منها ، وتراه يتبدى أحيانا ، فيقول(١) :

ريانة الخلخال ظامئة الحشا هر كولة خرعوبة الساقين

ويسلك طريقة المحدثين وأهل الحضر فيقول :

---

(١) ديوانه ص ٤٠٦ .

قلت لخلى وزهور الربا ... مبتسمات ، وثغور الملاح
أيهما أحلى ترى منظرا ... فقال : لا أعلم كل أقاح

ويعيد صياغة هذا المعنى فى معرض آخر ليقول :

وضاحكن نور الأقحوان فقال لى ... خليلى أى الأقحوانين أعجب ؟
فقلت له لا فرق عِنْدِى وإنما ... ثغور الغوانى فى المذاقة أعذب

ويعيد معانى القدامى فى لفظ جديد ، كأن يقول فى المعنى القديم لعمل عيون المرأة فى العاشق :

قالوا: قتلت بصارم من طرفه ... فيما زعمت ، وما نراه بقان
فأجبت : خير البيض ما سفك الدما ... فمضى ولم يتخضب الغربان

وغربا السيف جانباه .

ويتأثر بالمتنبى فى هذه المعانى الغزلية كما تعقبه فى معانى المديح فيقول فى دموع الفراق على خدى المرأة :

لم أنسها تشكو الفراق بأدمع ... ما اعتدن بالخد الأسِيل مسيلا

وهو من قول المتنبى :

بكت غير أنسة باليكا ... ترى الدمع فى مقلتيها غريبا

ويقول[1] :

كيف السبيل إلى لقائك فى الدجى ... والليل حيث حللت منه مقمر

من قول أبى الطيب :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء ... إذ حيث أنت من الظلام ضياء

ويكرر هذا المعنى التهامى فى قوله بصياغة مغايرة وإن كانت تلم بعناصر من صياغة المتنبى فى قوله[2] :

الليل حيث حللن فيه نهار ... فلذا ليالى وصلهن قصار

١) ديوانه ص ٢٢٨ .
٢) ديوانه ص ٢٠٨ .

ويركز التهامى فى غزله على الطيف ، ويأتى فيه بكثير من المعانى الجيدة ، وقد اختار الصفدى من معانيه فى الطيف قوله :

خليلى هل من رقدة أستعيرها   لعلى بأحلام الكرى أستزيرها
ولو علمت بالطيف عاقنه دوننا   لقد أفرطت بخلا بما لا يضيرها(١)

ومن شعره فى الطيف قوله :

زارنى فى دمشق من أرض نجد   لك طيف أسرى فَفكَّكَ أسرى
فاجتنينا يدور نجد بأرض الشام   بعد الهدو بدرا فبدرا
وأراد الخيال ـ لَثْمِى فصيرت   لِلَثْمِى دون المراشف سترا
فاصرف الكأس من رضابك عنى   حاش لله أن أرشف خمرا
ولو أن الرضاب غير مدام   لم تكونى فى حالة الصحو سكرى
قد كفانا الخيال منك ولو زرت   لأصبحت مثل طيفك ذكرى

وفى غزله غزل رقيق ، وفيه شكوى انصراف الملاح عند طلوع الشيب من مثل قوله :

صددت إذ عاد روض الرأس ذا زهر   الشيب عندك ذنب غير مغتفر
لا در در بياض الشيب إن له   فى أعين الغيد مثل الوقر بالإبر
سواد رأسك عند الهائمين به   مُعادِلٌ لسواد القلب والبصر
قد كان مغفر رأسى لا قتير له   فصيرته قتيرا صبغة الكِبَرِ

وللتهامى فى شكوى الزمان والكبر أبيات كثيرة جيدة ، وعلى أن وجيعته التى خلدها شعره فقده لابنه ، وقد أعجب بها العلماء ورددوها فى كتبهم ، وذكرها الصفدى من بين ما ذكر من عيون شعره كاملة وهى رائيته التى يقول عنها : وله القصيدة الرائية المشهورة التى رثى بها ابنه ، وقد سارت مسير الشمس وهى من الكامل(٢) :

حكم المنية فى البرية جار   ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الانسان فيها مخبرا   حتى يرى خبرا من الاخبار

---

(١) الوافى بالوفيات ٢٢ /١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٢١ .

طبعت على كدر وأنت تريدها | صَفْوًا من الأقذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها | متطلب فى الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما | تبنى الرجاء على شَفيرٍ هَارِ
العيش نوم ، والمنية يقظة | والمرء بينهما خيال سار
فاقضوا مآربكم عجالا إنما | أعماركم سفر من الأسفار

ويروى الصفدى كما روى غيره من قبل أنه رئى بعد موته فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى . قيل له بأى الأعمال ؟، قال : بقولى فى مرثية ولد لى صغير وهو :

جاورت أعدائى وجاور ربه | شتان بين جواره وجوارى

ألفاظه وتعبيراته وصوره :

قلنا إن شعر التهامى يتردد بين روح البداوة والحضر وقد كانت البداوة غالبة عليه أول الأمر ، حين وفد من البادية أو تهامة ، لكن هذه البداوة خفت حدتها ، وقلت آثارها فى شعره بعد إقامته فى الشام وحواضر العراق زمنا ، وخالط من فيها من الأدباء والشعراء فرقت ألفاظه ، وتشكلت تعبيراته وصوره بألوان حضريه ، وإن عاودته من حين إلى آخر بداوته .

ومن الصور البدوية فى لفظ بدوى قوله مرتجزا :

وَعيْرانَةٍ زيافة تحذف الحصى | غُرَيْرِيَّةٍ يغتالها القيد واللصب(1)
طواها النوى واجتاحها لازم السرى | فلم يبق منها لا عنيق ولا جذب
قطعت عليها بالدياجى وبالضحى | وفى حومة التهجير والآل منصب
إلى بلد ذلت لعز ملوكه | ملوك البرايا والأعاجم والعرب

وكذا فى قوله من غزل يذكر بنسيب القدامى فى الجاهلية :

سقى العهد من هند عهاد من الحيا | ضحوك ثنايا البرق منتحب الرعد
يحل عقود القطر بين معاهد | تحل بها من قبل درية العقد
فتاة أرى الدنيا بما فى نقابها | وألقى بما فى مرطها جنة الخلد
هى الشمس تخفى الشمس عنها إذا انتحت | قضاعية الأحوال مَهْرِيَّةُ الجد

(1) العيرانة : الناقة النشطة — وغُرَيرية نسبة إلى غُرير فحل من الإبل ، اللَّصْبُ : الجلد اللاصق باللحم من الهزال .

وتراه يستخدم فى أساليبه التصويرية عناصر من طبيعة الصحراء ، فى وهادها وحيوانها ونباتها كعادة الشعراء القدامى من ساكنى البادية ومن شاكلهم أو سار على طريقتهم . ومن صوره الملحوظة التى تتردد فى قصائده صورة السماء بنجومها ، يقول من قصيدة :

فسرت أعثر فى ذيل الدجى ولها … والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض … كأنها حبب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا … كأنها قطعة من فروة النمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم … وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
كأن أنجمه والصبح يغمضها … قسراعيون غفت من شدة السَّهَرِ
فروع السرب لما ابتل أكرعه … فى جدول من خليج الفجر منفجر

فهذه الخيالات البدوية الغريبة التى خيلت له من نظره للسماء سمة واضحة من سمات شاعريته ، نقف أمام تشبيهه للثريا بفروة النمر ، وصور النجوم فى ضوء الصباح المطل من المشرق آخر الليل بالسرب الذى ابتلت أكارعه — أرجله — فى جدول الماء .

وإذا كان قاموسه اللغوى قد حوى كثيرا من لفظ القدامى ، فهو يستخدم أحيانا بعض التعبيرات القرآنية والإسلامية مثل قوله :

إذا أنشدت فى ناد قوم أكارم … يخرون للأذقان إن ذكر الرب

قوله ويذكر الخضر العبد الصالح :

وشرقت حتى لم أجدلى مشرقا … وغربت حتى قيل هذا هو الخضر

يحلو له أحياناً استخدام بعض صور البديع كالجناس على طريقة أبى تمام من مثل قوله :

وتركت أعينهم بصور فى الوغى … صورا،وقد جَاحَ الوَرى ما جاحا

وكقوله :

أنى تروم الروم حربك بعدما … صليت بحربك محربا ملحاحا
لم يَرْمِ قط بك الإمام مراده … إلا جلوت عن الفلاح فلاحا

وكقوله :

وإذا هزك الإمام لحرب أو لسلم ، فأنت نصر ونصل

وقوله :

وهذا ابن يحيى إلى فضله تنض الركاب ، وتنضى المطى

* * *

— ٢ —
المؤيَّد فى الدين داعى الدعاة[١] (ت سنة ٤٧٠ هـ)

هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازى

نشأ فى بلده ، من أسرة اعتنقت الإسماعيلية مذهباً ، ودانت للفاطميين ولاء وكانت شيراز موطن الأسرة ، وإليها نسب الداعية الشاعر ، وبها عرف . ونبغ وتفقه فى الدعوة ، وكانت به موهبة الشعر والجدل ، عرف بقوة المعارضة والذكاء وحسن البيان .

ولما بلغ مبلغ الشباب طمحت نفسه إلى أن يجد له مكاناً بين الدعاة ، واتصل بأبى كاليجار السلجوقى وعايشه زمناً حتى طلب إليه مغادرة البلاد . وكانت سنة آنذاك تسعاً وعشرين عاماً . وكانت تهمته محاولة الدعوة للمستنصر الفاطمى . .

وجاء إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ بعد أن تجول زمناً فى العراق والشام .

قال الدكتور محمد كامل حسين: «سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين، كان عنده أملٌ فيما سيلقاه من نعيم وتقديم ، إذ كان وحيداً فى علمه وحجته ، خدم الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه ، وكان بجانب أمله هذا يائساً أشدَّ اليأس لأن إمامه غير متصرِّف فى شئون بلاده ، وأن قوة أخرى كانت تدير البلاد ، هى أم الخليفة المستنصر»[٢] .

وعند وصوله إلى مصر كان متولى الوزارة الفلاَّحى فخر الملك صدقة بن يوسف (قتل سنة ٤٤٠ هـ) ، فأكرمه الوزير ، وأمر بأن تجهَّز له دارٌ . قال عنها : « دويرة فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال » .

---

(١) قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة جامعة وافية له ولشعره فى مقدمة ديوانه ونقبس هنا من هذه الدراسة ما يعرِّف بهما .
راجع ديوان المؤيد بتحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين طبع دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٩ م .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ .

وكان يتولى الدعوة أو منصب داعي الدعاة أهو حفدة القاضي النعمان الداعية . واسمه القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان . كان يتولى القضاء والدعوة معاً ، وخشي من منافسة هبة الله له ، فعمل على إبعاده من مصر . وكان قد عزم على الرحيل لمّا أحس بضيق الناس من حوله ، ومنعهم له من الاتصال بالخليفة المستنصر .

وتمكن من الوصول إلى الخليفة فى شعبان سنة ٤٣٩ هـ ، وسجد عنه رؤيته تحية له ، وألجم عن الكلام وانعقد لسانه قال يحكى ذلك : « ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت علىَّ ثوبى للقعود رأيت بناناً يشير إلىّ بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام ، فقطَّبَ أمير المؤمنين — يعنى المستنصر — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجراً ... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول . » .

وعيّن أستاذاً بدار الخلافة ، وقويت علاقته بأم المستنصر ذات النُّفُوذ وعين فى الوزارة الجرجرائى فاليازورى . وكانت بينه وبينهما أحداث . وتولى دار الإنشاء . وكان يطمع فى مرتبة داعى الدعاة ، ومازال يسعى لها حتى بلغها واشترك فى مؤامرة البساسيرى للدعوة للفاطميين بالعراق سنة ٤٤٦ هـ ، ولكن المؤامرة فشلت ، واستعاد طغرلبك السيطرة على بغداد وشمال العراق .

ولم يجد المؤيد بدًّا من الهرب فغادر العراق بعد مقتل البساسيرى إلى حلب ثم عاد إلى مصر ، وعين داعياً للدعاة سنة ٤٥٠ هـ ، وظل كذلك حتى توفى سنة ٤٧٠ هـ وصلى عليه المستنصر ودفن بدار العلم بالقاهرة .

شعـــره

هذا عن حياة المؤيد ، واجتهاده فى الدعوة للفاطميين ، وأما شعره فقد نبض بحماسه للإسماعيلية كمجالسه ، وكان خطاباً ينفث من خلاله تعاليمهم واعتقاداتهم . ولا نقف طويلاً عند هذه المعانى فقد وفاها غيرنا[1] والمجال لا يتسع للحديث فيها . ويهمنا بالدرجة الأولى شعره الخالص الذى لا يستهدف الدعوة ، وليس بوقاً خالصاً لها ، وإن لم يخل شعر له من ذلك .

---

(١) وفى ذلك الدكتور محمد كامل حسين فى دراسته التى أشرنا إليها .

وكان لألمامه بالديانات والمذاهب أثره فى شعره ، كما كان لسعة اطلاعه فى العلوم العقلية والنقلية آثارها كذلك ، ويشبهه الدكتور محمد كامل حسين بأبى العلاء فى ذلك . يقول : فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفا فى شعرهما اختلاف عقائد الناس فى عصرهما ، وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية ، وغير الفلسفية ، وعن الحياة وعن الموت ، وعن دقائق الكائنات العلوية والسفلية .

ولتمكن هبة الله من البيان ، ولما وهب من شاعرية ، اكتسب قوله الشعرىّ جمالاً ، ورونقاً ، ولم تؤثر فيه القضايا العقلية والمذهبية ، بحيث تذهب برونقه جميعاً ، ويصبح مجرد صحائف دعوة وحجاج .

ونعثر بكثير من قصائده التى يخلو فيها إلى نفسه ويتحدث عن هموم ذاته وعواطفه ومواجده ، آماله وآلامه ، وأحاسيسه بالحياة والناسِ من حوله . ومعظم شعره فى هذا الجانب غير العقائدى يدور حول ذاته ، ولم يهتم بما حوله من صور الحياة والطبيعة ، فلم يتحدث عن النيل ومصر ومتنزهاتها وبساتينها وأديرتها كما فعل غيره من الشعراء من السابقين أمثال تميم والعقيلى ، ومن عاصره كذلك قبل جماعة الأفضل .

وكان إحساسه بالذات متضخماً ، فانعكس على قوله بالمبالغة فى الاعتداد وقد يتصاغر أمام الأحداث ، فتهزه بداخله ، وتذعره ، فيقول :

فالطير إن طار صرتُ مرتجفاً والطيف إن طاف أنْزوِى أَلَماً

على جرأته واقتداره فى اقتحام الأخطار ومواجهة الأحداث فى حياته .

وفى شعره رنةُ أسى حزين ، وصوفية تتردد أصداؤها هنا وهناك أحياناً ، فيخبر عن رغبته فى الموت للخلاص من عناءِ الجسد وحياة المادة إلى دنيا الروح ، وَيتَمثَّل الجسد سجناً كالصوفية :

ريحانتى الموتُ وبابُ أمنى إذ كنتُ أرجو مخلَصِى من سجنى

ولا شك أن هبة الله قد حفظ كثيراً من الشعر العربى القديم وتأثر به ، فآثار ذلك بادية فى مواضع كثيرة من قوله . وكان للمتنبى نصيب وافر من شعره فى

اللفظ والمعنى ، وقد أشرنا فى مواضع من كتابنا هذا إلى ما كان للمتنبى من أثر على شعراء العصر . وقد يضمن من قوله كما قال :

فغدوت باللَّأْوَاءِ مفصوم العُرَى   من طولِ ما تعتادنى اللأْوَاءُ
مترنماً دهرِى ببيتٍ قاله   من ليس ينكرُ فضله الشعراءُ
« وشَكِيَّتى فقد السقامِ لأنّه   قد كانَ لمَّا كان لى أعضاءُ »

ويستعين بالقرآن الكريم ، فيضَمن بآياته ، ويشير إلى قصصه وأخباره ويوظفها فى معانيه . كقوله :

فلما طفى الماءُ أُجْرَى به   سفينتَه ربُّه فى العباب

مستعيناً بالآية : (إنَّا لمَّا طغى الماءُ حملناكم فى الجارية) .

ونمثّل ببعض شعره ليقفنا نصُّه على مضامينه وفنه . ونقتبس من أول شعره فى الديوان قوله فى وزن الرجز على شكل الشعر التعليمى . يقول :

حَمْدًا لربٍّ قاهر السلطانِ   فردٍ مليك باهِرِ البرهانِ
أتقن كلَّ صنعةٍ وأحكَما   من ذا يَرُدُّ ما به قد حكما
حِكمتُه خافقةُ الأَعلام   تريك وجه الحق ذا ابتسام

ويقول فيها :

كم ناظرٍ بعقله لا يُبْصِرُ   ومبصرٍ بالقَلْبِ لا يستَبْصِرُ
ونظَرُ المرْءِ لهُ شرائِط   تارِكُها فى الظُّلُمَاتِ خَابطُ
كذلك العقلُ لدى التبَصُّرِ   بذاته فى حيِّزِ التحيُّرِ
إلاَّ بنورٍ عاضِدٍ من خارج   فعنده يعرجُ فى المعارِجِ
وإنما أمتنــا تفرَّقــوا   إذ بَيْن ذا وبَيْنَ ذاكَ فرَّقوا
وأصبحت عقـولهم مختلَّة   سقيمةً ، نفوسُهم مُعتَلَّةْ
فسلبوا سداد قول وعَمَلْ   وعُرِضوا لكلِّ خطْبٍ وخطَلْ
ونقضوا قواعدَ الشَّرِيعَةْ   كلٌّ له مقالةٌ شنيَعــةْ

وهى أرجوزة طويلة تعليمية كما قلنا ضمنها أصول العقيدة ، وأراد بها الدعوة لمذهبه .

ويقول فى مدح الفاطميين والأمة الإسلامية :

فُديتِ خيرَ أمةٍ قد أُخرجتْ ... للناسِ تنفِى الرِّيَبَ عنَّا والخَلَلْ
الرَّاكعونَ الساجدون فى الدُّجى ... والطَّيِّبونَ الطَّاهرونَ والنُّبلْ
الفاطميُّون الصناديدُ الأولى ... هم من جبالِ الفضلِ والفَخرِ القُلَلْ

ويوجه حديثه إلى الخليفة الفاطمى :

بك اعتلى فى الأفقِ نجمٌ للهُدَى ... ومنك حقًّا ناجمُ الكُفْرِ أفَلْ
يا قبلَةَ الأرْوَاحِ يا مَنْ نحوهُ ... تَوجَّهتْ فى الشَّرقِ والغربِ القِبَلْ

ونلاحظ أنه كثيراً ما يعمد فى مدائحه للأئمة إلى البدء مباشرة فى الموضوع ، وإلا فيبدأ بالشكوى ، فمما بدأ به مباشرة قوله :

اللهَ ينشُرُ راية المستَنْصِرِ ... بالله ، مولانا الإمام الأطْهَرِ
ويُتمُّ نورَ أبى تميم حالياً ... بسَنَاهُ أعناق الظَّلام الأكْدَرِ
ويديم دولَتهُ ويَجْبُر كسْرنا ... فى «الظاهر» الغُصْنِ الرَّطيبِ الأخْضَرِ

ومما بدأ به بالشكوى قصيدة يستهلُّها بالحديث عن الغربة ، ولعله يقصد الغربتين الجسدية والنفسية حيث يقول : (ولعله قالها بمصر أيام أزمته مع داعى الدعاة واليازورى) .

يا للتَّغرُّبِ أنت بئس الدَّاءُ ... فغِناكَ فقرٌ ، والعطاءُ عناءُ
والعزُّ ذلٌّ ، والسَّعادةُ شقْوَةٌ ... واليُسْرُ عسرٌ ، والبقاءُ فناءُ
والعرفُ منك النُّكْرُ إن يوماً أتى ... أنّى وحالُكَ كلُّها نكْراءُ
يا غُربةً أغربْتُ منها فى مَدًى ... مِن دونِه قد أغْرَبَتْ عَنْقَاءُ
ومسافة اعْرَضُ البسيطةِ دُونها ... قطَّعتُها فرثَتْ لى البيداءُ
أضلَلْتنِى فى الأرْض بل ألْقيْتِنى ... فى اليَمّ ما لِى فى النَّجاءِ رجاءُ
وسفحتُ ماءَ العينِ إذ فوَّتِنى ... رَوْقَ الشَّبابِ فمنه غيض الماءُ
مزَّقتنى بالذّلّ كل ممزَّقٍ ... والذّلُّ يصلى نَارَهُ الغرباءُ
قد كنتُ أفترسُ الأسودَ بفارسٍ ... فالآن تنهضُ لافتراسى الشاءُ

ويمضى فى هذه الشكوى من الغُربة، حتى يصل إلى ممدوحه المستنصر فيقول :

قطعُ الزَّمانِ بحبِّ آلِ محمدٍ وصلٌ ، وداءُ النَّائباتِ دواءُ
ولقاءُ كلِّ شديدةٍ مُستَسْهَلٌ والسعد فى أيامنا تلْقَاءُ
خيرِ الأنامِ أبى تميمٍ ، من لهُ كلُّ البريَّةِ أَعْبُدٌ وإماءُ
مستنصرٌ باللهِ أيدٌ نصرهُ ربٌّ له الإيلاءُ والإنشاءُ

ويستنجده ليرفع عنه الضرّ فيقول :

إنى أتيتُكَ يا ابن بنت محمدٍ مستعدياً مَسَّنِىَ الضَّرَّاءُ
أأبيتُ فى البلدِ الأمينِ مُرَوَّعاً وحماك من صَرْفِ الزَّمانِ وقاءُ ؟

وله فى التشوق والحبّ فى مطلع مديحة أخرى :

غدا البينُ من حُبِّنا مستحيلا يَشُدُّ الرحالَ يريد الرحيلا
فلهفى على مهجةٍ بينها وبين المسرَّة مُذْ حال حيلا
فديت الذى بكمال الجمال تملّك قلبى قليلاً قليلاً
فلما رآنىَ مستأسِراً غدا باللقاءِ علينا بخيلاَ

ويستخدم بعض العبارات القرآنية :

وقلبى على النارِ ذات الوقود ونومى قليلاً وليلى طويلاً
سلاهُ لماذا استَحَبَّ البعادَ فصبَّ علىَّ العذاب الوبيلا
فلو حمّلت بعض ما بى الجبال رأيت الجبال كثيباً مهيلا

ويذكر بثينة وجميلاً :

وكان وكنت بفرط الهَوَى يحاكى بُثَيْنَ ، وأحْكِى جميلا

وهو فى شعره لا يتعمّد التصنع ، وأسلوبه جارٍ ، نثرى التركيب والأداء لا يلقى بالاً إلى رصانة البناء ، وانظر إلى قوله(١) :

أهلاً بأهل ودادنا أهلاً بذكرهم وسَهْلاَ
أهلاً بمن قلبى لَهُمْ بيتٌ وقد سكَنُوهُ أهْلاَ
فَرَّقْتَ شملى يا فرا قُ وخانَنِى جَلَدِى فمَهْلاَ
ما كنت أرضى عيشةً فى فِرقة الأحباب كَلاَّ

---

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

ويميل كثيراً إلى الصنعة البديعية ، وبخاصة الطباق والمقابلة والجناس ، ويوظفها جميعاً لمعانيه ولا يتكلفها كأن يقول[1] :

يا أنيسَ الفؤادِ بُعْداً وقرباً ... لم يَذَرْ لى الفِراقُ عقلاً وقَلْبَا
كانَ حَرُّ الأهوازِ عندِىَ برداً ... وشراباً ، عذابه لى عذبا

ويجانس فى هذه القصيدة نفسها .

فيقول :

شُقَّ منّى الفؤادُ شقًّا وأشقَى ... بالضّنا شيقًّا إلى الوصل صبًّا

وصنيعه هنا شبيه بصنيع المتنبى فى قوله :

وقلقَلْتُ بالهمّ الذى قلقل الحشَا ... قلاقل عَيْـشٍ كلُّهُنَّ قلاقِلُ

وهو قريب الخيال والصورة ، لا يغربُ ، ويتناول الجارى القريب كقوله فى مديح الفاطمى :

قل لابن عباسٍ ليهنِكَ إنّنِي ... حيث اعتززت به أذلُّ ذليلِ
ولطالما رهقتك منى ذِلّة ... من قبل تدنى للحمولِ حُمُولي
ورما بنا قَوْسُ النّوى عن عهدكم ... كم لى هنا لِكَ من أخٍ وعَديل
أسْرِى ، وأسْرِى مركبى وندامتى ... زَادِى ، وخوفى فى الفَلاةِ دليلى
وشققت جيبَ الأرض شقًّا نحومن ... وقفت لديه ركائِبُ التأميلِ
فرأيْتُ نيلاً فائضاً تمساحُهُ ... مُتَشَمِّرٌ يحمى حَرِيمَ النّيـلِ

وقد وظف صورة البيئة المصرية فى النيل وتماسيحه .

ويستعيرُ بعض خياله الدينى من القرآن فيقول :

ونفسٌ حُلاهَا نقشُ توحيد ربِّها ... فنعم الحلىُّ التاجُ والقُرطُ والشّنُفُ
تُضيِءُ كمصباحٍ بدا فى زجاجةٍ ... خلافاً لأقوامٍ قلوبُهُمُ غُلُفُ
وآل النبىِّ المصْطفَى كهفُها الأُولى ... لها بالوَلا فى طودِ مجدهم كَهْفُ

وشعره عامة لا يرقى إلى مرتبة المحترفين ، وربما غلب عليه ، وعلى قريحته أفكاره الدينية ، وعمله كداعية ، ومرشد يعلّم الناس أصول العقيدة ومن هنا كانت بساطته وتسهله فى العبارة وقرب المورد وكثرة الاستعانة بالقرآن الكريم لفظاً ومعنى ، وكثرة الاستعانة بمصطلح علوم الدين .

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

ـ٣ـ
ابن حَيُّوس (محمد بن سلطان)
(ت ٤٧٣ هـ)[1]

هو أبو الفتيان محمد بن حيُّوس الشاعر الشامى الأمير الدمشقى الموطن والنسبة ، أحد الشعراء المعروفين فى القرن الخامس ، بل لعله أشهر شعراء الشام فى النصف الثانى من هذا القرن . له ديوان شعر كبير . وقد اهتم بجمع ديوانه جماعة من رواته وتلاميذه .

وأجوده ما جمعه ابن البرين المعرّى نزيل مصر . فهو أكبرها وأجمعها . ولد ابن حيُّوس سنة ٣٩٤ هـ بدمشق ، وتنقّل فى رُبُوع الشام بين دمشق وحلب وقصد القاهرة فمدح بعض خلفائها الفاطّميين ، وكان ذلك فى عصر المستنصر وابنه الآمر . وقصد الوزير الخطير الأفضل بن بدر الجمالى ، والتقى فى قصره ببعض شعْراء المصريين وغيرهم .

ومدح من قادة الفاطميين الأمير المطفر أنوشتكين الدزبرى البربرى أمير الجيوش ومن كبار قادة المستنصر بالله .

وشارك بشعره فى تسجيل أحداث العصر الفاطمى فى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الصراع بين الفاطمية والعباسية ، والفاطمية والأتراك السلاجقة ومما خلّده ، وقعة البساسيرى فى سنجار وانتصاره على طغرلبك السلجوقى سنة ٤٥٠ هـ وإقامته الخطبة للخليفة الناصر ببغداد . يقول :

عجبتُ لِمُدَّعِى الآفاقِ مُلكاً ... وغايتُهُ ببغداد الرُّكودُ
ومِنْ مستخْلِفٍ بالهُونِ يَرضَى ... يُذادُ عنِ الحياضِ ولا يذودُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصرٍ ... تُقام به بسنجارَ الحدُودُ

وكان ابن حيُّوس منذ شبابه متعلقاً بالقائد الدزبرى رجل الفاطميين القوى بدمشق وأميرهم بالشام ، والذى مكن لملكهم بقهر كثير من أعدائهم من أمراء العرب وقادة السلاجقة . وبخاصة هزيمته للمرداسيين الكلابيين بحلب .

لقد عاش ابن حيُّوس بدمشق إلى جوار أميره المفضل الدزبرى ، يمدحه بالقصائد الطوال ، ويذود عن الفاطميين بشعره ، ويهاجم أعداءهم من العباسيين

والمرداسيين والسلاجقة . وبعد وفاة الدزبرى مدح خليفته ، وبعض أمراء دمشق من قبل الفاطميين ، واتجه بهمته إلى القاهرة قَصَبَــةُ الملك ومركز الخلافة . وكان اتصاله بالوزير المثقف القوى اليازورى ، وبعض الوزراء من بعده .

وتعددت رحلات ابن حيُّوس إلى القاهرة يمدح اليازورى وغيره من وزراء المصريين حتى تغيرت أحوال الدولة فى حكم المستنصر وتآلب الأعداء على القصر من الداخل والخارج ، وعمت الفوضى الشام ومصر وتدخل بعض الثوار بالشام فى شئون الدولة ، وعصى بعضهم واستقل بأجزاء من الشام .

وعانت دمشق من الفوضى والإضطراب . وطردت أميرها الأرمنى بدر الجمالى ، وعاد هذا القائد إلى مصر فاستنصره المستنصر ، وتمكن من اخماد الفتنة ، واستعادة الأمن والانضباط .

وخلفه بعد وفاته ابنه الأفضل ، فسار على سياسة والده ، بقية خلافة المستنصر بالله .

ولم يجد ابن حيّوس بداً من مغادرة دمشق بعد أن نهبت داره وأخذت أمواله . وعاد لا يملك ما يكفل له الحياة الكريمة التى كان يحياها من قبل فى صحبة الدزبرى .

فغادر دمشق كسيف البال ليجول جولة فى بلاد الشام وثغورها قاصداً بعض القضاة ذوى النفوذ فى طرابلس وصور .

ويلتقى بابن منقذ جدّ الشاعر أسامة ، فيصل بينه وأمير حلب من المرداسيين ويظل ابن حيّوس بحلب حتى وفاته .

وفى حلب ، وهو يخدم آل مرداس الكلابيين العامريين ، أعداء الفاطميين يضطر إلى أن يغير من أقواله ، وأن يعتذر أحياناً عمّا كان قاله من قبل فى هجائهم وهو بدمشق أيام كانت علاقته بأنوشتكين الدزبرى قويّة، وكان شعره عندئذ مليئاً بالحماس والتأييد له وللفاطميين . والهجوم على أعدائهم عباسيين وسلاجقة وغيرهم .

عاصر ابن حيوس إذاً من خلفاء الفاطميين الظاهر ابن الحاكم والمستنصر وعرف من كبار وزرائهم أبا الفرج البابلى واليازورى الوزير الخطير ، وبدر الجمالى .

ودار معظم شعره فى المديح ، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الاسماعيلية وسلطان الفاطميين على غير عقيدته السنيّة .

وهكذا كان ابن حيوس فى حياته وشعره دائراً فى فلك الدولة وامرائها منجذباً إليهم ، تابعاً ، ليست له شخصية مستقلة واضحة المعالم ، يختلف فى ذلك عن الشاعر التهامى الذى عمل زمناً مع الفاطميين لكن كانت له طموحاته ، وشخصيته المتميزة فى شعره .

وشعر ابن حيوس يمثل هذه المرحلة بعينها ، وهو فى أسلوبه وبنائه يتطبع بالطابع التقليدى ، يميل إلى طريقة أبى تمام ، لكنه بعيد عن ابداعه وصياغته الفذة ، فهو يحوم حول حماه ، ويحكى لكن فاته الشنب كما قال الشاعر المتأخر .

ومن الملاحظات التى أشار إليها محقق الديوان طول نفس الشاعر فى قصائده . يقول : « وهو من أطول الشعراء نفَسًا ، تتراوح أبيات قصائده بين السبعين والمائة ، وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلا مقدار يسير ، يشابه فى طول نفسه ابن الرومى ومهيار الديلمى ، ويقصر عن الأول فى ابتكار المعانى وتعدد المناحى »(١) .

وليس فى شعره ألمعية تميزه ، وهو صائغ للكلام ، غير مبدع للمعانى . له قاموس لفظى يتردد فى قصائده ، حصله من محفوظ كثير للشعر العربى وقراءات متعددة لجوانب من التراث الدينى واللغوى والتاريخى .

وكلّ شعره على تعدد مراحل حياته لا تتفاوت جودته بصورة مميزة وإن بدا فى أخريات حياته أجزل صياغة ، واكثر اقتداراً على امتلاك وسائل التعبير .

ونسوق أمثلة من مراحل حياته المميزة فى شبابه ، وكهولته وهرمه منها ما قاله فى دمشق فى ممدوحه الذى استغرق معظم شعره فى مراحل الشباب وأعنى أنوشتكين القائد التركى والى الشام .

يقول فيه : (سنة ٤٢٨ هـ) ، ويذكر هزيمته مع الروم :

عادَ بالصَّفْحِ من أحبَّ البقَاءَ   واحتَمى جاعِلَ الخُضُوعِ وقاءَ
فلتنَمْ أمةُ المسيحِ طويلاً   كفَّ من يمنَعُ العِدى الإغفاءَ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٢ .

مَلِكٌ يطلَبُ الملوكُ رضاهُ مِثلَمَا يطلبُ المريضُ الشفاءَ
قَسمت راحتاهُ جوداً وفتكاً في الأنَامِ السَّرَّاءَ والضَّرَّاءَ
ما بهرتَ العقول يا معجز الآيا تِ إلاّ لتجمعَ الأهـواءَ
هُدنَةً بقَتْ النفوسَ على الرّو مِ ، فكانوا بشكرها أولياءَ
وإن استَعْجمَ المقالَ فدى الأفعالَ قد أصبحت به فصحَاءَ

حتى يقول :

لو تيمَّمْتَ أرضَ خَفَّانَ يوماً لأَحَلْتَ الزئير فيها عواءَ

* * * * *

أيُّ خَيْفٍ وللخلافة سيفٌ تستمدُّ السيوف منه المضَاءَ
فلتفاخر بجدّه بعد عِلْم أنّ صَفْوِ الحياةِ مما أفاءَ
ما تخلّفتَ عن صلاحٍ لهذا الدِّيـ نِ مُـذ ظَلْتَ تخلُفِ الخُلَفَاءَ
رُقتَهُمْ بالأباءِ والنُصْحِ ، فالآ بَاءُ منهم توصِي بك الأبْنَاءَ
وأبنْتَ الغنى لهمْ عن جميعَ الـ خَلقِ مُذ صادفُوا لديكَ الغَناءَ
تُوقدُ النّارُ في الظّلامِ ولكنْ لَيْسَ يجلو الظَّلامَ كابنِ ذُكاءَ[1]

ويقول :

لم تَزَلْ مُبدِعاً، فلم أدْرِ إلَهَا مَا عَرفتَ الإعجازَ أم إيحَاءَ
أم أصارَ السُمُوُّ قَسْمَكَ من عَلّمَ من قَبْلَ آدمَ الأسماءَ

وقال يمدح الوزير اليازورى : (فى حدود سنة ٤٤٢ هـ) : ويذكر مشاركته وتدبيره مع البسَاسيرى فى الخروج على الخلافة ببغداد والدعوة للفاطميين :

لِيْهنِكَ ما أنالَتْكَ الجدُودُ وأنّ الله يَفعَلُ ما يُريدُهُ
مَرامٌ شَطَّ مرمَى العزْمِ فيهِ فلَيْنَ مداهُ يبِدُ لا تَبِيدُ
وأمرٌ قُمْتَ فيه بلا ظهَيرٍ وأهْلُ الأرض من فشَلٍ قعُودُ
ومثلُكَ لا يَضِلّ الحزمُ عنه فهَلْ أنباكَ بالصَّدَرِ الوُرُودُ
أبيتَ فلم تَنَمْ نوم ابنِ هِنْدٍ على حَنَقٍ فنَبَّهَـهُ وليـدُ

---

(١) ابن ذكاء يقصد الصبح ، وذكاء الشمس .

وأعفيتَ المسامعَ مِنْ حديثٍ　　　يعنُّ فتقشعِرُّ له الجلودُ
نبأ ضاقت بِنِسْوانٍ خدُورٌ　　　لـه ونبـتْ بأطفـالٍ مُهـودُ
فكذّبَ ظنَّ من عاداكَ صِدْقٌ　　　تساوَى فيه وَعْدُك والوعِيدُ
وعيدٌ غادَرَ المرَّاقَ صرْعَى　　　وعيدٌ ما أتى مَأتـاهُ عيدُ
فلولا كونُه مع يومِ بَدْرٍ　　　لقلْنا إنه اليومُ الوحيدُ

ويشير فى هذه القصيدة السياسية التاريخية كمعظم قصائده إلى التاريخ السياسى للمرحلة التى اشتد فيها الصراع بين الخلافة الفاطمية فى القاهرة والخلافة العباسية فى بغداد واستعانة العباسيين بالسلاجقةِ الأتراك لدعم ملكهم ، وتثبيتِ أركان خلافتهم التى اهتزت بضربات الفاطميين ورجالهم طوال قرن من الزمان منذ استقرار المعز لدين الله بمصر سنة ٣٦١ هـ . فيقول معرّضاً بطغْرليك السلجوقى :

لقد طاحَ الرَّجاءُ بطَغْلَبكٍ　　　وكم أملٍ إلى أجلٍ يقودُ

ويشير إلى الخليفة العباسى الذى لا حول له ولا قوة فى هذا الصراع بين الاتراك :

عجبْتُ لمدَّعى الآفاقِ مُلْكاً　　　وغايتـه ببغـداد الركـودُ
يصولَ علىْ رعاياهُا اعتداء　　　ويحجمُ كلَّما صلَّ الحديدُ
ومن مستخلِفٍ بالهونِ راضٍ　　　يُذادُ عن الحياضِ ولا يذودُ
له حَرَمٌ هُنالِكَ لمْ يُحرَّمْ　　　به إلاَّ السَّلامة والهُجُودُ
ثَلاهُ خوفُهُ بأشدَّ مِنه　　　ولولا الجدْبُ ما أكِلَ الهَبيدُ(١)

وحتى يقول منوهاً بالمستنصر الفاطمى :

وما البطش الشديدُ مفيدُ عزٍّ　　　إذا لم يُمْضِهِ الرَّأىُ السَّديدُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصرٍ　　　تقام به بسنجارَ الحدُودُ

ويلمح فى هذه الأبيات إلى ما كان يروجه الفاطميون عن انغماس الخلافة فى بغداد فى الملاهى وانشغالها عن رعاية مصالح الرعيّة ، وإيكالها إلى هؤلاء القادة من الترك يعبثون بها كيف شاءوا . يقول مخاطبا اليازورى وزير المستنصر :

---

(١) الهبيد الحنظل وكأنه يضرب مثلاً بأن الضرورة تبيح المحظورات .

رميتَهم بكلّ سليلِ غابٍ يعيش بفرسه ضبعٌ وذِيبُ
يروق فؤادَهُ نأيٌ وعـودٌ يُغِـدُّ السَّيرَ لا ناى وعُودُ
ويعجبه النهودُ إلى الأعادى مُشَيحاً لا القدودُ ولا النهودُ
ويطربه صليلُ البيضِ فوقَ القلا نِسِ لا البسيط ولا النشيدُ

ونلاحظ اعتماد الجناس والطباق ، كفعل أبى تمام فى صنعته الشعرية وقدمنا اقتداءه به ، واهتداءه بصباغته . وترددت شواهد فى شعره على هذا التأثر يصرح فيها أحيانا كقوله [١] :

وشبَّه عن جهـلٍ حبيبٌ ،ولـو رأى زمانَك لم يَعْدِلْ به زَمَنَ الوَرْدِ

يريد بحبيب أبا تمام ، ويشير إلى قوله فى موسى بن ابراهيم الرافقى :

ومن زمنٍ ألبستنيه كأنَّه إذا ذُكرتْ أيامُه زمنُ الوَرْدِ

وقال فى الوزير الفاطمى أبى الفرج البابلى سنة ٤٥٢ هـ [٢]:

أما الزَّمانَ فقد ألبستَه الجدَدَا والمكرماتُ فقد أنشأتَها جُدُدَا

والمتابع لهذه القصائد التى صاغها فى مديح وزراء مصر فى المرحلة الوسطى من حياته يلاحظ فى شعره استواء ورصانةً أكثر من تلك التى صاغها بالشام قبل ذلك فى شبابه ، ولاشك أن مرور ربع قرن من الزمان زادت الشاعر تجربة ، وعركته الأيام ، ووسعت معرفته برجال الدولة ، ومجالسته للعلماء والأدباء من معارفه ، فترى ثراء قصائده بالمعلومات وذكر الأحداث والأنساب ووقائع التاريخ التى يستغلها فى معانى مديحه .

ونأتى المرحلة الثالثة من حياته وشعره فى كنف المرداسيين بحلب فى الستينات من المائة الرابعة ، ومن ذلك قوله يمدح نصر بن محمود ويرثى والده سنة ٤٦٧ هـ وأنشدها إياه فى عيد الفطر [٣] :

كفـى الدِّينَ عزًّا ماقضاهُ لكَ الدَّهـرُ فمنْ كانَ ذَا نَذْرٍ فقد وجَبَ النَّذْرُ
لقد ظلّلتْ هذى البلادَ سحابةٌ بوارِقها بشرٌ وإيماضُها تِبرٌ

(١) ديوانه ص ١ /١٩٥ .
(٢) ديوانه ١ ص ١٩٨ .
(٣) ديوانه ١ /٢٤٢ .

إذا ما غمامٌ خصَّ أرضاً بغيثِهِ همى هاطِلاً فى كلِّ قُطْرٍ لهَا قَطْرُ
ثمانيةٌ لم تفترقْ إذ جمعْتَها فلا افترقَتْ ماذبَّ عن ناظِرٍ شَفْرُ
يقينُكَ والتقوى، وجودُكَ والغِنَى ولفظُكَ والمعنى، وعزمُكَ والنَّصْرُ
بكَ انجابتْ اللأْواءُ، وامتدَّتْ المنى وضُوعفتْ الآلاءُ، وافتخرَ العَصْرُ

ويشير إلى رحلة والده محمود إلى مصر وزواجه من إحدى عقيلاتها بقوله :

فياطيبَ ما حيَّتْ به مصرَ بَابِلٌ ويا حُسْنَ ما أهْدَتْ إلى حَلَبٍ مصرُ

وكانت تلك العقيلة بنت الوزير البابلى ، ويشير إلى هذه الرحلة إلى مصر وزواجه بها ومغادرة حلب بقوله :

ولم يتْرك تلك البلادَ لأنها بَغَتْ بدلاً منه، ولا أنّ نبأ دَهْرُ
ولكنه كالسَّيفِ فارقَ غمدهُ ليشهدَ حدَّاهُ بما خَيَّرَ الأثْرُ

وبعدُ فإنّ شعر ابن حيُّوس فى معظمه مديح لرجال العصر وقادته ، ومنه نستشف بعض الأحداث ، وهو فى جملته موضوعىٌّ تسجيلىٌّ ، يهتم بالمناسبة التى ينشد فيها ، والاشادة بالمآثر ، والأعمال التى يُبْلِى فيها الممدوح أو أبْلَى ، فضلاً عن التنويه به وبقومه ، وبمواليه من الخلفاء إن كان أميراً أو وزيراً ، كما يعرّج على المعارضين والأعداء فيزرى بهم ، ويقلل من شأنهم ، ويوظّف الأحداث التاريخية لأغراضه ومراميه الشعرية مديحاً أو هجاء .

ومن هنا كان الجانب الذاتى الابداعىّ فى شعر ابن حيُّوس متواضعاً شديدَ التواضع والمباشرة والموضوعية غالبة ، والخطابيَّة طابعه العام .

على أن بعض معاصريه أعجب بما جاء فى شعره من الصنعة البديعية . وتذكر منهم على بن منجب الصيرفى . فقد أعجب بحسن التقسيم فى قوله ؛ قال[1] :
« ومن مليح التقسيم قول ابن حيّوس :

لعمرى لقد أبْدَ الملوك جميعهم بأربعةٍ فى غيره لن تألَّفا
بأمنٍ لمن يخْشَى، وقهرٍ لمن طغى وسبْقٍ لمن جارَى، وعفوٍ لمنْ هَفَا

وقوله أيضاً :

(1) الأفضليات ٤٦ .

قصَّر السَّابِقونَ دونَ مدَاها ... وتملَّكتَها بستّ خصالِ
مكرمات مع اعتذارٍ وعَفوٍ ... باقتدارٍ ، وعفّةٍ فى حجالِ

وقال (١): « ومن البديع قول ابن حَيُّوس :

قَذَتَ الجحافِلَ لم يَقُدْ معاشَرها ... كِسْرَى الملوك، ولا رآها تُبَّعُ
قومٌ إذا رامُوا ممالِكَ غيرهم ... حَصَدُوا ببيض الهندِ ما لم يزرَعُوا

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

الفصل السادس
شعراء معاصرون بالشام

١ ــ أبو العلاء المعرى
٢ ــ ابن سنان الخفاجى
٣ ــ ابن الخياط

أبو العلاء المعرّى
حيرة العقل ــ ولغز البيان
(٣٦٣ ــ ٤٤٩ هـ)

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى حكيم المعرّة الشاعر الفيلسوف عيْن هذا العصر ونجمه الطالع . الذى اختصم حوله الناس فى شعره وكتابته وفى عقيدته وفكره ، وظل مع هذا الخلاف علماً بارزاً لا تأخذ منه الأقاويل ولا تحط من قدره الادعاءات والافتراءات .

ظل أبو العلاء المعرى بهذا الشموخ دلالة على حرّية الفكر العربى والإسلامى فى القرنين الرابع والخامس ، وسعة عطائه ، وتنوعه ، كما ظل أبو العلاء علامة وسمة بارزة على العصر ، تجمع فى انتاجه الأدبى والشعرى معارف العصر ، وإتجاهاته السياسية والدينية والثقافية والأدبية والفكرية ، فكان دائرة معارف شاملة جامعة ، ومرآة ، يرى فيها الباحثون ملامح عصره ، عصر الدولة الفاطمية ، ونافذة يُطلُّ منها على آفاق الحياة العربية والإسلامية فى تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى والحضارة العربية الإسلاميّة .

وسبقت أشارتنا عابرة إلى بعض مواقفه فى رسائله من مشكلات عصره وما دار بينه وبعض أعلام الزمن من جدل حول قضايا عقدية وأدبية ، ولغوية .

والآن جاء الدور للحديث عنه شاعراً فحلاً ، ومفكراً عملاقاً من خلال هذا الشعر ، لم يكتف ببث خاطراته حول قضايا عصره ، بل وقف موقف المصلح المجدد الحر الفكر دون خشية بالجرىء دون تطاول على أحد ، مع الاعتداد بالرأى يلقيه إذا اقتنع به فيما بينه وبين نفسه، غير عابىء بمن يعارض ، ولا منافق لحاكم أو صاحب سلطان أو مال ، فقد زهد فى قربى أصحاب السلطان وأصحاب المال جميعاً ، وارتضى لنفسه حياة سهلة هنية ، بسيطة ، توفر له حرية الفكر ، دون ضَغطٍ من ظروف الحياة ، وأطماعها .

لقد احتبس أبو العلاء نفسه فى داره ، بعد أن قضى الله عليه ، وشاءت مشيئته أن يُحْبسَ نظره عن رؤية الناس ، والدنيا باصرته ، ولكن البارىء

عوضه عن رؤية البصر ، رؤية السمع ، وجَلوة الفكر والنفس ، فألقى إليه السمع بما يعوضه النظر ، وأتاحت له جلوة الفكر فى ظُلمةِالحِسّ سبحات فى آفاق العقل ، وتأملات حرة دون قيود متطلبات الجسد وهمومه اليومية .

لقد أتاحت محابس أبى العلاء المعرى الثلاثة : فقدان البصر ، والخلوة ، وحبس النفس فى هذا الجسد ، أو إلزام الجسد بقيد الرغبة . أتاحت له هذا التفرغ العظيم للدرس والاطلاع ، والتأمل ، والتأليف ، والنظم ، والتعليم .

عاش أبو العلاء فى أسرة تجمعها المحبة ويظلها العلم ، وكان يكن لوالديه عاطفة عميقة فى قلبه ، وتعلق بأمه خاصة ، وكان لوفاتها أثرها البالغ فى نفسه . خرج أبو العلاء إلى الحياة والقرن الرابع يؤذن بنهايته ، وكان أول ما رأى نور الدنيا ببلدة المعرة بالشام ، فى هذا الوقت الذى تنازعتها الأحداث وتعاقب عليها الغزاة والمغيرون بين شرق وغرب وجنوب . وكانت الحياة السياسية على ما عرضنا له فى مقدمة حديثنا ، كما كانت الحياة الإجتماعية كذلك فى المجتمع الإسلامى شرقاً وغرباً تضطرب بكثير من التيارات والتغيرات فلم يكن هذا المجتمع على ما عرفناه فى أول عصر الدولة العربية الإسلامية ولا فى عصر الأمويين وصدر عصر العباسيين من حفاظ على القيم الإسلامية وبعض القيم العربية المثلى التى حافظ العرب فى أول عهدهم بالحياة خارج بلادهم بعد الفتوح والهجرة من الجزيرة عليها ، ولم يفرطوا فيها . وظل مجتمع تلك العصور الأولى متماسك الأواصر ، تسوده فلسفة واحدة ، ويستظلّ بظل العقيدة الإسلامية بقيمها النقية حتى رانت على تلك الفلسفة الواحدة للحياة فلسفات ، اكتسبها المجتمع العربى الإسلامى من آثار الحضارات القديمة التى نزح إليها المسلمون والعرب ، فخالطت أفكارهم ، وتمشت فى تراثهم العربى والإسلامى بصور متعددة ، كان نتاجها تلك الحركات الفكرية والثقافية والإجتماعية والمذهبية العريضة التى شملت العالم العربى والإسلامى من مشرقه إلى مغربه طوال القرنين الرابع والخامس .

وقد أدت تلك التيارات والحركات التى اضطربت بها الحياة العربية الإسلامية طوال هذين القرنين إلى تغيرات كثيرة ، بل وتحولات شاملة فى العقيدة والنظرة إلى بعض أصولها ، فنجم ما نعرفه ويعرفه تاريخ الفكر

والحضارة الإسلامية من شطحات أو خروج عن الخطّ الواضح الذى توارثته الأجْيال للحياة العربية والعقيدة الإسلامية ، وتطبيقاتها فى المجتمع ، على تلك الصورة التى احتازتها الشريعة ، وحدد معالمها الأئمة المجتهدون من زعماء المذاهب وكبار علمائها وفقهائها .

ولكن هذه التغيرات التى أدّت إلى الخروج عن ذلك الخط كانت من القوة والتعدد والكثرة فى مشرق العالم العربى والإسلامى بحيث بدت فى هذا القرن الخامس وكأنها تغالب الخط المتوارث وتقتحم عليه مجاله ، وتكاد تحجبه عن الظهور فى أوساط كثير من المثقفين ، وبخاصة من ألم منهم بعلوم الأوائل ، أو بعلم خارج عن نطاق العلم الشرعى من علوم الأمم الأخرى يونان وهنود وفرس وغيرهم ، وما يضم من عقائدهم وعاداتهم ، وفلسفاتهم ، ورؤيتهم للكون والإنسان ، فظهر فى أفق الفكر الإسلامى آراء ، واجتهادات اعتبرت عند المحافظين على الخط الموروث من الإلحاد ، والزندقة ، والخروج عن جادة العقيدة والدين الصحيح .

جاء أبو العلاء المعرى إذا إلى الحياة والمجتمع العربى الإسلامى يضطرب بهذا كله قال ابن الجوزى(١) :

« ... ولد يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وله أشعار كثيرة . وسمع اللغة ، وأملى فيها كتبا ، وله بها معرفة تامة ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد إلى وطنه ، فلزم منزله ، وسمى نفسه « رهين المحبسين » لذلك ولذهاب بصره . وبقى خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويحرّم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم » .

ولقيه رجل فقال : لم لا تأكل اللحم ؟. فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ . فإن كان الخالق الذى دبر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطباع المحدثة لذلك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك(٢) .

(١) خلاصة كلام داعى الدعاة المؤيد شمس فى رسائله إليه كما سبق أن عرضناه فى الجزء الأول .
(٢) المنتظم نقله ص ١٩ من تعريف القدماء .

قال المصنف رحمه الله[1] : وقد كان يمكنه ألا يذبح رحمة . فأما ما قد ذبحه غيره ، فأى رحمة بقيت فى ترك أكله ؟

وكانت أحواله تدل على إختلاف عقيدته .

وقد حكى لنا عن أبى زكريا أنه قال : قال لى المعرّى : ما الذى تعتقد ؟ ــ فقلتُ فى نفسى اليوم أعرف اعتقاده ــ . فقلتُ : ما أنا إلا شاكٌّ ! فقال : هكذا شيخك .

وكان ظاهر أمره يدلُّ على أنه يميل إلى مذهب البراهمة (الهنود) ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل . قال ابن الجوزى :

وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد . وذلك أمره ظاهر فى كلامه وأشعاره ، وأنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ويجحد البعث . » .

قال ابن الجوزى[2] : « ونقلت من خط أبى الوفاء ابن عقيل قال : من العجائب أن المعرّى أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذى لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصَّر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطنا ، وأنه مسلمٌ فى الباطن ، فلا عقل له ولا دين ، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم فى الباطن . وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر . فهل كان فى بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يبطن الإسلام ؟!. » .

قال المصنف (ابن الجوزى) رحمه الله : وقد رأيت للمعرّى كتابًا سمَّاه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام فى غاية الركّة . والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . وقد ذكره على حروف المعجم فى آخر كلماته . فمما هو على حرف الألف :

« طوبى لركبان النعال ، المعتمدين على عصا الطلح ، يعارضون الركائب فى الهواجر والظلماء ، يستغفر لهم فختُ القمر وضياء الشمس . وهنيئاً لتاركى النُّوقِ فى غيطان الفَلا ، يحوم عليها ابن دَأْيَة ، ويطيف بها السُّرحان . وشتّان أوارك ثُرّةُ الألبان ، وأخرى لبنها أفقد من لبن العظاء . » .

(١) ابن الجوزى .

(٢) عن المنتظم ، ص ١٩ ــ تعريف القدماء بأبى العلاء .

قال ابن الجوزى : وكله على هذا النمط البارد[1] .

قال ابن الجوزى : وقد نظرت فى كتابه المسمَّى لزوم ما لا يلزم وهو عشرة مجلدات وحدّثنى ابن ناصر عن أبى زكريا عنه بأشعار كثيرة . فمن أشعاره :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ   وترزق مجنونا وترزق عاقلا
فلا ذنب يارب السماءِ على امرىءٍ   رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا »

والبيتان المذكوران ليسا فى ديوانيه سقط الزند واللزوميات ، وربما سقطا من نسخهما أو إنتحلا عليه لتثبيت اتهام الكفر والزندقة . وقد أورد ابن الجوزى أبياتاً أخرى غير واردة فى الديوان كقول ابن الجوزى : وله :

فلا تحسب مقال الرسل حقًّا   ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد   فجاءوا بالمحال فكدَّروه

حقًّا لقد جاء فى اللزوميات بعض أبيات يقترب معناها من هذا القول من مثل[1] :

هفتْ الحنيفةُ والنَّصارى ما اهتدتْ   ويهُودُ حارَتْ والمجوسُ مضَلَّلَهْ
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا   دينٍ ، وديِّنٌ لا عقلَ لــه

ولكن شتَّان بين مضمون هذين البيتين والبيتين السابقين ، فالأخيران لا يفهم منهما هذا التصريح الذى يتضمنه البيتان السابقان . ويمكن تأويل البيتين الأخيرين بما لا يخرج الرجل من دينه أو يدينه بالإنكار .

ومعلوم أن الشيخ ابن الجوزى واعظ سنّىّ محدث ، وأن شيخه ابن ناصر السلّامى محدثٌ ، وأبو زكريا التبريزى كذلك ، وقد التقى بأبى العلاء ، ومعلوم كذلك عداوة المحدثين والفقهاء للفلاسفة ومناهجهم منذ ظهور حركة المعتزلة والمعركة التى دامت بين الفريقين طوال القرنين الثالث والرابع .

وربما كان القفطى أكثر اعتدالاً فى الحديث عن أبى العلاء ، وإن ساق ما رُمى به من زندقة وإلحاد ، ولم يسلبه قدره فى الأدب والشعر فقال : « كان حسن الشعر جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظاً

(١) التعريف ص ٢١ .

نا . ويذكر له من بديع شعره رثاءه لأحد أقاربه من فقهاء الحنفية والتى اشتهرت له :

غير مجدٍ فى ملَّتِى واعتقادى نوحُ باك ولا ترنُّم شادِ

وقال فيما نقل عنه فى عبارات معتدلة : « وكان يتزهد ، ولا يأكل اللحم ويلبسُ خشن الثياب . وصنف كتابا فى اللغة ، وعارض سوراً من القرآن وحكى عنه حكايات مختلفة فى اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد . »

ومهما يكن موقف العلماء على اختلاف اتجاهاتهم من فكر أبى العلاء وشعره وما يتضمنه ذلك الشعر أو أدبه بصفة عامة من آراء واتجاهات تدل على سعة علم وتبحر فإن الرجل يظلُّ علماً من أعلام الأدب العربى عامة وفى هذا القرن الخامس عصر الدولة الفاطمية خاصة .

وقد أهلته دراسته للتزوّدِ بالعلوم، فقد روى أنه «عندما بلغ سنَّ الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده ، كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته . وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطفه عن كتمان ما تحمله من ذلك حتى فاه به فى أول عمره ، وأودعه أشعاراً له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ووجه لأقواله وجوهاً احتملها التأويل . »(١) .

ذكر هذا القفطى ، وحكاية الراهب وأثره فى فكر أبى العلاء حمَّلها بعض الدَّارِسينَ كثيراً، وبالغوا فيما أخذه أبو العلاء عن الراهب النصرانى باللاذقية ، ولم يكن لقاء العلماء المسلمين ولا الأدباء غريباً فى العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه الرهبنة ، وتعددت الأديرة فى بلاد المشرق ومصر على السواء ، وليس خافياً ما كان يحتفظ أولئك الرهبان من كتب الأوائل من فلاسفة اليونان

---

(١) أنباه الرواه — عن التعريف بأبى العلاء . ص ٣٠ — ٣١ .

وعلمائهم . وقد أفادوا من تلك الكتب والفلسفات فى علوم اللاهوت عندهم . وكانت هناك لقاءات ومحاورات فى هذا العصر الفاطمى بين بعض رهبان النصارى وعلماء المسلمين على ما بينا من ذلك الحوار الذى حدث بين أبى القاسم الحسين بن على الوزير المغربى والمطران النصرانى . وعلمنا ما كان فى عصر الفاطميين وفى ظل دولتهم من حرية الأديان والسماح للنصارى واليهود بممارسة شعائرهم والمشاركة فى الحياة العامة على قدم المساواة مع المسلمين حتى إن كثيراً منهم قد ولى مناصب هامة فى الدولة .

وفى ظل تلك الحرية الدينية لا نعجب من حدوث لقاءات فكرية ، وتأثير وتأثر من كلا الجانبين إيجاباً أو سلباً . ولا شك أن فى أدب المعرى أثاراً واضحة على معرفته بكثير من أقوال النصارى واعتقاداتهم إلى جانب إلمامه الواضح بعلوم الفلسفات المشرقية والغربية على سواء . وليس ذلك بمستغرب على أبى العلاء ذى العقل الطُّلَعَة إلى العلم ، والذى لم يشغله عن المعرفة مشاغل السعى للحصول على العيش أو بلوغ منصب أو جاه ، بل تفرغ تماماً لتحصيل المعرفة من كل مورد ، ومنهل .

عرف أبو العلاء بقوة العارضة والمقدرة الفائقة على الحفظ ، مع الذكاء المفرط ، ودقة الملاحظة لما ينمى إلى سمعه من قول أو حركة . وقد ساعده هذا كله على استيعاب ما حوله والإحاطة بما يدور فى الحياة والمجتمع فى عصره .

ويحكى السمعانى عن مقدرته على الاستيعاب لما يسمع رغم عدم معرفته بلغة المتكلم نادرة تقول إنه سمع اثنين يتكلمان بلغة أذربيجان ، منهما واحد من جلسائه ، فلما فرغا من الحديث سأل المعرى صاحبه : أى لسان هذا ؟. قال : هذا لسانُ أهل أذربيجان . فقال : ما عرفت اللسان ، ولا فهمته غير أنى حفظت ما قلتما . قال الرجل : ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلنا[1] .

ويروى من قوة ذاكرته إلمامه بأسماء ما قرأ واطلع عليه من الكتب ووعيه بمحتوياتها. روى القفطى أنه « حضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بدور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات »[2] .

(١) الأنساب للسمعانى ــ نقله التعريف ، ص ١٤ .

(٢) التعريف ص ٣٣

وروى كذلك أن رجلاً منهم وقع إليه كتابٌ فى اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فكان يحمله معه ، ويحجُّ ، فإذا اجتمع بمن فيه أدبٌ أراه إيّاه ، وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره . واتفق أن وجد من يعلم حال أبى العلاء ، فدله عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ، ووصل إلى المعَرّة ، واجتمع بأبى العلاء ، وعرَّفه ما حاله ، وأحضر الكتاب ، وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : إقرأ منه شيئاً ، فقرأه عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ووضعه فلان . ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل . فنقل عنه النص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة . وانفصل إلى اليمن فأخبر الأدباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو « ديوان الأدب » للفارابى اللغوى »(١) .

واتصل أبو العلاء المعرى ببعض علماء عصره ، وكبار أدبائه ، فذهب إلى بغداد عاصمة الفكر سنة ٣٩٨ هـ وهى مركز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ولقى بها الربعى اللغوى، ولم يلق منه قبولاً، فتركه، واتصل بالشريف الرضى وجرى ذكر المتنبى فى مجلس من مجالسه ، وكان الشريف لا يحب المتنبى على عكس أبى العلاء الذى كان يقدمه ويجلُّه ، واختلفا حوله ، ولم تطل صحبة أبى العلاء للرضىّ على ما كان يعرف عنه من حبه للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء .

واستقر أبو العلاء فى المعرة منذ سنة ٤٠٠ هـ . قال(٢) : « لَزِمتُ مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أضطر إلى غير ذلك فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن هاشم — أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى بيضاء ، لأنه أفتى فىَّ زمنه ، ولم يأخذ عمَّا صَنَعَ ثمنه، والله يحسنُ له الجزاء ، وبكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

وظل فى معرة النعمان يملى كتبه ، ويدرس ، وينظم الشعر ، حتى علا صيته وسار فى الآفاق ذكره ، وقصده الطلاب من المشرق والمغرب ، وكان من

---

(١) التعريف ص ٣٤ .
(٢) إرشاد الأديب — التعريف ص ١٠١ .

تلاميذه جماعة من مشهورى العلماء والأدباء من أمثال أبى زكريا التبريزى ، وابن سنان الخفاجى الحلبى . وأجلّه أمراء المنطقة وحكامها ، وتقربوا إليه ، وبعث إليه المستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر ليقدم إليه المال ليعينه على الحياة ، وعلى نفقاته .

روى ياقوت(١) : أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبى العلاء ما يبيت المال بالمعرة من الحلال فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

كأنما غَانةُ لى من غِنىً فعدٌ عن معدن أسوانِ
سرت برغمى عن زمان الصِّبا يُعْجلُنى وقتى وأكوانِى
صدَّ أبى الطيب لمَّا غدا منصَرفاً عن شعبِ بَوَّانِ

وأشار إلى بلاد غانة فى أفريقيا لشهرتها بكثرة معدن الذهب بها فى زمنه وكذلك أسوان بوجود معادِنِ الزُّمرد والذهب ، وكان الفاطميون يستغلُّون مناجمها فى الحصول على حاجتهم من هذين المعدنين النَّفِيسيْنِ فيما شيدوا من قصور ، وتزينوا به من حلىّ ، وما جمعوا من أموال وكنوز .

وعزف أبو العلاء عما قدّم إليه وعرضه المستنصر لزهده وإعراضه عن مباهج الحياة ، فقد كان الزهد فى الدنيا فلسفة ارتضاها لنفسه حتى إنه حرّم عليها ما أحل الله من متع وزينة ، ومطاعمَ .

مؤلفات المعرى :

أتاح تفرغ المعرّى له الوقت للدرس والتأليف ، فأخرج عديداً من المؤلفات تتنوع بين الرسائل ، والكتب الأدبية الجامعة ، وكتب النقد والتراجم الشعرية ، والكتب اللغوية ، والشعر الوجدانى ، وشعر المناسبات ، والشعر الفلسفى .

ويذكر ياقوت فهرست كتبه ، وأولها الفصول والغايات ،وهومنشعر(٢) الزهد . قال : « فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى منتهاه . وهو كتاب موضوع

(١) المصدر نفسه ٩٩ .

(٢) الكتاب مجموعة من الخواطر والنظرات ، مسجوعة فيها الزهد والآداب والمواعظ والفلسفة والدين .

على حروف المعجم ما خلا الألف . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع .
وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد . وأتمه بعد عودته إلى المعرة »

وكتاب « السادن »(١) : وهو في ذكر غريب هذا الكتاب ، وما فيه من اللغز .

وكتاب « إقليد الغايات » : لطيف مقصور على تفسير اللغز . مقداره عشر كراريس .

والكتاب المعروف « بالأيك والغصون » . وهو كتاب الهمزة والردف ، يبنى على إحدى عشرة حالة الهمزة على حال افرادها واضافتها .

والكتاب المعروف بـ « تضمين الآى » .

وكتاب « سيف الخطبة » : جزآن يشتمل على خطب السَّنة ، فيه خطب للجمع والعيدين ، والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح . وهى مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، فمنها خطبٌ عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ... وهكذا » .

ومن مؤلفاته : « سجع الحمائم » ، يتكلم فيه على لسان حمائم أربع . وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكّره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . قال غيره : هو أربعة أجزاء ، مقداره ثلاثون كراسة(٢) .

وديوان « لزوم ما لا يلزم » ، وهو في المنظوم . بنى على حروف المعجم ، يذكر كل حرف سوى الألف بوجوهه الأربعة ، وهى الضمة والفتحة والكسرة ، والوقف . ومعنى لزوم مالا يلزم أن القافية يُردد فيها حرف لو غُيِّر لم يكن مخلاً بالنظم ، كما قال كثيرٌ :

خليلَيَّ هذا ربعُ عزَّةَ فاعْقِلا   قلو صيكُما ثم انزلا حيثُ حلَّتِ

فلزم اللام قبل التاء ، وذلك لا يلزمه .

---

(١) التعريف ص ١٠٢

(٢) ياقوت — نقله بالتعريف ، ص ٤

ويحتوى على أحد عشر ألف بيت من الشعر(١) .

وكتاب : « زجر النابح » يتعلق بلزوم مالا يلزم . وذلك « أن بعض الجهّال تهكّمّ على أبياتٍ من « لزوم مالا يلزم » ، يريد بها التّشريرَ والأذيّة ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشيء هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره .

وكتاب : « ملقى السبيل » صغير فيه نظم ونثر .

وديوان « سقط الزند » قاله فى مطلع حياته ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت

وكتابٌ يعرف بـ « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللّغز يعمُّ الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضربٍ من ذلك(٢) .

وكتاب يعرف بـ « السجع السلطانى » يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قدم له فى الكتابة سأل أن يُنشأ له كتابٌ مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب ؛ فألف له هذا الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب يعرف « بذكرى حبيب » فى غريب شعر أبى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتّاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب « عبث الوليد » فيما يتصل بشعر البحترى . وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخةً ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى له من الغلط ، ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد .

وكتاب يعرف بـ « الرياشى المصطنعى » فى شرح مواضع من الحماسة الرياشيّة عمل لرجلٍ يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة واسمه كليب بن على ، ويكنّى أبا غالب . أنفذَ نسخة من الحماسة الريّاشية ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يُحتاج إلى تفسيره ، فخشى أن تضيق

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

الحواشي عن ذلك ، فألف هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنح مما لم يفسّره أبو رياش[١] .

وكتاب « شرف السيف » عمل للقائد أنوشتكين الدُّزبرى أمير الجيوش حاكم الشام فى عصر الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٤١٩ هـ والمتوفى بحلب سنة ٤٣٣ هـ . وكان السبب فى عمله أنه كان يوجه إلى أبى العلاء بالسلام ويخفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل[٢] .

وله مجموعة من الكتب المتعلقة باللغة والنحو هى :

« تعليق الجليس » يتصل بكتاب الجمل للزجاجى ، وكتاب « اسعاف الصديق » متعلق به كذلك

وكتاب « قاضى الحق » على كتاب أبى جعفر النحاس المعروف بـ « الكافى » .

وكتاب « الخير النافع » مختصر فى النحو . وكتاب آخر فى النحو متعلق به يعرف بـ « الطلّ الطاهرى » ألفه لمن يعرف بأبى طاهر الحلبى . وكتاب فى النحو يتصل بكتاب الظهير العضدى .

وكتاب فى الرسائل الطوال فيها « رسالة الغفران » .

وكتاب « خطب الخيل » يتكلم فيها على ألسنتها ، ومقداره عشرة كراريس .

وديوان رسائل . وهو ثلاثة أقسام : الأول رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب « رسالة الملائكة » ، و « كتاب الرسائل السنديّة » . وكتاب « رسالة الغفران » ، وكتاب « رسالة الغرض » ونحو ذلك .

والثانى رسائل دون هذه فى الطول مثل كتاب « رسالة المنيح » وكتاب « رسالة الإغريض » والثالث كتاب « الرسائل القصار كنحو ما يجرى به العادة فى المكاتبة قيل إنه أربعون جزءًا »[٣] .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) التعريف بأبى العلاء ص ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

وكتاب « خادم الرسائل » في تفسير ما تضمنته هذه الرسائل مما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب .

وكتاب « اللامع العزيزى » في تفسير شعر المتنبى عمل للأمير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . من أمراء بنى مرداس أصحاب حلب فى القرن الخامس فى عصره .

وهذا بعض ما اشتهر من كتبه ، وهو قليل من كثير(١) .

وما يهمنا هنا هو أبو العلاء الشاعر ، وما قاله من الشعر . وشاعرية أبى العلاء لأمراء فيها ، فقد اعترف بها العلماء قديماً وحديثاً ، ووجدوا فى شعره شيئاً جديداً لم يكن عند غيره من الشعراء من حيث البناء والصور والأخيلة والأساليب والموسيقى ، واستخدامات الألفاظ ، وفى المضامين ، وما احتواه من المعانى الجديدة الجريئة ، التى قد تبلغ حدّ الشطط والخروج عن المتعارف والمألوف .

ولم يذهب أبو العلاء بشعره مذاهب غيره من الشعراء ، فلم يجعله وسيلة للكسب ولا أداة للحصول على الماء من أصحاب السلطان والجاه ، فلم يقصد به واحداً من هؤلاء ولم يسترفد خليفة أو أميراً . قال الذهبى(٢) : « لو تكسب بالشعر والمديح لنال دنيا ورئاسة » .

وقال ابن النديم : « ذكر أبو العلاء فى مقدمة « سقط الزند » أنه لم يكن من طُلاب الرفد والصلة ولم يمدح إلا اليسير من الناس فى صدر عمره ، قبل انقطاعه عن الناس ، ولم يمدح لعطاء ولا نائل ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع »(١) .

وذكر أبو العلاء صراحة فى شعره أنه لم يدنس نفسه بالاستجداء(٣) ، قال :

أإخواننا بين الفراتِ وجِلّقٍ ... يدَ اللهِ لا خيرّتُكُمْ بمحالِ
أنبئكُمْ أنّى على العهدِ سالمٌ ... ووجْهِى لمَّا يُبْتَذَلْ بسؤَالِ

(١) راجع مجمل فهرست كتبه فى ترجمة ياقوت له بمعجم الأدباء .
(٢) سقط الزند ١ /٢١ — وتاريخ ابن النديم ٤ /١٥٣ .
(٣) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ص ٢٨ .

وبهذا فقد تخلص شعر أبى العلاء من آفة من آفات الشعر العربى ، وبخاصة فى تلك العصور أعنى آفة التكسُّب بالشعر ، لأنها تُدخل على هذا الفنّ كثيراً من الزيف ، والتدنى بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التى كرّمها الله لتبدع . ومن هنا خلا شعره من كثير من أصداف القول وبهرجه مما يتعلق بالملق ، وكيل الصفات لغير موصوف بها ، والتعريض بالطلب وبذل ماء الوجه ، والتدنّى ، وتحقير الذات بذكر الحاجة واستجداء المال لسدّ الرمق ، والتغلب على عناء الفقر . أو الرغبة والطمع ، والجرى وراء زخرف الحياة ، وطلب الاستمتاع بملاذها فى كنف من يملكون الدنيا ، غصبًا ، أو سعيًا غير محرر من دنايا وآثام ، وسلوك دروب تأباها الشيم الكريمة وتعف عنها النفوس الأبية .

واستعاض أبو العلاء عن رفد المال برفد العلم ، فاستزاد منه ورحل فى سبيل تحصيله ، وقصده بشعره ، وجعله موضوعه الذى يشغل أبياته وقوافيه على اختلاف أنواعه ودرجاته .

وهكذا كانت رحلاته كما يقول فى سبيل المعرفة لا لطلب المال قال : « وأحلفُ ما سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثَّر بلقاءِ الرّجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم » وذلك فى تبرير رحلته إلى بغداد ، وجاء فى رسالة بعث بها إلى أهل المعرة إثر عودته إلى بلده من بغداد(١) .

والمتأمل فى شعره عامة وفى « سقط الزند » و « اللزوميات » خاصة يلاحظ غلبة الموضوعات التقليدية على ديوان « سقط الزند » الذى نظمه فى مطلع حياته ، ففيه مديح بعض السادة ، وأعيان القوم وبعض الشيوخ من العلماء ، ومن عقدت بينه وبينهم أواصر ما ، كما نلمح بعض صور حياته ووصف أحواله وتقلباته ، ورثاء بعض أقربائه ومعارفه ، وهو فى هذا الديوان يتناول معانى موضوعات الشعر تناولاً تقليدياً أحياناً ، يسترجع كثيراً من صياغات القدماء وتعبيراتهم ، فيوردها أحياناً سافرة ، وأحياناً يلفها بخمار من اللفظ الغريب ، أو يدخل عليها بعض حلى البديع ومحسّناته . وأما فى اللزوميات فقد اتخذ لنفسه نهجاً آخر حيث نظم قصائده فى محبسه وقد اعتكف ، واعتزل

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ٣٤ .

الناس ، وألزم نفسه فى الشعر ما ألزم جسده فى الحياة من نظام قاسٍ ، صارم . وقد غلب عليه المفكر المجرد فى قضايا الحياة والموت ، والكون والفساد ، والعقائد والديانات . كما ألزم نفسه اجتهادات فى الصياغة والتعبير يصعب على القارىء العادى فهم معانيها .

ديوان سقط الزند :

ذكر الرواة والعلماء الذين أرَّخوا له أنه نظم الشعر حدثاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره(١) . « ومهما يكن فقد نظم الشعر فى سن الحداثة ، ولم ينقطع عن النظم أثناء رحلاته العلمية ولكنه نظم أكثر شعر شبابه فى الفترة التى قضاها فى المعرة بين رحلتيه الشامية والعراقية . وهو جلُّ ما فى (سقط الزند) »(٢) .

وعده كثير من العلماء والنقاد بارعاً فى الشعر . وتتجلى براعتهُ فى هذا الديوان فيما تمثله من الشعر القديم ، والمعارف اللغوية ، والتاريخية والدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتوظيف هذا كله فى فنه الشعرى من حيث بناء القصيدة ، وصياغة المعانى ، وبناء عباراته ، وتشكيله للفظ فى مقدرة قد تبدو للقارىء إغراباً وخروجاً على نهج الشعراء السابقين .

بناء القصيدة :

ويبنى أبو العلاء قصيدته الشعرية فى « سقط الزند » البناء التقليدى فى شكله العام أى يبدأ القصيدة بالغزل ، لكن هذا الغزل ليس كغزل الجاهليين ، ولا الإسلاميين ولا حتى المحدثين أصحاب البديع ، أو أصحاب طريقة العرب . بل يبدو فى غزله صاحب اتجاه جديد فى معانيه وابنيته ، وإن لم يخرج عن الإطار العام ، أو عمود المعانى فى الغزل . ونضرب مثالاً بقصيدته الثانية فى الديوان . يقول :

يا ساهِر البرق أيقظ راقد السَّمَرِ   لعل بالجِزْع أعوانا على السهرِ
وإن بخلت عن الأحياء كلهم   فَاسْقِ المَواطِرَ حيًّا من بنى مَطَرِ

(١) راجع التعريف فيما جاء من ترجمته عن ياقوت ٣ /١٠٨ ، والذهبى ١٣٠ ، وابن خلكان ١ /٤٧ .

(٢) راجع كتاب « أبو العلاء ولزومياته » للدكتور كمال اليازجى ، ص ٥٦ ، طبع دار الجيل ببيروت .

ويا أسيرة حجليها أرى سفَها ... حمل الحُلىِّ لمن أعيا عن النظرِ
ما سرتُ إلا وطيف منك يصحبني ... سُرًى أمامِى وتأوِيبًا على أثرى
لو حطَّ رحلِىَ فوق النجم رافِعَهُ ... ألفيتُ ثمَّ خيالاً منكِ منتظِرى
يَودُّ أن ظلامَ الليل دام له ... وزيدَ فيه سوادُ القلبِ والبَصَرِ
لو اختصرتم من الإحسانِ زرتكُمُ ... والعذبُ يُهجرَ للإفراطَ فى الخَصَرِ
أبَعد حول تناجى الشوقَ ناجية ... حملاً ونَحْنُ على عشرٍ من العُشَرِ
كم باتَ حولَكِ من رِيم وجازِيةٍ ... يستجديانِكِ حُسنَ الدَّلِّ والحورِ
فما وهبتِ الذى يعرفْن من خلقٍ ... لكن سمحت بما ينكرن من دُرَرِ
وما تركت بذات الضَّالِ عاطِلَةً ... من الظباءِ ولا عارٍ من البقرِ
قلَّدتِ كلَّ مهاةٍ عِقدَ غانيةٍ ... وفزت بالشكر فى الآرامِ والعُفَرِ
وربَّ ساحبِ وشىء مِنْ جآزَرَها ... وكان يرفلُ فى ثوبٍ من الوَبَرِ
حسُنتِ نَظمَ كلام توصفين به ... ومنزلاً بك معموراً من الخفرِ
فالحسنُ يظهرُ فىَّ شيئين رونقه ... بيتٍ من الشعرِ أو بيتٍ من الشَّعرِ

وهذا المطلع الغزلى كما نرى مصنوع صنعة عقلية ؛ استنَّ فيه أبو العلاء سنة بعض من سبقوه من الشعراء ، واستخدم أساليبهم الفنية ، وأضاف إليها ميلاً ذاتياً إلى قدر من رياضة العقل فى التعبير عن المعنى بترويض اللغة أو محاولة إخضاع اللغة لهذا اللون من اللغز التعبيرى إذا صح التعبير .

وبمراجعة معانى أبى العلاء فى هذه الأبيات نجده لا يخرج تقريباً عن معانى الغزل التقليدية ، أو المعروفة المتداولة بين الشعراء منذ القدم . فالحديث عن سهر الليل ، والشوق والتفكير فى المحبوبة ، والدعاء للأيام الجميلة الماضية التى قضياها فى مكان المنزل ، الدعاء لها بالخير والسقيا ، والتذكر للحبيبة على البعد ، ومصاحبة طيفها للمحب الشاعر أينما ذهب ، وتمنيه أن يطول الليل حتى تطول ملازمة الطيف ، ولا يفارقه بطلوع النهار ويقظته . وتذكر هذا كله بعد مرور حول من الزمان .

ووصف المحبوبة بالريم ، والبقرة الوحشية فى الدلّ ، وجمال العيون .

ولكنَّ هذه المعانى القديمة الجارية فى الغزل ، ظهرت فى صياغة أبى العلاء ، وكأنها معانٍ جديدة لما أدخل عليها من ضروب اللغز فى التعبير ، والتعقيد الذى

يجرى فيه على طريقة أبى تمام من الإيغال فى الاستعارة ، وتداخل التراكيب بحيث تتعاظل المعانى . فأى معاظلة أكثر من قوله فى هذا المطلع :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السَّمر لعلَّ بالجزع أعوانا على السَّهر
وإن بخلت عن الأحياء كلّهم فاسق المواطر حيًّا من بنى مطر

فهو يريدُ أن يقرن بين السهر والدعاء بالسقيا ، أى بين معاناة المحب بالسهر من فرط التفكر والشوق ، والدعاء لأهل المحبوب وحيّه بالخيرْ . ساق هذين المعنيين أو سلكهما معاً مسلكاً متراكباً ، أو متراكماً ، أو متولّداً بعضه من بعض .

واستخدم « الجزع » وهو اسم لمكانٍ يكثر فى شعر الجاهلين ومن تبعهم ، وبنى مطر إسم حىّ ، وهو اسم رمزىٌّ ، وليس اسماً حقيقياً ، فاستخدم اسم المكان ، واسم الحيى رمزين على ما تعارف عليه الأقدمون ، أو هو استخدم هذين اللفظين ليثير معنى ما أراده القدماء ، ولم يأت هو بجديد ، فهو مجترٌّ مختزنة من الشعر فى هذا التعبير ، ويخرجه فى صورة من هذه الصياغة أو المعرض العلائى .

والأشدُّ معاظلة هذا البيت الثالث الذى يريد ببساطة أن يعبر عن معنى جمال حجليها فى ساقيها فجاء بهذه الصياغة :

ويا أسيرة حجليها أرى سفهًا حملَ الحلىّ لمن أعيا عن النظر

وقد اعتاد الشعراء وصف ساق المرأة بالامتلاء ، حتى يضيق عنها الحجل فعبر عن ذلك بأن ساق الحبيبة أسرتا حجليها ، ورمى من لا يقدر جمال الحجل فى الساق بأنه عيى النظر لا يقدر الجمال ، فيصبح من قبيل الشفه التجمل بالحجل لمن لا يقدر قيمة جماله بالنظر .

أرأيت كيف شق أبو العلاء على نفسه ، وشقَّ بالضرورة على الناس ؟ فى تذوق شعره فضلاً عن فهمه .

ومن لوازمه فى هذا المطلع ما يغلب عليه من المبالغة ، والشطط فى الخيال فى قوله :

لو حطَّ رحلى فوق النّجم رافعه ألفيتُ ثمَّ خيالاً منك منتظرى

وهى مبالغة لا تجدى فى إضافة لمحة من الجمال ، بل قد تزرى بالمعنى ولا تجمّله .

وكذلك قوله :

يودُّ أن ظلام الليل دام لهُ — وزيد فيه سوادُ القَلْب والبَصر

وأين هذا من قول بشار الذى أحسب أنه أراد الاستعانة به ، وتقليده ولكنه جاء تقليداً نابياً ، ومجاراة غير مقبولة ولامستساغة، فسواد القلب ، ليس مما يزيد الليل طولاً ، وهو نقطة سوداء أو حبة سوداء فيما يعتقد القدماء ، ولا وجود لها فى حقيقة الأمر ، وسواد البصر إنسان العين . يقول بشار :

ودَّ الليلَ زِيدَ إليه ليلٌ — ولم يُخلق لَهُ أبداً نهارُ
جفت عَيْنى عن التغميض حتى — كأن جفونها عنها قصار

وأراد أبو العلاء أن يُغرب فوقع فى المحال ، أو فى اللغز المعمَّى . وأين من هذا بيان بشار ، وجمال تعبيره ووضوحه .

وهكذا يمضى أبو العلاء فى سائر القصيدة مُعَمِّياً فى لفظه وصوره باعثاً قارئه إلى الحيرة فيمن يتغزل بها ، يوّهمه أول الأمر بأنه يتغزل فى موجود شاخص ، فإذا به يكتشف أن أبا العلاء غرَّر به ، يدنيه من هذا الوهْمَ الذى لفه فيه من بداية القصيدة ، ويبعده عنه كلما مضى مسترسلاً فى قراءة أبياتها .

فإذا هذه التى يتغزل بها قريحته ، أو موهبته الشعرية التى تجسد له الجمال فى بيت من الشعر ، يدنيه منك بيتٌ من الشعْر .

بعد هذه المقدمة التى وضعها على الطريقة التقليدية ، إلا أنه صاغها بطريقته ، وسواء أكانت غزلاً أو نسيباً ، أو شيئاً آخر عمَّاه عنا ، فإنه ينتقل منه إلى المديح العادىّ فى معانيه لكنه علائى الصياغة . حتى فى هذه المرحلة المتقدمة من شعره فى سقط الزند .

فقصائد سقط الزند ، وإن كانت سابقة على قصائده اللزوميات إلاَّ أنها حوت كلَّ خصائص شعر أبى العلاء ؛ صنعته الشعرية ، وأفكاره ، وعقائده وسلوكياته ، ومواقفه من الناس والحياة والكون والخلق .

وربما عثرنا فى هذا الديوان على قصائد أكثر وضوحاً وقربًا من الواقع فى معالجة بعض أمور الحياة ، وشئون الدنيا ، وتقلباتها التى مر بها الشاعر فى هذه المرحلة من مبكر شبابه حتى كهولته .

فنرى بعضاً منها فى مناسباتٍ ، وموضوعات مما اعتاده الشعراء كالمديح والرثاء ، والشكوى ، والغزل والعتاب ، والحنين والوصف .

ومنه هذه القصيدة السائرة المشهورة له فى رثاء فقيه حنفى :

غيرُ مجدٍ فى مِلَّتى واعتقادى   نوح باكٍ ولا ترنُّم شادِى
وشبيهٌ صَوْتُ النعِىِّ إذا قِيـ   ـسَ بصوتِ البشير فى كل نادى
أبكت تلكم الحمامة أم غنَّـ   ـتْ على فرع غُصنِها الميَّادِ
صَاحِ هذه قبورُنا تملأ الرُّحـ   ـبَ ، فأينَ القبورُ من عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أظنُّ أديم الـ   أرْض إلاّ من هذه الأجسَادِ
وقبيحٌ بنا وقدِ قدُمَ العهـ   ـدُ هَوانُ الآباءِ والأجدادِ
سِرْ إنِ اسْطعْتِ فى الهواء رويداً   لا إختيالاً على رُفاتِ العبادِ
رُبَّ لحدٍ قد صارَ لحدًا مِرارًا   ضاحكاً من تزاحُمِ الأضدادِ
ودَفينٍ على بقَايـا دفينٍ   فى طويل الأزمان والآبادِ
فاسأل الفرقدينِ عمَّنْ أحسَّا   من قبيلٍ ، وآنسا من بلادِ
كم أقاما على زوالِ نهارٍ   وأنـارا لمدلج فى سَوَادِ
تعبٌ كلُّها الحياةُ فما أعجـ   ـبُ إلاَّ من رَاغبٍ فى ازدَيادِ
إنَّ حُزنا فى ساعةِ الموتِ لأضـ   ـعَافُ سُرورٍ فى سَّاعة الميلادِ
خُلِقَ النَّاسُ للبقاءِ فضَلَّتْ   أمةٌ يحسبونَهُمْ للنَّفادِ
إنما ينْقلُونَ مِن دارِ أعمـا   لٍ إلى دار شقوَةٍ أو رَشادِ
ضجعةُ الموت رقدَةٌ يسـ   ـتريحُ الجسْمُ فيها ، والعيش مثل السُّهَادِ
أبناتِ الهَديل أسْعِدْنَ أوْعِدْ   نَ قليلَ العزاءِ بالإسعادِ
إيهِ لله درُّكُنَّ فأنتُنَّ اللو   اتِى تُحْسِنَّ حفْظ الودادِ
ما نسيتُنَّ هالكاً فى الأوَانِ الخـ   ـالِ أوْدى من قبْلِ هُلْكِ إيادِ
بَيْدَ أنى لا أرتضِى ما فَعَلْـ   ـتُنَّ ، وأطواقُكُنَّ فى الأجْيَادِ
فتسَلَّبْنَ واستَعِرْنَ جميعـاً   من قميص الدُّجى ثيابَ جدادِ
ثم غَرِّدْنَ فى المآتِمِ واندُبْـ   ـنَ بشجوٍ مع الغوانى الخِرادِ

حتى يصل إلى من رثى فيقول :

قصَدَ الدَّهرُ من أبى حَمْزَةَ الأوَّا ... بِ مَوْلَى حجىً وخِدْنَ اقتِصادِ
وفقيهاً أفكارهُ شِدْنَ للنُّعما ... نِ مَا لم يشِدْهُ شِعْرُ زِيادِ
فالعراقِيُّ بعده للحِجَازِيِّ قليـ ... ـلُ الخلافِ سَهْلُ القيادِ
وخطيباً لو قام لِبَنِ وحوشٍ ... عَلَّمَ الضارياتِ بِرَّ النِّقادِ(١)
راوِيًا للحديث لم يحوج المعـ ... ـروف من صِدْقِهِ إلى الإسْنادِ

لقد جعل المعرى من مناسبة رثاء الفقيه الحنفىّ موقفاً يبوح فيه بما يحمله فى نفسه من أحاسيس تجاه العالم المحسوس والغيبى ، أو عالم الشهادة وعالم الغيب ، وأعمل فكره فى الحياة والموت ، واتخذ من عناصر الوجود الحىّ رمز الحمامة التى تبكى الهديل ، وهى تترنّى للحياة ، فالحياة والموت يتعاقبان فى المخلوقات ، يستقبل الخلق الجديد ــ الولادة ــ بالمسرة والفرحة ، ويودّع الموت باللوعة والحسرة ، وساعة الفراق أشد وأكثر لذعاً فى النّفس لأن الوليد مقبل جديد لم تمكن له العشرة والمعايشة والتآلف فى النفوس وموت العزيز من الأحياء بعد إلفٍ ومعايشة السنين حقيق بأن تجزع النفس له وتحسُّ بالفقد .

لقد كرَّس المعرّى سقط الزند لموضوعاتٍ جارية فى الشعر العربى إلاّ أنه عالجها من منظوره هو ، ورؤيته هو ، فبدت فيها ملامح العلائية واضحة فى اللفظ والتراكيب والصور ، قد يلجأ إلى المعانى التقليدية أو يستعيد معانى شعر القدماء ، ومحفوظة منه كثير وفير ولكنه يجنح إلى الشعراء أصحاب المعانى ، يستعيد معانيهم وصنعتهم ويضيف إليها من معرفته وثقافته وفكره .

ومن هنا قد تلتقى فى قراءتك لشعر سقط الزند بمعانٍ لأبى تمام والمتنبى وهما الأيثرين لديه ، لكن هذه المعانى تبدو أطيافاً ، بعد أن أعاد المعرى صياغتها بطريقته .

واستمد المعرى الرّمز والتشابه فى اللفظ فى إلغازه العقدىّ على ما سنبينه بعد .

---

(١) النقاد ضعاف الغنم .

حفل عصر أبى العلاء بقدر من الصراع السياسى والعسكرى جنباً إلى جنب مع الصراع الفكرى والدينى بين العرب المسلمين ، وبين العرب والعرب ، وبين المسلمين العرب والمسلمين الترك والروم وبين الفاطميين والعباسيين ، وبين المسلمين والروم .

وكانت الشام مسرحاً لمعظم هذه الصراعات .

وأدّى هذا الصراع المتلاحم بين الديانات الإسلام والمسيحية ، بين المسلمين والروم والذى استعَرتْ حدته فى عصره أدى به التساؤل عما فى هذا الصراع من دوافع ، ولم يقتل الانسان أخاه لعقيدته ، والأديان إنما كانت لتآخى أبناء البشر والتراحم بينهم . فيقف هذا الموقف المتعادل بين الديانات الثلاث . هذا الموقف الذى بدا فى آراء مفكرى العصر واتجاهاتهم ، واتجاه بعضهم إلى التوحيد بينها كما رأينا عند رجال الصوفية ومفكريهم ، وإلى التسامح الفكرى والدينى عند الفاطميين وتعرف أن هذا التسامح بين الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية كان إتجاهاً واضحاً فى سياسة الفاطميين . يقول أبو العلاء :

يا آلَ إسرالَ هل يُرجَى مسيحكم	هيهاتَ قد ميَّز الأشياء من خُلبَا
قلنا: أتانا، ولم يُصْلَبْ. وقولكم	ما جاءَ بعد . وقالت أمة صُلِبَا

فيعرض لشخص المسيح بين الديانات الثلاث ، وينطرق إلى ما سواها من القصائد وينظر فى أمر الخلاف بينهما نظر العقل ، فلا يفرق بينها ، ويراها عقائد متوارثة وشرائع فرضت على الأجيال عن الآباء والأجداد . يقول :

العقلُ يعجبُ والشرائعُ كلُّها	خبرٌ يُقلَّدُ ، لم يقسْهُ قياسُ
مُتمجِّسُونَ ومُسلمُونَ ، ومعشرٌ	متنصِّرون ، وهائدونَ رَسَائِسُ
وبيوتَ نيرانٍ تزَارُ تَعبُّداً	ومساجدٌ معمُورةٌ وكنائِسُ
والصَّابئونَ يعظِّمونَ كواكباً	وطباعُ كلٍّ فى الشُّرور حبائِسُ

ويقول مرة أخرى :

دِينٌ. وكفرٌ ، وأنباءٌ تُقَصُّ وفُرْ	قانٌ يَنُصُّ ، وتَوراةٌ ، وإنجِيلُ
فى كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدَانُ بها	فهلْ تفرَّدَ يوماً بالهُدَى جيلُ

ويَرى بالتعطيل ، ويرى فى الفروض الإسلامية مما ينفع الناس أولى بالاهتمام كالزكاة والعمل الصالح والسّلوك الخير لا فى العبادات كالصوم والصلاة :

ما الخَيْرُ صومٌ يذوبُ الصائمون به ولا صلاةٌ، ولا صوفٌ على الجسَدِ
وإنما هو تركُ الشرِّ مطَّرحاً ونفضكَ الصَّدرَ من غلٍّ ومن حسَدِ

فالشر هو الذى ينبغى أن يقاوم ، ويقاوم بالدعوة إلى تخليص النفوس من الحقد والحسد والدعوة إلى التآخى والمحبة .

ومن هنا ما لم تنه العبادات عن الشرّ ، ولم تدع إلى الخير فلا جدوى منها :

ويقف موقفاً معتدلاً من عقائد الفرق الإسلامية ، فلا يرى رأى غلاة الشيعة ويستنكر الخلاف بينهم وبين السنة المعتدلين ، ويأسف لانقسام العلويين وظهور الخوارج ، ويحمل على مذهبهم الذى يتخذ العنف طريقاً إلى تحقيق عقيدتهم ، ويعرض لشطحات الصوفية ، وممارساتهم فيسخر من حلقات الذكر التى يعقدونها منشدين راقصين . ولا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب السنة الأربعة التى بلغ العداء بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار . يقول :

أجازَ الشافعىُّ فقال شيئاً وقال أبو حنيفة لا يجوزُ
فضلَّ الشيبُ والشبَّانُ منا وما اهتدتْ الفتاةُ ولا العجوزُ

وعنده أن رجال الدين هم أصل الخلاف وهم مُشعلوه ومؤججوه ، فيحمل عليهم متهماً إياهم بالكذب والمراءاةِ ، وأنهم يصطنعونَ القراءةَ والوعظ احتيالاً على الرزق ، ومن هنا يدعو الناس إلى عدم الركون إليهم ولا الثقة بهم .

ويتناول بعض ما تحفل به عقول الناس من أساطير وخرافات أسسها أقوال أنصاف العلماء فى كتبهم عن جهل أو غفلة . ويحذر من الإسراف فى الغيبيات التى لا يملكون لها تحقيقاً . كأن يقول :

فاخشَ المليكَ، ولا توجد على رهبٍ إنْ أنْتَ بالجنِّ فى الظَّلماءِ خُشّيتا
فإنما تلك أخبارٌ مُلَفّقةٌ لخدعةِ الغافِلِ الحُشْوِىِّ حُوشيتا

فى كلٍّ من الحروف بالحركات الثلاث والسكون ، ولزوم بعض الحركات والحروف مع الروى .

ونظمه بعد عودته من بغداد أى بعد سنة ٤٠٠ هـ .

وأشار فى المقدمة إلى الغايات التى استهدفها فى الديوان قائلاً :

« وبعضها تذكير للناسكين ، وتنبيه للغافلين ، وتحذيرٌ من الدنيا » .

ويلمح إلى هذه الغايات حيث يبرر عودته إلى النظم بعد إعراضه عنه بقوله : « لكثرة ما شاع فى المجتمع من الكذب والسخف » .

وعليه فيكون قصده التحذير من شر الدنيا والحث على فعل الخير ، التماساً لثواب الآخرة »[١] .

هذا من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل فقد نعى على شعراء العصر مناهجهم وما أرتادوه من المعانى . قال فى المقدمة : « وقد وجدنا الشعراء توصّلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبائح ، وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمرة ، ونسبوه إلى الجزالة بذكر الحروب ، واحتلبُوا أخلاف الفكر ، وهم أهل مقام وخفض فى معنًى ما ، يدّعون أنهم يعانون من حث الركائب ، وقطع المفاوز ، ومراسى الشقاء » .

فهذه التقاليد الشعرية التى اعتنقها معاصروه صارت فى رأيه أموراً لا ينبغى الأخذ بها ، والشعر أسمى من ذلك مكانةً ، فقد اتخذ لنفسه نهجاً يخالف مناهجهم وبخاصة فى هذه المرحلة المتأخرة من حياته بعد بلوغه سن الأربعين وتجاوزها .

كان المعرّى فى الشباب وحتى الكهولة قبل عودته من بغداد إلى بلده يجرى على طريقة شعراء العصر بالقصد إلى المديح ، واتخاذ ما يتخذونه وسائل لارضاء الممدوح واحتلاب أخلافه — كما يقول — ليجود بأكثر ما يستطيع بعد هذا الإبساس من كسب ودّه ، والتقرب إليه بالغزل ، وكيل صفات المدح نفاقاً ،

(١) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ، ص ٨٨ .

وذكر ما يلقاه فى الوصول إليه من مشاق . وقد يعرض بالسؤال أحياناً يقول كمال اليازجى[1] :

« وقد جرى المعرى هذا المجرى فى شعر شبابه إلاَّ أنه تحوَّل عنه فى عهد نضجه والذى حمله على أن يعود إلى النظم اعتقاده أنه يستطيع أن يحرر شعره من التقليد المبتذل ، وينزهه من الرذل الساقط ، ويطهره من الكذب الممقوت ، ولذلك جعل منه هدفاً أسمى ، جعله عظة للسامع ، وتنبيها للغافل ، وتحذيراً من الدنيا كى يهتدى به الضالون ويسترشد به المترددون » .

فهل كان شعره فى اللزوميات مجرد موعظة فيها تنبيه للغافل ، وتحذيراً من الدنيا ... إلخ كما جاء فى قول الدكتور اليازجى ؟

الحق أن خطاب المعرّى الشعرى فى اللزوميات لم يكن مجرد موعظة ، بل كان إفضاءً بموقف اتخذه المعرى من الحياة والناس بعد عودته من بغداد مركز الفكر والأدب والتوجه الحضارى والسياسى .

وعلى اختلاف الرأى فى أسباب عودته من بغداد إلى المعرة بعد أن لقى فيها ما لقى من مواجهة مع بعض رجالاتها وعلمائها ، وما شهده فيها من أمور لم تقع فى نفسه موقعاً مريحاً . يقول فى رسالته إلى أهل المعرة عن أسباب العودة :

« وهو أمر سرى عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ولكنه غذىُّ الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل » .

يقول فى الرسالة المذكورة :

« ... أما الآن فهذه مُناجاتى إياهم منصرفى عن العراق مجتمع أهل الجدال ، وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فأنقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبتُ الدهر أشطره ، وجرَّبت خيره وشره ، فوجدتُ أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من سانح النعام ، وما آلوتُ نصيحة لنفسى ولا قصَّرتُ فى اجتذاب المنفعة إلى حَيِّزِى ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً . وعدَّه إذا تم رشداً . وهو أمر سرى عليه بليلٍ ... وأحلف ما

(١) أبو العلاء ولزومياته .

سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدتُ أنفس مكان لم يسعف الزمان بإقامتى فيه ، والجاهلُ مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان ... » حتى يقول : « ويحسنُ الله جزاءَ البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحق ، وشهدوا لى بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليَّ أموالَهم عرضَ الجدّ ، فصارفونى غيرَ جذلٍ بالصفاتِ ولا هشٍّ إلى معروفِ الأقوام ، ورحلتُ وهم لرحيلى كارهون ... » .

وتعلق الدكتورة بنت الشاطىء على الرسالة قائلة(١) :

« والرسالةُ صريحة » فى الكشف عن مطاردة من نفسه لا من فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها ، وتفكيره فيها حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون » .

هذه الهموم النفسية هى التى أشرنا إليها من ممارسته عن قرب لصور الحياة ، وأحوال الناس فى عاصمة الدولة ، ومركز الخلافة ، ولا شك أنه رأى على مستوى القيادتين السياسية والدينية ما لا يرضى عنه ، كما رأى من أحوال الناس واختلاط المفاهيم بينهم ما رأى ، وتملك الجهالة والشُّبه لكثير من عقول العلماء مما لم يرض عنه ، كذلك رأى أحوال الناس وانصرافهم إلى متع الحياة والتمسك بالدنيا دون القيم الرفيعة التى أرساها الإسلام وجاءت بها رسالة محمد بن عبد الله . يقول مخاطباً أهل بغداد :

وكان اختيارى أن أموت لديكم ... حميداً ، فما ألفيتُ ذلك فى الوسعِ
فليت حِمامِى حُمَّ لى فى بلادكم ... وجالتْ رِمَامى فى رياحكم المُسْعِ
فَدونَكم خفض الحياة فإننا ... نصبنا المطايا بالفَلاةِ على القطعِ

ألا نجد فى هذا القول ترديداً لقول المتنبى فى رفض الحياة الحضرية التى رأى فيها المتنبى خروجاً على التقاليد والقيم العربية التى أرساها الإسلام وثبتها ، ودعوة إلى العودة للبداوة .

وهكذا ما أن استقر المعرّى فى حلب حتى بدأ يسترجع ما لم يرض عنه مما

(١) أبو العلاء المعرى من سلسلة الأعلام ، طبع الطبعة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ م ص ١٢٥ .

سمع أولامَسَ فى تلك المرحلة البغدادية خاصة ، والتى أوقعت فى يقينه أن عصره شر العصور . يقول :

هل يغسل الناسَ عن وجه الثّرى مطــــــرٌ فما بَقُوا لم يُبارِحْ وجَهَهُ دَنَسُ
والأرضُ ليسَ بمرجوٍّ طهارتُها إلا إذا زَالَ عن آفاقها الأنسُ
تناسَلُوا فنما سرٌّ بنَسْلِهُــم وكَم فجورٍ إذا شبَّانُهم عنَسُوا

ومن هنا وقف أبو العلاء من الحياة والناس والدين والفكر موقف الشكّ والحيرة أهو شكٌّ فلسفى ؟ ، أهو شك وجودى ؟ ، أهو شكٌّ عَبَثِى ؟ ، أم هو مجرد احتجاج وغضبٌ لما رآه ولمسه من فسادٍ واختلاط ، أدى به إلى اليأس فى الإصلاح والنظرة المتشائمة للحياة والناس .

ورأى الدكتور طه حسين لتعاطفه مع أبى العلاء ولمحاولته الدفاع عنه من وجهة نظره هو وقناعاته هو أن شكَّ أبى العلاء كان شكًّا إيجابياً . يقول[1] :

« إن أبــا العلاء يصوّر فى شعره شكًّا مَهْمَا يعنفُ فهو لا ينتهى بصاحبه إلى هذا التمرد الوقح الذى نجده عند كثير من الذين أسرفوا فى الثقة بعقولهم ، وإنما ينتهى به إلى الخوف والإشفاق ، والغلو فى الحذر ، والاحتياط للنفس ، والاجتهاد فى الخير » .

ولعل طه حسين كان يستحضر صور بعض المتمردين من الشعراء والعلماء ممن دعاهم بأصحاب التمرد الوقح ، وربما كان بين هؤلاء بشار بن برد وأبو نواس وابن الراوندى ونعرف موقفه من بشار ، وأنه كان موقف غير الراضى .

ونلتقى فى ديوان اللزوميات بهذه الرؤية الشاملة التى آرتاها أبو الطيب فى عصره قبل عصر أبى العلاء بقرن من الزمان إذ يقول :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته فسرَّهم وأتيناهُ على الهرَمِ

ويقول :

أنا فى أمة تداركها اللـــــــــــه كصالح فى ثمودِ

---

(١) مع أبى العلاء ص ١٨١ .

شعر اللزوميات :

وديوان اللزوميات يلى ديوان سقط الزند ، وهو فى مرحلة اعتزاله ، ونضجه يبث فيه فى هدوء فلسفته ويعرض موقفه من عصره ومجتمعه . لقد أقام فى محبسه بالمعرة سنوات ، يعتزل الناس والناس لا يعتزلونه ، التقى به نفرٌ من علماء القرن الخامس فى نصفه الأول ،وجمعت الصداقة بينه وبين جماعة من الأعلام فى السياسة والعلم والأدب ، أمثال الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على ووالده ، وشمس الدين الشيرازى داعى الدعاة ، وابن سنان الخفاجى تلميذه والشاعر الشامى المشهور ، ولقى الشاعر المعروف الدمشقى ابن حيّوس وناظره فى محسن الصورى والمتنبى ، وكان ابن حيّوس يعرف كلف المعرى بالمتنبى .

ومر به جماعة من العراق كالشاعر صريع الدلاء .

وراسل المصريين ، واتصل بجماعة من رجال الفاطميين ، فقد كان قريباً منهم ، ودعى إلى مصر ، ولم تمكنه الرغبة فى العزلة من الرحلة إلى مصر . ولا نستطيع أن نغفل علاقة المعرّى بالفاطميين على الرغم من عدم لقائه بهم ، ولكنه التقى برجالهم . وظهرت آثار الإسماعيلية واضحة فى كثير من شعره وكتاباته . لربما لم يصرح تماماً بفكره الإسماعيلى ، لأنه لم يعتقد فكراً معيناً ، إلاَّ أنه كان يميل إليه ويتعاطف معه وأعجب لعبارة الدكتور طه حسين التى تقول :

« ولم يكن أبو العلاء يحب الفاطميين ، ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن أبو العلاء يحب الشيعة عامة ، ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد ، فهو يعرّض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية » .

ولا يأتى لنا بنص صريح فى هذا التعريض أو الهجوم .

ولكنا نثبت لأبى العلاء قربه الفكرى من الفاطميين وفكرهم الإسماعيلى ، والفكر الشيعى عامة بما روى عن حديث عن لقائه لأبى يوسف القزوينى .

فقد حكى أنه قال يوماً لأبى يوسف : ما رأيت شعراً من مرثية الحسين بن على يساوى أن يخط ، فقال القزوينى : بلى فقد قال بعض أهل سوادنا :

رَأْسُ ابن بنت محمدٍ ووصيّه   للمسلمين على قناة يُرفعُ
والمسلمون بمنظر وبمسمع   لا جازع منهم ولا مُتَفجّعُ

إلى آخر هذه الأبيات .

ففيم يكون سؤال المعرّى واستنكاره ؟ لو أنه لم يكن من شيعة الحسين ابن على ، أو من يحبونه ويجلونه ويرفعونه إلى مقام رفيع لا يَرى أحداً من الشعراء اقترب من الفجيعة عليه بما ينبغى من القول .

ولقد اهتدى أبو العلاء بالعقل فى نظره إلى الحياة والناس ، وإلى العقائد والتقاليد والعادات ، وبدت فى أشعاره روح صوفية ، وإن لم يتصوف عملاً وهو يعارض أهل الظاهر ، ومن يعتمدون النقل ، ويقدمونه على العقل . يقول :

لقد صدئتْ أفهام قوم فهل لها   صقالٌ ، ويحتاج الحسام إلى صقْلِ
وكم غرَّت الدنيا نبيَّهاً وساءنى   من الناسِ حَيْفٌ فى الأحاديث والنَّقْلِ
سأتبعُ من يدعو إلى الخير جاهِداً   وأرحلُ عنها، ما إمامِى سوى العقلِ

ولقد تمرد على عقائد عصره ، وقال فى لحظة من لحظات تمرده مخاطباً إنسان عصره :

خُلِقْت مريض العقْلِ والدينِ فالقنى   لتسْمَعَ أنباءَ الأمور الصحائح

وربما كان من شُبه حبّه لكل ما هو مفكر علوى النهج شيعىّ المذهب ميله الشديد إلى تقديم كل من أبى تمام والمتنبى ، ونعلم ما قيل من ارتباطهما بالشيعة أو القرامطة بالنسبة إلى المتنبى ، بل ولعله بالفكر الإسماعيلى أيضاً على ما يرى بعض الباحثين .

وعلى أية حال فالمعرّى عاش فى ظل الدولة الفاطمية ، والفكر الشيعى عامة والإسماعيلى خاصة تموج به آفاق البلاد فى مصر والشام ، ومن لم يكن شيعياً بالانتماء فقد تكلم بكلام الشيعة والفاطمية ، أو انتحل رموزهم ومعانيهم مجاراةً ومحاباة .

ويقع ديوان اللزوميات فى نحو ثمانمائة صفحة ، وسماه لزوم ما لا يلزم لأنه التزم فيه ثلاثة أشياء : بناء القصائد على جميع حروف المعجم ، وإيراد الروى

كما يقول عن الملائكة والشياطين :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما عَلِمتُ به　　　جِسًّا بحسٍّ لجِنّىٍّ ولا مَلَكِ

ومنه ما زعموا من أساطير اعتقد فيها العرب ورويت عنهم وعن كهانهم مثل شق وسطيح :

وجدتُ الغيبَ تجهلُه البرايَا　　　فما شقٌّ هديت ولا سطيحُ

والوعاظ الذين يفرغون فآذان الناس فيضاً من هذه الأشياء مسرفون مغررون بالناس. يقول مخاطباً المواطن المعاصر :

رُوَيْدَكَ قد غُرِرْتَ ، وأنتَ حُرٌّ　　　بصاحِبِ حِيلَةٍ يعظ النِّساءَ
يُحرِّم فيكم الصَّهباءَ صُبحاً　　　ويشرَبُها على عمدٍ مساءَ
يقُول لكم غدوتُ بلا كِساءٍ　　　وفى لذَّاتها رهنَ الكساءَ
إذا فعل الفَتى ما عنهُ يَنْهَى　　　فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

ونقف مع طه حسين وقفة لنستطلع رأيه فى هذا الموقف من أبى العلاء حيال قضايا الدين ورجاله . يقول(١) :

« ... ولكن أبا العلاء معذورٌ بعضَ العذر فيما تورط فيه ، ودفع إليه من ألوان الجدل فى الدين والفلسفة ، فهو إذا مضطر إلى أن يُثبت وينفى ، وإلى أن يُعرِّف وينكرَ ، وإلى أن يَقبل ويرفض . وليس هو الذى ابتكر هذه المشكلات التى عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة ، وبلغ الشباب فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور ، وكثر فيها الاختلاف ، واشتد فيها الأخذ والردّ ... ونشأ عن ذلك شرٌّ عظيم فى حياة الناس ، وفسادٍ منكرٍ فى أمورهم ، فلم يكنْ له بدٌّ من أن يستعرض ما استعرض الناس من قبله ، ويستقبل ما استقبلوا . ويقول فيه مثل ما قالوا ، أو غير ما قالوا . وقد فعل ، وانتهى به هذا كلُّه إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة » .

ويعرض طه حسين لوجوه التشابه فى أفكار أبى العلاء التى بثها فى اللزوميات وتلك التى ترددت فى كتابه المتهم به فى تقليد القرآن وهو « الفصول والغايات »(٢) .

(١) مع أبى العلاء ص ١٨٠ .
(٢) مع أبى العلاء ص ٢٠٧ ، و ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

ويقول عن إيمان أبي العلاء إنه كان يؤمن بالله فى كليهما فى الفصول واللزوميات ويؤمن بحكمته ، وانقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق العقل .

وإذا فهو غير مطمئن إلى النبوات ، وهو محتاط فى إعلان شكه بالنبوات وهو ينكر فى اللزوميات من أمر الحج كما أنكرهُ فى الفصول والغايات ، ويثبت وجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها بما تكره من الشدائد .

ومن قضايا اللزوميات الفوضى السياسية وطغيان الحكام فى العراق والشام : يقول :

إنَّ العراقَ وإنَّ الشَّام من زَمنٍ ... صِفْرانِ ما بهما للمُلْكِ سُلْطانُ
ساسَ الأنامَ شياطينٌ مُسلَّطةٌ ... فى كلِّ مصرٍ من الوالينَ شيطانُ
من ليسَ يحفلُ خمصَ الناسِ كلهم ... إن باتَ يشربُ خمرًا وهو مبطانُ

وفى ظلم الحكام :

مُلَّ المقامُ ، فكم أعاشِرُ أمةً ... أمرت بغير صلاحِها حُكّامُها
ظلمُوا الرَّعيَّةَ ، واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤُها

وفى عدم حكم الرؤساء بالعقل :

يُسوسونَ الأمورَ بغيرِ عقلٍ ... فينفُذُ أمرهم ويُقَالُ سَاسَهْ
فَأُفٍّ من الزمانِ ، وأُفٍّ مِنّى ... ومن زمنٍ رئاسَتُه خساسَهْ

ويعرض لما كان يحدث فى زمنه من غارات الجند بالجيوش المسلمة والرومية وغارات غيرهم من الناس ممن يملكون أسباب القوة والسطوة . يقول :

والشَّرُّ جَمٌّ ومن تسْلَمْ له إبِلٌ ... من غَارَةِ الجَيْشِ يتركْها لخُرّابِ

وفى جشع التجار وغارات اللصوص وقطاع الطرق :

يا تَجِرَ المصرِ ما أنْصَفْتَ سائمةً ... كذَّبتها فى حديثٍ منكَ مَنسوقِ
إنْ تَشْكُ قطعَ طريقٍ بالفَلاةِ فكم ... قطعتَ من قبل طرقَ النَّاسِ بالسُّوقِ

ولأبى العلاء وثبات شعرية ، ولمحاتٌ وامضة تثير إعجاب القارىء وتقديره لشاعريته . ومن هذه اللمحات قوله على لسانِ طفل مات صغيراً :

تقول : حللت عاجلتى بكرهى … فعِشْتُ ولم أُبدِدْتُ ولم سُقِيتُ
رقيت الحولَ شهراً بعد شهرٍ … فلَيْتنى فى الأهلَّة ما رَقِيتُ
فلمَّا صيحَ بى ودنا فطامِى … تتيمنى الحِمامُ فما وُقِيتُ
تركْتُ الدار خاويةً لغيرى … ولو طالَ المقامُ بها شَقِيتُ
نَقِيتُ فما دَنسْتُ ولو تمادَتْ … حياةٌ بى دَنِسْتُ فما نَقِيتُ
رَقتْنِى الراقياتُ وحُمَّ يومى … فعادَرنى كأنِّى ما رُقِيتُ
وما يدْرِيْكِ باكيتى عَسَانِى … بِسُكْنَى الفوزِ فى الأُخرى اتُّقِيتُ
ومن صُنْع المليكِ إلىَّ أنىّ … تَعجَّلْتُ الرحيلَ فما بَقِيتُ

وهى وإن تضمنت فلسفة أبى العلاء التشاؤمية ، فإنها تنبىء عن رغبة فى رحمة الطفولة من صراعات الحياة ، والخشية على أن تلوث براءتها ، وما غرس الله فيها فطرة بشرور الناس بعد أن يشبُّوا عن الطوق ، وتتباين رغباتهم ، وتتشابك أطماعهم .

ومن شعر اللزوميات ذى المذاق الخاص ، قوله من أبيات يخاطب فيها الديك(1) :

عليكَ ثيابٌ خاطها الله قادراً … بها رئمتْكَ العاطفاتُ الرَّوائِمُ
وتاجُكَ معقودٌ كأنَّكَ هُرْمُزٌ … يُبَاهِى به أملاكَهُ ويوائِـمُ
وعيْنُكَ سقطٌ ما خبا عند قَرَّةٍ … كلمعةِ برقٍ ما لها الدّهر شائِمُ
ورثت هُدَى التذكارِ من قبلُ جُرْهُمِ … أوانَ ترقَّتْ فى السماءِ النعائِمُ
ومازِلْتَ للدّينِ القويمِ دعامةً … إذا قَلِقتْ من حامِليه الدَّعائِمُ
ولو كنتَ لى ما أُرْهِفَتْ لكَ مُدْيةٌ … ولا رَامَ إفطاراً بأكلِكَ صَائِمُ
ولم يُغْلَ ماءٌ كى تُمزَّقَ حُلَّةٌ … حبتْكَ بأسناها العصورِ القدائِمُ
فإن كتبَ الله الجرائِم ساخطاً … على الخلقِ لم تُكتَبْ عليكَ الجرائِمُ

(1) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

فنّه الشعرى

يتمتع المعرى بمقدرة شعريّة فذّة ومميزة ، وتتأيّد هذه المقدرة بمحصول وافر من الثقافات المتعددة ، والتمكن من اللغة والتراث الشعرى والفكرى . والإحاطة بأقوال أصحاب المذاهب والفرق وأصحاب الديانات ، بل لم يَدع جانبا من جوانب المعرفة إلاّ وأحاط به حتى الفنون من موسيقى وغناء كشف عن معرفته بهما فى أحد فصوله بالفصول والغايات ، فقد عرض لأضرب الغناء وفصلها ، وفسّرها تفسيراً يعكس إلماماً وفهماً لأسرارهما(١) .

ونرى أنه أفاد من إلمامه بالموسيقى ، فى توفير قدر من الإيقاع والموسيقى التى تنسرب من سياق عباراته ، وتتجاوب إلى حد كبير مع معانيه وإيحاءاته . وقد أفاض فى حديثه عن أعاريض الشعر وقوافيه .

وندرك أن عنصر الموسيقى فى الشعر عنصر مؤثر فيما يوحى به من تأثير غير مباشر فى النفس يشارك فى وقع المعنى الشعرى مع الخيال على وجدان المتلقى .

ومما يذهب إليه من توفير أصوات متجانسة أو متآلفة تتفق وتختلف فى النوع والدرجة هذا الجناس الذى يعمد إليه فى أبياته ، والطباق أو المقابلة ، والتبادل الإيقاعى فى التراكيب وصنعته فى القافية ، وبخاصة فى اللزوميات ، تشير إلى هذا الميل إلى اكسَاب هذا الصوت المتردد فى آخر أبياته أبعاداً صوتية أعمق وأكثر تركيباً . وقد تبعه فى هذا اللزوم بعض شعراء الشام ممن جاءوا بعده ، فأستخدموا جناس القافية وأصبح لوناً من ألوان البديع الشعرى المستحدث منذ القرن الخامس ، وصياغته الشعرية صياغة مركبة ، قد تبدو متكلفة تحسُّ بمعاناة الشاعر فيها ، لأنه يريد أن يوفق بين المعنى العقلى البعيد والعبارة ، ولا يحب لهذا المعنى الذى ينشده أن يفرغ مدلوله فى سهلٍ من اللفظ ، بل يعمد إلى تعقيده بتلك الصياغة الصعبة .

ويعلق طه حسين على عمل أبى العلاء هذا بقوله :

---

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

« وفى آثار أبى العلاء شدَّة على الناس ، شدَّةٌ فى ألفاظها ، وشدَّةٌ فى معانيها ، وشدةٌ فى أساليبها أيضاً ، ولكن فى هذه الآثار شدة على أبى العلاء نفسه ، فقد لقى فى إنشائها عناءً وجهداً »[1] .

وهو يعمد إلى الإغراب فى اللغة ، ويساعده على ذلك معرفته الواسعة بها ، يقول طه حسين[1] : « فما أعرف أحداً وعى اللغة العربية كما وعاها أبو العلاء ، وما أعرف أن أحداً صرَّف هذه اللغة فى أغراضه وحاجاته الفنية كما صرَّفها أبو العلاء » .

ومن عناصر الغموض الذى يقرب إلى اللغز فى شعره ميله إلى أن يعبر عن معناه بأكثر من صورة من صور التعبير كالمماثلة والمغايرة ، والتفصيل ، والتلميح .

ومن ضروب المماثلة التشبيه ، والإستعارة ، ومراعاة النظير والتمثيل والتوجيه .

وقد يعمد إلى التعميه ، بأن يوهم من ظاهر الكلام بمعنى غير ما يخفى من حقيقته . وهو واعٍ لهذا ويتعمده . يقول فى أحد أبياته :

لا تُقيِّدْ علىَّ لفظى فإنِّى مثلُ غيرى ، تكلُّمِى بالمجازِ

ويخبرنا فى غير موضع ، وفى أكثر من عمل من أعماله بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الإلغاز ، ولا يكره التحرُّز بالتقيَّة .

وقد صرح بميله للغز فى كتاب « زجر النابح »[2] .

وقال يوسف البديعى[3] : « وإن أبا العلاء ألف كتاباً فى اللغز لشدة ولعه به سماه « كتاب الألغاز » . يقول البديعى : وكتاب الألغاز كبير الحجم ، رتبه على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كلِّ بحور الشعر ، وأعاريضه ، وضروبه » .

---

(١) مع أبى العلاء ص ٢٠٧ .

(٢) زجر النابح ، تحقيق الدكتور أمجد الطرابلسى ، ص ٤٥ .

(٣) أوج التحرى عن حيثية المعرى ، بتحقيق إبراهيم الكيلانى ، ص ١٠٤ .

كذلك أشار بعض شراحه إلى هذه الظاهرة في شعره عامة . فقال البطليوسي تعليقاً على قوله :

فهل حدَّثتَ بالحرباءِ يَلْقى ... برأس العَيْرِ موضحة الشَّجاج

« وأبو العلاء يُلْغِزُ كثيراً بالأسماءِ المشتركة ، فيوهم أنه يريدَ معنًى ، وهو يُريد معنى آخر ، ويصف أحد الإسمين المشتركين بصفة الآخر »(١) .

وذكر صاحب جوهر الكنز جملة من ألغازه ، منها قوله(٢) :

أُحبُّ محمدًا وهَواىَ فيهِ ... وما صلَّيتُ قَطُّ على النَّبىِّ
وأهربُ ما استطعتُ من الدنايا ... فِرارَ الشيخ من رَهَبِ الصَّبىِّ

والنبىُّ اسم موضع ، والصَّبىُّ هو السيفَ .

وقال أيضاً :

إذا ما صَادَفَتْ زيداً وعَمْروًا ... أتاها بعــدَهُ أَوْسٌ ونَصرٌ
بقفرٍ لا تزالُ تَرُودُ فيه ... وَيجْمعُها وسِرْبَ الوحْشِ قَصرٌ

فزيد من الزيِّادة ، وعمرو من العمر ، وأوْس أى عوِض ، ونَصْر من نَصَرَ الغيثُ إذا أتاهُ ، والقَصرٌ آخر النهار .

وقال :

رأيتُ يَهُودَ وافَقَتْ النَّصَارى ... على بُغْضِ المسيح فَلَمْ يُلامُوا

والمسيحُ : العِرْقُ من اللَّحْم .

وقال :

لَقَدْ عاينْتُ مرتجزاً بشِعْــرٍ ... تَمنَّى مِثْلَهُ أَهْلُ العُروضِ
يَعيشُ به الفقيهُ وكم فقيهٍ ... أبىَ إلاَّ المعيشَةَ بالقـريضِ

فقوله : مرتجزاً يعنى السَّحابَ الذى فيه رَعْد ، والشّعرُ اسم جبل ، والفقيه الفحلُ من الإبل ، والقريضُ الجزء .

(١) شروح سقط الزند ، ص ١٧٢٣ .
(٢) جوهر الكنز ، ص ١١٣ .

وقال :

تُؤدُّونَ النوافِلَ كلَّ يوم وضاعَتْ فى ديارِكم الفُروضُ

الفروض : جمع فرض ، وهو نوعٌ من التَّمر .

وقال :

دعَا قاضِيكُم يَوماً شُهُوداً فَمالَ بهم عن الدينِ الشُّهُودُ

فالشهودُ جمع شهْد ، وهو العَسَل .

وقال :

لقد سُرُّوا وحُقَّ لهم سُرُورٌ إذَا بالَ الهِزَبْرُ عَلَى الضَّرِيرِ
وكم بَعَثُوا ضَرَيراً من عَوالٍ وأيديهم معاوِيةُ الصَّرِيرِ
لهمْ فى السَّبتِ والتوراةِ خَطٌّ إذا عزمَ المقيمُ على المسيرِ
وما عيد الفَطيرِ لهم بَعِيدٍ وهمْ والعائِدونَ من الفطيرِ
جُنوبُهم على عُفرِ الموامِى وأينُقُهُمْ تزودُ على السَّرِيرِ

الهزبْر : الأسد، وهو من الكواكب الذى تقول العرب مطرنا بنوءِ كذا تعنى بذلك الكوكب الغاربَ وقت طلوع الفجر فى ذلك الوقت . والضرير جانب الوادى، والصرير المال المصرور ، وضربٌ من الصَّبِير ، والتوراة مثل التورية وهى التغطية ، والفطير مصدر الفطرة وهى الخلقة ، والسرير أكرم مكانٍ بالوادى .

وقال :

رأيتُ البْدرَ أدْركَه مَشِيبٌ وأصبح طالباً قُوتَ العيال
وكم أرْوَى الأهِلَّةَ من نجيع وزاد المغربين من الهلالِ

وتكفى هذه الأمثلة للدلالة على ما أشار إليه كل من طه حسين والبطليوسى من مقدرة على اللغة ، واللعب على التشابه اللفظى والاختلاف المعنوى والمعرفة بأسرار اللغة ، والاشتقاقات والصياغات المجهولة والمهجورة ، أو ما يسمى بحوشىّ اللغة وغريبها .

ومع اقتدار أبى العلاء على اللغة ، وغزارة محصوله فيها ، وقوة ذهنه وذكائه

مما مكنه من هذا التشكيل الملغز نجده كذلك يملك قدرةً على تعريف التراث والتعامل معه بشتى مجالاته من معارف ونصوص دينية قرآن أو حديث ، وسيرة وتاريخ ، وأنساب وقبائل وشعر ... إلخ .

وتراه يعمد إلى الأسلوب الملغز فى توظيف بعض أسماءِ القبائل كأسد وهى قبيلة معروفة ، وأسم أحد شعراء هذيل الكبار وهو أبو ذؤيب فيقول :

لیالٍ ما تُفيقُ من الرَّزايـا فويْحي من عجائِبها ووَيْبي
أعادت أسْدُها أسدًا أكيلاً وأوْدَى ذِئبُهـا بأبى ذُؤيب

والأسد الأولى لليالى ، وأسد الثانية القبيلة ، وذئب الليالى جانس بينه وبين اسم الشاعر أبى ذُؤيب ، كما جانس بين أُسْدِ الليالى وأسد القبيلة . ملمحاً ومشيراً إلى قصة أبى ذؤيب وقد أودى الطّاعونُ بأولاده الأربعة ، فرثاهم بقصيدته المشهورة .

ويلعب بالجناس كما قلنا فى هوايته العقلية اللغز فى شعره بديوان اللزوميات .

ومن استعانته بآيات القرآن قوله :

انفـرد الله بسلطانـــه فما له فى كلِّ حالٍ كفاء

وضَمّنَ ألفاظ الآية (ولم يكنْ له كفواً أحد) .

وفى قوله :

ألم ترَ للدُّنيا وسُوءَ صَنِيعِها وليسَ سِوَى وَجْهِ المهيمنِ ثابت

من قوله تعالى (ويبقى وجه ربّك ذى الجلال والإكرام) .

ويقول :

ويظُنُّها نارَ الخليلِ سَلامةً ويكاد يأخذ من سناها القابِس

يشير إلى قوله تعالى : (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) .

ويقول :

ويَداىَ فى دُنْياىَ وهى حَبيبةٌ كيدَىْ أبى لهب غدا فى الآجلِ

يشير إلى قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتبّ) مشيراً إلى أن ذلك سيكون مصيره فى الآخرة .

ويقول :

وما لبِسَ الإنسانُ أبهَى من التُقَى وإنْ هو غَالَى فى حِسَانِ الملابِسِ

من قوله تعالى : (ولباسُ التقوى ذلك خير) .

وأمثلة استعانته بالشعر القديم كثيرة نذكر منها إشارته لأرجوزة رؤبة القافية :

وقاتِم الأعماقِ خاوِى المُختَرقْ
مُشْتَبِه الأعلامِ لَمَّاعِ الخَفَقْ

فيقول أبو العلاء :

مالِى غدوتُ كقافِ رُؤْبَةَ قُيِّدتْ فى الدَّهرِ لم يُقْدَرْ لها إجراؤها

ومنه قوله :

أين امرؤ القيس والعذارى إن مالَ من تحتِه الغبيط

مشيراً إلى قول امرىء القيس :

تقول وقد مالَ الغبيط بنا معاً عَقرتَ بَعِيرى يا امرأَ القيسِ فانْزِلِ

ويقول المعرى :

وما جَبَلُ الرُّيان عندى بِطائِلٍ وما أنا عن خُودِ الحِسانِ بِرَيَّانِ

يريد نقض معنى جرير فى قوله :

يا حبذا جبل الرَّيّان من جبلٍ وحَبَّذا ساكِنُ الرَّيانِ من كَانا

وتوظيف محفوظ المعرّى للشعر القديم ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو عباسياً على مستويات متعددة ، كما نلاحظ فى الأمثلة التى سقناها . واهتم الباحثون بتتبع هذا الموضوع فى شعره[١] .

(١) راجع على سبيل المثال « أبو العلاء ولزومياته » للدكتور كمال اليازجى ، طبع ونشر دار الجيل بيروت سنة ١٩٨٨ م .

وكم ورد في شعره من توظيف لأحداث التاريخ ، وصراع الفرق والمذاهب منذ الجاهلية وطوال عصور الإسلام حتى عصره .

يتحدث عن الأنبياء ، فعن سليمان الحكيم وقصة استكثاره من النساء ونزاع قابيل وهابيل ، وحديث العرب البائدة عاد وثمود وجرهم ، وهلاك عاد بريح صرصر .

وأيام العرب كيوم داحس والغبراء ، ويوم حليمة ، ويوم النسار ، ومقتل كليب .

ومن أحداث السيرة ذكر النبى ﷺ وما لقيه من أكلة خيبر المسمومة ، ومواقع أحد وبدر ، ويوم غدير خُمْ وحديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » . ويشير إلى اختلاف الأخذ بهذا الحديث بين الشيعة وأهل السنة :

شيعٌ أجلَّتْ يوم خُمٍّ وانثنت أخرى تعارِضُها بيوم الغار

وهو ينبذ التعصب ولا يتعصب لواحد من الفريقين :

ضمنتُ فؤادِى للمعاشِرِ كُلِّهِم وأمسكتُ لمَّا عَظَّمُوا الغَارَ أوخُمَّا

ويجرى حديثه عن أحداث المسلمين بعد وفاة النبى كحديث السقيفة والنزاع بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة عبد الله بن الزبير ، واغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعلى بن أبى طالب ، وقتل الحسين ، وحروب الشام والعراق ، واختلاف طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومقتل مروان بن محمد بمصر وانتهاء الدولة الأموية .

وثورة الزنج بالبصرة والقرامطة بالكوفة والأحساء .

كما يشير إلى بعض ما حدث للشعراء جاهليين ومحدثين ، فيعرض لامرىء القيس ويوم دارة جلجل ، وليلى والمجنون ، ولبنى وابن ذُريح ، وعن أبى العتاهية وحبه لعتبة ، وتوبته ونسكه .

إلى غير ذلك مما حفل به ديوانه ووظفه فيما إستهدفه من معانيه ومضامينه على صورة صريحة ، أو بطريق الإيحاء والإشارة .

ويبقى بعد هذا حديثنا عن خيالات المعرى ، فنرى أنه مغربٌ فى خيالاته وصوره إغرابَهُ فى ألفاظه وصياغاته .

وصوره البيانيّة غالباً ما تكون صوراً مجنحة ، فيها غموضٌ ، أو تحجبها حجبٌ يريد لها أن تبقى مغلفةً بها ، وقد يرمى بهذه الصور غير واضحة المعالم إلى الايحاء بمعان لا يرغب فى الكشف عن مستورها .

— ٢ —

ابن سنان الخفاجى

عبد الله بن محمد بن سنان (ت سنة ٤٦٦ هـ)

ولد بحلب ونشأ وتعلم بها ، ورحل إلى المعرة فأخذ الأدب عن أبى العلاء المعرى ، وتنقل بين بعض بلاد الشام ، ولقى جماعة من الفضلاء بها .

وكان يرى رأى الشيعة الإمامية .

وقصد بشعره بعض رؤساء الشام مادحًا ، ومنهم جد أسامة بن منقذ مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى(٢) ورثاه بعد وفاته وكان بينه وبين أبى نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح المرداس مودة مؤكدة . وكان الخفاجى قد خرج من حلب ، وبينه وبين أميرها المرداسى أمور . وأراد الأمير أن يستدرجه للعودة إلى حلب ، فكتب إليه ابن النحاس رسالة يستدعيه بأمر محمود بن صالح ، وكان قد نمّ فى كتابته عما يوحى بتآمر القوم عليه ليقتلوه . وفى أثناء طريقه إلى حلب عاود ابن سنان الفكر فى رسالة صديقه ابن النحّاس ، فرجع(٣) .

ورد على أبى نصر ابن النحاس بخطاب ملغز كذلك يشير إلى أنه لن يدخل حلب مادامو فيها يعنى أعداءه .

وكتب إليه صديقه يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجى :

خفْ من أمنت ولا تركن إلى أحدٍ ... فما نصحتُك إلاَّ بعد تجريبِ
إن كانتْ الترك فيهم غير وافيةٍ ... فما تزيد على غدْر الأعاريبِ
تمسكُوا بوصايا اللؤم بينهم ... وكادَ أن يدرسوا فى المحاريبِ

ولا نعلم أسباب هذه العداوة بين الشاعر وأمير حلب المرداسىّ،وإن كان يلمح إلى غدر الأعراب ، وهم من أعداء الفاطميين، وهم من السنة وسبق أن ذكرنا ما وقع بينهم وبين الفاطميين من وقائع ، وما كان من علاقة الشاعر ابن حيوس بهم فى هذه المرحلة من ستينات القرن الخامس .

(١) ترجمته فى الوافى للصفدى ووفيات الأعيان ، والأفضليات لابن منجب .

(٢) راجع وفيات الأعيان ٥ /٢٧٠ ، حامد عباس .

(٣) راجع الوافى ، وفوات الوفيات ٢ /٢٢١ .

والغريب أن ابن النحاس عاد فغدر بصديقه الخفاجى ، وكان رسول الموت إليه ، بعد أن هدده محمود بن نصر ، فأمره بأن يحمل إليه طعاماً مسموماً ، لأنه يأمنه .

وهكذا كانت منيةُ ابن سنان على يد صديقة(١) .

وهكذا مات ابن سنان مسموماً على يد هذا الصديق سنة ٤٦٦ هـ وحمل إلى حلب فدفن بها .

وللخفاجى ديوان شعر ، ومجموعة مصنفات فى الأدب والبلاغة أشهرها « سر الفصاحة » .

وفى شعره بعض معانى الشيعة وأقوالهم . من ذلك قوله فى على بن أبى طالب :

وقالوا قد تغيَّرتْ الليالى ... وضيعتْ المنازلُ والحقوقُ
فأقسم ما استجدَّ الدهر خُلقاً ... ولا عدوانه إلاَّ عقوقُ
أليسَ يُرَدُّ عن فدكٍ عَلىٌّ ... ويملك أكثر الدنيا عتيقُ

يشير إلى عدم اشراك أبى بكر لعلى بن أبى طالب فى غزوة فدك . ويعرض فى الأبيات لما قد يكون وقع عليه من الظلم فى حلب فاضطر إلى مغادرة دياره خشية اغتياله .

واختار صلاح الصفدى مجموعة من شعره اقتطعها من قصائده أو مقطعات مفردة . ومما أختاره قوله :

سلا ظبيةَ الدعْسَاءِ هل فقدتْ خِشْفَا ... فإنَّا لمحنَا من مرابعها طَرِفَا
وقولا لخوطِ البانِ فليمسكْ الصَّبا ... عليها ، فإنَّا قد عَرفنا بها عَرْفا
سَرتْ من هضاب الشَّامِ وهى مريضةٌ ... فما ظهرتْ إلاَّ وقد كادَ أن تخفَى
عليلةُ أنفاسٍ تداوَى بها الجوَى ... وضَعْفَى ولكن قد وجدنا بها ضَعْفى
وهاتفةٍ بالبانِ تُملى فراقها ... وتتلو علينا من صبابتها صُحُفا
عجبتُ لها تشكو الفراقَ جهالةً ... وقد جاوبتْ من كلِّ ناحيةٍ إلفا

---

(١) راجع القصة كاملة فى فوات الوفيات ٢ /٢٢١

ويشجى قلوبَ العاشقينَ حنينُها وما فهموا مما تغنَّتْ به حَرْفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبستْ طوقاً ، ولا خَضَبَتْ كفّا
أجارتنا أذكرتِ من كانَ ناسياً وأضرمْتِ ناراً للصبابةِ لاتُطفا
وفي جانبِ الماءِ الذى تَرِدينهُ مواعيدُ لا يُنكِرْنَ ليًّا ولا خُلْفا
ومهزوزةٍ للبانِ فيها تمايلٌ جعلْنَ لها في كلِّ قافيةٍ وصْفا
لَبِسْنا عليها بالثنيَّة ليلةً من السُّودِ لم يَطْوِ الصَّباحُ لها سِجْفا
لعمرى لئن طالت علينا فإننا بحكم الثُّريا قد قطعنا لها كفّا
رمينا بها فى الغرب وهي ضعيفةٌ ولم نبق للجوزاء عِقداً ولا شنفْا
كأنَّ الدُّجى لما تولَّتْ نجومُه مُدبِّرُ حَرْبٍ قد هَزَمْنا لَهُ صَفّا
كأنَّ عليه للمجرةِ روضةً مُفتَّحَةَ الأنوارِ أو نَثرةً زُغْفا
كأنَّا وقد ألقى إلينا هلالَهُ سلبْناهُ جامًا أوَ فَصَمْنَا له وقْفا
كأنَّ السُّها إنسانُ عينٍ غريقةٍ من الدمع يبدو كلَّما ذرفَتْ ذرْفا
كأنَّ سهيلاً فارسٌ عاينَ الوَغى فَفَرَّ ولم يشْهَدْ طِراداً ولا زَحْفا
كأنَّ سنا المرِّيخ شُعلةُ قابسٍ تخطفها عجلانُ يقذفها قذفا
كأنَّ أفُولَ النسرِ طرفٌ تعلَّقتْ به سِنةٌ ما هبَّ منها ولا أغْفَى

وصفها الصفدى بأنها من الطنَّانات(١) .

وهى قصيدة فريدة . فيها تأمُّل ، وخيال ، وسبح مع السماء ونجومها وانطباعات ورؤى وصور مما يخيل له وجدانه ، وكثيرون وصفوا السماء ونجومها ليلاً ، ولكن ابن خفاجه تفرد من بينهم بهذه التشبيهات التى أبدع فى أكثرها ، وشارك فى جزئيات منها من سبقوه .

ونلحظ تأثره الواضح بأستاذه أبى العلاء فى وصف المطوّقة . بقصيدته الرائية فى قوله : « عجبت لها تشكو الفراق » حتى قوله :

ولو صدقت فيما تقول من الأسَى لما لبست طوْقاً ، ولا خَضَبت كفَّا

ويقول أبو العلاء مخاطباً بنات الهديل الحمائم ذوات الأطواق :

ما نسيتُنَّ هالكا فى الأوان الخا لِى أودى من قبل هلك إيادِ
بيد أنِّى لا أرتضي ما فَعلتُـــ ـــنَّ ، وأطواقكنَّ فى الأجيادِ

(١) الوافى ٥٠٧ .

وفيما لاحظناه من شعر الخفاجى أسًى وشكوى من الزمان والناس يبديه أحياناً ، ويستره أحياناً فى أشواقه وحنينه ونسيبه . ومنه قوله[1] :

بقيت وقد شطّت بكم غربةُ النّوى ... وما كنتُ أخشَى أننى بعدكم أبقى
وعلّمتمونى كيفَ أصبر عنكم ... وأطلبُ من رقّ الغرام بكم عتقا
فما قلتُ يوماً للبكاء عليكمُ ... رويداً ، ولا للشوقِ بعدكم رفْقا
وما الحبُّ إلاّ أنْ أعدَّ قبيحكم ... إلىَّ جميلاً ، والقِلى منكم عِشقَا

وقوله :

هل تسمعون شكاية من عاتبٍ ... أو تقبلونَ إنابة من تائِبِ
أما الوشاة فقد أصابوا عندكمْ ... سوقًا يُنفقُ كلَّ قولٍ كاذِبِ
فمللتُمْ من صابرٍ ورقدتُمْ ... عن ساهرٍ ، وزَهِدْتُمْ فى راغبِ
وأقلُّ ما حكم الملالُ عليكُمُ ... سوءُ القِلَى ، وسَماعُ قولِ العاتِبِ

وقال :

ما على مُحسِنُكم لو أحْسَنَا ... إنما نطلبُ شيئاً هَيّنا
قد شجانا اليأسُ من بعدكُمُ ... فأدْركونا بأحَاديثِ المُنَى
وعِدُوا بالوَصْلِ من طَيفكُمُ ... مُقْلَةً تُنْكِرُ فيكم وسَنا
لا وسِحْرٍ بينَ أجفانِكُمُ ... فَتنَ الحبُّ به من فَتَنَا
وحديثٍ من مواعيدكُم ... تحسدُ العين عليه الأذنا
ما رحلتَ العيسَ عن أرضكُمُ ... فرأت عيناىَ شيئاً حسناً

وقال فى أبيات :

وعلى الغَضَا إنْ كُنتَ من جيرانِهِ ... نارٌ تقسَّم حرَّها العُشَّاقُ
ومُحلأُون عن المناهِل بَعدما ... شَرقَتْ بِجُمَّةِ مائِها الطُّرَّاقُ
ومشتَّتِ العزماتِ ينفِقُ عمرهُ ... حَيرانَ لا ظفرٌ ولا إخفاقُ
أملٌ يُلوحُ اليأسُ فى أثنائه ... وغنًى يشفُّ وراءَه الإملاقُ
يَمْرِى غُفافةَ ثروةٍ لو أنَّها ... نومٌ لما شعُرتْ به الأحْداقُ

---

(1) فوات الوفيات ٢ /٢٢٢ .

وقال(١) :

عَطِرُ الثناء تعطَّرت أوصافه ... وحَلَتْ فكُلُّ فمٍ بها مشغولُ
ما كانَ يعلمُ قبل صَوب ثنائِه ... أنَّ الغمامَ المستهِلَّ بَخيلُ
ولو أنَّ للأيَّام نارَ ذكائِـه ... ما كان فيها بكرةٌ وأصيلُ

وقال :

مَلالةً ضيَّعْتَ ودّى بعدما ... وجبتْ عليك حقوقهُ الأسلافُ
أم شئت تعلَمُ أن جودَك لم يدَعْ ... شيئاً ، وأن طباعك الإتلافُ

وقال :

إذا هَجوتكُمُ لم أخشَ سطوتَكُمْ ... وإن مدحتُ فما حظِّى سوى التَّعبِ
فحين لم يك لا خوف ولا طَمَعٌ ... رَغبتُ فى الصَّمتِ إشفاقاً على الكذِبِ

وفى هذه المختارات من شعر ابن سنان آثار واضحةٌ لصنعته الشعرية فالرَّجل ، لا يهتم بالبديع ، ولا يتكلفه تكلُّفَ غيره من شعراء الشام المعاصرين ، وقد أشرنا من بينهم إلى ابن حيُّوس ، وأبى العلاء . وإن كان لكل منهم وجهته فى استخدام البديع . كذلك تحس فى شعر ابن سنان شاعرية صادقة وعاطفة غالبة على صنعة الكلام ، وتنميق القول وأحياناً تغلب على تأملاته روح صوفية علويَّة .

وقد أورد له ابن منجب مختارات من شعره ، وعلّق عليها ،منها قوله(٢)

« قال عبد الله بن محمد بن سنان بن سعيد الخفاجى الحلبى :

لا يدَّعى الفُصحَاءُ فيكَ غَريبةً ... والبيضُ تنثُرُ ، والأسنَّةُ تنْظِمُ
إنْ أحسنُوا عنكَ الثناءَ فإنَّها ... نَطقَتْ بمدْحِكَ قبلَ أن يتكلَّمُوا
عجباً لوَجْهِكَ كيف بارِقُ بِشْرِهِ ... تَهْمِى سَحائِبُهُ ، ولا يَتَغَيَّمُ
ومن العجائبِ أنْ بِيضَ سيُوفِهِ ... تَبْكى دماً ، وكأنَّها تتبَسَّمُ

فأما الأول فمن مليح التورية . وقد أتى بها فى قوله :

وَصفُوا بياضَ يَدِ الكَليمِ بمعجزٍ ... فيهِ ، وكم لَكَ من يدٍ بيضَاءِ
واستطرفوا إحياءَ عِيسى ميّتاً ... فرداً وجودُكَ باعثُ الفُقَراءِ

(١) الوافى للصفدى حـ ، ص ٥٠٧ .

(٢) الأفضليات ص ٤٠ — ٤١ .

وقال[١] :

من القَوم صالَ الدَّهرُ إلاَّ عليهمُ ... وصَالُوا ببيضِ الهِنْدِ حتى على الدَّهرِ
أشدُّ احتقاراً بالرَّدى من حُسَامِه ... وأدْنَى إلى سِرِّ الأعادِى على الذُّعْرِ
له خُلُقٌ فى المَحْلِ غيثٌ وفى الصَّبا ... نسيمٌ،وفى جُنحِ الدُّجَى غُرَّةُ البدْرِ

وقد استعمل تركيب هذا البيت فى موضع آخر فقال :

ما هَزَّهُ طربُ العُقَارِ وإنَّما ... أعْطَتْهُ نَشْوَةَ كاسِها الأخْلاَقُ
هى فى الهَوى وغدُ الوِصَالِ وفى الكَرَى ... طَيفُ الخيالِ، وفى الودَاعِ عِنَاقُ

وهو من قول ابن نباته :

إنَّها فى السَّحابِ وبْلٌ، وفى الرِّ ... يحِ نسيمٌ، ونَشْوَةٌ فى الشَّرابِ

وأما قوله :

أشدُّ احتقاراً بالرَّدَى من حُسَامِهِ

فهذا الصَّدْرُ يَصْلُحُ أن يُعَجَّزَ بقولِ أبى الطيب :

وأقدَمُ بينَ الجحْفَلَينِ من النَّبْلِ

على أنَّ صدْرَ بيتِ أبى الطيب مناسبٌ للعجز المذكور ؛ لأنه قال :

أقلُّ بلاءً بالرَّزايا من القَنَا

فيصير هذا العجز مع صَدْرين . »[٢] .

ويقارن بين أبيات لابن عمار الوزير الشاعر الأندلسى فى مديح المعتمد بن عباد ، وأبيات لابن سنان . يقول فى ذكر بلدة افتتحها ابن عباد وأحرقها :

فأرْمَلْتها بالسَّيف ثُمَّ أعَرْتهَا ... من النَّارِ أثوابَ الحِدَادِ على الفَقْدِ
فياحُسْنَ ذاكَ السَّيفِ فى رَاحةِ الهُدَى ... ويابَرْدَ تِلْكَ النَّارِ فى كَبِدِ المَجْدِ

---

(١) فى مدح محمود بن نصر صاحب حلب .
(٢) الأفضليات ص ٤٢ ــ ٤٣ .

يقول ابن منجب : « فقوله أرْمَلْتَها بالسيف ، وألبسْتها حداداً بالنار من أحسن تركيب ، وأبدع تشبيه . ولقد ذكر عبد الله بن محمد (بن سنان الخفاجى) مثل وهو وأبو بكر متقاربا الزمن متباينا الوطن ، فهذا بالعُدوةِ الدنيا ، وهَذَاك بالعُدْوةِ القُصْوَى فقال وأحسن ما شاء :

غادَرْتَها دِمنًا على أطْلالِها   يَبْكِي الخَليطُ ، وتُذْكَرُ الأشواقُ
وشَرَعْتَ دينَ قِراك فى عرصاتِها   فالنَّارُ تُضرَمُ ، والدِّماءُ تُراقُ

قال ابن منجب : « وعلى البيت من البهجةِ وحُسْنِ الدِّيباجةِ مالا أعْلَمُ لأحدٍ مثله . »[1] .

وذكر له بيتين نظر فيهما إلى العلوم الشرعية ، وهما قوله[2] :

وأمست صِباهُ تبثُّ الحديـــــــثَ وتُسْنِدُ عن بانَةِ الأجْرَعِ
وتــقْسِمُ أنّـــى أهْـوَاكُـــمُ وليسَ اليَمينُ على المدَّعى

يريدُ أنه وظَّف فى هذين البيتين علم الحديث والشريعة .

ويشير إلى أخذه معنى بيت المتنبى :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءَنى خَبرٌ   فَزِعْتُ فيه بآمَالى إلى الكَذِبِ

قال ابن منجب[3] : « وقد أخذه ابن سعيد الحلبى (ابن سنان) ، فقال وأحسن :

أتانى وعُرضُ البِيدِ بينى وبينَهُ   حَديثٌ لأسْرَارِ الدُّموعِ مُذِيعُ
تصامَمْتُ عن رَاوِيه حتَّى أرَبْتُهُ   وإنّى على ما غَالَنى لسَمِيعُ »

ويذكر أخذه معنى لمهيار[4] .

---

(١) الأفضليات ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه ١٦٨ .
(٣) المصدر نفسه ٣١٠ .
(٤) المصدر نفسه ٣١٤ .

— ٣ —

ابن الخياط الدمشقى

(أبو عبد الله محمد بن محمد بن على (ت سنة ٥١٧ هـ)

ولد بدمشق سنة ٤٥٠ هـ فى عهد الخليفة المستنصر ، وكان أبوه خياطا فاشتهر بالنسبة إليه . وكانت داره قريبة من دار الشاعر الدمشقى الكبير ابن حيوس والملقب بأبى الفتيان .

وربطت بين الشاعر الفتى محمد بن الخياط وجاره أبى الفتيان وشائج الشعر وحبه ، وقد رأى تقلب أبى الفتيان فى النعمة ، واهتمام الناس به وارتفاع منزلته عندهم بسبب الشعر ، فامتلأ قلبه طموحاً بالنبوغ فيه وبلوغ مرتبة تقرب من مرتبة الشاعر الكبير .

وحفظ ابن الخياط كثيرا من أشعار الأقدمين ليدرّب قريحته ، ويهذب طبعه ، ويثرى مادته .

وكانت أحوال دمشق فى صبي الشاعر غير مستقرة تحت حكم الفاطميين ، فثاروا سنة ٤٦٠ هـ بوالى الشام آنئذ بدر الجمالى ، واحرقت بعض دور دمشق ، واصطدم أهل دمشق بجند الفاطميين ودامت تلك الأحداث حتى سنة ٤٦١ هـ .

ثم كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين جند الفاطميين والسلاجقة الاتراك الذين بدءوا الاغارة على أملاك الفاطميين بالشام ، فهاجمها أتسز السلجوقى من قبل ملكشاه حتى استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ كما عرفنا بعد مقاومة عتيفة من أهلها أدت إلى انتقامه منهم باعتقال وجوههم وترحيلهم إلى طرابلس .

وظلت دمشق فى شباب الشاعر تعانى من الجور والفاقة ، واضطراب الأحوال وكانت الأمور كذلك فى مصر والقاهرة فى الشدة العظمى ، فاضطر الشاعر إلى أن يغادر بلده فى ظل تلك الظروف القاسية متوجها إلى بلد آخر بالشام حيث القى عصاه بمدينة حماه ، فآوى إلى أمير هناك ، سكن إليه بعضاً من الوقت ، وعمل بالكتابة له وخدمته ونظم الشعر فى مديحه ومنه قصيدته التى مطلعها :

سقَوْهُ كأس فرقتهم دِهَاقا   وأسكَرهُ الوداعُ فما أفَاقَا

وكان الشاعر ابن حيوس قد غادر دمشق كذلك قاصداً حلب حيث رحب به أمراؤها بنو مرداس الكلابيون ، وأجزلوا له العطاء . وسمع ابن الخياط باستقرار ابن حيوس هناك وبسماحة آل مرداس ، فحدثته نفسه بزيارة جاره ، وأستاذه فى الشعر .

وفى حلب التقى بأبى الفتيان ، فعرض عليه بعضاً من شعره فقال : قد نعانى هذا الشاب إلى نفسى . وكان ما انشده قوله :

لم يبقَ عندى ما يباعُ بدرهمٍ وكفاكَ مِنّى منظرٌ عن مَخْبَرِ
إلاّ صُبابةَ ماءِ وجهٍ صُنْتُها عن أن تُبَاعَ وأينَ أينَ المشتَرِى

فقال له ابن حيوس : لو قلت « وأنت نعم المشترى » . لكان أحسن . لقد كرمْتَ عِندى ونعيت إلىَّ نفسى ، وكان الشاعر الكبير أبو الفتيان قد أسنَّ ، ونصحه بقصد بنى عمّار بطرابلس لأنهم يحبون الشعر ويذل له الشباب والمال .

وتقلب بين أمراء الشام فمدح بعضهم كالأمير وثاب بن محمود بن نصر بحماه ، والأمير سديد الملك أبى الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب قلعة شيزر سنة ٤٧٦ هـ وجلال الملك من بنى عمار فى طرابلس ، والأمير فخر الملك .

وكان أبو الفتيان قد توفى سنة ٤٧٤ هـ ، وصحت نبوءته فى ابن الخياط ، فأصبح شاعر الشام من بعده .

استقرابن الخياط إذا فى طرابلس ، وأحسن الصلة بأمرائها من بنى عمّار فأحسنوا صلته ، واكرموا وفادته ، ومدحهم بقصائد تعد من أجود شعره ، منها قوله فى فخر الملك :

أعطَى الشبَابَ من الآرابِ ما طَلَبَا ورَاحَ يختالُ فى ثوبىْ هوًى وصِبَا

وكانت حياته بطرابلس حافلة ، التقى فيها بالعلماء ، وجالس الأدباء ، وخالط علية القوم ، ومدح بعضهم ، وتطارح الشعر مع آخرين .

وقضى ما قضى بطرابلس من الزمن ، فعاوده الحنين إلى بلده دمشق ، وكانت فى أيدى السلاجقة ، يحكمها الأمير تاج الملك تتش بن ألب أرسلان ، ووزيره

هبة الله الأصفهانى ، فلقى الشاعر عنده ما كفاه إذ وقع له بصلة جزلة ، وصحبه زمناً ومدحه بقصائد ، وسافر معه إلى الرىّ ، وقال فيه :

وما كان لى لولاك بالرىّ منزلٌ   وإن شعَفتْ غيرى وتيَّمُ حبُّها

وجال جولة فى بلاد العجم ، ولم تطل هناك رحلته ، فعاد إلى بلده دمشق . فأتصل ببعض أمراء العرب من الكلبيين ، ومدحهم ، كما مدح غيرهم من الأمراء ، والوجهاء ، واختص منهم بأحدهم واسمه عضب الدولة وصحبه فى مجالسه ومسرّاته ، حتى توفى هذا الأمير . فرثاه .

واتصل من بعده بصاحب دمشق آنئذ من السلاجقة وهو تاج الملوك بورى بن طُغتَكين . وحسنت أحواله بدمشق حتى توفى سنة ٥١٧ هـ .

وكان ابن الخياط شاعراً مطبوعاً يقول الشعر ، لا عن درس ، بل عن هواية وطبع وقلنا إنه حفظ كثيرا من الشعر القديم ، فنظم على سننه ، وراضَ قريحته على منهجه فجاء شعره ، وقد حفل بملامح شعر بعض من حفظ لهم ، تسِمُه سمات التعبيرات التقليدية ، والصور الجارية فى معظم الشعر القديم ، كذلك صيغه وتراكيبه وإن كان يدخل عليه أحيانا بعض الصنعة مما ساد فى عصره ، وعند من سبقه من أصحاب البديع من مثل قوله مجانسا :

يَقينى يقينى حادِثَاتِ النوائبِ   وحَزْمِىَ حَزْمِى فى ظهورِ النجائِبِ

وقوله :

لقد وجدَتْ وجدى الدِّيارُ بأهلها   ولو لمْ تجِدْ وجْدِى لما سقمت سقمى

وأغرم بغريب الاستعارة متأسياً أحيانا بأبى تمام كقوله فى التهنئة بمولود :

أطلعت بدراً فى سماءِ ممالكٍ   سَهِر الجمالُ ونَامَ فى تَلْوِينِهِ

وفى قوله مادحاً :

هربتُ من ارتياحِكَ حين أنْحى   على حمْدِى بعضْب ندًى ثَقيلِ
ولما عذْتُ بالعَلْياءِ قالتْ   لعلّكَ صَاحبُ الشُكر القَتِيلِ

فسَهَرُ الجمال ونومه وعضبُ الندى الثقيل ، والشكرُ القتيل ، كلها من الاستعارات الغريبة التى كان أبو تمام مُغْرًى بها كمثل قوله « ماء الملام » وغيره .

كما أن نفس المتنبي بدا في أكثر من قصيدة ، وقد فرض هذا الشاعر الكبير أسلوبه على العصر كله طوال القرنين الخامس والسادس . ومنه قوله :

وهلّ من ضَمَّرَ الجرد المذاكى كمنْ جعل الطِّرادَ لها ضِمارًا

وكقوله[1] :

إذا ما النار كان لها اضطرامٌ فما الداعى إلى قَدْحِ الزّنادِ
رَجوْتُ فما تجاوزهُ رَجائى وكان الماءُ غايةَ كل صادِ
إذا ما روِّضتْ أرضِى وساحَتْ فما معنى انتجاعِى وارتيادِى

ولغة ابن الخياط تمتاز بالجزالة ، وإن خالف أحياناً بعض ما يجرى على ألسنة المتقنين من صحيح اللفظ ، وقويمه ، وقد أخذ عليه ذلك ، وأرجع إلى قلة اتقانه لعلوم اللغة ، وإن حاول استدراك ذلك فى أخريات حياته ، فاعتدلت لغته وصحت موازينه .

ولاحظ خليل مردم ترديده لبعض الألفاظ التى أغرم بها ، كاستخدامه للفظ أم فى كل ما يريد تضخيمه ، وتفخيمه من مثل قوله :

لقد طرّقت بكَ أمُّ العلاء بيومٍ له كلّ يومٍ حَسُودُ

وكقوله :

بَصُرْتُ بأمَّات الحَيا فظننتُها أنامِلَهُ. إنّ السحائِبَ أشباهُ

وباعتباره شاعراً مسلماً ، والقرآن من أخص ما يحفظه المسلم ويتمثل به ، ويتأثر بلفظه ومعانيه ، فالشاعر ابنُ الخياط ، لا يفتأ يقبس من القرآن الكريم بعض لفظه كقوله[1] :

إذا ما الكأسُ لم تكُ كأسَ بينٍ فليسَتْ **بالحميم ولا الغِسَاقَا**

وقوله :

يطبِّقُ غيثهُ أرضَ الأمانِى ويسمُو سعده **السَّبعَ الطِّباقَا**

---

(١) ديوانه ص ٧ من قصيدة يمدح الأمير أبا الفوارس محمد بن مالك بحماة .

وبين قصائده فى المديح أحيانا بناء الأقدمين إذ يبدأ بالغزل ، ويخلص منه إلى المديح ، وقد يذكر الرحلة ويتخلص إلى الممدوح ومنه قوله :

هبُوا طيفكُمْ أعدَى على النّأي مسرَاهُ	فمنْ لمشُوقٍ أنْ يُهَوِّمَ جفناهُ
وهل يهتدى طيفُ الخيالِ لناحلٍ	إذا السقمُ عن لحظ العوائِدِ أخفاهُ

* * * * *

أحنُّ إذا هبَّتْ صبًا مُطْمئنَّةً	حنين مَطايَا الرَّكْبِ أوشَكَ مغْدَاهُ
خوامِسَ حلاهَا عن الوِرْدِ مطلبٌ	بعيدٌ على البزلِ المصاعِبِ مرماهُ
هوىً كلما عادت من الشرقِ نفحةٌ	أعادَ لىَ الشوقَ الذى كانَ أبداهُ
وما شَغَفِى بالريحِ إلا لأنّهَا	تمُرُّ بحىٍّ دونَ رامةَ مثواهُ
أحبُّ ثَرى الوادى الذى بان أهلُهُ	وأصبُّوا إلى الربعِ الذى مَحَّ مغناهُ

* * * * *

ألا حبذا عهدُ الكثيبِ وناعِمٌ	من العَيْشِ مجرورُ الذيولِ لبسناهُ
ليالىَ عاطتنا الصَّبابةَ دَرَّها	فلم يبقَ منهَا منهَلٌ ما وردْ ناهُ

* * * * *

وبالجِزْعِ حىٌّ كلمَّا عنَّ ذكرهم	أماتَ الهوى منِّى فؤادًا وأحياهُ
تمنيتهم بالرَّقْمَتَيْنِ ودارُهُمْ	بوادى الغَضَا يا بُعدَ ما أتمنَّاهُ

وهنا يتخلص من الغزل بقوله :

سَقَى الوابلَ الرِّبْعِىُّ ما حِلَّ ربعكم	وراوَحَهُ ما شاءَ روحٌ وغَادَاهُ
وجرَّ عليه ذيلَهُ كلّ ماطرٍ	إذا ما مشَى فى عاطِلِ التُّربِ حلّاهُ
وما كنتُ لولا أن دمعى من دمٍ	لأحْملَ مَنًّا للسحاب بسقْياهُ
على أن فَخْرَ الملكِ للأرضِ كافِلٌ	بفَيْضٍ ندًى لا يَبْلُغُ القَطْرُ شَرْوَاهُ

ويمضى فى معانى المديح المعروفة يسوقها فى ما اعتاد الشعراء التعبير عنها من معارض لفظية متعددة .

ونلاحظ فيما قدمنا من غزله سيره على غير ما اعتاد الشعراء من البدء بالوقوف أو مخاطبة الصاحب أو الصاحبين بالوقوف أو التعريج ، ثم الوقوف

والبكاء ، والذكرى وما إلى هذا ، بل ...ـ متغزلاً فى المحبوب ، فذكر الطيف ، وأنه يعوده فيذكره به ، ويتذكر بالريح التى تنقل عبق هذا الحبيب ، ثم يختم بذكر الديار فيدعو لها بالسقيا .

وهو فى كل هذه المعانى التى تتكرر عند الغزلين والبادئين بالنسيب من الشعراء يصطاد المعنى الذى يروقه وينسج على منوال بعض السابقين ، وإن اختلف نسيجه وتغيرت ألوانه . ونلاحظ أنه يكثر من استخدام الطيف ، والريح ، والنسيم كعادة الغزلين المحدثين .

وقد لا يبدأ القصيدة بهذه البداية التقليدية ، بل يدخل إلى موضوع المديح دون تمهيد .

وله فى غير المديح فى موضوعات شتى ، إلا أن المديح غالبٌ ، لأنه كان شاعراً متكسباً على ما عرفنا من وقائع حياته يقصد الحكام والأمراء وعلية القوم ، وله مع هذا فى تلك الموضوعات أبيات جيدة تناقلها الرواة ومؤرخو الأدب معجبين من مثل ابياته فى الغزل التى يقول فيها[1] :

خذا من صَبَا نجدٍ أماناً لقلبه ... فقد كاد ريَّاها يطير بلبِّهِ
وإياكما ذاك النسيمَ فإنَّـه ... إذَا هبَّ كانَ الوجْدُ أيسر خطبِهِ
خليليَّ لو أحببتما لعلمتما ... محلَّ الهَوى من مغرم القلب صبِّهِ
تذكّرٌ والذكرى تشوق ذَوِى الهَوى ... يتوقُ، ومن يعلق به الحبُّ يُصبِهِ
غرامٌ على يأسِ الهوَى ورجائِه ... وشوقٌ على بعدِ المزارِ وقربِهِ
وفى الرَّكب مطوىُّ الضُّلوع على جوىً ... متَى يدْعُه داعِى الغرام يُلبِّهِ
إذا خطرتْ من جانبِ الرَّمل نفحةٌ ... تضمَّن منها داءَه دونَ صحبهِ
أغار إذا آنست فى الحىِّ أنَّةً ... حذارًا وخوفاً أن تكونَ لِحبِّهِ

ويستخدم ابن الخياط فى غزله أسماء بعض الأماكن التى اعتاد الشعراء ذكرها فى نسيبهم وهذا الاستخدام يختلف فيه المدلول والايحاء ، فالقدامى الجاهليون يذكرون تلك الأماكن على أنها مواطن الأحباب والأهل وأوطان القبيلة ، ومراتع الصبا ، أما المحدثون فيذكرونها اعتمادا على ايحاءاتها فى الشعر القديم ، والعربى محب للشعر يحفظ كثيرا منه ، ولهذه الأسماء ايحاءات محببة لديه مما أطلقه ، ورسّخه

(١) ديوانه ص ١٧٠

الشعر القديم فى وجدانه ، والشاعر هنا يستخدمها على هذا الاعتبار من مثل قوله فى هذه القصيدة :

« خذا من صَبا نجدٍ » ، وقوله :

ألا ليت أنّى لم تحُل بين حاجرٍ ... وبينى ذرا أعلام رضوى وهَضْبِه

وقوله :

أهيم إلى ماءٍ ببرقةِ عاقلٍ ... ظمئت على طول الورود بشُرْبِهِ
وأستافُ حُرَّ الرَّملِ شوقاً إلى اللِّوَى ... وقد أودعتنى السُّقمَ قضبانُ كُثْبِهِ

وله فى العتاب واسترضاء الممدوح ، والتنديد بالوشاة والكاشحين(١) :

متى ارتجعت مواهبها الكرامُ ... وهل يسترجع الغيثَ الغَمامُ ؟!
أيصعدُ عائداً فى السُّحبِ قطرٌ ... تنزَّلَ فى الوهادِ به الرِّهامُ ؟
أرى العلياءَ من تقصير أمْرى ... بها خجلٌ وبالمجدِ احتشامُ
جمالَ الملكِ غيرى منك يُدْهَى ... وغيرُكَ من تغيُّره اللئامُ
أُعيذُكَ من رضىً يتْلوه سخطٌ ... ومن نُعْمَى يكدِّرُها انتقامُ
أيرجع جفوةً ذاكَ التصافِى ... ويُخْفَرُ ذِمَّةً ذاكَ الذمامُ
أتبرينى يدٌ راشتْ جناحِى ... ويَحْسِمُنِى ندًى هُوَ لِى حُسَامُ
ويغرى بن الحِمامَ أخو سَماحٍ ... به عن مهجتى دُفِعَ الحمامُ
أعرنى طرفَ عدلك تَلْقَ عِرْضاً ... نقيًّا لا يُلِمُّ به المَلامُ
وحقِّقْ بالتأمُّلِ كشفَ حالِىَ ... فغيرى عاشِقٌ ولِى السقامُ
إذا ما افترَّ بَرْقُكَ فى سمائِى ... تجلَّى الظُّلمُ عنِّى والظَّلامُ
أتغْرِقُنِى وليس الماءُ منِّى ... وتحْرِقُنى ومن غيرى الضِّرامُ
وأوخذَ فى جِماكَ بذنب غيرى ... فأين العدْلُ عنِّى والكرامُ
وأين خلائِقٌ ستحُولُ عنها ... إذا حالتْ عن السُّكْرِ المُدامُ
فلا تلقى إلى الواشين سمعاً ... فإن كِلامَ أكثرِهم كَلامُ
وإنَّ الودَّ عندهُمُ نفاقٌ ... إذا طاوعْتهم والحَمْدُ ذامُ

---

(١) ديوانه فى جمال الملك ص ١٧٨ .

وله فى شكوى الزمان بمطلع قصيدة يمدح بها الأمير سديد الملك بن منقذ ، تذكر ببائية لابن الرومى ، وتحس فيها بمصاحبته له وهو ينظمها . يقول فيها[1] :

يقينى يقينى حادثات النوائبِ ... وحزمى حزمى فى ظهور النجائبِ
سينجدنى جيشٌ من العزم طالَما ... غلبتُ به الخطب الذى هو غالبى
ومن كان حربَ الدهر عوَّدَ نفسَهُ ... قراعَ الليالى لاقراعَ الكتائبِ
على أن لى فى مذهب الصبر مذهباً ... يزيد اتساعاً عند ضيق المذاهبِ
وماوَضَعتْ منّى الخطوب بقدر ما ... رفعنَ وقد هذّبتنى بالتجاربِ
أخذْنَ ثراءً غير باقٍ على النّدى ... وأعطينَ فضلاً فى النُّهَى غير ذاهبِ
فمالِىَ ؟! ، لا روضُ المساعى بِمُمْرِعٍ ... لدىَّ ، ولا ماءُ الأمانى بساكِبِ
كأن لم يكنْ وعدِى لديْها بحائِنٍ ... زماناً ، ولا دَيْنِى عليها بواجبِ
وحاجةِ نفسٍ تقتضيها مخايلى ... وتقضى بها لى ، عادلاتٍ ، مناصبى
عددتُ لها برق الغمامِ هنيدةً[2] ... وأخرى ، وما من قطرةٍ فى المذانبِ[3]
وهل نافِعى شيمٌ من العزْم صادِقٌ ... إذا كنتُ ذا برقٍ من الحظ كاذِبِ
وإنّى لأغنى بالحديث عن القِرَى ... وبالبرقِ عن صوْبِ الغيوث السّواكبِ
قناعةَ عزٍّ ، لا طَماعةَ ذِلّةٍ ... تزهّدنى فى نيل الغنى كلّ راغبِ
إذا ما امتطى الأقوامُ مركبَ ثورةٍ ... خضوعاً ، رأيتُ العُدْمَ خيرَ مراكبى
ولو ركبَ الناسُ الغِنَى بيَراعةٍ ... وفضلٍ مبينٍ كنتُ أوّلَ راكبِ
وقد أبلغُ الغاياتِ لستُ بسائرٍ ... وأظفر بالحاجاتِ لستُ بطالبِ
وما كلّ دانٍ من مرامٍ بظافرٍ ... ولا كلّ ناءٍ عن رجاءٍ بخائبِ

ويذكر فى مديحه لأحد الأمراء حضّه على جهاد الفرنجة من الصليبيين ، وقد جاشت جيوشهم فى بلاد الشام ، وهاجمت حملاتهم أصقاعة شمالاً وجنوبا حتى احتلوا القدس وبعض الثغور . يقول[4] :

إلى كم وقد زخر المشركونَ ... بسيل يُهالُ به السيلَ مَدًّا
وقد جاشَ من أرضِ إفرنجةٍ ... جيوشٌ كمثلِ جبالٍ تردّى

* * * * *

(١) ديوانه ص ١٢ .
(٢) هنيدة اسم للمائة من الإبل وغيرها .
(٣) والمذانب جمع مذنب وهو الجدول يسيل فى الروضة بمائها إلى غيرها .
(٤) ديوانه ص ١٨٤ .

بنو الشركِ لا ينكرونَ الفسادَ ولا يعرفونَ مع الجور قَصْدَا
ولا يردعونَ عن القتلِ نفساً ولا يتركون من الفتك جُهْدَا
فكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ تدقّ من الخوفِ نحراً وخدًّا
وأمّ عَوَاتِـقَ ما إن عرفـ ـنَ حرًّا، ولا ذُقْنَ فى اللّيل بردَا
تكـادُ عليهنَّ من خِيفـةٍ تَذوبُ وتتلفُ حزناً ووجْدَا

وفيها يَحُضُّ على قتال الصليبين مع بقية أمراء المسلمين مشيداً بجهاد السلاجقة ، ومنهم ألب أرسلان يقول :

فقد أينعتْ أرؤُسُ المشـ ـركين فلا تُغْفِلُوهَا قطافاً وحَصْدَا
فلابدَّ من حدِّهم أن يُفَلّ ولابُدَّ من رُكنِهم أن يُهدَّا
فإنّ ألْبَ رَسْلانَ فى مثلها مضى وهو أمضَى من السيف حدًّا
فأصبح أبقى من الفرقدين ذكراً وأسنى من الشمس مَجْدَا

وترك ابن الخياط ديوانه رواه تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر القيسرانى (ت ٥٤٨ هـ) وقد أعجب العلماء بشعره فقرَّظُوهُ وأشادوا به .

يقول خليل مردم(١) : « أما منزلته بين الشعراء فى عصره فقد اتفق على أنه كان من المحسنين ، بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونهم ، فقد شهد له شيخه ابن حيُّوس بالإجادة وهو فى ريِّق الشباب ، وجعله وليّ عهده » .

وقال ابن عساكر : « ابن الخياط ختم به ديوان الشعر بدمشق ، وكان شاعراً مكثرا مجيداً محسناً » .

وقال السلفى : « كان ابن الخياط شاعر الشام . وقد اخترت من شعره مجلدة لطيفة ، وسمعتها منه » .

وقال أبو الفوارس نجا بن اسماعيل العمرى : « ابن الخياط فى عصره أشعر الشاميين بلا خلاف » .

وقال الذهبى : « ابن الخياط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه فى الذروة » .

---

(١) مقدمة ديوانه ص ٣٠ .

وقال ابن خلكان : « .. كان من الشعراء المجيدين .. وأكثر قصائده غرر » .

والذى نراه أنه ومعاصره أبا أسحاق إبراهيم الغزى طبقة واحدة ،وكلاهما محسن ولكن الغزى رحل عن الشام ودخل بلاد العجم ، وبقى هناك بقية حياته ، فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام » .

وقال ابن العماد الكاتب فى المقارنة بينه وبين شاعر الشام الكبير آنذاك أبى الفتيان ابن حيوس : « ابن حيُّوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط طلاوة ليست له » (١).

ويقول خليل مردم (٢): « والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو حتى يبلغ الأوج . وله قصيدة هى فى رأينا أحسن شعره ، ومن مختار الشعر فى جميع عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة الألفاظ ، خلابة المعانى ، جعل نسيبها وصفاً لآراب الشباب ، ونزعات الصبا ، ونزوات الفتوة » . يقول :

أعطى الشبابَ من الآرابِ ما طلبَا ... وراحَ يختالُ فى ثوبىْ هَوًى وصبَا
لمْ يُدْرِكْ الشَّيبُ إلا فضْلَ صبوتِهِ ... كما يغادرُ فضْلَ الكأسِ مَنْ شَرِبَا
رأى الشبيبةَ خطاً مونِقاً فدَرَى ... أنّ الزمانَ سيمْحُو منه ما كتبَا
إنّ الثلاثينَ لم يُسفِرْنَ عن أحدٍ ... إلاّ ارتَدَى برداءِ الشَّيبِ وانتقبَا
والمرءُ منْ شنَّ فى الأيّامِ غارتَهُ ... فبادِرِ العَيْشَ باللّذّاتِ وانتهِبَا
ما شاءَ فليتَّخِذْ أيّامَهُ فُرَصاً ... فليسَ يومٌ بمرْدُودٍ إذا ذَهَبَا
هل الصّبَى غيرُ محبوبٍ ظفرتُ به ... لم أقضِ من حُبِّهِ قَبْلَ النَّوَى أرَبَا
إنّى لأحْسُدُ مَنْ طاحَ الغرامُ بِهِ ... وجاذَبَتْهُ حِبَالُ الشَّوْقِ فانجذَبَا
والعجزُ أنْ أتركَ الأوطارَ مقبلةً ... حتّى إذا أدبرتْ حاولْتُها طَلَبَا
مَالِى وللحظِّ لا ينفكُّ يَقذِفُ بى ... صمَّ المطالبِ لا وِرْداً ولا قَرَبَا
أصبحتُ فى قبضةِ الأيامِ مرتَهَناً ... نَائِى المحلِّ، طَرِيداً عنه مُغْتَرِبَا
ألحَّ دهرٌ لجوجٌ فى مُعانَدتِى ... فَكلّمَا رُضْتُهُ فى مَطْلَبٍ صَعُبَا
كخائضِ الوَحْلِ إذْ طَالَ العَناءُ به ... فَكلّمَا قَلْقَلَتْهُ نهضةٌ رَسَبَا
لأسلكَنَّ صُرُوفَ الدّهرِ مقتحماً ... هَوْلاً يُزهِّدُ فى الأيّامِ مَنْ رَغِبَا

(١) مقدمة ديوانه ص ٢٧ .
(٢) مقدمة الديوان ص ٢٩

غضبانَ للمجْدِ، طَلاّبــاً بِثأرِ عُلاً — واللّيْثُ أفتكُ مالاقى إذا غضبَــا
عِنْدى عزائمُ رَأْيٍ لوْ لَقِيتُ بها — صَرْفَ الزّمانِ لولّى ممعناً هَرَبَا

وفى شِعْر ابن الخياط ذاتيّةٌ واضحة ، ويختلفُ عن أستاذه ابن حَيُّوس الذى تغلب عليه الموضوعية كما أشرنا . كذلك فإنّ صياغة ابن الخياط تختلف عن صياغة ابن حيّوس لأنه يميل إلى رقة الكلام ، ولا يَجنَحُ للجزالة والخطابيَّة ، كما نرى الطبع والشاعريَّة يغلبان الصنعة والمباشرة . وهو فى عمله الشعرى يتبع طريقة البحترى ويتأثر به مخالفاً بذلك ابن حيوس الذى اعتمد طريقة أبى تمام .

ومعظم معانيه فى موضوعاتِ المديح الغالبة على شعره مستمدة من التراث الشعرى السابق ، ومما تأثر فيه بمعانى البحترى وصياغته واخيلته قوله :

بيضٌ تَوَقّدُ فى أيمانِهمْ شُعَلٍ — هى الصَّواعِقُ إذ تستوطِنُ السُّحُبَا

وأحسن ما قال من الشعر كما ألمحنا ليس فى المديح ، ولا شعر المناسبة والتكسب ، لكن ما قاله فى الشكوى كالقصيدة التى يرثى بها الشبابَ ، أو هذه القصيدة التى يشكو فيها الزمنَ :

ألا فتًى من صُرُوفِ الدّهرِ يحمينــى — ألا كريمٌ على الأيّام يُعْدِينى
مُضَى الكرامُ وقد خُلِّفتُ بعدهمُ — أشكو الزمانَ إلى من ليس يُشكِينى
كم أستفيدُ أخاً برًّا فيعجزُنى — وابتغنى ماجداً مَحْضاً فيُعْيِينى
أرجو السَّماحةَ ممنْ ليس يُسْعِفُنى — وابتغى الرِّفْدَ ممن لا يواسينى
لو كنتُ أقدِرُ ، والأقدارُ غالبةٌ — لبِعْتُ فَضْلِى بِحظٍّ غير مغْبُونِ
لو كانَ فى الفضل من خيرٍ لصاحِبِهِ — لكَانَ فضْلِى عن ذى النقص يُغنينى
يا هذِهِ قد أصابَ الدّهرُ حاجَتَهُ — مِنّى فحتّام لا ينفكُّ يَرْمِينِى
إنْ كانَ يجْهَدُ أن أصْلَى نوائبهُ — جمعاً، فواحِدةٌ مِنهُنَّ تكفينى
كأنَّه ليسَ يغْدُو مُرْسِلاً يَدَهُ — بكُلِّ ما نالَ منّى الدَّهرُ ويُسْلِينى
سَلَوْتُ لا مَلَكٌ عمَّنْ كَلِفْتُ به — ومثلِ ما نالَ منّى الدَّهرِ يُسْلِينى
ما كنتُ أرْضَى الهوَى والوجدُ يَنْحِلُنى — حَتى بُليتُ فصار الهمُّ يُضنينى
من كان ذا أسوةٍ ممَّنْ به حَزَنَ — فاليومَ بى يتأسَّى كلّ مُحزُونِ

أبيات إنسانية صادقة العاطفة ؛ هى نفثات لمكروب تمازجها ذاتيةٌ واضحة تكشف عن معاناةِ الشاعر ، ويجرى فيها نفسٌ واحدٌ من البداية حتّى النهاية

تنساق فى كلماتٍ لا تكلّف فيها ، ولا صنعة خارجة على طبيعة الشكوى الصادقة .

وطبع ابن الخياط وتلقائيته واضحان كلّ الوضوح ، وهو وإن تتلمذ على ابن حيّوس ، واعتبره هذا خليفته فى الشعر على شعراء الشام إلاّ أن الشخصيتان اختلفتا، بل تعارضتا، كما اختلف شعرهما، فابن حيوس أميرٌ مستغنٍ بما كان لديه من المال عن الطلب فى معظم حياته ، وهو قصيرٌ حسنُ المظهر على غير حال ابن الخياط وبنيته ومظهره ، فقد كان فقيراً ، يعمل فى حرفة الخياطة وتكسب بالشعر الذى قاله طبعاً لا تعليماً ، وكان قوى البنية تحسبه حمّالاً أو جمّالاً لبزّته وشكله وعرضه.، كما قال العماد الكاتب .

وطبيعى أن لا نجد فى شعره آثار ثقافة متعددة المصادر ، منوعَة الاتجاهات اللهمّ إلا ما اقتضته المعرفة ، ومنْ هنا كان استخدامه للغة فى حدود محفوظهٌ المحدود من الشعر ، وقراءته المحدودة كذلك .

ومن هنا لا تجد توظيفاً لمعلومات ، أو نصوصٍ شعرية أو نثرية أو معرفيةً عامةً .

إبراهيم الغزى*

(ت سنة ٥٢٤ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى عثمان بن محمد الكلبى .

ولد ونشأ بغزة ، ثم انتقل إلى دمشق لطلب العلم ، وأخذ بها على جماعة من مشاهير عصره ، وكان أول دخوله دمشق سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، ولعله كان حينذاك قد وُدع الشباب ودرج إلى الرجولة والكهولة . وسمع بدمشق من الفقيه نصر المقدسى .

ولما بلغ فى العلم مرتبة ، وفى الشعر مكانةً رحل إلى بغداد ، والتحق بالمدرسة النظامية وأقام بها سنين كثيرة ، وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك .
وقد أشاد به الحافظ ابن عسساكر وكذلك البغدادى ومن بعدهما ابن خلكان وعماد الدين الأصبهانى وذكروا له مقطعات من شعره ز ولم يوردوا قصائد بتمامها .

قال ابن خلكان . وله ديوان شعر اختاره لنفسه ، وذكر فى خطبته أنه ألف بيت .

ولم يستقر به الحال فى بغداد ، بل أقلقه حب الرحلة ، والتنقل فى البلاد ، فتوجه ناحية المشرق وطرق خراسان وكرمان ، ولقى بها جماعة من الفضلاء فمدحهم ، ونال رضاهم وعطاءهم .

قال ابن العماد بعد أن أثنى عليه : وتغلغل فى أقطار خراسان وكرمان ، ولقى الناس ، ومدح نصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التى يقول فيها ولقد أبدع :

راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ١ /٥٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس وفريدة القصر ـــ قسم شعراء الشام جـ ١ وتاريخ بغداد . وتاريخ دمشق لابن عساكر

حمِّلنا من الأيام ما لا نُطيقه كما حمِّل العَظمُ الكبيرُ العصائبا

ومنها فى قصر الليل وهو معنى لطيف :

ولَيلٍ رجونا أن يدبَّ عِذارُه فما اختطَّ حتَّى صار بالفجرِ شائبا

قال : وهى قصيدة طويلة .

وفيما روى مما بقى من شعره ما يوحى بأنه قاسى من العوز والحاجة ، ولم يلق من مدائحه لبعض وجوه عصره ما يرضيه ، فتناول بعضهم هاجياً ومعرّضاً ببخلهم ومنه قوله فى أحد الوزراء :

من آلة الدَّستِ لم يُعْطِ الوزيرِ سِوَى تحريك لحيتِهِ فى حالِ إيماءِ
إن الوزير ولا أزرٌ يشدُّ به مثل العروضِ له بحرٌ بلا ماءِ

وقال بذم الناس لقلة عطائهم :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا تعذَّر ما تُبَلُّ به الجفُونُ
فما بندى لممدوحٍ بنانٌ ولا يَنْدَى لمهجوٌّ جبين

ويبدو أنه يئس من المديح فهجر الشعر وسأله الناسُ عن ذلك فقال :

قالوا هجرت الشعرَ . قلت ضرورةٌ بابُ الدَّواعِى والبواعثِ مُغلَقُ
خَلَتْ الدّيارُ فلا كريمٌ يُرتجى منه النوالُ ، ولا مليحٌ يُعَشقُ
ومن العجائِبِ أنه لا يُشترى ويُخانُ فيه مع الكَسادِ ويُسْرَقُ

فالشاعر لا يجد ما يحبيه على مدائحه ، وقد كسدت سوق الشعر ، فلم يجد ما يحفز على قوله ، وكأنه يسترجع ما قال به القدماء من أن الطمَّع كان فى مقدمة الحوافز لصنعته . وتأتى بعده العاطفة .

وإحساس الشاعر بأزمته تلك جعلته يريق ماء الوجه فى غير طائل ، وكأنه يتجرع المرّ ، ويحتمل طعان الأسنة يقول شاكيا تلك الحال :

وخْزُ الأسِنَّةِ والخضُوعُ لناقِصٍ أمْرانِ فى ذَوْقِ النُّهى مُرَّانِ
والرَّأىُ أن يختار فيما دُونه الـ مُرّانِ وَخْزَ أسِنَّةِ المرَّانِ

وتتعدد أغراض الشعر عنده ، وتتعدد معانيه ، وإن لم نحط بها علما سوى شذرات هنا وهناك ، هى أبيات منثورة ، مفردة أو مقطوعات فى بيتين أو ثلاثة تشى ولا تشفى غليلا . من ذلك قوله متغزلا :

إشارةٌ منكَ تُغنيني وأحسنُ ما ... ردُّ السَّلامِ غداةَ البينِ بالعَنمِ
حتــــى إذا طاحَ منها المِرْطُ من دهشٍ ... وانحلَّ بالضمِّ سلْكُ العقـدِ فى الظُّلـمِ
تبسَّمتْ فأضاءَ الليلُ فالتقطتْ ... حَبَّاتِ منتثرٍ في ضَوْءِ منتظِمِ

وذكر ابن خلكان أنّ هذه الأبيات مما تستملحُهُ الأدباء وتستظرفه ، وإن نظر فيها إلى بعض السابقين من الشعراء .

فمن معانيه مما ارتاده من قديم الشعر كقوله :

وبُورِكَ فى خيام قبيلِ ليلى ... وفى تلك المضَارِبِ والحجالِ
فما أوتَادُهُنَّ سِوىَ المَوَاضِيى ... ولا أطْنَابُهُنَّ سوَى العوالِى

ومن معانى الغزل والفراق قوله[1] :

بِجَمْعِ جفْنيْكِ بينَ البُرْءِ والسَّقم ... لا تَسْفِكى من جُفُـوني بالفِـراقِ دمـى
إشَارةُ منك تغنينى وأفصحُ مَا ... رُدَّ السلامُ غداة البين بالعَنم
تعليقُ قلبى بذات القرط يؤلمهُ ... فليشكُرْ القرطُ تعليقا بلا ألَمِ
تضرَّمتْ وجنة في ماءِ جنّتها ... والجمرُ في الماءِ خابٍ غيرُ مضطرمِ
ماءُ الأسيلين يكوى بَرْدُ مَلمَسِهِ ... فهل سَمِعْتَ بماءٍ مُحرقٍ شبِمِ
وما نسيت ولا أنسَى تَحَشُّمَهَا ... وملبسُ الجوِّ غُفْلٌ غيرُ ذِى علِمِ
حتـــــى إذا طاح عنها المرط من دَهَشٍ ... وانحلَّ بالضّم سلك العقـدِ فى الظُّلـمِ
تبسَّمَتْ فأضاءَ الليلُ فالتقطتْ ... حَبَّاتِ منتثرٍ فى ضوءِ منتظِمِ

وقال[2] :

ومشكـورَةُ التّسْويـفِ فى قدرةِ الغنـى ... وخيرُ نوالِ الحبِّ ما لَمْ يُعَجَّلِ
أبى صَدُّها أن تعدمَ العيْنُ قُرَّةً ... وللبدرِ فى إدْبارِهِ حِسنُ مُقْبلِ

(١) تأهيل الغريب ص ٢٩٨ .
(٢) تمام المتون ٧٩

وقال(1):

أمِطْ عنِ الدرّ والزهرِ اليواقيتا ... واجعلْ لحجّ تلاقينا مواقيتا
فثغركَ اللؤلؤُ المبيضُ لا الحجرُ الـ ... ـمُسْوَدُّ حاشاه من وسْم وجوشيتا
قابلتَ بالشُّنبِ الأجفانِ مبتسماً ... فلاحَ من ناظريكَ السِّحرُ منكوتا
وكانَ فوكَ اليَدَ البيضاءَ جاءَ بها ... موسَى ، وعيناكَ هاروتا وماروتا
جمعْتَ ضدين كانَ الجمعُ بينهما ... لكلِّ جمعٍ من الألبابِ تشتيتا
جسماً من الماءِ مشروباً بأعيننا ... يَضُمُّ قلبا من الأصلادِ منحوتا
مسكاً حَسِبْتُ فؤادى كانَ فيكَ دماً ... فلا تغادِرْهُ مسحوقاً ومفتوتا
المسكُ من سُرَرِ الغِزلانِ مكتسبٌ ... واللهُ ينبِتُــه فيهنَّ تنبيتـــا
ونشرُ ذكراكَ أذكى الطيبِ رائحةً ... ونورُ وجهكَ ردَّ البَدرَ مبهُوتا

وقال(2):

إذا فاحَ نوّارَ العقيقِ ورَنْدُهُ ... سألتُ الصَّبا عن نَشْرِكُمْ أين وفْدُهُ
وكيفَ تُريحُ الريحُ من كُربةِ الهوى ... وعلّتُه هَجْرُ الحبيبِ وصَدُّهُ
وعِنْدِى عُهودٌ من هواكُمْ تقادَمتْ ... وما الحبُّ إلاَّ ما تقادم عَهْدُهُ
ومُنْعطِفِ الصُّدغينِ لا عَطْفَ عندهُ ... لهُ سِمَةٌ تُثْنِي الهَوَى وتَهُدُّهُ
تصرَّفَ فى معنَى الجمالِ ولُطْفُهُ ... ففى كفِّهِ حَلُّ الجمالِ وعَقْدُهُ
جفونى ترى هاروت ماروت بيننا ... يَلَذُّ بها الطَّرفُ الذى هو حَدُّهُ
وثغرٌ حكى الكافورَ طِيبُ رُضابِهِ ... ولكنَّه يستَجلِبُ الحرَّ بَرْدُهُ

وقال(3):

ليْسَتْ بأوْطَانِك اللاَّئى نَشَأْتَ بِها ... لكِنْ دِيارُ الذى تَهْواهُ أوْطَانُ
خيرُ المواطِنِ ما للنَّفسِ فيه هَوىً ... سَمُّ الخياطِ مع الأحْبَابِ ميدانُ
كلُّ الدّيارِ إذا فكَّرتَ واحِدةٌ ... معَ الحبيبِ وكلُّ الناسِ إخوَانُ
أفدِى الذين دنَوْا والهجرُ يُبْعِدُهُمْ ... والنَّازِحينَ وهم فى القلبِ سكانُ
كُنَّا وكانُوا بأهْنَى العيشِ ثم نأَوا ... كأننا قطُّ ما كنَّا وما كانُوا

(1) تأهيل الغريب ٣٩ .
(2) تأهيل الغريب ص ٩٢ .
(3) الكشكول ١ /٢٨٧ .

ويشكو الزمان :

لا تغبِنَّ الزّمانَ إن ذهبتْ نيوبُ لَيْثِ العرينِ من نُوبِهْ
فالحولُ لولا الجدودُ ما قصرتْ أيْدِي جماداهُ عن عُلاَ رَجَبِهْ

ويقول[1] :

لا تَشْكُ فالأيّامُ حُبْلَى رُبّما جَاءتك مِنْ أُعجوبَةٍ بجَنِينِ
فكذا تصاريف الزّمانِ مَشقَّةٌ فى راحةٍ وخشونةٌ فى لِينِ
ما ضَاعَ يُونُسُ بالعراءِ مجرَّداً فى ظِلِّ نابتةٍ من اليقطينِ

وتدور بعض أبياته حول تجارب الحياة والأيام ، يصوغُها فى قوالب الحكم والأمثال ، فيقول[2] :

المجدَ سَهْلٌ والطريقُ إليه بالإجماعِ وَعْرُ

ويقول[3] :

لا تَشْكُوَنَّ من الخمول فربَّما كانَ الخمولُ إلى السلامَة سُلَّماَ
لَوْلاَ كمونُ الدُّرِّ في أصْدَافِه ومشقّة استِخْراجِه ما فُخِّمَا

ويقول[4] :

قالوا بَعُدْتَ ولم تُقْرُبْ فقلتُ لَهُمْ بُعْدِى عن النّاسِ فى هذا الزّمان حجىً
لولاَ التباعُدُ بين الحاجبين بِهِ بانَ افتراقُهما لم تَعْرِفْ البَلَجَا

ويقول[5] :

صقلتُ العُلا بالمكرمَاتِ وإنّما يَنِمُّ بأسرار السّيوفِ الصّياقِلُ

---

(١) الغيث للصفدى ٢ /٢٩٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢ /٤٧ .
(٣) شرح اللامية ٢ /٢٩٥ .
(٤) المصدر نفسه ٢ /٢٩٥ .
(٥) تمام المتون ٦٨ .

وقال (1):

خلقتُ لذنب إبليسَ اعتذاراً فتاهَ، وقالَ فُزتُ وخقَ جيدي
إذا كانَ ابنُ آدم مثل هذا فكيفَ ألامُ في تَرْكِ السُّجُودِ

ويعلّل خروجَه عن بغداد (الزوراء) فيقول :

مالي وللمكث في الزوراء يُجحفُ بي من ألقِحَ العُجزَ لم يَفْرَحْ بما نَتجا
قلبي أظنُّ هو المعدى مَسَاكِنُها بنارِ لوْعتِهِ لمّا ارتقى دَرَجَا
فالدُّورُ محترقاتٌ والهجيرُ بِها يُسَاعِدُ الهَجرَ فيما يسلبُ المهجَا

ويقول (2):

من ظَنَّ أنَّ القوافِي لا نُشُوزَ لها فليذكُرْ القَاسِمَ العِجْليَّ والكرخَا

ويقول :

لا تحقرنَّ ضَعيفَ الرِّزقِ وارْضَ به ما الغَمْرُ مجتمِعٌ إلا من الوَشَلِ
وانزِلْ إذا لم تجدْ للمُرْتقَى سبَباً فباسِقُ العودِ يَرْجو نازلَ السّبَلِ

ويقول :

لو تمَلِكُ الدنيا يَدي لأَرَحْتُ مَنْ يُمْسِي ويُصْبِحُ طالباً مِحْثَاثا
وقسمْتُها بيني وبينَ أصادِقِ وعِداى غير مُمَيِّزٍ أثلاثَا

ويقول :

لا يُحطّنَّ رتبتي سوءُ حالي آيةُ الحسْنِ في الجفون السّقامِ
أنا كالنّارِ أطفَا القَطْرُ منها ولها بعد أن نَفَخْتَ احتدامُ

ويقول (3):

ليتَ الذي بالعِشْقِ دونَكَ خصَّني يا ظالمي قَسَم المحبَّةَ بيننَا
أنا في الهوَى مثْل الخِلالِ مُثقّفٌ ولقد أضَرت بي مناسبة القَنا

(1) المصدر نفسه ١١٦ .
(2) شرح اللامية ص ١١٨ .
(3) جوهر الكنز ٤٦٦ لابن الأثير . طبع منشأة المعارف .

ويحث على الرحلةِ والإنتقال ، لأن الخمولَ من شأنِ من يستقر فى مكان :

يا خليليّ حَلّيا عاطلَ البــــــــيدِ بوجه النجيبة الشملالِ
زُحَلٌ أكبر الكواكب لا يَخْمُلُ إلاَّ من قلةِ الإنتقــال

ويقول :

الحسْنُ والقُبْحُ قد تَحْويهما صِفَةٌ شأن البياضِ، وذَانِ الشيبَ والشَّبَبَا
ظُبَا المحارِفِ أقلامٌ مكسَّرةٌ رُءوسُهُنَّ، وأقلامُ السعيدُ ظبَا

يتحدث عن الآله يملكها صاحب الحظ التعس والسعيد ، فيشقى بها ذاك ، ويسعد بها هذا . ويخصُّ صنعة الكتابة يشقى بها ناسٌ ويَسعَدُ آخرون ، فأصحاب الأقلام ليسوا سواء فى السعادة .

ومما عرضنا من نماذج شعر الغزى تتبين لنا ملامح ، لا نملك لها تفصيلاً ما لم نعثر على ديوانه ، ونعرض لجملة شعره ، وأول ملمح نلمسه فى مضامينه ومعانيه ، ما يكشف عنه قوله من أزمة أحس بها الشاعر فى حياته وتعامله مع الناس ، عبَّر عنها فى غزله وشكواه ، وما بثَّهُ من نفثات ساقها على صورة حكم وتجارب خاضها كما خاضها غيره من قبل فعبَّر عنها تعبيرات متفاوتة تعامل فيها مع المعانى التى تداولها الشعراء من قبل في مثل ما عاناه ، واستعان أحيانا ببعض العبارات والألفاظ ، وأخرى بالصور والخيالات .

ولم تكن سلاسة اللفظ من خصائصه ، بل تغلب عليه الرصانة والجزالة واللجوء أحيانا إلى اللفظ الغريب والحوشىّ . وقد لاحظه عليه الصفدى حين قال : « ما أثقل قول الغزّى فى هذا المعنى ، وأوهى ، وأوهنَ ما شاده فى هذا البيت ، وهو :

ولا غرو أن كنتُ بعض الورَى فإنَّ اليَلَنْجُوجَ بعضُ الحَطَبْ

ومعانيه ، وأمثاله تنمُّ عن أزمته ، وقلقه ، وإحساسه بظلم الحياة والناس ومعاندة الدهر والحظ كأنْ يقول فى إحباط واضح :

ولن يتساوى سادةٌ وعبيدهم على أنَ أسماء الجميع موالى

وقوله :

مصاحبةُ المنى خطرٌ وجهْلٌ ... وكَم شرقٍ تولَّدَ من زُلالِ

وقوله :

كَم عالِم لم يلج بالقرع بابَ منىً ... وجاهلٍ قبل قرع الباب قَد ولجَا

ويستعين ببعض المعارف التاريخية والعلمية والفلكية .

ويستعين ببعض مصطلح العلوم كعادة معاصريه ، كأن يستعين بمصطلح النحو فى مثل قوله :

قالوا نَزلْتَ ، فقلْتُ الدَّهْرُ أقسَمَ بى ... لا وجْهَ للرَّفْعِ فى المجرور بالقَسَمِ

وكرر هذا المعنى فقال :

غيرى له المجد والأيام تقسِمُ لى ... وهى الجديَرةُ بالضِّيزَى من القَسَم

أظنها أقسمت باسمي لتخفضني ... ولم يكنْ غيرُ فَضْلِى أحْرفُ القَسمِ

ويقع له المعنى الجيد كقوله :

كالشَمْعِ يَبْكى ولا يُدْرَى أعَبْرَتُه ... من صُحْبةِ النَّار أم من فرقَةِ العَسَلِ

وبعد فقد كان العَزّى من الشعراء المحروبين القلقين ، تقلبت به صُروف الدهر ، فهاجر مغادراً بلده يلتمس حظاً من الدنيا ، فلم تعطه ما يريد وشرق طالباً مطلع الشمس عله يلقى فى مشرقها ما لم يلقه فى مغاربها ، وعمّر وطال عمره ، وعجز بعد هرمه ، وأحس بالموت يدب فى أوصاله ، ففارق الحياة بعد مرض أقعده ببلاد خراسان فلما أشرف على فراق الدنيا قال : أرجو أن الله يغفر لى لثلاثة أشياء : لكونى من بلاد الإمام الشافعى وكونى شيخاً كبيراً ، وكونى غريبا[1] .

---

(١) الغيث المسجم ــ شرح لامية العجم للصفدى ١ /١٦٧ .

الفصل السابع
شعراءُ وافدون من المغرب

١ــ التُّجيبى الأندلسى (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ)
٢ــ ابن القطاع الصقلى (ت ٥١٥ هـ)
٣ــ أمية بن أبى الصلت (ت سنة ٥٢٩ هـ)
٤ــ ابن أبى البشائر
٥ــ ابن حُبَيْش الشيبانى
٦ــ محمود بن عبد الجبار الطرسوسى
٧ــ الرشيد الصقلى
٨ــ القلعى الأصم (محمد بن عبد الله)
٩ــ مجبر الصقلى (ت ٥٤٠ هـ)

— ١ —

التُّجَيْبِـــــى

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى

(ت بعد سنة ٤٣٨ هـ)

من أهل القيروان ، وسكن المهدية ، ويعرف بالبرق ، أخذ عن أبى إسحاق الحصرى تآليفه ، وعن جماعة من العلماء والأدباء فى القيروان والاسكندرية والقاهرة .

وكان عالماً بالآداب متبحراً ، شاعراً ، مجوّداً . من أهل التأليف والتصنيف مع جودة الضبط وبراعة الخط .

ويبو أنه توجه إلى مصر فى طريق رحلته للحج فى تلك السنة ، والتقى بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، فممن أخذ عنه أبو مروان الطُّبْنى ، لقيه بالإسكندرية .

ويبدو أنه تردد على مصر ، وكان حجة فيما يروى عام ٤٣٨ هـ ، ورافقه فى رحلته أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الغوثى سنة ٤١٥ هـ وانشده أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر سنة ٤١٥ هـ كذلك .

وفى احدى رحلات العودة من مصر سافر إلى صقلية حيث التقى بأدبائها ومن بينهم أبو الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية آنئذ وجمعت بينهما صداقة، وتبادلا الأشعار فى الحنين والمودة .

قال ابن الأبار : « ومن جلة أصحابه المعاصرين أبو الحسن الربعى شاعر صقلية ، وقد اكثر من إنشاد غرر شعره ومن الحنين إليه وإلى مجالس أنسه حنين الواله إلى بكرها، والطير إلى وكرها»، ولا غرو فإنه كان شاعر صقلية إذ ذاك حيث قضى التجيبى مدة غير يسيرة من كهولته بعد انفصالة عن مصر . وربما بقى بها إلى ما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

وفى رحلته إلى مصر صحب الشاعر أبا الحسن علىّ بن حُبَيْش الشيبانى[١] وبقى أبو الحسن وتخلف عن صاحبه بمصر بينما واصل التجيبى رحلته إلى تونس

(١) راجع المختار ص ١٢١ .

فصقلية — فيما يظن — ويذكر التجيبي أن أبا الحسن بعث إليه برسالة بعد افتراقهما ضمَّنها نظماً ونثراً يصف فيها نزهة حضرها بعده بمصر سنة ٤١٤ هـ .

واستقر التجيبي فيما يبدو كغيره من المغاربة بالاسكندرية بعض الوقت قبل أن يذهب إلى الفسطاط فالقاهرة .

وكغيره كذلك جابَ فى أنحاء مصر والجيزة ، ومتع بصره بمنازه النيل ومفاتن الطبيعة الجميلة المحيطة بالقاهرة والفسطاط . ومن بين نزهاته تلك ما رواه فى المختار . قال(١) : « مشيتُ أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصارى الإشبيلى رحمه الله تعالى إلى ناحية أوسيم ، قرية تشرف على جيزة مصر ، فرأينا هناك من نور الأقحوانِ ما لم يُر مثله قطّ فى النضارة ، وإشراق أصفره وفقوعه فى صفاء أبيضه ونصوعه ، فعملنا عدة مقاطيع فيه ، فلم يتفق لنا من ذلك العمل ما نرضى إثباته إلا بيتان قلتهُما أنا . وهما :

كأنَّ الأقحوان وقد تبدَّتْ ... محاسِنُه فراقَتْ كلَّ عين
عمادُ زبرْجدٍ وقبابُ تبرٍ ... تَحفّ بها شُرافاتُ اللّجْين

فرضيناه جميعاً وأعجبَ أبا الحسن (على بن حُبيش الشيبانى) اعجاباً مفرطاً فأورده بعدُ فى بيته ، ولم يتمكن له ذكر الزبرجد ، فذكر الخضرة فى البيت الذى يليه فقال :

كلّما هبَّت الرياح تمايَلْـ ... ـنَ على أسْوُقٍ من الرّىّ خُضْرِ

وممن التقى بهم فى مصر وأنشدوه أبو الحسن البصرى الشريف العباسى قال(١) : أنشدنى أبو الحسن البصرى الشريف العباسىٌ بمصر لنفسه سنة خمس عشرة وأربعمائة :

ولمَّا رأيتُ الإلف يعزم للنّوى ... عزمت على جَفْنِىَّ أن يترقرقَا
فخـذ حُجَّتِى فى ترْكِ جيبى سالماً ... وقلبى وفى حَقّيْهِما أن يُشقّقَا
يَدى ضَعُفَتْ عن أن تُخرِّق جيبَها ... ولم يك قلبىَ حاضِراً فيمزّقَا

فاستغربت له هذا المعنى واستظرفته . فأنشدنى بعده لنفسه من قصيدة له :

---

(١) المختار من شعر بشار ص ١٢٦

ولو أنى جُعِلْتُ أمير جيشٍ لما قاتَلْتُ إلاّ بالسُّؤالِ
لأنّ الناس ينهزمون عنه وقد ثبتُوا لأطرافِ العوالِى

فأظهرت استظرافا لهذا المعنى أيضا » .

وللتجيبى شعر ساقه فى مختاره ، منه قوله زمن شبابه[1] :

وغيداءَ كالبدرِ المنيرِ تَطَلّعت

(١) المختار ص ١٧٨ .

ـ ٢ ـ

ابن القطّاع الصقلّى(١)

(٤٣٣ ـ ٥١٥ هـ)

أبو القاسم على بن جعفر بن على السعدى(٢)

ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ . ووفد إلى مصر . قال ابن خلكان : « الصقلّى المولد ، المصرى الدار والوفاة ، اللغوى » . وهكذا فقد نشأ وتعلم بصقليه ، وقال الشعر صبياً فى الرابعة عشرة .

كان أحد أئمة الأدب واللغة ، وله تصانيف نافعة . منها كتاب « الأفعال » أحسن فيه كل الإحسان . قال ابن خلكان : « وهو أجود من « الأفعال لابن القوطية » . وإن كان ذاك قد سبقه إليه . وله كتاب « أبنية الأسماء » جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه . وله عروضٌ حسن جيد ، وكتاب « الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة »(٣) يعنى جزيرة صقلية من مواطنيه ، وكتاب « لمح الملح » جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس .

وكان من أساتذته فى صقلية ابن البر اللغوى وأمثاله . وأجاد فى النحو غاية الإجادة قال ابن خلكان : ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الافرنج ، ووصل إلى مصر فى حدود سنة خمسمائة (٥٠٠ هـ) ، وبالغ أهل مصر فى إكرامه . وكان أول ما نزل بالإسكندرية .

واتصل بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، ومدحه بمدائح ، وتردد على مجلسه وكان من شعرائه . وأقام بالفسطاط أو القاهرة حتى زمن وفاته سنة ٥١٥ هـ بعد مقتل الأفضل . ودفن بقرب ضريح الإمام الشافعى .

وعمّر طويلاً فقد جاوز الثمانين . وعلّم ، وتخرج على يديه جماعة من المصريين ومما مدح به الأفضل قوله فى مطلع قصيدة :

(١) راجع فى ترجمته الخريدة ١ /٥١ قسم شعراء المغرب بتحقيق عمر الدسوق وعلى عبد العظيم ، طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م . والخريدة طبع تونس ١ /٥١ ، ووفيات الأعيان ٢ /٣٢٢ إحسان عباس وأنباه الرواة ٢ /٢٣٦ وبغية الوعاة ، ومعجم الأدباء .

(٢) ذكر اسمه فى تحقيق الدسوق وعبد العظيم على بن عبد الرحمن بن جعفر على خلاف الوفيات .

(٣) والكتاب مفقود . وله مختصر اسمه « الكتاب المنتحل من الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » للشيخ أبى اسحاق بن أغلب ـ منه نسخة خطية بتيمورية دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ وقام بنشرها المستشرق الإيطالى أمبرتو زيزيتانو .

صاحبىَّ واأسفا ... ذى دِيارُها فقِفَا
واسْمَعَا أبثُّكما ... من حديثها طَرفَا

وقال من أخرى :

من ذا يُطيق صفاتِ قومٍ مجدهم ... وسناؤهم من عهدِ سَامٍ سامِ
وحماهم من عهد حامٍ لم يَزَل ... يحميه منه لبث غابٍ حامِ

ويقول :

أنتَ كالموت تدركُ الخَلْق طُرًّا ... مثل ما يدرك الصَّباحَ المسَاءُ
كيفَ يرجُو الذى أخفت نجاءً ... منك ؟!. هيهاتَ أين منك النجاءُ

وهو محيط بقول النابغة :

« وإنك كالليل الذى هو مُدرِكى » .

ومعظم ما اختاره العمادُ وابن خلكان من شعره فى الشراب والغزل ، والشكوى ووصف الشيب والزهد ربما فى أخريات أيامه .

يقول فى الغزل :

إذا ابتسمت يوماً رأيتَ بثغرها ... سُمُوطاً من الياقوت قد رُصِّعَتْ دُرَّا
وإن أسفرت عاينْتَ شمساً منيرةً ... تُردُّ عيونَ النَّاظرينَ لها حَسْرَى
وتسلُبُ عيناها العقولَ إذا رنتْ ... كأنَّ بعينيها إذا نظرتْ سِحْرَا

ومنها :

ألا إنمْا البيضُ الحسانُ غَوادِرٌ ... ومن قبحتْ أفعالُه استحسَنَ الغَدْرا
يَمِلْن إلى سُودِ القرونِ وميلُها ... إلى البيضِ منها كانَ لَوْ أنصفتْ أحْرى

ومن قوله فى الشراب :

قهوةٌ إن تبسَّمت لِمزاجٍ ... خِلْتَ ثغرًا فى كأسِها لُؤلُؤيَّا
فاصْطَبِحْهَا سُلَافَةً تترك الشَّـ ... ـيْخَ إذا ما أصابَ مِنها صَبيَّا
واغتَنِمْ غفلَة الزَّمانِ فإنَّ الْمَـ ... ـرْءَ رَهْنٌ مادام يُوجَدُ حَيَّا
قَطَعَ العُذْرِ يا عَذُولى عِذارٌ ... كهلالٍ أنارَ بدراً سَوِيَّا

وقوله :

أقبَلَ الصُّبحُ وصَاحَ الدِّيكَهْ ... فاسقنيها قهوةً مُنْسَفِكَـهْ

قهوةً لو ذاقها ذو نُسُكٍ لَزِمَ الفتْكَ ، وخلّى نُسُكَهْ
فأهِنْ دُنْياكَ تُعزِزْك ، ولا تَتْرِكْ المالَ كمنْ قد تركَهْ
واغتنِمْ عُمرك فيها طائِراً قبلَ أنْ تحصُلَ وسْطَ الشبكةْ

وقوله :

شَرِبْتُ دِرْياقَةً للـ هُمُوم إذْ لبسِتْنِى
دَبَّتْ بجسِمى فأرْدتْ هُمُومَــهُ وشفِتْنِــى
قَتِلْتُهَــا بِمــزَاجٍ وبعد ذا قَتَلَتْنِــى
كأنَّهــا طلبتْنِــى بالثأرْ إذْ صَرَعَتْنِى

ومن أوصافه ولعله من أبيات يصف أحد أعيادَ المصريين بالنيل والشموع تنعكس على صفحته كما جاء فى أقوال غيره ممن أشرنا إليهم . يقول :

أنظرْ إلى الماءِ حاملاً لهباً واعْجبْ لنارٍ تُضِيءُ فى ماءِ

ومن وصفه قوله فى الرُّمان :

رُمَّانةٌ مثلُ هذا العانِق الرِّيم يُزهَى بلَوْنٍ وشكْلٍ غير مسئومِ
كأنها حُقَّةٌ من عسجدٍ مُلِئَتْ من اليواقيت نثراً غَير مَنْظومِ

ومن أقواله فى الحكمة ، والشكوى ، وذكر الشيب والزهد :

فلا تُنْفِدَنَّ العمرَ فى طلَبِ الصِّبا ولا تَشِقَيَنْ يوماً بِسُعْدَى ولا نُعْمِ
ولا تَنْدُبَنْ أطلالَ ميَّةَ باللِّوَى ولا تَسفَحَنْ ماءَ الشئونِ على رَسْمِ
فإنَّ قصارى المرءِ إدراكُ حاجةٍ وتبقَى مَذَمَّاتُ الأحاديثِ والإثمِ

ويقول :

فيا نَفسُ عدِّى عن صِبَاكِ فإنَّه قَبيحٌ برأسٍ بالمشيبِ مُعَمَّمِ
أفِقْ إنَّ فى خمسين عاماً لَحُجَّةً على ذى الحِجَى إن لم يكن قلبُه عَمِى

ويقول :

تنبَّه أيُّها الرَّجُلُ النَّئومُ فقد نَجمتْ بعارِضكَ النُّجُومُ
وقد أبدى ضياءُ الصُّبح عمَّا أجنَّ ظلامَهُ الليلُ البَهِيمُ
فلا تغرَّرْك يا مغرورُ دنيا غرورٌ لا يدُومُ لها نعِيمُ
ولا تخبِطْ بمعْوجٍّ غموضٍ فقد وضح الطريقُ المستقيمُ

— ٣ —

أمية بن أبى الصلت (ت ٥٢٩ هـ)[١]

هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

قال عنه العماد فى الخريدة[٢] : « من أهل المغرب ، وسكن الإسكندرية » .

ويقول مؤرخوه إنه ولد بدانية سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م . وذكر ابن خلكان أن ذلك كان فى فاتح المحرم أو فى ذى الحجة من السنة السابقة .

وقد عاش يتيما ، لأن والده توفى وهو صغير ، ويذكر المؤرخون أنه أصطحب أمه فى رحلته الأولى إلى مصر ، ولم يذكر والده .

ولا تفصل الأنباء شيئاً عن مدة إقامته بالأندلس ، ولا عن بقائه فى بلده دانيه ، ويذكر المقرى أنه عاش عشرين سنة فى أشبيلية ، أى أنه لم يغادر الأندلس إلا بعد العشرين من عمره ، وربما كان ذلك فى الخامسة والعشرين أو بعد ذلك .

وآثار أمية وعلمه يدلأن على أنه حصَّل كثيراً من العلوم فضلاً على موهبته الأدبية التى مكنته من قول الشعر وانشاء الرسائل ، وتأليف الكتب . ويذكر المؤرخون لحياته نبوغه فى علوم الطب والفلسفة والتنجيم والتاريخ والموسيقى .

قال عنه العماد : « كان أوحدَ زمانِه وأفضل أقرانه ، متبحراً فى العلوم . وأفضل فضائله المنثور والمنظوم ، وكان قدوة فى علم الأوائل ذا منطق فى المنطق بذُسَحبان وائل » .

وكذلك قال عنه ياقوت : « كان أديباً فاضلاً ، حكيماً منجماً » .

وقال عنه ابن أبى أُصيبعة : « قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يكن يدركه كثير من سائر

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء حـ ٧ ص ٢٠ ، وفيات الأعيان . وخريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ /١٨٩ ، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة حـ ٣ ص ٨٦ ، ونفح الطيب للمقرى ٢ /٣٠٨ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ١ /٥٣٩ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤ /٨٣ .

الأدباء . وكان أوحد فى العلم الرياضى والإلهى ، كثير التصانيف ، بديع النظم » .

وقد استزاد من العلم الذى حصله فى بلده بما حصله من العلم والأدب سنوات إقامته بمصر والقاهرة والإسكندرية . ويقول المقرى أنه أفاد كثيراً من قراءة الكتب بالمكتبة التى سجن فيها بأمر الأفضل نحو ثلاث سنوات .

وألم بعلم الموسيقى والتلحين والغناء ، وأجاد العزف على العود ، وكثيراً ما كتب أشعارا ليلحنها ويغنّيها . قال المقرى : « وأمتنُ علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وهو الذى لحن الأغانى الأفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن »[1] .

وجاء أمية إلى مصر وقد بلغ من العمر نيفاً وعشرين عاماً ، وقضى بمصر عشرين سنة على حد قول ابن سعيد[2] . وتضطرب أخباره فى مصر وتختلط عند المؤرخين .

ولكنا نرجح أنه تردد بين مصر والمهدية ، وأنه فى أول أمره جاء إلى مصر مباشرة من بلده كغيره من الأندلسيين والمغاربة، وصحب معه فى تلك المرة أمه ، وكان ذلك فى حدود سنة ٤٨٥ هـ[3] ، وأقام بالإسكندرية زمناً لا نعرفه ، وربما التقى هناك بصديقه الشاعر ظافر الحدّاد شاعر الإسكندرية فى عصره . وربما انتقلا معاً إلى الفسطاط حيث أقاما . فقد روى صاحب البدائه أنه سكن فى منزل بدارٍ بالخطة المعروفة بدويرة خلف بمصر (الفسطاط) وكان مكتوباً على جدرانها بعض الشعر مما تركه بها أمية »[4] .

ونفترض أن أمية ظل بالإسكندرية ما تبقى من سنوات القرن الخامس وبضع سنوات من أول القرن السادس ، وعاش أول وفوده بضع سنوات فى خلافة المستعلى ، ثم بعد فى خلافة الآمر إلى سنة ٥٠٦ هـ ، ثم غادر مصر إلى المهدية فى هذه السنة حيث حلّ بيلاط يحيى بن تميم بن المعز قبل وفاته سنة

(١) نفح الطيب ٢ /٣٠٨ .
(٢) المغرب ٢ /٢٥٦ ، بتحقيق د . شوقى ضيف .
(٣) بدائع البداية ، ص ١٨٠ ــ ١٨٢ .
(٤) يحدد ابن خلكان سنة ٤٨٩ هـ .

٥٠٩ هـ بثلاث سنين ، ونفترض أنه عاش بها حتى عاد مرة ثانية إلى مصر ليلقى الأفضل سنة ٥١٤ هـ ويمدحه .

وقد تكون رحلته الثانية إلى مصر بعد وفاة يحيى بن تميم سنة ٥١٠ هـ على حد قول ابن أبي أصيبعة ووافقه قدرى حافظ طوقان .

ويقول المقرى أنه جاء فى المرة الثانية موفداً من صاحب المهدية إلى خليفة مصر ، ولعلَّ صاحب المهدية آنذاك كان على بن يحيى بن تميم ، وأراد بهذه الوفادة أن يُصْلِح ما شاب العلاقة بين يحيى وخليفة مصر وحكامها من شوائب .

ومعلوم أن أمية خرج فى زيارته الأولى لمصر غاضباً ، غير راضٍ لما لقيه من الأفضل الجمالى من معاملة سيئة ، فقد أمر بسجنه فى خزانة البنود أو فى خزانة الكتب . وألف رسالته المصرية يعبّر عن هذه الغضبة ، فذم المصريين ، وقدمها ليحيى بن تميم صاحب المهدية بتونس ولولا أنه آنس فى نفسه ميلاً إلى هذا الذمّ لما قدمها إليه على هذه الصورة .

على أية حالٍ فإن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بعد تغيّر أمير المهدية ، ولعله أراد أن يكسب ودّ الآمر ، ووزيره الخطير الأفضل . ويمكن أن يكون مديح أمية للأفضل سنة ٥١٤ بأبيات يقول فيها :

نسختْ غرائب مدحك التشبيبَا	وكفى به غزلاً لنا ونسيبَا
لله شاهنشاهِ عزمتُكَ التى	تركت لك الغرض البعيد قريبا
لا تستقرُّ ظباك فى أغمادها	حتى تروّحها دماً مصبوبا

وبقى فى مصر هذه الزورة الثانية وكان قد فقد أمه ، واقتربت سنه من الخمسين وتجاوزتها ولا ندرى كم مكث بمصر والإسكندرية ، وإن كنا لا نرجح سفره قبل عام ٤١٥ هـ الذى قتل فيه الأفضل وتولى البطائحى الوزارة ، واضطربت الأمور ردحاً من الزمن بالقاهرة .

وهكذا غادر أمية مصر للمرة الثانية إلى القيروان فالمهدية وظل هناك حتى توفى سنة ٥٢٩ هـ بعد أن قضى أربع عشرة سنة أو أقل ملازماً للأمير على بن

يحيى ، وقد وقع منه موقعاً طيباً ، ولاقى منه معاملة حسنة ، وأعدق عليه فرضي إلى جواره ومدحه بعدة قصائد بقى لنا منها بعضها فيما بقى من شعره .

وشعره لم يصلنا كلّه ، فديوانه لم يعثر عليه ، وكل ما بين أيدينا ما تفرق من شعره فى مصادر متعددة، قام أحد الدارسين بجمعه(١) .

ويهمنا بالدرجة الأولى وفوده إلى مصر ، وعلاقاته بها ، ومن اتصل بهم من الرجال فقال فيهم شعراً ، ومن رافقهم من الشعراء والأدباء ، فكانت بينه وبينهم مودة ، وتبادلوا وإياه الرسائل والأشعار .

ومن بين الرجال المشهورين الذين لقيهم ببلاط الأفضل تاج المعالى مختار ، وهو من خواص الوزير المقربين ، كانت منزلته عنده عالية ، ومكانته بالسعد حالية على حد قول ياقوت فى ترجمته . وكانت خدمة أمية له بصناعتى الطب والنجوم . ويبدو أن هذه المهنة هى التى فتحت له أبواب قصر الأفضل أولاً ، ثم تبعها المديح وربما كانت هذه المهنة أو المعرفة بالعلوم والكيمياء من أسباب محنته كذلك كما كانت من أسباب سعده .

على أية حال فقد لقى قبولا لدى تاج المعالى هذا فقدمه إلى الأفضل فكان من جلسائه الأدباء وتعرف فى مجلسه على جماعة من رجال مصر بمن فيهم الأمير أبو الثريا .

وكان أبو الثريا هذا شاعراً ، وله مع أمية محاورات شعرية ، ومدحه .

ونتساءل عما إذا كانت معرفة أبى الصلت بأبى الثريا فى آخر القرن الخامس أم أوائل السادس عند عودته إلى مصر بعد غيبة ما يقرب من خمس سنوات ؟.. لأن أبا الثريا يخاطب أبا الصلت بقوله :

أبا الصلت يا قطب المكارم والفضل ... وأفضل من يُنْمَى إلى كرم الأصْلِ
ومن حازَ أسباب الرئاسات والعلا ... وبالجود وبالفِعْلِ الجميل وبالنُّبْلِ
وأصبح فى كلّ العلوم مبرّزا ... يسابق فيها كلّ مجرٍ على رُسْلِ

---

(١) هو محمد المرزوق جمعه بعنوان « ديوان الحكيم أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى » نشر دار الكتب الشرقية بتونس .

ولا يبلغ أمية هذا القدر من المعرفة والرئاسة قبل الثلاثين . وقبل أن يبلغ الأربعين وتكتمل له أسباب الرئاسات والعلم بما حصَّل ، وما لقى من التكريم والتقدير .

والرجل الثالث من رجالات العصر الذين لقيهم بمصر هو الشاعر ابن مكنسة اسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، ونرى أن علاقته به تمت فى رحلته الأولى وقد ذكره فى رسالته المصرية التى ألفها بعد وصوله إلى المهدية بعد سنة ٥٠٥ هـ ، وأثنى عليه من بين من لقيهم بمصر حينئذ .

وظلت علاقة الود قائمة بين الرجلين بعد الفراق ، وتبادلا رسائل الشعر وبعد عودة أمية إلى مصر لقيه صديقه إسماعيل بهذه الأبيات[1] :

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحه وأعدمه وكراً وافقده إلْفَا
تذكَّرَ فرخاً بين أفنان بانةٍ حوافى الخوافى ما يطرْنَ به ضَعْفَا
إذا التحف الظلْمَاءَ ناجى همومه بترجيع نوحٍ كاد من دقة يخفى
باشفَقَ منى مُذْ أطاحت بك النَّوى هوائيةٌ مائيةٌ تسبقُ الطَّرفَا
تولَّت وفيها منك ما لو أقيسُهُ بما هى فيه كان فى فَضله أوفى

والصديق الآخر السكندريُّ أيضاً والذى ربطت بينه وبين أمية روابط المحبة الشاعر ظافر الحدَّاد . عقدت بينهما أواصر الصداقة منذ مجيء أمية إلى الإسكندرية وهو شاب لأول مرة مع أمه ، وظلت العلاقة بينهما وطيدة ، فانتقلا معاً إلى الفسطاط ، وسكنا بها وجالَسَا الأفضل ومدحاه وتلازما فى مجالسه حتى حدثت الجفوة بين الوزير وأمية فانفصل أمية إلى الإسكندرية ، ومنها غادر إلى القيروان فالمهدية ، وبقى هناك ما بقى من السنين ، والملفت للنظر أن أمية على صداقته بظافر لم يذكره فى الرسالة كما فعل مع صديقه الآخر ابن مكنسة .

وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل ؟ . هل حدث شيء بين الصديقين قبلَ سفر أمية ، أو فى أثناء أزمته مع الوزير الأفضل وحبسه ؟ . رُبَّما . لكن الشاعرين لم

---

(١) خريدة القصر ، القسم المصرى ٢ /٢٠٣ .

يفصحا عن شيء ، بل إن ظافراً بعث بقصيدة إلى صاحبه بالمهدية يتشوق فيها إليه ، عدتها ثمان وعشرون بيتا . يقول فيها :

ألا هَلْ لدائى من فراقِكَ إفراقُ — هو السَّمُّ، لكن فى لقائِكَ درياقُ
فيا شمس فضلٍ غرَّبتْ ولضوئِها — على كل قطرٍ بالمشارقِ إشراقُ
سَقَى العهدُ عهداً منك عمر عهده — بقلبى عهد لا يضيعُ وميثاقُ
يجدده ذكرٌ يطيبُ كما شذَتْ — وُرَيْقَاءُ كنَّتْها من الأيكِ أوراقُ
لكَ الخُلُقُ الجزْلُ الرفيعُ طرازُهُ — وأكثر أخلاقِ الخليقةِ أخلاقُ
لقد ضاء لتنى ياأبا الصلتِ مُذْنأتْ — دِيارُكَ عن دارِى همومٌ وأشواقُ
إذا عزَّنى إطفاؤها بمدَامِعى — جرت ولها ما بين جسمى إحراقُ

يقول فيها :

أخى، سيدى، مولاىَ دعوة من صَفَـا — وليسَ له من رِقٍّ وِدِّكَ إعتاقُ
لئِن بَعُدَتْ ما بيننا شُقَّةُ النَّوى — ومطرد طامى الغَوارِبِ خفاقُ

وقد أشرنا فى حديثنا عن ظافر إلى هذه الصداقة وما تبادلا فيها من أشعار .

والأديب الشاعر الثالث الذى تعرف عليه ببلاط الفاضل هو الكاتب على بن منجب الصيرفى الذى كتب للأفضل ، وتولى ديوان الإنشاء فى عهد الآمر . وقد ربطت زمالة تحولت إلى صداقة بين أمية والصيرفى .

وقد كتب أمية للصيرفى من السجن قصائد يرجوه أن يشفع له عند الأفضل لإطلاقه فكان ردُّ الصيرفى عليه :

لئِنْ سترتك الجُدْرُ عنَّا فربما — رأيْنا جلابيبَ السَّحابِ على الشمسِ

ولم تكن حياة أمية فى مصر جادة كلها ، بل كان يستمتع بملاهى الحياة وملاذها ، تجول فى أنحاء مصر القريبة من الإسكندرية والقاهرة ، وزار كثيراً من المنازة المعروفة فى عصره وأشرنا إليها مراراً فى حديثنا السابق كبساتين بركة الحبش ، وساحل النيل والنيل ، والجيزة والمقطم ، ومرصد المقطم ، ودير القصير ، ودير مَارْحنَّا، ومتع نفسه بالشراب وسماع الغناء وغيرهما من متع الحسّ .

شعره

ونبدأ حديثنا عن شعره الجاد ، وأوله المديح التقليدى .

قال يمدح الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الأفضل الجمالى :

نسخت غرائب مدحك التشبيبا وكفى به غزلاً لنا ونسيبا

وتحس وأنت تقرأ أبيات أمية فى مديح الأفضل بآثار الصنعة والتكلف وأن الرجل إنما ينطق من طرف اللسان . يقول :

لله شاهنشاه عزمتُك التى تركت لك الغرض البعيد قريبًا
لا تستقر ظُباك فى أغمادها حتى تُرَوِّيها دماً مَصْبُوبَا
والخيلُ لا تنفكُّ تَعْتَسِفُ الدُّجى خَبباً إلى الغارات أو تقريبا

ويَدع وصف صاحبه ومديحه ليصف الخيل فى تسعة أو عشرة أبيات حتى يقول :

تُردى بكُلِّ فتى إذا شَهِدَ الوغَى نَثر الرِّماح على الدروع كعوبا

وتأمل معى أى تكلف فى نظم هذا البيت ؟.

ويمضى فى هذا الكلام المصنوع يلفق فيه معانى السابقين ، ويُعيد صياغتها بلفظ لا سلاسة فيه ولا موافقة لعصره ، ولا لمصره . وانظر معى إلى هذه المعانى المستهجنة المستهلكة فى لفظ مكرور غث الصياغة :

وبثثتَ فى كلِّ البلادِ مهابةً طفِقَ الغزالُ بها يُؤاخِى الذِّيبا
وهمت يداك بها سحائبَ رحمةٍ يَنْهَلُّ كل بنانِها شؤبُوبَا
ونصرتَ دينَ اللهِ حين رأيته مُتخَضِّباً بيد الرَّدى متكوبًا

وهكذا يمضى فى نظمه هذا إلى آخر القصيدة فلا نعثر بمعنى يسترعى الانتباه أو يملك على القارىء وجدانه ، ويثير إعجابه . حتى يصل إلى ختامها ، فيضمنه استجداء صريحا إذ يقول :

وأنا الغريب مكانُه وبيانه فاجعل صَنيعكَ فى الغَريبِ غَرِيبا

وتختلف النغمة فى مديح الصنهاجين بالمهدية ، والتعريض بمن مدح المصريين فيقول فى مدح يحيى بن تميم الصنهاجى :

فلم أستسغْ إلاّ نداهُ ، ولم يكُنْ … لِيعْدِلَ عندى ذَا الجنَابِ جنابُ
فما كلُّ إنعامٍ يخفُّ احتمالُه … وإن هَطَلَتْ منهُ عليَّ سحابُ
ولكنْ أجلُّ الصُّنعِ ما جلَّ ربُّه … ولم يأتِ بابٌ دُونَهُ وحِجابُ
وما شئت إلاَّ أنْ أدُلَّ عَواذلى … على أنّ رأيى فى هَوَاك صَوابُ
وأُعْلِمَ قوماً خالفُونى وشرَّقُوا … وغرَّبْتُ أنّى قد ظفرتُ وخابوا

ونقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها على بن يحيى الصنهاجى لندرك فرق ما بين صنعته فى مديح الأفضل ، وصنعته هنا . يقول :

تألَّق منك للخُرصَانِ شُهبٌ … على لِمم الدُّجى منها مَشِيبُ
نجومٌ فى العجاج لها طلوعٌ … وفى ثُغَرِ الكُمَاةِ لهَا غُرُوبُ
وقد غشَّاكَ من سُودِ المنايا … سحائِبُ وَدْقُهُنَّ له صَبِيبُ
فلا برقٌ سِوَى بيضٍ خِفافٍ … تُقَطُّ بها الجماجمُ والتَّرِيبُ
تغادِرُ كلَّ سابغةٍ دِلاصٍ … كما شُقَّتْ من الطَّرب الجيوبُ

صحيح أن هذا الشعر فى مرحلة متأخرة عن شعره الذى قاله فى الأفضل وقد يكون لنضج الشاعرية أثر فى الاتقان إلاَّ أن الروح الشعرية ، وصدق الاحساس واضحان هنا، مفقودان هناك، وذلك — كما قلتُ — لأنه يتحدث هنا من قلبه، وحديثه هناك إنما كان من طرف اللسان .

ونسوق من مديحه هذه الأبيات فى الحسن بن على بن يحيى الصنهاجى :

لمْ يَدْعُنى الشوقُ إلاّ اقتادنى طرباً … ولم يَدَعْ لى فى غير الصبَا أَرَبا
وذو العلاقة من لجَّ الغرام بِهِ … وكلما لِيمَ أو سيم النزوع أَبى
كانت لِلِيلِيا وقفةٌ بالشِّعْبِ واحِدَةٌ … عَنها تفرَّعَ هذا الحبُّ وانشعَبا
ولائمٍ لِىَ لم أحفِل ملامَتَـهُ … ولا سمحت له منىّ بما طلبا
قال : اسْلُ فالحبُّ قد عَنَّاك . قلت : أَجَلْ حتى أُراجِعَ من لُبِّى الذى عَزُبا
طرفى الذى جلبَ البلوى إلى بدَنى … فلُمْهُ دونى فى الخطْبِ الذى جَلَبا
هو الهَوى ، وهوانِي فيه مُحتَملٌ … وربَّ مرٍّ عذابى فى الهَوى عَذُبَا
أما ترى ابن علىٍّ حين تيَّمه … حبُّ العُلا كيف لا يشكو له وصَبا
أغَرُّ ما برحت تثنى عزائمُه … سيف الهدى بنجيع الشرك مختضبا
قد أصبح الملك منه فى يَدىْ مَلِكٍ … مُرِّ الحفيظةِ يرضى الله أن غَضبا

وهذا المديح متوسط الجودة ، بل عاديٌّ ، وقد يكون النسيب فيه أكثر قبولاً وربَّما أدخل على الأبيات طرافةً ما عرض فيها من وصف قصر الممدوح وبساتينه حيث يقول :

إذا سَقَى اللهُ أرضاً صَوبَ غاديةٍ ... فليسقِ قَصرَكَ صوبَ الراحِ ماشَرِبَا
قصرٌ تقاصرتْ الدنيا بأجمعها ... عنه ، وضاق من الأقطار ما رَحُبَا

يقول فيها :

وحبذا قضب النارنج مثمرةً ... بين الزبرجد من أوراقها ذهبا
وحبذا الورق فوق القُضْب ساجعةً ... والماءَ فى خللِ الأشجار مُنْسَرِبَا
سُلَّت سواقيه منه صارماً عجَباً ... لا يأتلِى الجَدب منه سمعنا هربا
حسام ماء إذا كفُّ الصَّبا انبعثت ... لِصَقْلِهِ تركت فى متنه شطبا
صَفا ورقَّ فكاد الجوُّ يشبهُهُ ... لَو أنَّ جرًّا جرى فى الأرضِ وانسكبا
عقار دنٍّ فهذى ترتمى شَرَراً ... فوق البنانِ وهذا يرتقى حَبَبا
حتى لقد جَهِلَتْ للبعد عاصيرها ... وأُنْسِيَتْ لتراخى عهدها العنبا

ومزج وصف البستان مع وصف القصر ، وأدخل فى آخر الأبيات وصف الخمر. والمعانى دارجة، ويَسْمُجُ فى التقليد إذ يصف جدول الماء بالسيف ، وهو وصف مررنا به فى كثير من الشعر القديم ، وتواردت عليه الشعراء ، وما ندرى ما الملفت والمعجب بين بياض السيف وامتداده وجدول الماء ، ولا علاقة بينهما إلا الشكل أما ما وراء الشكل من إيحاء فهما متناقضان ، فالسيف يوحى بالموت والهَلَاك والفزع والرهبة ، والجدول باعث الحياة ، والجمال والحب ، والأنس .

لقد أحب أمية الطبيعة ، وأحب الحديث عنها فى شعره ، كما عشق الخمر وتغنى بآلائها ، وفى أعماقه رغبة الحياة والجمال والموسيقى واللهو والاستمتاع ، وله أناشيد فى الطبيعة المصرية كغيره ممن وفد من الأندلسيين والمغاربة .

وسبق أن ذكرنا أبياته فى بركة الحبش(١) :

---

(١) ديوانه المجموع ص ٦١ .

عَلِّلْ فؤادَكِ باللَّذاتِ والطَّربِ ... وباكر الرَّاحَ بالطَّاساتِ والنُّخبِ
أمَا تَرى البركَةَ الغَنَّاءَ قد لبِسَتْ ... فرشاً من النَّورْ حَاكتْهُ يدُ السُّحُبِ
وأصبحت مَن جديدِ النَّبتِ فى حُلَلٍ ... قد أبرز القطْرُ فيها كلَّ مُحْتجبِ
من سَوْسنٍ شرقٍ بالطَّلِّ محجُرهُ ... وأقحوانٍ شبِيٌّ الظَّلْمِ والشَّنَبِ
وانظر إلى الوَرْدِ يحَكى خدَّ مُحْتشِمٍ ... من نرجسٍ ظَلَّ يحكى لحظَ مُرتقبِ
والنيلُ من ذهب يطفو على وَرِقٍ ... والرَّاحِ من وَرِقٍ يطفو على ذهَبِ (١)
وربَّ يوم نَقعْنَا فيهُ غلَّتَنَا ... بجاحِمٍ من حَشا الإبْريقِ مُلتهِبِ
شمسٌ من الرَّاح حيَّانا بها قمرٌ ... موفٍ على غُصنٍ يَهتزُّ فى كُثُبِ
أُرْخَى ذوَائِبُه واهتزَّ منعطفا ... كصعدةِ الرُّمحِ فى مُسْودَّةِ العَذَبِ
فاطْرَبْ، ودُونكها فاشربْ فقد نَغبتْ ... على التَّصابِى دواعِى اللَّهْوِ والطَّربِ

وقال فى الرصد (المرصد بالمقطم) الذى بظاهر القاهرة :

يا نُزهةَ الرَّصد التى قد اشتمَلتْ ... من كلِّ شيءٍ حَلَا فى جانب الوادِى
فذا غَدِيرٌ ، وذا رَوْضٌ ، وذا جبلٌ ... والضَّبُّ، والنُّونُ، والملاَّحُ والحادى

وقال فى دير مَرْحَنَّا بمصر :

يا دَيْرَ مَرْحَنَّا لنا ليلَةٌ ... لو شُرِيَتْ بالنَّفْسِ لم تُبْخَسِ
بِتْنا به فى ليلةٍ أعربتْ ... آدَابُهُمْ عن شَرَفِ الأنْفُسِ
واللَّيْلُ فى شَمَلةِ ظلمائه ... كأنَّه الرَّاهِبُ فى البُرْنُسِ
نَشْرُبُها صهباءَ مَشْمُولَةً ... تُغْنِى عن المِصْبَاحِ فى الحِنْدِسِ
وهى إذا نُفِّسَ عن دَنِّها ... أذكَى من الرَّيحَانِ فى المَجْلِسِ

ولأمية غير الوصف المعروف لمظاهر الطبيعة وصف للحيوان والطير فيصف لنا كلب الصيد على طريقة طَرَدياتِ أبى نواس وغيره ممن أجاد فيه ، يقول(١) :

على وزن الرجز :

خيرُ معدّ مُتَّخذْ ... ليَوْم عيشٍ مُسْتَلَذْ
مُنفردٌ بالحُسْنِ فَذّْ ... سُوَبِقه بالجُرْذِ فَبذْ
سبق النُّصُولِ للقُذَذْ ... فما انبرى إلاَّ مُغَذْ
ولا رأى حتى أُخَذْ

---

(١) الورق : الفضة .

وقال يصف الطاووس :

أهلاً به لمَّا بدا فى مَشْيِهِ — يختَالُ فى حُلَلٍ من الخُيَلاءِ
كالرَّوضة الغَنَّاءِ أشرف فَوقَه — ذَنبٌ له كالدَّوحةِ الغَنَّاءِ
نادِيْتهُ لو كانَ يفهَمُ مَنْطِقى — أو يستطيعُ إجابةً لندائِـى
يا رَافعاً قوسَ السَّماءِ ولابِسَاً — للحُسْنِ رَوْضِ الحَزْنِ غِبَّ سَماءِ
أيقَنْتُ أنك فى الطُّيُورِ مُمَلَّكٌ — لمَّا رأيْتكَ منه تَحتَ لِواءِ

ووصف كثيراً من مظاهر الحضارة الزاهرة فى القاهرة والقيروان . فيقول مُصوِّرًا مجلس يحيى بن تميم الصنهاجى صاحب القيروان والمهدية ، وما فيه من فخامة وجمال :

لله مَجْلِسُكَ المنيـف قبابُـه — بموطَّدٍ فوق السِّمَاكِ مُؤَسَّسِ
مُوفٍ على حُبُكِ المجرَّةِ تَلْتقِى — فيه الجوارِى بالجوارِى الخُنَّسِ
تتقابل الأنـوارُ فى جنباتِـه — فاللَّيْلُ فيه كالنَّهارِ المشْمِسِ
عُطِفتْ حَنَاياهُ دُوَيْنَ سمائِه — عَطْفَ الأهلَّةِ والحواجِبِ والقِسِى
واستشرَفَتْ عُمُدُ الرُّخامِ وظُوهِرتْ — بأجَلَّ مِنْ زَهَرِ الرَّبِيعِ وأنفَسِ
فهواؤه من كلِّ قدٍّ أغْيدٍ — وقرارُه من كلِّ خدٍّ أمْلَسِ
فَلَكٌ تحيرٌ فيه كلُّ مُنَجِّم — وأقَرَّ بالتقصير كل مُهَنْدِسِ
فبدا للحظِ العينِ أحسَنَ منظَرٍ — وغدا لطيب العَيْشِ خيرَ معرَّسِ

وهكذا فإن شعره يعكس صوراً من حضارة الإسلام الزاهرة فى عصره ، ويرسم صوراً من صور الترف الذى عاشه الحكام وسراة القوم ، ونلاحظ عامةً أن الشعراء حين يصفون مظاهر النعيم والترف التى عاشها الأغنياءُ والقادرون ، فإنما يستدعون صور الجنة فى أوصافهم لأن أولئك المملكون حاولوا أن يحققوا فى حياتهم ، ما وقر فى خلدهم من صور نعيم النعيم فى الآخرة بما فيها من حُورٍ عين ، وبساتين ونخل ورمان ، وكؤوس شراب يطوف بها وِلدانٌ ، وهم متكئون على فرش من حرير ، ويلبسون أساور الذهب والفضة .

وتمر فى شعره على كلام فيما لقيه فى حياته من سفر وركوب للبحر ، وما عاشه من تجارب الحياة والناس بما فيها من فرح وتَرح ، ووفاءٍ وجحود . ولفظه من ثروة معلوماته وعلمه ، وفيها من مصطلح علوم الطب والفلك وغيرها من العلوم التى برع فيها .

— ٤ —

ابن أبى البشائر

أبو الحسن على بن عبد الرحمن الكاتب الصقلى الشاعر :

عاصَرَ أمية بن أبى الصلت ، وأورد له شعراً بالرسالة المصرية[١] ، واصفاً إياه بالبلاغة . قال أمية : وقد تعاورَ الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء . ومن مليح ما قيل قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن على بن أبى البشائر الكاتب :

شربنا مع غروبِ الشمسِ شمساً ... مشعْشعَةً إلى وقت الطُّلوعِ
وضوءُ الشمسِ فوقَ النيل بَادٍ ... كأطرافِ الأسنة فى الدُّروعِ

وذكر العماد[٢] أنه قرأ فى مجموع شعره نظماً جيداً يفوق ياقوتاً ودُرًّا — . مشتملاً على المغانى الغُرّ ، فمن ذلك قوله فى راقصة :

هيفاءُ إن رقصتْ فى مجلسٍ رقصَتْ ... قلُوبُ من حَوْلَها من حِذْقِها طَرَبَا
خفيفة الوَطْءِ لو جَالتْ بخُطَوتِها ... فى جفنٍ ذى رمدٍ لم يشْتكِ الوصَبا

وشعره كشعر الكتّاب من حيث الخفة وسلاسة تدفق اللفظ ، ورقيق المعنى ومما اختاره له مقطوعاتٌ وأبياتٌ تدور فى موضوع الغزل ، والوصف وشكوى الشيب .

ولكن معظم ما جاء به فى الغزل والشوق وذكر الفراق ، ورسائل المحبوب من مثل قوله :

لنا فى كلِّ مُقتَرح وَصَوْبِ ... مُفَاجَــأَةٌ بأَسْرَارِ القُلُــوبِ
فنفْهَمُ بالتشاكى ما نُلاقِى ... بلا واشٍ نخافُ ولا رَقيبِ

وقوله :

وساقٍ كمثلِ الغزالِ الربيب ... بَصِيرِ اللّحاظِ بصير القلوبِ
جَسرْتُ عليــه فقبَّلتُــهِ ... مجاهِرةً فى جفونِ الرَّقيبِ

---

(١) راجع الرسالة المصرية .
(٢) خريدة القصر .

فلمَّا توسَّدَ كفُّ الكَرى وأهْدَاهُ لى سُكْرَهُ مِن قريبِ
تَعجَّلْتُ ذنباً بفتكِي به ولكنَّه من مليح الذُّنوب ؟!

وفى شكوى البعاد :

أتراني أُحْيَى إلى أَنْ يَعُودَا نَازِحٌ لم يَدَعْ لِعْينى هُجُودَا
كيف أرجو الحياةَ بعد حَبيبٍ كان يومى به من الدَّهرِ عيدا
كنتُ أشكو الصُّدودَ فى القُرْ بِ والآن قد استغرقَ البعادُ الصُّدودَا
أشْتَهِى أن أبُوحَ باسْمِكَ لكن لَقَّنتْنِى الوُشاةُ فيكَ الجمودَا

وقــال :

إلى الله أشكو دخيل الكَمدْ فليس على البعْدِ عندى جَلدْ
ومن كنت فى القربِ أشتاقُه فكيفَ أكونُ إذا ما بَعُدْ

وقــال :

إليكَ أشكو عيونًا أنتَ قُلْت لَها فِيضى فقد فَضَحَتْنِى بين جُلاَّسِى
وما تركْتُ عدُوًّا لى عَلمتُ به إلاَّ وقد رَقَّ لى من قلبك القَاسِى
فإن رضيتَ بأن ألقى الحمامَ فيا أهلاً بذاكَ على العينين والرَّاسِ

ونلاحظ هذا الكلام الذى يجرى على ألسنة الناس بلا تكلف ولا تقعر .

وقــال :

تولَّوا وأسرابُ الدُّمُوع تفيضُ ولَيلِي طويلٌ بالهُمومِ عَريضُ
ولما استقلُّوا أسلَمَ الوجدُ مُهجتى إلى عَزمَاتٍ ما لهنَّ نهَوضُ
توقَّدُ نيرانُ الجوىَ بين أضْلُعِى إذا لاحَ من برقِ العشاءِ وميضُ
ولم تبقَ لى إلاَّ جفونٌ قَريحةٌ وعَظْمٌ براهُ الشَوقُ فَهو مَهِيضُ
فَجِنٌ لمحزُونٍ جفَا النَّومُ جَفنَهُ فليس له حتى الوصالِ غُموضُ

ويقول فى الطيف :

ألَمْ يأنِ للطيفِ أن يعطِفَا وأنْ يَطْرقَ الهائمِ المدْنَفَا
جَفَا بعدَ ما كانَ لى واصِلاً وخلَّفَ عِنْدِىَ ما خلَّفَا
أما تعطفين على خاضعٍ لدَيْكِ يناجِيكِ مُسْتَعْطِفَا
إذا كتبتْ يدُهُ أحْرُفاً إليكِ محا دمعُه أحرُفا

ولو كُنْتُ أملِكُ غربَ الدُّموعِ ... مَنَعْتُ جُفونيَ أن تَذْرِفا
غراماً بإشعال نار الغرامِ ... وما عُذْرُ صبٍّ بَكى واشتَفى

وقـال :

قدأنصفَ السُّقْمُ من عَيْنَيْكَ وانتصَفَا ... فها هما يحكيانِ العاشِقَ الدَّنِفَا
ياساهِرَ الطَّرفِ قدأغريتَ بِى كلفاً ... بَرْحًا، وصيَّرتنِى أستحسنُ الكلَفَا
أظنُّ خدَّيكَ من جارِى دَمِى اختضبَا ... لقد تناهَيْتَ فى قَتْلِى، وقد ظَرُفَا

وقال مُلْغِزاً فى اسم حبيبه(١) :

إثمُ الذى صيَّرنى مُذْنَفَا ... لما انتضَى مِن جَفْنِيه مُرْهَفَا
يلعب إن رُخِّمَ معكوسُهُ ... لأنه قد نَسَقَ الأحْرُفَا
ألم تر كيف غدا ثلثه ... جذرًا لثلثيه إذا ألِّفا
قد غلَبَ القَلْبَ على صَبْرِهِ ... وهكذا يخرج إن صُحِّفَا

ويقول فى رسائل الحبّ :

كيف لم يشتغِلْ بنار اشتياق ... قلْمٌ لى أبثُّهُ ما ألاقِى
كانَ حُلْوَ المذَاقِ عيشِىَ للقر ... ب ، فأضحى للبعدِ مُرَّ المذاقِ
فوصَبْرى لآخذَنَّ بثأرى ... من ليالى الفراقِ يوم التَّلاقِى

ومن رسائله الشعرية ما ردّ به على رسالة حيث يقول(٢) :

وَصَلَ الكتابُ وكانَ آنَسَ واصلٍ ... عندِى وأحْسَنَ قادم ألْقاهُ
لا شيءَ أنفسُ منه مُهْدًى جامعاً ... شمْلَ المَعانِى للّذى أهْداهُ
ففَضَضْتُهُ وجعلتُ ألثُمُ كلَّ ما ... كتبَتْهُ أو ضَمَّت عليه يداهُ
وفَهِمْتُ مُودَعَهُ ، فرِحْتُ بِغبطَةٍ ... جذلانَ مُبتهجـاً بما أدَّاهُ
وعَجِبْتُ من لفظٍ تناسَقَ فيه ما ... أعلاه ، ما أحلاهُ ، ما أجلاهُ
ولقد غُبطْتُ عليهِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ ... عُدِمتْ له الأشكالُ ، والأشْباهُ
كالرَّوضِ باكرهُ الحَيَا ، فتفتَّحتْ ... أزهـارُهُ ، وتضَوَّعَتْ رَيَّـاهُ
كالعِقْدِ فُصِّلَ لؤلؤاً وزبرْجدًا ... فتقابلتْ أوْلاهُ مع أخْراهُ
دُرٌّ ترفَّعَ قدرُهُ عن قِيمةٍ ... منظُومةٌ كُبْراه مع صُغْراهُ

(١) واسم الحبيب ذكر وهو « على » .
(٢) الخريدة ١ /١٥ قسم شعراء المغرب ، بتحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم .

وفيما اختاره العماد شعرٌ يتلاعبُ فيه بأوزانه ، فيخرج عن تقليد الشعراء . من ذلك ما يقرأ على خمسة أوزان . وهو قوله :

وغَــزَالٍ مُشَنَّـــفٍ قد رنا لى بعد بُعْدِى
لما رأى ما لقيتُ
مثل روضٍ مفوَّفٍ لا أُبالى وهو عندى
فى حُبّه إذْ ضَنيتُ
وجهُهُ البدرُ طالعاً تاهَ لمّا حَازَ ودّى
فإننى قد شقيتُ
فى قضيبٍ مُهفهفٍ لذَّ فيه طُول وَجْدِى
جفا فكدتُ أموتُ
مانـعٌ غير مُعْسِفٍ ليس يأبىَ نقضَ عَهْـدِى
وليسَ إلاَّ السكوتُ
جائِرٌ غيرُ مُنْصِفٍ حالَ عمَّا كان يُبْدى
إنَّ الوصَالَ بُخوتُ

وفيه هذا التغير فى الأوزان شبيه بنظم الموشح .

ويمكن قراءته على صورة أخرى ليصبح على وزن « بحر الخفيف » .

وغزالٍ مُشنَّفٍ قد رَنَى لى بعد بُعْدِى لما رأى ما لَقِيتُ
مثل روضٍ مفوَّفٍ لا أُبالى وهو عندى فى حُبِّهِ إذْ ضَنيتُ
وجْهه البدرُ طالعاً تاهَ لمَّا حازَ ودّى ، فإننى قد شقيتُ
.... إلخ

ويمكن قراءته على وزن مجزوء الخفيف هكذا :

وغــزالٍ مُشنَّــفٍ مثل روضٍ مُفوَّفٍ
وجهه البدرُ طالعاً فى قضيبٍ مُهفْهَفٍ
مانعٌ غيرُ مُسْعِفٍ جائِرٌ غير منصفٍ

وقراءته على بحر المجتث هكذا :

لمَّا رأى ما لقيتُ فى حُبِّه إذْ ضَنيتُ

فإنّني قد شَقِيتُ جَفاً فكِدْتُ أموتُ
وليسَ إلاَّ السُّكُوتُ إنَّ الوصَالَ يخوتُ

والوزن الرابع بجزوء الرمل هكذا :

قد رثى لى بَعد بُعْدِى لا أُبالِى وهو عِنْدِي
تاهَ لمَّا حازَ ودّى لذَّ فيه طُولَ وَجْدِى
ليسَ يأبَى نقْض عَهْدِى مَالَ عمَّا كانَ يُبْدِى

وأما الخامِس فهو منهوك الرَّملَ — ولم يستعمله العرب . واستعمله المحدثون . يقول :

قد رَثى لِى بعد بُعْدِى
لا أُبالـــــى وهو عِنْدى
تــاه لمَّـــا حـــازودّى
لــــذَّ فيـــه طول وَجْدِى
ليسَ يأبَى نقض عَهْدِى
مال عمَّا كان يُبْدِى

وهكذا يمكن أن يكون رائداً لهذا اللون من النظم الذى عرف عند بعضهم بالقصيدة ذات الأوزان . وكل هذه محاولات للخروج على الإيقاع التقليدى إلى إيقاعات أخرى منوعة تناسب تنوّع الحياة الحضرية ، وما تسمعه الأذن من تعدد الألحان .

وربما كان ذلك أثراً من آثار انتشار الموسيقى والغناء وتعدّد مصادرهما من المشرق والمغرب ، مما جعل الأذن العربية تعتادُهذا التنوع ، وتملّ رتابة إيقاع البحور المعروفة فى الشعر العربى .

ولم يكن الأندلسيون ولا المغاربة أول من حاول تلك المحاولات فى الشعر العربى بل سبقهم شعراء عباسيون فى القرن الثالث ومحاولات أبى نواس وأبى العتاهية واردة فى كثير من كتب الأدب ... كما أشار مؤرخو الأدب إلى محاولات شعراء آخرين فى هذا السبيل .

ومن مجزوءاته المطربة المرقصة قوله :

يا ذا الذى كلّ يوم   يَزيدُ عَقْلِى خَبالاَ
دَلَّهْتَنِى بك حتّى   رأيت رشدى ضلالاَ
أدعو عليك وقلبى   يقول: ياربّ لا، لا

وهو فى شعره خفيف الظلّ ، أما ترى كيف نعتَ مغنياً لم يُعجبه فقال :

ولنا مُغَنٍّ لا يزا   لُ يغيظنا ما يفْعَلُ
صَلَفٌ وتيهٌ زائِدٌ   وتَبَظْرُمٌ وتَمحُّــلُ
غَنَّى ثقيلاً أولاً   وهو الثقيلُ الأَوَّلُ

وكنّا نأمل أن نمضى مع شاعرنا لو أسعفنا الحظ بديوانه أو عثرنا على قدر أوفرَ من شعره .

— ٥ —

شعراء وافدون آخرون

لقد توافد على مصر من صقلية والمغرب والأندلس جماعة من الشعراء فى هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس بلغ عددهم كثرةً ما يفوق الحصْر ، فقد ذكر الحافظ السلفى جماعة منهم فى معجمه ، كما ذكر العماد جماعةً نقلاً عن ابن الزبير والقاضى الفاضل وأمية ابن أبى الصلت كما ذكر ابن سعيد المغربى جماعة فى المغرب .

ولا يسعنا الحديث عن هؤلاء جميعاً ، فقد يتعذر ذلك لقلة حديث المؤرخين عن حيواتهم ، وشجعهم كذلك فيما يذكرون من أشعارهم .

وممن ذكرهم العماد[١] : **محمود بن عبد الجبار الأندلسى الطرسوسى**، وأبا الحسن عبد الودود بن عبد القدوس القرطبى — قال : أورده ابن الزبير فى كتابه من الطارئين على مصر . قال ابن الزبير :

« كان انتجَعَ مصر معتقداً أنه يُحمَدُ بها المرَادُ ، ويُنَالُ المراد ، فاتّفق لنكد الزمانِ، وخطّ الحرمان أن ورد بعض ثغور مصر ، وبها رجلٌ يُعرف بإسماعيل بن حميد المنبوذ بابن قادوس ، وكان ممن يهتم بالجمع والادّخار ، ويدين بعبادة الدّرهم والدينار، لا تندى حصاتُه ، ولا يظفرُ بغير الخيبة عُفاتُه ، ولا يَرشحُ له كفٌ ، ولا يُعرف له عرف ، إلاّ أن له رُواءً وجِدهْ ، وبنينَ وحفدَةْ ، يُطِمعُ الغِرَّ فى نوالِه ، ومنالُ النجّم دون منالِه ؛ فقصدَه عبدُ الودودِ بمدائحَ أرقّ سلْكها ، وأجادَ سَبْكها ، وتأنق فى وشيها وحبكها ، وظنَّ أنَّ سَهْمَه قد أصابَ الغرض وقَرْطَسَ ، وأنه يفوزُ بأكثر ما التمس ، فكانَ بارقُه خُلَّبا لا يَجُودُ بقَطْرَة ، وشرابُه سراباً بقَفْرَةْ . ولمّا تحقّق إكداءَ كدِّه ، وصلود قَدْحِهِ فى مدحِه . قال :

شَقِى رجالٌ ويشقَى آخرونَ بهم ... ويسعدُ اللهُ أقواماً بأقوامِ
وليسَ رِزْقُ الفتى من حسنِ حيلتهِ ... لكنْ جُدودٌ بأرزاقٍ وأقسامِ
كالصَّيْدِ يجرمُه الرَّامِى المجيدُ وقَدْ ... يَرْمى فُيرزَقُه من ليسَ بالرَّامى

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ /٣٣١ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٦ م .

وقال فى هجو ابن قادوس :

تسلَّ فللأيَّامِ بشرٌ وتَعبيسُ ... وأيْقِن، فلا النُّعْمى تدُومُ ولا البُوسُ
صَدِئْتَ على قربٍ وخُلقُكَ عسجَدٌ ... ومِلْتَ إلى لغوٍ ولفظُكَ تقديسُ

ومنها :

ترحَّلْ إذا ما دَنَّسَ العزَّ مَلْبَسٌ ... وغيرُك من يَرضَى به وهو ملبوسُ
وما ضاقت الدنيا على ذى عزيمةٍ ... ولا غرِقَتْ فلْكٌ، ولا نفقَتْ عيسُ
وكم من أخى عزم جفتْهُ سعودُهُ ... يموتُ احتراقاً وهو فى الماءِ مغموسُ
تُفَلُّ السيُّوفُ البيضُ وهى صوارمٌ ... ويرجع صَدْرُ الرُّمحِ، والرمحُ دِعْيسُ(١)
ولولا أناسٌ زُيِّنوا بسعادةٍ ... لما ضَرَّ تربيع، ولاَ مَرَّ تسديسُ
ولكنَّ فى الأفلاكِ سِرَّ حكومةٍ ... تحيَّرَ بَطليمُوسُ فيها وإدْريسُ
أفاضتْ سعوداً بالحجارةِ دُونَها ... يُطاف سُبوعاً حولها الغُلْبُ والشوسُ
وصارَ فلاناً كلُّ من كان لم يكُنْ ... ودانَ له بالرِّقِّ قومٌ مَنَاحِيسُ
فحقِّقْ ولا يَغرُرْكَ قولُ مُدَلِّسٍ ... فأكثرُ ما يدعو إليه نواميسُ
أفيقوا بنى الأيَّام من سِنَةِ الكرى ... وسيروا بسيرِ الدَّهر، فالدَّهر معكوسُ
هى القِسْمةُ الضِّيزى يَخَوَّلُ جاهِلٌ ... وذو العِلمِ فى أنشوطةِ الدَّهرِ محبُوسُ
وإرضاءُ ذِى جهلٍ، وإسْخاطُ ذى حِجىً ... نِعاجٌ مَياسيرٌ، وأُسْدٌ مفَالِيسُ
مُذِ العِلْمَ قِنطاراً بِفَلْسٍ سَعادةٍ ... عسَى العالمُ يَفْنَى فيمتلىءَ الكِيسُ
ومذْ لُقِّبَ القِرْدُ القصيرُ موفَّقا ... هَذَى الدَّهْرَ واستَولَتْ عليهِ الوَساوِيسُ
وقالوا: سديدُ الدولةِ السيِّد الرضى ... فأكْثِرَ حُجَّابٌ، وشُدِّدَ ناموسُ
وأعجبُ من ذا أن يُلَقَّبَ قاضياً ... وأكثر ما يُجْرى من الحُكْمِ تَلْبِيسُ
وأكثر ما نصَّ الحديثَ فكاذِبٌ ... وأطهرُ ما صَلَّى الصَّلاةَ فمنجوسُ
وأعرفُ منه بالفرائضِ راهبٌ ... وأفقَهُ منه فى الحكومةِ قِسِّيسُ
وما الغَبْنُ إلاَّ أن تُحكَّمَ نعجةٌ ... وضرغامُ أسْدِ الغابِ فى الغِيلِ مَفْروسُ
ومالىَ فوقَ الأرضِ مغْرِزُ إبْرةٍ ... وتُحمَلُ دمياطُ إليهِ وتنِّيسُ
مَصائِبُ من يسكُتْ لها ماتَ حَسرةً ... ومن ثِقلِها بَثًّا يمتْ وهو مَنْحُوسُ

---

(١) دِعْيسُ : طعَّان .
(٢) يقصد بذلك مهجوَّه ابن قادوس .

وفى جورِ هذا الدَّهرِ ما بأقلّهِ سيُضرَبُ فى أرجاءِ مكَّةَ ناقُوسُ
ويبتاعُ مِسْكاً بالخراءِ مُدلّسٌ ويُعبدُ خنزيرٌ ، ويُرسَلُ جامُوسُ
وقالوا: ابن قانُوسٍ تقدَّسَ كاسمِه ومــن هو قانُوسٌ؟، فلا كان قانُوسُ
أيا مَنْ غدا ضدًّا لكلِّ فضيلَةٍ ومن نجمهُ فى طالعِ السَّعْدِ منكوسُ

ومنها :

وقد قُلتها هجواً،وأنْفُكَ راغِمٌ فلا يَدْخُلَنْ ريبٌ عَلَيكَ وتلْبيسُ
أبا الفَضْلِ إن أصبحتَ قاضِىَ أمةٍ وللحكم فى أرْجاءِ ذكرِكَ تعْريسُ
فإنَّ قريضى بين أذنيكَ دِرَّةٌ وإنَّ هِجائى فى دُمَاغِكَ دَبُّوسُ
تجمَّعَ فىَّ الخيرُ والشَّرُّ جُملةً فخيرِىَ جبريلٌ ، وشرّىَ إبليسُ

قال العماد : أطاعه فى هذه القصيدة الطبع الجافى ، وجادَ بالكدر خاطِرُه الصافى . وأبان فيها عن رقة دينه وتهلْهلُه ، وعدمِ عبوسُ بُؤْسِه بشرّ الفضْلِ فى تهلُّلِه .

ومنهم :

القاضى الرشيد أحمد بن قاسم الصقلى :

قال ابن العماد(١) : من الطارئين على مصر القاضى الرشيد ، وكانَ قاضى قُضَاتِها فى أيام الأفضل ، فدخل يوماً إلى الأفضل وبين يديه دواة من عاج مُحلاةٌ بمرجان فقال :

ألِينَ لداوُودَ الحديدُ بقدْرةٍ يُقدّره بالسَّرْدِ كيف يُريدُ
ولانَ لك المرْجانُ وهو حجارةٌ على أنَّه صعبُ المرام شديدُ

وكان الأفضل قد أجرى الماءَ إلى قرافة مصر ، فكتبَ إليه يرجو إجراءَ الماءِ إلى دارٍ له بها :

أيا مولَى الأنام بلا احتشامِ وسيِّدَهُمْ على رَغْمِ الحَسُودِ
لعَبدكَ بالقرافةِ دارُ نُزْلٍ لموجُودِ الحياةِ أو الفَقيدِ
لموجودٍ يعيشُ بها لوقتٍ ومفقودٍ يُوارَى فى الصَّعيدِ
وفى أرجائِها شجرٌ ظِماءٌ عُدِمْنَ الحسنَ من ورقٍ وعُودِ

فمُذْ غدتْ المصَانِعُ ممتعاتٍ عُدِمْنَ الرِّىَّ من زَمَنِ الوُجُودِ
يَقُلْنَ إذا سَمِعْنَ شَجَى السَّواقِى مَقَالَةَ هائِم صَبٍّ عَمِيـدِ
أرى ماءً وبى عَطَشٌ شديدٌ ولكن لا سبيلَ إلى الوَرُودِ

وله فى الغزل :

إنْ لم أزركِ ولم اقْنَعْ بِرُؤْياكِ فلِلْفُؤادِ طوافٌ حوْلَ مَغْنَاكِ
يا ظبيةً ظِلْتُ من اشراكها علِقاً يَوْمَ الوداعِ ولم تعلَقْ بأشْراكِى
رعيتِ قلبى وما رَاعيتِ حرمتَه يا هذه كيف ما راعيتِ مَرْعاكِ
أتحرقينَ فؤاداً قد حَلَلْتِ بهِ بنارِ حُبِّكِ عمداً وهو مأواكِ
ما نفحةُ الريحِ من أرضٍ بها شَجَنِى هلْ للمحبِّ حياةٌ غيرُ ذكراكِ

وواضح مُمَاتنتُه للرضىّ فى قصيدته « يا ظبية البان » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعى الأصم[1] :

وهو ممن ذكرهم ابن الزبير فقال : كان جيد الشعر ، وارى زناد الفكر لكنه منحوس الجدّ . ورد إلى الإسكندرية ومصر ، وأقام بها زماناً لا يجدُ من يروى ظمأته ، ولا يسدُّ حاجته ، وعاد إلى المغربِ فى غير أوان سفر المركب ، فسار راجلاً نعله مطيته ، وزادُه كُدْيتُه إلى أن وصَلَ إلى قومٍ يعرفون ببنى الأشقر فى طرابلس الغرب ، فامتدحهم بالقصيدة الميمية التى أولها :

« تُرى فاضَ شؤبُوبٌ من الغَيْمِ ساجم »

فأحسنوا صِلَته ، وَعَظَّمُوا جائزته . وَلم أدرِ ما فُعِلَ به بعد ذلك .

فمن قصيدته الميمية تلك :

ترى فَاضَ شؤبوبٌ من الغيم ساجِمُ وأومضَ مشبوبٌ من البرقِ جَاحِمِ
وماذا النّدى والوقتُ بالصيف حائِمٌ وماذا السَّنَى والجوُّ بالليلِ فاحِم
فما هذه مُزْنٌ ، وما ذِى بوارقٌ ولكنَّها أيمانكُـمْ والصَّوارِمَ
بنو الأشقر استعلَوا بحقٍّ على الورَى كما لم يَزلْ فوقَ الكعوبِ اللَّهَاذِمُ

(١) الخريدة ١ /٣٣٧ قسم شعراء المغرب .

وهكذا يمضى فى مديحه التقليدى[١] .

ويبدو أنه قصد الأفضل بن بدر الجمالى ، لكنه لم يحظ عنده بما أراد ، فغادره وغادر البلاد ناعياً حظه ، وقلة سعده . ويورد له العماد بيتين فى الأفضل يقول فيهما :

مَلِكٌ أنتَ أم مَلَكٌ ... حَارَ طَرفٌ تأمَّلَكْ
أنتَ إنْ أسعِدَ الوَرَى ... فلكٌ مسعدٌ فلَكْ

ومن غزله قوله :

لما استرقَتْهُ من عيونِكَ بابِلُ ... بما عُلِّمَتْ من مُقْلَتيكَ المناصِلُ
بوجْهِكَ ماءُ الحسْنِ فى صفحاتِه ... كذكركَ مِنّى فى الضمائرِ جائِلُ
تخذونى على التجريبِ عبداً فإنْ أكُنْ ... أُخالِفُ أمراً فاطّراحٌ مِعاجلُ
فما طُوِيَتْ إلا عليكمْ جوانِحٌ ... ولا بُسِطَتْ إلاَّ عليكم أنامِلُ

وله يشكو حاله وقلة ذات يده[٢] :

مضَى الناسُ يستَسْقُونَ من كلّ وجهةٍ ... إلى كلِّ مَسْمُوعِ الدُّعاءِ مُجابِ
فوافاهُم الغيثُ الذى سَمَحْت به ... لهمْ بعد طُولِ المنعَ كلُّ سَحابِ
وفى ظنّهمْ أن قد أجيبَ دُعاؤُهم ... وما علموا أنى قد غَسَلْتُ ثيابِى

على بنّ إسماعيل القلعى :

ومن مواطنى أبى عبد الله المذكور **على بن إسماعيل القلعى** أيضاً ويلقب بالطّميش من الواردين على مصر كذلك فى القرن السادس . وقد عاصر أحداث مقتل أحمد بن الأفضل الجمالى أيام الحافظ .

قال ابن الزبير ـــ فيما نقله عنه العماد[٣] ـــ : « من الواردين على مصر من أهل العصر وله حين قتل ابن الأفضل أبو على بعد حبسه الحافظ ، وإلقائه فى نفوس شيعته بذور الحفائظ ... واستيلائه على المملكة سنةً يدعو إلى القائم

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩ .
(٣) الخريدة ١ /٣٤١ قسم شعراء المغرب .

المنتظر . ونقش اسمه على الذهب الأحمر ، ثم احتيل عليه فاغتيل وجان القبيل ، فكان القتيل ، وأعيد الحافظ بعد ضياعه ، وأذن ذلك بتأهيل رباعِه ، وتطويل باعه فنظم (الطميش — لقب الشاعر) فيه قصيدة منها(١) — قال :

ولا بدَّ من عَزْمٍ يُخَيَّلُ أنَّنِى قَدَحْتُ على الظَّلْماءِ من بَدْرِه فجرا
يجوبُ ظلاماً كالظليم إذا سَرى إذا جَنَّ جونٌ كان بيضته البُدرا
وليل صحبت السيفَ يرعد حدُّه وقد شاب فيه مَفْرِقُ الصعدةِ السُّمْرا
حملتُ به درعى وسيفى وإنما حملْتُ غدير الماءِ والغُصْنَ والنَّهْرا
وأشقَرَ ورد اللَّوْنِ لولا انتسابُه إلى البرقِ سيْراً خِلْتَه المِسْكَ والهجرا
إلى أن بدا وجه الصباحِ كأنَّه لحافظ دين الله آيته الكبرى(٢)

ومنها :

وقد كان دين الله بالأمسِ عابساً لجرَّاهُ حتَّى لاح فى وجهه بشرَا
وكان عليًّا حين كان الذى طغى معاويةٌ والحارثىُّ له عَمْرًا

يشير إلى مقتل علىّ ابنِ أبى طالب ونجاة معاوية وعمرو بن العاص من القتل فى الفتنة الكبرى بعد صِفِّين .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة .

أصله من بجاية ، وكان مقامه بالإسكندرية ، ثم مصر والصعيد والريف وهو القائل :

لى حُرْمَةُ الضَّيفِ لو كُنْتُمْ ذَوِى كرمٍ وحُرْمَةُ الجارِ لو كُنْتُمْ ذوى حَسَبِ
لكنكم يابنى اللَّخناءِ ليسَ لكُمْ فَضْلٌ ولا أنتمُ من طينةِ العَرَبِ
كم لا أزالُ على حالٍ أُساءَ بها منكم وأُغْضِى على الفحشاءِ والرِّيَبِ
لأتركنَّ لكم أرضاً بكم عُرِفتْ فأخبثُ البُوم يأْوِى أخبثَ الخَرِبِ
وما مقامِى بأرضٍ تسكنونَ بها مِنِّى يَطِيبُ . ولكن حرفةُ الأدبِ

---

(١) ذكر العماد أن ابن الزبير قال هى منسوبة إليه مما ادّعاها .
(٢) وعلق العماد على الأبيات بقوله : استغفر الله من ذلك ، فإنه لم يكن حافظاً وإنما كان مُضَيِّعاً — ومعلوم أن العماد كان سنياً مخالفاً فى مذهبه للفاطميين .

ومنهم علي بن يقظان السبْتي[1] .

من مدينة سبتة ، قال عنه العماد : شاعرٌ أديبٌ ، متطببٌ . ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، وقال : ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق .

ومن سبته وفد إلى مصر **ابن شقرق السبتي.**

ومن شعره وقد كتب به إلى صديق :

دَعْنِي أطيلُ تأسُّفِي وتفجُّعِي ... قلبي غداةَ البَيْنِ جِدُّ مُوَدِّعِ
ذَهبتْ بِبَيْنِهِمُ القطارُ فأصبحتْ ... كبِدِي وقلبي يجريانِ بأدْمُعِي
أسَفِي على زمنِ الوصَالِ كأنَّنِي ... لم أستظِلَّ بظلِّهِ في مَرْبعِ
فلأمنعنَّ الجفنَ من طعم الكرَى ... أسفاً على ذاكَ الزَّمانِ الممْرِعِ
ولأحْفَظنَّ العهْدَ من خِلٍّ نأى ... بعد التآلُفِ والودادِ الممتِعِ

ومنها يصف السفينة :

فارْكبْ على اسمِ اللهِ مَتْنَى رَكُوبةٍ ... خضراءَ تسبَحُ فوقَ لُجٍّ مُتْرعِ
تخذَتْ جناحاً مثلَ قلبي خافقاً ... وحَوتْ قوادِمَ كلِّ طيرٍ مُسْرِعِ
تَسْرِي وتزجيها الرِّياحُ إذا سَرَتْ ... وتمرُّ مرَّ العَارضِ المتَقَشِّعِ
تستَعذبُ الملحَ الأجاجَ لدى الظَّما ... مهما العطاشُ ورَدْن عَذْبَ المشْرَعِ
وكأنَّما ركبانُها أبناؤُهــــا ... تحْنُو عليهم رأفةً بالأضْلُعِ
وكأنَّما الملاَّحُ فيها آمِـــرٌ ... يُمضِي أوامِرَهُ لأولِ مَوْقِعِ

(١) الخريدة ١ /٣٤٤ .

- ٦ -

مجبر الصقلى (توفى قبل سنة ٥٤٠ هـ)

هو مجبر بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجبر الصقلى .

الصقلى المولد ومن الوافدين إلى مصر بعد الأحداث التى مرت بها صقلية بين النورمان والعرب والعرب أنفسهم .

وفد إلى الإسكندرية كغيره من المغاربة والصقليين بحراً ، والتقى ببعض علمائها ، وجلس إلى محدثها السلفى الحافظ ، وترجم له هذا فى معجمه قال : إنه من أهل الأدب البارع والشعر الرائع .

وكان انتقاله إلى مصر سنة ٤٨١ هـ فى خلافة المستنصر ، وكانت سنة السابعة عشرة . وذكر السلفى أنه كان يحضر عليه ويأخذ عنه . وينشده مجبر بعضاً من شعره ، فيقيده السلفى عنه .

وشهد السلفى له وهو شاب بأنه كان صائناً لنفسه غير متبذّل ووصفه بأنه من فحول الشعراء .

وذكر العماد أن القاضى الفاضل ذكره بين شعراء المغرب والأندلس الوافدين إلى مصر ، وأنه « قرّظه بالفضائل » .

قال العماد(١) : « وهو صقِلِّىُّ النِّجار ، مصرىُّ الدار ، وهو قريب العصر ، توفى قبل الأربعين والخمسمائة . قال : قال ابن الزبير : يُنقل إلى المصريين بحكم أن نشوءه واشتهاره بمصر . غزير موارد الفكر ، وارى زناد القريحة » .

ولا ندرى كم مكث بالإسكندرية ، ولنفترض أنه أتم بها القرن الخامس وانتقل إلى الفسطاط والقاهرة فى أوائل القرن السادس ، وكان سلطان الأفضل قد بلغ قمته ، فقد ولّى المستعلى ابن أخته الخلافة ، وحارب نزاراً بن المستنصر حتى اختفى من مسرح النزاع . وظل اتباعه النزارية يتعقبون الوزير الأفضل حتى قُتِل بيد أحدهم .

---

(١) خريدة القصر ٢ /٨٣ قسم شعراء مصر .

وفى هذه الفترة من استبداد الأفضل بأمر السلطة كان بلاطه مآلاً لكثير من الشعراء مصريين ووافدين ، وهكذا انضم مجبر إلى ركبهم فى رحاب الأفضل قال الصيرفى(١) : « أحد شعراء المجلس العالى المالكى ثبّت الله سلطانه » يعنى مجلس الأفضل .

وبعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ اتصل بالوزير الذى جاء بعده وهو المأمون البطائحى ومدحه .

واتصل ببعض كتاب المصريين ومدحهم(٢) .

ومن مدائحه فى الأفضل التى رواها الصيرفى(٣) :

شعرٌ أرقُّ من النَّسيم حواشياً ... لم تَرْوِ حوشيَّ الكلام رواته
نُظِمتْ لشاهنشاه منه قصائدٌ ... قَصِدَتْ مدائِحهُ بها وصفاته
فأتى بديعاً فى بديع أطمعتْ ... ألفاظُهُ ، وتمنّعتْ طرقاته
كالرُّوح يُدْرَك بالحقيقةِ فعلُه ... وتغيب عن أهل البصائرِ ذاته

ويقول فى وصف خيمة الفرج التى أقامها فى مناسبة وفاء النيل وكسر الجسر :

وبيضٍ خيامٍ يهتدى الرَّكبُ فى الدُّجى ... بها حينَ تخفى النيرّاتُ وتحجبُ
تبوأت منها خيمة الفرج التى ... لِراجيكَ فألٌ فى اسمها لا يُكذَبُ
فتاة على إيوانِ كسرى وتاجه ... رواقٌ لها فى ظِلِّ مُلْكِكَ يُضرَبُ
عَلاَ وعَلَتْ ، فاستوفَتْ الجَوُّ هَالَةً ... بها مِنك بدرٌ بالبهاءِ مُحَجَّبُ
يكادُ من الإحكامِ صَافِنُ خَيلِها ... يجُولُ وسَاجِى وحْشِها يتوثّبُ
ويوم كيوم الجِسْرِ هولاً وشِدَّةً ... يُرَى الطِّفْلُ فيه خيفَةً وهو أشيبُ
سَفَرْتَ به عن وجه جذلانَ ضاحِكٍ ... وللشَّمسِ وجهٌ بالعجاجِ مُنَقَّبُ
وأسْمَرَ عسَّالِ الأنابيب قد سَطاً ... على الأسْدِ منه فى يمينكَ ثعلَبُ
أخو الصِّلِّ شِبْهاً ماله الدَّهْرَ مذْنأى ... عن التُّربِ إلاَّ فى الترائبِ مشْرَبُ

---

(١) الأفضليات ١٠٩ .
(٢) الذخيرة ٢ /٨٣ .
(٣) الأفضليات ١٨٠ ، والذخيرة ٢ /٨٦ .

ومنها قصيدة لم يذكر العماد ــ متعمداً غالباً ــ الممدوحَ ، لكنَ القول يرشح أنها فى الأفضل ، وقد جاء ذكره تلميحاً فى أثنائها . وبدأها بذكر الشراب مقتفيا صنيع أبى نواس ، يعقبه بالغزل ثم المديح فيقول :

إملأْ كؤوسَكَ بالمدامِ وهاتِها ... إنَّ الهَوَى للنَّفسِ من لذَّاتِها
اصْرِفْ عن المشتاقِ صِرفَ مُدَامَةٍ ... رَشْفُ الرُّضابِ أَلَذُّ من رَشفَاتِها
وأحلُّ أشْرِبتى وأحلاها التي ... أمست ثغُور البيضِ من كاسَاتِها
ومَريضةِ الأجفانِ رَامتْ فى الهَوَى ... قتلي ، فهانَ عليَّ فى مَرْضَاتِها
مازلْتُ أصفحُ فى القِلَى عَنْ جُرْمِهَا ... وأغُضُّ فى الإعراضِ عن هفواتِهَا
حتَّى تَوَهَّمَتُ الصُّدُودَ زيادةً ... فى حُسْنِها عندى ، وفى حَسناتِها

يقول فيها :

ما خِلتُ أنَّ النفسَ يَنكُدُ عَيْشُهَا ... حتى يكونَ الموتُ من شَهَواتِها
أستَودِعُ اللهَ القِبابَ وأوْجُهاً ... فيهنَّ كالأقمارِ فى هالاتِهـا
والوَرْدُ يَحْسُدُ نرجساً وبنفسجاً ... فى شُهْلِ أعيُنِها ولُعْسِ لِثاتِها
تِلْكَ الرِّياضُ اللاءِ ما برحَتْ يَدِى ... تجْنِى ثمارَ الوَصْلِ من وجناتِها
ولرُبَّ قافيةٍ شَرودٍ شرَّدَتْ ... نومى فبتُّ أجُولُ فى أبياتِها
حتَّى وردْتُ من التأسُّف بَعْدَها ... ناراً دُمُوعَى الحمرُ من جَمراتِها
مازِلْتُ أنْظِمُ طِيبَ ذِكْرِكَ عنبراً ... أرجاً خلال الدُّرِّ من كلماتِها
حَتَّى إذا نشَرَ الصَّبَاحُ رِدَاءَه ... عن مثلِ نفَحِ المسْكِ من نفحَاتِها
وتمثَّلتْ عقداً تَوَدُّ كواكبُ الجو ... زَاءِ عقدتَــه على لَبَّاتِهـــا
أعدَدْتُها للقاءِ مجْدِكَ سُبْحَةً ... أدْعُو بها لأنالَ من بَركاتِها
ومدائِح الكرماءِ خيرُ وَسيلَةٍ ... شُفِعتْ بها الآمالُ فى حاجاتِها
وأحقُّهَا بالنُّجح مدحُك إنَّهُ ... لِلنَّفسِ عند اللهِ من قُرُباتِها
فاليومِ أنثرها جواهِرَ حِكمةٍ ... عَقُمتْ عَذارَى الشِّعرِ عن أخواتِها
فالْبَسْ بها حُلَلَ الثناءِ فإنَّها ... حُلَلٌ تروقُ عُلاَكِ فى بدَناتِها
وافْسِحْ لنا فى لثمِ بُسْطِكَ إنْ أبتْ ... يُمْنَاكَ إلاَّ شُغْلَها بِهِباتِهـا
قَسَماً بمن قسَمَ الحظوظَ فنلتَ أفضَلَها ، ونالَ النَّاسُ من فَضَلاتِها
وبنَى العُلاَ رُتَباً فكنتَ بفضْلِهِ ... أوْلى من استَوْلى على غاياتِها

لَوْلَا وُجُودُكَ فى الزّمانِ وجـــودُكَ المحيى المكارمَ بَعْدَ بُعْدِ وفَاتِهـــا
لم يُعرفُ المعرُوفُ فى الدنيَا ولَوْ طُفنا عليهِ فى جميع جهاتِها

وقد شكى فى هذا الجزء أول الأمر من ضيق العيش ، عرضاً ، وجاء به فى أثناء الغزل والنسيب ، وغزله هنا غزلٌ حضرىٌّ ، وإن مازجته بعض العبارات والألفاظ البدوية ، وهذا طبيعي فى الشعر العربى ، يجرى على لسان الشاعر من محفوظه .

وحديث التشبيه بالأزهار فى الغزل حديث حضرىٌّ ، ورثه عن مبدعى بغداد فى القرن الرابع ، وعن شعراء الأندلس الذين أغرموا بالطبيعة وورودها ونورها وزهرها . وكذا ما اعتاده المصريون من الإكثار فى شعرهم عن الطبيعة من ذكر الزهر والنّور .

وأظنه استحضر ابن الرومى فى بعض أبياته التى مزج فيها بين المرأة والروض .

ويهتم الشاعر بوصف قصيدته بأنها عذراء ، وأنها شرودٌ ، غريبةٌ ، لا يماثلها شعر فى غرائبها ، وهى عقدٌ يَنْتَظِمُ جوهر المعانى فى مديح الممدوح ، وتودُّ الكواكب أن تكون خرزات هذا العقد . وكلها معانٍ تداولها الشعراء وخاصة أبو تمام ، ولكن الشاعر أغرب هنا فى وصف قصيدته بالسُّبحة يدعو بها لينال من بركاتِها . وبركاتها بالطبع ما يجود به الممدوح من عطاء !.

ويروى العماد من شعره هذه الأبيات اللامية عن مجموع ابن الزبير(١) :

أتُرى يُضيق من الصَّبابة عاشِقٌ قَذفَتْ به الأهواء فى الأَهْوالِ
مُغْرًى بحبّ الغانياتِ ، هَفَتْ به هيفُ الخصُورِ ، ورُجّحُ الأكفالِ
غِرسَ القضيب على الكثيب بقدِّها فأتتْ بميّادٍ على مُنْهـــالِ
تتـردَّدُ الأبصارُ فيها حَيرةٍ فى الحسن بين الخالِ والخلْخالِ
غَرَّاءُ غرَّتْها الشَّبيبةُ فاكتستْ تيهَ الدَّلالِ وعِزَّةَ الإذلالِ
ممكورةٌ مكرتْ بقلبي والهَوى يستضْعِـفُ المحتـال للمِحْتَـالِ

---

(١) الخريدة ٢ /٨٢ .

حَلَّتْ مواشِيَّ الوفَاءِ وحَلَّلَتْ   فى الحبِّ قَتْلِى ، وهو غير حَلالِ
قالوا تَسَلَّ ، وبِئْسَ ما أمرُوا به   بُؤْسُ المحبِّ ، ولا نعيمُ السَّالِي
قلبى من الأجْوادِ إلاَّ أنَّهُ   فى الحبِّ معدُودٌ من البُخَّالِ
سُقيتْ لياليِنَا برامَةَ ، والهَوى   حُلْوٌ ، وأيام الشَّبابِ حوَالِى
والجِدّةِ العِشْرينَ عِنْدى ثَرْوةٌ   تُغْنِى هُنَيدَةَ عن هُنَيْدَةِ مالِى(١)

يقول فيها ؛ من المديح :

غيثٌ من الإحسان ما ينفَكُّ مِنْ   مَعْرُوفِهِ فى وابِلٍ هَطَّالِ
وسحابُ جودٍ كلَّما ضَنَّ الحيَا   بالماءِ جادَتْ كَفُّهُ بالمالِ
نادَى بحىَّ على النَّدى ، فأجابَه   بالحمدِ كلُّ مخالفٍ ومُوالِى
وأقرَّ معترفًا بشابتِ فَضْلِه   من لا يُقِرُّ بمبْدِع الأشكالِ

وصنعة البديع فى هذه الأبيات واضحة ، وغرامه بالتجنيس لا يحتاج إلى تنبيه وإشارة ، وقد لاحظ هذا الغرام ابن الصيرفى عندما عرض لقوله(٢) :

غارُوا فغَارَ الحُبُّ فيهم قَمرٌ   هويتُه ، أفَلا أبكى وقَدْ أفلا

قال ابن الصيرفى : والمتقدمون يسمُّون هذا تجنيس المماثلة ، وقومٌ يعبِّرون عنه بتجنيس اللفظ والخط .

ويبدو أن مجبر قد حاذَى أبا تمام فى صنعة التجنيس ، وأراد تقليده ، وبخاصة عندما لقى هذا اللون من الصنعة ترحيباً فى عصره ، وآثره بعض شعراء المرحلة وبخاصة شعراء الشام على ما أشرنا .

وجمع إلى التجنيس التورية ، وكان بعض شعراء المصريين قد أولع بها ونقل هذا القاضى الفاضل ، وصارت التورية فنًّا بديعيًّا غلب على المصريين خاصة ، كما غلب الجناس على الشوام خاصة .

ويشير ابن الصيرفى إلى التورية فى قوله :

فسَقَى مَحَلَّ الجزْعِ من مَحْلٍ به   غيثٌ تدورُ على الرُّبا كاسَاتُه
سفحٌ سفحتُ عليه دمعى فى ثرىً   كالمِسْكِ ضَاعَ من الفتَاةِ فُتاتُهَ

(١) هنيدة الأولى تصغير هند من أسماء النساء ، وهنيدة الثانية اسم يطلق على المائة من الإبل .
(٢) الأفضليات ص ١١٠ .

قال ابن الصيرفي[1] : فقد ورّى بضاعَ من الضَّياعِ عن ضَاعَ من التَّضوُّع وإلى هذه التورية ، فاستخدامه الجناس واضحٌ في محلّ ومَحْل ، وسفحٌ وسفحت ، والفتاة والفُتَات .

ويروى له كذلك بيتاً من أبيات قالها بمناسبة زيارة ملك غانة لمصر في طريقه إلى الحج ، واستقبال الأفضل له واحتفائه به . قال :

كذا يجيبُ دُعاءَ اللهِ من عَرفَهْ ... من غانةٍ غايةِ الدُّنيا إلى عَرفَهْ

فانظر كيف جَانَسَ بين عَرفَه الفعل وعرفه اسم الجبل ، وبين غانة وغاية .

ومن مديحه في الأفضل :

بأيِّ لِسانٍ من معاليك أعربُ ... وفي كلِّ إحسانٍ في معانيك تُغْرِبُ

يقول فيها :

هصُورٌ له السَّرْدُ المضَاعَفُ لِبْدةٌ ... لَدى الحربِ ، والعضْبُ اليمانيُّ مِخْلَبُ

وهي التي وصف فيها خيمة الفرج كما أشرنا . وفيها تشبيهاتٌ مجدَّدة لآلة الحرب .

ويعجب ابن العماد بقوله في أول قصيدة مشبها البرق :

أترى السحابَ الجونَ باتَ مشوقًا ... يبكي النَّوى ويعاتبُ التَّفريقا
فالبرقُ يلْمَعُ في حَشاهُ كأنَّهُ ... قلبُ المحبِّ تَلَهُّباً وخُفوقَا

وعلى ذكر البرق ، فإنه كرر ذكره في قصيدةٍ أخرى ، وصوره صورة مخالفة بل صوراً متعدّدة متتابعة حيث يقول[2] :

أرأيتَ برقًا بالأبارقِ قد بَدا ... في أُفْقِهِ متبسِّماً مُتوقِّدا
كيفَ اكتسَى ثوبَ السَّحابِ مُمسَّكًا ... وأحالَهُ شَفَقُ الرِّداءِ مُورَّدا
وكأنما في الجوّ كأسٌ كلَّمَا ... فاتَتْ نمير البرْقِ صاح وعَربدَا
أو مرهفٌ كشفتْ مداوسُ صَيقَلٍ ... عن متنِهِ صدءًا لكي يروى الصَّدى
كالحبِّ أو رقِّ اللُّجَيْنِ يَسيل من ... أُفقٍ أحَالَتْه البوارقُ عسْجَدَا
وكلؤلؤٍ للغيثِ يأخذهُ الثرىَ ... فيعيدُه نبتاً يُخالُ زَبرْجدا

(١) الأفضليات ص ١١٣ .
(٢) الخريدة ٢ /٨٦ .

ويستحضر بهذه التشبيهات بعض التشبيهات المتوارثة فى الشعر القديم تقول الشاعر يصف البرق :

يبدو وتحجبه التلاعُ كأنَّه   سيفٌ يُسَلُّ على الظلام ويُغْمَدُ

وفى معانى الحب والتشوق نجد له ما يعجب من التصرّف المبدع كأن يقول :

لَوْلاَ الهوَى ما عبَّرتْ عَبراتُه   عنَ وجْدِهِ وتَصاعدتْ زفراتُه
فرقُ الفراق أطارَ حبَّةَ قَلْبه   فتقطعْتْ بمُدَى النَّوى عزَماتُه
منْ كانَ وحْيُ الحبِّ بين ضُلُوعِهِ   نزلتْ بفيضِ دموعهِ آياتهُ
لا تنكروا حمر الدُّمـوع فإنَّـه   جمرُ الأَسَىٰ وتنفُّسِى نفحاتُهُ

وله أبياتٌ رقيقة فى وزنٍ وايقاعٍ خفيفين ، وقافية تَنْتهى بياءٍ مفتوحة وهاء ساكنة . يقول فيها(١) :

طرقـتْكَ غير مُخْتفَيـهْ   غادةٌ بالحسْنِ مُرتَديَـهْ
ووشَى طيبُ النسيم بها   قبْلَ أن تبدوَ فُقلْتُ هَيَهْ
ثمّ لما أقْبلتْ طلعَتْ   مِثلَ قرن الشمْسِ مُغْتَليهْ
يا لقومِى من لواحِظِها   إنّهـا بُرْئى وعِلَّتِيـهْ
واصَلَتْ ليلى ونَفَّرَهـا   أنْ رأتْ صبْحاً بوفْرَتِيَهْ
إنَّ صبحَ الشَيبِ أيقظنى   من كرى عَيْنى وغفلَتيهْ

وهكذا ، فإن ما وصلنا من شعر مُجْبِر القليل ينبىءُ عن شاعرٍ مجيد ، تنشْأ على فنّ الشعر فى الأندلس ، ومزج بينه وبين فنونه بالمشرق ، وتحلّى برقة المصريين وإبداعهم .

---

(١) الخريدة ٢ ص ٨٧ .

ملامح شعر الوافدين المغاربة والأندلسيين :

لشعر الوافدين من المغرب ملامح عامة تكاد تتكرر فى كلّ أشعارهم ، ومن أظهرها الإحساس بالغربة ، وألم الفقر والحاجة ، والشعور بآلام الاضطرار للسؤال وطلب الجدوى .

ومنها وصف الرحلة ، والبحر ، والسفن وهول ركوب البحر ، وشكوى الزمان ، والشعور بعدم الاطمئنان إلى الحياة والناس ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما أصاب بلادهم من اضطراب ، واضطهاد وحروب وغارات للفرنجة والنصارى والنورمان فى صقلية . وما أرتكب فى المعارك من قتل وتعذيب وتشريد .

وقد استقبلت مصر منهم أعداداً كبيرة خلال القرون من الخامس إلى السابع . وجاءوا معهم بكثير من علوم الأندلس وآدابها ، كما جاءوا بفنونهم ، وبعض عقائدهم . وكان من بين ما جاءوا به إلى مصر التصوف المغربى .

كذلك وقد معهم الموشح ، وتأثر المصريون بموشح الأندلسيين فنظموا على شاكلته . وبدأ الموشح المصرى يأخذ طريقه إلى النظم منذ أخريات القرن الخامس ، وطوال القرنين السادس والسابع . وقد وقفنا على صور للموشح عند ظافر الحداد ، وهو سكندرى ، اختلط بالأندلسيين والمغاربة الذين كثروا بالإسكندرية على عصره ، وربطت بينه وبينهم روابط أدب وعلم .

وكان من بين من تعرف عليهم وتأثر بهم أمية بن أبى الصلت ، وكان لأمية تلاميذ آخرون من الإسكندرية أخذوا عنه .

ومن ملامح شعر الوافدين التجديد فى الصياغة ، على نحو يبدو غريباً فى بناء الصورة على غير المعهود فى الشعر العربى المشرق ، والذى كانت تقاليده الفنية سائدة فى الشعر المصرى إلى القرن الرابع .

وكثرت فى تعبيراتهم الألفاظ والتراكيب العامية أو غير الفصحى . ربما كان ذلك تأثراً بالموشح والزجل . كما حاول بعضهم إيقاعات جديدة تخرج عن نمط العروض العربى المعروف بأوزانه وضوابطه التى حافظ عليها المشارقة .

وكثر تشبيههم بمظاهر الطبيعة من شجر وماء وزهر ونجوم وسماء وإن كانوا يتصرفون فى تشبيهات القدماء واستعاراتهم الجارية فى الشعر حتى تلبس ثياباً جديدة من اللفظ تخرج بها عن معتاد الصياغة فى شعر المشارقة .

وقد أثرى الوافدون المغاربة الشّعر المصرىّ فى هذه المرحلة ، بما أشاعوه فيه من هذه العناصر التجديدية فى اللفظ والمعّانى ، والأخيلة والتراكيب .

وأضافوا إلى التجارب الفنية فى شعر المشارقة والمصريين تجاربهم الخاصة التى عاشوها فى بلادهم الغنية بالثقافات والتى تغاير إلى حد كبير ثقافات المشرق ، واستطاعوا أن يصوغوا هذه التجارب فى القوالب التقليدية للشعر وإن حاولوا أن يخرجوا على الأُطُر الموروثة من حيث التمسك الصارم بشكل القصيدة ، وإيقاعاتها ، وقواعد الوزن والقافية .

كذلك حاولوا الإفلات من أسر التجارب المشرقية التى غلب عليها الشعر الجاهلى بصياغاته ، وصوره الصحراوية وأخيلته وتراكيبه .

وكان أثر هذا كله واضحاً على الشعر المصرى فى القرون السادس والسابع والثامن .

الفصل الثامن
شعراءُ مصريون من القرن السادس

١ـ حسن بن زيد الأنصارى
٢ـ ابن النضـــر
٣ـ داود بن مقدام المحلّى
٤ـ ابن الضيــف
٥ـ ابن الكيزانـى

بدأ القرن السادس باضطراب أحوال الخلافة الفاطمية ، والذى بدأت أسبابه تظهر فى أخريات القرن الخامس . وكان من عوامله الدسائس المتبادلة بين أنصار العباسيين والفاطميين ، وضغط الروم ، والصليبيين على الدولتين ، والخلل السياسى والإدارى الذى أصاب الخلافة بالضعف ، وأطمع كثيرين من المتطلعين للسلطة . وكان لبدر الجمالى وابنه الأفضل — على قدر ما سيطرا على مقاليد الحكم دور فى هذا الاضطراب الذى أصيبت به الخلافة الفاطمية ، لما أبدياه من المظالم والاستبداد ، والميل إلى الانفراد بالسلطة ، والتقليل من دور الخلفاء ، مما أطمع فيهم كلَّ مغامرٍ يقتنص الفرصة للظفر بالسلطة .

لقد قتل الأفضل بتدبير من الآمر كما يقال ، أو بتآمر النزارية انتقاماً . ومن بعده اضطراب الأمر وتعاقب الوزراء والقادة على السلطة ، وصار الخلفاء لعبة فى أيديهم كما كان الحال فى بغداد .

وكانت قوة السلاجقة وأتباعهم من آل زنكى قد بدأت تظهر بشكل واضح بالعراق والشام . حتى انتهى الأمر بمقتل زنكى وتولى السلطان محمود ، وفى عهده انتهت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة أسد الدين شيركوه للصليبيين فى مصر واستيلائه عليها تحت إمرة نور الدين محمود . ومن بعده خلصت لصلاح الدين .

وقد شهد القرن الخامس كثيراً من الشعراء المقيمين بمصر والوافدين ، بعضهم شارك فى الأحداث ، كابن منقذ وعمارة اليمنى ، وابن رزِّيك .

وقد سجّل شعر هذا القرن بعض أحداثه فى مصر وخارجها ، فضلاً عن الموضوعات التقليدية من مديح وهجاء ووصف وغزل .

وعرف فى هذا القرن كالقرنين السابقين جماعة ممن نظموا الشعر من كُتَّاب الدولة،ولم يقتصر قول الشعر على المحترفين المجتدين . فقد كان من الشعراء فرسان كابن منقذ ووزراء كبار كابن رزِّيك .

واستمر الشعراء الوافدون من المشرق والمغرب فى وفادتهم إلى مصر قاصدى الحج راغبين فى نيل الجائزة ، وكان أصحاب السلطة والجاه فى الدولة ، جنباً إلى جنب مع الخلفاء ينعمون على الشعراء ، ويجزلون العطاء ،

لأن الشعر كما قلنا كان أداة إعلام واسعة الانتشار ، يحرص كل صاحب مصلحة أو نفوذ على أن يلهج الشعراء بذكره فيسير فى الآفاق مشرّقاً ومغرّباً .

ولما كان القرن السادس قسمة بين الفاطميين والأيوبيين فى مصر والشام ، فقد كان الشعر والشعراء كذلك قسمة بين الدولتين ، بعضهم خلص للفاطميين ، وبعضهم الآخر خلص للأيوبيين ، وبعضٌ ثالث شارك فى الدولتين ومدح الحكام والقادة فيهما ، واضطر بعضهم أو رغب تقربًا أن يغير اتجاهه ، ويعارض أقواله وينكب عن ولاء كان قد أبداه للفاطميين فعاد منقلبا عليهم ، موالياً للحكام الجدد من الأيوبيين ونذكر من هؤلاء القاضى الفاضل ، وابن عنين .

إلاَّ أن بعض شعراء المرحلة ممن ذاق أنعام الفاطميين حفظ الجميل ، ولم يتخل عن ولائه لهم فى محنتهم ، ولقى فى سبيل هذا الحفاظ على الجميل والوفاء نهايته مصلوباً كالشاعر الفقيه عمارة اليمنى .

وعلى هذا التغير الذى حدث فى ولاء الشعراء وتغير خطاب المديح بأشخاصه وقيمه ومعانيه ، لم تتغير أشكال الشعر تغيراً واضحاً فى أخريات القرن ، وظل التطور التدريجى يعمل بفضل اجتهاد الشعراء والتفاعل بين جماعات الوافدين من المشرق والمغرب والمصريين المقيمين .

— ١ —

حسن بن زيد الأنصارى(١)

شاعر من بيت مصرى عريق ، جدُّه لأمه المجيد ابن أبى الشخباء العسقلانى من مقدمى الكتاب فى عصر المستنصر بالله .

وقد عمل حسن بالكتابة كجده لأمه ، قال ابن العماد : كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله .

كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى .

قتله حسن بن الحافظ الخليفة الفاطمى لدسيسة رتبها له ابن قادوس إذ نظم على لسانه أبياتاً هجا فيها الحسن . وشعره رصين الصياغة يذهب فيه مذهب مقدمى الشعراء العباسيين فى القرن الثالث . ومن ذلك قصيدته يمدح الأفضل ويصف خيمة الفرج التى سبق أن ذكرنا بعض من وصفها من شعراء . يقول :

مَجداً فقد قصَّرتْ فى شأوِكَ الأممُ ... وأبدتْ العجزَ منها هذهِ الهِمَمُ
أخيمةٌ ما نصبتَ الآنَ أم فَلَكٌ ... ويقظةٌ ما نراهُ مِنْكَ أمْ حُلُمُ
ما كانَ يخطر فى الأفكارِ قَبلَكَ أنْ ... تسمُو عُلُوًّا على أفقِ السُّها الخِيَمُ
حَتَّى أتيتَ بها شمَّاءَ شاهِقَةً ... فى مارِنِ الدَّهرَ من تيهٍ بها شَمَمُ
إنَّ الدليلَ على تكوينها فلكاً ... أنْ احتوتْك وأنتَ الناسُ كلُّهم
يَمُدُّ من فى بلادِ الصِّينِ ناظِرهُ ... حتى لَيُبْصِرَ عِلماً أنَّها عَلَمُ
ترى الكِناسَ وآرامَ الظِّباءِ بها ... أضْحتْ تجاورُهَا الآسادُ والأُجُمُ
والطَّيرُ قد لزمتْ فيها مواضِعَها ... لمَّا تحقّقنَ منها أنها حَرَمُ
لذيكَ جيشٌ ، وجيشٌ فى جوانِبِها ... مُصَوَّرٌ ، وكلا الجيشين مُزْدَحِمُ
إذا الصَّبا حرَّكتها مَاجَ موكبُها ... فمقْدِمٌ مِنهُمُ فيها ومُنْهزِمُ
أخيلُها خيلُكَ اللاّتى تُغيرُ بها ... فليسَ تُنْزَعُ عنها الحزمُ وَاللجمُ
عَلَّمتَ أبطالها أن يُقْدِمُوا أبداً ... فكلُّهُمْ لغمارِ الحربِ مُقتحِمُ
أمَّنتهُمْ أن يخافُوا سَطْوةً لِرَدَى ... فقد تسالَمَتْ الأسيافُ واللِّمَمُ

(١) ترجمته فى خريدة القصر قسم شعراء مصر .

كأنَّها جنةٌ فالقاطِنون بها — لا يستطِيلُ على أعمارِهِمْ هَرَمُ
عَلَتْ فخِلْنَا لها سِرًّا تُحَدِّثُهُ — للفَرْقدينِ، وفى سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ
إنْ أنبتتْ أرضها زهْراً فلا عجبٌ — وقد همتْ فوقها من كفِّكَ الدِّيَمُ
يا خيمةَ الفرجِ الميْمونُ طائِرُها — أصبَحْتِ فألاً به تستْبشِرُ الأممُ

ومنها :

ما قال لاقَطُّ مذْ شُدَّتْ تَمائِمُه — وكمْ له نقمٌ فى طَيِّها نِعَمُ
لو كنتَ شاهِدَ شعْرِى حينَ أنْظِمُهُ — إذَنْ رأيتَ المعالِى فيكَ تختصِمُ
أزرْتُكَ اليومَ من فكرِى مخَبرةً — فى ناظِرِ الشمْسِ من لألائِها سَقَمُ
ترى النجومَ للفظِى فيكَ حاسِدَةً — تودُّ لو أنَّها فى المدْحِ تنتظِمُ

ومن قصيدة أخرى يمدحه :

أطارِقُ طيفٍ أمْ خيالٌ مُرجَّمُ — أراك به مَرأى اليقينِ التَّوهُّمُ
سَرَى وكأنَّ الأفْقَ صفحةُ لُجَّةٍ — كواكِبُه فيها سَفائِنُ عُوَّمُ
وكَم للكرى من مِنةٍ قبل هذِهِ — أضاءَ بها وجهُ الدُّجَى وهو أسحمُ
وما شِيمُ الأيامِ أن تمنَحَ المُنَى — ويبْسِمَ منها الكَالِحُ المتجهِّمُ
ولكن رَأَتْ نعْمَى شَهِنْشاهَ فى الورى — فقد أصبحت من جودِه تتعلَّمُ

ومنها :

إذا كُسِفَتْ شمسُ النَّهارِ فإنَّها — لخجْلَتِها من نُورِهِ تتلَثَّمُ
وما أطلَعَ الأفْقُ النجومَ لريبةٍ — ولكنَّه عجبًا بها يتَبسَّمُ
وليس صليلُ البيضِ إلاَّ لأنه — بنُصْرتِهِ يومَ الوغَى يترنَّمُ
وما غرَّدَ ابن الأيكِ إلا بمدحِه — لو أنَّ غناءَ ابن الأراكةِ يُفهَمُ

ومدائحه للأفضل فيها ترديد لبأسه وصولاته فى الحرب ، وقد يكون هذا منطقياً فى هذا العصر الذى شغل فيه القادة بمصر بغارات الصليبيين بالشام ، وتعدتها إلى الغارة على مصر سنة ٥١١ بقيادة بلدوين صاحب بيت المقدس .

ومحاولات بعض فرسان الصليبيين الهجوم على الثغور الشامية وبها حاميات مصرية . لقد استعرت حَربُ الحياة أو الموت بين المسلمين والصليبيين فى خلال هذا القرن السادس وأحسَّ الناسُ فى كل مكان وبخاصة فى مصر بخطورة

الهجمة الشرسة التى يشنها الصليبيون من أوروبا على سائر البلاد الإسلامية فى المشرق والمغرب .

ومن هنا لم يكن غريباً الإكثار من الحديث عن الجهاد والقتال ، وشحذ الهمم لصد الأعداء وهم ذوو بأس شديد ويجوسون خلال الديار يهدّدون مصائر الناس وحيواتهم .

ولم يعدم المسلمون فى ذلك الوقت أبطالاً يخوضون المعارك ويصدُّون المغيرين ، ويقاومون الغزاةَ بكل ما يحملون فى صدورهم من حقد وطمع فى حضارة المسلمين الزاهرة وأرضهم العامرة .

ولم تقتصِرْ مدائِحُ الأنصارى على الأفضل بل مدح من رجالات مصر أبا محمد بن أبى أسامة أحد كبار القادة ، من رجال الأفضل . يقول فيه من أبيات :

لَعلَّ سنا البَارِقِ المُنجِدِ ... يُخبِّرُ عن ساكِنى تَهمُدِ
ويا حبَّذا خطرَةٌ للنَّسيمِ ... تُجدِّدُ من لوْعَةِ المكمَدِ
وفى ذلكَ الحىِّ خُمصانَةٌ ... لها عنقُ الشادِنِ الأغْيدِ
ثنِيهُ لُغرَّةِ بدْرِ التَّمام ... وسالِفَةِ الرِّشأ الأغيدِ
وتلحفُ عِطفَ قضيبِ الأرَاكِ ... رِدَاءً من الأسْحَمِ الأجْعَدِ
أعاذلُ أنحيْتَ لوماً علىَّ ... يروِّح بعذلِكِ أوَ يغتدِى
تلوم زمانى على صمتِه ... وصوتىَ من ضربِه المعْمَدِ
ففضلىَ يبكى على نفسه ... بُكاءَ لبيدٍ على أرْبِدِ(١)
ولو كان حَظِّى لونَ الشبابِ ... لما حالَ عن صِبغهِ الأسودِ
فلا تيأسَنَّ لمطْلِ الزَّمانِ ... فإنِّى منه على موعِدِ
ولا تشْكُ دَهْرَكَ إلاَّ إليْكَ ... فما فى البريَّة من مُسْعِدِ
ولا تغترِرْ بعطايا اللئامِ ... فقد ينضحُ الماءُ من جَلْمَدِ

وعجيب أن يرد فى شعر مديحه البيتان الأخيران ، لكن أحوال الزمانِ السيئة أجرت على لسانه هذا الكلام ، كما أجرى عليه كلاماً آخر فى مناسبات وأشعار أخرى يشكو ويلوم الزمان ، وينظر إلى الناسِ والدهر نظرة سوداء متشائمة .

(١) أربد هو أخو لبيد الذى أكثر من رثائه .

وتلتقى فى شعر الأنصارى الذى اختاره العماد بأبيات يتمرَّدَ فيها على الحياة وأوضاعها ، ونحس وهو يذكر القتل والقتال أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى عصر اللئام إلا إذا تسلّح ، وقاتل ، واغتصب حقَّه بالسيف .

يقول على سبيل المثال :

منالُ الثريا دونَ ما أنا طالبُ ... فلا لومَ إن عاصَتْ علىَّ المطالِبُ
وإنى وإن لم يسْمحْ الدهر بالمنى ... فلى فى كفالات الرّماح مآربُ
تقرّبُ لى مستبعداتِ مطالبى ... جيادِى، وعزمى والقنا والقواضِبُ
فما أنا ممن يقبض العجزُ خطوَهُ ... وتعْمى عليه فى البلادِ المذاهِبُ
إذا ما كسَاك الدَّهرُ ثوباً من الغِنَى ... فعجِّلْ بلاهُ، فاللَّيالِي سَوَالِبُ
ولا تغترِرْ مِمَّنْ صفا لك ودُّهُ ... فكمْ غصَّ بالماءِ المصَفّقِ شارِبُ
نلومُ على الغدْرِ الزمانَ ضلالَةً ... وقد سَنَّهُ أحبابنا والحبائِبُ

ويقولُ :

أأطلب الرزق لا أنضِى الرّكابَ له ... لا تفرسُ الأسدُ أو تنأى عن الأجم
وكيف أغضى على ضَيم وما رويتْ ... منى السّيوفُ ولم تسق الصّعادُ دَمِي
من لى بعودِ زمانٍ كنتُ أكرهُه ... وكيف للميتِ بالرُّجعى إلى الألم

ونحس أحياناً ونحن نقرأ بعض شعر الأنصارِى روح المتنبى فى تمرده وضيقه بالبشر والعصر ، وبالحياة أحياناً . بل إنه قد يصطنع صياغته وخطابه الشعرى .

والأنصارى مثالٌ من الشعراء المتمردين على العصر وأهله وهو يمثل هذا الإنسان الغاضب المتمثل لنفسه الطامح إلى أمل أبعد من قدرته ، فى عصر يظنُّ أن الغالب فيه بالغٌ ما يريد . ولم يزوده الله إلا بقدرة البيان ، والغلبة لصاحب السيف والسلطان .

— ٢ —

ابن النّضر — الأديب(١)

القاضى أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن النضر

من شعراء الصعيد فى عصر المستعين والآمر — وقد اتصل بالأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى .

تولى قضاء الصعيد زمناً بإخميم . ذكره أمية بن أبى الصلت فى الرسالة المصرية وأشاد به . وقال عنه العماد : من أهل صعيد مصر . من الأفاضل المعدودين من حسنات الزمان . ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل الباهر ، والنثر الرائع والنظم البارع . وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى .

نشأ بالصعيد ، وتلقى به العلم ، وكان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفاً فى علوم كثيرة ، وله فى الأدب مادة غزيرة .

قال صاحب الطالع السعيد : وأكثر شعره فى تشكّى الزمانِ والإخوان . وله مدائح فى الأعيان ، وفى جماعة من بنى الكنز أعيان أسوان .

وقال عنه ابن حجر : أحد قضاة الصعيد . كان نحوياً أديباً . روى عنه ابن برى النحوى من رجال القرن السادس وغيره .

قال ابن أبى الصلت والعماد : وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الملقب بالأفضل نصرةً أو خدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاؤه ، وأخفق سعيه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعزّزِ والتذلُّلِ مَسْلَكٌ ... بادِى المنارِ لعين كلِّ مُوفَّقِ
فاسْلكْهُ فى كل المواطِنِ واجتنِبْ ... كِبْرَ الأبىِّ وذِلَّة المتملِّقِ
ولقد جَنيْتُ من البضائِعَ خيرها ... لأَجَلِّ مُختارٍ ، وأكرم مُتَّقِى
ورجوتُ خفضَ العَيْشِ تحتَ رواقِهِ ... لابُدَّ إنْ نفقَتْ وإنَ لم تَنْفقِ
ظَنًّا شبيها باليقينِ ولم أَخَلْ ... أن الزّمان بما سَقَانى مُشْرِقى

(١) راجع فى ترجمته الرسالة المصرية فى مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون ص ٤٠ . والخريدة ٢ /٩٠ شعراء مصر والطالع السعيد وبغية الوعاة للسيوطى .

ولعائبي بالحِرْصِ قولٌ بيِّنٌ | لو كُنتُ شِمْتُ سحابَه لم يَطْرُقِ
ما ارْتدتُ إلا خيرَ مرتادٍ ولمْ | أَصِلِ الرَّجاءَ بحَبْلِ غيرِ الأَوْثقِ
وإذا أبَى الرِّزقَ القضاءُ على امرىءٍ | لم تُغْنِ فيه حِيلةُ المسْتَرْزِقِ
ولعمرُ عاديةِ الخطوبِ وإن رَمتْ | شمْلِي بسهمِ تشتُّتٍ وتفَرُّقِ
لأُقارِعَنَّ الدَّهْرَ دونَ مُروءَتِي | وحُرِمتُ عِزَّ النَّصرِ إنْ لم أَصْدُقِ

قال : وله فى سفرته هذه ، وقد قوى يأسُه من بُلوغ أَمِله ، ونيل بُغيته ، وعَزم على الصَّدَر عن الفسطاط إلى مُستقره ، يحضُّ على الزَّهادة ، ويحرِّضُ على القناعة ، ويذُمُّ الضَّراعة ، ويتأسفُ على إذالةِ خدِّه ، وإراقةِ ماءِ وجهه :

لهْفِى لملكِ قَناعةٍ لو أنَّنِى | مُتِّعْتُ فيه بعزَّةِ المتملِّكِ
ولكنزِ يأسٍ كنتُ قد أَحرزْتُهُ | لو لم تَعِثْ فيه الخطوبُ وتفْتِكِ
آليتُ أجعلُ ماءَ وجهى بعده | كدمٍ يُهلُّ به الحجيجُ بِمَنْسِكِ
وأخٍ من الصَّبْرِ الجميلِ قطعتُه | فى طاعةِ الأمَلِ الذى لم يُدْرَكِ
يا قاتَلَ اللهُ الضرورةَ حالةً | أيَّ المسالِكِ بالفتَى لم تَسْلُكِ
كم باتَ مَشْكُوٌّ إليه تحيَّفتْ | حَلْقاتِـه قرعًا براحَةِ مُمْسِكِ
وفمٍ على قدمٍ رمَتْ ونواظرٍ | كُحِلَتْ محاجِرُها بموطىءِ سُنْبُكِ
ومسرْبَلٍ بالصَّبـرِ والتقـوى دَعَتْ | فأجابها فى مَعْرِضِ المتنسِّكِ
ظَلَّتْ تصرِّفُه كتصريفِ العَصَا | رَأسَ البَعيرِ لمَبرِكٍ عنَ مَبْرَكِ
لا أنشأتْنِى الحادثاتُ لمثلِها | ورُميتُ قبلَ وقوعِها بالمَهْلِكِ

وله مرثية فى الشاعر القاضى الرشيد بن الزبير جدّ أثنين من شعراء مصر ورجالها المشهورين ممن اتصلوا بالوزير طلائع بن رزّيك . ويدل ذلك على أنه كانت تربطه به صلةٌ ما ، والشاعران من الصعيد . يقول :

يا مزْنُ ذا جَدَثُ الرشيد فمِلْ معى | نسفَحْ بساحته مزادَ الأَدْمُعِ
وأمسح بأردانِ الصَّبا أركانه | كى لا يُلِمَّ به شحوب البلقَعِ
فبودِّ نفْسِى لو سَقَيْتُ تُرابَه | دَمَ مُهجتِى، ووقيتُه بالأَضْلُعِ

ومنها يخاطب القبر :

عَلِقَتْ عليكَ مراحمٌ كفَلتْ لمنْ ... وارَيتَ جُمْلَتَهُ ببَرْدِ المضْجع
وتنفَّسَت فيكَ الصَّبا مفتوقَةً ... بنسيمِ مِسْكٍ رياضِها المتضَوِّع

يقول فيها :

أو ما عجبْت لطودِ عزٍّ باذِخٍ ... مستودع فى ذى الثلاث الأَذْرُع
والجدُّ من وطىءِ الكواكب راقياً ... كيف ارتضَى من بعدها باليرمع(١)

ويقول :

ولقد وقفتُ على ربوعِك شاكياً ... وبها الذى لى من أسىً وتَوجُّع
فحمدتُ طرفى كيفَ أرشدَنى بِها ... وذممتُ قلبِى كيف لم يَتَقَطَّع
وذكرتُ مُزْدَحمَ الوفودِ ببابها ... فى كلِّ حين وفادةٍ أو مَطمَع

ومعظم ما اختاره العماد من شعر ابن النضر من هذا اللون من الشكوى والحكمة والسخط على الحياة والناس . كأن يقول وقد أوهنه العُمْر :

يا عَيْش إنْ لم تطِبْ فلا تَطُلِ ... ويا حياةُ اهجرى ولا تَصِلِى
كم وإلى كم نفسِى مقسَّمةٌ ... بين حُلُولٍ وبين مُحْتَمَلِ
لا حالَ لى تحمِلُ المقامَ ولا استطـ ... ـاعةٌ تستَغِلُّ بالرَّحَلِ
يصرِفُنِى اليأسُ ثم تُعطِفُنِى ... عواطِفٌ من كواذِبِ الأَمَلِ

وقال وقد شعر بالغربة عند فراقه وطنه بالصعيد فى سفرته إلى الفسطاط :

يا دارُ ما أنتِ لى داراً ولا وطناً ... ولا قطينُكِ لى أهلاً ولا سَكَنَا
لئِنْ تنكَّرْتِ لى عمَّا عهدتُ لقد ... خرَّبتُ فيكِ الذى عمرَّته زَمنَا
أتشتكينَ لبيْنٍ حُمَّ عن بَلَدٍ ... نَفْسِى ، ترى الذُّلَّ فى أن تسكن البَدَنا

ومن هذا الإحساس بالغربة وفراق أهله وولده ينطلقُ قوله :

خَلّفتُ خَلْفِى للحوادث صبيَةً ... بمَحَلٍّ لا عمٌّ لهُنَّ ولا أخُ
يَعْلَقْنَ منه بحبلِ رحمَةِ راحمٍ ... أو يعتصِمْنَ بظِلِّ نخوةِ مُنْتَخِ
ولقد وجِدْتُ لهَنَّ إذ ودَّعْتَنِى ... وَجْدَ القَطاةِ بداميات الأَفرخِ

---

(١) اليرمع الحجارة الرخوة .

ويبدو أن الرجل حين ضاق بالفسطاط والعاصمة حَنَّ إلى بلده شأن كثير من أبناء الصعيد المغتربين ، فعادَ إلى بلده ليستقر ، وليقنع نفسه أن الحياة كلَّها قبض ريح ، وخيال زائل ، فارتضى لنفسه بالزهد ، وكفُّ الهمَّة عن التطلّع والطمع خاصة وأنه قد بلغ من العمر حَدًّا لم يعد يسعفه فيه البدن على مجاهدة الحياة والسعى فى أحراشها . وحياة عصره تحكمها المغالبَةُ ، وتسودها قوانين الغاب ، والسيادة فيها لمن غلب قوةً واقتداراً ، أو دسيسة وغدراً وخداعاً .
فيعزى نفسه وأمثاله بأن يقول :

جهادُ النَّفْسِ مفترضٌ فَخُذْهَا ... بآداب القناعــة والزَّهَــادَهْ
فإن جنحتْ لذلك واستجابتْ ... وخالفتْ الهَوَى فهو الإرادهْ
وإن جمحتْ بها الشهوات فاكبْحْ ... شكيمتَهـا بمقْمَعَةِ العبــادَهْ
عساك تُحلُّها درَج المعالِى ... وترفعها إلى رُتَبِ السّعَادَهْ

— ٣ —

داود بن مقدام بن ظفر المحَلّى

ينسب إلى المحلة الكبرى .

من شعراء القرن السادس ، ذكره ابن الزبير فى كتاب جنان الجنان ، ونقل عنه ابن العماد قال[1] : هو من أبناء الجند بأسفل مصر إلاَّ أن همته سمت به من الأدب إلى دوحةٍ يقصرُ عنها أمثاله ، ولا يطمَعُ فيها أضرابُه ، وأشكاله . وعضده على ذلك جودةُ الطبعِ ونفاذُ القريحة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لمْ يبلُغ إليه كثرةٌ من أبناء عصره من الدَّأب على اقتناءِ الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقُه ، وجحدت حقوقه .

وهو منحوسُ الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاهِ بحرفةِ الأدب منكوت . وقال عنه القاضى الفاضل : شاعرٌ ملءُ فكيه توفى فى عصرنا هذا[2] .

قال ابن الزبير : ومما أنشدنى لنفسه قصيدة مضمنة شرح حاله . وهى :

وقد بكرتْ تلومُ على خُمُولِى ... كأنَّ الرِّزق يجلبُه احتيالى
تقدِّرُ أننى بالحرصِ أحْوِى الثـــــراءَ ، وذاكمُ عينُ المحالِ
تقول إذا رأت إرشادَ قَولى ... هُبِلْتَ ألا تهبُّ إلى المعالى
(ومن لم يعشق الدنيا قديما ... ولكن لا سبيل إلى الوصالِ)
فلو أدليْتَ دلْوَكَ فى دلاءٍ ... مَنحت به من الماءِ الزُّلاَلِ
وكم أدْليْتُ من دلوٍ ولكن ... بلا بَلَلٍ يُرَدُّ على قذَالِى
وكم عَلّقتُ أطماعِى رَجاءً ... بِخُلَّبِ بارقٍ ووَمِيضِ آلِ
فلا أنا بالكفافِ النَّزرِ راضٍ ... ولاَ أنا عن طِلاَب الكثر سالِى
ولكن ذاك من قبلِ اعتمادِى ... على عبد العزيز أبى المعَالِى

وهو يتخلّص إلى ممدوحه لعل وعسى أن يجزل له فيرضيه ، وعبد العزيز الذى يعنيه هو القاضى الجليس بن الحباب أحد كتاب الدولة المرموقين .

وينعى على كتاب عصره ممن يقصدهم يطلب رفدهم ، فلا يجودون بشىء يرضيه فينقلبُ عليهم هاجياً ليقول :

(١) الخريدة ٢ /٤٦ قسم شعراء مصر .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥ .

وكتابٌ لهم أبداً خماتٌ ... تُعدُّ لها الرّقى مثل الصّلالِ
وكلهم يجرُّ إليه نفعاً ... فعادته احتجابى واعتزالى
بأيدٍ تبتدرْنَ إلى الرّشاوَى ... كأيدى الخيل أبصرتُ المخالى
ونستُ أُزورهم إلا بشعرٍ ... أنمّقُهُ وذلك جُلُّ مالِى
فأغشَى بالمِحالِ الصِّرف منه ... مجالِسَهم فأرجع بالمُحالِ
وكَمْ قبَّلْتُ من كفٍّ ولكن ... يهونُ عليٍ مقبّلها سِبَالى
وأحضرُ من ركابٍ فى ركابٍ ... إلى أنْ خفّ من ثِقَلٍ طحالِى
وأثّرت السّنابِكُ فوق رجلى ... بوطء نعالها مثل الهِلالِ
وهذا يستطيل علىَّ زهوًا ... وذَاكَ يَعُلُّنى كأسِ المَطالِ
وقد علموا وإن لم يصْرِفونى ... بيأسٍ أن سيصرِفنى مَلالى
وحالى كلَّ يوم فى انتقاصٍ ... ومن باب التّمحُّلِ قول حَالِى

ويقول منها :

فيا عُمَرَ الحوائج قم بأمرى ... فقد نبَّهتُ مِنْكَ أجَلَّ كالِى
فها أنا قد رجعتُ إلى ذراكُمْ ... فمنه نشأتى وله مآلِى
وعدتُ كما عهدت من اتصالى ... بكم عودَ النصالِ إلى النّبالِ
فإن أبلغ بكم أمَلِى فإنّى ... رجوتُ الرىّ من سُحبٍ ثقالِ
وإن أحرم فقد أبلغت عُذرى ... فإنّ الذنب للأيام لالِى

وهذا النفس الشعرى صَوت العامة من سواد الشعب ، لا صوت الخواص من طبقه العلماء واللائذين بأصحاب السلطة وذوى الجد ، فصاحبه من الاجناد أى من سواد الجندلا الفرسان ولا القادة ، وهو صوت شعبى يشكو بنبض عامة الناس ويبث ما يحسّون به من استئثار السادة من الحكام والقادة ، من أصحاب السيف والقلم بكل خيرات البلاد ، ويتفضلون على الأشقياء من عامة الناس بالكفاف وهم المناضلونالكادحون، لكن عملهم وكدحهم يذهب إلى غيرهم ينعمون به دونهم ، ويضطر هذا الجندى من عوام الناس أن يسأل بشعره . وترى فى قوله نغمة الشعب ، ولفظه ودارج كلامه ، وهذا اللون من الخطاب تطور فى الشعر المصرى وظهر بوضوح بعد ذلك فى العصر التالى عصر الأيوبيين والمماليك ، وتمثل فى شعراء من أضراب الجزار ، والورّاق ، والبوصيرى ، وغيرهم .

ونجد مثل هذا الشعر من الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم الشعبيين فضلاً عما به من شكوى الحاجة يميل إلى النقد الإجتماعي ، وتصوير فساد بعض الحكام . وأولى الأمر من أمراء الولايات .

فالمحلى يقول فى أحد الأمراء ويدعى بابن كازوك ، وكان يلى المشارفة بالغربية وقد تم عزله عن شُغْله :

أيها المخلص المكين ومن كفَّـــاهُ فى كلِّ أزمة يكفِيانِ
بان عنا أهلُ المحبةِ واعتضْـــنا بأهلِ البغضاءِ والشنآنِ
نحن أشقى نحتاً وأتعسُ خطًّا إذ قضَانا بصفقةِ الخسْرانِ
وأخس الوَرَى وأهونُهم بيـــنَ الرَّعايا قدراً على السُّلطَانِ
إذ رعانا بأبْغَضِ الخلقِ مُذْكا نَ وكانوا، لِكُلِّ قاصٍ ودَانِ
رجلٌ صيغَ من حَمإٍ شِيبَ بِالشِّـــرَّةِ خَلطاً والشُّؤْمُ والخِذْلانِ
ما ظننا مِن قبلِهِ أننا نلْقَى جميع السَّوءَاتِ فى إنسانِ
يتَلَقَّاكَ كالحاً عابِسَ الوجْـــهِ بقلْبٍ خالٍ من الإيمانِ
وله إخوةٌ أفعالُهم فى المــا لِ فعلُ الذئابِ بالحمْلانِ
حرٌّ قلبى على مثولى بالبا بِ وقَوْلى لصاحبِ الديوانِ
أيُّها الألمعىُّ أعوزك الرُّغْيـــانُ حتى استرْعيتَ بالذؤبَانِ
أىُّ شىءٍ غالَ الكُفاة من الكُتَّـــابِ لولا عَوائِقُ الحِرْمانِ

ويقول فيها :

صاحبُ الخيل والجواشنِ والبيـــضِ وبيضِ الظُّلاَ وسمرِ اللّدانِ
ما له والنُّكول عن سفر الشا مِ وصَدْمَ الأقرانِ بالأقْرانِ
وطِلابَ المشارفاتِ وتحقيقَ بَقَايَا العُمَّالِ والخُزَّانِ
ليس هذا إلاَّ لأنَّ الخراف الـ بيضَ فى ديفنا بلا أثمانِ
والرَّحيقَ الذى عَهِدْناهُ لا يُبْـتَاعُ إلاَّ بالنَّقدِ أو بالرِّهانِ
يُجْتلَى فى الكؤوسِ صِرفاً مع المُجَّـانِ والمسْمِعَاتِ بالمجَّانِ
والإجاباتُ للمآدبِ أشهَى للفتَى من إجابة الدِّيوانِ
وطلابُ الدَّليل بالرَّسم أولى من طلاب البراز للفرسانِ

ويقول :

فاتركونا معاشر الجند واغنوا بدرورِ الأرزاقِ كلّ أوانِ
والولاياتِ والحماياتِ والغُمْـ ـمِ وأخذ الأخبالِ من كلّ خانِ
والمعاصيرِ والسواقى وتسويـ ـغ الضّياعِ المفرداتِ الحِسانِ
وارتعوا فى جزورِ ذى الدّولةِ الهَا مِى نداها فى أطيب اللُّحمانِ
واشغلونا بما به يُشغَلُ الهِـرُّ لنفعٍ أو خيفة العُدْوانِ
بالطُّحَالِ المسدودِ أو طرف الترْ قوة ، أو بالمعلاق والمصرانِ
واغنموا هدنةً كتهْويمةِ الرّكْـ ـبِ وقيتُمْ بها من الحدْثانِ

والقصيدة صارخة الشكوى من استبداد الجند وقادتهم من أرباب السيف المتسلطين على العباد يأخذون أرزاقهم ، ويسترقونهم ، فيفوزون من جزور الدولة بأطيب اللحمان ، وينعمون منها بالأموال والنعم والحياة الرغدة ، ولا يدعون لعامة الشعب إلا ما فضل منهم من الذبيحة أخسّ لحمها؛ من الرئة والمصران وهم مع هذا لا ينهضون بما ينبغى عليهم النهوض به من جهاد الأعداء بالشام وقد تكالب الصليبيون على أرض المسلمين وسلبوا منها واقتطعوا الامارات والاقطاعات وعاثوا . لقد تقاعس هؤلاء الجند عن الواجب المناط بهم وبدلاً من جهاد الأعداء جاهدوا الناسَ واستولوا على أرزاقهم ليعيشوا فى نعمة وترف على حساب الرعايا يتركونهم يشقون بشظف العيش ، ومكابدة الفقر .

— ٤ —

ابن الضيف(١)

حيدرة بن عبد الظاهر بن الحسن بن على الربعى

قال عنه العماد : « كان من دعاة الأدعياء ، الغلاة لهم فى الولاء . وكان فى حدود خمسمائة فى عهد آمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وقع إلىّ ديوانه بخطّه وكنت عزمت لفرط غلُوّه على حَطّه ، لأنه أساء شرعاً ، وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحقّ لإسَاءتِه كَفْراً ، ولا غَفْرًا ؛ لكننى لم أرَ أن أترك كتابى منه صفرا ، لأن البحر الزاخِرَ يركبه المؤمنُ والكافِر ، ويقصده البرُّ والفاجر ، يحملُ الغثاءَ كما يحملُ الدرّ ، والمركب فيه يجمعُ العبْد والحرّ وقد أوردت من مستحسناته كُلّ ما يُعفّى على سيئاته ، ويُغضِى به على هفواته .

فما عُنيت بإثباته من قصائده ومقطوعاته قوله من قصيدة يعارض بها ابن هانىء المغربى :

طلعتْ صباحاً مُشرِقاً يتهلَّل ... ووراءَها بالوَحْفِ ليلٌ ألْيلُ
وذَنتْ لها شمْسُ الظهيرة تجْتلى ... نوراً، وماللشمس طرفٌ أكحَلُ
وثنتْ قضيبَ الخيزرانة تحته ... حِقفٌ يكادُ تَسَرُّعاً يتهيَّلُ
والخدُّ ضمَّخهُ حريقٌ مُشعَلٌ ... والثغْرُ عَطَّرهُ رحيقٌ سلْسَلُ

واختار له العماد أبياتاً فى الغزل تبدو فيها شاعريته ، ورقة أحاسيسه ، وبديع صوره .

قمرٌ لاثَ عليه مُطْرفاً ... لازوَرْدياً رقيقَ الحاشِيَهْ
وعليه صبغةٌ من حُسْنِه ... فهى فى كلِّ فؤادٍ سارِيَهْ
يضْحَكُ القلبُ إذا عايَنها ... ولكم عينٍ عليه باكِيَهْ
طرفُه جنَّةُ عدنٍ أزلِفتْ ... وبخدَّيْه جحيمٌ صالِيَهْ
نمنمَ الصُّدغينِ فيها طُرراً ... كُتِبتْ من ذهب فى غالِيَهْ
شبَّهتْهُ العَينِ لمَّا أن بدا ... روضةً ذات قطوفٍ دانية

أو يقول :

(١) ترجمته فى الخريدة ١ /٣٨٥ ، المغرب لابن سعيد .

آذن قلبى بالهوَى شادِنٌ | أيقظَهُ من طرفه النَّاعِسِ
ألبسَهُ الحُسْنُ رِداءً لهُ | نفسى فداءُ القمر اللاَّبِس
غرسْتُ فى وجْنتِهِ وردَةً | من نظرة المسترق الخالِسِ
فخافَ أنْ أقطفها خُفيةً | بقبلَةٍ والغرسُ للغارِسِ
فمرَّ فى ميدانه مسرعاً | يا ليتنِى فارسُ ذا الفارِس(١)

وكم رقَّ فى تعبيره عن حمرة الخجل فى الخدّ ، وجاء بهذا البدع فى التشكيل وحلاوة الصورة .

ومن إبداعه فى الوصف قوله فى عازفٍ على العود :

ومُسْمِع مبدعٍ بَصنْعتِهِ | يُريك من فَضْلِ حُسْنِه عجَبَا
حرَّك عوداً كالرَّعدِ مقترناً | بالبرْقِ فى كفِّهِ إذا ضَرَبا
تسْرى قواه فى نفس سامِعه | فيكتسِى كلُّ مِفصَلٍ طرَبَا

ونستشف من شعره أنه كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى إذ يقول :

وتلاف الكريم فى ذِلَّة اللوعة | عِزٌّ ، وراحــةٌ فى كلالِ
مثلما يتلِفُ الأجلُ جلالُ المُلْـــــــــكِ | أموالَهُ بحفظ المعالِى

من تخلص إلى المدح بعد مقدمة غزلية جميلة يقول فيها ، وقد جاء بالبديع من المعانى :

ذاكِ مَغنىً يغنيكَ مَرأًى عن السَّــــمْعِ | بتجديده الهَوى وهو بالِى
طالمَا أمكنتْ به فرصٌ جا | ذَبْتُ فيها مغازلات الغَزالِ
بين وردٍ كوردِ خدَّيه فى الحسْــــــــنِ | ، ورَوْضٍ كوجهه فى الجمالِ
وندى كالدموع فى مُقَلِ النَّر | جسِ ، أو فيض عبرةٍ فى دلالِ
يا لقومى من سِحْرِ تفتير طرفٍ | وقْعهَ فى القلوبِ وقع النِّبالِ
.... | ....
يتجلَّى أعلاه عن بدْرِ تِمٌّ | ويبارى ردْفَاهُ دِعْصَ رِمَالِ
وعليه مجاسدٌ ألبستْه الـ | ـحُسْنَ من فرقِهِ إلى الخلخالِ
فإذا لاحَ فى السَّواد رأينا | شمس دجنٍ أو هالةً فى هِلالِ

---

(١) ورّى بين فارس وفارس ففارس الثانية من فَرَسَ .

ويقول فى وصف الشراب ومجلس طرب وأنس ولهو :

بتنا بها نجلو عروسَ زجاجةٍ   قد أُلبِسَتْ ثوبَ الرَّحِيقِ المُذْهَبا
نُثِرَتْ عليها بالمزاج لآلىءٌ   عامَتْ فعادَتْ كالبُرينِ تَسرُّبا[1]
فصفاؤه يفترُّ عنه ترقْرُقاً   ويَزودُهُ يَزْدادُ منه تَلَهُّبــا
ومغرِّدٍ لى من فتورِ جفونِهِ   سُكْرٌ، وسكرٌ إن شدَا وتَطرَّبا
نبَّهتُه ويدُ النعيم تؤودُهُ   لِيناً ، وتكسو وجنتيه تخضُّبا
لأروضَ روضاً بالتدانى ممرعاً   وأزورِ مَغْنًى بالمغانى مُعْشِبا
وأشمُّ ريحانَ الشعُور مُطيَّبا   وأعلَّ خمراً بالثُّغورِ مُشنَّبا
وأمضَّ رمَّانَ الصُّدور مُشرَّبا   وأعضَّ تفَّاحَ الخدود مكثَّبا[2]

---

(١) البرين حلقات من معدن تضعها النساء فى الأنف تزينا .
(٢) المكتب الممتلىء .

— ٥ —

ابن الكيزانى
الشاعر الصّوفىّ الواعظ صاحب الطريقة
(ت سنة ٥٦٠ هـ)

عرف ابن الكيزانى فى مصر فى أخريات العصر الفاطمى شاعراً واعظاً صاحب طريقة . سكن الفسطاط ، وتعبد فى جبل المقطم ، وسلك فى حياته مسلك الفقراء من أصحاب الطريق ، زهادة ، وبعدا من صخب الحياة وترفعا عن نهم المال ، ورغبة فى اصطناع الأولياء ، واصطحاب الرفاق .

هو أبو عبد الله محمد بن ثابت إبراهيم الكيزانى[١] ، جمع بين علوم الشرع وعلم العقل حتى أنه عد عند بعض المؤرخين ممن أخذ بآراء المعتزلة ، ويرى بعضهم أنه كان من المشبهة المجسمة والقائلين بقدم أفعال العباد ، وهو ما يتناقض مع القول بآراء المعتزلة ، وان أتفق رأى بعض الصوفية فى مراحل من تاريخهم مع المبادىء العامة لأراء المعتزلة ، وبخاصة متصوفة الفكر لا متصوفة الطريقة .

وعلى أية حال فإن الشيخ ابن الكيزانى قد اتخذ لنفسه مذهباً فى الزهد والتصوف وعرف به وتبعه فيه جماعة من المصريين عرفوا بالكيزانية وهو فى مواعظه وشعره لا يخرج فى صورته العامة عن أقوال الصوفية وبخاصة من أصحاب مذهب العشق الذى كان ابن الفارض فى القرن السابع شاعرهم الأكبر ، إلا أن فرقاً كبيراً . يباعد بين كل من الرجلين فى الشخصية والشعر ، ومضامين كل ومعانيه ، فشعر ابن الكيزانى ومواعظه من الضرب السهل القريب إلى أفهام العامة وتعبيراتهم ، وهو أقرب إلى المنظومات الشعبية التى تنشد فى الموالد والمواسم الدينية من فرق الصوفية ورجالها .

وكان ابن الكيزانى يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة بعد صلاة الجمعة أيام الجمع وفى المناسبات الدينية المختلفة ، فيقف بين الجمع يعظهم فى خطبة أو كلمات منثورة مسجعة منمقة اللفظ ، مدعمة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للتذكر والترهيب والترغيب ، أسلوبها مسجوع مقطع

(١) راجع فى ترجمته فى : خريدة القصر قسم شعراء مصر ٢ /١٧ والمغرب (قسم مصر) بتحقيق د. زكى محمد حسن ، د. شوقى ضيف ، وقد قام بدراسة لحياته وشعره الدكتور على صافى حسين وجمع ديوانه ـــ طبع دار المعارف بمصر .

يحرص فيه على الإيقاعات المترددة والجمل القصيرة فى معظمها مع دعمها بكثير من مقاطيف القصص الدينى .

وتارة يدعم مواعظه بتلك المنظومات التى تعرض صوراً منها من مثل قوله :

قف على الباب طالباً ... ودع الدمع ساكباً
وتوسّل به إليه ... من الذنب تائبا
تلقَ من حُسْنِ فضله ... عند ذاك العجائبا
ثم خف منهُ أن يرا ... كَ على الذنب رَاكبا
فَهُوَ يجزى على اليَسير ... ويُعْطى الرَّغائبا
زينةُ العبْد بالتُّقى ... فاجعْل الصِّدْقَ صَاحبًا

وشعره الصُّوفى الذى يدور فى موضوع « الوجد » و « الحب » شعر بسيط كذلك فى لفظه وتعبيره من مثل قوله :

إذا نفحتْ رياحُ الغَدْر يوماً ... فإنّ الدّمعَ يَنْجِدُنِى ويُغْرِى
تذكّرنى الذى قد غاب عنى ... فيلقانى وألقاهُ بذكـر
نأى عنِّى وقلْبى مثلُ برقٍ ... وأجْفانى سحَابٌ ذاتُ قطْر
ويا لَهْفِى عليه ثمَّ لهْفى ... نأى بنَواهُ يومَ البَيْن صبْرى
أبيت معللا روحى بروح النسيم ... من أرضه أيان يسرى
ولا والله ما ذاقتْ جُفُونى ... مناماً ولا أخْليْتُ ذكْرى
ووا أسَفِى على أن ذُبتُ شَوقْا ... وأحسبُه بذلِكَ ليسَ يَدْرِى

قال العلماء والأدباء أقوالاً مختلفة ومتعارضة فى شعر الكيزانى وقيمته الفنية قال ابن سعيد المغربى[1] :

وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة غيرُ مُرضٍ عند صدور الشعراء ، وأصحاب عويص الكلام وفرسان النظام ولم أكتب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعته — شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا عرف معانى الشعر المستحسنة وألفاظه

(١) المغرب قسم مصر ص ٢٦١ ، بتحقيق د . زكى محمد حسن ود . شوق صبت .

المستبدعة يحضنى على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدن متمثلاً : (أنا المعيدىُّ فأسمَعْ بى ولا ترنى) .

وأما العماد الأصبهانى فقد أطرى شعره ، فقال[1] :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع ، والقافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

وكلام الأصبهانى إطراء مسجوع لا سبرلغور الشعر كما سبره ابن سعيد وليس ذوق العماد كذوقه وهيهات ، ومختارات كل منهما شاهدة على ذلك ، فلم يكن الأصبهانى نقّادةً للكلام ولا شاعراً كابن سعيد يهتز للجمال .

ونقتبس مما أختاره العماد مقطوعات تصور اتجاهه وصنعته ، فمن ذلك قوله متغزلاً — لعله غزل عادى أو غزل صوفى — قال :

اصرِفوا عنّى حَبيبى ودعُونى وحَبيبى
علِّلوا قلْبِى بِذِكرا هُ فقدْ زادَ لِهيبى
طابَ هتكِى فى هَواهُ بينَ واشٍ ورقِيبِ
لا أُبالى بهَوانِ النَّفسَ ما دَامَ نصيبى
ليسَ من لامَ وإنْ أطنَـ ـبَ فيه بِمُصِيبِ
جَسَدِى رَاضٍ بِسُقْمِى وجُفُونِى بنَحِيبى

ومن مواعظه قوله :

أسعدُ الناس من يكاتِم سرَّه ويرَى بذْله علَيْه معرَّةْ
إنما يُعرفُ اللَّبيبُ إذا مَا حفِظَ السرَّ عن أخيهِ فسرَّهْ
إن يجِدْ مرةً حلاوةَ شكْوا هُ سيَلْقَى ندامَةَ ألْف مرَّهْ

ومن جيّد غزله الذى تحسّ فيه بنفحة صوفية قوله :

أىَّ طريقٍ أسْلُكْ وأىَّ قلبٍ أمْلِكْ
وأىَّ صبر ابتَغِى وهو بكُم مُستَهْلَكْ
أدَارَنِى حُبُّكُمُ كما يدُورُ الفَلَكْ

(١) خريدة القصر — قسم شعراء مصر ٢ /١٧ .

أأنثنى وكلُّ عُضْـــو مِنْكُمُ فيه شَرَكْ
أخلَصتْ فيكم باطِنًا فيه هوى لا يُدْرَكْ
جَلَّ فما فِى وصفِه شوْبٌ ولا مُشترَكْ
ولأوْكم لى مذهبٌ وذِكْرُكُمُ لى نُسُكْ
ومُهْجَتِى مملُوكَـةٌ يا حبَّـذَا المِلْـكُ
وان أردتُم فأخفِقـــوا وإنْ أردْتُمْ فاسفِكُوا
ما أنتُم ممَّنْ يخــلِّى حبَّهُ ويترُكْ

ومما هو قريب من الابتهالات قولُه :

يا مُنْصِفًا فى كلِّ أحوالِه لا تخْرُجْ إلا نصَافُ عن رَسْمِه
هب أنَّنى أبديتُ جُرْماً وقد يعتذر الإنسان عنْ جُرْمه
قد كَثُرَ القيل وحاشَاك أن تَسمَع قول الخَصْم فى خَصْمه
انظُر إلى البَاطنْ من أمْرنا فَراحَةُ العَالَم فى علْمـه
فإنْ رأيتَ الحقَّ حقِّى فلا تمكِّنْ الظَّالم من ظُلْمه

وقيل إن صلاح الدين عندما جاء إلى مصر ومر بالفسطاط سمع بالكيزانى وأشعاره وتعلق الناس به فاقتنُوا ديوانه، واختار منه العماد ما ضمنه خريدة القصر فى مختاره من شعراء مصر .

يقول : واستعرت من الملك الناصر صلاح الدين ـــ وقد لقيتُه قبل أن ملك مصر ـــ قطعة بها من شعره فى الغزليات وغيرها والزهديات، وأثبت منها هذه المقطوعات[1] .

ويقول القفطى : رأيت فى بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لقى ابن الكيزانى بمصر لما طلع فى نصرتها ، وقبل أن يلى على مملكتها ، واستكتبه جزءاً من شعره[2] .

ومهما يكن من أمر ابن الكيزانى، فإنه شاعر له لونه الخاص الذى مزج فيه معانى التصوف بالزهد والحكمة والوعظ فى لفظ سهل وتعبير شائع غير مستغْصٍ ، فراق لدى العامة وراج .

★ ★ ★

(١) خريدة القصر ـــ شعراء ـــ ٢ /١٨ .
(٢) المحمدون من الشعراء .

الفصل التاسع
شعراء نهاية العصر
ابن رزّيك وجماعته

— ١ —

طلائع بن رُزِّيك

الوزير القائد الشاعر (ت سنة ٥٥٦ هـ)

ولد طلائع سنة ٤٩٥ هـ بأحدى مدن أرمينيا ، وكانت خاضعة آنذاك لسلاطين السلاجقة ، وتعلم ببلده وحفظ القرآن ، وأتقن علوم الدين واللغة والأدب على جماعة من شيوخ عصره ، كما اتصل ببعض رجال الشيعة ، فأخذ عنهم مذهبهم ، ووعاه وتحمس له ، وزار مع بعضهم النجف الأشرف ، وذكر ابن العماد الحنبلي تعصبه للمذهب بقوله « وكان فى نصر التشيع كالسكة المحماة »(١) .

وذكر المقريزى زيارته للنجف ومشهد على بن أبى طالب به فقال(٢) : « زار مهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى جماعة من الفقراء (لعله يقصد الصوفية) وأمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم فزاره طلائع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد فى منامه الإمام صلوات الله عليه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزّيك من أكبر محبينا ، فقل له اذهب ، فإنا قد وليناك مصر . فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم من اسمه طلائع بن رُزِّيك فليقم إلى السيد ابن معصوم ، فجاء طلائع إلى السيد ، وسلم عليه ، فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر » .

وكأنّ صاحب هذه القصة أراد القول بأن ذهاب ابن رُزِّيك كان بناءً على توجيه غيبىّ من الإمام الوصىّ ، ليثبت لدى الرعية من الشيعة شرعية توليه الأمر فى مصر دون خلفائها من الفاطميين .

وهكذا وصل طلائع إلى مصر على تلك الصورة ، واتصل فى مرحلة الشباب. وربما كانت سنة آنئذ فى حدود العشرين أو تعداها بقليل ، ولعله عاصر خلافة الآمر فى أخرياتها ، والتحق بديوان الكتابة لما عرف فيه من النباهة. واتصلت أسبابه بالقصر على نحو ما ، وظل كذلك فى خلافة الحافظ عبد

(١) شذرات الذهب ٤ /١٧٧ .
(٢) الخطط ٤ /٧٣ — ٨١ .

المجيد . وربّما كان تعيينه لتولى إحدى ولايات الصعيد فى عهد الله الخليفة ووزيره الأرمنى تاج الدين بهرام شاه . الذى ذكر صاحب المختصر أنه تحكّم واستعمل الأرمن على الناس . (من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣١ هـ)(١) .

ذهب طلائعُ إذا إلى الصعيد ، وبقى بها حتى بعد سنة ٥٣١ هـ ، وتقلب فى مناصب ولايات الصعيد ، فولى قوص ، ثم أسوان ، وربما جمع بين ولاية قوص وأسوان ، وتولى الأشمونين ومنية بنى خصيب (المنيا الآن) حيث يذكر المؤرخون أنه انتقل بعدها إلى القاهرة لإنقاذ الخلافة من الفوضى التى عمت العاصمة بعد مقتل الخليفة الظافر بأيدى عباس وابنه نصر .

وعليه فيكون طلائع قد بقى بالصعيد ما يقرب من عشرين عاماً بين قوص ، وأسوان والأشمونين ، وقد مهدت له هذه الإقامة بالصعيد كى يصبح نافذ الكلمة، ولا شك أنه خلال تلك السنين الطويلة قد مكن لنفسه بين أبناء الصعيد ، ولعله اجتذب إليه جماعة منهم ، وكان لسياسته وحسن أداته ، وتحببه إلى رعيته أثر واضح فى ولائهم له . فتقوى بهم جُندًا ، ومناصرين ، وعرف الخلفاء ، ومن التقى بهم من رجال القصر ونسائه ، وكبار رجال الدولة بالقاهرة بقوّةِطلائع وقدرته . وما يملكه من جند ومال فاتجهوا إليه حين حزبهم الأمر يستنجدون به ضد طغيان عبّاس وابنه نصر بعد مذبحة القصر التى دبرها نصر وقتل فيها الخليفة الظافر وجماعة من الأمراء .

قيل إن نساء القصر استنجدوا بطلائع ، وكتب القاضى الجليس ابن الحباب يستدعيه ، ومع الكتاب خصلة من شعر بعض نساء القصر .

فهب ابن رزّيك للنجدة ، ووجدها فرصة لارضاء تطلعه والإيقاع بأعدائه من المغاربة المستوزرين من أمراء الصنهاجين الأعداء التقليديين للخلافة الفاطمية ، والذين انقلبوا عليهم فى عهد تميم بن المعز بن باديس الذى خرج على طاعة المستنصر ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وأعاد الخطبة لهم بالقيروان. كان

(١) راجع المختصر فى أحوال البشر فى حوادث سنة ٥٣١ هـ حيث يقول : « وفيها عزل الحافظ وزيره بهرام شاه النصرانى الأرمنى بسبب توليته الأرمن على المسلمين ، واهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يدعى رضوان وجمع جمعاً وقصد بهرام ، فهرب بهرام إلى الصعيد » .

عباس الصنهاجى إذا وابنه نصر قد ورثوا الحقد عن آبائهم على الرغم مما أبدوه من قربى منذ تولى يحيى بن تميم ، وعلى بن يحيى حكم القيروان .

لقد كان عباسُ سنيًّا ، ووز للفاطميين الشيعة الإسماعيلية قسراً بالغلبة لا بالرضا بعد قتل ابن السلاّر الذى كان عباس ربيبه .

وبينما كانت هذه الأحداث كلها تدور بالقاهرة ، كان طلائع يرقبها من مكانه المكين الآمن بالصعيد . وقد عمل كما قلنا على أن يدّعم مكانته حتى ينتهز الفرصة للوثوب . ولم تلبث أن واتته هذه الفرصة سنة ٥٤٩ هـ وجرت الأحداث الدامية التى أدت إلى استيلاء طلائع على زمام الأمور هكذا .

كان الظافر الذى تولى الخلافة شاباً حدثاً ، اشتغل باللهو لحداثة سنه ، وتعلّق بنصر ابن عباس الصنهاجي ، وقيل إن علاقة شاذة ربطت بينهما وكان نصر هذا شاباً مستهتراً ، متهوراً ، طموحاً ، حدثته نفسه بقتل أبيه ليتولى الوزارة للظافر صديقه ، فلما علم أبوه عباس بما يفكر فيه من دسّ السمّ له للتخلص منه ، أغراه بقتل الخليفة ليطمعه فى الملك . ويكون بذلك قد ضرب عصفورين بحجر ، تخلص من الخليفة الفاطمي ، الذى كان يطمع لا شك فى ملكه حتى يصبح صاحب مصر بعد أن ملك أخوه القيروان . من ناحية وليبعد ابنه عن التفكير فى قتله .

وكان الظافر ينادم نصراً ، ويعاشره ، ويثق فيه ، وينزل بالليل من قصر الخلافة إلى داره بالسيوفيين بالقاهرة . وذات ليلة نزل الظافر ومعه خادم له إلى منزل نصر ، فشربا ، ونام الظافر ، فقام نصر إليه فقتله ، وألقى بجثته فى بئر .

وعرف القصر بما حدث ، فثار من فيه يريدون الانتقام من القاتل فما كان من عباس إلاّ أن جاء بثلاثة من أمراء القصر بأخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صَبْراً بين يديه .

وأخفى مقتل الظافر ، وتظاهر أمام أعيان الدولة ببراءته وابنه من دم الخليفة . وادّعى أن الظافر ركب فى مركب فانقلبت به وغرق .

ولكن هذه الخدعة لم تجز على من بالقصر ، فثار جنده وخدمه من السودان ومعهم أهل القاهرة على عباس وابنه لفعلته الشنعاء . وطالبوا برأس عباس

وابنه . وتلبث عباس قليلاً وجمع من حوله بعض أعوانه ، وأراد مواجهة الثائرين ، ولكن الأمور تفاقمت ، وضاقت الحلقةُ حوله بتحرك ابن رزّيك من الأشمونين ومنية بنى خصيب فى جند كثيف إلى القاهرة .

ولم يجد أسامة بن منقذ ، وكان مصاحباً آنذاك لعباس وابنه بدًّا من نصح عباس بالتوجه إلى الشام هارباً من مصر ، ليفلت برأسه .

وهكذا خرج الثلاثة متخفين مشرقين إلى الشام ، وقرب مدينة غزة داهمتهم جماعة من فرسان الصليبيين ، فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه وتمكن أسامة من الإفلات قاصداً بلدةُ شيزر قرب حلب .

واختلفت المصادر فى أخبار هذه الأحداث الدامية منذ شهر المحرم من سنة ٥٤٨ هـ وحتى تولى الصالح طلائع مقاليد الوزارة . فابن الأثير يقول[١] : فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السّلار وزير الظافر بالله . قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح يحيى الصنهاجى . أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ؛ فأمر ولده نصراً ، فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله ، وولى عباس الوزارة بعده .

قال : وكان عباس جاء مع أمه بعد وفاة والده (يحيى) وحلّ بالإسكندرية وبها العادل بن السلار (ربما كان ذلك فى حدود سنة ٥١٥ـ وسنة ٥١٦ هـ) فتزوج بأم عباس حتى ولى الوزارة . وكانت الوزارة بمصر لمن غلب ، والخلفاء وراء حجاب . وقل أن وليها أحدٌ بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » .

وقال ابن القلانسى : « وكان الظافر قد ركن إلى أخويه وابن عمه ، وأنس بهم فى وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء والمقدمين للسلام على الرسم ، فقيل لهم إن أمير المؤمنين مُلْتاثُ الجسم، فطلبوا الدخول إليه ، فمنعوا ، فألَحُّوا فى الدخول بسبب العيادة ، فلم يمكنُّوا

(١) الكامل ٩ /٣٨٩ .

فهجموا ، ودخلوا القصر ، وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة ، وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ، ولقبوه بالفائز بنصر الله ، وبايعوه وعباس الوزير إليه تدبير الأمور » .

ويبدو أن ابن القلانسى أراد أن يبرىء عباس وابنه نصر من قتل الخليفة الظافر .

ونعرض شهادة أحد المشاركين فى الأحداث وهو أسامة بن منقذ كما دوّنها بنفسه فى مذكراته « الاعتبار »(٢).. قال :

وأما الفتنة التى قتل فيها الملك العادل بن السلار ــ رحمه الله ــ فإنه كان جَهَّزَ عسكراً إلى بلبيس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبى الفتوح (يحيى) بن تميم ابن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، فأقام مع أبيه فى المعسكر أياماً ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادلِ ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى المعسكر ، وهو يظنُّ أنه دخل القاهرة للَعِبِ والفرجة ، وللضجر من المقام فى المعسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتَّب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل فى داره إذا أبردَ فى دار الحُرم ونام ، فيقتلُه . وقرر مع أستاذ من أستاذى دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل أم عباس وجدَّة نصر ، فهو يدخل إليها بغير إذن .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه فى البيت الذى هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه ، رحمه الله . وقطع رأسه وحمله إلى الظافر وذلك فى يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل . لكنهم فى دار السلام . وهو قتل فى دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين ، فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص

(٢) الاعتبار ص ٤١ ومابعدها ــ تحقيق الدكتور قاسم السامرائى طبع مؤسسة دار الثقافة والنشر بالرياض سنة ١٩٨٧ م .

وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدى نصر ابن عباس قبّلوا الأرض ووقفوا فى خدمته .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة ، وجلس فى دار الوزارة . وخلع عليه الظافر وفوّضَ إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كارهٌ لذلك، مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم فى ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويحوزوا كلَّ ما لهم حتى يتفانوا ، فأحضرانى ليلةً وهما فى خلوةٍ يتعاتبان ، وعباس يردد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر ، يردُّ عليه كلمة بعد كلمة يشتاط منها عبّاس ، ويزيد فى لومه وتأنيبه . فقلت لعباس : يا مولاى الأفضل ، كم تلوم مولاى ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟. إجعل الملامة لى ، فأنا معه فى كلّ ما يعمله ، وما أتبرأ من خطئِه ولا صوابِه . أى شيءٍ هو ذنبه ؟. ما أساءَ إلى أحدٍ من أصحابك ، ولا فرَّط فى شيءٍ من مالِك ، ولا قدح فى دولتك ، خاطر بنفسه حتى نلتَ هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة . فأمسك عنه والده . ورعى لى ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس فى حمله على قتل أبيه ، ويصير إلى الوزارة مكانه . وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسواتِ من كلِّ نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله . وأغفله أياماً ، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلاً ، وأربعين جملاً ، بعددها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما رجلٌ يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لى فى الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً .أنام ورأسى على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلةً ، وهو فى دار الشابورة ، وقد جاء مرتفعُ بن فحل فتحدث معه إلى ثلث الليل وأنا معتزلٌ عنهما ، ثم انصرف . فاستدعانى وقال : أين أنت ؟ قلت : عند الطاقة أقرأ القرآن ، فإنى اليوم ما تفرّغتُ أقرأ . فابتدأ يهاتجنى بشيءٍ مما كان فيه ليبصر ما عندى فى ذلك ، ويريدنى أقوى عزمه على سوء ما قد حمله عليه الظافر ، فقلتُ : يا مولاى ، لا يستتر لك الشيطان وتنخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعنُ عليه

إلى يوم القيامة فأطرق وقاطعنى الحديث ، ونمنا ، فأطلع والده على الأمر ، فلاطفه واستماله وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان فى الليل متنكرين ، وهما أترابٌ وسنهما واحدٌ ، (يعنى الظافر ونصر) فدعاه أبى نصر إلى داره وكانت فى سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفراً فى جانب الدار ، فلما استقربه المجلس خرجوا عليه فقتلوه . وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورماه فى جب داره .

وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس فى خزانة فى مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال : وما لولانا ما جلس للسلام ؟. فتبلد الزمام فى الجواب ، فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوبنى ؟.

قال : يا مولاى مولانا لا ندرى أين هو ؟. قال : مثل مولانا يضيع ؟. إرجع فاكشف الحال !. فمضى ورجع وقال : ما وجدنا مولانا ، فقال عباس : ما يبقى الناسُ بلا خليفة إدخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحدٌ نبايعه ، فمضى وعاد وقال : الموالى يقولون لك نحن مالنا فى الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله فى الظافر . والأمر لولده بعده . قال : اخرجوه حتى نبايعه .

قال ابن منقذ : وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : إخوته قتلوه ! ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبىٌّ محمولٌ على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فأخـذه عباس فحمله . وبكى الناس . ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف والأمير جبريل ، وابن أخيهم الأمير أبو البقاء .

ونحن فى الرواق جلوس ، وفى القصر أكثر من ألف رجلٍ من المصريين ، فما راعنا إلاَّ فوجٌ قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوتُ السيوف على إنسان فقلت لغلامٍ لى أرمنى : أبصر من هذا المقتول ؟. فمضى ثم عاد وقال : ما هؤلاء مسلمون . هذا مولاى أبو الأمانة ــ يعنى الأمير جبريل قد قتلوه . وواحدٌ قد شقَّ بطنه يجذبُ مصارينه .

ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه . وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فادخلاهما فى خزانة فى القصر وقتلاهما ، وفى القصر ألف سيف مجرد .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التى مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق » .

تلك شهادة ابن منقذ وكان مخالطاً لعباس وابنه وهو شاهد عيان لما حدث ، وقد شهد بقسوة الرجلين ووحشيتهما . والحق إنَّ هذا الحدث من الأحداث الدامية السوداء والتى يستحق عليها عباس وابنه كلَّ ما لقيا من العقاب والنهاية الدامية، والله لا يدع الظالمين يرتعون كما يشاءون وراء أطماعهم الدموية .

لقد عبث الرجال بمصير الخلافة الفاطمية هذا العبث وكان لعباس بن يحيى الصنهاجى البربرى على قول ابن رزِّيك اليد الطولى فيما لقيه البيت الفاطمى من التنكيل والوحشية التى لم يسمع بمثلها على هذه الصورة البشعة .ومهماتكن الخلافات والأحقاد بين الناس ، ومهما تكن الأطماع فى السلطة ، فإنها لا تجرد الإنسان من آدميته على هذه الصورة لتحوله إلى حيوان ووحش ضار بل إن من الحيوان ما يعف عن مثل هذا .

لقد فعل إذا عباس وابنه نصر فعلتهما وقد تجرد كل منهما من آدميته حتى تآمر الابن على أبيه والأب على ابنه .وكانا يأملان الفوز بنتيجة هذه المذبحة إلا أن القدر لم يمهلهما . فثار بهم جند القصر وعبيده ، وبعثت نساء القصر تستغيث بالأمير القوى بالصعيد طلائع لينقذ البيت الفاطمى والخلافة الفاطمية .

وأحسَّ الرجلان بالخطر فطفقا يجمعان الأموال وكل ما يستطيعان حمله استعداداً للهروب من غضبة الناس بالقاهرة ، وزحف ابن رزِّيك ورجاله من الصعيد .

قال ابن منقذ : « وأما الفتنة التى جرت بمصر ونُصر فيها عباس وابنه على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب الناس وأضْمَروا فيها العداوة والبغضاء . وكاتب من فى القصر من بنات الحافظ

فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رُزِّيك ـــ رحمه الله ـــ يستصرخون به . وحَشَدَ وخرج من ولايته يريد القاهرة . فأمر عبّاسُ فعمرّت المراكب وحمل فيها الزاد والسلاحُ والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه . وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين . وأمر ابنه ناصر الدين بالبقاء فى القاهرة . وقال لى (لابن منقذ) : تقيم معه .

فلما خرج من داره متوجهاً إلى لقاء ابن رُزِّيك خامر عليه الجند وغلّقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم فى الشوارع والأزقة خيالتهُم تقاتِلنا فى الطريق ، ورجّالتهم يرموننا بالنشّاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .

ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباسُ إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه ، وأمر بإحراق البرقية (وهى محلة شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند برقة) لأنها مجمع دور الأجناد . فتلطّفتُ الأمر معه ، وقلت : يا مولاى إذا وقعت النار أحرقت ما تريد ومالا تريد ، وعجزت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك . وأخذت الأمان للأمير المؤتمن بن أبى رمادة ـــ من كبار رجال القصر ـــ بعد أن أمر بإتلافه . واعتذرت عنه فصفح عن جرمه .

ثم سكنت تلك الفتنة وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء وأنه لا مقام له بينهم وثبت فى نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك العادل نور الدين . رحمه الله . يستنجد به ، والرسل بين من فى القصور وبين ابن رُزِّيك مترددة .

وكان بينى وبينه ـــ رحمه الله ـــ مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر فانفذ إلىّ رسولاً يقول لى : عبّاس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بينى وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجته إليك فى الشام يُرغّبُكَ ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فأنت شريكى فى كل خير أنا له . فكأنّ الشياطين وسوست لعباس بذلك أو توهمه لما يعلمه بينى وبين ابن رزّيك من المودة .

ويمضى ابن منقذ فى ذكر حاله مع عباس وابنه وأمر خروجهم من مصر قبل وصول ابن رزيك إلى القاهرة ، فيقول :

« فأما الفتنة التى خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج ، فإنه لمّا توهم من أمرى وأمر ابن رزّيك ما توهمه أو بلغه أحضَرنى واستحلفنى بالأيمان المغلظة التى لا مخرج منها أنى أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى أنفذ فى الليل أستاذ داره الذى يدخل على حرمه ، أخذ أهلى ووالدتى وأولادى إلى داره وقال لى : أنا أحمل كلْفتهم عنك فى الطريق ، وأحملهم مع والدة ناصر الدين . واهتمّ بأمر مسفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدى الرّجّالة كعادتهم بمصر . ومائتا بَغْلٍ رحلٍ ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله .

قال ابن منقذ : وكان عباس كثير اللهج بالنجوم ، وهو معوّل على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأُول من السنة ».

وواضح من مجربات الأمور أنه كانت بين عباس ونور الدين محمود صاحب دمشق والشام رسائل وتفاهم ، بل ربما كانت وقعة عباس وابنه بالخليفة الفاطمى وأمرائه من وحى هذه الرسائل ، حتى يتقرب من نور الدين بالقضاء على أعدائه فى المذهب والسياسة .

وواضح كذلك أنه أراد من ابن منقذ أن يلعب دوراً فى التقريب بينهما وكذلك لاصراره على السفر معه إلى الشام على ما جاء من كلام ابن رزيك لابن منقذ فى حثه على تركه والبقاء بمصر .

وهكذا غادر عبَّاس وابنه نصر وابن منقذ مصر إلى الشام حيث قتل عباس وأسر ابنه كما ذكرنا وهرب ابن منقذ إلى بلده .

ولم يلبث ابن رزّيك بعد توليه الأمر بالقاهرة أن اتفق مع الصليبيين على تسليمه نصر مقابل مبلغ كبير من المال فجاء نصر إلى القاهرة فى قفص من الحديد لينتقم منه أولياء دم من قتلهم ، وليصلب على باب زويلة جزاء فعلته الشنعاء .

جاء إذا ابن رزّيك إلى القاهرة بعد أن كتب إليه ابن الحباب رسالة جلّلها

بالسواد ومعها بعض خصلات من شعر أخوات الظافر ، وفى الرسالة قصيدة لابن الحباب يقول فيها :

دهتنى عن نظم القريض عَوَادِى — وشفَّ فؤادى شجْوُهُ المتمادِى
وأُرِّق عينى والعيون هواجعٌ — همومٌ أقضَّتْ مضجعنى ووسادِى
بمصرْع أبناءِ الوصىِّ وعترة النَّبِـــــــــىِّ ، وآل الذارياتِ وصَادِ
فأينَ بنو رُزِّيك عنهم ونصرهم — ومالهم من منعةٍ وذِيادِ
أولئك أنصار الهدى وبنو الرَّدى — وسُمُّ العِدَى من حاضرين وبادِى
لقد هُدَّ رُكنُ الدين ليلةَ قتله — بخيرِ دليلٍ للنجاةِ وهادِى
تداركْ من الإيمانِ قبلَ دثُورِهِ — حَشاشة نفسٍ آذنت بنفادِ
وقد كادَ أن يُطفِى تألُّقِ نُورِهِ — على الحقِّ عادٍ من بقيَّةِ عادِ
فلو عَاينَتْ عَينَاك بالقَصْرِ يومهم — ومصرعهم لم تكْتَحِلْ بِرُقادِ

وهى من قصيدة طويلة ، كلها على هذا النمط من طلب النجدة والاستصراخ لانقاذ ما تبقى من البيت الفاطمى .

وأعدَّ ابن رُزِّيك عُدّته ، وجمع جموعه ، وتحرَّك إلى القاهرة ليعيدإلى الدولة هيبتها بعد أن حطمتها هذه الأحداث المتتابعة ، وأدال من قدرتها عبث العابثين ، ومغامرات المغامرين ، وقد آنسوا من ضعف الخلفاء ، وصغر سِنّهم، وسيطرة نساء القصر ثغرةً ينفذون منها إلى مرادهم ، ويحققون بغيتهم .

ولما وصل ابن رزّيك استقبل استقبال المنقذ ، فتعلقوا بحباله ، وكانت للقصر ورجاله به معرفة سابقة ، لا شتغاله به زمناً عند وفوده ، كذلك كانت تربطه بكبار الكتَّاب والقادة صلات مودّةٍ وزمالة . وكان من بين أهل مودته ابن الخلاَّل ، صاحب ديوان الإنشاء ، والجليس بن الحباب القاضى وكبير الكتاب وصاحب النفوذ فى القصر .

وصل إلى القاهرة ، وكفل الخليفة الصبى « الفائز » وساس الأمور فقضى على أصول الفساد ، وأعمل السيف فى بقايا أنصار عباس وأعوانه وسار فى الناس سيرة حسنة .

وصدر له السجلُّ بتولية الوزارة وتلقيبه بالملك الصالح ، وهو أول من لقب بلقب الملك من وزراء الفاطميين الكبار .

وهذه صورة السجلّ ـــ المرسوم ـــ بتعيينه ، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلاّل عن الفائز الخليفة فى ربيع الثانى من عام تسع وأربعيْن وخمسمائة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فالحمد لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ آلائه ، والمتكفل لمن نصره بنصره ، وتثبيت قدمه وإعلائِه ، الممهد لمن قام بحقّه أرفع مراتب الدنيا والآخرة ، والموضّح لمن حامى عن الدولة الفاطمية آيات التأييد الباهرة ، والجامع القلوب على طاعة من أطاعه فى الدفع عن أهل بيت نبيّه . والمحسن لمن أحسنَ إلى مهجته ، غيرةً لأئمةِ الهدى المصطفين من عِترةِ وَصيِّه ، والمذلل الصعاب لمن رفع راية الإيمان ونشرها ، والميسر الطلابَ لمن أحيى كلمة التوحيد ونشرها ، ممن حَادّ اللهَ ورسولَه ممن اصطفاه من أبرار عباده والماحِى إساءة من أعلن ببيان الحق ، وجَهَر بعبادته ، والمعرِّض من أسعده بالسبق إلى مرضاته لنيل غايات المننّ الجسيمّ ، والمرتّب من جاهدَ فى ذاته فى أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجِب لمن أخلص منهم وأحسن عملاً تعجيل مقام الفخر الكريم . وتأجيل الخلود فى النعيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى أوضح أنوار الحقائق بأنبيائه الهداة ، وأبان برُسُلِهِ الأمناءِ لعبادِهِ مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراشدهم ذريعة الموقنين إلى أعلى المنازل ، ورفيع الدرجات وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً . وأحقّهم بأن يكون لِكُفاتِهم سيّدا . محمد حَادِى الأنام والداعى إلى الإسلام ، والمخصوص بانشقاقِ القمرِ وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابن عمه باهرَ شرفِهِ ، وبارع علمه . وأفرده بإمامَةِ البشر وخَصّ ، وأقرّها فيه وفى عَقِبِهِ إلى يوم القيامة بجلىِّ النَّصّ . فأصبحت الإمامة للملَّةِ الحنيفية قداماً ، ولأسباب الشريعة بأَسْرها نظاما . ونقل الله نورها فى أئمة الهُدَى من نسله ، فتناولها الآخِر عن الأول . وتلقاها الأكمل عن الأكمل . فكلَّما رام معانِدٌ أن يحيف بنورها ، أو قصد منافق أخفاءَ ظهورها زاد أنوارها إشراقاً ، ووجد لبدورها كمالاً واتساقاً ، ومكَّنَ

قواعدَ دولتها ، وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها ، وإن اجتهد فى حلّها الماكرون . (يُريدُون ليُطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم، واللهُ مِتمّ نُورِه ولو كرِهَ الكَافِرُون) .

والحمدُ للهِ الذى حفظ بأمير المؤمنين نظامَ الخلافة واتسَّاقَها ، وحمى بميامِنهِ دوحةَ الأمانةِ ، وأبقى نُضرتَها وإبراقَها ، وأورثَ خصَائِصَ الأئمةِ الرَّاشدين من آبائِه وأودعه سرائِرَ دينه المصُونَةَ فى صُدورِ أنبيائِه ، وأيَّده بموارِدِ الإرشادِ والإلهام ، وجعل طاعتَه فرضاً مُؤكَّداً على كافة الأنامِ . وخصَّهُ بالتوفيق والعصمة وأفاضَ للأمةِ به سِجالَ الرَّحمة ، وأبرمَ بأمانتِهِ أمرَ الملَّة ، وجعله من الهُداةِ . قال جلَّ وعلا : (وجَعلْنا منهم أئمةً يهدُونَ بأمْرنا ، وأوحينا إليهم فعلَ الخيراتِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، وكانوا لنا عَابِدينَّ) .

يحمدهُ أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آبائه الأئمة الأطهار وأيَّدهُ فى أنْصَارِ دعوته من العُلوِّ والاستظهار ، واتخذوه من جنود السماء والأرض وأظهر له من معجزاته وآياته ، وأظهر من مزيته من مظاهر الظفر لألويته ورِاياته ، ونسألُه أن يُصَلّى على جده محمد النبيّ الأمين ، ورسوله المَبعوث فى الأميين ، الهادى إلى جَنَّاتِ النعيم ، والمحيطة متابعتُه بالفوز العظيم . الذى جلا الله ظلماتِ الجهالة بمبعثه ، وشرَّف الأئمة من ذرّيته بمقامه وموِرثه ، وردَّ النافِرَ إلى الطاعة بالبِرّ والإيناس ، وجعله خيرَ رسول إلى خير أمةٍ أُخرِجَتْ للنَّاس . وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب قسيمِهِ فى المناسب والفضائل ، وثالثه فى تشفيع الذرائع والوسائِل ومفرّج الكرب عنه بمؤازرته وصدقِ كِفاحِه ، وباب مدينةِ علمه الذى لا يوصل إليه إلا باستفتاحه . وعلى الأئمة من ذريتهما الَّذينَ بلَّغ الله بهم الأَرَبَ والسؤال ، وأغنى الأئمة بهداهم عن التَّقْفِيةِ بعده برسُوله ، والعِترةِ المصطَفِينَ ، وأحد الثَّقَلَيْنِ ، وبحار العلم الذَّاخِرة والمرجُوِّينَ لصالح الدنيا والآخرةَ . وسلَّمْ ومجَّدْ ، وَوَالِ ، ووَدِّدْ .

وإنَّ أمير المؤمنين لما مهَّدهُ اللهُ من الشرف الباذخ ،وحازَهُ لمنصبه من الفخر الأصيلِ ، والمجد الشامخ ، وأفرد به خلافته على العالمينَ ، وحباه به من ضُروب الوجْاهَة والكرامة ، وأفاضَهُ عليه من أنوارِ الإمَامة ، وواصله إليه من العناية الشاملةِ والبرِّ الخفىّ ، وجمعَهُ له من الإحسَانِ الجلِىّ واللُّطفِ الخفىّ ، وأقرّه من

مواهب الفضل والإفضال لديه ، وجعل فى كلّ حركةٍ وسكونٍ دليلاً واضحاً يُشيرُ إليه ، يُقدِّرُ نِعَمَ الله حقَّ قدرها ، ويواصِلُ العكوفَ على الاعتداد بها ونشرها . ويبالغُ في شكرها قولاً وعملاً ونيةً ، ويجهد نفسه فى حمدها اجتهاداً يرجو به دَرْكِ الأمنيَّة ، ويتحقَّقُ أنَّ أسمَاهَا محلاً وقدراً ، وأولاها على كافّةِ البريَّةِ ثناءً وشكراً ، وأعلاها قيمة ، وأعمَّها نفعاً ، وأعذبها ديمةً ، وأجمعها لضروبِ الجَذَلِ والاستبشارِ ،وأجدرُها بأنْ تؤثِّرَ فى الأُمم أحسنَ الآثار . وأوسَعُها فى مِضمَارِ الاعتدادِ مجالاً ،وأعظمهاعلى الرئيسِ والمرءُوسِ نفعاً وجمالاً النعمةُ بك أيها السيدُ الأجلّ ،والتَّغوُّثُ والدعاء ، إذْ كُنتَ نَجدةَ الله المذخورة لأمنائِه على خلقِه ، والقائِمَ دون البرية بما افترضه عليهم مِن مظاهرةِ أمير المؤمنين ، والأخذِ له بحقّه . واللّطف الذى كانَ من الإمامةِ ومن أعْلامِها حاجزا . والنصر الذى أصبح أمير المؤمنين بعونِ الله به فائزاً وحزب الله القاهر الغالبَ ، وشهابُ أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، بفيءِ ظِلّه الذى على العام والخاص ، ومنهل فضله الذى يصفو ويَعذُب لذوِي الولاءِ والإخلاص . وسيفه الذى يستأصِلُ شأفَةَ ذوى الشقاق والنّفاق ، ويده التى ينبعثُ منها ينابيعُ العطاءِ وسحائبُ الأرزاق . والوليُّ الذى ارتضاهُ أمير المؤمنين للمصالح كفيلا ، والصفيُّ الذى لا تبغى دولته عن مؤازرته تبديلا . فعلوُّ قدرِكَ عند أمير المؤمنين لا ينتهى إلى أمد محدود ، وقيامك بالأخذ بحقه يتجاوز كلَّ سعيٍ مَبرُورٍ ومقامٍ محمود . ودُعَائِه بنصرك الله فى طاعته يَصغُرُ عنده كلُّ عظيم فى مجافاتك . وشفاؤك صدرَ أمير المؤمنين من أعدائه أعجز القدرة عمَّا يشفى غليله فى إحسانِ مجازاتِك .

ولقد حُزتَ من المآثر ما فقت به أهلِ عصرك تقدُّماً وسَبْقَا ، وسَمْوتَ بجلالِكَ إلى ذُرَى مجدٍ لا تجد الهممُ العاليةُ إلى تمنيها مَرقى ، ومازلْتَ فى كُلِّ أزْمِنتكِ سُلْطاناً مهيباً ، وفرداً فى المجالِسِ لا تُدْرِكُ له الأفكارُ ضريبًا . ومقولاً نُبارى ببيانه الأندية والمحافل ، وهُماماً باسمه المُهاب تُذْعِنُ المجافل ، وسيداً تُلقى إليه مقاليدُ التَّقدُّمَةِ والسيادة ، ومُعظَّماً ليس على ما خصَّه الله به من التعظيم موضعٌ لزيادة . كشفَ الله أمرك فى ألاءِ فدعاكَ لائمته ظهيرا ، وزاد فى إنعامه على الأمة فارتضاك لهُداةِ أهل بيتِهِ مُعيناً ونصيراً ، ووفَّر نصيبك من الفضائل والمناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك شرفاً ، وأحظى الملوكَ بتمكنك

وكونكَ لهم فخراً وشرفاً ، فلا رتبة علا إلاَّ فَرعْتَها مُنزِلاً ، ولا منزلة سَنَاًإلاَّ وقد سَمُوت إليها منتقلاً . ولا مزيَّة إلا احتويتَ عليها وحُزْتَها ولا منزلة فخرٍ إلا طُلْتَها بفضَائِلكوجزتها، ولا مأثرةً إلا وكنتَ فاتح بابها ، ولا منزلةً خطيرةً إلاَّ وأنت مُستوجِبها وأَوْلى بها،ولاسماءمجد إلاَّ وخصائِلُك طالعةٌ فى آفاقها أقماراً ، ولا موقف فضلٍ إلا ولكَ فيه تقدم لا تُنازِعُ فيه ولا تُمارى ، فما يُوجَدُ مقدَّمٌ إلاَّ وقد فَضَلْتَهُ بآثارِكوتقدمتهُ،ولا مميِّز إلا أَسْمَتَهُ فى جناب فضلِك ورسمته .

تقلدت جلائِلَ الأمور فلبستَها نباهةً وتقويماً ، وباشرتها فاحرزَتْ مناقبُكَ جلالةً ووجاهةً ، وتفخيماً ، تُجرجِرُ بِكَ الرُّتبُ أفيالَ الفخر والإجلالِ وتزدَهِى بأفعالِكَ التى يُبعَثُ عليها ما أُوتيتهُ من شرف الخلال . ولم يزل تدبير أولياءِ الدولة ورجالها بفضائل سياستك . فتثبِّتَ لهم الأقدام ، وتكسِبُهمْ عزة النّفوس . فليستهينوا فى حق الانتصار بك ملاقاةَ الحِمام .

ورمَى اللهُ بك طُغاةَ الكُفّارِ لتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدةِ عن المِلَّةِ فأصبَحتْ بك مرفوعةَ الأعلام ...

.... فما يبلُغُ التعدادُ ما جمعته من المناقِب والفَضَائِل ، ولا يستولى الإحصاءُ على مالك من المفاخر التى لا يحيط بها أحدٌ من الملوك الأوائل . فتجمعُ زُهْدَ الأبْدالِ إلى هِممِ الأكاسرة ، وتوفق فى أعمالك بين ما يقتضيه صلاحُ الدنيا وحسنُ ثواب الآخرة . فأنت البرُّ التّقىّ ، التّقِىُّ الحسيبُ ، الطاهر ، المبرَّأ من كلِّ دَنسٍ وعيب .

.... وحويْتَ من الأخلاقِ الملوكيةِ ما قصرَّ بعظماءِ الملوكِ عن مجاراتِك . واقتنيت من الحِكَم والمعارِفِ ما جَعلَ كافّةَ العلماءِ مُعترفين بعظِم فَضيلةِ ذاتِك ...

.... ولقد كان وقعُ التحامُلِ على الحضرةِ ببعدك عن فنائِها ... على أنك لم تَخْلُ من نُصْرتِها على بُعد الدّار ، بل نصرتَ الحقَّ حيث كان ، ودُرْتَ معه حيث دار .

وقد كان أمير المؤمنين حيث اشتدَّت الأمورُ ، وحرجت الصّدورُ ، وحارَتْ الألبابُ واستشرف للارتياب يرجو من الله أن يفجأهُ منك بالفرج القريب ، ويُصْمِي أعداءَهُ من عزمِكَ بالسَّهم المُصيب . واستجابَ الله دُعاءَه فيك بما ماثَلَ دعاءَ جدّه رسولِ الله – ﷺ – وضاهاه . وحصل فى ذلك على معنى قوله تعالى : (قد نَرَى تقلُّب وَجْهِكَ فى السماءِ فَلَنُوَ لِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرضَاهَا) . ولما أذهب الله بك أيها السيد الأَجَلَّ الملك الصالحُ عن دولة أمير المؤمنين غاياتِ الغىّ ، وأدرك بها تأْرَ أولياءِ الله من ذَوِي المباينةِ والبَغْى . وأحسَنَ اللهُ الصنيعَ بمؤازرتك ، ... فقلّدك من وزارته ، وفوّض إليك تدبير مملكته وكفالته . وجعل لك إمارةَ جيوشه الميامين ، وكفالة قضاةِ المسلمين ، وهداية دُعاةِ المؤمنين ، وتدبيرَ ما هو مردودٌ إليهم من الصَّلاةِ والخطابة وإرشادِ الأولياء المستجيبينِ ، والنظر فى كلّ ما أغدقَهُ الله من أمورِ أوليائِه أجمعين ».

وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضر، وجميع أعمالِ المَملكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها ، وكل ما تنفذ فيه أوامرُه ، ويتوج بشعاره منابره . وردَّ إليك تدبير ما وراء سرير خلافته ، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والابرام والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرُّف والصرف ، والإمضاءَ والوقف ، والغضَّ والتنبيه ، والإخمال والتنويه ، وجميع ما يقتضيه صوابُ التدبيرَ من الإنعام والإرغام وما توصيه أحكام السياسةِ من الإبداء والإتمام تيمناً بما يُحقق مبالغتك فى متابعته ، واجتهادك فى إعلاءِ مُنار دعوته . وعلماً بأن التوفيق لا يعدو وراءك والسُّعودَ لا يفارق أنحاءَك » .

ويفصل بعد ذلك الأمور التى فوضها إليه وأوجزها من شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون الحرب والجيش ، والشئون المالية والاقتصادية والإدارية ، والأمور الدينية فيما يتصل بالقضاة ورجال الدين من الأئمة وخطباء المساجد ... إلخ .

وهذا تفويض كامل بالحكم وشئون سلطانه ، بحيث لا يبقى شيء بعده للخليفة ليقول كلمته فيه ، فيصبح بهذا كما قيل صورةً فى القصر لا نقْضَ بيده ولا إبرام .

وهذا السجلّ بهذا التفويض الجامع الشامل لم يحظ به أحدٌ من وزراء الدولة الكبار من قبل ، ولا الوزير الأفضل بن بدر الجمالى على ما كان له من السلطة والاستبداد بالأمر .

وأصبح الملك الصالح طلائع بن رزّيك بهذا السجل الحاكم الفعلىّ للبلاد . وربما استحق ذلك لأنه المنقذ للخلافة من الانهيار والضياع . وكان لإيمان طلائع بمذهب الشيعة وتحمسه له ما طمأن قصر الخلافة ورجالها ، فأودعوه ثقتهم لأن السابقين عليه ممن حاولوا التغلب على الأمر بالتطلع إلى الوزارة لم يخلصوا للمذهب بل كان منهم من كان من أعداء ممن يدين بالمذهب السنى المعارضَ كالولَخْشِي وعبّاس، بل وبعض أمراء البيت الفاطمى نفسه كالحسن بن الحافظ الذى قيل إنه عارض أباه ودان بالمذهب السنىّ وأراد أن يسلب منه الخلافة .

لقد جاء طلائع إذا وصار متعصباً لإرساء قواعد المذهب مدافعاً عنه بالسيف والقلم ، وإن لم يعلن العداء للسنّة لعلمه بأنهم يملكون من القوة فى الشام وبعض أنحاء مصر ما يمكنهم من حصاره ومضايقته . فآثر أن يسايرهم ، ويسعى إلى التخالف معهم ، وبخاصة ملوك الشام من آل زنكى ، وأقواهم نور الدين محمود .

وهذا السجل الفريد فى تعيين الوزراء ، قريب من قصيدة المديح لما يحويه من ألفاظ الإطراء على الرجل وهمته وأخلاقه . ولا شك أن كاتبه الخلاّل كان يستوحى خاطره وأحاسيسه الخاصة نحو الرجل إلى جانب استشعاره الحاجة إلى هذه الشخصية القوية التى تحفظ على البلد كيانه ، وتحوطه برعايته ونكبت أعداءه وكلّ من يتربص به من الخارج أو الداخل .

وقد أضاف الفائز الخليفة نفسه على هامش السجّل ما يفيد هذا التقدير فى عبارات من التقريظ والتبجيل لشخص طلائع .

ولقد قام طلائع بالدور المنوط به وأمسك بجميع الخيوط بين يديه وأعاد للحكم هيبته ، وأعاد عهد الوزراء العظام ، وأجرى الدماء فى عروق الدولة التى بدت قبل امساكه بالزمام وكأنها تلفظ أنفاسها ، وتمرُّ بآخر أيامها .

ويبدو أن شخصية طلائع كانت شخصية محببة لخلطائه لما كان يجمع بين جوانحه من خصائل عدة ، فهو يتمتع بلباقة النطق والذكاء ، والأدب والشعر والحزم وحسن المعاشرة والكرم ، والمقدرة على اكتساب الأعوان والأولياء .

وقد دعت هذه الشخصية من سمع عنها ولم يخالطها إلى الإعجاب بها ، فهذا عماد الدين الأصبهانى معاصره ، وإن لم يره ولم يختلط به ، بل سمع عنه وعن سجاياه، وأدبه وشعره فكتب عنه مقرظًا فى أول حديثه عنه شاعراً مصريًّا فى خريدته ما لم يكتب عن أحد غيره ممن كتب عنهم من شعراء المصريين باستثناء القاضى الفاضل صاحبه ، علماً بأن طلائع كان مخالفاً لمذهب العماد ووزيراً لخلفاء الفاطميين ، جاء العماد كاتباً فى دولة أخرى تعقبتهم ، وحاولت محو آثارهم وقرظ ابن رزّيك بكلام مطنب ، فى الوقت الذى سخر فيه وقلل من شأن غيره من شعراء الفاطميين .

فمما قاله العماد(١) :

« سلطانُ مصر فى زمان الفائز ، وأول زمان العاضد . ملكِ مصر واستولى على صاحب القصر ، ونفق فى زمانه النظم والنثر ، واسترقَّ بإحسانه الحمدَ والشكر وقرَّب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرَّجاء ، وأفاضَ على الدانى والقاصى بالعطاء .

ولهُ قصائد كثيرة مستحسنةٌ أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام وما يصدّق أحدٌ أن ذلك شعرُه لجودته ، وإحكام مبانى حكمته ، وأقسام معانى بلاغته .

.... وقُتِلَ به فى دهليز القصر فى سنة ست وخمسين وخمسمائة بالقاهرة وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعرُ الشعر ، وانخفض علمُ العلم ، وضاقَ فضاءُ الفضل ، واتسعَ جاهُ الجهل ، وانحلَّ نظام أهل النظم

---

(١) الخريدة ١ /١٧٣ قسم شعراء مصر .

وانتثر عِقد ذوى النثر . واستشعز الفاقة الشعراء ، وعدمَ البُلْغةَ البُلغاء . وعُدَّ الفَضْلُ فضولاً ، والعَقْل عُقولاً ... وعمَّ الرُّزءُ ... فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظّ ، منسوخة الجدّ ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسف الثانى » .

وقد أعاد دولة الشعز والأدب إلى زاهر عصرها أيام الأفضل ، وصار بفضل تشجيعه لهم واجتماعه بهم مناراً فى هذه السّنوات التى قضاها فى السلطة ، وكان يجمع الفقهاء ويناظرهم على الإمامة وعلى القدر .

ويبدو أنه كان يرى رأى المعتزلة قال ابن العماد : « صنف فى ذلك كتاباً سمَّاهُ « الاجتهاد فى الردّ على أهل العِناد . قرَّر فيه قواعد التشيّع »[1] .

بنى جامع الصالح خارج باب زويلة .

كان طلائع يعقد مجلساً فى منزله ليالىَ الجمع[2] ، يجتمع فيه مع جلسائه من العلماء والأدباء والشعراء ، والصفوة من رجال الدولة والمجتمع وأمرائه ، لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث . وكان من جلسائه المهذب بن الزبير ، والقاضى الجليس بن الحباب وعمارة اليمنى .

قال عنه عمارة[3] : كان مرتاضاً قد شمَّ أطراف المعارف ، وتميَّز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة . وكان شاعراً محبًّا للأدب وأهله ، ويكرم جليسه ويبسطُ أنيسه . وكان كُرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل .

وقال[4] : ولم تكنْ مجالسُ أُنسِهِ تقطَعُ إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية ، وفى مذاكرة مواقع الحروب مع أمراء دولته . وكانت أحواله طوراً له وتارةً عليه .

فمما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت

---

(١) شذرات الذهب ٤ /١٧٧ .

(٢) راجع بدائع البدائه لعلى بن ظافر ١٨٥ .

(٣) النكت العصرية ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .

وطالت واتسعت وعالت . ومنها جمع المال واحتجازه . وهذه هى غرامه وأشجانه . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقصّ من أطرافهم .

وكان يعرض شعره على من حضره من الشعراء ، من ذلك ما رواه عمارة قال[1] : ودخلت عليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط ، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليل ، فأمر لى بذهب وقال : لا تبرحْ ، ودخل ثم خرج إلىَّ وفى يده قرطاسٌ قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعة وهما :

نحنُ فى غَفْلةٍ ونومٍ ولِلْموْ تِ عيونٌ يقظانة لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً ليتَ شعرِى متى يكون الحِمامُ

ثم قال لى : تأمَّلْهما وأصلحهما إن كان فيهما شيءٌ . قلت : هما صالحان .

وكانت دار الصالح بالفسطاط ، حيث كانت دار الوزارة ، وبها كان يجتمع بأصحابه .

وانضمَّ عمارة إلى جلسائه سنة ٥٥٠ هـ بعد وفوده رسولاً من وإلى الحرمين الشريفين . وذكر من جلسائه من أصحاب القلم الشيخ الجليس ابن الحباب ، وابن الخلاَّل ، والشاعر محمود بن قادوس ، والمهذب بن الزبير .

ومن أصحاب السيف ابنه رُزِّيك ، وصهره سيف الدين حسين ، وأخوه فارس المسلمين بدر الدين بن رُزِّيك ، وقريبه حسام . وهؤلاء من أهله ، وأما غيرهم من الأمراء فمنهم ضرغام الذى نال الوزارة من بعده ، وعلى بن الزُّبد ، ويحيى بن الخياط ومحمد بن شمس الخلافة .

واتهم طلائع فى شاعريته ، كما اتهم من قبله الأمير تميم بن المعز ، فقيل إن المهذب بن الزبير وابن الحباب كانا يصنعان له شعره . ودافع عنه العماد الأصبهانى فنفى هذه الفريةوكذلك ابن خلكان قبله . وقال ابن خلكان إنه رأى ديوان شعره فى مجلدين . وذكر العينى فى عقد الجمان أن أكثر أشعاره فى مدح أهل البيت .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

وكان ابن رزِّيك ينتسب إلى غسان القبيلة العربية التى كان منها أمراء الشام قبل الإسلام . وكان الشعراء يمدحونه بذلك .

واهتم ابن رزيك بحرب الصليبيين بالشام ، وأكثر من الغارة عليهم ولم تهدأ له عين فى جهادهم ، ولقب بأبى الغارات لذلك .

ولم تدمْ أيام طلائع كثيراً فقد اغتيل فى رمضان سنة ٥٥٦ هـ . فى أيام العاضد وقيل فى مقتله إنه كان بتدبير من بعض الخواص أى من رجال القصر وعلية القوم من الأعيان لأنه ضيَّق عليهم فى المال . وقيل إنه كان بتدبير من عمة العاضد وكان طلائع قد زوجه ابنته . وكانت هذه السيدة الشريفة تسمّى ست القصور وهى أخت الحافظ . وكانت لها كلمة مسموعة فى قصر الخلافة منذ عهد أخيها ، وكانت تجيز الشعراء وتبعث إليهم جوائزهم ، ووصلت الشاعر عمارة أكثر من مرة .

وروى المؤرخون حادثة قتله قالوا :

« وكان سبب قتله أنه تحكَّم فى الدولة التحكم العظيم ، واستبدَّ بالأمر والنهى وجبايةِ الأموال إليه لصغر العاضد ، ولأنه هو الذى ولاَّه ، ووتر الناس ، فإنَّه أخرج كثيراً من أعيانهم ، وفرقهم فى البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم إنه زوَّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحَرمُ فى القصر ، فأرسَلَتْ عمةُ العاضد الأموالَ إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله . وكان أشدّهم فى ذلك عليه إنسانٌ يقال له ابن الدّاعى ، فوقفوا له فى دهليز القصر ، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرّحوه جراحاتٍ مهلكة ، إلاَّ أنه حُمِل إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضِد يعاتبه على الرّضا بقتله ، فأقسم العاضِدُ أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلِّمْ عمتك إلىَّ حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهراً ، وأُحضرتْ عنده فقتلها ، ووصىَّ بالوزارة لابنه رُزِّيك ولقب العادل »(١) .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩ /٤٨٩ فى حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

شـــعره
موضوعاته وصنعته

وديوانَ شعره مفقود ، ما بقي منه مفرق في مصادر متعددة ، ومعظمه كما ذكر يدور حول آل البيت وعلى والحسين ذكراً لمناقب أو رثاء وبكاء يليه أبيات فى الحكمة والزهد والنصح ، وقد استغرقت الرسائل بينه والشاعر الفارس أسامة بن منقذ حيزاً من شعره ، تحدث فيها عن بلائه الصليبيين ، وربما شاركه أسامة فى غارة كنائبه على بعض مواقع الفرنجة بالشام .

وفى الديوان مطارحات شعرية بينه وبعض من كان يجالسهم من الشعراء أمثال الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير .

ونبدأ الحديث عن شعره الذى بث فيه عقيدته الشيعية وولاءه لآل البيت . من ذلك قصيدة همزية فى مدحهم ، يقول فيها[1] :

من الأحباب قَرّبني ولائي ومن أعْدَايَ برّأني برائي
ألاَ إنّي تجرتُ فكان بيعى لغير أئمتى . ولهم شرائى
جَرِيْتُ إليهمُ طلقًا عِناني وخلّفتُ السوابق من ورائى
ولما صحَّ لى بهم اعتقادى بنُورِ هُداهُمُ أستوقفت رائى

يقول :

فيامَنْ قد تقدّم لى بنُصْحٍ تأخَّرْ ، ما بجهْلكَ من خَفاءِ
أأمسى فى مَسائِلِ مُبهماتٍ وأرْجعُ ويْكَ عن سُنَنِ السماءِ
ولو أنى رأيت كما تراهُ وقد لمح السَّرابُ هرقْتُ مائِي
وكيف سِبَاحَتِى فى بحرِ بحرٍ بعيدِ الشَّاطِئين من الرِّواءِ
ولو اصغيتُ نحوك فى سبيل الـ تَّجمُّل كانَ يمنعُنِى وَفائِى
هُدِيتُ إلى الرَّشادِ وأنت كابِى زِنَادِ الطّرف ممتنعُ الحيَاءِ

حتى يقول :

ألا إنّي لأهْلِ البيتِ عَبْدٌ مُطيعٌ ليسَ يجنحُ للإباءِ
بهمْ نِلتُ السعادة ياشقيًا وكم بين السّعادةِ والشقاءِ

(١) ديوان طلائع جمع وتبويب وتقديم محمد هادى الأمينى طبع النجف سنة ١٩٦٤ م .

ففى آل النبىِّ نظمْتُ مدْحِى وشنَّفْتُ المسامِعَ من ثَنائِى

وواضح من نظم الأبيات فقرها الفنى ، ونثريتُها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها من أوائل ما صنع من الشعر ، وليست فى مرحلة نضجه . ربما كانت فى أول حضوره إلى مصر وتوليه العمل بديوان الكتّاب .

وتجىء هذه القطعة البائية الروىّ أجود صياغة ، وقد قالها فى مدح الإمام على بن أبى طالب :

لذاذةَ سمْعِى فى قراعِ الكَتائبِ آلذّ وأشهَى من عِناقِ الحبائِبِ
وأحْسنُ فى عينى من البرقِ فى الدّجى وميضُ المواضِى فى غبارِ المواكِبِ

وفيها ما يدلّ على أنه قالها فى توليه منصب الوزارة ، وانشغاله بمحاربة الأعداء المتربصين بالدين والدولة . وفيها ردٌّ على أتهامه بالنّهم فى جمع المال إذ يقول :

وما شغفِى بالمالِ أبغى بقاءَهُ ولكن أريهِ حتفه بالمواهِبِ
وإنى لانْفِى البخلَ عنّى لبغضه إلىَّ كما أنفى إمام النواصِبِ

وهو فى قوله الأول متعللاً فى جمعه المال برغبته فى انفاقه قريب من قول الظغرانى :

أريدُ بَسطةَ كفٍّ أستعين بها على قضاءِ حقوقٍ للعلا قِبلى

ولا ينسى فى عجز البيت الثانى غمز الخليفة العباسى ، فهو إمام النا صبه عند الشيعة :

ويمضى فى الحديث عن ولائه لآل على فيقول :

ألاَ إننى أمسكتُ أغصانَ دَوْحةٍ أتَتْ بأفَانينِ الثّمارِ الأطايِبِ
لقد لاحَ لى برقُ اليقينِ ولم يَكنْ ليخدَعنى برقُ الأمانى الكَواذبِ
وبما تساوَى الأرضُ فى الجدِ والسَّما وكلّ علا ترتيبُه فى المراتبِ
بآلِ رسولِ الله ناجيتُ خالِقِى بصِدْقٍ فأنجو من نيوب النوائِبِ
قصدتُ بهم بين المسالكِ مَطْلبًا فما خِبْتُ ، لكِنّى بلَغْتُ مَطَالِبِى
بهِمْ تُبْلغُ الآمالَ من كلّ آملٍ بهِمْ تقبلُ النوباتُ من كلّ نائبِ
أئِمةَ حقٍّ لو يسيرون فى الدُّجى بلا قمرٍ لاستَصْبَحُوا بالمناسِبِ

....

يُخيَّلُ لى لمَّا امتدحتُهم عُلا بأنّى بهم أختالُ فوق الكواكِبِ
رَغبتُ إلى آلِ الرسولِ وإننى إلى غيرهم فليَعْلَمُوا غيرُ رَاغِبِ
فمنهم إمامُ الحقِّ حيدرةَ الذى أبانَ غموضَ المشكِلاتِ الغرائِبِ
علىٌّ أميرُ المؤمنين ولاؤه يَراهُ ذوو الأحسابِ ضَرْبَةَ لازِبِ
عليه، ترى الإجماعَ لاشكَّ واقعاً ولم ترهُ بعد النبىِّ لصاحِبِ
وزَوَّجَهُ الرحمنُ بالطُّهر فاطِماً وقد رَدَّ عنها راغماً كلّ خاطِبِ
علىٌّ هو الشَّمْسُ المنيرَةَ فى الضحَى هو البدرُ تِماً فى سَماءِ المَناقِبِ
علىٌّ الذى قد كان إن حضرَ الوغَى قليلَ احتفاءٍ بالقَنَا والقَواضِبِ

حتى يقول بأحقية على وأبنائه فى الخلافة ، وأنها صُرفت عنهم :

أخذتُمْ على القربَى خلافةَ أحمدٍ وصَيَّرتُموها بعدهُ فى الآجانِبِ
وأيـن على الإنصافِ تيْـمُ بن مُرَّةٍ لو اخترتُمُ الإنصافَ من آل طالِبِ

ويعمد فى هذا اللون من الشعر الشيعى إلى معارضة بعض شعراء الشيعة السابقين من مثل السيِّد الحميرى والكميت ودعبل بن على الخزاعى . فهو على سبيل المثال يعارض قصيدة دعبل البائية المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومَنْزِلَ وحيَ مقفِرُ العَرَصاتِ

فيقول طلائع[1] :

ألائِمَ، دَعْ لَوْمِى على صبواتى فما فاتَ يَمْحُوهُ الذى هو آتِ
وما جرى من سيِّئاتٍ تقدّمتْ ذَهَاباً إذا أتبعتُها حَسَناتِى
ألاَ إننى أقلعت عن كلِّ شُبْهَةٍ وجانبتُ غرقى أبْحُرِ الشُّبُهاتِ
شغلْتُ عنْ الدُّنيا بُحبِّى لمعْشَرٍ بهم يَصفَح الرحمنُ عن هَفَواتِى
إليكَ، فلا أخشَى الضَّلالَ لكـونهم هُدَاتى، وهم فى الحَشْرِ سُفْنُ نجَاتِى
أئمةَ حقِّ لا أزالَ بذكرِهِمْ مواصِلَ ذكر الله فى صَلَوَاتِى

ويشير إلى من اغتصب حق العلويين وأنه سيلقى النبى ﷺ يوم القيامة خجلاً حين يسألهم : لم ضيعتم حق عِترَتِى :

إذا قال: لِم ضيعتُموا حقَّ عِتْرَتِى وكيفَ انتهكتُمْ جُرأةً حُرمَاتِى ؟!

(١) ديوانه ص ٦٦ .

أسائُمْ صنيعاً بعد موتى فغاصِبٌ ... لذُرّيتى حقّا ، وآخرغاتِ
ومن خصمه يومَ القيامة أحمد ... لقد حلّ فى وادٍ من النّقماتِ
فواحَزَنى لو أننى فى زَمَانِهم ... وواحرَّ أحشائى ، وواحسَرَاتِى
لأطعنَ فيهم بالأسنّةِ كلّما ... مَضَتْ حَمْلةٌ جاءت بمؤتنفاتِ
أقضى زمانى زفرةً بعد زفرةٍ ... فَقَلْبِىَ لا يخْلُو من الزّفراتِ
وصَدْرى فيه حرقةٌ بعد حرقةٍ ... فليسَ بمنفكٍّ عن الحرقاتِ

وهكذا يمضى مستشعراً الندم كغيره من الشيعة الذين يقيمون موسم عاشوراء لأظهار هذا الندم على عدم نصرة الحسين ، ويتحرقون لذلك ، فيعاقبون أنفسهم ويذرفون الدمع ، ويلبسون السواد ، ويقولون المراثى الموجعة تحفل بالندب والبكاء . وبشارك طلائع بشيعيته الملتهبة فى مراثى آل البيت ، فيقول فى رثاء الحسين من أبياتٍ وكأنها ولولة نادب :

متضاعف الحسرات مـ ... لوءُ الجوارح بالجراح
تعْساً لجبّارينَ أصلـــــوا خيْرهَمْ حَدَّالسلاح
حَملُوا رءوسهم الكريمة ... فوق أطرافِ الرِّماح
....
يا أمة غدَرَتْ ونُو ... رُ الحقِّ أبلجُ ذُو التِماح
وتعقّبَتْ سُنَنَ النبى ... الطُّهْرَ بالبدع القِباح
وتأوّلت فى محكم القر ... آنِ بالكذب الصُّراح
وغَدتْ على ظُلْم الو ... صيّ وآله ذاتَ اصطلاح
لا تقربوا منّا فَجرْ ... بُ الإبْلِ حتفٌ للصّحاح

ويرد فى شعره ما يتردد فى أشعار الشيعة من رموزٍ ، وإشاراتٍ كالحديث عن غدير خم ، والوصية يوم هذا الغدير ، فيقول :

ويومَ خُمٍّ ، وقد قال النبىُّ له ... بين الحضورِ، وشالت عَضْدَهُ يدُهُ
من كنتُ مولىً له هذا يكون له ... مولىً أتانى به أمرٌ يؤكِّدُهُ
من كانَ يخذله فالله يخْذُله ... أو كانَ يَعْضُدُهُ فالله يَعْضُدُهُ
قالوا سمعنا وفى أكبادهم حُرقٌ ... وكل مستمعٍ للقولِ يجحدُهُ

كما تردد فى أشعاره ما اعتاد الشيعة نسبته إلى على كرّم الله وجهه من مآثر كرمه .

ومن معجزات خصه الله بها فيما يروون تقترب في خوارقها من معجزات الأنبياء. ومنها باب الحصن في خيبر الذي قيل إن عليًا اقتلعه

وقَلْقَلَ الحصنَ فارتَاعَ اليهودُ له ... وكانَ أكثرُهُمْ عمداً يُفنّده
نادَى بأعلى العُلا جبريلُ ممتدحاً ... هذا الوصيُّ وهذا الطهر أحمدُهُ
وفى الفراتِ حديثٌ إذ طغى فأتَى ... كلٌّ إليه لخوفِ الهُلْكِ يقصدُهُ
قالوا : أجِزْنَا فقامَ المرتَضَى فرِحاً ... بالفضْلِ واللهُ بالإفْضَالِ مُفردُهُ
وقالَ للماء: غُرْ طوعاً ، فبانَ لَهُمْ ... حَصْبَاؤه حين وَافَى يَهدّدُه

ويعد نفسه سيف دين آل احمد .

أنا سيفُ دينكم ابنُ رزّيكَ الذى ... يُرضيكم فى كل وقتٍ يُنْتَضَى

ولم يوردْ أحدٌ ممن ترجم لطلائع شيئاً من هذا الشعر ، لأنه يخالف عقيدة معظمهم فقد ضربوا عنه صفحاً ، فيما عدا من تشيع منهم . فلم يختر صاحب معجم الأدباء ، ولا ابن خلكان ، والعماد ، وابن سعيد ، والصفدى سوى الأشعار التى تخلو من الإشارات الشيعية ، مع أنهم اعترفوا بأنه شيعى متحمس . واكتفوا بما جاء فى شعره من غزل أو وصفٍ للمعارك ، أو مطارحات بينه وبعض شعراء عصره وبخاصة الشعر المتبادل مع الشاعر الفارس أسامة بن منقذ .

ومثل هذا التجنب لجانب كبير من شعر الشاعر ضربٌ من الرقابة يفرضه العلماء على الشعراء . وحَجْبٌ لجانب من المعرفة عن القرّاء ، وهو تقصير لاشك ، بل لعلى أقول إنه مجانية للأمانة العلمية ، وتعميةٌ ، وإخفاءٌ للحقائق ، مما يخفى معها ملامح الصورة ، بل ويضلل الباحث لأنه لا يملك ما يستطيع به قولة الحق .

وهذا جانب من جوانب التراث ينبغى على كل باحث فيه أن يراعيه ، ويتنبه لمزالقه .

وبعد أن عرضنا لهذا الجانب المهمّ من شعر ابن رزّيك والذى يمثل غالبيته ، لا يفوتنا أن نكمل الحديث بالموضوعات الأخرى . ومنها ما يأتى بعد موضوعات الحديث عن آل البيت من مديح ورثاء، وإثبات حق، ودفاع عن المذهب، وأعنى موضوعات الزهد والحكمة ، والنصح ، وقد شغلت جانبا لا يستهان به من

شعره ، من ذلك قوله فى دار الوزارة بالفسطاط يذكر من توالى عليها من الوزراء وما انتهوا إليه ، وكان بالقرب منها القرافة مدينة الأموات ، فترى الشاعر يربط ربطاً غريباً بين هذه الدار ، وهى مطمح الأحياء ، والقرافة دار الموتى وقد استحالوا إلى عظام نخرةٍ وتراب . يقول(١) :

يا قلبَ كم ذا الغُرورُ   تُخدعُ المنى كذِبٌ وزُورُ
أوَ مَا ترى الآمال يَفضَـ   ـحُ طَولَها العُمْر القَصيرُ
وبمثل ما صيَّرنَا إليه إلاَّ   نَ يَعْتَبِـرُ البَصيـرُ
لو دَامَ مُلْكٌ لم يكنْ   بعد المَلوكِ لنا نصيرُ
أنظرْ لهذي الدّارِ كَمْ   قد حَلّ ساحَتَها وزيرُ
ولكـم تبخْتَـر آمنـاً   بين الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبـوا فلا واللهِ ما   بقَىَ الصَّغيرُ ولا الكبيرُ
حتى ولا أضحتْ تُرى   بين القبورِ لهم قبورُ
ما استيقظوا من غفلَةٍ   إلا وأرؤسُهـمْ تطيـرُ
ولحُومهُـمْ ممضوغَـةٌ   ومن الورى أيضاً نُسُورُ
فاصبْرْ فلا حَزَنٌ على الدُّ   نيـا يَدومُ، ولا سُرورُ

وقد ينظم فى معانى بعض السور القرآنية ، فيأتى بمطلع السورة أو آية من آياتها ويتم القصيدة أبيات فى معناها . أو مولّدة منها ، كأن يقول ؛ ويورد أبيات من سورة هل أتى على الإنسان حين من الدّهر الآيات ٨ وما بعدها :

أنّ الابرار يشربون بكأسٍ   كان حقاً مِزَاجُهـا كافورا
ولَهم أنشأ المهيمنُ عينًا   فجّرُوهـا عبادُه تفـجيرا
وهَدَاهُمْ وقال: يوفون بالنذ   رِ فمن مثلهم يُوفّى النُّذورا
ويخافون بعد ذلك يَوماً   هائلاً كان شرُّه مُستطيرا
يطعمون الطعام ذا اليُتْم   والمسكينَ فى حُبِّ ربِّهـمْ والأسيرَا
إنما نُطعِمُ الطعام لوجّه اللّـ   ـهِ ، لا نبتغى لديكم شكورا
غير إنا نخافُ من ربنا يوما   عبوساً عَصبَصباً قمطريرا
فوقاهم إلههم ذَلِك اليو   مَ يلقَونَ نضرةً وسُرُورَا
وجزاهم بأنهم صبروا فى الـ   ـسرّ والجهر جنةً وحَرِيرَا

(١) ديوانه ص ٧٦ .

فى اتكائِهم لا يرونَ لدى الجنَّـ ـــةِ شمساً، كلاّ، ولا زمهريرا
وعليهم ظلالُها دانياتٌ ذُلِّلَتْ فى قطوفها تيسيرا

وهكذا يمضى فى معظم آيات هذه السورة . وله تجارب أخرى من هذا القبيل.

ومن نصائحه :

يامريضَ القلب بالذنـ ـــبِ ، متى بالعَفْوِ تُبْرا
كلمـــا جددَ يومٌ توبةً، ضَيَّعْتَ أخرى
تشتهى الأجـــر ولا تفعَلَ ما يكسِبُ أجرا
أترى بعد ذهاب العمـ ـــرِ تستأنفُ عُمْرا

ويقول من أبيات أخرى فى الموضوع :

ياراكباً ظهر المعـــاصى أو ما تخافُ من القَصَاصِ
أو ما ترى أسباب عمرك فى انتقاضٍ وانتقـاصٍ ؟

وقال ينصح من يتصابى بعد المشيب :

مشيبُك قد نَضَا صِبغَ الشبابِ وحَلَّ البازُ فى وَكْرِ الغُرابِ
تنامُ ومقْلَةُ الحدثانِ يقظى وما نابَ النوائبَ عنكَ نابِى
وكيف بقاءُ عمرك وهو كنزٌ وقد انفقت منه بلا حِسَابِ

ومن الأغراض التى أكثر فيها القول حديث القتال والغارة على الافرنج فى ثغور الشام. وكان الأسطول المصرى فى عهده قد أغار على بعض الثغور بالشام، ودمَّر ممتلكات وتحصينات للعدو الصليبىّ ، ووافق ذلك زلزلة عظيمة وقعت هناك فهدمت بعض قلاعهم ، ومات منهم عدد . وكذلك فى أوائل ربيع الأول من سنة ٥٥٣ هـ خرج فريق وافر من عسكر مصر إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالهما . قال ابن القلانسى(١) : « وخرج إليها من كان بها من الفرنج الملاعين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يُفلِتْ منهم إلاّ اليسير وغنموا وظفروا ، وعادوا سالمين . وقيل إن مقدم الغزاة فى البحر ظفر بعدةَ من مراكب . وهى مشحونة بالإفرنج ، فقتل وأسر منهم العدَدُ الكثير والجمُّ الغفير . وحاز من أموالهم وعُددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانما »(١) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٣٧ .

وفى رمضان من نفس السنة كانت بين المصريين والفرنج وقعة قرب العريش انتصر فيها العسكر المصرى ، وظفر بجملةٍ وافرة من الافرنج بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب(١) .

وصنع ابن رزّيك فى هذه الغارات المنصورة أبياتا يفخر فيها بصنيعه وشجاعة جنده . يقول :

تواللتْ علينا فى الكتائب والكُتب ... بشائرِ من شرق البلاد ومن غربِ
بشائر تُهدى للموالى مسرّةً ... وتحدث للباغين رُعباً على رُعْبِ
ففى كبدٍ من حَرّها النّارُ تلتظى ... وفى كبدٍ أحلى من البارد العذْب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جَرتْ ... عليها عِتاقُ الخيل كالنَّفنَفِ السُّهُبِ(٢)
فقد أصبحت أوعارُها وحزونُها ... سهولاً تُوطّا للفوارِسِ والرَّكْبِ
ولمّا غدَتْ لا ماءَ فى جنباتِها ... تَـيَمَّنَّا عليها وابِلاً من دَمٍ سَكْبِ
وجادتْ بها سُحْبُ الدروعِ من العِدا ... نجيعاً فأغنتْها الغَداةَ عن السُّحْبِ
وأجْرَتْ بحاراً منه فوقَ جِبالِها ... ولكن بحار ليسَ تصلَحِ للشُّرْبِ
فقد عمَّها خصبٌ بها من رءوسِهم ... ـبها، وكم خصْبٌ أضرٌّ من الجدْبَ
وقد روَّعتها خيْلنا قبلَ هَذِهِ ... مراراً، وكانتْ قبلَ أمنة السِّربِ
وأخفى صهيلَ الخيلِ أصواتِ أهلِهَا ... فعاقت نواقيسَ الفِرنْجِ عن الضَّرْبِ
وأبطالَ حربٍ من كَتامَةَ دَوَّخوا ... بلادَ الأعادِى بالمسوَّمَةِ القُبِّ
وعادوا إلينا بالرءوسِ على القَنَا ... وأغناهُمُ كسْبُ الثناءِ عن الكسْبِ
وإنّا بنى رُزِّيكَ مازالَ جارُنا ... يَحُلّ لدينا بالكرامةِ والخِصْبِ
ونفتك بالأموالِ فى السِّلْمِ دائِماً ... كما نحن بالأعداءِ نفتِكٌ فى الحَرْبَ

وفى الرسائل الشعرية المتبادلة مع أسامة بن منقذ تسود هذه النغمة الحربية ، إلى جانب تبادل الودّ وعبارات المحبة والشوق بين الشاعرين الفارسين . كتب أسامة إلى ابن رزّيك :

وما سكنَتْ نفسِى إلى الصَّبْرِ عنكَمْ ... ولا رَضِيْت بُعدَ الدِّيارِ من القُربِ

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٢) النفنف : المفازة: والسُّهب المستوية .

فأجابه طلائع بقوله(١) :

من اليوم لا أغترُّ بَعدَك بالحبِّ ... ولا أطلُبُ العُتبَى من الخِلّ بالعَتْبِ
ولا أرتضَى بالبعدِ عن ذى مودَّةٍ ... وأقنع منه بالرَّسائِلِ والكُتْبِ
ولا سيما إن قالَ لى متصنّعاً : ... ففارَقكُمْ جسْمِى وجَاوركُمْ قلْبِى
على أننى قد قلْتُ حينَ أجبتُه ... بلا حِشمةٍ : ما أشبهَ العُذرَ بالذّنبِ
أخلاىَ لو دُمْتُمْ دُنوًّا لما أبَى ... سُرَى العِيسِ، بل ركضَ المطهَّمةِ القُبِّ
ولكنَّكُمْ بعتمْ وفاءً بغَدْرةٍ ... غداةَ اشتريتُمْ وحشةَ البعدِ بالقُربِ
عليكُم سلامُ اللهِ إنّ بعادكمْ ... لأعظمُ ما قد كان من ذلك الخطبِ

يقول فيها :

وما روضةٌ غَنّاءَ هبَّ نسيمُها ... عليلاً فلم يوقظْ بها نائِمَ التُّرْبِ
سَقَاهَا الحَيَا من آخِرِ اللّيلِ مُزْنَةٌ ... كأيمانِنا لمَّا همت بَدمٍ سَكْبِ

ومن الرسائل بينهما الطائية التى أعجبت العماد(٢) . قال أسامة :

أجيرةَ قلبِى تَدانَوْا وإنْ شَطّوا ... ومُنْيةَ نَفسِى أنْصِفُونى أوِ اشتطّوا
هِىَ البدْرُ لكنَّ الثُّريَّا لهَا قُرْطٌ ... ومن أنجم الجوزاءِ فى نحرِهَا سِمْطٌ
تُشَتُّ وعليها للغمام غَلائِلٌ ... تُظِلّ، ومَن نسْج الرَّبيعِ لها بُسْطٌ
تُوَمّ صريعاً فى الرِّجالِ كأنَّهُ ... مِن السُّقْمَ، والأيدى تُقلّبُه خطّ
فما اخضر تربُ الأرضِ إلاّ لأنها ... عليه إذا زارَتْ، بأقدامها تَخْطو
ولا طابَ نشرُ الرَّوضِ إلاّ لأنَّهُ ... يُجَرُّ عَليه مِن جَلابِيبِها مِرْطٌ

حتى يقول فى تخلصه :

ولمَّا نأت عنَّا على كلِّ حالةٍ ... تساوى الرِّضا والسُّخْطُ والقُرْبُ والشَّحْطُ
لَأذكرنا ذاكَ البعادُ معَاشراً ... نأوْا ، فكأنَّا ما لَقِيناهُمُ قطّ

....

أأحبائنا بالشام عِفْتُم جوارنَا ... فجاورَكمْ فى أرْضِها الخوفُ والقَحْطُ
وقد عشتُم فيها زماناً ، فما اعترى ... رضاكُم بها، لولا تخوُّفكم سُخْطُ
وكنتُم لنا دُونَ الأقارِب أسرَةً ... ونحنُ لكُم من دون رهطكُم رَهْطُ

(١) ديوان ابن رزيك ص ٥٩ .

(٢) الخريدة ، ١ /١٧٥–١٧٦ ، قسم شعراء مصر .

ويخلص مرة أخرى إلى الفخر فيقول :

وإنا أناسٌ، ليسَ يبرح جارُنا ... يُحَكِّمُ فى الأموالِ مِنَّا، ويَشْتَطّ
ويمتاحنا زُوَّارُنا، فكأنَّما ... غداً شرطُهُمُ علينا ، ولا شرْطَ
ويُصْبِحُ بسْطَ المالِ بالكفِّ عندنا ... وكلِّ مليكٍ عنده القبضُ والبسْطَ
وتخرقَ شرقَ الأرضِ والغـرْبَ خيلنـا ... عليها الشبَابُ المرْدُ والجلّةَ الشُمْطَ
وظلّماءَ للشّهب الدّرارى إذا سَرَتْ ... هُناكَ معَ السَّارينَ، فى جُنْحِها خَبْطَ
كما أولَ الفَجْرَيْنِ سَقطَ يُسَلّ مِنْ ... حَشَاهَا، كذاكَ البرقَ فى جوفِهَا سَقَطَ
سَلَلْنَا بها البيضَ السُّيوفَ فلاحَ فى ... شبَابِ الدُّجَى لمّا بَدا لمعُها وَخْطَ
سُيوفَ لها فى كلِّ دِرْعٍ وجُنَّةٍ ... إذا ما اَعتَلَتْ قدٌّ، أو اعْتَرضَتْ قَطّ
ذخرنَا سطاها للفرنْجِ، لأنَّها ... بهم دُونَ أهلِ الأرْضِ أجدرُ أن تَسْطُو
لهم قسطُهُمْ فى الحرْبِ فيها، ومالها ... عليهم لدَى الهَيجاءِ عَدْلَ ولا قِسْطَ

....

وحربٍ لها الأرواحُ زاهقةٌ لما ... تُعاينُ، والأصواتُ من دَهَشٍ لَغْطَ
إذا أرسَلَتْ فَزْعاً من النقع فَاحِماً ... فأسْنَانُ الرِّماحِ لها مُشْطَ
كأنّ القَنَا فيها أناملَ حاسِبٍ ... أجدَّ بها فى السُّرعَةِ الجمعُ واللّقطَ
ردَدْنَا بها ابن «الفِتشِ»[1] عنَّا وإنّما ... يثبتُه فى سَرْجِهِ الشَّدُّ والرَّبْطَ

وفى هذه القصيدة الجيدة ، يشير إلى حقيقة موقف نور الدين من حرب الصليبيين بالشام، فقد رأى ابن رزّيك أن يتعاونا معاً على صدّ غارات الصليبيين، بأن يؤازر جند الشام جند مصر فى هذه الحرب المقدسة ، وكرر ابن رزّيك ذلك مرارا وألح على نور الدين بواسطة صديقه أسامة إلا أن نور الدين لم يستجب لإلحاح ابن رزيك لاسباب بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر باطن مُتّصِلٌ بأهداف نور الدين والزنكيين وأَتباعهم عامة .

فأما الظاهر منها فهو ما انتاب نور الدين من متاعب صحية ، وأسرية فقد هاجمه المرض مرتين فى سنوات ٥٥٢ هـ وسنة ٥٥٣ هـ ، وأوشك على الموت . وكان بينه وبين إخوته متاعب شغلته عن حَشْد طاقته العسكرية لمواجهة الصليبيين . كما أنه كان يتريث ولم يكن من طبعه المغامرة غير المحسوبة ولذلك كان

---

(١) أحد فرسان الصّليبيين الذين كانوا يغيرون على الحدود المصرية .

يعقد الصلح حيناً بعد حين مع فرسان الصليبيين وقادتهم ريثما يعدُّ عُدّته ، ويمكّن لنفسه . وكان فى طبع نور الدين ميل إلى الزهادة ، والعزوف عن الدنيا ، ولم يكن به تعطش للدماء . وكان رجلاً عابداً مجاهداً بالنفس والسيف .

والهدف البعيد الذى كان يعمل له ، ونكص به عن مؤازرة ابن رزّيك خشيته من الانتصار ، وبعده أن تقوى شوكة ابن رزّيك ، وهو الذى يملك إمكانات مصر كلها بكل ما تدخره من غِنًى وقوة ، فيعْطِي الفرصة للقوة الإسلامية الفاطمية المعارضة أن تمسك بالزمام ، وأن تستعيد سيطرتها على المنطقة بعد أن آذنت شمسها بمغيب ، وتأمل القوى الإسلامية الأخرى وهى قوة الزنكيين واتباعهم من الأكراد والسلاجقة والشوام ممن يخالفونهم فى المذهب تأمل هذه القوى فى التمكين لنفسها ، ولا تظهر الجفوة للفاطميين مرحلياً ، حتى تأتى الفرصة ليثبوا وثبتهم . وقد كان .

ولاشك أن نور الدين تخوّف من قدرة ابن رزّيك ، وحماسه لحرب الصليبيين وربما أشار عليه ناصحوه وأعوانه بالتريث وعدم الاستجابة لمطالبه فى العون على حرب الصليبيين إلا بقدر محدود .

وهكذا يشهد التاريخ الإسلامى مرة أخرى تشرذم العصبة الإسلامية وتفرقها أمام القوى المعادية لمطامع خاصة تضيع فى تيارها وتغرق الأهداف العامة ومصلحة المسلمين والإسلام .

يقول ابن رزّيك :

فقولوا لنورِ الدين : ليس لجائف الجرا ... حاتِ إلاّ الكيُّ فى الطبِّ والبطّ
وحَسْمُ أصولِ الداءِ أولى لعاقلٍ ... لَبيبٍ إذا استولى على المدنِفِ الخلْطَ
فدَعْ عنْكَ ميلاً للفرنْج وهُدْنةً ... بها بدا يُخْطِي سِواهُم ولَمْ يُخطُوا
تأمّل فكم شَرْطٍ شرطْت عليهم ... قديماً ، وكم غدرٍ به نقض الشَّرْطَ
وشمِّرْ فإنّا قد أعنّا بكلِّ ما ... سألتَ وجهّزنا الجُيوشَ ولن يُبْطو

لقد اختار العماد أبياتا من هذه القصيدة ، لكنه تحاشى ما فيه ذكر نور الدين وأعجب بصنعة ابن رزّيك لا بمضمون كلامه ، ودعوته إلى وحدة جند المسلمين ، وتعجبُ لهذا التعصب الطائفى المذهبى الذى يغلب على الناس ، فيتناسوا أنهم شيعة وسنة مسلمون فى النهاية ، وأن الهمَّ ، والخطر الذى يترصدهم لا يفرّق بين

المذهبين ، وإنما يدهمهم جميعاً ، لكنها مأساة المسلمين فى التاريخ جعلتهم يفضّلون العصبية المذهبية ، ويقدمونها على مصلحة الإسلام عامة ، والأوطان خاصة .

والرسائل الشعرية بين الشاعرين الكبيرين ترتفع فى شعريتها إلى مستوى فنىّ لا يلحق به شعرهم الآخر ، وخاصة شعر ابن رزيك ، ويكشف ذلك عن مدى الصدق فى العلاقة التى ربطت بين الرجلين .

ونمثل بهاتين القصيدتين المتبادلتين على ذلك . يقول أسامة(١) :

أذكرْهُمُ الودّ، إنْ صدّوا، وإن صدَقوا ... إنّ الكرام إذا استعطَفتهُمُ عطَفوا
ولا تُرِدْ شافعاً إلا هواك لهُمْ ... يكفيكَ ما اختبروا منه، وما كشفوا
به دَنَوْتَ، وإخلاصُ الهوَى نَسَبٌ ... كما نأيتَ، وإفراطَ الهوَى تَلَفُ
رأى الحسودُ تدانى ودَنا فسعى ... حتى غدتْ بين دارينَا نوًى قَذَفُ
ومَا البعيدُ الذى تنأى الدّيارُ بهِ ... بل من تَدَانى، وعنه القلبُ مُنْصَرِفُ
أجيرةَ القلْبِ، والفسطاطُ دارُهُمُ ... لم تُصقِبْ الدارُ، لكن أصقَبَ الكلِفُ(٢)
أدنى التّدانى الهوَى، والدارُ نازحةٌ ... وأبعدَ البُعْدُ بين الجيرةِ الشَّنَفُ(٣)
فارقتكم مكرهاً، والقلبُ يخبِرُنِى ... أن ليس لى عوضٌ منكم، ولا خُلَفُ
ولو تعوّضتُ بالدُّنيا غَنيتُ، وهل ... يُعوّضُنى من نفيسِ الجوْهرِ الصَّدَفُ؟!
ولَسْتُ أنكِرُ ما يأتى الزمانُ بهِ ... كلّ الورَى لرزايا دَهْرِهِمَ هَدَفُ
كم فاجأتنى الليالى بالخُطوبِ، فمَا ... رأتْ فؤادِىَ من رَوْعاتِها يجفُ
واسترجعتْ ما أعارت من مواهبِها ... فما هَفَا بى على آثارِهِ اللّهَفُ
ولا أسِفتُ لأمرٍ فات مَطْلَبُه ... لكن لفرقةِ من فارقته الأسفُ
من كانَ لى من حماهُ خيس ذِى لِبَدٍ ... ضارٍ، ولى من نداهُ روضةٌ أُنُفُ
من لم يَزَلْ لى من جَدْوى يديه غِنىً ... وفى ذراهُ من الأيّامِ لى كَنَفُ
الملكُ الصّالحُ الهادى الذى شهدتْ ... بفضل أيامِه الأنباءُ والصُّحُفُ
مَلْكٌ أقلّ عطاياهُ الغِنَى، فإذا ... أدناكَ منه، فأدنَى حظّكَ الشرفُ
أغرُّ، أروعُ، فى كفّيهِ سُحْبُ نَدَى ... تمتارُ سُحْبُ الحيا منها وتَغْتَرِفُ

(١) ديوان أسامة ص ٨٥ ، وديوان طلائع ص ٩٨ .
(٢) أصقبت الدار : دنت ـــ والكلف شدة الحب .
(٣) الشنف : البغض والكره .

ويمضى فى مدحه حتى يقول :

سَعَتْ إلى زُهْدِهِ الدنيا برغبتها — طوعاً، وفيها على خُطَّابِها صَلَفُ
ولم تُزَفَّ إلى كُفْءٍ سِوَاهُ، وما — زالَتْ إلى مجده تَصبُو، وتَشتَرِفُ
صبرٌ، إذا الليلُ آواه بِحِنْدِسِهِ — بحرٌ من العلم طامٍ، ليس يُنتَزَفُ
ومِحْرَبٌ ، ما أتى المحرابَ مُبتهلاً — إلاّ وأدمعهُ من خشيةٍ تكِفُ
مُسَهَّدٌ وعيونُ الخَلقِ هاجعةٌ — على التهجُّدِ بالقرآنِ مُعتكِفُ

. . . . . .

ويختِمُ الأبيات بطلب العونَ لقلة ما بين يديه من المال ، فيقول :

إليكَ ياعَادِلاً فى حُكْمِهِ وعلى — أموالِه من قضَايا جُودِهِ الجنَفُ
أشكو زماناً قضَى بالجودِ فِيَّ ولمْ — يَزَلْ يجودُ على مثلى ويعْتسِفُ
لحَتْ نوائِبُه عُودِى ، وأنفدمو — جُودِى، وشتَّت شمْلِى وهو مُؤتلِفُ
وقد دعوتُك مظلوماً ومُرتَجيًا — وفى يَدَيْكَ الغِنَى ، والعدل والشرف
فاجمع بجودِكَ شملاً كان مجتمعاً — فعَاد بعد أتلافٍ ، وهو مُختَلِفُ
وانشُرْ بمعروفِكَ الحروفَ مَيْتهُمْ — وشُكْرَ من هو بالإحسانِ ومُعترِفُ
فهو القَرِيبُ موالاةً ومعتقداً — وإنْ أتتْ دونه الغبراءُ والنُّطَفُ(١)
وعِشْ على رَغْمِ من يشناكَ مقتدراً — فى دولةٍ ، مالَها حدٌّ ولا طرفُ

فأجاب الصالح بقوله :

آدابكَ الغرُّ بحرٌ مالَهُ طَرَفُ — فى كلِّ سَمْعٍ إبدا من حُسْنِه طَرَفُ
نقولُ لمَّا أتانا ما بعثتَ به — هذا كتابٌ أتى ، أم روضةٌ أُنُفُ
خطٌّ تنزَّهَتْ الأنظار حين بدا — كأنه الدرُّ ، عنه فُتِّحَ الصَّدَفُ
إن نظمُهُ طرقَ الأسماعَ كان لها — وإن حوتْ عطلاً من حِلْيَةٍ شَنَفُ
رَقَّتْ حواشِى كلامٍ أنت ناظِمُهُ — فيه، فجاءَ كزَهْرِ الرَّوضِ يقتطَفُ
وَرَدْتَ بحرَ القوافى فاغترفتَ كما — قد حلَّ يوماً بمدِّ النيل مُغترِفُ

. . . .

إذا تطلَّع فوقَ الأرضِ ذو أدبٍ — فأنتَ منه على العَيُّوقِ تشترِفُ

حتى يقول :

إذا ذكرْنَاكَ مجدَ الدين، عاوَدَنا — شَوْقٌ تَجدَّدَ منه الوجْدُ والأسَفُ

(١) النُّطَفُ : جمع نطفة الماء الصافى قل أو كثر .

ودون ما وجدناهُ لفرقتكمْ يحيط بالقلبِ من أرجائه التَلَفُ
ولو عَرفتَ الذى فى القلب منك لما أن حلت عنّا على الأحوالِ تختلفَ
ولا عجيبٌ إذَا حافَ الزّمانُ على حُرٌ ، وكلّ قضاياهُ بها جَنَفُ
فلا تكنْ جازعاً ، إن التجاوز عَنْ إنفاقِكَ الصّبرَ فى شَرْعِ الهوى سَرَفُ
فإن حَصَلْتَ على الصّبرِ احتويت على الأجـــــــرِ الجزيلِ ، وفى إحرازِهِ شَرَفُ
يا مَنْ جفانا، ولو قد شاء كانَ إلى جنَابِنَا دُونَ أهل الأرضِ يَنْعَطِفُ
وحقِّ مَنْ أمَّهُ وفْدُ الحَجيجِ، ومَنْ ظَلّتْ إلى بيتِهِ الرُكبانُ تختَلِفُ
إنَّا لنُوفى على حَالِ البعادِ، كما نوفى لمن ضَمَّهُ فى قُرْبِنا كَنَفُ
ونغفرُ الذّنبَ إن رَامَ المُسيىءُ بنا عَفواً، ونسترهُ فى حينَ ينكشِفُ
وإنْ جنَى من رَأى أنّا نُعاقِبُهُ يَرُدُّنا الصّفحُ، أو يعتاقنا الأنَفُ
نَعَمْ ونحفظ عند الغَيْبِ صاحِبَنَا وليسَ يُدْرِكُنا كِبْرٌ ولا صَلَفُ
فما لإيعادِنا يومَ الوغَى مَيَلٌ ولا لموعِدنَا يومَ النّدى خُلُفُ
فعندنا جنَّةٌ تدنو الثّمارُ بها إذا دَنَا مُجتَنٍ منها، ومُقْتَطِفُ
هَدَى مصابيحَنَا ضوءُ النّهارِ، وكمْ قد ضَلّ من فى ظَلَامِ اللّيلِ يعتسِفُ
فمِلْ إلينـا بآمـالٍ مُحقّقَةٍ وكَفَّ غربَ دُمُوعٍ لم تَزَل تَكِفُ
كَفى اغتراباً، فعَجّلْ بالإيابِ لنا فمِنْكَ لا عِوَضٍ، يُلْفَى ولا خَلَفُ
وقد أجبنا إلى ما أنت طالِبُه فالآنَ كيفَ تَرَوّى فيهِ أو تَقِفُ؟
فرأينا فيكَ قد أضحىَ علانيةً والجُنْدُ قد عَرَفوا منه الذى عَرَفُوا
وقَدِّمت لَكَ تمهيداتُنا، وبها وَحْشُ الفَلاةِ إذا ما رُوِّعَتْ آلَفُ
كأنّنا حِينَ تجرى ذَكرةٌ لكمُ على اضطِرامِ لهيبِ النار نَعتكِفُ
فإنْ يُبالِغْ أناسٌ فى الثّناءِ عَلَى أوْصافِكمْ قصّرُوا فى كَلّ ما وَصَفُوا

وهذه الأبيات والأبيات الأخرى التى ردّ بها الصالح ، أو بدأ بها صديقه أسامه إنما سجلّ واضح لصداقة ومحبة بين قائدين من قادة هذه المرحلة وفرسانِها تكشف عن علاقةٍ إنسانية حميمة فضلاً عما يربطهما من عملٍ على مصلحةٍ عامة فى ردّ عادية المعتدين من الصليبيين ، تلمح فيها الاخلاصَ من الجانبينَ وصدق الحديث . اعتذارٌ من أسامة عما حَدَث من ملابسات فى أحداث القصر التى أدَّت إلى مقتل الخليفة الظافر وثلاثةٍ من أعوانه ، لم يكن له يدٌ فيها ، وإنما وضعته الظروف رغماً منه فى أتون الأحداث للعلاقة التى ربطت

بينه وبين القاتِلَيْن عباس وابنه . مما جرَّ عليه غضب القصر رجاله ونسائه وغضب جند الخلافة وقد شاهدوه وعباساً ونصراً فى شوارع القاهرة يحاربونهم . فالأتهام قائمٌ ، وإن كانت يُده لم تُلوث بدمٍ ، وإنما وقع عليه الظلم كما وقع عليه فى ظروف عديدة فى حياته ، ويعرف طلائع مدى ما عاناه أسامه من جنِف الحياة ، وحيف الأقارب والأصدقاء والأعوان . ويعرف ما فى نفس صديقه من عزة ومن عفة ، ويعرف براءته مما ينسب إليه ، ويدرك كذلك موقف التردد الذى يقفه من دعوته وقبوله العودة إلى مصر ، فإن فى نفس أسامة تخوفاً ، وشكاً ، لا من ناحية صديقه طلائع ، ولكن من ناحية القصر والجند ، فهم مهماً طمأنه ، واعتذر عنه ، وأوضح موقفه ، فإنه لا يأمل الغيلة .

وهذه الرسائل الشعرية المتبادلة فريدة فى تاريخ الشعر العربى ، لأنها حوارٌ يحمل فى طياته كثيرا من المشاعر والأحاسيس الإنسانية والمودة بين صديقين كما تحمل سجلاً لكثير من أحداث العصر وأسراره ، لا تكشف عنها مصادر التاريخ المعتادة والتقليدية . فضلاً عما تحمل من شاعرية متدفقة لشاعرين من رواد الشعر فى عصرهما ، وفارسين من فرسان الجهاد .

ولطلائع فى هذه الحوارات الشعرية قصائد تسجّل المعارك وتكشف عما قام به جند مصر من أدوار فى تلك المرحلة ، ربما أغفلها التاريخ ، أو لم يركز عليها تركيزه على المرحلة التالية فى عصر الأيوبيين والمماليك . فهذه القصائد تكشف عما أهمله التاريخ من مواقف مُضيئةٍ لأبطالٍ خاضوا من أجل العقيدة والوطن معاركَ مهدت بعد ذلك للنصر :

فمن هذه القصائد ميميَّةٌ حماسيَّةَ النبرة يقول فيها طلائع(١) :

أَلَا هكذا فى الله تمضِى العزائِمُ ... وتمضِى لدَى الحرْبِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ
وتُستْنزَلَ الأعداءُ من طَوْدِ عِزِّهمْ ... وليسَ سِوَى سمر الرِّماحِ سَلَالِمُ
وتُغْزَى جيوشُ الكفرِ فى عُقرِ دارِها ... ويُوطَا حِمَاهَا، والأنُوفُ رواغِمُ
ويوفى الكرامُ النَّاذرونَ بنَذْرِهمْ ... وإنْ بذِلَتْ فيه النُّفوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنا مَسِيرَ الجيش فى صَفَرٍ، فما ... مَضَى نِصفُه، حتَّى انْثَنى وهوَ غانِمُ

(١) ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وديوان طلائع ص ١٣٥ .

بَعثناهُ من مصرٍ إلى الشامِ، قاطِعاً   مَفاوِزَ وخْدُ العِيسِ فيهنَّ دائِمُ
وناهِيكَ من أرضِ الجِفارِ إذا التظي   بِجَنْبَيْهِ مشبُوبٌ من القَيظ جَاحِمُ
وصارَتْ عيونُ الماءِ كالغيْنِ عِزَّةً   إذا ما أتاهَا العَسْكرُ المتراحِمُ
فما هَالهُ بُعدُ الدِّيارِ ولا ثَنى   عزيمَتَهُ جهْدُ الظَّما والسَّمائِمُ
يُهَجِّرُ والعصفورُ فى قعرِ وكْرِهِ   ويَسْرِى إلى الأعْداءِ والنَجْمُ نائِمُ
إذا ما طوَى الرَّاياتِ وقت مَسِيرِهِ   غدَت عوضًا مِنها الطُيورُ الحوَائِمُ
تُبارِى خُيولاً ما تَزالُ كأنَّها   إذا ما هِىَ انقضَتْ نُسُورٌ قَشاعِمُ
فإن طلبتْ قصداً تساوَيْنَ سُرْعةً   قوادِمُها فى جَوِّهَا، والقوائِمُ
هىَ الدُهمُ ألواناً وصِبْغَ عجاجَةٍ   فإنْ طلبَتْ أعداءَها فالأداهِمُ
تصاحِبُها علماً بأن سَوْفَ نَغتَدِى   بِها، ولها فى الكافِرينَ مطاعِمُ
كما أنَّ وحشَ القَفرِ مازالَ مِنهُمُ   مَدى الدَّهرِ أعراسٌ لَهُمْ وولائِمُ
خيولٌ إذا ما فارقَتْ مِصرَ تَبْتَغِى   عِدًى، فلَها النَّصرُ المبينُ مُلازِمُ
يسيرُ بها ضِرغامٌ فى كلِّ مَأزِقٍ   وما يَصْحبُ الضرغامَ إلاّ الضَّراغِمُ
ورفقتُهُ عينُ الزَّمانِ وحاتِمٌ   ويحيى، وإنّ لاقى المَنيَّةَ حاتِمُ
مضَى طاهِرَ الأثوابِ من كلِّ رِيبةٍ   شَهيداً، كما تمضِى السَّراةُ الأكارِمُ
هنيئاً له يُسْقَى الرَّحيقَ إذا غدَتْ   تُحيِّيهِ فى الخُلدِ الحِسَانُ النَّواعِمُ
ولو أننا نبكى على فقد هالِكٍ   لَقَلَّتْ له منا الدُّمُوعُ السَّواجِمُ
ولكنَّنا بعنا الإلهَ نفوسَنَا   ورِحْنا، وما مِنَّا على البَيْعِ نادِمُ
تهونُ علينا أن تُصَابَ نُفوسُنا   إذا لم تُصِبنَا فى الحياةِ المآثِمُ

ويذكر حشود فرق الجيش بأسمائها وقادتها، ومن انضم إليهم من جند القبائل المؤيدة المجاهدة مثل سِنْبِس، وثعلبة، وجُذَام بالحُوفِ الشرقى من مصر وأرض سيناء. حتى يقول:

جُيُوشٌ أفدناها اعتزاماً ونجدةً   فطَاعِنُنا منهم، ومنَّا، العَزائِمُ
إذا ما أثارُوا النَّقعَ، فالثَّغرُ عابِسٌ   وإنْ جَرَّدُوا الأسيَافَ فالثَّغرُ باسِمُ
ولمَّا وطَوا أرضَ الشّامِ تَحالفَتْ   فأضحتْ جميعاً، عُربُها والأعاجِمُ
وواجههم جمعُ الفِرنْجِ بِحمْلَةٍ   تهونُ على الشجعانِ منها الهزائِمُ
فَلَقَوْهُمُ زرْقَ الأسنَّةِ، وانْطَوَوا   عليهم، فلم يَنْجُمْ منَ الكفرِ ناجِمُ
وما زالَتْ الحربُ العَوانَ أشدَّها   إذا ما تلاقَى العَسْكرُ المتصادِمُ

يُشبّهُهُمْ من لاحَ جمعُهُم له بلجّةِ بحرٍ مَوْجُهَا مُتَلاطِمُ
وحسبُكَ أن لم يَبْقَ في القوم فارسٌ من الجيش إلاّ وهو للرُّمح خاطِمُ
وعادُوا إلى سَلِّ السيُوفِ فقَطّعَتْ رُءُوسٌ، وحزّتْ للفرنجِ غلاصِمُ(١)
فلَمْ ينْجُ منهُمْ يومذاكَ مُخَبِّرٌ ولا قِيلَ: هَذَا وحدَهُ اليومَ سالِمُ
كذلِكَ ما ينفَكُّ تُهدَي إلى العِدَى وللوحشِ أعراسٌ بهم ومآتِمُ
وتسْرِي لهم آراؤنا وجُيوشُنا بِدَاهيةٍ تبيَضُّ مِنها المقَادِمُ
نُقتّلُهُمْ بالرّأيِ طوراً، وتارَةً تدوسُهم مِنّا المذاكِي الصَّلادِمُ

ويشيرُ إلى مهادنةِ نور الدين للصّليبيين، مع احتلالهم لأرض شيزر وحصن حارم وغيرها من الثغور والحصون الإسلامية بالشّام، ويستحثه على النهوض لمناجزتهم متضافراً مع جيش مصر وأسطولها. ويقول إنه وجيشه لا يهدأون فى قتال الأعداء.

فنحنُ على ما قد عَهدْتَ نروعُهم ونُخلِفَ جهداً أنّنا لا نسالِمُ
وغارتُنَا ليسَتْ تفتُّرُ عَنْهُمْ وليسَ يُنجّى القَومَ منها الهزائِمُ
وأسْطَولُنَا أضعافَ ما كان سائِراً إليهِمْ فلا حصنٌ لهم منه عاصِمُ
ونرجو بأنْ نجتاحَ باقِيَهِمْ بهِ وتُحْوَى الأسارَى مِنْهُمُ والغَنَائِمُ
على أننا نلنا من المجدِ ما بهِ نفاخِرُ أمْلاكَ الورَى ونقاوِمُ
ولكنّنَا نبغى المثُوبةَ جُهْدَنَا وطَاقتنا، والله معطٍ، وحارِمٌ
ونختم بالحسنى الحيَاةَ، وإنما تُزَيّنُ أعمالَ الرِّجالِ الخواتِمُ

لقد خلّد المتنبى معارك سيف الدولة ضد الروم، مع أنها كانت غارات، تبادل فيها الفريقان الكرَّ والفرَّ، حتى كانت الغلبة فى النهاية للروم فاصابت إمارة سيف الدولة بحلب فى مقتل وزعزعت أركانها حتى جاء الفاطميون فأعادوا حلب إلى حوزة المسلمين.

وها هو طلائع يعيد وصف المعارك مع الصليبيين وإن اختلفت الدوافع والظروف، فطلائعُ هنا يحس بالخطر المحدق بالأمة الإسلامية، ويعلن دعوة الجهاد التى ينبغى أن يتضافر تحت لوائها المسلمون يداً واحدة، وقوةً متماسكة ليصلوا إلى غايتهم.

---

(١) الغلاصم: اللحمُ بين الرأس والعنق، أو رأس الحلقوم.

ولكن يبدو أن دعوة طلائع ، كانت صيحةً فى خلاء .. أو لم تلق الاستجابة على ما سبقت إشارتنا ، وبقى لنا بعد ذلك هذا الشعر ، الذى يكشف عن صفحة مجهولة ، ويبرز جهداً كاد أن يضيع فى طيَّاتِ الأيام . كانت مصرُ قيادة وجنداً وإمكانات تعمل على بقاء الصرح . حتى أتيح لها بعد أن ترى رايات الانتصار ترتفع على بيت المقدس من جديد بقيادة صلاح الدين ، وبقوة مصر وجندها إلى جانب قوى الشام والمسلمين التى حشدها القائد المظفر .

وقد استغرقت الموضوعات التى ذكرنا معظم ديوان ابن رزيك وما دونها قليل من الغزل ، والوصف ، وأبيات فى مقطعات يصنعها بين يدى موقف ، أو جلسة من جلسات سمره مع الأدباء والعلماء . قال :

ومُهَفْهَفٍ ثمِلِ القوام سَرَتْ إلى	أعْطَافِه النَّشَواتُ من عَيْنيهِ
مَاضِي اللحاظِ كأنَّما سلَّت يدى	سَيْفَاً غداة الرَّوْعِ من جفنيهِ
الناسُ طوعُ يَدِى وأمْرِي نَافِذٌ	فيهِمْ ، وقلبِى الآن طوعُ يديهِ
فاعْجبْ لسلطانٍ يَعُمُّ بعدْلِه	ويجورُ سُلطانُ الغَرامِ عليهِ
قَدْ قلْتُ إذ كتبَ العذارُ بخدِّهِ	فى وَرْدهُ أَلِفَيْهِ لا لاَمَيْهِ
ما الشَّعْرُ لاح بعارضيه وإنما	أصداغه نُفِضَتْ على خَدَّيْهِ

وقال :

عاذلى عَذْلُكَ سهم فى الحشَا	كيفَ كِتمانِى وسِرِّى قد فَشَا
صَارَ ما بى من غرامٍ كامنٍ	ظاهـراً ينقلـه واشٍ وَشَى
من رأى قبلِىَ يَارِيـمَ الفَلا	أسداً يَقْنصُهُ لحظُ رَشَا

ومنها

وجْهُكَ الرَّوضةَ آتتْ نرجساً	وجَنِيَ الـوَرْدِ فيها فُرِشَا
خفتُ أن يُجْنَى فوكَّلْتُ بهَا	عَقْرباً طوراً وطوراً حَنَشا

وشعره فى الغزل وسواه من الموضوعات لا يرق إلى مستوى فخره ووصف المعارك والغارات ، وإخوانياته .

---

(١) خريدة القصر ١ /١٧٧

وصياغته بصفة عامة تقليدية ، ولا يميل إلى الإكثار من البديع، وصوره مشتقة أحيانا من حياته العسكرية ، ومحيطه العام . ويغرب أحياناً فى بعض خيالاته .

وظلّ المتنبى يُطيف بعباراته أحياناً ومعانيه، فيحس قارىء شعره بنفس المتنبى يساير الكلمات . وقد بدا هذا بوضوح فى بعض قصائده فى الفخر ووصف المعارك .

ويرى الصفدى أنه أخذ بعض معانيه من ابن هانىء الأندلسى ومنه قوله :

ماضى اللحاظ كأنّما يدى سيفى غداةَ الرَّوع من جفنيهِ

أخذه — كما قال الصفدى — من قول ابن هانىء[1] :

ما كان أفتكنِى لو اخترطَتْ يَدِى من ناظِرَيْكِ على عَذولِى مُرْهَفَا

(١) الوافى بالوفيات ، ترجمته ١٢ /٥٠٣ .

ـ ٢ ـ

أسامة بن منقذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ)

ولد فى أسرة عريقة وليت امارة شبزر بالشام شمالى غرب حماة فى النصف الثانى من القرن الخامس وحتى منتصف القرن السابع إذ دهمها الزلزال المدمّر الذى ضرب كثيرا من مدن الشام فى عامى ٥٥٢ ، ٥٥٣ هـ .

وعرفت شيزر بقلعتها الشهيرة ، وتقع على هضبة مرتفعة يحيط بها نهر العاصى ، فيجعل منها حصنا منيعا ، حاول الصليبيون والروم الاستيلاء عليه مرات .

وكان والد أسامة رجلاً صالحاً يقضى وقته فى الصلاة وتلاوة القرآن ونسخه ، ويخرج أحياناً للصيد فى رَبَضِ شيزر ، وكان به فيما يروى على عهده أُسُودٌ[١] .

وتربى أسامة منذ صغره على التمسك بالدين واداء العبادات وحفظ القرآن ، كما نشأ جريئاً ، شجاعاً ، لا يبالى بالأخطار ، وقد تدرب على الصيد ، ومارس صيد الأسود مع والده . وقد أعدّ للقتال فتدرب على أصوله ، وتعلّم الفروسية ، واستخدام أدوات الحرب من سيوف ورماح ونبال .

وتدلّ ثقافته من شعره ، وكتاباته على سعة اطلاعه ، ومعرفته بعلوم الدين من حديث وفقه ، واتقانه لعلوم اللغة والأدب والنحو وقراءته وحفظه لكثير من الشعر القديم ، ومأثور كلام العرب فى أمثالهم وخطبهم وحكمهم ، وألم بالتاريخ العربى والإسلامى ووعى وقائعه وأحداثه .

وكان عمُّ أسامة أبو العساكر سلطاناً حاكما أو أميراً على شيزر ، ولم يكن له ولد فأحب أسامة وتبناه وقربه ، وظل كذلك زمناً ، حتى أنجب ، فتغيرت عواطفه نحو ابن أخيه أسامة . وأحس أسامة بهذا التغير ، فآثر الابتعاد عن عمه وولده .

---

(١) وقد ورد حديث صيد الأسود ببعض أرض الشام فى الأخبار ، ولعل مما يسجل ذلك غير ما جاء فى ترجمة ابن منقذ مديح المتنبى لبدر بن عمار ووصف صيده للأسد فى قصيدة مشهورة .

وحدثته نفسه بالخروج عن شيزر كلها إلى بلد آخر ، لما وجد من جفاء عمّه فقصد الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكي وصار رجلاً من رجاله وفارساً من فرسانه وحارب الصليبيين تحت قيادته فى اكثر من معركة . وظلّ يمارس صناعة الحرب فى « الرها » وبعض بلاد شمالى الشام حتى هاجم الفرنج والروم بلده شيزر عام ٥٣٣ هـ ، فاسرع للمشاركة فى صد الروم عنها ، وأبلى فى الدفاع بلاء حسناً .

ولمّا عاد أسامة فى هذه المرة ، كان قد بلغ من الفروسية والشهرة مبلغاً فى القتال ، فتعلقت به نفوس أهل شيزر ، وخشى عمّه على نفسه وإمارته أن يأخذها منه أسامة ، أو يرثها دون ولده ، فأمره وأسرته بمغادرة بلده ، وكان والد أسامة قد توفى قبل ذلك ، فخرج أسامة وأخوته وبقية أسرته من بلدهم ، وتشتتوا فى البلاد ، رضوخاً لأوامر عمه .

ولم يمهل القدر عمه طويلاً ، فقد انتابت الشام هزات وزلازل كان أشدها عام ٥٥٢ هـ الذى دمرّ شيزر ، وذهب فيها عمه وأسرته فدفنوا تحت الأنقاض .

وكان أسامة قد قصد دمشق فى خروجه الثانى من بلده حيث التقى بصاحبها معين الدين أنر أحد المجاهدين فى حرب الصليبيين ، وعاونه أسامة فى شئون السياسة والحرب ، ونجح فى كلّ ما وكّل إليه من أمورها حتى علت منزلته عند معين الدين . إلاّ أن الأمور لم تجر كما يهوَى ، ولعله لاحظ بعض التغير من صاحبه الأمير ، فآثر كعادته الابتعاد ، والحفاظ على النفس والكرامة . وتنطق أبياته التى بعث بها إلى أنر بما حدث من تضييع لحقه إذ يقول :

بلّغ أميرى معين الدينِ مألكةً ... من نازح الدَّارِ ، لكن ودّه أَمَمُ

....

تضيع واجب حَقّى ، بعدما شهدت ... به النصيحةَ ، والإخلاصُ والخِدَمُ

وما ظننتُكَ تَنْسَى حقَّ مَعْرِفتى ... إنّ المعارفَ فى أهل النهْى ذِممُ

ويلم فى هذه الأبيات بقصيدة المتنبى فى وداعه لسيف الدولة :

واحرَّ قلباه ممن قلبُه شبِمُ ... ومن بجسمى وروحى عنده سَقَمُ

وربما كانت الظروف التي حكمت على الشاعرين بالفراق واحدة ، وهى تغير الأمير بمشورة أهل السوء ، والحسد فى البلاط . ولأن الظروف واحدة ، فقد استعان أسامة بأبيات للمتنبي ضمنها قصيدته . كقوله :

وَلاَ اعتقدتُ الذى بيني وبينك من ... ودٌّ ، وإن أجْلَبَ الأعداءَ ينصرِمُ
لكن ثِقاتُك مازالوا بغشّهمُ ... «حتى استوت عندك الأنوار والظُّلَمُ»
والله ما نصحوا لمّا استشرتَهُمُ ... وكلهم ذو هوًى فى الرأيِ مُتَّهَمُ
كم حرّفوا من مقالٍ فى سِفارتهم ... وكم سَعَوْا بفسادٍ . ضَلَّ سَعْيُهمُ

وكانت هجرته هذه المرة إلى القاهرة بعد مغادرته لدمشق . يمم نحو الجنوب كما فعل أبو الطيب من قبل . فوصل إلى عاصمة مصر فى جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ .

وصل أسامة إذا إلى القاهرة ، والتحق ببلاط الخليفة الحافظ ، جندياً فارساً ويبدو من حديث أسامة وترحيب الحافظ به أنه كان من المقربين يقول(١) :

« .. فكان وصولى إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فقربنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع علىَّ بين يديه ودفع لى تخت ثياب ومائةَ دينار » .

ولعله التقي بطلائع فى القصر الفاطمى ، إذ كان قد سبقه هذا إلى مصر وعمل بالقصر زمناً قبل توليه إمارة قوص وأسوان بالصعيد ، وربطت صداقة ومودة بين الرجلين . وغادر طلائع صاحبه بالقاهرة إلى قوص وأسوان ، وبقى أسامة ليشهد الصراع بين القادة ورجال الحكم لتولى الوزارة بعد وفاة الحافظ ، وتولى ابنه الصبى الظافر .

فقد استوزر الحافظ فى آخر أيامه نجم الدين بن مصال . وكان شيخا كبيراً فطمع فى منصب الأمير سيف الدين أبو الحسن علىّ بن السلار والى الاسكندرية فحشد أعوانه وتوجه إلى القاهرة يريد الوزارة . فجمع الظافر الأمراء فى مجلس الوزارة وكان بينهم أسامة قال : « ونفذ إلينا زِمام القصور — أى متولى شئون القصر ، أو رئيس الديوان الخليفى — يقول : يا أمراء هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمتثل لأمره » .

(١) الاعتبار ص ٢٩ ، طبع دار الثقافة والنشر والإعلام .

قال أسامة عن سكنه بالفسطاط .

« وأنزلني ـــ الحافظ ـــ فى دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش فى غاية الحسن ، وفيها بُسُطها وفرشُها ، وآلتها من النحاس ، وأقمت بها مدة إقامتى فى إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع » .

ويبدو أن الأمور لم تستقر بعد اجتماع الأمراء على إقرار ابن مصال مع رغبة الحافظ فى وزارته ، وخرج بعض الأمراء على رأى الحافظ ، وأيدّوا ابن السلار مما اضطر الحافظ إلى نصيحة ابن مصال بالخروج ومعه بعض جند مصر .

واصطدم انصار ابن مصال بعبَّاس ابن زوجة ابن السلار وانهزموا وكان أسامة آنذاك قد لقى ابن السلاّر بعد استدعائه من منزله. قال: «وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعانى فى الليل ، وأنا معه فى الدار . وقال : هؤلاء الكلاب يعنى الجند قد هاجموا عباساً ، ودخلوا القاهرة ، فقال أسامة : يامولاى نركبُ إليهم فى سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى[1] .

وهذا الاعتراف من أسامة يؤكد أنه اتصل بابن السلاّر الذى خرج على طاعة الحافظ ، وانضم إلى معسكره فى مواجهة الخليفة ووزيره ابن مصال . ويؤكد تورطه فى الانحياز لأعداء القصر .

وانتهت المواجهة بين ابن مصال وابن السلار وعباس فى دِلاص حيث قتل ابن مصال الوزير وتمكنَ ابن السلاّر من الوزارة يعضده عباس الصنهاجى ابن امرأته وابنه نصر .

وبعد هذا « لم يبق لسيف الدين بن السلاّر من يعانده ولا يشاقفه » على حد قول أسامة . فولى الوزارة قسراً .

وكان طلائع فى هذا الوقت على ولايته بأسوان يرقب الأحداث من بعد ، وأدرك تورط أسامة صديقه مع ابن السلار وعباس فى مواجهة الظافر . ولكن مرت الأحداث سراعاً ، ورضى الظافر والقصر بالأمر الواقع ، وخلع الظافر على ابن السلار خلع الوزارة ولقبه الملك العادل . وتولى الأمور[2] .

---

(١) الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣١ .

قال أسامة : « كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كارهٌ له ، مضمرٌ له الشرّ ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيانَ الخاص (حرس الخليفة) وغيرهم ممن استمالهم ، وانفق فيهم أن يهجموا داره ، وأن يقتلوه . وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا فى دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل ، وافتراق أصحاب العادل ، وأنا تلك الليلة عنده » .

قال أسامة ثم إن العادل أحس بمؤامرتهم وظفر بهم ، وهرب بعض هؤلاء إلى دار أسامة ، فقام بتهريبهم . وقد قتل فى هذه الوقعة جماعة من المصريين والسودان ويبدو أن جند السلاّر كان معظمهم من المغاربة والأتراك . وكان معظم جند الخلفاء وحرس القصر من المصريين والسودان .

وفى وزارة ابن السلّار قام أسامة ببعض المهامّ العسكرية ، منها تكليفه بقيادة كتيبة للذهاب إلى الشام ومناصرة نور الدين فى حصار طبريّة ومناوشة الصليبيين فى بيت المقدس لينهض ابن السلار للهجوم على غزة وكانت بأيدى الصليبيين حتى لا يضايقوا عسقلان .

وفصّل أسامة أخبار حملته تلك(1) فى طريقة من مصر إلى نور الدين ، ولقى نور الدين وأسد الدين شيركوه . ولم يخبرنا ماذا تم .

ولكن يبدو أن نور الدين لم يوافق على خطة ابن السلّار فى حصار طبرية ، فأزمع أسامة على تنفيذ البديل الذى أوصاه به وهو مناوشة الصليبيين على عسقلان وبها حامية مصرية. قال أسامة : « ولقينا الأفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهى قريبةً من عسقلان »(2) .

وقام هو وأخوه ، وكان فارساً من عسقلان يريدان الغارة على بيت جبريل وقتالها . قال : « فوصلناها وقاتلناهم » .. وفى اثناء العودة — علموا بمحاصرة الافرنج لعسقلان ، فتقدم أسامة ومن معه وعلم الافرنج به فداهموه ، وقتلوا من فرقته من قتلوا ، ودافع أسامة وأخوه دفاعاً باسلاً حتى تمكنوا من النجاة . وظلّ بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر يعد الغارات على بلاد الصليبيين المجاورة حتى استدعاه ابن السلاّر إلى مصر . فعاد وبقى أخوه بعسقلان ،

(1) الاعتبار ص ٣٤—٣٦ .
(2) الاعتبار ص ٣٩ .

واستشهد فى معركة بعد رحيله . قال عنه : « وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبّادهم » .

وجاء أسامة إلى مصر ليجد نفسه مرة أخرى متورطاً فى فتنة قتل ابن السلاّر مع عباس الصناجى وابنه نصر . قال أسامة إن نصراً رتب أمر مقتل ابن السلاّر مع الظافر وابيه عباس ، ودخل على العادل فى بيته فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الظافر . وذلك يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

وتولّى عباس الوزارة . قال أسامة : وشرع الظافر مع ابن عباس فى حمله على قتل أبيه ليصير فى الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة .

وحدث ما ذكرناه من قبل فى كلامنا عن المؤامرة ، وموقف طلائع وخروج ابن منقذ وعباس ونصر من القاهرة .

وهكذا خرج أسامة من القاهرة مرة أخرى هارباً هذه المرة ، وخائفاً لتورطه مع قتلة الخليفة والأمراء الفاطميين الثلاثة . ونهب الفرنج أمواله ، ولجأ إلى دمشق حيث ملكها نور الدين ، عارياً من ثروته ، وأهله . وكاتب طلائع ليبعث إليه بما بقى له فى مصر من ثروة مع أهله وولده . ووفّى طلائع ، فبعث إلى صاحبه أمواله وأهله فى مركب ، إلاّ أنها عند عبورها أمامَ ساحل غزة شعر بها الصليبيون فاستولوا عليها ونهبوها .

وكان أسامة فى مصرّ قد امتلك ثروة طائلة ، وخيلاً ، وعبيداً .

ويذكر جانبا من ثروته التى نهبت فى الفتنة فيقول :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا — أى جند الخلافة — إلى الأبواب فأغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جماليَّة مُخاطة فيها من الفضة والذهب والكسواتِ شىءٌ كثير ، وأخذوا من اصطبلى ستة وثلاثين حصاناً ، وبغلةً سُروجيَّة ، نسبةً إلى سروج بديار مُضَر — بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملاً . وأخذوا من إقطاعى كوم أشفين[1] مِائتى رأس بقر ، ومائتين والف شاة ، وأهراء غلة » .

---

(١) بلدة بالقليوبية .

وكان طلائع كما أشرنا يرغب فى عودة ابن منقذ إلى مصر ، فكتب إليه وهو بدمشق يؤمنه ويعده بالدفاع عنه أمام القصر وأهله . قال ابن منقذ(١) :

« وكتب إلى يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بينى وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدّك بما تتقوّى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغرٌ من ثغور المسلمين ، وأسيِّر إليك أهلك وأولادك » .

ولكن العادل نور الدين منعه عن تلبية طلب الصالح فى العودة إلى مصر قال : « ففاوضتُ الملك العادل ، واستطلعتُ أمره ، فقال : يافلان ما صدّقت متى تخلص من مصر وفتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسيِّر من يحضرهم » .

ثم حدث ما حدث من تسيير الصالح له أهله فى مركب ، نهبه الصليبيون ، وأخذوا كل ثروته وحليّ نسائه ، ووصل إليه أهله . وحزن وأسف ولكنّ نور الدين هون عليه الأمر بسلامة أولاده وأولاد أخيه .

وحز فى نفسه ذهاب المال ، وأشدّ منه ذهاب الكتب فإنها بلغت كما قال أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة(٢) . قال : فإن لذهابها حزازة فى قلبى ما عشت .

وهكذا مكث بدمشق وطلائع يوالى رسائله إليه ، ولا ندرى هل استجاب لدعواته فقد ذكر على بن ظافر فى البدائه(٣) أنه ذهب إلى مصر سنة ٥٥٢ هـ أى بعد مغادرته بثلاث سنوات أو أقل . والتقى فى دار طلائع دار الوزارة بالقاهرة بالشاعر المهذب بن الزبير . وليس فى بقية المراجع ما يشير إلى هذه العودة .

وعلى أية حال فإن أسامة بعد أن قضى بدمشق عشر سنين بصحبة نور الدين شعر بوطأة السنين ، وثقل الحياة لبلوغه سناً متقدمة ، فقد قارب الثمانين فآثر الاعتكاف . وترك القتل والقتال ، ورحل عن دمشق إلى حصن كيفا وهناك خلا للقراءة والتأليف ، مستعيناً بما بالبلد من مكتبات عامرة بالكتب

(١) الاعتبار ص ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .
(٣) بدائع البدائه ص

القيمة ، وظلّ كذلك فى عزلته حتى عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد استيلائه على السلطة بمصر .

واستقبله صلاح الدين وأنس به ، وبشعره . وأعطاه داراً واقطاعاً وكان يستشيره مفيداً من خبرته ومعرفته بالصليبيين ، وصحبه بعض الوقت فى حله وترحاله . وعاش أسامة بقية حياته بدمشق حتى توفى فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ . وقد أربى على التسعين .

شـــــعره

موضوعاتـــــه :

يغلب على شعر ابن منقذ أحداث حياته وعلاقاته بمن التقى بهم من الخلفاء والأمراء ، والقادة والوزراء ، وبذكر أحداث غربته ورحلاته بالشام ومصر ، وذكره الشكوى من الأيام وما فعلت به ، ورثاء أهله والتشوق إلى أصحابه وأحبابه . والوصف والغزل . ويخلو من الهجاء وذكر الشراب والغزل بالمذكر . ولعلّ ما وصلنا من الديوان هو ما تبقى من شعره ، لا كلّ شعره فقد إختار من شعره فى آخر عمره ما يرى أنه مناسبٌ مستبعداً منه كلّ ما كان من إسراف الشباب وطيش الصبى ، واندفاعاته وثوراته .

وربما كان من شيم أسامة ، وترفعه عن بعض الموضوعات التى تَنالُ من مروءة الإنسان ، وبخاصة مروءة فارس ملتزم ، ربما كان من هذه الشيم ما زجره عن الخوض فى مثل تلك الموضوعات التى اكثر منها غيره من الشعراء المحترفين .

غزلـــــه :

ونبدأ حديثنا عن غزله . وهو غزلٌ غير تقليدى فى جملته ولا شبه بينه وبين النسيب القديم ، فهو أقرب إلى غزلِ المحدثين فى تظرفه ، وإن كنا نحسّ فى بعض أشواقه ، وعباراته الغزلية آثار حبّ قديم ، ولوعة صبابة ربما عاناها ردحاً فى شبابه أو فى مرحلة من مراحل حياته .

وهو فى هذا الغزل كثيراً ما يذكر الهجر ، وطيف الخيال ، وملال الحبيب كما نجد فيه رقة الخطاب والحوار ، وجمال أوصافه للحبيب والتدله فى حبه

وقاموسه اللغوى فى موضوع الغزل ليس هو نفسه قاموس الغزل التقليدى بل كثيرا ما يدخل عليه عناصر تعبيرية جديدة أو مستجدة ، وإن اعتمدت على أسس تقليدية متداولة بين الشعراء .

ولم يلجأ إلى القوالب المعروفة ، ولا إلى الأشكال المصنوعة المتكلفة بل نراه يعبر عن صدق إحساس ، وعن شخصية ، شخصية الفارس التى ظهرت فى كثير من شعر الحب عند شعراء الفرسان أمثال عنترة والحمدانى أبى فراس . قوة فى الحرب وضعفاً أمام جمال المرأة وأنوثتها إلا أنه ضعف إرادىّ ، ولا يكونَ ضعف حيلةٍ وعبث ، ولا تطلباً لرغبة ومتعة بضربٍ من التذلل والأذعان . لكنه ضعف إنسانىّ من فارس مقاتل جرىء فى الحرب ضعيف فى الحب .

وفى غزله أحيانا نلتقى بتحسره على ذهاب العمر ، وذهاب متع الحب بذهاب الشباب . ويغلب هذا على غزله فى مراحل الهرم .

ومن شعره الجيّد فى الغزل قوله(١) :

أما فى الهَوى حاكمٌ يَعْدلَ ... ولا من يكَفّ ولا يَعْذلَ
ولا من يَفُكُّ أسارى الغرامِ ، ... والوجْد من ثقل ما حُمِّلوا
ولا منصفٌ عالمٌ أنه ... إذا قال بالظنِّ يستْجهلَ
إذا هو لمَ يَدْرِ ما يلتقِى ... أخو الوجد من دائه يسألَ
ليعلم أن سَهَام الغَرام ... قبل إصَابتها تقْتُلَ

....

مساكينُ أهْلَ الهَوى ما لَهُمْ ... مُجيرٌ ، ولا لَهُمْ مَوْئِلَ
قتيلَهمُ ما له واتِرُ ... ومظلومُهم أبداً يُخْذَلَ
وإعلانهُم للهوَى فاضِحٌ ... قتولَ ، وكتمانهم أقتِلَ
وإن جَحدُوا الحبَّ خوف الوشَا ... ةِ أقرَّتْ به أدمعٌ تَهْمِلَ

إلى أن يقول :

بنفسىَ مُسْتهترٌ بالصُّدو ... دِ ، حَازَ الجمالَ ، ولا يَجْمُلَ

---

(١) ديوانه ص ٣٤ .

جنوني به أسد رائد وماضي غرامي مستقبل
بخيل على مقتني بالرقا د ، ونست عليه بها أبخل

ويقول مظهراً آثار العمر في علاقة الحب وكان بلغ السبعين(١) :

سبحان باري سهام من الواحظه من الملاحة ، لا من أسهم الغرب
إذا رمين فما دون القلوب وإن حرمن من جنن تحمى ولا حجب
كانت وليل الصبى تخفى دياجره عنى سبيل النهى ، والرشد من أربى
أعصى النصيحة فيها غير معتذر وأركب الغى عمداً ، غير مكتئب
وأحمل الضغن في وجدى بها وأرى حمل الهوى من وقار الحلم أجدر بى
حتى إذا نادت السبعون حسبك من تعليل قلبك بالآمال والكذب

لقد شعر الرجل بأن الحب وأحلامه وآلامه ، وتعذيبه ، ولذته وآثامه كل أولئك قد انصرف عنه وهو يخطو في السبعين ، فعاد يسترجع ذكرياته ، ويعود بخياله بعد أن عصته قدراته إلى مجالى الصبا ونشاطه .

وهو الفارس المحارب ، المصارع للأسود ، لا يخشى بأسها ، ويهاب الحبيب :

وكذا الصب يحسن الجور في الحـ ـب لديه ، ويعذب التعذيب
لا يهاب الأسود في حومة الحـ ـرب ، ويقتاده الغزال الربيب
ويجازى عن النفار من الأحبا ب بالقرب إن ذا العجيب
يا مليح القوام عطفاً فقد يعطـ ـف من لينه القضيب الرطيب
لك قلب أقسى علينا من الصخـ ـر ، وما هكذا تكون القلوب
وبحكم العلو تحكم ألحا ظك في قلبنا ، وأنت الحبيب !!

ومع ميله إلى التجديد في حديث الغزل إلا أنه لا يفلت كما أشرنا من الصيغ المتداولة في خطاب الغزلين ممن سبق من الشعراء ، والألفاظ والتشبيهات هي هي أحياناً . يقول :

غصن ودعص ، فالغصن من هيف يميس ليناً ، والدعص مرتج
شمس وليل ، فاعجب لشمس ضحى تشرف ، والليل راكد يدجو

رحيق ريقٍ عذبٌ، ففي كبدِى منه سعيرٌ، وفى فمِى ثَلَجُ
فى وجهها كعبة الجمالِ للعَـ ـيْنِ إلى حُسْنِ وجهها حجُّ

فالمفردات هنا معروفة ، متكررة ، ولكن فى الصياغة والتركيب ، يبدو خارجاً على المألوف فى قوالب التشبيه ، وفى تشبيهه فى البيت الرابع عودٌ إلى تشبيهاتٍ فى المعنى مررنا بها عند بعض شعراء مصر فى القرن الماضى . ومما يتصرَّف فيه تصرفاً حسناً من قوالب التعبير التقليدية قوله :

نفسِي فَدَتْ بَدْرَ تمامٍ، إذا عاتبنــى بالجدِّ أو بالمزاحْ
سدَّدْتُ بالتقبيـل فاهُ على مِسْـكٍ ودُرٍّ ، وعقيق وراحْ

كذلك قوله :

مُهَفْهَفٌ صَحَّتْ على سُقْمِها جفونُه فهي مراضٌ صِحَاحْ
لطرفـهِ فتكـةُ بيضِ الظُّبـا وقـدِّهِ هِزَّةُ سُمْرِ الرِّماحْ
شمْسُ نهارٍ تَرتَدِى بالدُّجَى غصْنُ مِرَاحٍ، فوق ردِفٍ رَداحْ
طَافَ علينا والدُّجَى راكِدٌ يُظِلُّنَـا من جُنحـه بالجنـاحْ

ويقول ويذكرنا بأبيات سبقت لتميم بن المعز(١) :

عقائلُ الحيِّ أم سربُ المها سَنَحا أفسَدْن ما كانَ بالسلوان قد صَلَحَا
برَزْنَ كالبانِ فى الكثبان حامِلَةً شمساً أضاءتْ، وليلاً راكداً جنَحَا
فاقتدْنَ بالحبِّ من أعْطَى مقادَتَهُ طَوْعاً،ورُضْنَ بحسْنِ الدّلِّ من جمَحَا
من كلِّ غيداءَ مِكْسَالٍ إذا انتبهتْ تنفَّسَتْ عن نسيم الرَّوضِ إذْ نفحَا
كانت منى النَّفسِ لولاَ وَاعِظٌ لِسَنٌ للشَّيْبِ أسمَعنِي، ناهيه إذْ نصحَا

فقاموس الغزل المعروف من أسماء وأفعال تتردد ها هنا بصورة أو بأخرى ، ويصوغها كما أشرنا صياغة يتنوع ويتفوَّق فيها ، كفعل المحدثين الحضريين .

ولكنَّ آثار الصنعة، والتقليد فى غزل أسامة لا يقللان من صدق أحاسيسه وبخاصة عندما يتطرق للفرقة والهجران ، والرحيل ، كأن يقول :

---

(١) يقول تميم : « أسرب مهًا عَنَّ أم سربُ جنه » .

حتَّى مَ أرْغبُ فى مودَّةِ زَاهِدِ ... وأرُومُ قربَ الدَّارِ من متبَاعِدِ
وإلامَ التزم الوفاءَ لغادِرٍ ... وأقرُّ بالعُتْبى لجانٍ جاحِدِ
وعلامَ أعملَ فكرتى فى ساذِرٍ ... ساهٍ ، وأسْهِرُ مُقلَتِيَ لراقِدِ
وأروضُ نَفسِى فى رِضا مُتجرِّمٍ ... فاتَتْ مودَّتُه طِلابَ النَّاشِدِ
وأقولُ هجرتُه مَخافَةَ كَاشِحٍ ... يُغْرِى بنا، وحِذارَ واشٍ حاسِدِ
وأظنُّهُ يُبْدى الصُّدُودَ ضَرُورَةً ... فإذا قطيعَتُهُ قطيعَةَ عامِدِ
من لى بنيْلِ مودَّةٍ مَمذُوقةٍ ... منه يُبَهْرِجُها اختبارُ النَّاقِدِ
أرْضَى بباطلها ، وأقنع بالمنى ... منها ، وأدفع غيبَها بالشاهِدِ
يا ظالماً أفنى اصطبارِى هَجرُهُ ... وابتزَّ ثوبَ تماسُكِى وتجالُدِى
كيف السبيلَ إلى وصالِكَ بعدما ... عَفَيتَ بالهجرانِ سُبْلَ مقاصِدى
ويلومنى فى حمْلِ ظُلْمِكَ جاهِلٌ ... يَلْقَى جَوَى قلبى بقلبٍ بارِدِ

هذا الخطاب الحوارى ، يحاور فيه نفسه ، ومحبوبه فى الهوى وما يلقاه ، والحبيب وما يعامله به من جفاء ، وهجران ، فيه رقة ، وعذوبة ، وخروج على النمط السَّردِى فى الصياغة، وفيه من المعانى والتجديد ما فيه، كما لا يحرمه من ملحة البديع ، وحليته ، فيأتى شيةً حسنة تزين الحديث ، فيكسب التقابل والطباق معانيه حلاوة ، كما يكسبها الجناس جرساً ، والأبنية المتقابلة ايقاعاً محببا

ولأسامة فى شعره الغزل تفنُّنٌ فى الجرس والإيقاع يكسبه مذاقاً خاصاً وتراه يتبع غيره من شعراء العصر فى هذا الوزن والجرس الذى يسود فيه صوت النُّون برنَّاته وأنَّاته ، وكأنه وترٌ يحرَّكُ ، أو رقٌ يُدَق . يقول(١) :

مُحيًّا ما أرَى أم بَدْرُ دَجنٍ ... وبارِقُ مَبْسِمٍ أم بَرْقُ مُزْنِ
وثغرٌ أم سنانٌ ركبُــوهُ ... بأسْمَرَ من بنات الخَطِّ لَدْنِ
وأيْنَ من الظِّبا ألحاظُ ظَبْيٍ ... ثَنَانِى عن سُلُوِّى بالتَّثَنِّى

....

فيا مَنْ منهُ قلبِى فى سَعيرٍ ... وعَينِى منه فى جَنَّاتِ عَدْنِ
حَباكَ هَدَاىَ مِنِّى محض ودٍّ ... تَنَزَّهَ عن مُدَاجاةٍ وضِغْنِ

---

(١) ديوانه ص ٤٦ .

ومن مفردات معانيه فى الغزل التى اكثر منها حديث الطيف ، وخيال المحبوبة فهو يشارك سابقيه البحترى والتهامى فى هذا الحدث . يقول[1] :

يا ويحه من جوًى يغدو عليه ومن جوًى يَرُوحُ، إذا ليلُ الهمومِ دَجَا
أفْدِى خيالاً سرى ليلاً فاشرقت الدُّنيا بأنوارِهِ، والصُّبحُ ما انبلجَا
عجبتُ منه تخطَّى الهوْلَ معترضاً أرضَ العِدَى ووشاةَ الحىِّ، كيف نجا؟

وقوله [2]:

لا غروَ أن هجرَ الخيالُ الزائرُ ما يَسْتَزيرُ الطيفَ طرفٌ سَاهِرُ
دون الكرى خطراتُ هَمٍّ ذَدْنَه عَنْ ناظِرِى فهو النَّوَارُ النافِرُ
لا سورةُ الصَّهباءِ تصرفه ولا يُلهى فُؤادِى حِينَ يَطرِقُ سَامِرُ

ومن مفرداته قبلَةَ الوداع ، وهى من معانى الغزل عند تميم . يقول أسامة :

نفسى الفداءُ لمن قبلتُه عجلاً والبَيْنُ يَعْجبُ من وجدى ومن عَجلى
فمالَ عَنِّى بفيه ثمَّ عَرَّضَ لى خدًّا جَرى فيه ماءُ الحُسْنِ والخَجَلِ
فأخضَلَتْ أدمعى توريد وجنته فزادَ إشراقَ ذاك الورد بالعَلَلِ
فارتاع من حرّ أنفاسى وحرقة أحشائى، ونَهَى فاهُ العذبَ بالقَبلِ
ورابه ما رأى من روعتى، فبكى وقال : لا كانَ ذا توديعُ مُرْتَحِلِ

وتحدث الشعراء من قبل عن دمعة الفراق التى تسقط على الخدّ ، وافتنوا فيها ونذكر أقوالاً فى ذلك لأبى تمام والمتنبى خاصة ، إلاّ أن صياغة هذين الشاعرين بما فيها من رصانة وجزالة بناء ، قللت من رقة الحديث ، وإن اكسبت الكلام روعة كأن يقول المتنبى :

فى الخدّ أن عزم الخليط رحيلاً مطرٌ تزيد به الخدودُ محولا

أو قوله :

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا وصارَ بهاراً فى الخدود الشقائِقُ

ويقول أبو تمام :

---

(۱) ديوانه ص ٥٨ .

(۲) المصدر نفسه ص ٦٨ .

وأجرى لها الاشفاق دمعاً مورَّداً   من الدَّم يَجْرِى فوق خدٍّ مورَّدِ

وقوله المشهور :

أظن دموعها سَنَنُ الفريد   وَهَى تبلكاهُ من نحرٍ وجيدِ
لها /من لوعةِ البين التدامٌ   يُعيدُ بنفسجاً وَرْدَ الخُدودِ

ومعانيه وصوره فى رحلة الحبيب تقليدية فى إطارها العام ، وإن غيّر فى التعبير وتراكيب اللفظ . كأن يقول :

سَارُوا بقَلْبٍ أسيرِهِمٌ بَعدَهم   مُتَلدِّدٍ، فهو المقيمُ السَّائِرُ
غَاضَتْ دُموعىَ فى المَنَازِلِ وارْعَوى   صبرى، وراجعنى الرُّقادُ النَّافِرُ

ومنها خطاب المطىّ(1) :

يا ناقَ شطَّتْ دارُهُمْ فحِنِّى   وأعْلِنِى الوَجْدَ الذى تُجنِّى
ما أرزَمَتْ وَهْناً لِفَقْدِ إلفها   إلاَّ رمتْ جوارِحِى بُوهَنِ
تَذكَّرَتْ ألاَفَها فَهيَّجَتْ   لاعجَ شَوْقِى وذكَرْتُ خِدْنى
أبكى اشتياقاً، وتحنُّ وحشَةً   فقد شجانِى حُزْنُها وحُزْنى
حَسْبُكِ قد طالَ الأنينُ والأسَى   وما أرَى طُولَ الحنينِ يُغْنِى
ولا تَملِّى من مَسيرٍ وسُرَى   فى مَهمةٍ سهلٍ ووَعْرٍ حَزْنِ
حتى تُنَاخِى تحت باناتَ الحِمَى   سَقَى الحمى والبانَ صوبُ المزنِ

ومن معانيه التقليدية الوقوف بالديار :

فاضت دُموعِى فى المنازِل وارعوى   صَبْرِى، وراجَعَنِى الرُّقاد النافِرُ
إن لم أسحَّ بها سحائب أدمعِ   ينجابُ خشيتها الغمام الباكِرُ
أأحَمِّلَ الإطلالَ بِنَّةَ عارضٍ   وسحابُ دمعى مستهلّ مَاطِرُ
إنى إذا بشئونِ دَمْعِىَ باخِلٌ   وبعهد من سكن المنازِلَ غادرُ

فالمضمون تقليدى لكن التشكيل بتصرف من الشاعِر ، وقد أدخل هذا التشكيل اللفظىُّ على المعنى عناصر مستحدثة ، وإن ظلّ المعنى الأساسى قائماً .

---

(1) ديوانه ص ١٠١ .

ويصور رحلة الظّعائن عن البيوت فيحوّر في المعاني التقليدية والصياغات التي توارد عليها الشعراء فيقول(١) :

هذا وقوفكَ للوداعِ وهذه ... أظعانُ من تهوَى، وتلكَ ديارُهُ
فاستبْقِ دمعكَ فهو أولُ خاذِلٍ ... بعد الفراقِ، وإن طما تيّارُهُ
مددُ الدُّموعِ يُقلّ من أمدِ النّوَى ... إنْ لم يكنْ من لجَّةٍ تمتارُهُ
ليت المطايا ما خُلِقنَ فكمْ دمٍ ... سَفكتْهُ يثقلُ غيرَها أوزارُهُ
ما ماتَ صبٌّ إثْرَ إلفٍ نازحٍ ... وجدّابه إلاّ لديْهـــا ثارُهُ
فلو استطعت أبحتُ سَيْفِي سوقَها ... حتى يعافَ دماءَهنّ غرارُهُ
لو أن كلّ العيسِ ناقة صالحٍ ... ما ساءني أنّي الغداةَ قدارُهُ(٢)
ما حتفُ أنفسنَا سواها إنها ... لهي الحمام أتيح أو إنذارُهُ

ونرى كيف دار مع المعنى العمُودى أو الأساس دورة ، نأى بها عن صورته الأولى التي ترددت في أشعار السابقين ، والتي تقصد إلى المباشرة في السَّرد . أو هو حاول التجديد في العرض مع الحفاظ على نواة المعنى .

وهكذا كان كثير من المحدثين في القرنين السابقين الرابع والخامس ممن لم يتخلصوا تماماً من أسر المعاني الشعرية التقليدية .

وندع هذا الحديث عن المنازل والرحيل أو الأظعان ، والبكاء على البيوت ، أو البكاء للفراق من الشاعر أو صاحبته، ندع هذا إلى ما وظفه الشاعِر من عناصر الأحياء والجماد كالطّير لمعانيه الغزلية ، أو معاني النسيب ونعرفُ أن من أثير الطير الحمام ، ناجاه الشعراء وحاوروه بأسمائه ، من مطوقة وهديل .. وهذا صاحبنا يذكر بكاءَ الحمام لبكائه :

تبكي لأنّتِكَ الحمامُ، وطالَما ... هَاجَ الجَوى لأخي الهوَى تَغْرِيدُه

ويقول(٣) :

يَالوعتا لطائرٍ ناحَ عَلَى ... غصْنٍ فأغرى بالأسَى من فَقَدا
أظنُّـــهُ فارَقَ الأفا، كَما ... فارَقْتُ، أو كَما وَجَدْتُ وجْدَا

(١) ديوانه ص ٧٠ .

(٢) قدار هو اسم الرجل من ثمود الذى عقر الناقة .

(٣) ديوانه ص ٦٧ .

أدمى جراحاتِ بقلبِى للنوّى | وما عَلِمْتُ ناح حُزْناً أم شَدَا
لكن يَهيج للحزينِ بثّهُ | إذا رأى على الحنين مُسْعِدَا

ويقول(١) :

وهاجَ لى الشّوقَ القديمَ حَمامةٌ | على غُصُنٍ فى غَيضَةٍ يترنّمُ
دعتْ شجوها مُحْزَنةٌ لم تَغِضْ لها | دُمُوعٌ ففاضَتْ أدمعى مَزْجُها دَمُ
فقلت لها إن كنت خنساءَ لوعةٍ | ووجداً فإنى فى البُكاءِ مُتمّمُ(٢)

ويقول وقد دعاها ورقاءَ :

ويَهيجُنى بعَد انْدِمالٍ صَبَابتى | ورْقاءُ مادَ بها قضيبٌ مُورِقُ
عجماءُ تَنطِقُ بالحَنينِ ولم يَهجْ | شَوْقَ القَلوبِ كأعجمىّ يَنْطِقُ
لى ما بِها لكن كتمتُ، وأعلنتْ | ودمُوعُها حُبِسَتْ ودمعى مُطْلَقُ

ومن عناصره التعبيرية من الطبيعة « البرق » . فى نار الجوى ، والمطر للدمع :

وإذا السّحابَ سَرى فنارُ بُرُوقِه | من زَفرَتِى ومياهه من أدمعى

شعر المعارك والجهاد :

وقد استغرق كثيرا من قوله ، وغلب على ديوانه ، ويدخل فيه مديح قادة عصره وفرسانه ممن أبلوا بلاء حسنا فى جهاد الصليبيين من أمثال العادل بن رزيّك ، ونور الدين محمود ، ومعين الدين أنر .

وفى مديحه لهؤلاء القادة يشيد بمحاربتهم للفرنج ، ومواجهة قادة الصليبيين وفرسانهم من اسبتارية وداوية ، ونتائج المعارك من أسر لبعضهم أو قتلهم البعض الآخر واستشهاد جند المسلمين وبعض قادتهم فى سبيل الله ، وما سيُجزوْن عليه من جنة النعيم فى الآخرة .

من ذلك هذه القصيدة الميمية التى تجمع بين مديحه للصالح وفخره بنفسه وأفعاله وجهاده . يقول فيها(٣) :

---

(١) يعنى الشاعرة الخنساءالتى بكت أخاها صخراً . ومتمم بن نويرة الذى اشتهر ببكاء أخيه مالك .
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .

للصالحِ الملكِ الميمون طائِرهُ ... بجيدِهِ طوق منٍّ غيرُ مُنْقَصِمِ

يقول فيه :

مغامرٌ تَرْهَبُ الآجالَ سَطْوتَه ... وتفرقُ الأسدُ منه فى حمى الأجمِ
يستقبلُ الحرْبَ بسّاماً، وقد كشرَتْ ... بها المنيةَ عنْ أنيابها الأُرُمِ[(١)]
يَلْقى الألوفَ، ويحبوها، ففى يَدِه ... من العَطا والسّطا بحرا ندًى ودَمِ
ما غرّكم بَصُدوق الظنّ يخبرُهُ الرّ ... أىُ الصّحيحُ بما فى الصّدِ من سَقَمِ
يَرى الضَّغائِن فى قَلْبِ الحسُودِ له ... تدِبُّ مثلَ دبيبِ النارِ فى الفَحَمِ
فإن سَطَا عن يقينٍ، أو عَفَا كَرماً ... فإنّه خيرُ ذى عَفو ومُنتَقِمِ
أدناكُمُ فاعتليتُمْ عن ذَوِى رَحِمِ ... وحاطكم فاغتديتُمْ منه فى حَرِمِ
وعمّكمْ سيبُ جودٍ منه نبّهَ ذا الخُمُولِ ... منكم ، وأغنى كل ذى عَدمِ
كم غُمّةٍ كشفتْ عنكم صوارِمُهُ ... ولم يزلْ كاشفَ اللأواءِ والغُمَمِ[(٢)]
لولاهُ ما زالَ عنكم ظِلّهُ أبداً ... عَلِمتمُ كيف تأتى فجأةُ النِّقمِ
ياملكاً مالِكاً رقّى بأنْعُمِهِ ... ومِلْكُ مثلى لا يُبْتَاعُ بالقِيَمِ
ما الشُّكرُ كفءٌ لما أوليتَ من نعَمٍ ... وإن تسهّلَ لى مُسْتَوْعَرُ الكَلِمِ
وإن أكن كزهيرٍ فى الثناءِ، فقد ... عَلَوْتَ مجداً، وجوداً عن مدى هَرِمِ
وإن تكنْ مِدَحى وقفاً عليك فلا ... تظنّ أن ثنائِى مُنتهى هِمَمِي
ففى يمينِكَ منى صارمٌ خَذِمٌ ... يَفرِى إذا كَلَّ الصّارِمُ الخذِمِ
فى حدّه حتفُ من ناداكَ وهو لمن ... والاك منبجسٌ بالباردِ الشّبِمِ
فمُرْ بما شئتَ منّى ، تلْقَ ممتثلاً ... بهمّةٍ ما اعتورتْها فترةُ الهِمَمِ
مجرّباً طاعتى التجريبَ مُختبِرٍ ... إنّ التجاربَ تجلو شُبْهَةَ التّهَمِ
فبذلُ نفسِيَ عندى فى رُضَاكَ فلا ... حُرمتُه، بعضُ ما أنويهِ من خِدَمِى
صرَفْتَ صرفَ الليالى دُونَ غشمِهِمُ ... وكفَّ بأسُكَ عنهُمْ كفّ مُهْتَضِمِ
وأوْصَلْتَهم بصلاتٍ من نَدَاكَ إلى ... أرْضِ الشآم، لقد أغربتَ فى الكرَمِ

وفى هذه الأبيات يعدّد أسامة ما اسدى إليه صديقه ابن رزيّك من الأيادى وكان أتمها عنده وأسناها حفاظه على أسرته بعد فراره ، وحمايتها وأمواله من

---

(١) الأُرُم : الفاتكة المُهلكة .
(٢) اللأواءُ : الشدّة .

أن يبطش بها أعداؤه من اتباع قصر الخلافة الذين تهموه بالاشتراك مع عباس وابنه ، وإرساله أهله وولده مع ما له إليه فى مركب إلى الشام .

ويصف رسائله الشعرية والنثرية التى بعث بها إليه فيقول :

لله دَرُّ طروسٍ ضُمِّنتْ دُرَرًا ... أكرِمْ بمنتثرٍ منها ومُنتظِمِ
أضحَتْ على مَفرِقِ تاجاً وفى عُنقِى ... تميمةً من عوادِى الخطْبِ والعَدمِ
لفظٌ أرقّ من الشَّكْوَى والطف مِنْ ... عُتْبَى، وأشهَى من الإبلالِ فى الألَمِ
جرَتْ لطافَتُهُ فى قلب سامِعِه ... مُجْرَى الهوى من فُؤادِ الغارِمِ السَّلِمِ(١)
فصاحةَ أسْمَعَتْ من كان ذا صَمَمٍ ... وحُسْنُ مَعنًى أفادَ الفهْمَ ذا اللَّمَمِ
ووشيُ خطَ حكى زهْرَ الربيع وَشَتْ ... أكمامُه عن بديعِ اللفظ والحِكَمِ

ومما كتبه مجاوباً للصالح فى قصيدته الطويلة :

أبى الله إلاّ أن يدين لنا الدّهر ... ويخدمنا فى ملكنا العزُّ والنَّصْرُ

وذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الافرنج وتسييره الجيوش ، فاطلع عليها العادل نور الدين محمود ، وطلب إليه — إلى أسامة أن يجاوبه مبيناً ما شارك به فى حرب الصليبيين فكتب يقول :

أبَى الله إلاّ أن يكونَ لنا الأمْرُ ... لتحيَا بنا الدُّنيَا، ويفتخِرَ العَصْرُ
وتَخدمُنا الأيامُ فيما نَرُومُهُ ... ويَنْقادَ طوْعاً فى أزمتنا الدَّهْرُ
وتخْضَعَ أعناقُ الملوكِ لعِزِّنا ... ويُرهِبُها منّا على بُعدنا الذِّكْرُ
بحيثُ حللنَا الأمنِ من كلِّ حادثٍ ... وفى سائِرِ الآفاقِ من بأسِنا ذُعْرُ
بطاعتنا لله أصبح طوْعَنا الأ ... نامُ، فما يُعْصَى لنا فيهم أمْرُ
فأيمانُنَا فى السِّلْمِ سُحْبُ مواهبٍ ... وفى الحرب سُحبٌ وَبْلُهُنَّ دَمٌ هَمْرُ
قضَتْ فى بنى الدنيَا قضَاءَ زَمانِهَا ... فَسِيرٌ بها شطْرٌ، وسيءٌ بها شطْرُ
وما فى ملوكِ المسْلِمين مُجاهِدٌ ... سِوَانا، فما يثنيه حَرٌّ ولا قُرُّ(٢)
جعلْنا الجهادَ هَمَّنَا واشتغالَنا ... ولَم يُلْهِنَا عنه السَّماعُ ولا الخمرُ
دماءُ العِدا أشهَى من الرَّاحِ عندنا ... ووقعُ المواضى فيهُمُ النَّاى والوتْرُ

---

(١) السَّلِم : المهموم .
(٢) ينقل هنا على لسان نور الدين محمود .

نُواصلهم وصْلَ الحبيبِ وهم غدا زيارتُهم ينحطّ عنا بها الوِزْرُ
وفي سجننا ابنُ الفنْشِ خيرُ ملوكهم وإن لم يكُنْ خيرٌ لديهم ولا بِرُّ
أسرناهُ من حِصْنِ العُريمةِ راغِماً وقد قتلتْ فرسانه فهُمُ جَزْرُ
وسَلْ عنهم الوَادِي بإقليسَ إنه إلى اليوم فيه من دمائِهمُ غُدْرُ
همُ انتشرُوا فيه لردِّ رعيلنا فمن تُربه يوم المعادِ لهُمْ نَشْرُ
ونحنُ أسرْنا الجُوسلينَ ولم يكنْ ليخْشَى من الأيّامِ نائبةً تعرُو
وكان يظنُّ الغِرُّ أنّا نبيعُه بمالٍ، وكم ظَنٍّ به يهلكُ الغِرُّ
فلمّا استَبَحْنَا مُلكه وبلادَهُ ولم يَبْقَ مَالٌ يستَباحُ ولا ثَغْرُ
كَحلْناهُ نبغي الأجْرَ في فعلِنا به وفي مثلِ ما قد نالَهُ يُحرزُ الأجرُ
ونحن كسرْنا البغْدَوينَ(١) وما لِمنْ كسَرْناهُ إبلالٌ يُرجَّى ولا جَبْرُ
فسَلْهُ اللّعينَ الخائِنَ الذي له الغدْرُ دينٌ: ما به صنَعَ الغَدْرُ،
وقد ضاقَتْ الدُّنيا عليه بِرُحْبِها فلم يُنْجِهِ بَرٌّ، ولم يَحْمِه بحْرُ
أتى غدره بالخيل بعدا يمينِهِ بإنجيله بين الأنامِ له عُذْرُ
دعَتْهُ إلى نكث اليمين وغدرِهِ بذمّتِهِ النفسُ الخسيسةُ والمكْرُ
وقد كانَ لونُ الخيلِ شتَّى فأصبحت تُعادُ إلينا وهي من دَمِهم حُمْرُ
تُوهِّمَ عجزاً حلمنا وأناتَنا وما العجزُ إلاّ ما أتى الجاهِلُ الغِرُّ
فلما تمادَى غيّه وضلالُهُ ولم يثنِهِ عن جهْلِهِ النّهيُ والزَّجْرُ
وسرْنَا إليه حين هابَ لقاءنا وبانَ له من بأسِنَا البؤْسُ والشَّرُّ
وَثيرُ حشايانا السُّروج وقُمصُنَا الدروعُ، ومنصوبُ الخيامِ لنا قَصْرُ
ترى الأرضَ مثلَ الأفقِ وهي نجومُه وإن حَسَدَتْها عِزّها الأنجمُ الزُّهْرُ
وهمُّ الملوكِ البيضُ والسُّمْرُ كالدُّمى وهِمَّتُنا البيضُ الصَّوارِمُ والسُّمْرُ
صوارمنا حمرُ المضارب من دَمٍ قَوائِمُها من جودنا نَضْرةٌ خُضْرُ
نسير إلى الأعداء والطير فوقنا لها القوتُ من أعدائنا، ولنا النصْرُ
فبأسٌ يذوبُ الصَّخْرُ من حرِّ ناره ولطفٌ له بالماءِ ينبجسُ الصَّخْرُ
وجيشٌ إذا لاقوا العدُوَّ ظننتَهمْ أسُودَ الشّرى عَنّتْ لها الأدْمُ والعُفْرُ(٢)
ترى كلَّ شهْمٍ في الوغى مثلَ سهْمِه نفوذاً، فما يثنيه خوفٌ ولا كَثْرُ
هم الأُسْدُ من بيض الصوارم والقنا لهم في الوغى النابُ الحديدةُ والظُّفْرُ

(١) هو بلدوين أحد ملوك بيت المقدس الصليبين .
(٢) يقصد بالأدم والعفر الظباء وهي من صيد الأسود .

يَرون لهمْ في القتلِ خُلداً فكيف باللقـ ـاء لقومٍ قتلُهمْ عندهم عُمْرُ
إذا نُسبُوا كانوا جميعا بني أبٍ فَطعنُهُـمُ شـزْرٌ وضربُهم هَبْرُ
يظنُّون أنّ الكفرَ عِصيانُ أمرنا فما عندهم يوما لإنعامِنا كُفْرُ
لنا منهُمُ إقدامُهم وولاؤهُمْ ومنّا لهمْ إكرامُهم والنّدى الغَمْرُ
بنا أيّدَ الإسلامُ، وازداد عِزّةً ودلّ لنا من بعدِ عِزّتِه الكُفْرُ
قتلنا البرنِسَ حين سار بجَهْلِهِ تحفّ به الفِرسانُ والعسكرُ المَجْرُ
ولم يَبْقَ إلاّ من أسرْنا وكيف بالبقـ ـاءِ لمن أخنتْ عليه الظُبا البتْرُ
فولّى يبارى عائراتِ سِهامِنا وفي سَمْعِه من وَقع أسيافنا وقْرُ
وخلّى لنا فرسانَه وحماتَه فشطرٌ له قتلٌ، وشطرٌ له أسْرُ
وما تنثنى عنه أسنّةُ خيلنا ولو طار في أُفقِ السماء به النّسْرُ
إلى أن يزورَ الجُوسلينَ مساهِماً له في دياجٍ، ما لليْلتها فجْرُ
ونرتجِعَ القدسَ المطهّر منهُمُ فلم يبقَ منها في ممالكهم شِبْرُ
إذا استغلقتْ شُمُّ الحصون فعندنا مفاتِيحُها بيضٌ مضاربُها حُمْرُ
وإنّ بلدٌ عزَّ الملوكَ مَرامُه ورُمْناهُ، ذلّ الصعبُ واستسهل الوعْرُ
وأضحى عليه للسهامِ وللظّبا ووقع المذاكي الرّعدُ والبرقُ والقَطْرُ
بنا استرجعَ اللهُ البلاد وأمّن العبادَ، فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ
فتحنا الرُّهاحين استباح عداتُنا حِماها، وسنّى ملْكها لهُم الخَتْرُ
جعلنا طلا الفرسانِ أغماد بيضنا وملّكنا أبكارَها الفتكةَ البكْرُ
ونحن افتتحْنا تلّ باشِرَ بعدها وقدْ عجزتْ عنه الأكاسرةُ الغُرُّ
أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعةً إلينا، ومسرأهم إلى بابنا شَهْرُ
وما كلّ ملكٍ قادرٌ ذو مهابةٍ ولا كلّ ساعٍ يَستتِبُّ له الأمرُ
وتلّ عزازٍ صبحته جيُوشُنا فلم تحمه عنه الرّجالُ ولا الجُدْرُ
وملنا إلى برج الرصاص[1] وإنه لكا لسّدّ، لكنّ الرصاص له قِطْرُ
وأضحت لانطاكية حارمٌ شجىً وفيها لها والساكنين بها حَصْرُ
وحصن كفرلاتنا، وهابَ، تدانيا لنا، وذُرَاها للأنوقِ به وكْرُ[2]
وفي حصن باسوطا، وقورصَ ذلّت الصّعـ ـابُ لنا، والنّصرُ يقدُمه الصبْرُ
وفاميةَ والبارةَ استنقـذتها لنا هَمةٌ من دونها الفرعُ والغَفْرُ[3]

(١) مكان بالشام .

(٢) لأنوق : العقاب طير جارح .

(٣) يقصد بالفرع الدلو ، والغفر منزل من منازل القمر هو والدلو .

ويمضى فى ذكر المواقع التى نازل فيها زنكى وأبناؤه والعادل نور الدين خاصة الفرنج وأجلاهم عن أرض الشام التى ملكوها عنوة . حتى يقول :

رددنا على أهل الشآم رِبَاعَهُمْ وأملاكَهُمْ، فارتاحَ عنها بها الفقْرُ
وجاءتهم من بعد بأسٍ وفاقةٍ وقد مسَّهُمْ من فقدها البؤسُ والضُّرُّ
ومرَّ عليها الدَّهْرُ والكفر حاكِمٌ عليها، وعمرٌ من بعده عُمْرُ
فنالهم من عودها الخيرُ والغِنَى كما نالنا من ردّها الأجر والشكْرُ

فهذه ملحمة من ملاحم الإسلام الكبرى صاغها الشاعر الفارس مشيداً بأعمال نور الدين زنكى على لسان ابنه المجاهد نور الدين ليردَّ على طلائع اتهامه بأنه يهادن الصليبيين وهم لا يؤتمنون على ذمة ولا هدنة .

والقصيدة طويلة تظهر تمكن أسامة وشاعريته ، وقد اختار لها ايقاعاً متدفقاً حماسياً ، جعل رويَّة الراءَ المضمومة وسِنَادَها السّكون ، فتجاوبَتْ القافية صوتا مع إيقاع الأبيات الحماسيّ .

وهذه الملحمة تسجيل شعرى لكثير من معارك الشام المشهورة التى خاضها عماد الدين زنكى وابناؤه لتحرير الشام من مستعمرات الصليبيين ، وقلاعهم وحصونهم المنيعة ، التى استقروا بها وضايقوا المسلمين ردحاً من الزمان . وكان أول ما حرّر على ما نعرف الرُّها وتلتها أماكن كثيرة .

هذه أمثلة من شعره فى الفخر ووصف المعارك تتكرر فى ديوانه وتستغرق جانبا من شعره الذى اختاره لنا . ويمثل هذا الشعر مع رصيفه من شعر طلائع جانباً مشرقاً من شعر الجهاد الإسلامى فى القرن السادس .

شعره فى الغربة والاغتراب :

ومن جيد شعره ما قاله فى الغربة والاغتراب ، وقد عرفنا أنه تنقل من بلده وجاب بلاد الجزيرة والشام ومصر . ويقول من قصيدة له فى التشوق إلى مصر بعد غربته عنها وقد قضى فيها ما يقرب من عشر سنين(١) :

ما هاجَ هذا الشوْقَ غير الذّكرِ وزورةُ الطيفِ سَرَى من مصرِ
من بعد طولِ جفوةٍ وهَجْرِ كم خاضَ بحراً وفلاً كبَحْرِ

(١) ديوانه ص ١٧ .

بجوبِهِ اللَّيلَ حَليفَ الذّعرِ حتى أتى طلائحاً فى قفرِ
قد انطوينَ من سُرًى وضُمْرِ حتى اغتدينَ كهلالِ الشهرِ
يحملن كل ماجدٍ كالصَّقرِ كأنه مُهَنَّدٌ ذو أثرِ
بعيد مهوى هِمّةٍ وذِكر للجدِّ يَسْعَى، لا لكسْبِ الوَفْرِ
وإِهاً له من زمنٍ وعُمْرِ ما كان إلاّ غُرّةً فى الدَّهرِ
إذ الصّبا عند التصابى عُذرى وغايةَ المنيّةِ أمُّ عمرو!
غرّاءُ أبهى من ليالى البدْرِ بعيدةَ القرطِ، هضيمِ الخَصْرِ
أحسن من شمسٍ بغبِّ قطرِ تفعل بالألبابِ فِعْلَ الخمْرِ
تبسم عن مثلِ نظيمِ الدّرِ كأنه لآلىءٌ فى نحْرِ
إذا انثنت قبل نهوضِ الفجر تنفّستْ عن مثلِ ريَّا الزهرِ

ويقول فى نشوقه إلى طلائع واصدقائه بمصر(١) :

أيا ساكنى مصرٍ رِضَانا لبعدكم عن العيشِ والأيام لا تبعدوا سُخُطَ
إذا عنّ ذكراكم ظللت كأننى غريقٌ بحارٍ ما لِلُجّتها شَطّ
وألزمُ كفىَ صدْعَ قلبٍ أطاره جَوَى الشوقِ لولا أن تداركه الضبطَ
فهل لى إليكم أو لكم بعد بُعْدِكمْ إيابٌ، فقد طال التفرُّقِ والشَّحْطَ
أراكم على بعد الديار بناظرٍ لكلِّ فراقٍ من مدامعه قِسْطَ

ويقول للصالح(٢) :

رأى الحسود تدانى ودّنا فسقى حتى غدتْ بين دارَينا نَوًى قَذَفُ
وما البعيدُ الذى تنأى الدّيارُ به بل مَنْ تَدانى، وعنه القلبُ منصرفُ
أجيرة القلب، والفسطاطَ دَارُهم لَمْ تصقبِ الدارُ، لكنْ أصقبَ الكلفُ
أوفى التدانى الهَوى، والدارُ نازحة وأبعدُ البعد بين الجيرةِ الشُّنُفُ
فارقتكم مكرهاً، والقلبُ يخبرنىَ أن ليسَ لى عوضٌ عنكم ولا خَلَفُ
ولو تعوّضنى الدنيا غبِنْتُ وهَلْ يَعُوضُنِى من نفِيسِ الجوهر الصَّدَفُ
ولستُ أنكرُ ما يأتى الزمان به كلّ الورَى لرزَايا دهرهم هدَفُ
كم فاجأتنى الليالى بالخطوب فما رأتْ فؤادِىَ من رَوْعاتِها يجفُ

(١) ديوانه ص ٨٠ .
(٢) ديوانه ص ٨٥ .

واسترجَعتْ ما أغارتْ من مواهِبها فَمَا هَفَا بِى على اثارةِ اللّهَفُ
ومَا أسِفتُ لأمرٍ فَاتَ مطلبُه لكن لفرقةِ من فارقتُه الأسفُ

ويشتاقُ لأصدقائه بالقاهرة والفسطاط غير طلائع ، مثل القاضي الرشيد بن الزبير وأخيه المهذب .

وعند ذهابه لمصر يتشوق إلى صديقه وجاره بالموصل نقيب الطالبيين فيقول(١) :

ضياءَ الدّين، ما شوقى دَعَانِى فأسْمعنِى بمصرَ من العراقِ
بمحدودٍ فأشرحه ولا لى قوى الأقلام تسطير اشتياقِى
ولكنّى سأرجئه وأرجو مشافهتى به، عند التلاقى
إذا ما كنت جارَكَ ذا اشتياقٍ إليكَ فكيف لى بعد الفراقِ

وكان القاضى الرشيد كتب إليه من مصر مشتاقا أبياتا يقول فى أولها :

أأحبابنا ما مصر بعدكُمُ مِصرٌ ولكنّها قفرٌ، إليكم بها فقرُ
وإن تخل يوماً بقعةٌ من شخوصكم فلمْ يخْلُ يوماً من مودَّتكم صدْرُ

فكتب إليه ابن منقذ(٢) :

تُذكِّرُهُ أحبابَهُ الأنجمُ الزُّهْرُ فياويحَهُ ماذَا بِهِ صنَعَ الذِّكْرُ
هُمُ مثلُها: بُعْداً، ونُوراً، ورفعةً ولكن لها، إذ شُبِّهتْ بهم الفَخْرُ
وقد كنتُ أشكو هجْرهُم فى دُنُوِّهم فمن لِيَ لو دامَ التّدانِى لا الهَجْرُ
سَقَى مصرَ جودُ الصالحِ الملْكِ إنه هو الوابِلُ المُحْيِى البريَّةَ لا القطرُ
ففيها كرامٌ أسْعَرُوا بجوانحى بُبُعْدِهُم جَمْراً، بهِ يُحرقُ الجمرُ
ومن عادتى الصّبرُ الجميلُ ولَيسَ لى علَى بُعدهم لا درَّ درُّ النّوى صبْرُ
إذا ما أمين الدّينِ عنّ ادّكارُهُ ذَهِلْتُ كأنّى خامرتْ لُبِّىَ الخمرُ
يذكِّرُنيه الفاضِلُونَ، وإن غَدَوا جَدَاوِلَ إن قيسُوا به، وهو البحرُ
إذا حَضَرَ النّادِى فرضْوى رجاحةً وإن قالَ فالدُّرُّ المنظّمُ والسّحْرُ
ويُعْجبنى منه تدفّق عِلْمِه وأعجبُ منه كيف يَجمعُه صَدْرُ

---

(١) ديوانه ص ١٣٥ .

(٢) ديوانه ص ١٢١ .

تناءَت بنا الدّارانِ والوِدُّ مصفقٌ ... فللقرب شطرٌ، والبعادُ له شطرُ
كأنّ الليالى إذ قضت بمراقنا ... فضى جوزُها أن ليسَ تجمعُنا مصرُ
أحُلّ بها إن غابَ عنها وإن أغب ... يَحُلّ بها، فاعجب لما صَنع الدّهرُ
فليت تلاقينا ولو بعض سَاعةٍ ... يَتمُّ وشيكاً قبل أن ينفد العمرُ
لأحظى برؤياهُ، وأشكر مَنّه ... وإن لم يَقمْ عنّى بواجبه الشكرُ

ترى متى كان هذا الحلول بمصر ولم ير فيه القاضى الرشيد ؟. أظنه كان فى عودته التى أشار إليها على بن ظافر سنة ٥٥٢ هـ ، ولعلها كانت زيارة عاجلة لم يبق فيها ابن منقذ طويلاً ، ولا نتصور أن يكون حديثه عن مدة إقامته بمصر التى زادت على عشر سنين ، فإنه لاشك تعرّف فى اثنائها بالرشيد ، ودامت بينهما صداقة ، وقد يكون تعرفهما بأسوان أيام كان بها طلائع أو بالقاهرة أو الفسطاط قبل تولى طلائع الوزارة .

وله من أمثال هذا الشعر الذى يشتاق فيه الأصدقاء مقطعات ، وقصائد بالديوان ومنها اشتياقه لابنه مرهف(١) . وأبيه(٢) وفد حديثه إليه إشارة إلى ضيقه بالمقام فى شيزر ، وأنه هاجر منها لأنه لم يطق المقام لما لقى من عمه وبعض أهله المقربين . يقول :

لا تُلزِمَنّى بالهوانِ وحملهِ ... إنّ احتمال الهُونِ ثِقلٌ مُرهِقُ
دَعْنِى وقطع الأرض دون معاشرٍ ... كلّ عليَّ لغيرِ جُرْمٍ مُحْنَقُ
تَغْلِى عليَّ صدُورهم من غيظِهم ... فتكادُ من غيظٍ عَليَّ تحرَّقُ
تعشى إذا نظروا إليَّ عُيونُهمْ ... حتّى كأنّ الشمسَ دُونِى تُشرِقُ
قد افسدوا عيشِى عليَّ وعيْشَهُمْ ... فأنا الشقِىُّ بهم، وبى أيضاً شَقوا
فاسمح ببعدِى عَنهمُ برضاكَ لى ... إنّ الذى ترضى عليه مُوَفّقُ
فلعلّ بعضَ العمر، وهو أقلّهُ ... ألاّ يُكدَّرَ بالهُموم، ويُمْذَقَ
فضلَ الأقارب ودّهم وحنوهُم ... فإذا جفونى ، فالأبَاعِدُ أرْفقُ

وكتب إليهِ متشوقاً وعاتبا ومعتذرا لسماع أبيه أقوال أقربائه فيه يقول :

أما كفاهم نَوى دارِى وبعدك عَنْ ... عَيْنِى، وفرقَةَ إخوانِ الصبَا الصُّدُق

(١) ديوانه ص ١٢٤ .
(٢) ديوانه ص ١٢٦ .

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له ولا يُغيِّرهُ كَيْسِى، ولا حُمُقِى
وإنما قالة جاءَتْ، فضاقَ لها صَدْرِى، ولو غَيْرُكَ المعْنِىُّ لم يَضِقِ
كذَّبتُها، ثم ناجتنى الظُّنونُ، بأنَّ الدهر ليس بمأمونٍ، فلا تَثِقِ

وقصائده إلى والده من غربته عديدة ضَمَّنها تلك المعانى التى أوردنا أمثلة منها فيما عرضنا من قوله .

وكذا الحال فيما كتب إلى أشقائه .

وكتب إلى الأمير معين الدين أُنَر يعتذر عن فراقه له ومغادرته دمشق وهى القصيدة التى حاذى فيها المتنبى ، وضمن بعض شعره من مثل قوله :

وأنت أعْدَلُ من يُشكى إليه ، ولى شَكِيَّةٌ ، أنت فيها الخصمُ والحكم

وقوله منها :

وما ظننتُكَ تنْسَى حَقَّ معرفتى إن المعارف فى أهل النُّهى ذِمَمُ

وقوله :

لكن ثقاتُكَ مازالوا بغشِّهِم حتى استوت عندك الأنوار والظُّلَمُ

لقد أشرنا من قبل أن ظلّ المتنبى ألقى بجرانه على شعراء مصر والشام من بعده وطول القرون التالية .

ولم يكن تأثر ابن منقذ بالمتنبى وحده ، ولكنه تأثر بجماعة غيره من الشعراء العباسيين والأمويين ، ويحظى ابن الرومى بجانب من بين هؤلاء حظوة المتنبى ، ربما لاتفاق الحال بين الشاعرين ، والإحساس بالظلم ، ومطاردة الدنيا له ، وضيق العيش ، ومن يقرأ قصيدته فى طلائع التى يقول فيها(١) :

غَرَّنى لامعُ السَّرابِ وهذاالبحـــرُ دونِى عذبُ المياه شروبُ
سرتُ استقرىءُ المحُولَ ، وفى أرضى مَرْعَى عينٍ ووادٍ قَشِيبُ
وسحاب منه تعلَّمَتْ السُّحْبُ ، وإن لم تُشْبِهْهُ كيفَ تصوبُ

يدرك مدى تأثره بابن الرومى ببائية مشهورة طويلة(٢) كتأثره بالمتنبى فى

(١) ديوانه ص ١٦٢ .
(٢) راجع ديوان ابن الرومى .

ميميته السابقة . وهو ينعى فى القصيدة سوءَ حظه بضياع ثروته فى البحر فى طريقها من مصر بعد أن نهبها الصليبيون :

أذهبتْ تالدى ، وطارق الطار ىءَ فضاعَ الموروث والمكسوبُ
فهو شطران بين مصرٍ وبحرٍ ذا غريقٌ فىء ، وذا منهوبُ

وابن منقذ كما قلنا واسع الاطلاع على الشعر العربى قديمه وحديثه واسع الاطلاع على فنون الأدب واللغة ، وعلى التاريخ وعلوم الدين . تشهد له كتبه التى غرقت بالبحر ، ويشهد له عكوفه على الاطلاع والتحصيل وقد هرمت سنه لكنه لم يكف عن القراءة والتأليف فى حصن كيفا قبل عودته إلى دمشق للقاء صلاح الدين فى أخريات عمره .

ويوظف معارفه وثقافته فى شعره ، فترى استعانته بالقرآن والحديث والسيرة والتاريخ . وترى استعانته بمبانى وألفاظ كثير من الشعراء ممن حفظ لهم أو وقف على دواوينهم فعلقت ذاكرته ببعض منها .

وابن منقذ بعد هذا شاعر متدفق الشاعرية ، لا يميل إلى التكلف فى الصنعة ، وقد تردُ فى اثناء أبياته أصباغٌ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ومقابلة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام .

وفى شعره تدفق عاطفىّ إذا ما اتصل أو تأثر بموقف تراه يهدر كالسيل فتطول قصائده ، وتجرى الألفاظ منطلقة كيفما اتفق لتعبر عن المعنى بأقصر السبل دون تثقيف أو تعمد تحسين أو انتخاب . ومن هذا ما نجد فى بعض لفظه من الغريب أحيانا ، وعدم الاختيار أو الأنتقاء أحيانا ، والخروج عن أصول البناء والتركيب أحيانا أخرى .

وبعد فهو شاعر ثرىّ الشعر ، ثرىّ العاطفة ، ثرىّ فى حياته وأحداثها ثرىّ فى مؤلفاته ، ولا تفى بالإحاطة بكل جوانبه هذه الصفحات ، ويكفينا هذه المحاولة للتعريف به وبفنه .

ـ ٣ ـ

القاضى الرّشيد بن الزبير(١)

(ت ٥٦٩ هـ)

من العصبة الصالحيّة ، شاعر مصرىّ صميم من الصعيد ، أسوانى المولد والنشأة . من أسرة عريقة تنتمى إلى غسّان اليمنية التى حكم بعض ملوكها الشام قبل الإسلام من قبل روم بيزنطة . وإن كان الادفوى أرجعها إلى قريش .

وقد استقرت أسيرة الزبير فى أسوان منذ زمن ، وسواء أكان أصلها قرشيا أو غسانيًا فإنّها كانت ذات مكانة ، وظهر فيها جماعة من الأفاضل كان من أشهرهم آل الزبير أجداد الرشيد والمهذب أخوه وآباؤهما .

وكانت أسوان قصبة الجنوب ، تزدهر بمكانها بوابة مصر الجنوبية ، وموطناً لبعض عائلاتها العريقة كالكنوز ، والزبيريين هؤلاء ، كما نشأ بها جماعة من العلماء ، ووفد إليها آخرون .

وتولى أحدُ أجداد الرشيد حكم قوص ، واسمه القاضى إبراهيم بن محمد بن الحسين . تولى سنة ٤٧٢ هـ ، ورثاه الشعراء .

وكان والد الرشيد والمهذب عالماً فاضلاً هو على بن إبراهيم ، تزوج أخت ابن الخلّال فانجبت الشاعرين . ترجم له الأدفوى فى الطالع ، ونسب إليه شعراً ، وقال إنه كان شاعراً فاضلاً رئيسا . وهكذا نشأ والده أحمد ، الملقب بالرشيد ، وأخوه المهذب شاعرين .

وتنقل القاضى الرشيد فى مناصب الدولة ، وذهب إلى القاهرة ، فالتحق بقصر الخلافة وعمل فيه كأحد موظفيه ولُقّب « سديد الدولة » فضلاً عن القاضى ، ولم يكن الرشيد ذا سمتَ معجب ، ولا مظهر حسن ، فقد كان أسمر الوجه قصيراً دَميمًا. لا يهتم بلباسه .

---

(١) راجع فى ترجمته الخريدة للعماد ١ /٢٠٠ ، شعراء مصر ، معجم الأدباء لياقوت ٤ /٥١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١ /٧٥ ، طبع إحسان عباس ، والطالع السعيد للأدفوى ، وشذرات الذهب ٤ /١٩٧ .

روى أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وتولى الفائز ، وعليه أطمارٌ رثةٌ وطيلسان صوف ، فحضر مأتم المقتول ، وأنشد شعراً فى رثائه يقول فى أوله :

ما للرياض تميل سكرا ... هل سُقِيت بالمزن خمرا[1]

حتى بلغ قوله :

أفكـــر بلاءٌ بالعـــرا ... قِ ، وكربلاءُ بمصرَ أخرَى

فذرفت العيون ، وضج القوم بالبكاء ، وأنهالت عليه الهبات من رجال القصر ونسائه . ويبدو أنه نال حظوة فى القصر ، ودار الوزارة التى تولاها بعدُ طلائع ، وكان هو وأخوه من نجوم مجلسه .

ولثقة القصر والخلافة به عيّن فى وظيفة هامة ، ثم نُدب لسفارة باليمن .

وبقى هناك زمناً ، وحدثت بينه وأحد دعاة الإسماعيلية جفوة ، ويبدو أن القصر الفاطمى بَعث بالقاضى الرشيد للدعوة أو الهداية ، وقال شاعر يمنى فيه :

بعثت لنا علم المهتدين ... ولكنـــه علـــم أســـود

وفيه تعريضٌ بالرشيد لسواد وجهه .

وقيل إنه سجن باليمن بسبب هذا الخلاف المذكور ، فبعث إليه أخوه المهذب من مصر أبياتاً يبكيه « سميت النواحة » ، وفيها يطلب من داعى الدعاة هناك أن يعفو عنه ويطلق سراحه . يقول المهذب فى هذه الأبيات :

ياربع أين ترى الأحبةَ يَمَّمُوا ... هل أنجدوا من بعدها أم أتهموا

....

ما كان بعدُ أخى الذى فارقته ... ليبوح إلاّ بالشكاية لى فمُ

هو ذاك لم يمْلِكْ عُلاهُ مالِكٌ ... كلاّ ، ولاّ وحدى عليه متيمُ

أقوت مغانيه ، وغطّـل ربعه ... ولربما هجر العرينَ الضَّيْغَمُ

ورَمَتْ به الأهوالَ همَّة ماجدٍ ... كالسيف يمضى عزمُه ويُصَمِّمُ

يا راحلاً بالمجد عنا والعُلَا ... أترى يكون لكم إلينا مَقْدِمُ

يَفْدِيكَ قومٌ كنت واسط عِقدهم ... ما إن لهم مذ غبتَ شملٌ ينظمُ

(١) قال العماد إنها فى مدح طلائع .

ورد عليه الرشيد بقوله :

رَحَلُوا فلا خلَتْ المنازِلَ مِنهُمْ ... ونأوا، فلا سلَتْ الجوانحُ عَنْهُمُ

يقول معرضاً بالشكوى وبما يقاسيه من مرارة :

ونزلت مقهورَ الفؤادِ ببلدةٍ ... قلّ الصديق بها وقلّ الدرهمُ
فى مَعْشرٍ خُلِقوا شُخوصَ بهائمٍ ... يَصْدَا بها فكرُ اللبيبِ ويبْهمُ
إن كورِمُوا لم يكرُموا، أو عُلِّمُوا ... لم يَعْلَمُوا، أو خُوطِبُوا لم يفهمُوا
لا تنفَقُ الآداب عندهمُ ولا الـ ... إحسانَ يُعرف فى كثيرٍ مِنهُمُ
صُمٌّ عن المعروفِ حتّى يسمعوا ... هُجرَ الكلامِ فيقدموا ويُقَدَّمُوا
فالله يُغْنِى عَنْهُمُ، ويزيدُ فى ... زُهدى بهم، ويفكُّ أسْرِى منهمُ

ويذكر ياقوت أنه بلغ باليمن درجة قاضي القُضاة ، وأنه طمح إلى رتبة الإمامة وربما كان هذا ما أحسَّ به أهل اليمن وأعيانهم وفى مقدمتهم داعى الدعاة هناك فدس له عند الخليفة الفاطمى بعد أن حبسه . وذلك بأن بعث إليه بأبيات من الشعر رغم أنها للرشيد ينوه بالقحطانيين ، ويعرّض بالمصريين . تقول :

لئن أجدبَتْ أرضُ الصعيدِ وأقحطوا ... فلستُ أنال القحط فى أرْضِ قحطانِ
ومذ كفِلت لِى مأربٌ بمآربى ... فلستُ على أسوانَ يوماً بأسوانِ
وإن جهِلَتْ حَقِّى زعانِفُ خنذِفٍ ... فقد عرفت فضلى غَطَارِفُ همدانِ

وأرض قحطان هى أرض اليمن وهمدان قبيلة يمنية ، وأما خندف فهى مُضَر وإليها تنسب قريش والفاطميون .

ولم يطل سجنه باليمن ، فقد سعى طلائع بن رزّيك إلى فكِّ أسره ، وعاد إلى مصر بعد عامين والتحق بالوزير ومجلسه ، ولزمه هو وأخوه المهذب ، وشاركا جماعة من أعيان المصريين والوافدين من الشام وغيرها . شاركا القاضى الجليس بن الحباب ، والشاعر ابن قادوس ، والشاعر عمارة اليمنى ، والشاعر أسامة بن منقذ .

وتبادل الرسائل مع أسامة بعد سفره إلى الشام يتشوق أحدهما إلى الآخر . وظلّ يراسله زمنا . ومن رسائله الشعرية إليه قوله :

آأحبابنا ما مصرُ بعدكمُ مصرُ ولكنها قفرٌ ، إليكم بها قفر
رحلتم فعادَ الدّهرُ ليلاً بأسرِهِ وليس له إلاّ بأوبتكم فجرُ
تُرى فاضَ ماألقَــى من الهمِّ والأسَى لُبعدكمُ، فاسودَّ من صِبْغِه الدَّهرُ
وكيف ألوم اللّيلَ إن طال بعدكم وقدغاب عنّى منكمُ الشمسُ والبـدْرُ

ونظن أن علاقة الرشيد وأسامة بدأت قبل لقائهما فى مجلس طلائع ، ولعلهما لم يلتقيا فى المجلس إلا بعد أن توثقت صلتهما ، ونعلم أن الرشيد عمل بالقصر زمنا وكذلك كان ابن منقذ مقرباً من الحافظ قبل تولى الفائز ومقتله على يد عباس وابنه .

ومن رد ابن منقذ على الرشيد نعلم أنه يشكره على ما أسدى إليه من يد وهو فى دمشق بعيداً عن مصر حيث يقول أسامة :

وكيف أشكر من أسدى إلىَّ يداً سَرَتْ سُرى الطيف من مصر وإلى الشام
رأى مكانى على بعدى وقد غَشيتْ عنى عُيونَ أخلاَّئِى وأيَّامى
محافظاً لعهودى حين أفردنى ظِلّى ، وأعرض عَنّىَ طيفَ أحلامِى

ولعل لهذه اليد صلة بما خلّفه أسامة بمصر من مال وولد . فربما ساعد الرشيد فى انقاذها والحفاظ عليها من المتربصين به بعد مغادرته مصر هارباً . وربما سعى مع الوزير الصالح طلائع فى إنفاذ المال والأهل على المركب إلى الشام .

وأشار عمارة اليمنى فى النكت(١) إلى من لقيه فى مجلس طلائع من كبار القوم ، والشعراء ومن بينهم الرشيد وأخوه المهذب .

وبعد مقتل طلائع ، وتولى ابنه من بعده لفترة قصيرة اغتصب بعدها الوزارة شاور ، ثم ناوأه ضرغام ، وحدث ما حدث من أحداث وتدخل نور الدين محمود والصليبيين ، ووفودهما إلى مصر اكثر من مرة لم يستقر الأمر للرشيد .

ويبدو أن الرشيد ذهب إلى الاسكندرية متولياً إحدى الوظائف هناك ، وظلّ بها ، واتصل بالحافظ السلفى عالم الاسكندرية وأخذ عنه .. وساعد

(١) النكت العصرية ص

صلاح الدين عند حلوله بالاسكندرية وحصار شاور والفرنج له حتى صمد للحصار مما احفظ شاور ، وكان ذلك داعياً للانتقام منه . وهكذا انتهت حياة الرشيد بمقتله سنة ٥٦٢ هـ أو سنة ٥٦٣ هـ . ويقال إنه تشيَّع ، ويؤكد ذلك سفرته إلى اليمن ، ودعوته ، فلعله كان داعية إسماعيليا .

وقد أشار مؤرخوه بفضله وعلمه . قال العماد : « كان ذا علم غزير ، وفضل كثير » . وله رسالة « منيةَ الألمعى ، وبلغة المدعى » وهى مطبوعة وتدل على معرفته بالفقه والنحو واللغة والانساب ، والمنطق والهيئة والموسيقى والطب(١) .

قال العماد عن هذه الرسالة : « وله الرسالة التى أودعها من كلِّ علم مشكله ومن كل فنٍّ أفضلَه .

وما بقى من شعره نزر يسير ، بعضه مما قاله فى مجلس طائع ، والآخر فى الفخر والشكوى ، والمديح ، والهجاء .

فمما قاله فى مدح الاغتراب(٢) :

فإنّ التّدانى رُبّما أحْدَثَ القِلَى ... وإنّ التّنائى ربما زاد فى الوُدِّ
فإنى رأيتُ السهم ما زادَ بُعدُه ... عن القوس إلاّ زيد فى الشكر والحمدِ
ولن يستفيد البدرُ أكمل نُورِهِ ... من الشّمسِ إلاّ وهو فى غاية البُعْدِ

وقال فى الشكوى(٣) ؛ والفخر :

جلت لدىَّ الرزايا، بل جلت، همتى ... وهل يَضُرُّ جلاءُ الصارمِ الذّكرِ
غيرى يغيرهُ عن حُسْنِ شيمتِهِ ... صَرْفُ الزّمانِ، وما يأتى من الغِيرِ
لو كانت النّارُ للياقوتِ مُحْرِقَةً ... لكانَ يَشْتَبِهُ الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغرَرَنّ بأطمارى وقيمتِها ... فإنما هى أصدافٌ على دُرَرِ
ولا تظنّ خفاءَ النجم من صِغَرٍ ... فالذّنبُ فى ذاك محمولٌ على البَصَرِ

(١) الخريدة ١ /٢٠٠ .
(٢) الطالع السعيد ، ص ١٠١ .
(٣) وفيات الأعيان ١ /١٦٢ .

ويقول فى الغربة :

ولما تناءَتْ أرضنا وديارنا ... وجانَ زمانٌ ناقِضُ العهدِ غدَّارُ
كفانا معالى كلِّ أمر أهمَّنا ... وحكَّمنا فيما نحب ونختارُ
وأنزلنا من ربعهِ الرَّحب حُسنَه ... يفيضُ بها من رحب كفيه أنْهار
لنعم الذَّرى يلقَى به الجارُ رحبَهُ ... إذا ما نَبَتْ بالجار عن أهله الدارُ
فكنَّا كأنا نازلونَ بأهلنا ... ولم تنْأَ أوطانٌ علينا وأوْطارُ

ومما قاله فى التشوق إلى صاحب نأى ؛ وهو ابن قلاقس[1] ، ويردُّ فيها على قصيدة بَعَث بها إليه :

يا مغرماً بنفيس الدرِّ يجمعهُ ... ومولعاً بجميل البرِّ يَصنَعُهُ
أضحى ينافسنى فى قربه زمنى ... فما يجودُ به إلا ويمنَعُهُ
ولا أقول دنتْ منى مَنازلُهُ ... إلاَّ غدا وكبعدِ النَّجم موضعُهُ
كذلك الدرُّ فى الأصدافِ محتجبٌ ... حِيناً ، وحيناً على تاجٍ يرصِّعُهُ
إنْ غابَ بدرُ سماءِ المجد عن نظرى ... فَفى فؤادِى أفقٌ منه مطلعُهُ
يَذوبُ قلبىَ من وجدٍ ومن أسفٍ ... شوقاً إليه ، وقد حازتْه أضلُعُهُ

ومن قصيدته التى أجاب بها أخاه وهو محبوسٌ باليمن ، يشكو فيها ما يعانيه هناك — وقد أوردنا منها أبياتا . قال :

رحلَوا فلا خَلَتْ المنازلُ منهمُ ... وناَوا فلا سَلَتْ الجوانحَ عَنْهُمُ
وَسَرَوا، وقد كتموا العداة مسيرهم ... وضياءُ نورِ الشمسِ مالا يُكتَمُ
وتبدَّلوا أرضَ العقيقِ عن الحمَى ... ردَّتْ جفونى أىَّ ارضٍ يَمَّمُوا
نزلَوا العُذَيبَ، وإنما فى مهجتِى ... نزلَوا، وفى قلبِ المتيَّمِ خيَّمُوا

وما وصل إلينا من شعر يسير للرشيد لا يمكننا من التعرف على صنعته . ونكتفى بحكم السابقين عليه والذين وصفوه بأنه أقل شاعرية من أخيه المهذب[2] . قال العماد عن المهذب : « وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » .

(١) شعر الرشيد والمهذب ، ص ١١١ .
(٢) راجع الخريدة ١/١٠٤ .

ويبدو أن اشتغال الرشيد بالعلم وتأليف الكتب كان على حساب شاعريته . وقد انجب ابناً شاعراً هو علي بن أحمد بن الزبير ، مدح السلطان صلاح الدين[1] .

(١) المصدر نفسه ١ /٢٠٢ ، ٢٠٣ .

— ٤ —

المهذب بن الزبير[1]

(ت سنة ٥٦١ هـ)

وهو أبو محمد الحسن بن على ، شقيق الرشيد ، قال العماد : « هو أخو الرشيد . محكم الشعر كالبناء المشيد . وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » . « ولم يكن فى زمانه أشعر منه أحد . وله شعرٌ كثير ، ومحلّ فى الفضل أثير » . وهو وإن كان أشعر من أخيه إلاّ أن الرشيد كان أعلم منه فى رأى المؤرخين .

ولم يذكر هؤلاء أى الأخوين كان أكبر ، وإن ظننَّا أن الرشيد هو الأكبر . أو لعلهما كانا توأمين ، لارتباطهما معاً فى العاطفة ، وتشابههما فى بناء الجسد والصورة فقد كان المهذب كذلك ضئيل الجسم أسمر اللون ، بوجهه دمامة .

ولد المهذب بأسوان كأخيه ، وكانت له علاقة باسرة الكنز المشهورة بها ، وربما كانت هذه العلاقة امتدادا لعلاقة أسرته .

وكان الكنوز من أمراء ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ممدحين يقصدهم الشعراء من بلاد بعيدة على حد قول الأدفوى .

وكان المهذب ممن مدحهم بالشعر الكثير ، احتفظت لنا المصادر ببعضه فى مدح كنز الدولة بن متوج يقول فيها :

بأىّ بلادٍ غير أرضى أخيِّمُ ... وأىّ أناسٍ غيرَ أهْلي أيَمّمُ
وورائِى أرضٌ ما بها متأخَّرٌ ... أمامىَ أرضٌ ما بها مُتقدَّمُ
فها أنا اختار النَّواء على الثَّوى ... ويكرهه الرأى الذى هو أحزمُ

وقد تلقى علمه ، ونضج شعره ببلده ، ثم طمح إلى عاصمة البلاد ، ورمى ببصره وهمته إلى القاهرة والفسطاط علّه يجد هناك ما يأمله من مكانة لدى الوزراء وقصر الخليفة ، وأعيان الناس .

---

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ١ /٧٥ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٩ /٤٧ ، والطالع السعيد .
(٢) الخريدة ١ /٢٠٤ .

وأراد أن يقصد بشعره هؤلاء ، وأول من قصده من الوزراء على ما وصلتنا من خبره رضوان بن الولَخْشِي (تولى الوزارة من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٣٣ هـ) . يقول فيه :

إذا قابلته ملوك البلا ... دِ خرَّتْ على الأرض تيجانُها
ولله فى أرضه جَنَّــةٌ ... بمصر ، ورضوانُ رِضْوانُها

واستغل اسم الممدوح ، ووظفه فى معنى مديحه .

ولما قُتِل ابن الولخشى بأمر الحافظ ، رثاه المهذب بقوله :

بنفسيَ من أبكى السماواتِ مَوتُه ... بغيثٍ ظَنَنَّاهُ نوالَ يمينِــه
فما استعبرت إلاّ أسًى وتأسُّفاً ... وإلاّ فماذا القَطْرُ فى غير حِينِه

وكانت السماءُ قد أمطرت ساعةمقتله على غير موعد ، فاستغل الشاعر ذلك لتوظيفه فى رثاء ممدوحه .

وإلى القاهرة يفد الشاعر أسامة بن منقذ ، فيتلقى المهذب هذا الخبر بسرور فيصحبه زمناً ، ويبعث إلى أسامة أبياتاً فى ذكر الديار ، ولعله بعث بها بعد النكبة التى أصابت أهله فى شيزر عقب الزلزال ، فيكون ذلك بعد رحيل أسامة إلى الشام ، ووقوع الزلزال هناك سنة ٥٥٢ أو سنة ٥٥٣ هـ . حيث يقول :

أأحبابنا مالى إذا ما ذكرتكُمْ ... ومـا أنـا ناسٍ ـــ غالَ صَبْرِى غولُ

يقول :

لئن أقفرت منا الديارُ ومنكمُ ... وأمست مَغَانِيهِنَّ وهى طُلولُ
فإنّ لنا فى آل منقذ أسوةً ... يهونُ لديها الخطبُ وهو جَليلُ
نَبَتْ بهم أوطانُهم فترحَّلوا ... وللمَجدِ فى ذاك الرحيل رَحيلُ

ولغة التعزية واضحة فى الأبيات .

وللمهذب أبياتٌ كثيرة ، بعث بها إلى ابن منقذ بعد رحيله إلى الشام تدلّ على ما كان بينهما من مودة وعلاقة وثيقة ، ونحس هذا كذلك فى أبيات أسامة التى جاوبه بها .

وقد تكون هذه العلاقة توثقت بعد وصول أسامة للقاهرة، وكان الأخوان الرشيد والمهذب قد استقرا بالقاهرة ، وعمل الرشيد زمناً بقصر الخلافة على ما عرفنا . وفى هذا الوقت نفسه تعرفا على الوزير ابن السلار ، وطلائع بن رزّيك وعباس الصنهاجى .

ومنها مديحه لابن السلاّر ولقبه سيف الدولة بمناسبة نصرته على ابن مصال بمشاركة عباس وطلائع فى موقعة دلاص . يقول :

أبى اللهُ إلاّ أن تعان وتنْصَرا ... وتظفرَ حتى لقّبوكَ المظفّرا
وتصبحَ سيفاً مثلَ نعتِك قاطِعاً ... مُحلّى بأصْنافِ الفَخارِ مُجوْهَرا
يَراكَ حديدُ الهِندِ أشْرف قيمةً ... وأعظَمَ آثاراً، وأكرمَ عُنصُرا

ودارت الأيام ، وتولى ابن رزّيك الوزارة بعد الأحداث التى ذكرنا ، فأصبح المهذب من أقرب جلسائه إلى نفسه ، وقد ذكرنا أن تعارفهما ربما تم بالقاهرة ، ثم توثقت الصلة عند تولى ابن رزّيك أسوان وقوص. وأصبح هو وأخوه الرشيد صاحبين ملازمين فى دار الوزارة بالقاهرة والفسطاط .

تولّى المهذب بعض الوظائف فى الدولة ، ولقب بألقاب أصحاب تلك الوظائف على عادة ذلك العصر مثل القاضى ، وصفىّ الدين ، وعميد الدولة .

وأهلته ثقافته ومكانته ، ومكانة أسرته لتولى هذه المناصب ، وبلوغ مكانة خاصة فى دولة الفاطمية . وقد ساعد على ذلك تشيعه ، واعتناقه مذهب الإسماعيلية ، مذهب الخلفاء ، أو التشيع عامة دون التزام بالاسماعلية . وقد وردت فى شعره أقوال ترجح هذا الاعتقاد . منها ما ذكره العماد وعلق عليه مستنكرا من مثل قوله فى مديح ابن رزّيك(١) :

فلو يكونَ لهم أمثالُه عَضُداً ... فيما مَضَى ما غدت مغصوبةً فَدَكُ

قال العماد : « لقد أبطلَ فى هذا القولِ المؤْتفَكْ ، وغَفَل عن سِرِّ الشريعة فى فَدَكْ وفضلّ ممدوحَه على السلف فى الشرف ، وأدَّت به المبالغةَ فى الضّلالِ إلى السَّرف » . وابن العماد السُّنى ساءه أن يذكر المهذب هذا الحدث معرضاً بأبى بكر وعمر . فإنه يشير إلى ما كان من رأى أبى بكر وعمر فى أن فاطمة الزهراء لا ترث فدك التى تركها الرسول ﷺ — لقوله : نحن معاشرَ الأنبياء

(١) الخريدة — قسم شعراء مصر (ترجمته) .

لا نُورثَ ، ما تركناه صدقة . والشيعة يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ ، وأنه كان ينبغى أن يتركاها لفاطمة .

وتتردد اعتقادات الشيعة وأقوالهم كثيراً فى شعره . كما قال فى مدح الخليفة العاضد :

وأنّ أمير المؤمنين وذكره قَرينانِ للآى المنزَّلِ فى الذكـرِ
لقولِ رسولِ الله: تلقون عِترتى معاً، وكتابُ الله فى موردِ الحشرِ
إذاما إمام الحشرِ لاح لناظرى فوا العصر إنّ الجاحدينَ لفى خُسْرِ

وهى تحكى ما يعتقده الشيعة من قول النبىّ ﷺ : « إنّى تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى أبداً : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر ؛ كتابَ الله ، حَبْلٍ الله الممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتى أهل بيتى ، إلاّ أنهما لن يفترقا حتى يردا الحوض » .

ومن ذلك قوله فى الإمام علىّ رضى الله عنه :

أميرَ المؤمنين وخيرَ مَلجأ يُسارُ إلى حماهُ ، وخيرُ حامِ
كأنى إن جعلتُ إليك قصدى قصدتُ الرُّكنَ بالبيت الحرامَ
وخُيِّلَ لى بأنى فى مقامِى لديه بين زمزمَ والمقامِ

وقد يكون هذا التحمس للفكر الشيعى مما قربه من طلائع بن رزّيك الذى عرف بتحمسه للمذهب على ما ذكرنا . وسنرى أنه كان يدعو الشاعر عمارة اليمنى إلى مذهبه وعمارة يتمسك بسُنّته شافعياً، ولا يرى ذلك مقللاً من حبه لابن رزيك وتقديره لمآثر الفاطميين . وكان لسجاياه الحميدة ما ساعده على حب الناس وتقديرهم له .

نجح إذا المهذب فى بلوغ ما يريد ، وأصبح نجماً فى سماءِ الدولة ، وظلّ كذلك حتى قتل صديقه ، الوزير ورجل الدولة القوى طلائع . بعدها تفرقت به السبل ، فلم يعد للمهذب بعد سنة ٥٥٩ هـ شأن، وبخاصة بعد العادل ابن رزيك ، فلم يلبث شاور أن أودى به إلى الموت سنة ٥٦١ هـ .

شعره وشاعريته :

ذكر ابن خلكان أن شاعريته تفتحت أكامها وهو فى السادسة والعشرين وخمسمائة وربما كانت سنه آنذاك لم تتجاوز العشرين .

وقرظ شعره العماد ، وأشاد به قائلاً : لم يكن فى زمانه أشعر منه أحد . وكان معجباً بشعره ، يسأل عنه من يحفظه ، ويعلق عليه بما يكشف عن وقوعه من نفسه موقعاً طيبا .

فمما علّق به على لاميته التى اختار معظمها وهى قوله :

أقصِرْ فديتُكَ عن لومى وعن عَذلِى ... أولا فخذ لِى أماناً من ظُبا المُقَلِ

« للشعراء المهذّبين ، المذهّبين المذهَبَ على هذا الوزنِ المعجز المعجب قصائد فرائد ، قلائدُ ، وهذا مهذّبُ مُهذّبِهم ، إذ هو وحيد العصر مجيدُ النظم والنثر »(١) . وكان لاعجابه به أثره فى الإكثار من إختياراتَ شعره .

والحقُّ أن المهذّب بن الزبير هو أمير شعراء مصر فى عصره ، لماأبدى من المقدرة الشعرية الّتى تجلت فى أكثر من جانب من جوانب قوله الشعرى . وشعره فيما يبدو كثير ، إلاّ أن ديوانه ضاع فيما ضاع من آثار الفاطميين ، ذلك إذا كان له ديوان مجموع .

وما وصلنا من شعره يدور معظمه فى موضوعات المديح والرثاء والوصف والشكوى والتشوق والغزل . ولم يقل فى الهجاء ترفعاً ، وصيانة للسانه من أن يخوض فى الأعراض . اعترف بذلك فى أبيات له وجهها إلى طلائع ، وقد أغرى بعض شعراء مجلسه به . يقول :

يا أيها الملكُ الذى أوصافه ... غُررٌ تجلّتْ فى الزّمانِ الأسفَعِ
لا تطمِعْ الشُّعَراءَ فِيَّ فإنّنِى ... لو شِئتُ لم أجْبُنْ ولم أتخشَّعِ
فليمسِكوا عنِّى، فلولا أنّنِى ... أبقى على عرضِى إذا لم أجْزَعِ

....

ولو أنّه ناجى ضميرِى فى الكرى ... طَيفُ الخيالِ بريبةٍ لم أهْجَعِ
وإذا بدا لى الهُجْرُ لم أرَ شخْصَهُ ... وإذا يُقالُ لى الخنَا لم أسْمَعِ

(١) الخريدة ١ /٢٠٨ .

والنّاسُ قد عَلِمُوا بأنّى ليس لى مذ كنتُ فى أعراضهم من مطمعِ

وظهرت خصائصه النفسيَّة ، وملامح همته فى شعره ، فقد واجه فى حياته ظروفا منوعة ، حيث قست عليه الحياةَ أحياناً ، ثم عادت فسالمته ، وأرخت له الزمام ، وأغدقت . لكنها لم تلبث أن عاندته فى أخريات حياته ، لهذا تجد فى شعره الفرحة والتَّرحة ، الرّضا والسعادة أحيانا ، والغضب والضيق والشكوى من الزمان وأهله أحيانا أخرى .

كان المهذب ذا نفس مرهفةٍ ، وشاعرية صادقة ، فانعكس على شعره إحساسه بأحداث قومه وعصره ، وما رآه ، وما ابتلاه ، وعبَّر عنه بصورة تكشف عن تلك الرهافة النفسية والصدق الفنّى .

وكانت لثقافته ومحفوظه الكثير والمتنوع آثارها فى صياغته ، وألفاظه وصوره ومعانيه على ما سنفصله بعد .

ونمثل على قدر ما يسمح المقام بما جدد من معانى الشعر ، وما قلد فيها على اختلاف موضوعاته .

ففى المديح يطرق المعانى المعهودة من صفاتٍ للممدوح بالكرم والشجاعة ويضيف بعض المعانى المتعلقة بمنصبه أو عمله ، وقد يعرض لنسبه كما فعل فى مديحه لطلائع ، فقد أشاد بنسبه فى غسّان . ونذكر فى هذا المقام انتساب آل الزبير إلى الغساسنة كذلك . يقول فى نونيته :

أعلمت حين تجاور الحيَّانِ أنّ القلوب مواقد النيرانِ

مادحاً طلائع ومشيداً بوقائعه فى الصليبيين بالشام :

يا كاسِرَ الأصنام قمْ فانهضْ بنا حتى تصيرَ مُكسّرَ الصُّلْبانِ
الشّام مُلكُكَ قد ورثْتَ تُراثَهُ عن قومك الماضين من غسّانِ
فإذا شككْتَ بأنها أوطانُهم قدماً ، فسَلْ عن حارثِ الجولانِ
أو رُمْتَ أن تتلو محاسن ذكرهم فاسند روايتها إلى حسّان

ويحسن فى مديحه توظيف أسماء الممدوحين وألقابهم فى سياق معانيه الشعرية كما أشرنا فى مديحه لرضوان الولخشى ، وسيف الدين ابن السّلار وسيف الإسلام ابن رزّيك ، ومنه قوله فى مدحه :

كأنّ فى نيف سيف الدين من خجلٍ من عَزْمِهِ ما به من حُمرَةِ الخَجلِ
هو الحسام الذى يسمو بحامِله زهواً فيفتك بالأسياف والدولِ
إذا بدا عارياً من غمدِهِ خَلعتْ غِمدَ الدّماءِ عليهِ هامةَ البطلِ
إذا تقلّدَ بحراً من أنامِله رأيت كيف اقتران الرِّزْقِ بالأجَلِ
من السيوف التى لاحت بوارِقُها فى أنملٍ هى سحب العارض الهطلِ

وهو فى توظيف اسم الممدوح يجارى المتنبى أحياناً فى توظيفه لاسم ممدوحه سيف الدولة ابن حمدان .

ونلاحظ هنا إلمامه بمعنى من معانى البحترى فى المديح بوصفه كفه فى البطش والعطاء بالبارق والسحاب .

كذلك توظيفه لبعض الأحداث كالزلزال الذى أصاب الشام وقت غزوات ابن رزّيك هناك . يقول :

ما زُلزِلَتْ أرضُ العِدَا بل ذلِكَ ما بقَلوبِ أهْلِها من الخفَقَانِ
وأقول إن حُصُونَهم سجدتْ لما أوتيت من مُلكٍ ومن سُلطانِ
والناسُ أولى بالسجودِ إذا غدَا لعُلاكَ يسجُدُ شامِخُ البنيانِ

ويسمى علماءُ البديع هذا اللون من التعبير « حسن التعليل » . وهو أن يغفل الشاعر العلة الأساسية للحدث ، ويأتى بعلة من عنده توافق سياق معانيه ، وتدعم موضوعَ أبياته .

ويلجأ إلى الاشتقاق والتوليد على طريقة أبى تمام أحياناً ، وابن الرومى أحيانا ، فيقول :

وثللْتَ فى يوم العريش عُروشَهُمْ بشَبَا ضرابٍ صادقٍ وطعانِ
ألجأتهم للبحرِ لمَّا أن جَرَى منه ومن دمهم معاً بَحْرَانِ

ويلجأ إلى التضمين من شعر القدماء أو السابقين من محدثى الدولة العباسية ومن بعدهم كأن يقول مضمناً بشعر لامرىء القيس والمتنبى . يقول :

من كلِّ طرفٍ مريض الطّرفِ تنشِدُنا ألحاظُه « ربَّ رام من بنى ثُعَلِ »
إن كان فيه لنا ، وهو السقيمِ شِفاً « فربّما صحّتْ الأجسامُ بالعِلَلِ »
وكلّ بيضاءَ لو مسّتْ أناملُها قميصَ يُوسُفَ يوماً قدَّ من قُبُلِ

ونُورِد قصيدته اللامية التى أعجبت العماد مثالاً لمديحه ، وفيه وصف لمعارك طلائع مع الصليبين بالشام . يقول :

أقصِرْ فديتُك عن لومي وعن عذلي ... أوْلا فخُذْلِي أماناً من يَدِ المقَلِ
من كلِّ طرفٍ مريضِ الجفنِ تنشدنا ... ألحاظهُ « ربَّ رَامٍ من بنى ثُعَلِ »
إن كانَ فيهِ لنا ، وهو السقيم شِفاً ... فربما صَحَّتْ الأجسامُ بالعِلَلِ
إنّ الذى فى جُفونِ البيضِ إذ نَظَرتْ ... نَظِيرُ ما فى جُفونِ البيضِ والخِلَلِ(١)
كذاكَ لم يشتبه فى القولِ لفظهُما ... إلاّ كما اشتبها فى الفعْلِ والعملِ
وقد وقفتُ على الأطلالِ أحسَبُهَا ... جِسْمِي الذى بعد بُعد الظاعنين بَلِي
أبكي على الرسم فى رسمِ الدّيار فهَل ... عجِبْتَ من طَلَلٍ يبكي على طَلَلِ
وكلِّ بيضاءَ لو مستْ أناملُها ... قميصَ يُوسفَ يوماً قُدَّ من قُبُلِ
يُغْنِى عن الدرِّ والياقوتِ مبْسِمُها ... لحسْنِها ، فلها حلّىً من العَطَلِ
بالخدِّ مِنّىَ آثار الدموع كما ... لها على الخدِّ آثارٌ من القبلِ
كأنّ فى سيف سيفِ الدين من خجلِ ... من عزمهِ ما به من حمرةِ الخَجلِ
هو الحُسَامُ الّذي يسْمُو بحَامِله ... زَهْواً فيفْتِكُ بالأسْيَافِ والدولِ
إذا بدا عارياً من غِمْدِهِ خلعتْ ... غِمْدَ الدّماءِ عليهِ هامةَ البَطَلِ
وإن تقلّدَ بحراً من أنامِلِه ... رأيتَ كيف اقترانَ الرزقِ بالأجَلِ
من السُّيوف التى لاحت بوارقُها ... فى أنْمُلٍ هى سُحْبُ العارضِ الهَطِلِ
فجاءنا لبنِى رزّيكَ معجزُها ... بآية لم تكنْ فى الأعصر الأوَلِ
تبدو شموساً همّو أقمارها وترى ... شُهْبَ القنا فى سماءِ النَّقعِ لم تَفِلِ
قد جَايرتْ فيهمُ السُّمرُ الرّقاق رقاقَ ... البيضِ خلفَ سجوفِ النقعِ فى الكِلَلِ
إن عانقوا هذِهِ فى يوم معركةٍ ... لاحَتْ لهمْ بتلظّى تلكَ كالشُّعَلِ
وقد لقَوا كلَّ من غارُوا بمشبهِهِ ... حَتَّى لَقَوا النُّجلَ عند العرْضِ بالنُّجُلِ
وضاربَ الرومَ رومٌ من سُيُوفهمْ ... وطاعَنَ العربَ أعرابٌ من الأسَلِ
وهزّهم لِصهيلِ الخيلِ تحت صهيلِ ... البيضِ ما هزَّ أعطافَ القنا الخطِلِ(٢)
فالدّم خمرٌ ، وأصْواتُ الجيادِ لهُمْ ... أصواتُ معْبَد، فى الأهزاجِ والرَّمَلِ
والخيلَ قد أطربتها مثل ما طربُوا ... أفعالَهُمْ، فهى تمشى مشية الثَّمِلِ

---

(١) يقصد بالبيض السيوف ، والخِلل أجفانها .

(٢) الخطل : المضطرب .

من كلِّ أجرَدَ مختالٍ بفارِسِه إلى الطِّعان، جريحِ الصَّدرِ والكَفَلِ
وكلِّ سلْهَبةٍ للرِّيحِ نِسْبَتُها لكنَّها لو بَغتْها الرِّيحُ لم تَنِلِ
أفارِسَ المسْلمينَ أسْمَعْ، فلا سَمِعَتْ عِداكَ غيرَ صَليلِ البيضِ فى القُلَلِ
مقال ناءٍ غَريبِ الدَّارِ قد عدِمَ الـ أنصارَ، لولاكَ لم ينطِقْ ولم يَقُلِ
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتَّسعَتْ فضاقَ منها عليهِ أوْسَعُ السُّبُلِ
يرجُوكَ فى دَفْعِها بعدَ الإلهِ، وقدْ يُرجى الجَليلُ لدفعِ الحادثِ الجَلَلِ
وكيف ألقى على الأيَّامِ مرزِئَةً جَلَّتْ، ولى من بَنىَّ رُزِّيْكَ كلُّ وَلِى
لولاهم كنتُ أفْرِى الحادثاتِ إذا نابَتْ بنهضَةٍ ماضِى العَزْمِ مُرْتَجِلِ
وكيف أخلَعُ ثَوبَ الذّلِّ حيث كَفِيلُ الحرِّ بالعزِّ وخْدُ الأيْنُقِ الذُّلُلِ
فما تخاف الرَّدى نَفْسِى وكم رَضِيَتْ بالعجزِ خوفَ الرَّدى نفسٌ فلم تُبَلِ
إنى امرؤٌ قد قَتَلْتُ الدَّهرَ مَعرِفَةً فما أبيتُ على يأسٍ ولا أمَلِ
إن يَرْوِ ماءُ الصِّبا عودى فقد عجمتْ منى طروقُ الليالى عودَ مُكتهِلِ
تجاوزت بى مدَى الأشياخِ تجربتى قدماً، وما جاوزتْ بى سِنَّ مُقْتَبِلِ
وأوَّلُ العمرِ خيرٌ من أوَاخِرِهِ وأين ضَوْءُ الضُّحَى من ظُلْمَةِ الأصُلِ
دُونى الذى ظنَّ أنى دُونَه فلهُ تعاظُمٌ لينالَ الأجْرَ بالحِيَلِ
والبدرُ تعظُمُ فى الأبصارِ صُورتُه ظَناً، ويصغُرُ فى الأفهامِ عن زُحَلِ
ما ضَرَّ شِعْرى أنى ما سبقتُ إلى وأجاب دمعى وما الداعى سوى طللِ
فإن مدحى لسيف الدين تاه بهِ زهواً على مدح سيفِ الدولة البَطَلِ

واضح من البيتين الأخيرين فى القصيدة أن المهذب استدعى فى ذاكرته قصيدة أبى الطيب التى ذكر مطلعها[1] :

أجابَ دمعى وما الداعى سِوَى طَلَلِ دعا فلبَّاهُ قبلَ الرَّكبِ والإبِلِ

وكانت القصيدة فى ذهنه وهو ينظم قصيدته، كذلك ربما استدعى مع أبى الطيب لامية الطغرائى على الوزن والروى، ومطلعها :

أصالَةَ الرأى صَانَتْنى من الخَطَلِ وزينةُ الحلم زانَتْنى لدَى العَطَلِ

---

(١) ديوان أبى الطيب، شرح البرقوقى ٣ /١٩٨ .

فأما قصيدة المتنبى فهى فى مديح سيف الدولة، بعد أن نهض إليه، وخلع عليه ، ويذكر فيها غاراته على الروم . وأما لامية الطغرائى فكانت بعد أزمته وخروجه من الوزارة وعطله .

والمهذب يلمُّ فى قصيدته بمضمون قصيدتى الشاعرين الكبيرين السابقين ، وقد ربط بينه وبينهما تشابه المواقف ، والأحاسيس ، وجارى الوزن والقافية .

وقصيدة المهذب لا تقل عن لاميتى الشاعرين صياغة ورصانة ، وإبداع معانٍ ، وصدق أحاسيس . وقد أجرى المهذب فى قصيدته بعض ألفاظ القصيدتين ، ومعانيهما . ولعله من أجل هذا ألمح العماد فى تعليقه على القصيدة الذى سبق ذكره .

ومن فرائد المهذّب فى المديح ووصف المعارك ، عن ذكر الأسطول المصرى ووقائعه فى ثغور الصليبيين بالشام قوله :

أَعَلِمْتَ حين تجاور الحيَّانِ	أنّ القلوبَ مواقِدُ النيرانِ
وعَرَفتَ أن صُدُورنَا قد أصبحتْ	فى القومِ وهىَ مرابِضُ الغزلانِ
وعيوننا عوض العيونِ أمدُّها	ما غادَرُوا فيها من الغُدْرانِ
ما الوَخْدُ هزَّ قبابَهُمْ بل هزَّها	قلبى عشيَّةَ سارَ فى الأظعانِ
وبمهجتى قمرٌ إذا ما لاحَ للسَّـ	ـارِى تضاءَلَ دونَه القَمرانِ
قد بانَ للعُشَّاق أن قوامَه	سرقت شمائِلَهُ غصُونَ البانِ
وأراك غُصنًا فى النَعيمِ يَميـلُ إذْ	غُصْنُ الأراكِ يميدُ فى نعمانِ
للرّمحِ نصْلٌ واحِدٌ ولقَـدِّهِ	مِن ناظريه إذا رَنَا نصْلانِ
والسيفُ ليسَ له سِوَى جفنٍ وقدْ	أضْحَى لصارِمِ طرفِهِ جَفْنانِ
والسهمُ تكفى القوسُ فيه وقد غدا	من حاجبيه للحظِهِ قوْسَانِ
ولرُبَّ ليلٍ خِلْتُ خاطِفَ برْقِهِ	ناراً تلَفّحُ فى الدُّجى بِدُخانِ
كالمائِلِ الوسْنَانِ من طولِ السُّرَى	جوزاؤه ، والرَّاقصِ السكرانِ
ما بان فيه من ثريَّاهُ سِوَى	إعجامِها والدَّالِ فى الدَّبرانِ(١)
وترى المجرَّةَ فى النجوم كأنَّها	تسقِى الرياضَ بجدولٍ ملآنِ
لو لم يكنْ نهراً لما عامَتْ به	أبداً نجومُ الحوتِ والسَّرطَانِ

(١) الدبران منزل من منازل القمر .

نادَمْتُ فيه الفرقدينِ كأنني ـــدون الورى ـــ وجَذِيمةُ أخوانِ (١)
وترفَّعت هِممَي فمَا أرْضَى سِوَى شُهْبِ الدُّجى عِوَضاً عن الخِلاّنِ
وأنفتُ حينَ فجعتُ بالأحبابِ أنْ أَلْهو عن الإِخوانِ بالخُوّانِ
واعتضتُ عن جودِ الوزير مواهباً أسْلَت عن الأوطارِ والأوطانِ

يقول فيها :

ما زلزلتْ أرضُ العِدا بل ذاك ما بقلوبِ أهْلِيهَا من الخفقانِ
وأقول إنّ حصونهمْ سجدت لما أوتيت من مُلكٍ ومن سُلْطانِ
والناسُ أجْدَرُ بالسُّجودِ إذا غَدا لِعُلاكَ يسجُدُ شامخُ البُنْيَانِ
ولقد بعثتَ إلى الفرنج كتائباً كالاسدِ حين تصولُ فى خِفَّانِ (٢)
لبسُوا الدُّروعَ ولم تُخَلْ من قبلهمْ أنّ البحارَ تحلّ فى غُدْرانِ
وتَيَمَّمُوا أرضَ العدوّ بقفرةٍ جرداءَ خاليةٍ من السُّكانِ
عشرين يوماً فى المغارِ وليلةً يَسْرِوُن تحت كواكب الخرصانِ (٣)
حتى إذا قطعوا الجفارَ (٤) بجحْفَلٍ هو فى العديد ورملَه سِيَّانِ
أغريْتَهُمْ بحِمى العِدَا فجعلتَهُ بسُطَاكَ بعد العزّ دارَ هوانِ
عَجَّلْتَ فى تلّ العجولِ قِراهُمُ وَهمُ لك الضيفانَ بالذِّيفانِ (٥)
لمَّا أبَوا ما فى الجفانِ قريْتَهُمْ بِصَوارِمٍ سُلّتْ من الأجفانِ
وثللت فى يومِ العريشِ عُروشَهُم بشَبَا ضرابٍ صادقٍ وطعانِ
ألجأتَهُمْ للبحرِ لمَّا أن جَرَى منه ومن دَمِهِمْ معاً بحرانِ
مُدحَ الورى بالبَأسِ إذْ خضبُوا الظُّبَـــا فى يوم حَرْبِهِمُ من الأقرانِ
ولأنت تخضبُ كلّ بحرٍ زَاخِرٍ مِمَّنْ تحارِبَ بالنّجيعِ القانِـى
حتَّى ترى دَمهُمْ وخضْرة مائِهِ كشقائِقٍ نُشِرَتْ على الرَّيحَانِ

وقال يصف الأسطول :

---

(١) جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، كان لتكبره عن الناس لا ينادم إلاّ الفرقدين كما جاء فى الأخبار .
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(٣) الخرصان : الرماح .
(٤) الجفار كانت تطلق على الصحراء بين العريض ومصر .
(٥) الذيفان : السم .

وكأنَّ بحر الرُّوم خُلِّقَ وجهُه وطَفَتْ عليه منابتُ المرجَانِ
ولقدْ أتى الأسْطولَ حِينَ غزا بما لم يأتِ في حِينٍ من الأحْيانِ
أَحْبِبْ إليَّ بها شوانيَ أصبحتْ من فتكها ولها العداةَ شواني(١)
شبَّهْنَ بالغِرْبانِ في ألوانِها وفعَلْنَ فِعْلَ كواسِرِ العِقْبانِ
أوقرتها عُدَدَ القِتالِ فقد غدَتْ فيها القِنا عوضاً عن الأشْطانِ
فأتتْك مُوقَرَةً بِسَبْيٍ بينَهُ أسْرَاهُمُ مغلولةَ الأذقانِ
حربٌ عَوانٌ حكّمتك من العِدا في كلِّ بِكْرٍ عندهُمْ وعَوانِ
وأعدْتَ رُسْلَ ابنَ القَسيمِ(٢) إليه في شعبانَ، كَيْ يتلاءَمَ الشعبانِ
والفألُ يشهَدُ باسمه أن سوف يَغْـ ـدُو الشَّامُ وهو عليكما قسمانِ

ويصف مقتل البرنس — أحد قادة الصَّليبيين — ويصف رأسه على الرمح بمعنى بديع — كقول العماد :

قتلَ البرنْسَ ومن عساهُ أعانهُ لمَّا عتا في البغْيِ والعُدْوانِ
وأرَى البَرِيَّةَ حينَ عَادَ برأسِهِ مُرَّ الجنَى يَبْدُو على المُرّانِ(٣)
وتعجَّبُوا من زرقةٍ في طَرْفِهِ وكأنّ فوقَ الرُّمح نصْلاً ثاني
فليهْنِهِ أن فاز منك بسيِّدٍ أوفى برتبتهِ على كيوانِ(٤)
قد صَاغَ من أرماحِهِ لمسامِعِ الأمْـ ـلاكِ أقراطاً من الخرصَانِ
والخيلَ تعلَمُ في الكريهة أنه قد خطَّ هيكلها على الفرسانِ
عجباً لجود يديه إذ يَبْني العُلا والسَّيْلُ يهدِمُ ثابتَ الأرْكانِ

وغزل المهذب في معظمه نسيبٌ بدوى الطابع والروح يعمد فيه إلى العود للنموذج الجاهلي فيقول من رائية رقيقة — على بداوتِها :

همْ نُصْبُ عيني، أنجدُوا أو غَاروا ومُنَى فؤادِي، أنصفوا أو جارُوا
وهم مكانَ السرّ في قلبِي وإنْ بَعُدَتْ نوًى بهم وشطَّ مزارُ
فارقتهم ، وكأنهم في ناظِري مما تمثّلهُم لي الأفكارُ

(١) الشواني الأول نوع من السُّفن الحربية في زمانهم ، والثانية من شنأ أي حاقدون .
(٢) يعني بابن القسيم نور الدين محمود صاحب دمشق يومئذ .
(٣) المرّان الرماح .
(٤) كيوان هو نجم زحل عند العرب ويمثلون به في البعد .

تركوا المنازل والدّيار فما لهم إلا القلوب منازلٌ وديارُ
واستوطَنُوا البيدَ القفارَ فأصبحتْ منهم دِيَارُ الأنسِ وهى قِفارُ
فلئِنْ غَدَتْ مصرٌ قلاةً بعدهُمْ فلهم بأجوازِ الفَلا أمصارُ
أو جاوروا نجداً فلى من بَعْدِهم جاران : فَيْضُ الدَّمعِ والتذكارُ
ألفوا , مواصَلَةَ الفلَا والبيدِ مُذْ هجرتْهم الأوطانَ والأوْطارُ
بقلائصٍ مثلِ الأهِلّةِ عندما تبدُو ، ولكن فوقَها أقمارُ
وكأنَّما الآفاقَ طرّاً أقسَمتْ ألا يقرَّ لهم عليهِ قَرَارُ
والدَّهرُ ليلٌ مُذْ تناءَت دَارُهم عَنّى، وهل بعد النهارِ نهارُ ؟

ويقول فيها :

أمنازِلَ الأحباب غيَّرك البِلَى فلنا اعتبارٌ فيك واستِعْبارُ
سَقْياً لدهرٍ كان منكِ تشابهَتْ أوقاته فجميعه أسحَارُ
قصرتْ لى الأعوام فيه فمذ نأوا طالتْ بى الأيام وهى قصارُ
يا دهْرُ لا يَغْرُرْكَ ضعف تجلّدى إنّى على غيرِ الهوى صَبَّارُ

وله فى الوصف شعر جيد ، وما صور فيه بعض ملاهي عَصره من راقصاتٍ ، ومغنياتٍ ومجالس خمر وشراب . فيقول ؛ وقد أبدع وصف الشموع :

حَجَجْنَا بها كعبةً للسُّرور تَرانا نمسّحُ أركانَها
فطوراً أعانِق أغصانها وطوراً أنادم غزلانَها
على عَاتِقٍ إن خبتْ شمسُنَا فضضْنَا عن الشمْسِ أدنانها
وإن ظهرت لكَ محجُوبَةً قرأتَ بأنفِكَ عنوانَها
كميتٌ من الراجِ لكنَّما جعلنا من الرُّوحِ فرسَانِها
يطوف بها بابلىُّ الجفونِ تفضّحُ خداهُ ألوانَها
بكأسٍ إذا ما علاها المزاجُ أحال إلى التبْرِ مُرجَانَها
كأنَّ الحبابَ وقد قلّدته دُرٌّ يُفصّلُ عقيانِها
وراقصةٍ رقصُها لِلّحُونِ عَروضٌ تُقيِّدُ أوزانَها
ولمَّا طَوى الليلُ ثوبَ النهارِ وجرَّت دياجيه أردَانَها
جلوتَا عرائِس مثل اللّجيْنِ صنعنا من النارِ تيجانَها

وصاغتْ مدامعها حِلْيةً عَليها توشحُ جُثمانَها
رماحاً من الشَّمع تجلو الدُّجى إذا صقَلَ الليلَ خُرصَانُها
بها ما بأفئدة العاشقين فليست تفارق نِيرانُها
وقد أشبهت رقباءَ الحبيب فما يدخُل الغمضُ أجفَانُها
وفيها دليلٌ بأنَّ النُفوُ سَ تبقى وتَذهبُ أبدانُها

ومن قوله فى الشمعة كذلك :

ومُصْفرةٍ لا عن هوًى غير أنَّها تحوزُ صِفَاتِ المستَهام المعذَّبِ
شجوناوسقماً، واصطباراًوأدمعاً وخفقاً وتسهيداً، وفرطَ تَلَهُّبِ
إذاجمشتها الريحُ كانت كمعصمٍ يردُّ سَلاماً بالبَنان المخضَّبِ

وذكر العماد أن من أوصافه فى الخمر ما سار واشتهر وهو قوله :

فبتُّ منها أرى النار التى سجدتْ لها المجوسُ من الإبريقِ تَسْجُدُ لِى
راحٌ إذا سفَكَ النَّدمانُ من دَمِها ظلَّتْ تقهقِهُ فى الكاساتِ من جذلِ
فقلْ لمن لام فيها إننى كلِفٌ مُغْرًى بها فعل ما أغريتَ بالعذَلِ

وهو فى الوصف ذو خيال محلِّق يجتلب الصور الغريبة غير المألوفة فيما جرت عليه المعانى كتلك الصور والأخيلة الكثيرة التى مرت بنا فى مدائحه، وغزله، ووصفه مجالس اللهو والشراب ومن غرائبها صورة الشموع والخمر ! فهى على غير مثالٍ سابق . وتحسب من إبداعاته .

وشاعريةُ المهذب كما شاهدنا دافقةٌ ، فطول النفس ، وانسياب القول فى سلاسة دون تعقيد ولا تكلف . ولا يُعدُّ من أصحاب الصنعة ، وإن اتفق فى شعره ألوان من صبغ البديع ، فهو قد يستخدم الجناس حليةً ، وافتناناً فى عرض المعنى ، وقريب منه التوشيح ، وهو البدء بلفظ وختام البيت باللفظ نفسه أو مشتقه وجنسه . وهو ضرب من الرباط اللفظى ، يوفر النسق الصوتى ، والأحكام المعنوى . ومن هنا سمّى توشيحا لأنه يضم بالصَّوت أفراد المعنى ، كما يضم الوشاح أعضاء الجسم .

ومن أمثلة جناسه فى آخر البيت :

قصرتُ على شكرها منطقاً رطيبَ اللّسانِ ندىَّ النَّدى

ولعله اقتفى آثار أبي تمام في صنعة الجناس هذه كما قلنا .

ومن صوره البديعية ومعانيه الطريفة قوله :

وليلةٍ كاغتماضِ الطَّرفِ قَصَّرها	وصلُ الحبيب، ولم تُقْصِرْ من الأمَلِ
بتنا يُجاذِبُ أهدابَ الظَّلام بها	كفُّ الملامِ وذكر الصدِّ والمَلَلِ
وكلّما رام نُطقاً في مُعَاتَبتي	سدَدْتُ فاهُ بطيب اللثم والقُبَلِ
وباتَ بدرُ تمام الحسن معتنقِي	والشمسُ في فلكِ الكاساتِ لم تَفِلِ

ويجمع قاموس شعره بين ألفاظ الشعر القديم ، ومحدث اللفظ ، ويجرى فيه بعض اسماء النجوم ، والأحجار الكريمة ، ومصطلح العلوم كالكيمياء وغيرها .

وتتنوع أوزان الشعر في ديوانه ، فهو لم يؤثر وزناً على آخر ، وينظم في مجزوءات البحور كغيره أحيانا في مقطعاته أو بعض موضوعات الغزل واللهو والخمر .

وقوافيه محكمة غالباً ، وقد تَنِدُّ منه أحيانًا إذا طالت القصيدة بعض القوافي ، فتأتى قلقة في موضعها ، أو غير مناسبة . ويعمد أحيانا إلى الضرورة فيتحول اللفظ ، أو يأتى به على غير اشتقاقه المعتاد . كما قد يغرب أحيانا في اختيار اللفظ إذا اضطره الوزن .

ويوفر غالباً لنظمه سلاسة الايقاع ، بمراعاة النسق بين أصوات الحروف ومخارجها ، وهو يجمع بين جزالة الصوت ، ورصانة البناء ، والرقّة كل في ما يناسبه من المعاني .

ــ ٥ ــ

عمارة اليمنى[١]

(ت ٥١٥ هـ ــ ٥٦٩ هـ)

وهو عمارة بن على بن زيدان الفقيه .

أصله من زبيد أو مرطان باليمن ، ولد بها سنة ٥١٥ هـ ، وبه تفقه ، ودرس ، وكان شافعى المذهب ، خرج من بلده اليمن سنة ٥٤٩ هـ قاصداً الحج ، ومكث فى مكة زمناً اتصل فيها بأميرها قاسم بن هاشم ، وبعثه هذا رسولاً إلى الخليفة الفاطمى الفائز بالقاهرة .

ونشأ نشأة دينية فى مكانٍ من أماكن اليمن الممرعة يدعى وادى وساع . قال فى النكت «بها المولد والمربى، وأهلها بقية العرب فى تهامة لأنهم لا يساكنهم حضرىٌّ ، ولا يناكحونه ، ولا يُجيزُونَ شهادته .. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » .

وكانت أسرة عمارة أسرة سيادة بين قومه ، فقد كان والده سيدهم بعد وفاة عمه وخاله ، وكانا كذلك من السادة .

قال : « وتماسكت أحوال الناس بوالدى إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩ هـ) وفيها أدركت الحلم . قال وخرجت عنها ــ أى عن بلده ــ سنة ٥٣٠ هـ ونحن أحسن الناس حالاً وفينا بعض التماسك بسبب مالٍ كانت والدتى ورثته عن أبيها »[١] .

ويقول : « وفى سنة إحدى وثلاثين دفعت لى والدتى مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لى أبى أربعمائة دينار وسبعين ، وذهبت بالمال إلى زبيد » .

ونصحه والداه بأن يتصل فى زبيد بالوزير ، ويُنفق المال على نفسه لاصلاح حاله وقال له : لا ترجع حتى تفلح ، فقد احتسبناك عند الله وصبرنا عنك .

قال : « فانزلنى الوزير مسلمٌ فى داره مع أولاده » .

(١) راجع ترجمته فى الخريدة شعراء مصر ٣ /١٠١ ، وفيات الأعيان ٣ /٤٣١ ، فوات الوفيات مرآة الزمان ٨ /٣٠٢ ، وحسن المحاضرة ١ /٤٠٥ ، النكت العصرية .

(٢) النكت العصرية ص ٢١ .

ولازم فى زبيد الطلب ، وظل أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا للصلاة يوم الجمعة وفى السنة الخامسة زار والديه ، ورد المصوغ إلى والدته ، فلم يحتَجْ إليه .

وفى زبيد تلقى أصول الفقه الشافعى ، والفرائض والمواريث .

قال : « ولى فى الفرائض مُصَنَّف يُقرأ فى اليمن » .

وفى سنة ٥٣٩ هـ زاره والده وخمسة من أخوته بزبيد ، فانشده شيئاً من شعره . فاستحسنه ، وكانت سنة أربعاً وعشرين سنة . وقال له أبوه بعد سماع شعره : تعلّمْ والله أنّ الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفَرها بذمّ الناس . قال : واستحلفنى ألاّ أهجو مسلماً قط ببيت شعر ، فحلفت على ذلك ، ولطف الله بى فلم أهجُ أحداً والله المحمود ، ماعدا إنسان هجانى بحضرة الملك الصالح (طلائع) ببيتَىْ شعر ، فأقسم الصالحُ علىَّ أن أجيبه ففعلت »(١) .

وعرفنا أن الصالح بن رزّيك كان يغرى الشعراء بعضهم ببعض فى مجلسه .

وخرج عمارة من زبيد إلى مكة كما قلنا حيث أرسله أميرها فى سفارة إلى مصر يقول : « فقدمنا — إلى الدولة المصرية — فى شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزّيك » .

قال : ولما أحضِرتُ للسلام عليهما فى قاعة الذهب فى قصر الخليفةأنشدتُهما قصيدة أولها(٢) :

الحمدُ للعِيسِ بعد العزمِ والهمَمِ — حمداً يَقومُ بما أوْلَتْ من النِّعَمِ
لا أجْحَدُ الحقَّ، عِنْدى للركابِ يَدٌ — تَمنَّتْ اللّجْمُ فيها رُتْبةَ الخطَمِ
قَرّبْن بُعدَ مَزارِ العزِّ من نظرِى — حَتّي رأيت إمام العصْرِ من أمَمِ
ورحتُ من كعبةِ البطحاءِ والحزمِ — وفداً إلى كعبةِ المعروفِ والكرمِ
فهَل درَى البيتُ أنّى بعدَ فُرْقَتِهِ — ما سِرْتُ من حرمٍ إلاّ إلى حَرَمِ

---

(١) النكت ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢—٣٣ .

وذكر أن الصالح أعجب بالقصيدة ، واستعاد انشادها منه مراراً ، والأستاذون ، والكبراء فى المجلس يذهبون فى الاستحسانِ كلّ مذهب . ودفع الصالح له خمسمائة دينار . قال : « وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لى من عند السيدة الشريفة ــ عمة الفائز ــ وبنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى .

قال : وحملتُ المالَ معى إلى منزلى ، وأطلقت لى من دار الضيافة رسومٌ لم تُطلَق لأحد من قبلى . وتَهادتنى أمراءُ الدولة إلى منازلهم للولائم . قال : واستحضرنى الصالح للمجالسة ونظمنى فى سلك أهلِ المؤانسة ، وانثالت علىَّ صلاتُه ، وغمرنى بِرُّه ، ووجدتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى ابن الجبَّاب ، والموفَّق ابن الخلّال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمود بن قادوس ، والمهذّبَ أبا محمدَ الحسنَ بنَ الزبير . وما من هذه الحلبة أحدٌ إلا ويضربُ فى الفضائِل النفسانية ، والرئاسةِ الإنسانية بأوفر نصيب .

وبعد أن مكث فى صحبة ابن رزيك بقية عام ٥٥٠ هـ غادر مصر إلى مكة فى أُخريات السنة إلى مكة، فعدن باليمن، ثم عاد من اليمن إلى مكة مرة أخرى. وعبر إلى مصر ، فتوقف بقوص ، ويبدو أن عبوره كان عن طريق جدة عيذاب عبر البحر الأحمر .

ومكث بقوص زمنا ، وكانت آنذاك عامرةً بالعلم والعلماء . ورحل من قوص إلى الفسطاط وأذن له الملك الصالح بالمثول مرة أخرى بحضرته .

وكان ابن رزيك فيما يرويه عمارة قد غضب عليه لتأخره عنه ، وبرر ذلك عمارة بأنّ الحجاج المصريين نهبوا ذلك العام بالحجاز بواسطة أمير مكة ، فظن الصّالح أنّ عمارة كان يعلم بذلك إلاّ أنه اعتذر بأن لا علم له ولا دخل فيما حدث . وأنشد ابن رزّيك قصيدة يَبرأ فيها مما ظَنَّ به .

وكان مما أغضب الصالح منه ما نقل عن عمارة أنه طعن فى مذهب الإمامية .

ومما استعطفه به قبل أن يصفح عنه قوله فى بيتين بعث بهما من قوص :

ولى تحت، دَارِ الملكِ يومانِ لم تَلُحْ	لعينى علاماتُ الكرامةِ والبِشْرُ
وقد أخذتْ أيامِ قوصٍ نصيبَها	فهل نُقِلَتْ تلك السجايا إلى مِصْرِ

قال عمارة : فخرج أمره بانزالى وإكرامى . وإيصالى إليه . فأنشدته عند السلام عليه قصيدة أصف فيها وقعة العريش مع الإفرنج ، وأشرت فيها إلى البراءة مما نُسِبَ إلىَّ من القول فى مذهبه منها :

فاعلم وأنت بما أريدُ مقالَهُ — منّى ومن كلِّ البريَّةِ أعلمُ
أنّى حُسِدْتُ على مقالتِكَ التى — من أجْلِها فى كلِّ أرضٍ أكرمُ
وبدونِ ما أسديته من نعمةٍ — سَدَّى الرِّجالُ الحاسِدُون وألحمُوا
إن كانَ ما قالوا، وليسَ بكائِنٍ — فأنا امرؤٌ ممَّن سَعَى بى آلأمُ
غَدْرٌ كما اختار الحسُودُ وموقفٌ — ألزَمْتُ نفسِى فيه ما لا يلزمُ
كذبٌ وحقّكَ، لو حلمتُ بذكرِهِ — أقسمتُ أنى بعده لا أحلمُ
راجِعْ جميلَ الرأىِ فىَّ بنظرةٍ — تُضْحِى عَواطفها تسحّ وتَسْجُمُ
فالليلُ إن أقبلتَ صبحٌ مُسفِرٌ — والصُّبحُ إن أعرضْتَ ليلٌ مُظلِمُ
بدأتْ صنائعُكَ الجميلَ ومثلها — بأجلّ من تلك البدايةِ تختَمُ

قال : فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده »[1] .

وعادَ إلى المجلس ، قال وأمرنى الصالح بملازمة الخدمة فى المجالسة ، والمؤاكلةِ والمدح له . وتأكدت الحرمةَ ، وتضاعفتْ المزيَّة والاختصاص . وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذكرات يأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزلٍ عن ذلك لا أنطقُ بحرفٍ واحدٍ ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السمر من ذكر السَّلف ما اعتمدتُ عند ذكره وسماعه قول الله عزَّ وجل (فلا تقعُدْ معهم حتى يخُوضُوا فى حَديثٍ غيرة) . ونهضْتُ فخرجْتُ ، فأدركنى الغِلمانُ ، فقلْتُ : حصاةٌ يعتَادُنِى وجعُها فتركونى ، وانقطعتُ فى منزلى أياماً ثلاثة ، ورسوله كل يومٍ والطبيبُ معه . ثم ركبتُ بالنهار فوجدتُه فى البُستانِ المعروف بالمختصّ فى خلوةٍ من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، وقال : خيراً . فقلت : إنى لم يكنْ بى وجع ، وإنما كرهتُ ما جَرى فى حقّ السَّلف وأنا حاضِر ، فإن أمر السلطان بقطعِ ذلك حضرت ، وإلاَّ فلا ، وكان لى فى الأرض سَعة ، وفى الملوكِ كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر ؟. قلت : أعتقد أنه لولاهُما لم يَبْق الإسلامُ علينا ولا

(١) النكت ص ٤٣

عليكم . وإنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبةٌ عليه ، ثم قرأتُ قوله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسَه) فضحك . وكان مرتاضاً حصيفاً ، قد لقى فى ولايته فقهاءَ السنّة وسمع كلامهم .

وطابت الحياة لعمارة فى رحاب الصالح ، واتصل بكثير من أعيان مصر وأمرائها وكبار رجالها فى حياة طلائع وبعد مقتله .

وممن مدحه من رجال الدولة الموفق ابن الخلّال صاحب ديوان الإنشاء . قال فيه(1) :

ما هاج مزنة دمعه المترقرق إلاّ تألّقُ بارقٍ بالأبـرَقِ
برقٌ يذكّرنى وميضَ مباسمٍ يَسْرِى الهوَى فى ضوئِها المتألّقِ
من كلّ ثغرٍ منك ثغرُ مخافةٍ عافٍ طريقُ رُضابِهِ لم يُطْرَقِ
نسَجَ العفافُ عليهِ ثوبَ صيانةٍ همُّ الخيانة عنده لا يَرْتَقِى
سقياً لأيام الشبابِ فإنها روضُ الحياةِ وزهرها المستنشَقِ
أيام يصطحبُ الغوانى والغِنى فى ظلّ أعضانِ الشباب المُورقِ

وله مدائح كثيرة فى رجال العصر غيره ، ولما استولى صلاح الدين على الحكم ، مدحه بقصيدة طويلة يقول فيها :

أيا أذنَ الأيام إنْ قلْتُ فاسْمَعِى لنفثةِ مصدورٍ وأنّةِ موجَعِ
وعِى كلّ صوتٍ تسمعين نداءَهُ فلا خير فى أذنٍ تُنَادَى فلا تَعِى
تقاصر بى خَطْوُ الزمانِ وبَاعُه فقصَّرَ من ذَرْعِى ، وقصَّر أذْرُعِى
وأخرجنى من موضعٍ كنتُ أهْلَهُ وأنزلنى بالجورِ فى غير موضِعِى
بسيفِ ابن مهدِىّ ، وابناءِ فَاتِكٍ أقضَّ من الأوطانِ جنبى ومضجعِى
تيَمَّمْتُ مصراً أطلُبُ الجاهَ والغِنَى فنِلْتُهما فى ظلِّ عَيشٍ مُمَتَّعِ
وزرْتُ ملوكَ النيلِ أرتادُ نَيْلَهُمْ فأحمدَ مُرتَادِى ، وأخْصَبَ مَرْبعِى
وفُزْتُ بألفٍ من عَطيَّةِ فائزٍ مواهبُه للصُّنعِ لا للتّصنُّعِ
وكم طرقتنى من يدٍ عاضديَّةٍ سَرَتْ بين يقظى من عيونٍ وهُجَّعِ
وجاءَ ابن رزّيكٍ من الجاهِ والغِنى بما زاد عن عزمِى رَجَائِى وَمَطْمَعِى
وأوحى إلى سَمْعِى ودائِعَ شِعْرِهِ فخبَّرتُه منّى بأكرمِ مُودَعِ

(1) الوافى للصفدى ٢٢ /٣٨٨ .

وكان كما قلنا قد تعرف على جماعة من الأعيان ، مدحهم بشعره ، وذكر فى النكت بعضاً ممن مدحهم من هؤلاء ، ومدائحه فيهم ، وما أعطوه من الجوائز. ومن بين هؤلاء الملك العادل رزيك ابن الصالح. وأخوه، وصهره، وضرغام وأهله، وولده، وشاور وابنه طيّ. وكانت له مع كلّ هؤلاء علاقاتٌ، وصلاقات ، وقد أولوه رعايتهم ، وأغرقوه بانعامهم من المال ، والجوارى والمتاع والخيل ، والدور .

وكان من بين ما أهدى إليه دار لأحدهم على الخليج انتقل إليها بعد سكنه أول الأمر بالفسطاط ثم بدار بالقاهرة انتقل إليها بعد مقتل الصالح ، وقد احترقت داره التى على الخليج ، واحترق فيها كثير من متاعه وشعره .

وكان عمارة يخدم بشعره ، وكان له راتبٌ معلومٌ على هذه الخدمة ، فطلب من شاور بعد توليه الوزارة أن يعفيه من الخدمة بالشعر . قال فى النكت :

« ورأيته يوماً وقد انشرح صدرُه ، فقلتُ له إنّ لى مُدةً تنازعنى النفسُ فى الحديث معك فى حاجة ، وقد عزمت أن أقولها لك ، فإنّ قضيْتها ، وإلاّ كنتُ أبليتُ عند نفسى عذراً . قال : وما هى ؟. قلت : تُعفينى من عمل الشعر ، وتنقل الجارى علىَّ على الخدمة راتبا على حكم الضيافة ، فإنى أرى أن التكسُّبَ بالشعر والتظاهر به نقيصة فى حَقّى . قال : فما منعك أن تستعفى فى أيام الصالح وابنه ؟. قلت : كانت لى أسوةٌ وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحباب ، وبابنى الزبير ؛ الرشيد والمهذب . وقدْ انقرض الجيل والنظراء .

قال : تُعفَى . ثم أمر بإنشاء سجلّ بإعفائى ، وأخذ عليه خطّ الخليفة وخطّه بذلك ، فقلتِ أشكره من قصيدة :

تغدو مهابتُه حجاباً دونه ونداهُ عنَّا ليسَ بالمحجوب
سكنتْ محبّتُهُ وهيبة بأسِهِ منَّا سوادَى ناظِرٍ وقلوب .

وكانت خدمته هو وشعراء عصره للخلافة ، والوزراء والكبراء شبه إجبارية لأنهم يتقاضون عليها راتباً . فكان لابدَّ لهم من نظم الشعر فى كل مناسبة ، وكان هؤلاء الرسميون فى الدولة يطمعون منهم فى ذلك ، بل وينتظرونه ، ويجيزون عليه فوق الراتب عطاءً . فالشعراء حينئذ أشبه بالجرائد والصحف اليومية تنشر أنباء الأحداث وأخبار الناس .

ومعظم هذا الشعر الرسمى نظم متكلف متكرر المعانى يخرج بتكلفه عن معنى الشعر والشاعرية . ولا نتوقف منه إلاّ عند بعض الأجزاء التى انطلقت فيها شاعريته عن إحساس صادق تلقائى ، كالشعر الذى قاله يعبر عن علاقات مودة ، أو امتنان أو وصف لما أعجبه ، وأسعده ، أو ذكر لأشجانه وآلامه وشكواه وحسرته ويقع فى هذه الدائرة مراثيه ، وبخاصة لطلائع بن رُزّيك وابنه . وقد كان يكنُّ لهما محبة ، ويدين لهما بالكثير مما وصل إليه من مكانة وغِنًى . ومنه قَولُه عقب مقتل الصالح :

أفى أهلِ ذا النَّادى عليمٌ أسائِلُهْ ... فإنّى لِمَا بى ذاهب اللّبِّ ذاهِلُهْ
سمعتُ حديثاً أحسدُ الصمَّ عندَهُ ... ويذهلُ واعيه ، ويخرسُ قائِلُهْ
فقد رابنى من شاهِدِ الحالِ أنّنِي ... أرَى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأنّى أرى فوقَ الوُجُوهِ كآبَةً ... تدلّ على أن الوجوهَ ثواكِلُهْ
دعونى فما هذا بوقتِ بكائه ... سيأتيكمُ طلّ البكاء وَوَابِلُهْ
ولِمْ لا نُبكّيه ونندُبَ فقدَهُ ... وأولادُنا أيتامُه وأرامِلُهْ
فيا ليتَ شعرِى بعدَ حُسْنِ فعالِه ... وقد غاب عنّا ما به الدّهر فاعِلُهْ

ويقول :

تنكّدَ بعد الصَّالحِ الدّهر فاغتدت ... مجالسُ أيامى وهنَّ غيوبُ
أيجدبُ خدّى من ربيع مدامِعى ... وربعى من نُعْمَى يديهِ خصيبُ
وهل عنده أنّ الدخيل من الجوى ... مقيم بقلبِى ما أقامَ عَسِيبُ
وإن برقتْ سِنّى لذكر حكايةٍ ... فإن فُؤادِى ما حييت كئيبُ

وظل كئيباً بعده ، وان ضحكت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفاطميين . فقد كثر فيها الطامعون واقتتل الأعوان واغتال الخدمُ والأصحاب بعضهم بعضاً . لقد شارك ضِيرغَامٌ فى قتل ابن الصالح ، وكان من أقرب أعوان أبيه طمعاً فى الوزارة ، وقتل ضرغام ، وتولى شاور ، وقتل ابن شاوِر ثم قتل شاور بعد تغلب الغزّ من رجال نور الدين وصلاح الدين .

واضطر عمارة أن يجارىَ الأحداث ، وأن يداهن أحياناً ، لكنه ظلّ على ولائه للفاطميين ولطلائع وابنه وعشيره حتى مقتله بأمر صلاح الدين ، وكان وفاؤه سبباً فى نهايته المؤلمة .

لقد مدح صلاحَ الدين ، ومدح أباه نجم الدين ، وأخاهُ وعشيره ، ومدح نور الدين محمود ، لكنَّ هذا المديح لم يحمل حرارة الصدق ، وإن شارك هؤلاء فى المذهب ، فقد كانوا شافعية سُنّيّة ، وكان هو شافعيًّا سنّياً ، وكان ابن رزّيك إمامياً متعصبا . ومع ذلك فقد كان شعره فيه وفى التحسر على الدولة بعد سقوطها وعزل الخليفة العاضد شعراً صادقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف . وقد ذكر له المؤرخون ذلك وأشادوا به .

قال ابن واصل[1] : « وكان عمارة شديد التعصب لهم ـــ أى الفاطميين ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه ، وتَوَّلوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسانُ كما قيل صَنيعة الإحسان . ولم يكن على مذهبهم ، وإنما كان شافعيًّا سنيا ، فلمَّا زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر ، وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنّه الذبُّ عنهم باليد . ثم لمَّا تحرك جماعةٌ فى عَوْدِ الأمرِ إليهم كان من جملة المساعدين على ذلك شكرا لهم على إحْسانهم إليه ، فأدَّى به ذلك إلى أن شُنِقَ .. فمن جملة قوله فيهم يرثيهم قصيدة ذكرتها بجملتها لفرط حسنها . وهى[2] :

رَمَيْتَ يا دَهْرُ كفَ المجدِ بالشَّلَلِ ... وجيده بعد حُسْنِ الحَلْىِ بالعطَلِ
سَعَيْتَ فى منهج الرَّأىِ العَثُورِ فإن ... قدَرْتَ من عثَراتِ الدَّهرِ فاستقلِ
جدَعْتَ مَارِنَك الأقنى، فانفكَ لا ... يُنفَكُّ بين أمْرِ الشَّيْنِ والخَجَلِ
هدَمتْ قاعدة المعروف عن عَجَلٍ ... سُقيتَ مُهْلاً، أما تمشى على مَهَلِ
لهفى ولهفَ بنى الآمالِ قاطبةً ... على فجيعتِها فى أكرم الدُّوَلِ
قدِمْتُ مصر فأولانى خلائفها ... من المكارم ما أرْبى على أمَلى
قومٌ عرفتُ بهم كسْبَ الألوفِ ومـــنْ ... كمالها أنها جاءَتْ ولمْ أسَلِ
وكنتُ من وزراءِ الدَّستِ حين سَمَا ... رأسُ الحِصَانِ بهاديهِ على الكفلِ
ونِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تكرِمةً ... وخُلّةً حُرِستْ من عارِضِ الخَلَلِ

(١) مفرج الكروب ١ /٢١٢ .
(٢) مفروج الكرب ١ /٢١٢ .

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمةٍ   لكَ الملامةَ إنْ قصَّرتَ في عَذَلي

بالله زرْ ساحةَ القصرينِ وابكِ معي   عليهما، لا على صِفِّينَ والجمَلِ

وقلْ لأهليهما: والله ما التحمتْ   فيكمْ جُرُوحي، ولا قَرحي بمُندمِلِ

ماذا تُرى كانت الإفرنجُ فاعلةً   في نسْلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ عَلِي؟

هل كانَ في الأمرِ شيءٌ غيرُ قسمةِ ما   ملكتُمو بينَ حُكمِ السَّبْيِ والنَّفَلِ

وقد حَصَلْتُمْ عليها واسمُ جدِّكمُ   مُحمَّدٌ، وأبوكمْ خيرُ مُنْتَعِلِ

مَررتُ بالقصرِ، والأركانُ خاليةٌ   من الوفودِ، وكانت قبلَةَ القِبَلِ

فملتُ عنها بوجهٍ، خوفَ مُنْتَقِدٍ   من الأعادي، ووجهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أسبلتُ من أسفٍ دمعي غداةَ خلَتْ   رِحَابُكمْ، وغدتْ مهجورةَ السُّبُلِ

أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكمْ   جالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ

دارُ الضيافةِ كانتْ أُنسَ وافِدِكمْ   واليومَ أوحشُ من رسْمٍ ومن طَلَلِ

وفطرةُ الصَّوْمِ إنْ أصغتْ مكارِمُكمْ   تشكو من الدَّهرِ ضيفاً غيرَ محتَمِلِ

وكِسْوَةُ النَّاسِ في الفصلين قد دَرَسَتْ   ورثَّ منها جديدٌ بعدهُمْ وبَلِي

وموسمٌ كانَ في يومِ الخليجِ لكمْ   يأتي تَجمُّلُكمْ فيه على الجُمَلِ

وأوَّلُ العامِ والعيدينِ كم لكمُ   فيهنَّ من وبلِ جودٍ ليسَ بالوشَلِ

والأرضُ تهتزُّ في يومِ الغَديرِ كما   يهتزُّ ما بينَ قصرَيْكمْ من الأسَلِ

والخيلُ تُعرضُ في وشيٍ وفي شيةٍ   مثلَ العَرائِسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ

ومَا حملتُم قِرى الأضيافِ من سعةِ   الأطباقِ إلاَّ على الأكتافِ والعَجَلِ

وما خَصَصْتُمْ ببرٍّ أهلَ مِلَّتِكمْ   حتَّى عَممتُمْ به الأقصى من المِلَلِ

كانتْ رواتبُكمْ للوافدينَ وللضيـ   ـفِ المقيمِ، وللطارِي من الرُّسُلِ

ثُمَّ الطِّرازُ بتنِّيسَ الذي عَظُمَتْ   منه الصِّلاتُ لأهلِ الأرضِ والدُّوَلِ

وللجوامعِ من أحْباسِكمْ نِعَمٌ   لمنْ تصدَّرَ في عِلْمٍ وفي عَمَلِ

وربَّما عَادتْ الدنيا فمعقِلُها   منكُمْ، وأضحت بكُمْ محلولَةَ العُقَلِ

والله لا فازَ يومَ الحشرِ مبغِضُكمْ   ولا نجا من عَذابِ النَّارِ غيرُ وَلِي

ولا سُقِي الماءَ من حرٍّ ومن ظَمإٍ   من كفِّ خيرِ البرايا خاتمِ الرُّسُلِ

ولا رأى جنَّةَ الله التي خُلِقَتْ   من خانَ عهدَ الإمامِ العاضِدِ بنِ علي

أئمتي وهُدَاتي، والذخيرةُ لي   إذا ارتَهَنْتُ بما قدَّمتُ من عمَلِ

تالله لم أُوفِهِمْ في المدْحِ حقَّهُمُ   لأنَّ فضلَهُم كالوابِلِ الهَطِلِ

ولو تضاعفتْ الأقوالُ واستبقتْ   ما كنتُ فيهمْ بحَمْدِ الله بالخَجِلِ

باب النجاة، فهم، دنيا وآخرة — وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحـ — ـل الغيث إن ونت الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نوراً، فنورهم — من نور خالص نور الله لم يفل
والله لازلت عن حبي لهم أبداً — ما أخر الله لى فى مدة الأجل

قالها عمارة وهو فى دولة معادية قامت بعزل آخر خلفاء الفاطميين، ويعلم أنه سيقتل جزاء قولة الوفاء. وقد ألمح إلى ظلم صلاح الدين للعاضد وابنائه وعشيرته، وما نهب من أموالهم ومتاعهم وفرق على أخوة صلاح الدين وأهله، وبعث بعضه إلى نور الدين.

وهذه القصيدة والقصيدة الأخرى التى مدح بها صلاح الدين أو تظاهر بمدحه والتي ذكرنا منها أبياتاً لم يخلها من غمز ولمز وسماها « شكاية المتظلم، ونكاية المتألم ». يقول فيها ذاكراً فضل الفاطميين ورجالهم، وداعياً صلاح الدين أن يرفق بهم وبمن لاذ بهم فيقول:

ملوك رعوا لى حرمة صار نبتها — هشيماً رعته النائبات وما رعى
وردت بهم شمس العطايا لوفدهم — كما قال قوم فى على ويوشع(١)
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة — وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه — من الحاكم المصغى إلي فأدعى ؟
سكت فقالت ناطقات ضرورتى — إذا حلقات الباب غلقن فاقرع
فأدللت إدلال المحب وقلت ما — أتانى بعفو الطبع لا بالتطبع

وبقوله مخاطبا صلاح الدين :

فيا راعى الإسلام كيف تركتنا — فريقى ضياع من عرايا وجوع
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا — جوابك، فالبارى يجيب إذا دعى

ويقول :

ألم ترعنى للشافعى فإنه — أجل شفيع عند أغلى مشفع
ونصرى له فى حيث لا أنت ناصرى — بضرب صقيلات ولا طعن شرع

---

(١) ويوشع بنى اسرائيل الذى دعا ربه أن يؤخر غروب الشمس

لياليَ لا وقتُ العِراقِ بسَجْسَجٍ   بمصرَ ، ولا ريحُ الشآمِ بزعْزَعِ
كأنِّى بها مِنْ آلِ فرعونَ مؤمنٌ   أصارعُ عن دينى وإنْ خانَ مَصرَعِى

حتى ينتهى إلى هذا الرجاء الذى يطلب إليه فيه أن يحفظ عليه نفسه ، وأن يعامله معاملة كريمة تليق بمكانته ، وألاّ تناله نقمته على الفاطميين .

فيازارعَ الاحسانِ فى كلِّ تربةٍ   ظفرت بأرضٍ تُنبتُ الشكرَ فازرعِ
وقد صورت فى طَىِّ ذا النظْم رقعةً   غدا طمعِى فيها إلى غير مَطمعِ
أريد بها إطلاقَ دَينِى وراتبِى   فاطْلِقْهُمَا والأمر منك فوَقِّعِ

ويختمها بقوله :

إلى ها هنا أنهى حَديثى وانتهِى   وما شئتَ فى حَقِّى من الخير فاصنَعِ

وكان تعليق الصفدى على هذه القصيدة التى تبدو فى ظاهرها مدحاً إلاّ أنه مدح مطوىٌّ على الذمّ ، ورجاءٌ مغلّف بالضيق والهجاء . قال الصفدى[١] : « الذى أظنه وتقضى به ألمعيتى أن هذه القصيدة كانت أحد أسباب شنقهِ ، والله أعلم ، لأنّ الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجهونَ بهذه الألفاظ ، وهذا الإدْلالِ الذى يؤدّى إلى الإذلال . وأظنُّ أن هذه القصيدة ما أجدَتْ شيئاً .

قال الصفدى : فمال عمارة حينئذ وانحرف ، وقصد تغيير الدولة — والله أعلم ، وكان من أمرِهِ ما كان . وعلى الجملة فقَتْلُ مثل هذا الفاضِلِ قبيح من الفاضِلِ إن كان ذلك عن رأيه » .

والصفدى ينتقد صلاح الدين والقاضى الفاضل الذى أشار بقتله ولم يشفع له وقد عرف فضله أكثر من غيره لمعرفته به فى دولة الفاطميين حين كان الفاضل يعمل فى ديوان الإنشاء مع ابن الخلّال .

وهكذا قضى الفقيه الشاعر نحبه مقتولاً مصلوباً جزاء وفائه ، وصراحته .

وشعر عمارة : بعد هذا لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليق ، فهو صورة لحياته ونفسيته ، وسجل لأحداث عصره ، يصوغه متدفقاً ، لا يصنعه ، فآثار الصنعة قليلة به .

(١) الوافى ٢٢ /٣٩٣

ويجرى فيه على النمط الجزل ، لا يلين فى لفظه ، ويبدع أحياناً فى معانيه وإن لم يخرج به عن المعانى التقليدية . وجمال شعر عمارة فى صدقه وانطلاقه وينم عن مقدرته وثقافته ، وسعة اطلاعه .

ومن بديع معانيه التى جدَّد فيها معانى سابقيه قوله :

مَا هاج مزنة دمعه المترقرقِ ... إلا تألّق بارقٍ بالأبرقِ
بَرْقٌ يذكرّنى وميض مباسمٍ ... يسرى الهَوى فى ضوئها المتألقِ
فى كلّ ثغرٍ منك ثغرُ مخافةٍ ... عافٍ ، طريقُ رُضَابه لم يُطرَقِ
نسج العفاف عليه ثوبَ صيانةٍ ... همُّ الخيانةِ عنده لا يرتقِى

وقوله وقد أحال المعنى فى الأطلال بصنعته إلى جديد طريف :

باتَ يرعى السُّهى بطرفٍ مُؤَرَّقْ ... وفؤادٍ من الغرامِ محرَّقْ
ليتَ أيامه السَّوالِفَ يَرْجِعْـ ... ـنَ ، ويجمعنَ طيبَ عيْشٍ مُفرَّقْ
دِمَنٌ أنبتَ الجمالُ ثراهَا ... ورعَى الشوقُ غصنها حين أورقْ
فتح الطّلّ زَهْرَها وتولّى ... نشرةَ راحةَ النسيمِ الذى رَقّْ

والمتتبع لشعره فى أوّله أيام كان فى بلده اليمن أو فى أوليات حياته بمصر ، ثم شعره بعد أن أقام بين المصريين وطالت إقامته، وعايش الحياة فى القاهرة والفسطاط والاسكندرية وشرب من النيل ، وتنقل فى ربوع مصر وخالط أهلها يجد فرقاً بين أوله وآخره ، فقد اكتسب كما قال بعضهم فيمن جاء إلى مصر حلاوة النيل ، ولطفاً ورقة من شمائل المصريين .

— ٦ —

ابن قادوس[١]

محمود بن إسماعيل (ت ٥٥١ هـ)

أبو الفتح من شعراء الصحبة الصالحية ، جلساء ابن رزّيك ، عمل بديوان الإنشاء وكان من كتابه المرموقين ، وقيل إن القاضى الفاضل أخذ عنه .

وأصله من دمياط ، وكان أبوه يعمل بها .

وكان القاضى الفاضل يعظمه ويسميه (ذو البلاغتين) يعنى فى الشعر والنثر قال ابن شاكر : « وكان لا يتمكنُ من اقتباس فوائدهِ غالبا إلاَّ فى ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره ويجاريه فى فنون الإنشاء والأدب » .

وفى شعر ابن قادوس الذى اختاره العماد وابن شاكر يغلب طابع شعر الكتاب ومعظمه مقطعات ، ويدور فى موضوعات الغزل ، والهجاء ، والمديح والوصف من مثل قوله فى الغزل[٢] :

دِيبـاج خدِّيــــه بسندس عارضيه مُفَرْوَزُ
وبخَدِّهِ خالٌ لدا يُرةِ الملاحـةِ مركــزُ

وكقوله :

مَنْ عاذرى من عاذِلٍ يلوم فى حبِّ رَشَا
إذا حجــدت حُبَّـهُ قالَ كفى بالدمع شا

يعنى كفى بالدمع شاهداً ، وهذا ضرب من البديع ابتدعه بعض الشعراء المتأخرين ويقول فى رسالة حبيب :

مِدَاوُةٌ فى الطِرّسِ لمَّا بَدا قبِّلهُ الصَّبُ ومن يزهَدُ
كأنَّما قد حلَّ فيه اللَّمَى أو ذابَ فيه الحجرُ الأَسْوَدُ

ويقول[٣] :

(١) ترجم له العماد بالخريدة قسم شعراء مصر ١ /١٢٧ .
وابن شاكر فى فوات الوفيات ٤ /١٠٠ .
(٢) فوات الوفيات ٤ /١٠١ .
(٣) الخريدة ١ /١٢٨ .

وليلةٍ كاعتماضِ الطَّرف قصَّرها وصْلُ الحبيب، ولم تقْصُرْ عن الأمَلِ
بتنا يُجاذِبُ أطرافَ الظلام بها كفُّ الملام وذكر الصدِّ والمللِ
وكلّما رَامَ نطقًا فى معاتبتى سَدَدْتُ فاه بطيب اللَّثم والقُبَلِ
وبات بدرُ تمام الحسْنِ معتنِقِى والشمسُ فى فلكِ الكاسَات لم تقَلِ[1]

وله قصيدة اختارها العماد فى المديح لعلها فى الأفضل أو طلائع بن رزِّيك ، بدأها متغزلاً غزلاً حضرياً ، لم يذكر فيه الديار ولا الأطلال ، ولا الظعن ، ولم يورد ألفاظاً بدوية مما اعتاده بعض الشعراء ممن ذكرنا من معاصريه ، ينتهى منه إلى المديح ليقول :

يا منْ تساوتْ فى العلا أقسامُه وسما بهمته فكان الأفْضَلاَ
أرضٌ سَعَتْ قدماك فيها لم تَزَلْ لذَوِى الممالِكِ قبْلة ومقبَّلا
ونداكَ كلُّ مؤمِّلٍ ما أمَّلاَ إلاَّ تجهُّم للعفاةِ وأمَّلا
مَلِكٌ يُلاقِى الطَّيف وهو مُدرَّعٌ حزماً ، ويَقْتَنِصُ الفوارِسَ أعْزلاَ

ومن مديحه قوله :

مليكٌ تَذِلُّ الحادثاتُ لِعزِّهِ يُعيدُ ويُبْدِى والليالى زواغِمُ
وكم كربة يوم التزَالِ تكشَّفَتْ بحملاتِه وهى الغواشِى الغواشِمُ
تشيدُ بناءَ الحمدِ والمجْدِ بيضُهُ وهُنَّ لآسَاسِ الهوادِى هوادِمُ
رفاقُ الظُّبا تجرى بآجالِ ذَى الورَى وأرزَاقِهِمْ ، فهى القواسى القَواسِمُ

ومما هجا به الرشيد بن الزبير فى مجلس طلائع قوله :

إن قلتَ من نارٍ خُلقْـــــــــتَ، وفُقْتَ كلَّ النّاسِ فَهْمَا
قلنَا صَدقْتَ فما الَّذِى أطفاكَ حتَّى صِرت فَحْمَا

وقد يُفْحش فى هجائه فيقول فى أحدهم واسمه ابن العلاَّئىّ المعرّى وكان شاعراً :

هذا ابن علاّ نيكُمْ شِعْرُهُ ينوبُ فى الصَّيْف عن الخَيْشِ
إن لم يكنْ مثلَ امْرِىءِ القيس فى أشعاره فهو امرؤ الفيش

ويستخدم التجنيس فى هذه النكتة القبيحة .

(١) سبقت نسبة الأبيات للمهذب ، وربما اختلطت أشعارهما عند الرواة ، وهى بطريقة المهذب أشبه

وقال فى هجاء شاعر :

لو كان يُنصف حين يُنشِـــــــــدُ شِعْرَهُ وسط المَلاَ
صفعوه عِدَّةَ كلِّ حَـرْ فٍ فيه لكـن جُمَّـلاَ

أى ما يساويه كل حرف من حساب الجمَّل .

ومن تطرقه على هذا النحو :

ابن فلانٍ رجلٌ صالحٌ فامتحنوهُ واقبلوا رَائِى
إرموه فى البحرِ لكى تنظروا فإنَّه يمشى على الماءِ

وله فى هجاء رجلٍ كبير الأنف متظرفا :

عليك لا لكَ أنفٌ ظلَّ مشتَرِفَا حتَّى غدا بنجوم الأُفْقِ مُلْتصِقَا
فلا تَقُلْ خلقَةُ اللهِ. ازْدَرَيْتَ بها فقد يُعاذُ به من شَرِّ ما خلقا

فتعجبْ كيف وَظَّف الآية القرآنية فى السخرية من أنف الرجلِ .

وكان يقصد زميله وجليسه الكاتب القاضي الجليس ابن الحباب ، فقد كان معروفاً بكبر انفه مما أغرى بعض الشعراء بالسخرية منه .

القاضى الجليس ابن الجبّاب (ت سنة ٥٦١ هـ)

أبو المعالى عبد العزيز بن حسين بن جبّاب الأغلبى السعدى التميمى من بنى الأغالبة أمراء أفريقية تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفائز مع ابن الخلاّل. وكان من جلساء طلائع بن رزّيك وكان مشهوراً بكبر أنفه مما جعله مادة لتندر الشعراء. وكثيراً ما كان طلائع يُغْريهم به كعادته فى إغراء الشعراء بعضهم ببعض. ولقب بالجليس لمجالسته الخلفاء. والجُبّاب لأنه كان يجلس فى سوقهم (يعنى سوق الجباب).

قال عنه العماد[1] : « جليس صاحب مصر فضله مشهور، وشعره منهور وقد كان أوحد عصره نظماً ونثراً، وترسلاً وشعراً ».

وذكر عمارة أنه ذهب إلى اليمن فى سفارة

قال الصفدى : وسمّى الجليس لأنه كان يعلّم الظافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم والأدب، وكان عادتهم يسمُّون مؤدبهم الجليس.

وشعره كشعر ابن قادوس، وابن الخلّال، غالبه مقطعات كشعر الكُتّاب ويغلب عليه الصنعة ورقة اللفظ. ومن صنعته فى المديح قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم ... تحيض دماءً. والسُّيوف ذكورُ
وأعجب من ذا أنها فى أكفهم ... تأجج ناراً، والأكُفُّ بُحُورُ

ومن شعره المصنوع قوله متهكما بطبيب :

وأصلِ بليتى من قد غَزانى ... من السُّقْمِ الملاحِ بعسكرَيْنِ
طبيبٌ طبُّه كغرابِ بَيْنٍ ... يفرِّقُ بين عاطِفَتِى وبَيْنِى
أتى الحمَّى وقد شاخَتْ وباخَتْ ... فردَّ لها الشباب بنسْختَيْنِ
ودبَّرها بتدبيرٍ لطيفٍ ... حكاهُ عن سُنَيْنٍ أو حُنينِ
وكانتْ نوبةً فى كلِّ يوم ... فصيَّرها بحذقٍ نوْبتينِ

---

(١) ترجمته فى الخريدة ١ /١٨٩ شعراء مصر والنكت العصرية لعمارة، والوافى جـ ١٨ ٤٧٣ فوات الوفيات لابن شاكر ٢٧٨. النجوم الزاهرة د ٢٩٢

(٢) الخريدة ١ /١٨٩

ومن صنعته فى الغزل قوله :

ربَّ بيضٍ سلَلْنَ باللّحظ بيضاً ... مُرْهفاتٍ جفونُهنَّ جُفُونُ
وخدودٍ للدمع فيها خدود ... وعيون قد فاضَ منها عيونُ

وقوله :

حبّذا ميعةُ الشّبابِ التى يُعْـ ... ـذَرُ فى حُبِّها الخَليعُ العِذارِ
إذْ بذاتِ الخِمارِ أمتِعُ ليلى ... وبذات الحِمارِ ألهو نهارِى
والغوانِى لا عَنْ وصالى غوانٍ ... والجوارِى إلى جوارى جَوَارِى

قال العماد : وقال وقد جمع ثمانى تشبيهات فى بيت واحد :

بدا وأرانا منظراً جامعاً لما ... تفرَّق من حسنٍ على الخلق مُونِقَا
أقاحًا ، وراحًا تحت وردٍ ونرجِس ... وليلاً وصبحاً فوق غصن على نقا

لعله أراد ثمانى استعارات ، فالمشبه هنا مطوىٌّ غير مذكور .

وربطت بينه وبعض الشعراء من أصحاب طلائع مودة . ومنهم المهذّب ونقل له العماد أبياتاً كتبهما إليه مع طيبٍ أهداه :

بَعثْتُ عشاءً إلى سيِّدى ... بما هو من خلقه مقتبَسْ
هدِّية كلِّ صحيح الإخاء ... جَرَى منه وِدّك مجرى النَّفَسْ
فَجُدْ بالقبولِ وأيقنْ بأنْ ... لفرْطِ الحياءِ أتَتْ فى الغَلَسْ

كما حدثت بينه وبين بعضهم نفرة ، فقد هجّا عمارة ببيتين يقول فيهما :

وكم فى زبيدٍ من فقيهٍ مُصَدَّر ... وفى صَدْرِه بحرٌ من الجهل مُزْبِدُ
إذاذابَ جسمى من حَرورِ بلادكم ... علقت على أشعاركُمْ أتبرَّدُ

يذم شعر عمارة ، ويصفها بالبرود .

وهجاه بعض الشعراء ومن بينهم من يُسَمَّى ابن الصَّياد ، فقد أغرى بأنفه الكبير وأكثر من السخرية منه . ودافع عنه صاحبه ابن قادوس فقال :

يا من يعيبُ أنوفنا الـ ... ـشُّمَّ التى - ليسَتْ تُعابُ
الأنـف خلقَـةُ رَبِّنـا ... وقرونُك الشُّمُّ اكتسابُ

ونقل العماد شعراً له فى طلائع بمناسبة وقعة عباس وابنه نصر فى مقتل الخليفة الظافر وبعض أخوته وعمّه يستنفره . يقول :

فأينَ بنو رُزِّيكَ عنّا ونصرهم ... وما لهم من منعةٍ وزِيادِ
فلو عاينتْ عيناكَ بالقصرِ يومهم ... ومَصْرَعَهُمْ لم تكتحِلْ برقادِ
تدارَكْ من الإيمان قبلَ دثورِه ... حُشَاشَةَ نفسٍ آذنت بنفادِ
فمزِّق جموعَ المارقين فإنها ... بقايا زروعٍ آذنت بحصادِ

وبعث بشعرٍ له مع خصلات شعر بعض نساء القصر .

ويشير إلى نهوض ابن رزّيك من الصعيد إلى القاهرة لملاقاة عباس وابنه وفرار هذا لعدم قدرته على المواجهة إلى الشام . قال الجليس :

ولمَّا ترامى البربَرى بجهله ... إلى فتكةٍ ما رامها قطُّ رائِمُ
رَكبتَ إليه متن عزمتكِ التى ... بأمثالها تلقَى الخطوبُ العظائِمُ
وقُدْتَ له الجُرْدَ الجِيادَ كأنّما ... قوائِمها عند الطِّرادِ قوادِمُ
وتنصُلُ منها والعجاجُ خِضَابُها ... هوادٍ لأركانِ البلادِ هوادِمُ
تجافت عن الماءِ القَراحِ فريُّها ... دِمَاءُ العِـدَى فهـى الصوادى الصوادِمُ
وقمت بحق الطّالبِيين طالباً ... وغيرِكَ يُغضِى دُونَه ويسالِمُ
أعدْتَ إليهم ملكَهمْ بعدما لوَى ... به غاصِبٌ حقَّ الأمانةِ ظالِمُ
فما غالبٌ إلاَّ ونصرُكَ غالبٌ ... وما هاشِمٌ إلاَّ وسيفك هاشِمُ
فأدْرِكْ بثأرِ الدينِ منه ولم تزلْ ... عن الحقِّ بالبِيضِ الرِّقاقِ تُخاصِمُ

وقال يمدحه :

سُيوفُك لا يُفَلُّ لها غِرارُ ... فنـومُ المارقين بها غِرارُ
يُجَرِّدِهـا إذا أحرِجْتَ سُخطٌ ... على قومٍ ويغمدها اغتفارُ
طريدُك لا يفوتُك منه ثَارٌ ... وخصمك لا يُقَالُ له عِثَارُ

....

فمُرْ يا صالحَ الأملاكِ فينا ... بما تختارُهُ ، فلَكَ الخيارُ
فقد شفعتْ إلى ما تبتغيه ... لك الأقدارُ والفَلكُ المُدارُ
ولو نوتْ النجومُ له خلافاً ... هَوَتْ فى الجوِّ يذروها انتثارُ

وله غزلٌ حضرىٌّ مثل قوله :

زارَ وجنحُ اللّيلِ محلولكٌ داجٍ فجـلاّهُ مُحيّـاهُ
مُلتثِمـاً يُبديـه لألأوُهُ والبدرُ لا يُكتّمُ مَسْراهُ
نمَّ عليه طيبُ أنفاسِهِ كما وشى بالمسْكِ ريّاهُ

وقوله :

قد طرّزت وجناتُه بعذارِهِ فكسَاهُ لونَ الحَزْنِ من أزْهَارِهِ
وتألّفتْ أضدادُه فالماءُ فى خدّيه لا يُطفِى تَلَهُّبَ نارِه
وحكيتُه فمدامِعى تهمِى على نارِ الحشَا، وتزيدُ فى استعارِهِ
وإذا بدا فالقلبُ مشغولٌ بهِ وإذا انثنى فالطّرْفُ فى آثارِهِ
فمتى أعانُ على هواهُ بنصْرَةٍ وجوانحى للحيْنِ من أنصارِهِ

ويجيد فى الوصف بين وصف المعارك ووصف الرياضِ والزهور . يقول فى معركة :

تكادُ من النّقعِ المثارِ كُماتُها تناكَرُ أحياناً ، وإن قرُبَ النَّحْرُ
عَجاجٌ يظلُّ الملتقى منه فى دُجَى وإن لمعت أسيافُه طلَعَ الفَجْرُ
وخيل يلفّ النّشر بالتُّربِ عَدْوُها وقتْلى يعافُ الأكْلَ من هامِها النَّسْرُ

ويصف النرجس فيقولُ :

وفد الربيع على العيونِ بنَرجسٍ يحكِي العُيونَ فقد حَبَاها نَفْسَها
عَلِقتْ على استحسانِه أبصَارُنا شغفاً إذْ الأشياءُ تعشَقُ جِنْسَها
يُلْهِي ويؤْنِسُ من جفاهُ خليلُهُ كم منَّةٍ فى أنسِه من أُنْسِها
فارْضِ الرّياضَ بزورة تلهو بها واحثُثْ على حدَقِ الحدائقِ كأْسَها

ولا نستطيع مما انتقاهُ ابن العماد أن نلم بكلّ ما قالَ الشاعر ولا بأحسن ما قال فنحن نعرض لما اختار من خلال ذوق غير ذوقنا وموقف غير موقفنا ، فللعماد موقف معروف يتكرر من شعراء الفاطميين ، فهو لا يختار من اقوالهم إلا ما يتفق مع عقيدته ولا يتعارض مع أهواء سادته من الأيوبيين أعداء الفاطميين التقليديين . ذلك إلى ميل العماد فى حكمه على الشعر إلى الشعر الذى به صنعة البديع . ونلاحظ على كثير من اختياراته اهتمامه بهذا اللون .

وشعر الكتاب عامة فى هذا العصر لا يخلو من البديع ، وهو من جنس إنشائهم فيه الصنعة ظاهرة . وقد تعلم القاضى الفاضل فى ديوان الإنشاء ، وتأثر بهم ، وحفلت كتاباته بضروب من صنعة البديع ، افتنَّ فيها حتى أعجبت معاصريه ومن بعدهم وكذلك كان شعره من اللون نفسه ، وهو ابن هذه المدرسة نفسها من شعراء كتاب الفاطميين .

مصادر ومراجع

آدم متز :

١ ــ الحضارة العربية فى القرن الرابع ــ ترجمة أبو ريدة ، طبع مصر .

إحسان عباس

٢ ــ الوزير المغربى ــ طبع دار الشروق بعمان ، الأردن سنة ١٩٨٨ م .

أحمد أحمد بدوى

٣ــ الحياة العقلية فى عصر الحروب بمصر والشام ــ طبع نهضة مصر .

الأدفوى :

٣ ــ الطالع السعيد الجامع لأنباء أبناءِ الصعيد ــ تحقيق سعد محمد حسن ، ومراجعة الدكتور طه الحاجرى ، طبع دار الكتب بمصر سنة ١٩٦٦ م .

أبو الفداء :

٤ ــ المختصر فى أخبار البشر ــ طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أحمد أمين :

٥ ــ ظهر الإسلام ــ طبع لجنة التأليف .

إدريس عماد الدين :

٦ ــ عيون الأخبار فى أخبار الفاطميين ــ تحقيق دكتور مصطفى غالب ، طبع دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن الأثير ــ نجم الدين أحمد بن اسماعيل :

٧ ــ جوهر الكنز ــ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، طبع منشأة المعارف بالإسكندرية .

ابن الأثير : عز الدين على

٨ــ الكامل فى التاريخ .

ابن أبى أصيبعة :
٨ ـــ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء

أسامة بن منقذ :
٩ ـــ ديوانه ـــ تحقيق د . حامد عبد المجيد .
١٠ـــ الاعتبار .
١١ـــ المنازل والديار ـــ طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

أمية بن أبى الصلت :
١٢ـــ الرسالة المصرية ـــ تحقيق محمد عبد السلام هارون ـــ مجموعة نوادر المخطوطات .

طبع لجنة التأليف سنة ١٩٥١ م :
١٣ـــ شعره ـــ جمع محمد المرزوق ـــ طبع دار الكتب الشرقية بتونس .

الأمين العاملى : السيد محسن
١٤ـــ أعيان الشيعة ـــ طبع دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الباخرزى :
١٥ـــ دمية القصر وعصرة أهل العصر ـــ طبع مصر .

ابن بسام :
١٦ـــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـــ تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت .

التجيبى :
١٧ـــ المختار من شعر بشار ـــ تحقيق لجنة وطبع لجنة التأليف بالقاهرة .

ابن تغرى بردى :
١٨ـــ النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ـــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .
١٩ـــ المنهل الصافى ـــ طبع دار الكتب المصرية .
٢٠ـــ ألنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ـــ تحقيق د . حسين نصار ، طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

تميم بن المعز :
٢١ــ ديوانه ــ طبع دار الكتب المصرية .

التهامي : علي بن محمد
٢٢ــ ديوانه ــ تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ /١٩٨٢ م .
ديوانه ــ تحقيق رسالة ماجستير مخطوطة ، بإشراف د . محمد زغلول سلام ، كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٧٨ م .

الثعالبي :
٢٣ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الجاحظ : عمرو بن بحر
٢٤ــ البيان والتبيين ــ تحقيق محمد عبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ م .

ابن حجة الحموي :
٢٥ــ ثمرات الأوراق ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٤٠٠ هـ .
٢٦ــ خزانة الأدب ــ طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

حسن إبراهيم حسن :
٢٧ــ تاريخ الدولة الفاطمية ــ طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الحصري القيرواني : إبراهيم بن علي (أبو اسحاق)
٢٨ــ زهر الآداب ــ ضبطه ، دكتور زكي مبارك ، طبع مصر .

حسين نصار (دكتور)
٢٩ــ ظافر الحداد .

ابن حيوس :
٣٠ــ ديوانه ــ تحقيق خليل مردم ، طبع المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥١ م .

داعى الدعاة : هبة الله بن موسى الشيرازى

٣١ــ سيرة المؤيد ــ تحقيق د . محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى بمصر سنة ١٩٤٩ م .

٣٢ــ المجالس المؤيدية ــ تحقيق د . مصطفى غالب ، ط . دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٧٤ م .

ابن دقمــاق

٣٣ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

داعى الدعاة :

٣٣ــ ديوان داعى الدعاة ــ تحقيق د . محمد كامل حسين ، ط . دار الكاتب المصرى سنة ١٩٥٠ م .

الدينورى : أبو حنيفة ــ أحمد بن داود

٣٤ــ الأخبار الطوال ــ تحقيق عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

الرقيق القيروانى :

٣٥ــ تاريخ أفريقيا والمغرب ــ تحقيق المنجى الكعبى ، نشر وطبع تونس .

٣٦ــ قطب السرور فى أوصاف الخمور ــ طبع المجمع العلمى بدمشق .

ابن رشــيق

٣٧ــ الأنموذج فى شعر القيروان ــ طبع تونس .

٣٨ــ العمدة فى الشعر .

ابن سعيد المغربى :

٣٧ــ المغرب ــ الجزء الأول من قسم مصر ــ تحقيق د . زكى محمد حسن ، د. شوقى ضيف ، طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ م .

السيوطى :

٣٨ــ بغية الوعاة ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

٣٩ــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

٤٠ــ تاريخ الخلفاء .

ابن شاكر الكتبي :
٤١ــ عيون التواريخ ــ حـ ١٢ ، تحقيق دكتور فيصل السامر ، ط . العراق سنة ١٩٧٧ م .
٤٢ــ فوات الوفيات ــ تحقيق د . إحسان عباس ، طبع بيروت سنة ١٩٧٣ م .

الشابشتي :
٤٣ــ الديارات ــ طبع دار الكتب بمصر .

الشريف العقيلي :
٤٤ــ ديوانه .

ابن الصيرفي :
٤٥ــ الوزراء المصرية ــ طبع مدبولي بالقاهرة .
٤٦ــ الوزراء المصرية ــ طبعة أوروبية .
٤٧ــ قوانين الدواوين ــ طبع القاهرة .
٤٨ــ قوانين الدواوين ــ طبع مدبولي بالقاهرة .
٤٩ــ الأفضليات ــ تحقيق د . وليد قصاب ، ود . المانع ، طبع دمشق سنة ١٩٨٢ م .

الصوري : عبد المحسن
٥٠ــ ديوانه ــ محقق . طبع بغداد سنة

الصفدي : صلاح الدين
٥١ــ الوافي بالوفيات ــ مجموعة أجزاء ، طبع معهد المستشرقين الألماني .
٥٢ــ الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، طبع بيروت .
٥٣ــ نكت الهميان ــ

طه حسين
مع أبي العلاء في سجنه
طلائع بن رزّيك :
٥٤ــ ديوانه جمع د . أحمد أحمد بدوي ــ ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م .

٥٤ــ ديوانه جمع محمد هادى الأمين ــ نشر المكتبة الأهلية بالنجف بالعراق سنة ١٩٦٤ م .

ابن الطوير :

٥٥ــ نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ــ حققه د . أيمن فؤاد السيد ، طبع بمصر سنة ١٩٩٢ م .

ظافر الحداد :

٥٦ــ ديوانه بتحقيق د . حسين نصار ، طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٩ م .

ابن ظهيرة :

٥٧ــ الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ــ تحقيق مصطفى السقا ، ط . دار الكتب سنة ١٩٦٩ م .

عبد الرحمن ياغى :

٥٨ــ حياة القيروان ــ طبع المكتب الإسلامى بدمشق .

عادل زعيتر (مترجم) :

٥٩ــ نجالى الإسلام .

على إبراهيم أبو زيد

٦٠ــ وسائل ابن أبى الشخباء ــ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩١ .

على بن خلف :

٦٠ــ مواد البيان ــ طبع الجامعة الليبية بطرابلس .

عبد اللطيف حمزة . دكتور :

٦١ــ أدب الحروب الصليبية ــ طبع دار الفكر سنة ١٩٤٨ م .

٦٢ــ الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ــ طبع دار الفكر سنة ١٩٦٨ م .

على بن ظافر :

٦٣ــ بدائع البدائه ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع مكتبة الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٦٤ــ تاريخ الدولة السلجوقية .
٦٥ــ أخبار الدولة الحمدانية ــ تحقيق تمية السروات ــ طبع دار حسان .

عماد الدين الأصبهانى :

٦٥ــ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر ــ طبع القاهرة سنة ١٩٥١ م .
٦٦ــ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام ــ طبع المجمع العلمى بدمشق .
٦٧ــ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب ــ طبع تونس .

أبو العلاء المعرى :

٦٨ــ رسالة الغفران ــ تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٠ م .
٦٩ــ ديوان سقط الزند .
٧٠ــ ديوان اللزوميات .

ابن العماد الحنبلى :

٧١ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

العاملى : بهاء الدين

٧٢ــ الكشكول ــ تحقيق أحمد الزواوى ، طبع الحلبى بالقاهرة سنة

العباسى : عبد الرحيم

٧٣ــ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط . السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ م .

عمارة اليمنى :

٧٤ــ النكت العصرية فى الوزراء المصرية .

الفارقى :

٧٥ــ تاريخ الفارقى ــ تحقيق د . بدوى عبد اللطيف ، ط . دار الكتب اللبنانية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

أبو الفرج الأصبهانى :
٧٦ــ الأغانى طبع دار الكتب المصرية .

القفطى : على بن يوسف
٧٧ــ إثباه الرواة على أنباه النحاة ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
٧٨ــ المحمدون من الشعراء ــ تحقيق رياض مراد ، طبع دمشق سنة ١٩٧٥ م .

القلقشندى :
٧٩ــ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ــ طبع دار الكتب المصرية .

محمد عبد الغنى حسن :
٨٠ــ مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى ــ طبع مصر .

٨١ــ **تميم بن المعز الأمير الشاعر** ــ طبع دار الرفاعى بالرياض سنة ١٩٨٠ .

محمد كامل حسين :
٨١ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧١ م .

محمد عبد الله عنان :
٨٢ــ الحياة الفكرية فى مصر حتى آخر الدولة الفاطمية ــ طبع النهضة العربية .

محمد عبد الحميد سالم . دكتور
٨٢ــ شعر المهذب ــ تحقيق ودراسة ، طبع دار هجر بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .
٨٤ــ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ــ نشر الخانجى سنة ١٩٨٣ .

المقريزى :
الخطط :
٨٣ــ البيان والإعراب ــ تحقيق د . عبد المجيد عابدين ، طبع القاهرة سنة ١٩٦١ م .
٨٤ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ــ تحقيق ونشر د . جمال .

٨٥ــ كتاب النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم ـــ تحقيق د. حسين مؤنس ــ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠ .
٨٥ــ الدين الشيال ـــ ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ م .

المقدسى : شهاب الدين

٨٦ــ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ــ تحقيق د . محمد حلمى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

محمد مصطفى رضوان :

٨٧ــ المهذب بن الزبير حياته وشعره ــ طبع دار الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

المحاسبى :

٨٨ــ أخبار مصر فى سنين ــ طبع المجمع العلمى .

المسبحى :

٨٩ــ أخبار مصر ـــ تحقيق وليم ميلورد ، طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

المقرى :

٩٠ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـــ تحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م .

النويـــري :

٩١ــ نهاية الأدب ـــ طبع دار الكتب المصرية . .

النعمان القاضى : (مترجم) .

٩٢ــ دعائم الإسلام ـــ تحقيق آصف فيظى ، نشر دار المعارف بمصر .

ابن هانىء :

٩٣ــ ديوانه ـــ طبع بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد

٩٤ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـــ تحقيق د . جمال الدين الشّيال طبع مصر سنة ١٩٥٣ م .

الوطواط :

٩٥ـــ مناهج الفكر ومباهج العبر ـــ تحقيق عبد العال الشامى ، طبع الكويت سنة ١٩٨١ م .

اليافعى :

٩٦ـــ مرآة الزمان ـــ جـ ٣ ، طبع بيروت .

ياقوت الحموى :

٩٧ـــ معجم الأدباء .

٩٨ـــ معجم البلدان .

Lane Poole: History Of Egypt In Middle Ages.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة